بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

تشوير السور القرآنية (2)

بصائر المعرفة القرآنية (9)

مفصل تفسير

سورة البقرة

الزهراء الأولى

(موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الأول

تفسير وبصائر الآيات (١-٢٠)

القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإدارة العالم

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية ®
نحو أسرة عربية واعية ..

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مُفصَّل

سورة البقرة

الزهراء الأولى

الجزء الأول

MUFASAL TAFSİR SWRT ALBAQARA

Prof. Dr.
Abdulsalam Al Majidi

1. BASKI: İSTANBUL
2023 - 1444

مفصّل تفسير

سورة البقرة

الزهراء الأولى

(موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الجزء الأول

تفسير وبصائر الآيات (١-٢٠)

القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإدارة العالم

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة/ جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية ®

نحو أسرة عربية واعية ..

مُفصَّل تَفسِير

سُورَةُ البَقَرَة

الجزءُ الأوّل

الأستاذ الدكتور

عبدالسلام مقبل المجيدي

التحرير والتدقيق

أ.د. سعيد بن دحباج - د. حمود ردمان

الشيخ عزيز الخميسي - أ. أميرة ردمان

وقام بتحكيم الكتاب بعض الدكاترة المتخصصين

القياس: 17x24 سم

عدد الصفحات: 768 ص

ISBN: 978-625-8063-32-5

الطبعة الأولى

2023 - 1444

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مكتبة الأسرة العربية ®

نحو أسرة عربية واعية ..

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Enes Basın Matbaacılık Ltd. Şti. Litros Yolu Fatih San. Sit. No: 12/210 - Topkapı / İstanbul

مُقَدِّمَة

الحمد لله الَّذي سَبَّحَ له مَا فِي السموات والأَرضِ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢-٣].

عَنَتِ الوُجُوهُ لنور وجهِهِ، وعَجَزتِ القلوبُ عن إدراك كُنْهِهِ، ودلَّتِ الفِطَرُ والنواميس كلُّها على امتناع مِثْلِهِ وشِبْهِهِ. أشرقت لنُورِ وَجهِهِ الظُّلماتُ، واستنارت له الأرضُ والسَّمَواتُ، وسَعِدَتْ بشَرْعِهِ وحُكْمِهِ جميعُ المخلوقاتِ.

أَحْمَده حَمْدَ مَنْ بجزيل نِعَمِهِ اعْترف، وأشكره شُكْرَ مَنْ وَرَدَ مَنَاهِلَ فَضلِه واغْتَرَف.

وأُصلِّي وأسلِّمُ على محمد ﷺ رسولِهِ الخليلِ المجتبى، والسراجِ المنيرِ المرتضى، والشفيعِ المُرْتَجى، وعلى آله وصحبه المعتصمين بحَبْلِهِ وعَهْدِهِ، والتابعين لهم على سواء السبيل وقَصْدِهِ.

وبعد:

فهذا هو الجزء الأَوَّلُ من مُفَصَّلِ تفسير سورة البقرة وبصائرِها يشتمل على كوكبين دُرِّيَّيْنِ:

الكَوكَبُ الدُّرِّيُّ الأَوَّلُ: المُقَدِّماتُ التعريفيَّةُ المُحَرَّرَةُ لهذه السُّورة المباركة المُنَوَّرَةِ، وهي المُقَدِّماتُ التي تَهْدِي إلى تحديد الموضوع الكُلِّيِّ للسُّورة، وقد لبثتُ مَلِيًّا أتَدَبَّرُ كلامَ ربِّي ﷻ في هذه السُّورة، متطلِّبًا أسرارها، مُسْتمطرًا من الرَّبِّ الفتَّاح الكريم بصائرَها وأنوارَها، ورأسُ ذلك إعمالُ آلاتِ التَّدبُّرِ، وإيقاظُ مَلَكَاتِ التَّفكُّرِ، ثم الرجوع إلى البُنيانِ المُشَيَّدِ الذي أنشأه علماؤنا الأوائلُ لا للاعتكافِ عليه ، بل لتنقيحِهِ والبناءِ عليه، وصَحِبَ ذلك اعتكافٌ

وانكفافٌ: اعتكافٌ على كلامِ الله ﷻ ووقوفٌ بأعتابِه، وانكفافٌ عن الأَغْيَار والشَّوَاغِلِ الصَّارفةِ قَدْرَ الإمكان، وهناك ترى غيثَ الهُدى، وجمالَ انصبابه.

وكان ضمنَ مراحلِ تحريرِ هذا التَّفسير ما يُكْرِمُني به العَلِّيُّ الكَبيرُ عند التَّدريسِ والمُدَارَسَةِ مع فِئامٍ من أولي الألباب، وثُلَّةٍ ممَّن مُلِئَتْ أرواحُهم شَغَفًا بحُبِّ آيِ الكتاب، وفاضَتْ كُؤُوسُ مَحَبَّتِهم لكلام العزيزِ الوهَّابِ، فمِنْ دَوْرَةٍ عِلْمِيَّةٍ هنا، ومُلتقياتٍ للتَّدبُّرِ والتَّدارُسِ هناك.

وحَالِي وأنا أبحثُ عن مُرَاد الله ﷻ في آياتِهِ مُتَنقِّلًا في قِطَعٍ من الأرض مُتَجاورات، وجَنَّاتٍ مُعْشِبَاتٍ كحال عَالِمِ الأرضِ الكبيرِ مُحَمَّدِ بن إبراهيم الوَزير رحمه الله حين قال:

فَحِينًا بِطَوْدٍ تُمْطِرُ السُّحْبُ دُونَهُ ... أَشَمَّ مُنِيفٍ بالغَمامِ مُؤَزَّرُ
وَحِينًا بِشِعْبِ بَطْنِ وَادٍ كأنَّهُ ... حَشَا قَلَمٍ تُمْسِي به الطَّيْرُ تَصْفِرُ
هُنَالِكَ يصْفُو لِي مِنَ العَيشِ وِرْدُهُ ... وإلا فَوِرْدُ العَيْشِ رَنْقٌ مُكَدَّرُ
فإنْ يَبِسَتْ ثَمَّ المَرَاعِي وأَجْدَبَتْ ... فَرَوْضُ العُلَا والعِلْمِ والدِّينِ أخْضَرُ
فَقَدْ هَاجَرَ المُخْتَارُ قَبْلِي وَصحْبُهُ ... وفَرَّ إلى أَرْضِ النَّجَاشِيِّ جعفَرُ[١]

وأنا في كلِّ ذلك أتدَبَّرُ كلماتِ الكِتاب، وأُثَافِنُ مُدَارِسًا الأَخِلَّاءَ والأَصْحاب، وأُنَقِّبُ في بصائرِ القرآنِ المَجيدِ عن ما هو أحسنُ تأويلًا وخَيْرُ مَآب، فاقْتَصَرْتُ على سِتَّةِ مَقَاييس يمكن أن تُوصِلَنا إلى الموضوع الكُلِّيِّ للسُّورةِ القُرْآنيَّةِ، وكان ذلك عند تحرير تلك المُقَدِّمات، ولكنني الآن أَوْصَلْتُها إلى عَشْرَةٍ عند تحرير هذه الكلمات، وعلى هُدَى تلك المقاييسِ، خَلَصْتُ بفضلٍ مِنَ الله المُسْتَعان، وبما أفاضَ به من لَطائفِ الإحسانِ إلى أنَّ الموضوعَ الكُلِّيَّ

---

(١) العواصم والقواصم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم (١/ ٦٧).

الذي تدور حَوْلَهُ هذه السُّورةُ المباركةُ هو: **"إِشْرَاقُ الحَضَارةِ الإِسْلامِيَّةِ على العَالَمِ، والإِفَادةُ مِنْ تَجْرِبَةِ الاسْتِخْلَافِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ"**.

وإنني والله لأَعجزُ أن أُعَبِّرَ لك عن هيمنةِ الأنوارِ القرآنيَّةِ على نَفْسي التي تَهْتَزُّ بما تَصِلُ إليه فَرَحًا وسُرُورًا، وأَتَقاصَرُ عن أَنْ أُصَوِّرَ مدى شُعُوري حينما أرى كُنُوزَ الآياتِ تَمْلأُ جَسَدِي ضِياءً ونورًا، وشَأْنُها كما قال ابن القيم ﷺ: "كُلَمَّا ازْدَادَتِ البَصَائِرُ فيه تَأَمُّلًا وتَفْكِيرًا زَادَها هِدَايَةً وتَبْصِيرًا، وكُلَمَّا بَجَّسْتَ مَعِينَهُ فَجَّرَ لها يَنابِيعَ الحِكْمَةِ تَفْجِيرًا"[١].

الكَوكَبُ الدُّرِّيُّ الثَّانِي: بصائر تفسيرِ مُقَدِّمَة هذه السورة (الزهراء الأولى) التي امْتَدَّتْ في الآيات [١-٢٠]، وقُمْتُ بتقسيمِها إلى مُقَدِّمَتَينِ تُمَثِّلانِ البِدَايَةَ الضَّخمَةَ لهذه السُّورةِ العظيمةِ التي يَقْدُرُ قَدْرَها الكَمَلَةُ، ولا يَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ، ولا ينالُ ثِمارَها اليَانِعةَ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُم.

وفي هذينِ الكَوكَبَينِ الدُّرِّيَّينِ ترى السُّورةَ تَمْتَلِئُ بحدائقَ ذاتِ بَهْجَةٍ، وتَسْمَعُ لقَلْبِكَ مع جلالها خَفْقَةً ورَجَّةً، وتَغْشَاك من أنورها أنوارٌ يكادُ سَنَاها يَذْهَبُ بالأَبْصارِ، وهي التي تُمَثِّلُ الفَجْرَ الجديدَ الذي سيشرقُ على العالَمِ من المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ.

هذا الجَزْءُ أَوَّلُ أجزاءِ مُفَصَّلِ تفسيرِ سُورةِ البقرة وبَصَائِرِها، وسُورةُ البقرة تُمَثِّلُ حاضِرَ المُسْلِمِ ومُستقبَلَهُ في الدُّنيا والآخرة، فهي التي أشرق بها القرآنُ على العَالَمِ في بدايةِ تأسيس النُّورِ الإسلاميِّ في المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وهي التي ننتظرُ شَرَفَها وظِلَّها في الدّنيا ويوم يبعثون.

وجَزَى اللهُ خيرًا الفريقَ المُباركَ من المُرَاجِعِينَ، والمُحَكَّمِينَ، والمُصَمِّمِينَ، ورَفَعَهُم عِنْدَهُ مَكَانًا عَلِيًّا.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧).

اللهمَّ يا مَنْ هو الله لا إله إلا هو عالمُ الغَيبِ والشَّهادَةِ هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ يَسِّرْ لِي إِتمَامَ تَفْسيرِ كَتَابِكَ على أَحْسنِ وَجْهٍ، وأَجْمَلِهِ، وأَكْمَلِهِ، وأَحَبِّهِ إليك، وأَرْضَاهُ عِندك، وأَعْظَمِهِ بَيَانًا لإِعجازِ آياتِكَ، وبَيِّنَاتِ كَلِماتِكَ، وأَكْثَرِه تَأْثِيرًا في نُفُوسِ الخَلْقِ، واجْعَلْ ذلك على نَحْوٍ لم أُسْبَقْ إليه، وأَلْقِ القَبُولَ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ له إلى يومِ الدِّينِ، واجْعَلْ لي به لسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ، وآتِنِي به مَنْ فَضْلِك ورَحْمَتِك أَفْضَلَ ما تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، وارْفَعْنِي به مَكَانًا عَلِيًّا، وكُنْ بِي حَفِيًّا يا حَيُّ يا قَيُّومُ، يا ذا الجَلَالِ والإِكْرَامِ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وصَلَّى الله وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

والحمدُ لله ربِّ العَالَمِين

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الأربعاء ١٠ رجب ١٤٤٤هـ

الموافق ١ فبراير ٢٠٢٣م

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

بصائر المعرفة القرآنية ﴿9﴾

سورة البقرة

الزهراء الأولى

عمود السورة (موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية

مفصل سورة البقرة (1)

سواطع الأنوار بين يدي (الزهراء الأولى)

النور الأول: من فضائلها

أول ما يتبادر من الأسئلة حول هذه السورة أننا نرى لها من العظمة وباذخ المكانة ورفعة المنزلة ما لا نستطيع وصفه، ولا الإحاطة بكنهه وحقيقته، وقد دلت على ذلك الآثار المتكاثرة، ولربما تشتاق لذلك، فتبادر إلى السؤال: ما الفضائل التي اختصت بها هذه السورة المباركة حتى نالت هذه المكانة العالية؟

جوابًا عن سؤالك، أقول لك: هلمَّ.. لا تتأخر! لترى الذهب النُّضار هناك ثاويًا، وترى عَلَم المجد في فضائلها راسيًا، فقد ذكر النبي ﷺ لها من الفضائل ما يجعلك تسارع إلى مدارستها والتنقيب عن كنوزها:

فالفضيلة الأولى: الرفعة؛ فهي سنام القرآن:

وسنام كل شيء أعلاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل شيء سَنَامًا، وسَنَام القرآن سورة البقرة**»(١)، فسورة البقرة تمثل أرفع ما في القرآن من السور الجامعة للأحكام التشريعية، والأسس العقدية، والفضائل الأخلاقية، والقصص الحق، والبناء الاجتماعي.

والفضيلة الثانية: العَظمة: ففيها آية الكرسي، وهي أعظم آي القرآن:

فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ**». **قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:** «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ**

---

(١) المستدرك (٣٠٢٧)، وهو عند الترمذي (٢٨٧٨) بزيادة، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٥٨٨).

أَعْظَمُ». قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، فَضَرَبَ في صدري، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[١].

الفضيلة الثالثة: آخر آيتين منها من كنز تحت العرش، وتمثلان الكفاية التامة للفرد والبيت المسلم:

فعن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله ﷻ كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، وأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**»[٢].

وكأن المراد من ثلاث ليال إشعال جذوة التحدي والرغبة في المعالي بالمداومة على هاتين الآيتين العظيمتين.

لم يقف النبي ﷺ عند ذلك بل زاد العالم بيانًا، وحرك قلوب الطامحين ليتشبثوا بهاتين الآيتين، ويبلغ التشويق الغاية الكبرى عندما يحثنا النبي ﷺ على محاولة إدراك الكرم والمجد والكنز الذي يختبئ في هاتين الآيتين، حيث أبان أنهما من كنزٍ تحت العرش، فعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، ولم يعطهن نبي قبلي**»[٣] الله أكبر.. إليك هذه الهدية: إنهما من كنز تحت العرش.

وعن ابن عباس ﷺ ما يزيدك شوقًا لقراءة هاتين الآيتين، والنظر في معانيهما حيث يقول: **بيْنَما جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِن فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقالَ: هذا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليومَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ منه مَلَكٌ، فَقالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرْضِ لَمْ**

---

(١) مسلم (٨١٠)، قال الطِّيبي: "والمعني: ليكن العلم هنيئًا لك" شرح المشكاة للطيبي (٥/ ١٦٤٤)

(٢) أحمد (١٨٤١٤). ونقل ابن أبي حاتم "العلل" (١٦٧٨) عن أبي زرعة تصحيح بعض طرقه. وصححه الحاكم، وحسنه ابن حجر في "نتائج الأفكار ٣/ ٢٧٥"، ورواه الترمذي٥/ ١٥٩، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢١٣٤٣)، (٢١٥٦٤)، وصححه الأرناؤوط لغيره.

يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليومَ، فَسَلَّمَ، وَقالَ: أَبْشِرْ بنُورَيْنِ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُما نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بحَرْفٍ منهما إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[1].

ولا تقف الفضائل الجاذبة عند هذا الحد، بل يمضي النبيﷺ في إهدائنا فضائل أكثر جاذبية لقراءة هذه السورة المباركة؛ إذ روى أبو مَسْعُودٍ البدريُّ رضي الله عنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[2].

هنا لا بد أن تتساءل عن معنى هذه اللفظة النبوية المباركة المشوقة: ((كفتاه))؟

الجواب: ينير ابن حجر رحمه الله عقولنا بالمعاني المتعددة لكلمة (كفتاه)، فيرى أنها تتضمن الكفايات الآتية:

المعنى الأول: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن.

الثاني: أجزأتا عنه عن قراءة القرآن مطلقًا سواء كان داخل الصلاة أم خارجها.

الثالث: معناه أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالًا.

الرابع: معناه كفتاه كل سوء، وقيل: كفتاه شر الشيطان.

الخامس: دفعتا عنه شر الإنس والجن.

السادس: معناه كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر، وكأنهما اختصتا بذلك لما تضمنتاه من الثناء على الصحابة رضي الله عنهم بجميل انقيادهم إلى الله عز وجل وابتهالهم ورجوعهم إليه وما حصل لهم من الإجابة إلى مطلوبهم[3].

---

(١) مسلم (٨٠٦).

(٢) البخاري (٥٠٤٠) ومسلم (٨٠٧).

(٣) فتح الباري (٩/ ٥٦).

ولا أظن إلا أنها تحوي كل تلك الكفايات؛ إذ حذف المتعلق يدل على العموم، وهذا من مقاصد العقلاء في الكلام، فترك النبي ﷺ بيان ما تكون فيه الكفاية قصدًا لتعميمه، فما تريد من الكفايات فوق هذه الغايات؟ اللهم اجعل لنا منها أوفر الحظ والنصيب.

الفضيلة الرابعة: الحماية: سورة البقرة تمثل الحماية الخاصة الدنيوية من الشياطين، وكيد السحرة، وأصحاب الشرور:

فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**»[1]، والْبَطَلَة السَّحَرَةُ، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»[2].

فإن كان شيطان الجن -وهو يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم- يفر منها فكيف بشيطان الإنس؟ ومن هنا نفهم بصورةٍ واضحةٍ سبب محاربة شياطين الإنس لنشر القرآن، وندرك كيف زيفوا وعيَ العالم من خلال إيهامهم أن التحضر والتقدم والوعي الحداثي لا يوجد إلا عندما يغيب السماع لآيات القرآن.. أو ليسوا إذا ذكر القرآن اشمأزت نفوسهم، وإذا تليت عليهم آياته ضجوا، وأعرضوا ولغوا فيه ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وإذا ذُكِرت فلسفات اليونان، أو تكلم المتكلمون بشيء من المعرفة البشرية المترددة مختلطة بلغات غير عربية مما يشبه الهذيان عدُّوا ذلك علامة على التفوق والمجد والمعرفة الواسعة فانشرحت صدورهم ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ [المجادلة: ١٨].

(١) مسلم (٨٠٤).

(٢) مسلم (٧٨٠).

إنها عظمة سورة البقرة.. حفظها وتلاوتها محققان لطرد الشياطين، وهداية المخلوقين، ونشر النور في العالمين، ولقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

الفضيلة الخامسة: مرافقة المستقبل وشفاعة عظمى؛ فالزهراوان (البقرة وآل عمران) تمثلان الوفد المستقبلي المرافق لقارئهما، وتكونان فريق المحامين المدافعين عن صاحبهما يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون:

فعن أبي أُمَامَةَ الباهليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**»(١)، وعن النواس بن سمعان الكلابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة، وآل عمران**»(٢).

الفضيلة السادسة: أساس المعرفة: فسورة البقرة أول السبع الطوال، وأخذ السبع يدل على التأهل العلمي:

قسَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القرآن إلى أربع أقسام، فعن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلتُ بالمُفصَّل**»(٣).

---

(١) مسلم (٨٠٤).

(٢) مسلم (٨٠٥).

(٣) أحمد (١٦٩٨١) وحسنه الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (١٤٨٠).

إن حفظ هذه السبع الطوال يعني التمكن من الأساس المعرفي المتين الذي يفتح لصاحبها أبواب العلم والفهم والحكمة، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**من أخذ السبع الأول فهو حَبْرٌ**»(١).

فهذا الحديث يدل على أن السبع الطوال ينبغي أن تكون ضمن أهم مصادر المعرفة في التربية والتعليم والثقافة والإعلام في بلاد الإسلام. وفي مقدمة السبع تأتي البقرة، وما ذلك إلا لما "اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين"(٢).

الفضيلة السابعة: من مؤهلات القيادة: فحفظها الواعي بمقاصدها، والقيام بها عملاً وتعليمًا وفقهًا أحد أهم مقومات الترؤس والتصدر وتولي المهام القيادية:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنًا، فقال: «**ما معك يا فلان؟**» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «**أمعك سورة البقرة؟**» قال: نعم. قال: «**فاذهب فأنت أميرهم**»، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ: «**تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوٍّ مسكًا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جرابٍ، وُكِئ على مسك**»(٣).

---

(١) أحمد (٢٤٤٤٣) وحسن إسناده الأرناؤوط، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٤/ ٤١).

(٣) الترمذي (٢٨٧٦)، وحسَّنه. ورجح البخاري "التاريخ الكبير" (٦ / ٤٦٢)، وأبو حاتم "العلل لابن أبي حاتم" (٣/ ٢٣٧)، والنسائي (٨/ ٨١)، والدارقطني "العلل" (١٠/ ٣٦٤) إرسالَه، قوله: "كمثل جراب أوكيء" أَي: رُبط فَمُه (على مسك) فِي جَوْفه فَهُوَ لَا يفوح مِنْهُ وَإِن فاح فقليل التيسير بشرح الجامع الصغير(١/ ٤٥٢).

الفضيلة الثامنة: المؤنسة لصاحبها:

فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها قالت: "إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَغَارَ عَلَى جَارٍ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّهُ أُقِيدُ مِنْهُ فَقُتِلَ، فَمَا زَالَ الْقُرْآنُ يَنْسَلُّ مِنْهُ سُورَةٌ سُورَةٌ، حَتَّى بَقِيَتِ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ جُمُعَةً، ثُمَّ إِنَّ آلَ عِمْرَانَ انْسَلَّتْ مِنْهُ، وَأَقَامَتِ الْبَقَرَةُ جُمُعَةً، فَقِيلَ لَهَا: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق: ٢٩] قَالَ: فَخَرَجَتْ كَأَنَّهَا السَّحَابَةُ الْعَظِيمَةُ)". قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ رحمه الله: أُرَاهُ يَعْنِي أَنَّهُمَا كَانَتَا مَعَهُ فِي قَبْرِهِ تَدْفَعَانِ عَنْهُ وَتُؤْنِسَانِهِ، فَكَانَتَا مِنْ آخِرِ مَا بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ)(١).

عدد آياتها: مائتان وست وثمانون آية (كوفي)، وسبع (بصري)، وخمس (حجازي وشامي)(٢).

لطيفة:

عدد آيات هذه السورة (٢٨٦) آية عند الكوفيين، وعدد سور القرآن مائة وأربعة عشر سورة، فعدد السور المكية منها ست وثمانون (الآحاد والعشرات من ٢٨٦)، وعدد المدني منها ثمان وعشرون على خلاف في التفصيل (العشرات والمئات من٢٨٦)، ولو جمعت العدد المكي مع العدد المدني (٨٦+٢٨) يصبح المجموع (١١٤)، ولو ضمنت العدد (٨٦) مع (٢٨)، وألغيت المكرر لنتج عندك (٢٨٦)، وهذا عدد آيات سورة البقرة، ومثل هذا يذكر لتقريب المسائل، وإلا فهناك عدد من السور مختلف في مكيتها ومدنيتها.

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص٢٣٦)، ومثله لا يقال بالرأي.

(٢) البيان في عدِّ آي القرآن (ص ١٤٠).

النور الثاني: (عمود السورة)

أي موضوعها الكُلِّيُّ الذي لأجله سُوِّرت هذه السورة

ربما تسألني: بعد تدبرك للسورة من أولها إلى آخرها، وتدريسك لتفسيرها: ما الذي وصلت إليه في الموضوع الكلي الذي تدور حوله السورة، ويشكل عمودًا لها؟

الجواب: عند تطوافك –أيّدك الله– بأفياء هذه السورة المباركة، تدركك بركتها وتنال من هداها، وترى النور القرآني المشرق، فإن قلبت الطرف فيها عاد إليك بأحسن ما يرى طرف، فاطمئن قلبك وأنست روحك، واستضاءت نفسك بأنوارها، ووجدت بصيرتك تتعلم مما عُلِّمه الصالحون من قبلك رشدًا، فادخل على سورة البقرة الباب لتشرق أنوارك بفقه موضوعها، عسى أن تحدث لك منها ذكرًا كلما ذاكرت آياتها، وأما بالنسبة لي فقد استعنت بالله ﷻ في الوصول إلى إدراك سرِّ تسوير سورة البقرة، وأعملت عددًا من العوامل لمعرفة ذلك، فهداني ربي صراطًا مستقيمًا، لاح لي فيه أن سورة البقرة تدور حول الموضوع الآتي:

"إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية".

فالسورة تؤسس للحضارة الإسلامية التي تشرق على العالم بحنانها ورحمتها انطلاقًا من المدينة، وتقدم الأنموذج الناجح للاستخلاف في الأرض، من خلال الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية، وتقوم على نظامٍ دستوري إلهي عماده التقوى، والأساس العملي للتقوى الإيمان بالغيب؛ فمن أعظم ما أنت واجدٌ في هذه السورة من المعاني والهدى ما كان في شأن طلوع شمس الحضارة الإسلامية وإشراق نورها في العالمين، مع ما اشتمل عليه ذلك النور من القواعد والأسس والمنهج الأقوم، والإفادة من سنن الأولين، والتركيز على كشف عقلية أصحاب البقرة الإسرائيلية.

فهذا عمود هذه السورة المباركة، على ما نراه، والله أجل وأعلم على أن القرآن الكريم عامة وسورة البقرة خاصة نهر جار لا تحبسه سدود، ولا تكدره شوائب، كنوزه لا تحصى وخيراته لا تنقطع، وعجائبه لا تنقضي، وإنما أردت بما ذكرت تقريب معاني هذه السورة للمتدبرين، والدلالة على بعض كنوزها للسائلين، ثم يفتح الله ﷻ على من شاء من عباده ما شاء من بركاته.

وقد تتساءل متلهفًا: كيف وصلتُ إلى اختيار هذا العنوان ليكون عمود السورة وموضوعها الكلي؟

أجيبك بأنني اعتمدتُ على الأسس الستة التي تهديني لتقرير موضوع كل سورة، وهذه الأسس يلخِّصها الشكل الآتي:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

النور الثاني:

أسس اختيار "إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية" ليمثل الموضوع الكلي لسورة البقرة

الأساس الأول

النزول التاريخي، والفجر الجديد

الأساس الثاني

الترتيب المصحفي

الأساس الثالث

اسم هذه السورة المباركة (البقرة)، وعلاقته بالموضوع الكلي للسورة

الأساس الرابع

المواضيع الكبرى التي تناولتها سورة البقرة

الأساس الخامس

الخريطة الكلية التي تُظهر المحاور العامة لسورة البقرة

الأساس السادس

مدد السابقين من المفسرين في تعيين سبب تسوير سورة البقرة

الأساس الأول: النزول التاريخي، والفجر الجديد

مفصل سورة البقرة (1)

متى نزلت هذه السورة المباركة؟ وما السياق التاريخي الذي نزلت فيه؟

هذه السورة المباركة أول سورة نزلت في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، ولم تنزل على رسول الله ﷺ دَفعةً واحدةً؛ بل نزلت مُتفرّقةً، حتى نزلت آيات الربا والمداينة فيها ضمن آخر ما نزل من القرآن المجيد، وبعض آياتها نزل لسببٍ، وبعضها نزل من غير سببٍ، ومما ينبئك عن أنها نزلت في المدينة ما ذكرته عائشة رضي الله عنها: «ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١]، وكان بناء رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها في شوال من السنة الأولى للهجرة، وقيل في أول السنة الثانية، قال ابن حجر رحمه الله: "اتفقوا على أنها مدنية، وأنها أول سورة أنزلت"[٢].

ولك أن تسأل هاهنا: لم كانت هذه السورة المباركة أول السور نزولًا على النبي ﷺ في المدينة؟

الجواب: لمعرفة ذلك، تعال ننظر إلى الظروف التي أحاطت بنزول سورة البقرة:

وأول ما يمكن أن نتساءل عنه: ما الذي حدث قبيل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؟

الجواب:

أولاً: السراج المنيريبحث عن مكان لينقذ العالم:

بحث النبي ﷺ طويلًا عن مكان ينشر فيه دعوته، ويقيم دينه، ويكون حصنًا لدعوة الخير التي يشرق بها على العالم، ومركزًا لنور العدل:

ليخلص الناس من ظلمات الوثنية والجاهليات والظلم والعنصرية، وتجبر الأكاسرة، وطغيان القياصرة، وتلاعب النظم الدينية والدنيوية الفاجرة، وهذا الخلاص لا يكون إلا

---

(١) البخاري (٤٩٩٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ١٦٠).

بدولة صدق، وذلك يقتضي وجود عاصمة مركزية تمثل أنموذجًا حقيقيًا لقيام حضارة تصبح مثالًا في إنارة العالم بإيمانها وعدلها وإحسانها، من أجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يبحث عن بلاد يهاجر إليها تنصره وتؤويه.

قام ﷺ بعدة محاولات لأجل هذا الغرض، ولأهميته في إدراك نزول سورة البقرة سنذكر بعض التفصيل المتعلق به، فمن المحاولات التي قام بها ﷺ:

١) تجربة الحبشة وعدلها:

أرسل النبي ﷺ المظلومين من أصحابه إلى الحبشة لمقصد ظاهر، وهو أن يجدوا فيها ملجأ، وقد يكون مركزًا للعدل القادم بالإسلام، فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة: تحقق الأول، ولم يتحقق الثاني:

لم يكن إرسال المهاجرين إلى الحبشة وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه – لا سيما في الهجرة الثانية– للهرب بدينهم من الاضطهاد القرشي فحسب، بل ربما كانت له أبعاد أخر، ويؤيد هذه الوجهة أن الهجرة الثانية إلى الحبشة كانت قرب السنة العاشرة للبعثة، حيث كان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل؛ فأرض الحبشة كانت أرض عدل وخير، وكان ملكها صالحًا، فلعل ذلك يجعلها موضعًا مناسبًا، وبيئة آمنة مناسبة لنشر دعوة الخير في العالم، ومما يقوي ذلك أنه كان في من هاجر إليها جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم ممن كانوا أشرافًا في قومهم.

فزع القوى الوثنية من تحول الحبشة إلى مركز لنور الإسلام:

حرصت القوى الوثنية القرشية على إعادة المهاجرين إليها، واشتد حرصها ألا يسمع النجاشي ولا من معه لنور الإسلام، فبرهان الإسلام ذاتي يجذب له كل من يسمعه بمجرد سماعه إن لم تحجبه حجب الغفلة والعناد، فعن أم سلمة ابنة ابي أمية بن المغيرة زوج النبي

ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمَّنَّا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه(١).

فما الذي حدث لما وجد المسلمون ملاذًا آمنًا في الحبشة؟

القوى الوثنية ترسل وفدًا رفيع المستوى مكونًا من: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي.

وسيلة التأثير: الرُّشا والأموال المسمومة.

الهدف: التفاوض على إرجاع المهاجرين.

لقد فزعت القوى الوثنية من أن يكون للمسلمين مكان آمن يعبدون الله وحده، ويتنعمون بتنفيذ مقتضيات الإيمان دون إيذاء.. إنها الطبيعة الوثنية المعتدية المعادية التي تنشر الكراهية وحب الإثم والعدوان في العالم، وتعبر أم سلمة رضي الله عنها عن ذلك، فتقول: فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَم، فجمعوا له أَدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا الا أهدوا له هدية.

وهنا ترى المال السياسي يفعل فِعْله، وقد اختارت القوى الوثنية وفدًا مختارًا بعناية يمتلك المؤهلات اللازمة للتأثير بسبب دربته في العلاقات الدولية، ووضعوا للوفد الخطة اللازمة للتأثير، وتصوِّر أم سلمة رضي الله عنها ذلك، فتقول:

ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كلِّ بِطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النجاشي فيهم، ثم قدِّموا للنجاشي هداياه.

---

(١) أحمد (١٧٤٠)، وحسَّنه الأرناؤوط.

وحرصوا على ألا يُسمع صوت الحقِّ في أي مكان؛ لأن صوت الحق يجذب الناس إليه، وتصف أم سلمة رضي الله عنها ما قالته القيادة القرشية لوفد الاتصال الخارجي، فتخبر أنهم قالوا: ثم سلوه أن يسلِّمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

وهذا دأب أهل الباطل يسعون للحيلولة بين الحق والناس، ويكمِّمون أفواه المحققين، ويشوِّشون على العامة أن تسمع الحق أو تنصنت إليه ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

تكوين الوفد القرشي لعصابة "للوبي" الخيانة للتأثير على صنع القرار في قصر النجاشي:

قالت: فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم. فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي ثم قال:

لا ها الله. أيم الله إذًا لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قومًا جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؛ فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم.

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يستغل الفرصة لقلب الطاولة على الوفد الوثني، ويدعو إلى نور الإسلام:

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه،

فقال: **"أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام"**. قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما

كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر رضي الله عنه: نعم! فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ. **فقرأ عليه صدرًا من كهيعص. قالت: فبكى والله النجاشي حتى أَخضَل لحيتَه، وبكت أساقفته حتى أخضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: "إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة"**. انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكاد.

الغدر والتشويه سلاح المعتدين لصنع الانتصار:

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: والله لأنبئنهم غدًّا عيبهم عندهم، ثم أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة -وكان أتقى الرجلين فينا-: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ. قالت: ثم غدا عليه الغد. فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عمَّا يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله عز وجل وما جاء به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه. قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله، ورسوله، ورُوحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود. فتَنَاخَرَتْ بطارقَتُهُ حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم سُيُوم بأرضي -والسُّيُوم: الآمنون- من سَبَّكم غُرِّم، ثم من سَبَّكم غُرِّم. فما أحب

أن لي دَبْرًا ذَهَبًا، وإني آذيت رجلًا منكم–والدَّبْر بلسان الحبشة: الجبل– رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها؛ فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردَّ علي ملكي، فآخُذَ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار"... الحديث(١).

وباتت الحبشة ملاذًا آمنًا للعبادة، لكنها لم تكن مؤهَّلة لأن ترتحل إليها القيادة النبوية، فتكون منطلقًا لنشر النور في الأرض، ولذا لجأ النبي ﷺ إلى التفكير في البحث عن عاصمة أخرى تكون مركزًا لنشر النور في العالم، وكان مما فكَّر فيه أن يهاجر إلى الطائف.

٢) تجرِبة الطائف وآلامها:

الهدف: إيجاد عاصمة لتنشر الحضارة الجديدة نورها في العالم.

النتيجة: الألم العظيم.

اشتد على النبي ﷺ ما لقيه من قريش عقب وفاة عمه، من تكذيب وأذى، فجعل يعرض نفسه على القبائل عساه يجد من يصدقه وينصره، فذهب النبي ﷺ إلى الطائف يحاول إيجاد مركز آمن لنشر النور في العالم، فلم يجد عندهم إلا الألم، وعرض نفسه على القبائل، لكن الدعاية الوثنية المضادة كانت تطارده، وتحجز القبائل عن التشرف بالإيمان به، وطلبه ليكون في حمايتهم.

هنا بدأ تجربة جديدة لنشر النور في العالم.. لقد ذهب إلى الطائف، وكانت تجربته هناك شاقة شديدة الوقع على نفسه وبدنه. اسمع للحديث المدهش والألم الكبير والصبر العظيم:

فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟** قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ**

(١) أحمد (١٧٤٠)، وقال الأرناؤوط: "إسناده حسن، رجاله ثقات".

نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ[1].

لقد كان هدف النبي ﷺ واضحًا: إيجاد عاصمة لتنشر الحضارة الجديدة نورها في العالم، ولذا لم يبالِ بمعاقبة من اشتد أذاه عليه، وأعلم ﷺ العالم أنه بعث رحمة لهم لا عذابًا، فقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

ويصور الشاعر محمد عبده المثيل هذه الرحلة المؤلمة والمشاعر التي تفيض عند تصورها:

وطافَ بالقلبِ حزنٌ ليس يعدِلُهُ ... حزنُ الخليقةِ حتى ينقضيْ الدَّهرُ
أشدُّ ما لقيَ المختارُ حينَ أتى ... إلى ابنِ يا لِيلَ نصرًا منهُ ينتظِرُ
ماذا لَوَ انّ بئيسَ الحظِّ وافقه ... تلكَ المكانةُ والتَّبجيلُ والفَخرُ
فعادَ والحزنُ يكسُو وجهَهُ أسفًا ... (قرنَ الثعالبِ) وَافَى عندَه الكدَرُ
كأنّهُ إذ كسَا وَجهَ الحبيبِ أسَى ... رثى لَهُ الكونُ والأيامُ والغِيَرُ
أتاهُ جِبريلُ مِن ذي العَرشِ ينصُرُهُ ... (مُرْ يا حبيبي بِهِم يأتيهم القَدَرُ)
إذا أردتَ جعلتُ الأَخشَبينِ على ... ديارِهِم ونسَفتُ القومَ إذْ كفروا
فكانَ أنْ قالَ والدّنيا لِمنطِقِهِ ... تُصيِّخُ مِنْ وَجلٍ والكونُ ينتظِرُ
(بَلِ الرّجا أَنْ يَمُنّ اللهُ خالِقُنا ... بِمَنْ يوحّدُهُ مِنْ صُلْبِ مَنْ كَفَرُوا)

---

(١) البخاري (٣٢٣١).

وأَيَّـدَ اللهُ طَـهَ بِـالـثـلاثـةِ مِـنْ مَـلائكٍ وأَتَـتْـهُ الـجِّـنُ والـبَـشَـرُ

وهكذا لم يجد النبي ﷺ المنطلق الأمين ليبلغ البشرية بما أرسل به من مشروع الهدى الذي سيكون رحمة للعالمين.

٣) العرض على القبائل في المواسم:

لم ييأس النبي ﷺ، فبدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم عسى أن يجد نصراء يؤسِّس بهم حضارة تُعَزُّ بها البشرية: وفي سيرة ابن هشام رحمه الله [1] تفاصيل كثيرة للقائه ﷺ بقبائل عدة فمن ذلك قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ رحمه الله: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّهُ أَتَى كَلْبًا فِي مَنَازِلِهِمْ، إلَى بَطْنٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَبْدِ اللهِ، فَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ عز وجل، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، حَتَّى إنَّهُ لَيَقُولُ لَهُمْ: يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ، إنَّ اللهَ عز وجل قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ.

وقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ رحمه الله: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى بَنِي حَنِيفَةَ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ عز وجل، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الْعَرَبِ أَقْبَحَ عَلَيْهِ رَدًّا مِنْهُمْ.

وأَتَى الرسول ﷺ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعَاهُمْ إلَى اللهِ عز وجل، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ - يُقَالُ لَهُ: بَيْحَرَةُ ابْن فِرَاسٍ: وَاَللهِ، لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، لَأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ، ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ نَحْنُ بَايَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «**الْأَمْرُ إلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: أَفَتُهْدَفُ نُحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ الْأَمْرُ لِغَيْرِنَا! لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١).

فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ رَجَعَتْ بَنُو عَامِرٍ إِلَى شَيْخٍ لَهُمْ، قَدْ كَانَتْ أَدْرَكَتْهُ السِّنُّ، حَتَّى لَا يَقْدِرَ أَنْ يُوَافِيَ مَعَهُمْ الْمَوَاسِمَ، فَكَانُوا إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ حَدَّثُوهُ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْسِمِ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ الْعَامَ سَأَلَهُمْ عَمَّا كَانَ فِي مَوْسِمِهِمْ، فَقَالُوا: جَاءَنَا فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، يَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَمْنَعَهُ وَنَقُومَ مَعَهُ، وَنَخْرُجَ بِهِ إِلَى بِلَادِنَا. قَالَ: فَوَضَعَ الشَّيْخُ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَامِرٍ، هَلْ لَهَا مِنْ تَلَافٍ، هَلْ لِذُنَابَاهَا مِنْ مَطْلَبٍ، وَالَّذِي نَفْسُ فُلَانٍ بِيَدِهِ، مَا تَقَوَّلَهَا إِسْمَاعِيلِيٌّ قَطُّ، وَإِنَّهَا لَحَقٌّ، فَأَيْنَ رَأْيُكُمْ كَانَ عَنْكُمْ؟

٤) جاء الأنصار ﵃ أخيرًا: فهم المختارون في الاصطفاء الإلهي لينصروا حضارة العدل الجديدة:

لا يستحقُّ نشر حضارة العدل الجديدة إلا ذوو الأهلية المميزة في صفاتهم ومكانهم، وهنا أتى الله ﷻ بقوم يحبهم ويحبونه.. لقد أتى بالأنصار.. من أين؟ من يثرب.. ما المميز في (يثرب)؟

تقع يثرب وسط الجزيرة، ويجاور الأنصار فيها أهل الكتاب، وما شأن أهل الكتاب في المدينة؟

يغلب عليهم أن يكونوا من الذين حرفوا الأمانة التي ائتمنهم الله ﷻ عليها، وعاشوا على التلاعب والخداع والتحريش بين قبائل العرب المجاورة لهم، والسيطرة على مصادر الثروة وأصول الأموال من أراضٍ وحلي وسلاح وحيوان، والعبث بالاقتصاد المحلي.

فكان المكان أنموذجيًّا ليكون عاصمة لحضارة العدل الجديدة... والآن تصوَّر مَن السعداء الذين سيكونون من حملة النور للحضارة الجديدة: أهل الكتاب أم القبائل الوثنية المجاورة لهم؟

فهذا جابر ﵁، يحدِّث عن بحث النبي ﷺ عن بيئة مناسبة تمثل عاصمة لإنارة العالم بعد أن سدَّت عليه قريش كل مدخل، فيقول: «**مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعُكاظ ومَجَنَّةَ وفي المواسم بمِنى، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر كذا، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه**، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يُظهرون الإسلام، ثم ائْتَمَروا جميعًا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟

فرحل إليه منا سبعون رجلًا، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْبَ العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك، قال: «**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومه لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة**»، قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة ﵁، وهو من أصغرهم، فقال: "رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خيارِكم، وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جَبِينةً، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله"، قالوا أَمِطْ عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسلبها أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا، وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة»(١).

(١) أحمد (١٤٤٥٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ثانيًا: آية العودة إلى معاد تَنْزِل في طريق الهجرة، لتبشِّر بظهور الحضارة التي تشرق على الأرض بالحق:

بعد أن رتَّب النبي ﷺ أمر الهجرة من الناحية التنظيمية، واطمأن إلى وجود عاصمة تكون منارًا لإشراق دعوة الخير في العالم، خرج مهاجراً إلى الله ﷻ، تاركًا في سبيل ذلك أحب بلاد الله إليه، أرض صباه وشبابه، وديار أهله وأحبابه، فكيف ترى كانت لوعته واشتياقه إلى مكة، وفيها أول بيت وضع للعالمين؟ ثم كيف أذهب الله ﷻ بلطفه عنه تلك اللوعات وأبدله بها رضًا وفرحًا؟

نقل بعض أهل العلم أن النبي ﷺ في طريقه إلى المدينة أنزلت عليه آية تَعِدُه وعدًا عظيمًا، فعن الضحاك رحمه الله قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص:٨٥][1]، وذكر هذا الإمام الشوكاني رحمه الله[2]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾، قَالَ: إِلَى مَكَّةَ[3].

فتأمَّل هذا الوعد الإلهي الحق، وما يحمله من ألطاف ومعان جاوزت المكان والزمان. كيف سيملأ ذلك القلب الأوَّاه، الذي خرج صاحبه ﷺ مطاردًا؟

هذا الوعد كان يحمل في طياته أنه ﷺ سيصل إلى مرحلة القوة والقدرة على الرجوع إلى مكة، كالقوة والقدرة التي بها عاد موسى عليه السلام إلى مصر، وتمكن من هزيمة طغاتها.

هاجر النبي ﷺ إلى يثرب التي سمَّاها (المدينة).. **هذه التسمية الفريدة (المدينة)** التي تُشعِر من يسمعها أنه لا يوجد في الدنيا مدينة تستحقُّ هذا الاسم سواها.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٢٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٨٢).

(٣) البخاري (٤٧٧٣).

وهناك مع أول استقراره في المدينة نزلت سورة البقرة:

ثالثًا: حدث هزَّ العالم وغيَّر التاريخ: نزول سورة البقرة:

كيف كان النزول القرآني بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وفيها: المسلمون، واليهود، والوثنيون؟ كيف عالج القرآن هذا الوضع الجديد، وقد صار للمسلمين دولة، ولم يعودوا مستضعفين؟

هنا نزلت سورة البقرة لتكون أَول سورةٍ نزلت بعد هجرة النبي ﷺ إِلى المدينة.. هذه الأولية التاريخية في النزول المدني لها دلالاتٌ عظيمة في وضع قواعد إنشاء حضارة الأمة الإسلامية لتشرق بنورها على العالم:

وقد كان لسورة البقرة تأثيرٌ عظيمٌ في التكوين الخاص بأصحاب النبي ﷺ. فقد ارتبط نزولها بتأسيس حضارة الهدى والنور والرشد، وظهورها في الواقع العالمي لتزيل احتكار القوتين العظميين آنذاك فارس والروم للشرعية الدولية المزورة الظالمة. هذه الشرعية المجرمة تقاسمت النفوذ فيها دولتا فارس والروم، وسمحتا للقوى الوثنية والمحرفة بالسيطرة على زمام الأمور في جزيرة العرب، فارضة أبشع أنواع الظلم، والعبث بمصير البشرية.

رابعًا: علاقة وطيدة بسورة المطففين: البناء الاقتصادي وإقامة الأسواق أساس التحرر وانطلاق الحضارة الجديدة

وقد تسأل: ذكر بعض أهل العلم(١) أن سورة المطففين نزلت قبلها في أواخر العهد المكي أو في الطريق إلى الهجرة، فما وجه الارتباط بينهما؟

---

(١) ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة وغيرهما ينظر: البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٢٦)، التحرير والتنوير (٣٠/ ١٨٧).

تعال –أعزك الله– لننظر إلى العلاقة بين السورتين:

هيأ الله –تعالى مجده– نبيه ﷺ أثناء هجرته ليُخرجِ الرسالة الإسلامية الشاملة للمجالات الحياتية من القوة النظرية إلى الواقع العملي، وليقوم بتطبيق المبادئ الإسلامية في مجالات الحياة المختلفة، وليبني واقعًا عالميًا جديداً شاملاً وفق المبدأ الدستوري الشامل الذي أعلنه في مكة حينما أمره الله –عزَّ ذكره– أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هذا الواقع الحيوي الجديد يزيل احتكار الشرعية الدولية المزورة الظالمة التي اقتسمت النفوذ فيها دولتا فارس والروم، فما السورة العظيمة التي نزلت لتوضِّح بصورة جلية أن (محمدًا) لا يمكن إلا أن يكون نبيًّا وتخبر الناس بعالمية الإصلاح وشمول الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ، ومعالم دينه وأمارات صدق نبوته؟ إنها سورة المطففين.

أنزل الله ﷻ سورة (المطففين) في طريق الهجرة المباركة أو قبيلها:

سورة المطففين... اسم لافت جدًا.. إنه اسم لا يمكن أن يصدر عن أمي.. ولكنه دليل واضح على أن الذي أتى به في ذلك الزمان (نبي)، فإذا كان أميًّا، فذلك دليل أعظم على نبوته:

فاسم السورة كافٍ في أن يُظْهِرَ لك أسس القواعد المالية المانعة من الظلم الاقتصادي، ويمثِّل قومة ضخمة ليس ضد النظام الاقتصادي الفوضوي العربي الجاهلي فحسب، بل هو قومة صارخة ضد النظام الاقتصادي الدولي العابث، حيث يتحكَّم العقل اليهودي عن طريق الربا، ويتحكَّم العقل الاحتكاري الامتصاصي الدولي عن طريق القوة حينما يحتلُّ الأراضي ويستعبد الناس.

انظر جمال الإحكام القرآني لتشييد الحضارة البشرية: أنزل الله ﷻ في الطريق إلى الهجرة المباركة أو قبيلها سورة (المطففين) لتؤسِّس القواعد المالية المانعة من الظلم الاقتصادي،

وفي بضع آيات قوية تفتح السورة كلَّ القضايا التي تعالجها بالمفتاح الاقتصادي: فتضع هذه الآياتُ القوانينَ الصادعة بفضح التلاعب الاقتصادي الذي تمارسه القوى الوثنية والمحرفة من أهل الكتاب: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣].

ولكن لماذا الاقتصاد؟ وماذا عن بقية الموضوعات التي في سورة المطففين؟

الاقتصاد عمدة الحكم الصالح الرشيد، وحتى يتحرَّر العالم من احتكار الأسواق المطففة، لا بد من وضع قواعد عادلة للسوق تزيل استغلال القوى اليهودية والنصرانية والوثنية المرابية، وتنقذ الناس من جعل قوتهم وسيلة للتلاعب بهم.

نزلت سورة المطففين تعالج ذلك، وتجعله أساسًا ومنطلقاً في معالجة قضايا أخر عظيمة، مثل قضايا الآخرة ومصير الأشقياء أصحاب سجين، والسعداء أصحاب عليين. وبيان الصراع الدنيوي بين أهل الحق وأهل الباطل، إذ تبرز السورة القوى الفاجرة المنتشرة في المدينة التي تكيد للمؤمنين وتمكر بهم، وأبواق الإعلام المستهزئة بثلة المؤمنين المحتقرة لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩..﴾ [المطففين: ٢٩]. ثم تبين العاقبة الأعظم لكل من أوذي وظلم من المؤمنين، إذ جعل الله تعالى من تمام نعيمهم في الآخرة الضحك من أولئك المجرمين وسوء العاقبة التي يلقونها: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

وما يلفت النظر ويزيد العجب والذهول، كيف ربطت سورة المطففين بين تلك القضايا جميعها في أسلوب عذب محكم، بلغ الغاية في الإتقان والحسن، ثم كيف خُتمت ببيان عاقبة المؤمنين الحسنى وعاقبة الكافرين السوأى.

خامسًا: وبعد الوصول المبارك إلى المدينة نزلت السورة المبهرة.. إنها سورة (البقرة):

أدركنا الملابسات والأحداث التي سبقت نزول سورة البقرة فكيف صارت سورة البقرة نازلة في زمنها التاريخي المناسب؟

الجواب: نزلت هذه السورة المبهرة بعد استقرار النبي الخاتم الأمين ﷺ في المدينة، لتؤسِّس المجتمع الجديد على الأسس المتينة الفريدة من الناحية الدستورية.. تصور صنع الحضارة وسط ذلك الركام من الجاهلية.

نزلت هذه السورة في سياقها التاريخي المناسب لتنشئ أمة جديدة ودولة جديدة، وتبدأ بتقديم نظرة عن أقسام العالم في هذه الحضارة وحولها عندما تكلمت عن المتقين والكافرين والمنافقين.

نزلت لتنظم العلاقات والشؤون الإسلامية الداخلية والخارجية مع العالم، وفق مبادئ العدل والإحسان، والمعرفة الصادقة لسبب وجود الإنسان ووظيفته في هذه الحياة.

نزلت لتخاطب جميع الفئات والطوائف، ولتحميَ أهل الأرض جميعاً من شرور بعضهم وشرور أنفسهم، حيث يُبنى المجتمع الذي يكون فيه التواصي بالحق والتواصي بالمرحمة والتواصي بالصبر.

نزلت في زمانها التاريخي المناسب لتؤسس دولة الرشد بنورها الذي سيشرق في العالم.

لم يتمكن السراج المنير نبينا ﷺ من إقامة حضارة النور الإسلامية في مكة؛ لشدة منابذة القوى الجاهلية هناك، فمنَّ الله ﷻ عليه بالمدينة، وهنا تغير التاريخ.

يصف أَبُو قَيْسٍ صِرْمة بن أبي أنس الأنصاري النجاري حال النبي ﷺ في مكة والمدينة، فيقول:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً   يُذَكِّرُ لَا يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ   فَلَمْ يَرَ مَنْ يؤوي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّ به النَّوَى   وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطِيبَةَ رَاضِيَا
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظُلَامَةَ ظَالِمٍ   بَعِيدٍ، وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا   وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ   جَمِيعًا، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُوَاسِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ   وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَصْبَحَ هَادِيَا (١)

فجاءت سورة البقرة تبين الدستور الهادي في العالم لإزالة آلامه، وتحقيق العدالة التي ينشدها في أجمل أحلامه.

كيف تتوقع أثر هذا النزول القرآني المبكر لسورة البقرة على الأنصار والمهاجرين الذين وصلوا إليهم، وقد جاءتهم بملامح نورانية تختلف في بعض جوانبها عن الوحي القرآني المكي؟

الجواب:

لقد شعر المسلمون بعاطفة جياشة هائلة نحو القرآن المجيد، ولكن هذه العاطفة اتخذت خصوصية كبيرة لسورة (البقرة)، فقد صارت هذه (السورة) رمزاً للمسلمين، كما باتت عَلَمًا عليهم، وراية يستظلون بظلها باعتبار أوليتها الزمانية في المدينة.

(١) الأبيات من الطويل لِصِرْمَةِ بْنِ قَيْسٍ، وقد وردت في سياق أثر يروى عن عجوز من الأنصار، أخرجه الحاكم ٤٢٥٥، (٢/ ٦٨٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ويقول الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

حتى نسبهم النبي ﷺ إليها، فعن كثير بن العباس بن عبد المطلب، عن أبيه: أن المسلمين لما انكسروا في حنين كان عباس وأبو سفيان رضي الله عنهما مع النبي ﷺ، فخطبهم وقال: «**الآن حمى الوطيس**»، وقال: «**ناد يا أصحاب سورة البقرة**»[1]، وفي رواية: «**يا أصحاب سورة البقرة! يا معشر الأنصار! ثم استحرَّ النداءُ في بني الحارث بن الخزرج، فلما سمعوا النداء أقبلوا، فوالله ما شبهتهم إلا إلى الْإِبِلِ تجيءُ إِلَى أَوْلَادِهَا**»[2].

(١) أحمد (١٧٧٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ويظهر أن لفظة (يا أصحاب سورة البقرة) في ثبوتها نظر، فرجح الإمامان أبو زرعة ومسلم أنها: يا أصحاب السمرة، والمسألة محتملة، ومهما يكن من أمر، فإن للفظة (يا أصحاب سورة البقرة) أصل، فإن الحميدي قد تابع سفيان على روايته تلك، كما في مسنده، ووفي التفسير لابن أبي حاتم، وخرج ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: (كان شعار المسلمين يوم مسيلمة: يا أصحاب سورة البقرة). وإسناده صحيح، وهو مرسل، ووردت عند الطبراني بإسناد ضعيف.

(٢) أبو يعلى (٣٦٠٦). وحسن حسين سليم أسد إسنادها.

الأساس الثاني في اعتبار (إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية) ليكون عموداً لهذه السورة: الترتيب المصحفي

الأساس الثاني:

"الترتيب المصحفي"

هذه السورة في ترتيبها الحكيم من المصحف:

بعد الفاتحة:

1. لأنها تضع الأسس الأول للمبادئ الجامعة للإسلام، التي جاءت مجملة في سورة الفاتحة.
2. لأنها تعطي الاستجابة الإلهية لدعاء المؤمن في الفاتحة عندما تضرع سائلًا الله تعالى مجده أن يهديه الصراط المستقيم.
3. فلأن سورة البقرة فصّلت حال المنعم عليهم المذكورين في الفاتحة، وقدّمت تحليلًا دقيقًا عن أهمّ الأصناف الذين يدخلون في المغضوب عليهم والضالين.

وقبل سورة آل عمران:

لأن الكلام مع اليهود مقدّم من الناحية التاريخية والمكانية والموضوعية على معرفة تاريخ النصارى، فاليهود هم الفريق الأقدم، والأقرب مكانًا للمسلمين في المدينة، والأشد تأثيرًا في واقع النصارى والمسلمين.

وقبل سائر القرآن الكريم:

لأن سورة البقرة تمثّل المقدّمة الكبرى للتفاصيل الدقيقة التي نراها في بقية سور القرآن الكريم.

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
مفصل سورة البقرة (1)

سورة البقرة هي السورة الثانية في الترتيب المصحفي، فهل لهذا من دلالة في معرفة عمودها؟

بما أن هذه السورة هي الثانية في الترتيب المصحفي فإن المتوقع أن يكون عطاؤها الذي تقدِّمه عامًّا وزاخرًا بالتعليم والحكمة والتزكية والإصلاح العالمي.. المتوقع أن يكون عمودها كبيرًا شاملًا ومميزًا.

ترتيبها يجعلك تتوقع أن يكون عمودها الكليُّ شاملًا لكلِّ الموضوعات المتعدِّدة التي حوتها، وأن يمثِّل أهمَّ المواضيع التي يحدِّثنا الله ﷻ عنها في القرآن الكريم، ويمكنك أن تتساءل:

وقد تسأل: هل كان ترتيب سورة البقرة في هذا الموضع من المصحف لأنها أكبر السور؟

الجواب: يرى السيد رشيد رضا ﷺ أن ذلك ليس المعيار، فكبر حجم السورة ليس معيارًا في الترتيب، بل أقيم هذا الترتيب الإلهي لسور القرآن؛ ليكون موافقًا للحكمة الحقيقية، فالترتيب المصحفي توقيفي على الراجح. فلماذا لم تأت السور المكية أولًا مع أنها الأقدم نزولًا؟

عندما تتدبر تجد أن سورة البقرة جاءت في موضعها المصحفي المناسب تمامًا من نواحٍ متعدِّدة، فمحاورها تفصِّل بصورة مدهشة كلَّ مقاصد سورة الفاتحة، كما أنها تبني في العالم الحضارة الإسلامية الجديدة التي تكسر السيطرة الظالمة لحضارتي فارس والروم، وهما الحضارتان اللتان كانتا تتحكمان بالعالم حينها.

وعندما ننظر إلى العلاقة بين البقرة وما قبلها وما بعدها حسب الترتيب المصحفي، فما الذي نلمحه في العمود الكلي لكل منها مما يظهر التناسب والاتصال؟ ولا بد أن يطرأ في فكرك أن تتساءل: لماذا جاءت هذه السورة المدنية مباشرة بعد سورة الفاتحة مع أنها نزلت متأخرة في تاريخ البعثة النبوية؟

هذه السورة في ترتيبها الحكيم من المصحف:

جاءت سورة البقرة بعد سورة الفاتحة:

أما أولًا فلأنها تضع الأسس الأول للمبادئ الجامعة للإسلام، التي جاءت مجملة في سورة الفاتحة.

وأما ثانيًا: فلأنها تعطي الإجابة الإلهية لدعاء المؤمن في الفاتحة عندما تضرع سائلًا الله تعالى مجده أن يهديه الصراط المستقيم، فجاءت سورة البقرة ترسم له خريطة كاملة للهداية إلى ذلك الصراط المستقيم.

وأما ثالثًا: فلأن سورة البقرة فصَّلت حال المنعم عليهم المذكورين في الفاتحة من أمة النبي ﷺ وممن تقدمها، كما قدَّمت تحليلًا دقيقًا عن أهمِّ الأصناف الذين يدخلون في المغضوب عليهم والضالين.

وجاءت سورة البقرة قبل سورة آل عمران:

لأن معرفة تاريخ اليهود وواقعهم، وتحديد العلاقات معهم مقدَّم من الناحية التاريخية والمكانية والموضوعية على معرفة تاريخ النصارى، فاليهود هم الفريق الأقدم، والأقرب مكانًا للمسلمين في المدينة،، والأشد تأثيرًا في واقع النصارى والمسلمين.

وجاءت سورة البقرة قبل سائر القرآن الكريم؛ لأنها تمثِّل المقدِّمة الكبرى للتفاصيل الدقيقة التي نراها في بقية سور القرآن الكريم.

وبذا ينبغي أن تتساءل: فما الموضوع الذي تتوقع أن يكون في التفصيل الأول للقرآن الكريم؟

الجواب: لما كانت سورة (البقرة) بهذه المنزلة والعظمة كان لا بد أن يكون (عمودها والموضوع الكلي لها أحدَ أمهاتِ المواضيع الكلية جميعًا، ولذا كان هذا العنوان متناسبًا جدًّا مع الموضوع الذي يجمع الكُلِّية والعمومية والدِّقة في الوقت ذاته: (إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية).

الأساس الثالث

اسم هذه السورة المباركة (البقرة)، وعلاقته بعمود السورة

ولكنك عندما تنظر في أسماء السور القرآنية يستفزك التدبُّر إلى أن تتساءل: هل لاسم السورة تأثير على معرفة عمودها أي موضوعها الكلي؟

الجواب: اسم السورة[١] يفتح آفاقًا عظيمة في محاولة إدراك الموضوع الكلي لها، وقد صنع البقاعي رحمه الله (ت ٨٨٥هـ) كتابًا مستقلًا في أسماء السور سمَّاه: "مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ"، وذكر بأنه يمكن أن يُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلْمُسَمَّى"، وقرر فيه قاعدة عظيمة في الدلالات العلمية والعملية والحضارية التي يثيرها اسم السورة فقال:

> **"من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها.. فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكلُّ دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وكلُّ شعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها. وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"**[٢].

---

(١) ذكرت هنا خلاصة لبحثي المنشور في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة قطر العدد، كما تجد بحث تسمية السور في مقدمة المشروع.

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ١٤٩).(٣) مسلم (٨٠٥).

اسم السورة الثانية من سور القرآن المجيد حسب الترتيب المصحفي:

الاسم التوقيفي المعروف لهذه السورة حسب الترتيب المصحفي هو (البقرة)، وتسميتها بسورة البقرة في تعليم النبي ﷺ بلغ حد التواتر، فمن ذلك الأحاديث التي تقدمت في فضل هذه السورة، منها ما جاء في حديث النَّوَّاس بْن سَمْعَانَ الكلابيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»(١). والحِزْقان: الجماعتان.

وقد شاعت تسمية سورة البقرة بهذا الاسم، وذاعت على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم، حتى بلغ نقله عنهم حد التواتر، فمن أمثلة ذلك:

ما جاء في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «لَمَّا أُنْزِلَ الآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ حَرَّمَ تِجَارَةَ الْخَمْرِ»(١)، وما جاء عن جابرَ بن عَبْدِ اللهِ الأنصاريِّ رضي الله عنهما قال: «أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي فَتَرَكَ نَاضِحَهُ، وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ»(٢).

فإن قلت: هل تسمى سورة البقرة أو تسمى السورة التي يذكر فيها (البقرة)؟

الجواب: بل تسمى السورة سورة (البقرة)، وأول من اشتهر عنه ترك التسمية بهذه الهيئة، وزعم أنه لا بد أن نقول: "السورة التي يذكر فيها البقرة" الحجَّاج، وكره أهل العلم فعله،

---

(١) مسلم (٨٠٥).

(١) البخاري (٤٥٩)، ومسلم (١٥٨٠).

(٢) البخاري (٧٠٥)، (بناضحين) الناضح: هو البعير الذي يحمل عليه الماء.

ويبين ذلك ما رواه الْأَعْمَش رحمه الله، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ، يَقُولُ: وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ: أَلِّفُوا الْقُرْآنَ كَمَا أَلَّفَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا الْبَقَرَةُ، وَالسُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا النِّسَاءُ، وَالسُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ [في البخاري بتقديم آل عمران]. قَالَ: فَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ، فَسَبَّهُ وَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فَأَتَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، فَاسْتَبْطَنَ الْوَادِي، فَاسْتَعْرَضَهَا، فَرَمَاهَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ النَّاسَ يَرْمُونَهَا مِنْ فَوْقِهَا فَقَالَ: «هَذَا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَقَامُ الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»(١).

ستقول: هل لهذه السورة أسماء أخر غير اسم (البقرة)؟

الجواب: ذكر بعض أهل العلم عددًا من تسمياتها أو ألقابها، ولكنها ألقاب اجتهادية، فمنها:

١) **سورة الكرسيِّ**؛ لتضمنها آية الكرسي.

٢) **فسطاط القرآن**: لما رواه خالد بن معدان موقوفًا قال: «سورة البقرة تعليمها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة، وهي فسطاط القرآن»(٢)، إنه اسم مُشَوِّق، ذو مدلول حسن. **ولكنك قد تسأل: فما الفسطاط؟**

الجواب: الفسطاط هو الخيمة الكبيرة والسرادق العظيم، وسميت السورة به؛ لأنها حَوَتْ من التفاصيل القرآنية في آياتها العظام شيئًا لا تجده في بقية السور، فجمعت أصولًا للتشريعات والقصص والأمثال والعقائد والعبادات والنظم السياسية والدفاعية والاجتماعية، بل انفردت بذكر كثيرٍ من ذلك.

---

(١) البخاري (١٧٥٠)، ومسلم (١٢٩٦)، واللفظ له.

(٢) الدارمي (٣٤١٩)، البَطَلَة: أي السحرة.

ويرى ابن عطية ﵀ هذا اللقب يعبِّر عن قوَّة السورة وموسوعيتها الهائلة، فيقول: "ويقال لسورة البقرة: (فسطاط القرآن)؛ وذلك لعظمها وبهائها وما تضمَّنت من الأحكام والمواعظ، وتعلمها عبد الله بن عمر ﵄ بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من العلوم في ثمانية أعوام، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلًا"(١).

ويشرح المناوي ﵀ سبب تسميتها (فسطاط القرآن)، فيقول: "أي مدينته الجامعة؛ لاشتمالها على أمَّهات الأحكام ومعظم أصول الدين وفروعه، والإرشاد إلى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد"(٢).

٣) **سَنَام القرآن**: للحديث المتقدم في فضائلها.

٤) **الزَّهراءُ**: لحديث أبي أمامة ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا**»(٣). وَالْغَمَامُ: السَّحَابُ الْمُلْتَفُّ، وَهُوَ الْغَيَايَةُ إِذَا كَانَتْ قَرِيبًا مِنَ الرَّأْسِ، وَهِيَ الظُّلَّةُ أَيْضًا، وَالْمَعْنَى: إِنَّ قَارِئَهُمَا فِي ظِلِّ ثَوَابِهِمَا، فقد جاء عن عقبة بن عامر ﵁ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقته حتى يفصل بين الناس**»(٤).

وقد تتساءل عن سر تَسْمِيَةِ «البَقَرَةِ وآلِ عِمْرانَ» بِالزَّهْراوَيْنِ، فدعني أختصر لك الطريق، وأنقل لك خلاصة ما ذكره القرطبي ﵀ في أقوال أهل العلم في هذا:

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٨١).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤ / ١٩٦)، وقد وردت تسميتها بذلك في حديث مرفوع، وحكم عليه الألباني بالوضع.

(٣) أحمد (٢٢١٤٦)، وصححه الأرناؤوط.

(٤) أحمد (١٧٣٧١)، وصححه الأرناؤوط.

القول الْأَوَّلُ: إِنَّهُمَا النَّيِّرَتَانِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّهْرِ وَالزُّهْرَةِ، فَإِمَّا لِهِدَايَتِهِمَا قَارِئَهُمَا بِمَا يُزْهِرُ لَهُ مِنْ أَنْوَارِهِمَا، أَيْ مِنْ مَعَانِيهِمَا، وَإِمَّا لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى قِرَاءَتِهِمَا مِنَ النُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ **الْقَوْلُ الثَّانِي**.

القول الثَّالِثُ: سُمِّيَتَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمَا اشْتَرَكَتَا فِيمَا تَضَمَّنَهُ اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ ﵂ يَزِيدَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال:"إِنَّ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣]، وَالَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عِمرَان: ٢] (١).

ويمكنك أن تضيف قولًا رابعًا: وهو أن سبب تسميتهما بالزهراوين لإنارتهما طريق العالم بالتشريعات المبهرة، والأخبار المفصلة الصادقة التي تتضمن صلاح الدنيا والآخرة، ولأنهما تزهران لصاحبها طريقه نحو مجد الآخرة؛ إذ صور النبي ﷺ ذلك في الحديث.

وعلى الرغم من جمال هذه الأسماء إلا أن اسم (سورة البقرة) هو الاسم المعروف لها، حتى لا يكاد يذكر غيره، وهذا يجعلنا نطرح بتشوف وتطلع هذا السؤال عندما يفتح المصحف:

لماذا سميت هذه السورة وهي أكبر سور القرآن باسم سورة البقرة؟

تسمية الفاتحة بالفاتحة أمرٌ جلي، فهي فاتحة القرآن ومقدمته، فالتسمية متوافقة مع ترتيبها المصحفي، ولكن السورة التالية لها هي السورة الأكبر في القرآن، فإذا نظر القارئ إليها أول مرة يفاجأ عندما يجد اسمها سورة البقرة، ولا بد أن تثير هذه التسمية في نفسه التساؤل حول سبب هذه التسمية؟

---

(١) الدارمي (٣٤٣٢)، ابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسنه الألباني وحسين سليم أسد.

ها هنا –أيدك الله– تجد لآلئ القرآن تنثال عليك، وتَبهرك أشعة أنواره، أقبل بقلبك، وكن معي في التدبر، فقد سميت هذه السورة بـ(سورة البقرة) الحيوان المعروف، وقد كان يمكن لهذه السورة المباركة الشريفة أن تسمَّى بأسماء أخرى كأن تسمى باسم سورة الهجرة، أو تسمى باسم سورة القبلة، أو الاستخلاف، أو التقوى، أو البر، أو الكرسي، أو التداين، أو الصيام، أو غيرها من المواضيع التي ذكرتها هذه السورة المباركة، وكذلك كان يمكن أن تسمى تسمية تذكار لبعض رموز الإسلام مثل: (خديجة رضي الله عنها) التي أحبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم حبًّا خالصـًا نقيًّا بقي بعد موتها، ولها عظمة وقوة ومواقف في الدفاع عنه لم توجد في امرأةٍ بعدها، وكان موتها قريبـًا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقليل.. كان يمكن أن تسمى باسم (فاطمة رضي الله عنها) سيد نساء العالمين.. كان يمكن أن تسمى باسم (عائشة رضي الله عنها) فقد كانت زوجته البكر التي زُفِّت إليه بتسميتها من الله تعالى قريبـًا من نزول سورة البقرة، وقد قالت رضي الله عنها: "وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ"(١)، كان يمكن أن تسمى باسم سورة (المدينة) مثلاً، أو الأنصار، فقد استضافوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ديارهم.. لكن ذلك كلَّه لم يكن.

سميت هذه السورة باسم (البقرة)، وهو اسم لحيوان من جملة الحيوان، ليس له مزية خارقة أو فضيلة فارقة، سوى اللحم والدر والحرث! فعلام سميت أكبر سور القرآن باسمه؟

الجواب: إن تسمية هذه السورة المباركة بهذا الاسم تثير الإعجاب والانجذاب لأول وهلة، ومن الدلالات المنطقية لهذه التسمية العجيبة ما يأتي:

---

(١) البخاري (٤٩٩٣). (٢) تتكرت كلمة التقوى ومشتقاتها في القرآن الكريم (٢٢٦) مرة، منها (٣٤) مرة في سورة البقرة، أي ما نسبته (١٥٪)، وهذا يعني أن موضوع التقوى من الموضوعات البارزة في سورة البقرة. ينظر: المعجم المفهرس (ص ٧٥٨-٧٦١).

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الدلالات المنطقية لتسمية سورة البقرة بهذا الاسم

مفصل سورة البقرة (1)

الدلالة الأولى: هذه التسمية تدلنا على البناء التنظيمي والدستوري المبكر لحضارة الإسلام التي تشرق على العالم من المدينة؛ وتناسب الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها أمة الرحمة للعالمين في المجالات الفردية والجماعية، لأن الحضارة الجديدة تقوم على مبدأ ﴿سمعنا وأطعنا﴾، لا على التفكير البقري المتعنت المعاند:

هنا ربما يقال: وما علاقة ذلك باسم سورة البقرة؟

انظر إلى التسمية لترى أن المراد منها ذكر قصة بقرة بني إسرائيل، فقولنا سورة (البقرة) لا يعني هذا الاسم جنس البقر، وترجمتها بكلمة (cow) بالإنجليزية قصورٌ عظيم؛ وتقصيرٌ مخلٌّ؛ إذ هي بقرةٌ مخصوصة تتعلَّق بقصَّةٍ وقعت لبني إسرائيل، فاسم السورة رمزٌ ملتصقٌ بهم، وكان للقوى السيئة المتحكِّمة بهم غالبًا، ولعباد الأهواء والشهوات والعبث منهم ولعٌ عظيم بتعظيم البقر، وعبادة العِجْل.

وحتى نستطيع بيسر الربط بين اسم السورة ورمزية (البقرة)، وبين المواضيع المحورية التي تدور حولها السورة؛ لا بدَّ أن يجذبك الفضول إلى معرفة قصَّة هذه البقرة الإسرائيلية بصورة مجملة. هنا تشعر بأن الله –عزَّ جارُه– ذكر أنموذجًا عجيبًا جدًّا لنبيٍ من أعظم الأنبياء أجرى الله ﷻ على يديه لقومه من النعم والمعجزات ما لم يكن لغيرهم، فما الواجب على قومه إزاء ذلك؟

كان ينبغي على قومه أن يشعروا بعظيم تفضيل الله ﷻ لهم، وعَظَمة اختيارهم ليكونوا أمة موسى عليه السلام، وأن يربطوا حياتهم وأفعالهم، بالسمع والطاعة لما يبلغه موسى عليه السلام من ربه ﷻ.

وها هو أحد الاختبارات المركزية أمامهم:

فعندما سمعوا موسى –عليه الصلاة والسلام– يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: ٦٧] كان ينبغي لهم أن يصدِّقوا ويذعنوا ويقولوا: سمعنا وأطعنا، كيف لا؟ وقد أظهر الله ﷻ لهم على يدي نبيهم من آياته الباهرات ما تطيش له العقول ويذهب بالألباب،

فقد رأوا عصا صغيرة ضرب بها موسى عليه السلام البحر، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ثم رأوا أنهم يمشون بين جبال الماء حتى نجوا، ثم مشى عدوهم بين تلك الجبال فكان الغرق نصيبه دونهم: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فهم ينظرون ذلك كله، وذلك لعمر الله من أعظم الآيات، وأجلى البينات التي أيّد بها نبي من الأنبياء عليهم السلام.

هؤلاء القوم شاهدوا معجزات موسى عليه السلام التسع التي تمثّل آياتٍ كبرى في الدهر، فبعد جميع ذلك: أليس أولى لهم أن يمتثلوا ويسلّموا لله عز وجل وأمره؟

ألا ينبغي لهم أن يكفوا عن سياسية التعالي والعناد؟

ألا يجب عليهم أن يتركوا التعجب والتعجيب من أمر موسى عليه السلام لهم بأن يذبحوا بقرة؟

بلى، كان ينبغي أن يبادروا فيقولوا: سمعنا وأطعنا، لكنهم قالوا متلاعبين: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ مظهرين التحاذق والتذاكي، وتقديم عقولهم الكليلة وأفهامهم العليلة، على أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وخادعوا بالتمسك بالعقلانية غير العاقلة أمام النص.. لقد تمسحوا بالنواحي التجريبية، فرد عليهم موسى عليه السلام منكرًا ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

سبحان الله! بعد كلِّ ما شاهدوه من المعجزات تراهم يتضجرون ويتلاعبون، ثم يلمزون أعظم أنبيائهم بالاتهام غير المباشر بعدم العقل، وبالاستهزاء وهو المؤتمن على الوحي.. لبئس هذا الإيمان الذي يَدَّعونه.

وعلى الرغم من الجواب الفصل الذي قاله موسى عليه السلام، إلا أنهم ظلوا يتلاعبون بذلك الأمر الإلهي الواضح الصريح..

يا حسرة عليهم! لم يأخذوا الكتاب بقوةٍ ولا اهتمام، وسيراهم القارئ للقرآن من أمر ربهم يتهرَّبون، وبكلام رسولهم لا يعبأون.

هذا التفكير (البقري) يصادر الإيمان بالله.. يناقض الإيمان بالغيب الذي ذكره الله في أول هذه السورة.. يصادر الإيمان بالرسل.. يناقض الثقة في التشريع الإلهي.. ويضاد مبدأ (سمعنا وأطعنا) ومعنى (العبادة).

أراد الله تعالى لأمة محمد ﷺ أن يتفتح ذهنها على هذه الحقيقة التنظيمية العظيمة وهم يبنون دولة النور العالمية الجديدة التي تشرق من المدينة على العالم، ولذا ختم القصة بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] لتكون خطاباً لنا ولبني إسرائيل معاً، وذلك على قراءة الجمهور بصيغة الخطاب.

هذا الارتباط الرمزي لهذه السورة العظيمة ببقرة بني إسرائيل يجعل أمة الإسلام تبني حياتها وفق مبدأ الإيمان بالغيب، ومبدأ سمعنا وأطعنا، وليس وفق عقلية أصحاب (البقرة) الإسرائيلية.

لا عجب لما نادى النبي ﷺ الأنصار في حنين بأصحاب سورة البقرة أقبلوا إليه، حتى نصروه وانتصروا.

كان هذا السبب الأول الذي يظهر في التسمية، فهل من علاقة لتسمية السورة بهذا الاسم بمن حدثت لهم القصة؟

هذه أولى دلالات تسمية هذه السورة بسورة (البقرة) إنها التنبيه إلى المنهجية الحقة السوية للتعامل مع ما تتضمنه السورة من نظم دستورية، ونصوص قانونية، وأصول تشريعية، التعامل بمبدأ السمع والطاعة التامين للحكيم الخبير، والنأي كليًّا عن مواقف أصحاب البقرة الذين قصَّ الله ﷻ خبرهم.

الدلالة الثانية: لنعرف النفسية الإسرائيلية ولندرسها، ولنستبين أثر التعامل معها على أمة الإسلام إيجاباً وسلباً، ولتعلمنا بناء علاقاتنا الدولية معهم في الجانب السلبي والإيجابي وفق بيان هذه السورة المشرق، واستحضار اسم (البقرة) لا يعدو أن يكون تقريرًا لوسم لا يكاد يتخلَّف عن الأمة الإسرائيلية في مراحل تاريخها:

من هذه السورة المباركة، وتقريراتها الجليلة، وبيانها البديع، وأحكامها العظيمة، وقصصها المفصَّلة، مع أخواتها السبع الطوال، يأخذ المسلم قواعد وأسس التعامل مع غيره، لا سيما اليهود، فقد اشتملت سورة البقرة مع هذه السور على منهج كامل متقن لتعامل الفرد المسلم والدولة المسلمة مع غيرهم، في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية، في الحرب والسِّلم.

فهذه السورة من أهمِّ السور التي ينبغي على العاملين في صناعة القرار السياسي والشؤون الخارجية والسلك الدبلوماسي دراستها، وفهمها، واستخلاص قواعدها في التعامل معهم.

ولا يمكن للأمة أن تحقق المكاسب والانتصارات وهي تفتقر في قراراتها إلى معرفة سورة البقرة.

بل ترجع أهم أسباب كل انهيار وتقهقر في الأمة إلى إهمال الأخذ بالبصائر القرآنية التي تبثُّها سورة البقرة وآل عمران على وجه الخصوص، ولذا قال الله ﷻ عن بني إسرائيل وغيرهم في السورة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال عن بيان الآيات القرآنية بصفة عامة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهل من سبب لهذه التسمية يتعلق بالإعجاز في نقل المعلومات؟

هنا تأتي:

الدلالة الثالثة: الإشارة إلى الغنى الزاخر للمعرفة القرآنية بالمعلومات التفصيلية الدقيقة، فقد اكتنز ذِكْر بقرة بني إسرائيل إثارةً كافية لبني إسرائيل ولغيرهم لجذب انتباههم إلى مصدرٍ ثريٍ مليءٍ بالمعلومات التي يقتصر العلم بها على خاصّتهم:

يستبين للعالم مدى ثراء المعرفة القرآنية بتفاصيل الأحوال الأممية، بنقله لقصص الغابرين بتفصيل يجعل السامع كالمشاهد، حتى ليظن الظان أن النبي الأمي ﷺ درس تلك الأحوال والتفاصيل في دراساتٍ عليا، وقد سجل القرآن هذا الاندهاش والتحير والافتراء في الوقت ذاته أمام هذه المعرفة القرآنية الزاخرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

وربما تتساءل: وهل من دلالة رابعة لتسمية هذه السورة بسورة البقرة؟

أجيبك مبادرًا: نعم، فهنا:

الدلالة الرابعة: قصّة البقرة بينت أن تحقيق الفلاح والفوز الفردي والجماعي مرتبط بالإيمان بالغيب، ومن فقده فمصيره الخسارة والذل.

فإن بني إسرائيل أمرهم نبيهم بشيء من أمر الغيب، فقابلوه بالاستهزاء والتشكيك والريب، فباءوا بالذلة والمسكنة، ولو سلموا لأمر الله واستجابوا له، وآمنوا بالغيب، لكانوا مفلحين فائزين.

فإن الله تعالى يخبرنا في أول هذه السورة عن المؤمنين بالغيب، فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ٥]، فرتَّب الفلاح على الإيمان، الذي خصَّ من جملته الإيمان بالغيب، وهذا يحبونا مفهوم بأن من فقد هذا الإيمان، فمصيره حياة الخسارة والذلة والمسكنة، حياة ترتبط بالكفر والعصيان، وجاء التصريح بذلك في قوله –تعالت عظمته– عن بني إسرائيل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

ستقول: ما علاقة ذلك بأصحاب التفكير البقري؟

الجواب: قصة البقرة من أولها تطبيقٌ عمليٌ، واختبارٌ حقيقي للإيمان بالغيب، فإنه لا توجد علاقة بين الكشف عن هوية المجرم القاتل وذبح البقرة غير ذلك، وقد كشفت القصة عن تحليل للنفسيات المنفلتة من بني إسرائيل في هذه السورة، وأظهرت حالتهم العاطفية الرهيبة التي تميل إلى العناد، وتسبب الإجرام والمآسي العالمية، كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. فأسهموا في الفساد الأرضي الذي تساءلت عنه الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأبانت السورة السرَّ في وجود القلوب القاسية؛ إذ أضحت قصة (البقرة) رمزاً لفهم كيفية تنوع القلوب الإنسانية، على ما يأتي بيانه في الدلالة الخامسة.

الدلالة الخامسة: صارت قصة (البقرة) مدخلاً لفهم القلوب البشرية التي ترجع إلى نوعين: القلوب الوجلة اللينة العاقلة، والقلوب القاسية المريضة.

أما النوع الأول: القلوب الوجلة اللينة العاقلة فهي التي تؤمن بالغيب إيمانها بالشهادة، وتعتمد مبدأ (سمعنا وأطعنا) أمام الأنظمة التشريعية الإلهية كلها، ويثمر هذا المبدأ على سيرهم بالخير في العالم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما النوع الثاني: القلوب القاسية، فهي التي مُسخِت، ففاقت الحجارة في قسوتها وإفسادها الأرض، فتحول أصحابها إلى كائناتٍ مجرمةٍ لا تعبأ بالغيب، ولا تقيم وزناً للرقابة الإلهية، وتسخِّر كلَّ خيرات العالم للتدمير، بدلاً من البناء والسكينة والتعمير، وقد قال الله ﷻ عنها في قصة البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ﴾ [البقرة: ٧٤].

الدلالة السادسة: ارتباط تسميتها بموضوع إحياء الموتى:

فقد ورد ذكر هذا الموضوع في خمس قصص في هذه السورة، حيث قال الله في قصة بقرة بين إسرائيل، إذا قلنا إن الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] للتعليل، وإحياء الموتى مقصد عظيم من مقاصد السورة ينبغي الالتفات إليه.

الأساس الرابع: المواضيع الكبرى التي تناولتها سورة البقرة وأثرها في جعل هذا العنوان (إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية) عمودًا لهذه السورة:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الأساس الرابع:

المواضيع الكبرى التي تناولتها سورة البقرة

1. الارتقاء بالبشرية من مرتبة العبودية إلى مرتبة (التقوى).
2. سورة البقرة هي سورة الجامعة الإسلامية.
3. الخلافة الإنسانية في الأرض.
4. وراثة الأمة المسلمة للملة الإبراهيمية.
5. الإحياء الجسدي للموتى، والإحياء النفسي للنفوس المستضعفة.
6. مبدأ السمع والطاعة لأعظم الدساتير الإلهية، واجتناب ورطة أصحاب البقرة الإسرائيلية.

مفصل سورة البقرة (1)

وهنا سنتساءل:من أجل تحديد العمود المركزي للسورة لا بد أن ننظر في الموضوعات الكبرى التي عالجتها السورة، فما هذه الموضوعات البارزة التي رأيناها في سورة البقرة؟

الجواب: من أبرز المواضيع التي نراها في هذه السورة:

الموضوع الأول: الارتقاء بالبشرية من مرتبة العبودية إلى مرتبة (التقوى):

أرست سورة البقرة منظومة واسعة في بيان التقوى ووسائلِها، وآثارِها العظيمةِ في السعادة الإنسانية الدنيوية والأخروية.

لك أن تقول بأن هذه السورة دارت حول واحد من أعظم الغايات الإنسانية، وهدف من أسمى وأعظم الأهداف الحيوية.

إنه الهدف الأعلى الذي يُعَدُّ مطمح الطامحين الباحثين عن السعادة والترقي.. هذا الهدف هو (التقوى).

فالتقوى تعني الحماية من عقوبة الله، وذلك يقتضي الوقاية من المخافات المستقبلية الدنيوية، والأخروية، والتقوى تثمر لك لذة العبودية بين يدي الملك الحق جل ثناؤه.

لكنك ستتساءل: كيف نحكم بأن مبدأ التقوى هو أحد الموضوعات البارزة في سورة البقرة، حتى وصلنا إلى احتمال أن يكون هو الموضوع الكلي لها، مع أن هذا المبدأ نجده في كثير من السور؟

الجواب: لا تخطئ عينك أن ترى (التقوى) تتكرر في هذه السورة[١] بصورةٍ منظمةٍ منسقةٍ وفق منهجيةٍ واضحة لتأخذ بأيدي الأفراد والجماعات إلى صبغ الحياة بصبغة التقوى، وتأمل ذلك معي في هذه الإشارات التي نجدها في آياتها مرتبة:

---

(١) تتكرت كلمة التقوى ومشتقاتها في القرآن الكريم (٢٢٦) مرة، منها (٣٤) مرة في سورة البقرة، أي ما نسبته (١٥٪)، وهذا يعني أن موضوع التقوى من الموضوعات البارزة في سورة البقرة. ينظر: المعجم المفهرس (ص ٧٥٨-٧٦١).

فأنت ترى ذكر التقوى ابتداء: من بيان أعظم الأصناف انتفاعاً من الكتاب الخاتم حيث قال الله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وهنا تلاحظ باهتمام أن السورة بدأت بالتقوى في هذه الآية.

وختامها الترتيبي اقترن بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

كذلك ختامها التاريخي، إذ كان آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وتمضي في الآيات فيتكرر ذكر التقوى لتكون هي الغاية من مرتبة العبادة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ثم تسمع ذكرها بعد ذلك باعتبارها المطلوب من بني إسرائيل وسائر الأمم في العلاقة بالله ﷻ ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وفي التعامل مع الأحداث المستقبلية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨].

ثم تجد بعد ذلك البيان القرآني للوسائل التي تؤدي إلى التقوى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

ثم ترى تفصيلاً دقيقاً يبين الأعمال والصفات والخصال التي تُبَلِّغُ هذه الرتبة الشريفة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وتربط السورة بين التقوى وبين إقامة أحكام الله وحدوده، وأن ذلك الطريق الأمثل الذي به تقام الحياة وتبنى وتحفظ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ويعتبر البيان القرآني المشرق في السورة التقوى الأساس في الحياة الاجتماعية والوصايا وفي في المسائل الإرثية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ثم ترى التشويق للتقوى باعتبارها الغاية من دورتي التدريب التزكوي والسلوكي العظيم في الصيام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكذلك هي الغاية المقصودة من دورة الحج: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وإذا كانت التقوى غاية لمجالات العبادة؛ فإن النظام القرآني يجعلها وسيلةً للوصول إلى تحقيق النجاح، والارتقاء في مراتب الفوز والفلاح في المجالات الفردية والجماعية الدنيوية والأخروية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ثم تجد السورة تربط بين حماية المجتمع وبين الدفاع عنه بآداب التقوى وأخلاقياتها وسيلةً وغاية: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ومن بعد ذلك تنثال عليك الآيات التي تربط الحياة بالتقوى، فترى الآيات تنطلق بك من:

تقديم البرامج العظيمة للنفس في الدنيا بضوابط التقوى التي تراقب الكلمات والحركات من الإنسان لأنه ملاقٍ لله، ولن يخفى عليه منه شيء: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

إلى ربط الحياة الأسرية لقاء وافتراقًا بالتقوى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

إلى ربط مسائل التفاهمات الأسرية حول الحضانة، والرضاعة، وحقوق الطفل بالتقوى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إلى ضرورة إشاعة مبادئ العفو والتسامح في مسائل التنازع الأسرية، وبيان أن ذلك من أبجديات التقوى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

إلى جعل إكرام النساء المطلقات، والإهداء لهن تطييباً لخاطرهن من خصال المتقين: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

إلى بيان أن إصلاح الأوضاع والأنظمة الاقتصادية، وتحريم الاستغلال الربوي المدمر جزء من خصال التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

إلى بيان أن التداين الاستثماري أو الاستهلاكي، وإدارة التجارات مرتبطة بالتقوى وإلا صارت لعنة على الناس والمجتمعات: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى الربط بين أداء الأمانات والشهادات وبين متطلبات التقوى: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فـ(التقوى) نظام كاملٌ، وصياغة رائعة للحياة الفاضلة في جميع المجالات، وهي جمالٌ ينير المسيرة البشرية بأعظم الأنوار، وجنة تدفع عنها الأضرار، وبركة تستجلب بها الصالحات، وتحمي من الأوزار.

ولعلك بعد هذا البيان تقول: وإذا كان هذا هو شأن التقوى وحضورها في سورة البقرة فلم لا نعتبرها عمودها الكلي ونكتفي بها؟

الجواب: لأن التقوى على عظم شأنها ومحوريتها في سورة البقرة لا تعدو -مع ذلك- أن تكون موضوعًا من بين جملة من الموضوعات الكبرى المحورية التي سنجليها تباعًا.

هذه الموضوعات تتعاضد جميعها في إبراز عمود السورة ورسم خريطتها الكلية، ومن هذه الموضوعات:

الموضوع الثاني: سورة البقرة هي سورة الجامعة الإسلامية:

وقد تتساءل: ما معنى أن تكون سورة البقرة سورة الجامعة الإسلامية؟

الجواب: هذا يعني أن سورة البقرة تدور حول موضوع إقامة الجامعة الإسلامية، انطلاقًا من المدينة النبوية(١)؛ إذ صارت المدينة النبوية منارةً للعالمين في إقامة حضارة عادلة مزدهرة.

وألمح الطاهر بن عاشور رحمه الله إلى هذا المعنى، فجعل سورة البقرة سورة الجامعة الإسلامية أي القوم المجتمعون على الإسلام الذين يكونون ضمن المدينة المستقرة النامية، وليس البادية المتنقلة الظاعنة.

فأنشأت هذه السورة المجتمع والدولة المتكاملين في تنظيماتهما الداخلية، وعلاقاتهما الخارجية، فمثَّلت دستورًا متكاملًا يضمُّ المواد المتعلقة بإنشاء الحياة المستقرة المتناغمة بين المدينة والبادية، وتنميتها، وحمايتها.

---

(١) ملت مسبقًا إلى أن سورة البقرة هي سورة المدنية الإسلامية، وذلك نسبة إلى المدينة النبوية، ولأن التمدن يعني زيادة التقدم الإنساني، لكن العبث اللاديني بهذا المصطلح جعلني أنفر منه، وأرشدني د/ إسماعيل السهيلي إلى أن د/ محمد عمارة رحمه الله أكد على أن العبث اللاديني بهذا المصطلح وصل إلى درجة أن جعلوه الطُّعم الذي روج له المفلسون للقضاء على الدولة الإسلامية التي نص عليها الدستور المصري، وهي الحيلة الخبيثة التي أرادوا من خلالها "تبليغ" المصريين للعلمانية. انظر: الدكتور محمد عمارة: مدنية الدولة طعم لمحاربة الإسلام، في موقع قصة الإسلام islamstory، على الرابط: https://cutt.us/B١UL٢

هذه السورة أسَّست دولة وعاصمة يقام فيها النظام الإسلامي، وتشرق منها الحضارة الإسلامية لتنير مشارق الأرض ومغاربها بعدلها ورحمتها. لا عجب أن ترى هذه السورة جامعةً لموضوعات متعددة.

وقد بقيت آيات هذه السورة تنزل إلى قبيل وفاته ﷺ تصبغ الحياة الإنسانية بصبغة الله الطاهرة العادلة. بقيت آيات هذه السورة تمنح المجتمع أنجع السبل في إصلاح الحياة، فآخر آياتٍ نزلت على النبي ﷺ كانت في هذه السورة، وهي آيات الربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥](١)، إلى نهاية آيتي التداين الاستثماري والاستهلاكي.

مثَّلت هذه السورة دستورًا متكاملًا يضمُّ المواد المتعلقة بإنشاء الحياة المدنية وتنميتها وحمايتها، ويضمُّ القوانين التفصيلية في المجالات التشريعية: العبادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل والنفسية، والوسائل الوعظية المكملة لها، وبها أقام النبي ﷺ مجتمعًا في غايةٍ من الرُّقِّي والحضارة بناء على الرؤية الإسلامية، واستطاع هذا النظام الحضاري بكل يسر أن يستوعب أعتى الحضارات المعاصرة المجاورة للمسلمين.

ولا يعزب عنك –أيدك الله– أن منظومة (الحضارة والمدنية الإسلامية) ترتبط ارتباطًا وثيقًا بـ(التقوى)؛ إذ التقوى هي النقطة المركزية في البناء الإسلامي في العبادات الذاتية،

---

(١) هناك خلاف في تحديد آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقيل: آيات الربا، وقيل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هِيَ خِتَامُ الْآيَاتِ الْمُنْزَلَةِ فِي الرِّبَا؛ إذ هى مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهِنَّ، كما قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

والأحكام التشريعية؛ سواء أكانت قضائية، أم جنائية، أم معاملاتية، أم اجتماعية كالنكاح والطلاق والإنفاق، وترى التقوى حاضرة كذلك في القضايا السياسية والإدارية.

هذان الموضوعان: الأول والثاني يأخذ أحدهما من الآخر، فما الموضوع الكبير الثالث الذي يبرز في السورة؟

الجواب: هنا يأتي:

الموضوع الثالث: الخلافة الإنسانية في الأرض:

ذكرت سورة البقرة القصة الحقيقية لوجود الإنسان في الأرض، وتنفرد سورة البقرة بهذه القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠]، فبين الله ﷻ فيها أصل الاستخلاف، وارتباطه بوجود الإنسان، وغاياته وأهدافه، وضوابطه، ونُظُمه، وآدابه، ووسائل النجاح فيه.

ربما نتساءل: أظهرت سورة البقرة الحقيقة التي لا تجدها في الكتب المنزلة الأخرى، ولا في تخرصات الكتب الفلسفية؛ لماذا؟

الجواب: لأن الوحي الذي نزل بالحق هو الذي ينطق ها هنا.

تفاجئنا سورة البقرة بتقرير أن وجود الإنسان في الأرض كان حتميًّا لتفعيل واجبات الاستخلاف، وليس عقوبة كما يظهر من نص التوراة الحالية، وتفصِّل سورة البقرة لنا وسائل النجاح في هذا الاستخلاف من الناحية الفكرية والعاطفية بالإيمان، ومن الناحية العملية بالعبادات والأخلاق.

تحبونا سورة البقرة إذن بالتطبيقات التشريعية الخاصة بالاستخلاف الإنساني في الأرض، وما قبل الآية المركزية التي ذكرت مبدأ الاستخلاف تُعَدُّ مقدِّماتٍ لها، ففيها ذكر الله ﷻ أصناف العالم، وأنهم متقون وكافرون ومنافقون، وما بعدها نماذج للاستخلاف:

فتقصُّ علينا سورة البقرة قصَّة أكبر أنموذج للاستخلاف الفاشل: إنه (الاستخلاف الإسرائيلي في عهد موسى عليه السلام، ثم في الأجيال التي سارت على المنهج ذاته)، وبدأ ذكرهم في السورة في موضعٍ مبكرٍ منها، حيث قال الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، فكان أن أخلفوا الوعد، فكانوا أنموذجاً سيئاً وفاشلاً في أغلب أحوالهم، ولعل الابتداء بذكرهم إنما كان لأنهم أعتى أنموذج سيبقى معادياً للحياة الإسلامية النقية، فقد أفاض الله سبحانه وتعالى في ذكرهم من أجل ذلك.

وفي المقابل ذكر الله تعالى نماذج ناجحة للاستخلاف في الأرض، **منها هذان الأنموذجان:**

الأول: الاستخلاف الإبراهيمي، فقد أعلى الله شأنه، ورفع ذكره، وجعله قدوة وإماما لمن بعده: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والأنموذج الناجح الثاني: الاستخلاف الإسرائيلي في عهد طالوت ثم داود عليه السلام: ففي زمن الابتلاء الشديد الذي حلَّ بهم بعد موسى عليه السلام، بعث الله عز وجل لهم مُلكاً جديداً، وحكماً رشيداً، قادهم فيه طالوت، ثم داود عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وفي هذه النماذج ذكرت آداب الخلافة في الأرض، ونظمها وأحكامها في المجالات الإنسانية كافة

وهنا يشعر المرء بأن موضوع (الاستخلاف الإنساني في الأرض) جديرٌ بأن يكون عموداً للسورة، وحق له ذلك، فهل هناك موضوع كلي آخر بارز في السورة؟

الجواب: نعم، وهنا يأتي:

الموضوع الرابع: وراثة الأمة المسلمة للملة الإبراهيمية، وإظهار أن دين إبراهيم وابنيه وأحفاده إنما كان الإسلام، ولذا أرجعت للقبلة الأصلية مكانتها؛ لتشكّل عاصمة للإلهام العالمي:

ترى في السورة ظهورًا بارزًا لإبراهيم عليه السلام، وكيف جعله الله تعالى شأنه للناس إمامًا، فاجتمع على إمامته اليهود والنصارى والمسلمون، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾، **ويخبرنا الله تعالى ذكره أن وراثة إبراهيم عليه السلام لا تكون بالانتساب بل بالاكتساب** ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة ١٢٤].

ويخبر الله جل جلاله العالم بمكان أول بيت وضع للناس ليكون المكان المركزي في الأرض، ويقص علينا كيف جدد إبراهيم بناءه مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، ويعلن للبشرية أن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام لم يكن إلا الإسلام: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٢].

وتنبهر عندما ترى التأكيد على أن الوصية التي أوصى بها إسرائيل بنيه لم تكن إلا أن يتخذوا الإسلام دينًا، وأنهم أقروا بذلك حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٣].

وفي هذا المحور تجد التأكيد بعد التأكيد على أن الإسلام دين الأنبياء جميعًا وخاصَّة الأنبياء المذكورين في "التناخ"(١)، و"التناخ" يمثِّل الكتاب المقدس اليهودي، ويسمى التناخ المقرا מקרא.

---

(١) يعرف العهد القديم بالعبرية بالـــتناخ، ويكتبونها بالعبرية (ت، ن،ك) وهي حروف اختصـار من الألفاظ (توراة)، نبوئيم (الأنبياء)، كتوبيم (الكتب)، وهي الأجزاء الثلاثة الكبيرة التي يتألف منها العهد القديم: الأول: الأسـفار الخمسـة (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية)، والثاني: أسـفار الأنبياء، ويتكون من أسـفار الأنبياء المتقدمين، وهي: (يشـوع، القضـاة،

فالأنبياء المذكورون في التناخ يجملهم الله ﷻ في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٦].

وهنا يأتي ذكر القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى مكانها الأصلي.. إلى الكعبة لتكون من أعظم الآيات التي يعلمها أهل الكتاب لكنهم يصرون على كتمانها حيث يقول الله ﷻ: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة ١٤٤].

كان ذلك توطئة لاستفزاز المسلمين ليقوموا بدورهم المنتظر بعد ذلك في تحرير الكعبة المشرفة من الرجس الوثني، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه[(١)]، وذلك لتعود الريادة إلى عاصمة النور الإلهي في الأرض فتضيء للبشرية الدروب: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة ١٥٠].

صموئيل الأول والثاني، الملوك الأول والثاني)، وأسفار الأنبياء المتأخرين، وتتكون من ١٢ سفرًا، والثالث: الكتب المدوّنة (كتب الحكمة)، وتتكون من ١٢ سفرًا". ينظر: الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم (ص: ٣٢٩-٣٣٧).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٤/ ٤٣).

وتجعل السورة ذلك كلّه ملهمًا للأمة الإسلامية الخاتمة لترث الملة الإبراهيمية تطبيقًا ونشرًا، وتنجح في نظام الاستخلاف، وتنشر الإسلام الذي كان دين إبراهيم وأبنائه وأحفاده، لا لتعبث بالدين باسم إبراهيم عليه السلام(١).

ربما نتساءل: في المواضيع الأربعة الماضية نجد ترابطًا واضحًا، فهل هناك موضوع من الموضوعات الكبرى في السورة غير ذلك؟

الجواب: نعم، وهنا يأتي:

الموضوع الخامس: الإحياء الجسدي للموتى، والإحياء النفسي للنفوس المستضعفة:

ترى في السورة جليًّا مبدأ إحياء الموتى، وبعث الحياة في النفوس المستضعفة، ويظهر ذلك في صور ومظاهر متعددة:

المظهر الأول: المبدأ العام الدال على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى بخلق الخلق من العدم، أو بإخراجهم من الأموات، ويبصرنا بذلك قول الله جل مجده: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

---

(١) ظهر حديثًا ما يسمى بالديانة الإبراهيمية، وهي دعوة لنبذ الخلافات بين أتباع الديانات السماوية الثلاث، ووسيلة للبحث عن مشتركات تجسّد قيم الإخوة، والتسامح، والتعايش، وحل الصراعات في المنطقة حسب زعم دعاتها، وذلك عن طريق جمع رجال الدين من كافة الأديان، والساسة للاتفاق على (مشترك ديني) سُمّي "بالمشترك الإبراهيمي"، عبر تغليب المشتَرَك منها وتنحية المختَلف عليها، لتأتي الحسابات السياسية بالنص الديني المتقاطع بين الأديان الثلاثة، أو الدين الإبراهيمي، أو "الدين العالمي الواحد"، وترجمها على الخريطة السياسية، حتى تصبح مصدر الحكم الكوني العالمي، فهذه أهدافها في الظاهر، أما أهداف هذه الدعوة المشبوهة الباطنة، فهي تثبت وجود إسرائيل في المنطقة، وتهويد الثقافة والأفكار والعقائد، وإلغاء خصوصية الأديان في المنطقة، وبالتالي تكرّس إسرائيل قوتها وسيطرتها عليها، ومن ثمّ تزايد نفوذها في العالم على مبدأ (إبراهيمي) يشرِّع وجودها ويمنحها المبرِّر التوسعي على حساب جغرافيا المنطقة العربية، ينظر: الدبلوماسية الروحية والمشترك الإبراهيمي، هبه إبراهيم (ص: ٢٦).

المظهر الثاني: ذكر الله ﷻ قصة قوم ماتت قلوبهم، فأراهم الله ﷻ معجزات متعددة في إحياء الأجساد الميتة؛ عسى أن تكون سببًا في إحياء القلوب، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٦].

المظهر الثالث: جعل الله مبدأ إحياء الموتى أحد العبر والآيات المفصلية في قصَّة أساسية من قصص التجربة الإسرائيلية، فقال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

المظهر الرابع: بين أن الموت في سبيل الله دفاعًا عن الأوطان والرجال والنساء والولدان حياة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

المظهر الخامس: بين أن الخوف من الموت لا ينجي منه إذا حضر أجله، وفي ذلك ذكر الله ﷻ قصَّة أولئك الذي خرجوا فرارًا من الموت، فأماتهم الله، ثم أخبرنا أنه أحياهم أجسادًا وأفكارًا؛ لجعلهم آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٤٣].

المظهر السادس: ذكر الله ﷻ ذلك في القصص الثلاث الأخيرة في السورة، وهي القصص المدهشة، وتكرر فيها ذكر إحياء الموتى، فقال في أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]، وقد تكرر فيها ذكر إحياء الموتى، بصورة عجيبة غاية في الإبهار.

وهنا يهجم عليك السؤال: هل كان تنوع الأساليب والقصص في بيان قدرة الله الباهرة على إحياء الموتى جسديًّا، إيذانًا بأن القرآن إحياء للموت العقلي والفكري الذي ترزح الأمم تحت وطأته؟

الجواب: هنا ترى عجباً.. ترى تكرر لفظة (بعث) في سورة البقرة، كأنها جاءت لتوقظ الناس من غفلة الواقع وسكرة الحياة، إلى ما بعد الموت من بعث وحساب، إلى الانتباه لأهمية المبعوث في إحياء الموات، فقد ذكر الله ﷻ لفظ (البعث) لبيان إحياء الموتى بأجسادهم على الحقيقة فقال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، وقال: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال في سورة الأنعام: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام: ٣٦].

وفي المقابل ذكر الله ﷻ اللفظة نفسها في سياق الحديث عن إحياء موتى القلوب والعقول، وكثيراً ما اقترن ذلك بإخراج بني إسرائيل من حالة الاستضعاف والذلة والهوان إلى الانتصار فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال في بيان تنظيم شأن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

كما اقترن بإحياء الأمم المغلوبة لإيقاف شرور بني إسرائيل فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]، وهنا ندرك الأنوار العظيمة التي تختبئ في هذه الكلمة في قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبذا وصف الله ﷻ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي هذه المظاهر التي تكررت في هذه السورة بشكل

لافت، ما يشير إلى أنه يجب إحياء الأمة بهذه السورة، وما اشتملت عليه من أحكام وتشريعات، من شأنها أن تجعلها في مقدمة الأمم في كافة المجالات

ربما نتساءل: وهل برزت مواضيع أخر غير هذه المواضيع الخمسة السابقة؟

الجواب: نعم. وهنا نشير إلى:

الموضوع السادس: مبدأ السمع والطاعة لأعظم الدساتير الإلهية، واجتناب ورطة أصحاب البقرة الإسرائيلية:

فيظهر لك جليًّا أن أهم الدروس في قصَّة البقرة الإسرائيلية يتمثل في الالتزام بمقتضيات القاعدة الشرعية في الامتثال التعبدي، والبناء الإداري والحياتي على أسس المنهج الإسلامي: أعني قاعدة: (سمعنا وأطعنا).

ربما نتساءل: لماذا أكدت سورة البقرة على نظام (سمعنا وأطعنا)؟

الجواب: نظام (سمعنا وأطعنا) يعني طاعة الله رب العالمين، ورسوله الأمين ﷺ دون تردد أو تثاقل أو إبطاء أو تحرج، وهو الأساس لقاعدة البناء السياسي في الدولة الإسلامية، حيث تتبوأ الطاعة السياسية مكانًا مركزيًّا بين مفاهيم النظرية السياسية الإسلامية، فكلُّ سلطة سياسية لا يمكن أن تحقِّق الوظائف والمهام المناطة بها ما لم تتمتع بالسمع والطاعة من قبل رعاياها، وهذه الطاعة طاعة مبصرة تحتكم للمبدأ المؤسس للطاعة الإلهية (سمعنا وأطعنا) الذي يرسي التسليم لله تعالى، فهي تبع لذلك وفرع عنه.

فالثابت أن طاعة السلطة السياسية الحاكمة ليست واجبة لذاتها، وإنما للمقاصد والأهداف العليا التي جاءت بها الشريعة، والتي لا بد لإقامتها من سلطة وحكم. ومعنى هذا أن الطاعة السياسية المنبثقة من الطاعة الإلهية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بانتهاج تلك السلطة في تدبيرها وسلوكها لما من شأنه تحصيل تلك المقاصد التي من أجل الوفاء بها أسندت إليها مقاليد

الحكم، والتي أجملها فقهاء السياسة الشرعية تحت مقصدين وظيفيين كبيرين هما "حراسة الدين، وسياسة الدنيا به"[(١)].

لذلك نلاحظ وجود علاقة ارتباط شرطي بين طاعة الأمة لحاكمها ونصرته، وبين التزامه بالطاعة الإلهية (سمعنا وأطعنا).

وينقل مُصْعَب بْن سَعْدِ بن أبي وقاص رحمه الله كلمة دستورية جامعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه توضح التكامل بين الطاعة المبصرة، والسمع الذي يرجع إلى الشرع، فيقول: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه كَلِمَاتٍ أَصَابَ فِيهِنَّ الْحَقَّ، قَالَ: «حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَأَنْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَحَقٌّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ، وَيُطِيعُوا وَيُجِيبُوهُ إِذَا دَعَا»[(٢)].

ربما نتساءل: كيف ظهرت العلاقة بين اسم السورة (البقرة) وبين مبدأ السمع والطاعة؟

الجواب: هنا تظهر لنا قصة البقرة الإسرائيلية حيث وجدنا موسى عليه السلام يأمر بني إسرائيل، فيقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ وبدلًا من أن يقولوا: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: ٦٧].

أما الحضارة الجديدة التي تؤسسها سورة البقرة في المدينة فتنطلق من مبدأ (سمعنا وأطعنا):

﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ هو أساس الإيمان الذي ميز المتقين وذكره الله عز وجل أول السورة.

﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ هو مفتاح الحياة الحقيقية أمام كلِّ أمرٍ إلهي بلَّغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه.

قلِّب الطرف –أيدك الله– في السورة لترى أن الله عز وجل بين ضرورة السمع والطاعة والانضباط بالقوانين التي أنزلها لتجد البشرية طِيب الحياة وجمالها، وتستنشق سعادتها.

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي (ص٣)، والمقدمة لابن خلدون (ص١٩١).

(٢) سنن سعيد بن منصور (٦٥١) ومصنف ابن أبي شيبة (١٢٥٧٨).

كرَّر الله -تعالى ذكره- الأمر بالسمع والطاعة في صورٍ مختلفة، فمن ذلك قوله -جلَّ مجده-: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]، وبين الله ﷻ ضرورة الجدية في التعامل مع القوانين الإلهية الضامنة للحياة الآمنة في قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ [البقرة: ٩٣].

ومما يظهر عظيم شأن هذا المبدأ، ارتباط التقوى والاستخلاف به، فإن السمع والطاعة هما لُبَّ التقوى وعمادها.

ولا يكون الاستخلاف الإنساني في الحياة الأرضية، إلا بهما.

نلاحظ أن عمود الاستخلاف الناجح الذي يقوم عليه: احترام القانون الإلهي الذي عبَّرت عنه السورة بمبدأ (السمع والطاعة).

فالسمع والطاعة يمثلان التطبيق العملي للتقوى، والاستخلاف الناجح يقوم على الإنسان المتقي المطيع، الذي يحقق الاستقامة على شريعة الله، وهو ما عبَّرت عنه السورة بمبدأ: (السمع والطاعة).

وهنا ربما تقول: هل مبدأ سمعنا وأطعنا يختص بالمحكومين؟ فيجب عليهم أن يسمعوا ويطيعوا دون غيرهم؟

الجواب: (سمعنا وأطعنا) نظام إلهي يستقيم عليه الحاكم والمحكوم، وترى هنا جمال سورة البقرة حيث ختمها الله ﷻ بذكر أن هذا النظام يستقيم عليه الرسول والمؤمنون، فيقول الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

نظام (سمعنا وأطعنا) أوجد عقدًا اجتماعيًّا بين الحاكم والمحكوم لكنه اشترط عليهما معًا الرجوع إلى الكتاب والسنة، فكانت هذه العلاقة التعاقدية بين طرفي المعادلة السياسية -

الحكام والمحكومين – محل اتفاق فقهاء السياسة الشرعية، فقد أكد الماوردي وأبو يعلى، وغيرهما: على أنه متى ما قام الإمام بمبدأ الطاعة الإلهية وجب على المحكومين طاعته(١).

وهذا الأساس يقدِّم تفسيرًا حقيقيًّا لعلاقة الأمر والطاعة في النظرية السياسية الإسلامية، باعتبارها علاقة يترتب عليها التزامات تعاقدية متبادلة بين المتولي لمقاليد الحكم والأمة، بحيث يكون عدم وفائه بالتزاماته مبررًا لتحلل الأمة من التزاماتها حياله في الطاعة والنصرة.

وإذا كانت الأمة آثمة أشد الإثم إن أخلت بالوفاء بحقوق الإمام العادل، فإنها في المقابل تكون آثمة أشد الإثم إذا استمرت في طاعة الحاكم الذي يتعمد الإعراض أو الإخلال بالمبدأ القرآني (سمعنا وأطعنا)، فالمقرر شرعـًا أنه متى ما تابع المحكومون الحكام الذين يتعمدون ويصرون على مخالفة الكتاب والسنة، وانقادوا لأوامرهم الباطلة ومناهجهم في الحكم المخالفة لشرع الله حق عليهم العقاب، ولن ينفعهم اعتذار ولا براءة منهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وبهذا الفقه لمبدأ الطاعة الإلهية (سمعنا وأطعنا) وما وضعه من حدود للطاعة السياسية لا يمكن للأمة أن تنقاد وتخضع لحاكم معتدٍ ظالم إذا أمرها بما يغضب الله تعالى، لأنها مسؤولة أمام الله ﷻ عن هذا الانقياد المحرم(٢).

ربما نتساءل: كيف ظهرت قوة مبدأ (سمعنا وأطعنا) في حماية الإنسان مقارنة بالتصورات المحرفة؟

الجواب: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ مبدأ يحمي من الطغيان السياسي والديني؛ لأنه يجعل

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص٤، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص٣٤.

(٢) د. عبد الكريم زيدان، الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية، د. م، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ط٢، ص٩٥، ١٩٧٠م.

المؤمنين مرتبطين بمصدري الوحي (الكتاب والسنة المقبولة) فتكون الطاعة السياسية للحاكم مبصرة مهتدية تحتكم للطاعة الإلهية، وفي مقابل ذلك نجد في الأدبيات الكنسية صورة مناقضة أشد المناقضة لهذا المبدأ. إذ نجدها تأمر بالطاعة العمياء وتحث عليها، فعلى سبيل المثال جاء في رسالة (القديس بولس) إلى مؤمني روما: "١٣: ١ لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ.
١٣: ٢ حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً"(١).

فرق كبير بين ﴿سمعنا وأطعنا﴾ التي أعلنها النبي ﷺ والمؤمنون، وهذا التحريف "وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ "، فقد صار هذا المبدأ المحرف أساسًا استند عليه طواغيت القيادات الدينية والسياسية النصرانية لتبرير الحكم القمعي وأكل أموال الناس بالباطل، بل ما زالت الكنيسة تقاوم أحيانًا كثيرة أن يحاكم القُسُس المغتصبون محاكمة عادلة مماثلة لمحاكمة سائر الناس، بل يظهر أن هذه المقولة كانت الأساس لأن يعطي رجال الكنيسة لأنفسهم الحرية في التعذيب القمعي الوحشي في محاكم التفتيش، وكأنهم يمثلون الحكم الإلهي.

وسيراً مع هذا الأساس قدَّم (القديس غريغوار) الكبير الحجج اللاهوتية المشددة على واجب الطاعة، وضلال المقاومة من الرعية للأمراء الذين نصبهم الله ﷻ للحكم، حتى ولو كانت ممارساتهم تستدعي بحق اللوم، فهؤلاء الأمراء، لا يبررون أعمالهم إلا أمام الله وحده،

---

(١) الإنجيل، الرسالة إلى مؤمني روما، الإصحاح ١٣، العدد ١، ٢.

فبين ضميرهم وبينه يجري النقاش الوحيد الممكن، والذي ليس لرعاياهم أي نصيب فيه[(١)].

وكما انحرفت التعاليم الكنسية عن الوحي الإلهي، فقد انحرف بعض المسلمين عن مفهوم ﴿سمعنا وأطعنا﴾ فبدلًا من أن يجعلوه على ماجاء في الإرشادات القرآنية والنبوية، صرفوه لبعض القيادات الدينية والسياسية على صفةٍ مطلقة، وقد جاءت سورة البقرة تحارب الإجرام باسم الدين كما تحارب الإجرام باسم السياسة، وظهر ذلك في المحور الرابع من هذه السورة، حيث ذكر الله تعالى الإجرام باسم الدين فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وذكر الإجرام السياسي فقال: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

ربما نتساءل: ما نتيجة الانحراف في مفهوم (سمعنا وأطعنا)؟

الجواب: توضح لنا سورة البقرة أن التحريف يؤدي إلى الطغيان والتخريف:

فهؤلاء عصاة بني إسرائيل من المحرفين الذين يقولون: سمعنا وعصينا أفضى بهم التحريف إلى الكفر والإلحاد والقتل والعدوان، ويحدثنا الله ﷻ عن ذلك، فيقول عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وها هو من قد ينتمي إلى أمة الإسلام، ممن يعجبك قوله في الحياة الدنيا، لكنه يميل إلى التحريف، حتى تأخذه العزة بالإثم فيفسد في الأرض، فيقول الله ﷻ عنه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي

---

(١) جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ص ١٦٣، ١٩٩٣م.

ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ولمحة إلى واقع المسلمين اليوم تكفي لتجد نماذج كثيرة لهؤلاء المحرفين.

وقد أثمر تحريف أهل الكتاب لمبدأ ﴿سمعنا وأطعنا﴾ نوعًا جديدًا من الإفساد، فإنهم انطلقوا من تحريفهم ذلك إلى محاربة العلم والعلماء، والإفساد في كل أرجاء أوروبا، باسم الإله، فظهر بسبب ما صنعوا دعاة الإصلاح لينقذوا الإنسان الأوربي من هذا الوضع البائس، ورأوا أن الدين النصراني كان سببًا في تحالف الكنيسة والملوك على الإفساد في الأرض، فطرحوا الأديان جملة، الحق منها والباطل واستبدلوا بالتشريع الإلهي (سمعنا وأطعنا) القانون الطبيعي، وخلص كبار الفلاسفة والقانونيين كـ (جروسيوس، وبوفندروف، وكومبيرلاند، وليبنز، وجرافينا) إلى أنه ينبغي " أن تفهم كلُّ أوربا، وكلُّ الدنيا أخيراً أنه لا يوجد سوى حقٍّ واحد تنبثق منه الحقوق الأخرى، وهو الحقُّ الطبيعي"(١)، والحقُّ الطبيعي وفقًا للقانوني الشهير (جروسيوس) لا يتغير حتى أن "الله نفسه لا يستطيع أن يغير منه شيئًا"، والقانون الطبيعي في العموم هو العقل البشري، وهنا حلَّ العقل محل الإله، وأصبح الدين العقلي الذي يمثِّل أهواء البشر بديلاً عن الدين الموحى به، وهنا نشأت العلمانية التي تمَّ بموجبها إقصاء الدين عن الحياة المدنية للإنسان سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا(٢).

ربما تنازعني، فتقول: مبدأ السمع والطاعة لا يدل على حرية اختيار الإنسان، وقد منح الله ﷻ الإنسان الحرية في الاختيار؟

---

(١) بول هازار، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، ترجمة د. محمد غلاب، مراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور، دمشق، وزارة الثقافة، ب.ط، ١٧٩، ٢٠٠٤م.

(٢) شوفالييه، مصدر سابق، ص ٣١٤

الجواب: فأقول: بل إن مبدأ السمع والطاعة يمثل أعظم ركائز الحرية الإنسانية؛ لأن الإنسان عندما يسمع أمر ربه يكون حرًّا عن عبادة أي مخلوق في العالم، فيتحرَّر من أغلال الخوف ورقِّ العبودية للآخرين، فبذلك يتحرر الإنسان مِن عبودية مَن سواه.

أما حين يمتثل الإنسان أمر ربه ويلتزم طاعته وهو موقن أنه ليس من أمر أو نهي أو حكم جاء منه سبحانه، إلا كان أعظم وأحكم وأوفق ما يكون لمصلحته وسعادته، فجزاؤه حينئذٍ الفوز والفلاح، والحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الأخرى. ومن أجل تقرير هذا المعنى وترسيخه في النفوس اشتملت سورة (البقرة) على إشارات كثيرة تبين عظم أمره وجليل خطره، فمن ذلك:

أولًا: تجريم التلاعب بهذا المبدأ وتجزيئه، فبعض الناس يأخذ من ﴿سمعنا وأطعنا﴾ ما يحلو له، ويكفر به عندما يتبع شهواته، كأن يسمع الإنسان بعض الكتاب وينكر بعضه الآخر:

فإنه إن فعل ذلك، حل عليه الخزي في الواقع الحضاري بين الأمم، ثم كان مصيره أشد العذاب في الآخرة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ثانيًا: تجريم المستهزئين الساخرين من هذه الفكرة المحورية لنمو الحياة وتنظيمها، فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

ثالثًا: تجد أن رسالة الرحمة للعالمين، تذكر البشرية أن الألَمَ هو العاقبة التي يجدها الإنسان والأسرة والمجتمع عندما يبتعدون عن نظام السمع والطاعة الإلهي حتى في طريقة التخاطب،

فيقول –تعالى ذكره–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: ١٠٤].

رابعًا: تسفيه التبعية العمياء للعلماء والأمراء في مخالفة القوانين الإلهية: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]:

فهذه العبودية تشيع الظلم في الأرض. ومثل ذلك تنعى السورة على من يقدم التقليد وأقوال الآباء ويطيعها طاعة عمياء مقدمًا ذلك على السمع والطاعة لرحمن الأرض والسماء، يقول –جلَّ ثناؤه–: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: ١٧٠].

خامسًا: الأوامر الإلهية التي تأمر بأخذ الكتاب بقوة، وهذا يتضمن الجدية في تطبيق مبدأ (سمعنا وأطعنا) لنيل الفوز والفلاح:

تجد الخطاب القرآني ينبعث من خلال السورة قائلاً: أيها البشر! ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ [البقرة: ٩٣]:

فالسمع والطاعة للقوانين الإلهية، وما يستنبط منها هو السبيل الوحيد لمنع القوى الشريرة من الإفساد في الأرض وسفك الدماء.. إنه مدار نجاحكم وسعادتكم وفلاحكم سواء في نفوسكم... في ذاتكم الداخلية الفردية، وهو مدار فلاحكم في إقامة المجتمع ببنائه الأُسري، وبنيانه الاقتصادي، وحصنه العسكري، وعمارته المدنية.

سادسًا: مبدأ ﴿سمعنا وأطعنا﴾ لربنا مفتاح الحياة الطيبة، وسبيل منع سفك الدماء والفساد في الأرض. فقد ذكر الله ﷻ أن في الإيمان والتقوى وهما أساس هذا المبدأ خيرًا، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وقال سبحانه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فكأن الله ﷻ ينادي عباده:

أيها العالم! أيها الأمراء.. أيها الحكام.. أيها الرؤساء.. أيها الأغنياء.. أيها الفقراء:

أساسُ حياتكم الفردية، وأساس حياتكم الاجتماعية، أساس نظمكم السياسية والعسكرية والاقتصادية.. أساس حياتكم السعيدة: (سمعنا وأطعنا) لله رب العالمين، ولذا قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله عن أهداف سورة البقرة: "وَمُعْظَمُ أَغْرَاضِهَا يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

قِسْمٌ يُثْبِتُ سُمُوَّ هَذَا الدِّينِ عَلَى مَا سَبَقَهُ وَعُلُوَّ هَدْيِهِ وَأُصُولَ تَطْهِيرِهِ النُّفُوسَ.

وَقِسْمٌ يُبَيِّنُ شَرَائِعَ هَذَا الدِّينِ لِأَتْبَاعِهِ وَإِصْلَاحِ مُجْتَمَعِهِمْ"(١).

سابعًا: سورة البقرة بيانٌ مشفقٌ رحيم واضحٌ للإنسان بأنه لا يستطيع أن يجد راحته وسعادته إلا باستماع ما قال خالقه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: ١٧٦]:

وأنت ترى ما حل بالمسلمين عندما تناقضوا، فقالوا: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ في الصلاة والنكاح والطلاق، واتبعوا سياسة (سمعنا وعصينا) في الربا والاقتصاد والسياسية، وعسى أن يردنا ربنا إليه ردًّا جميلاً.

ولقد حشدت لنا سورة البقرة لب الإسلام، وأكبر ما فيه من تشريعات، وأقوى ما حواه من نظام حتى قرَّر الفراهي رحمه الله بأنها جامعة لمطالب الكتاب لأنها تشتمل على:

حقيقة المعاد والإيمان والنبوات، وأركان الإيمان وصفات الله ﷻ، وأصول العبادات، وأصول السياسة، وأصول التمدن، وأصول الآداب(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٣).

(٢) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ٣١).

هذه الأنظمة لا تقوم دون تطبيق حقيقي، والتطبيق الحقيقي هو معنى ﴿سمعنا وأطعنا﴾، وبذلك تظهر حقيقة الإسلام مجسدة في الواقع.. إنه أمرٌ طلبه إقبال، وأنَّ أمام ربه متوسلًا مبتهلًا قائلًا:

الــدِّينُ يحيـــا في ســعادةِ أهلــه ... والكــأسُ لا تبقــى بغيــر الســاقي
أيــن الــذين بنــار حبِّـك أرسـلوا الــ ... أنــوارَ بــين محافــلِ العُشَّــاقِ
ســكبوا الليــاليَ في أنــينِ دمــوعِهم ... وتوضــأوا بمَــدامعِ الأشــواقِ
والشــمسُ كانــت مــن ضـياءِ وجـوهِهم ... تُهــدي الصـباحَ طلائـعَ الإشـراقِ

ربما نتساءل: إذا كان نظام الالتزام بالقانون (السمع والطاعة) لله، فماذا يريد البشر من حريةٍ حقيقية أعظم من ذلك؟

الجواب: تأمل كيف يسري تثبيت نظام السمع والطاعة في السورة.. من هنا تدرك –أيدك الله– لماذا:

ثامنًا: ختم الله ﷻ هذه السورة المباركة ببيان عَظَمة المجتمع الإيماني عندما يُسلِم قياده للرحمن بدلاً من التخرصات الإنسانية أو العبادات الوثنية. خُتِمتْ السورة بالثناء على من يلتزم القوانين، ولا يروغ منها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ إنه إيمانٌ ليس فيه ترددٌ ولا تزلزلٌ ولا تضعضع ولا تباطؤ ولا تثاقل: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]:

ومن خلال هذا الملمح في سورة البقرة نفهم العَظَمَة الباسقة لجيل الصحابة ﷺ الذين قالوا: سمعنا وأطعنا، فكافأهم الله تعالى بأن خفف عنهم عبء المسؤولية، وهوَّن عليهم ثقل التكاليف التي بها تنتظم حياتهم، وتجمل أحوالهم وصفاتهم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويختم الله ﷻ هذه السورة بهذا الختام الجميل العذب البديع العجيب مبينًا

أنه يعطي لأمة السمع والطاعة الريادة والسيادة والقيادة للبشرية الحائرة المظلومة في وجه الكفار الذين يسترون الحقائق ويغطونها، فقال عن المتقين أصحاب (سمعنا وأطعنا) واعدًا إياهم بتحقيق الدعاء، وإجابة الرجاء: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الأساس الخامس: الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة

بعد أن طبقت منهج بصائر المعرفة في الوصول إلى المحاور التي تكونت منها هذه السورة المباركة يمكنني تلخيص هذه المحاور في هذه الخريطة الكلية:

شرح موجز للخريطة الكلية لبصائر المعرفة القرآنية في سورة البقرة:

ستسألني: كيف وصلت إلى هذه الخريطة الكلية؟ ألم يصل غيرك إلى خرائط ذهنية مشابهة؟ أليس كل واحدٍ يمكنه أن ينشئ مثلها؟

الجواب: بلى! فيمكن لمن شاء أن يرسُم خريطة كلية على ما يراه.

وقد صنعت هذه الخارطة الكلية على نحو أرجو أن يكون أقرب ما يمكن في ذلك وأحسنه وأتمَّه، دعني أصارحك القول بأنني لم أصل لهذه الخريطة بتدبُّر عابر، وتفكُّر لَحْظي.. بل انطلقت في مراحل متعدِّدة، من التفسير الكلي للسورة إلى التفسير الجزئي، ومن التفسير الجزئي إلى التفسير الكلي، أحاول تفسير السورة ابتداء بصورة كلية، بمحاولة البحث عن الروابط بين آياتها لتُشَكِّلَ أقسامًا، والروابط بين الأقسام لتُشَكِّلَ محاور، ثم أعود لأفسِّرها تفسيرًا تحليليًّا حرفًا حرفًا وكلمة كلمة، ثم أنظر في تعلُّق هذا التفسير التحليلي بالتفسير الكلي الذي حُرِّرَ أولاً، وبذلك تؤثِّر على التفسير الكلي الذي سبق أن توصلت إليه، فأعيد بلورة ما صنعته سابقًا على ما يقتضيه الحال والرؤية المستجدة، فإذا قضيت في ذلك ما شاء الله لي أن أقضي، رجعت كرَّة أخرى إلى التفسير الجزئي التحليلي لأعيد صياغته في ضوء التفسير الكلي.. في مراحل متعددة أذهب فيها ضارعًا إلى كلمات ربي عسى أن يهديني سواء السبيل.

وبعد تماسك البناء، وإحكام قواعده يشرق عمود السورة ومرتكزها، ويتجلى بلا خفاء مشدودة إليه المحاور الكلية للسورة بشكل مبهر معجب.

وقد تقاطعني، فتقول: فهل وجدت روابط محكمة حقيقية بين هذه الآيات والمواضيع؟

الجواب: إي وربي! فلقد رأيت إحكامًا عظيمًا، وبيانًا متقنًا، ونسجًا بديعًا عاليًا، فدعني أقرب لك طرفًا من ذلك، وأقتطف لك بعضًا من جهدٍ استمر سنواتٍ، أوصلني إلى قناعة راجحة: بأننا لو أردنا أن نقسِّم سورة البقرة إلى محاور متتابعة، فسيكون أمثل تقسيم لها هو

ما حوته هذه الخريطة، وستجد في هذا التلخيص الملامح العامة العظيمة لهذه الخريطة الكبيرة للسورة:

في هذه الخريطة العامة ترى المواضيع العامة التي بُثت في السورة على هيئة متسلسلة، ووَفْق ترتيبٍ أقوم، تحبونا ترابطًا خطيًّا متصلاً من أول آيةٍ إلى آخر آية في السورة، ويشعرنا بأن كل آية قد أنزلها الله ﷻ في مكانها، لتعبر عن تفصيل لإحكام وثيق بينها وبين سائر الآيات التي تؤاخيها قبلها وبعدها.

وعندما تتنقل بين هذه المحاور تصل إلى قناعة عظيمة بالموضوع العام الذي اخترته ليمثِّل عمود سورة البقرة، وهو: إشراق الحضارة الإسلامية على العالم والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلي.

ولا تظنن أن هذا الموضوع جاء عفو الخاطر، أو أنه فكرة طارئة انقدحت، لا. بل إن تحديد كل كلمة في هذا العنوان ما جاء إلا عَبْرَ تدبُّرٍ ونظر وتأمل، زمنًا بعد زمن، حتى أوفى ذلك على خمس سنين، حتى استقر الرأي على ما اخترناه ورضيناه، فخرج ما تراه، والحمد لله رب العالمين، وإني لأرجو إن شاء الله أن يكون ذلك دليلاً للمتدبرين ومفتاحًا للراغبين وجوابًا للسائلين.

واختيار العنوان ينبغي أن يكون ثمرةً لجهد عظيم مع تدبُّر كلي في مجمل السورة، وجزئي في كلماتها، ويقترن ذلك بالدعاء الذي ينبغي أن يماثل دعاء الغَرِقِ في البحر في إلحاحه وإخلاصه واستغاثته في أن يهدي الله ﷻ عَبْدَه سواء السبيل فيما يفكر فيه.

فإن قلت سلمك الله: هذا العنوان وقد أبنت صياغته، والخريطة وقد أوضحت بناءها، فهلا أخذت بنا في شرح محاور هذه الخريطة وفك رموزها وفتح أبوابها، لنأخذ منها من قريب ونجني منها كل طيب.

الجواب: بلى! فهذا أون الشروع في بيان ما قصدنا إليه، وتقريب ما أوجزناه، وتفصيل ما أجملناه، فلنبدأ على بركة الله:

تعال بنا إلى الخريطة العامة لنجد فيها سورة البقرة قد تكونت من مقدمتين، المقدمة الأولى في الآيتين الأولى والثانية، والمقدمة الثانية جاءت في الآيات (٢-٢٠).

ولكنك ربما تسأل: لماذا جعلتَ لهذه السورة مقدمتين؟

الجواب: لتناسب المقدمتان طول السورة الفخمة في القرآن الكريم، والمقدمتان حقيقتهما مقدمة واحدة، لكنني قسمتهما لأجل الاستحضار الموضوعي لكل منهما.

وهنا ستسأل: فالمقدمة الأولى: عن ماذا تتكلم؟

الجواب: فأما المقدمة الأولى فإنها تحدّثنا عن أن القرآن المجيد هو الكتاب الذي لا ريب فيه لإدارة العالم بالهدى الحق:

وقد أنبأنا الله ﷻ عن ذلك في الآيتين [١-٢] في قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ إذ أخبرتنا كلمات الآيتين عن أهم الخصائص التي منحت القرآن العظيم هذا الدور، فكلمة ﴿ألف لام ميم﴾ من أعظم معانيها أن هذا الكتاب مكون من هذه الأحرف التي تعرفونها، ولكنه يختلف عن ما تقولونه؛ لأنه معجز بلفظه، معجز بمعانيه، معجز في تأثيره، ومعجز في إصلاحه للعالم، ومعجز في إدارته للعالم فاتبعوه فإنه لا ريب فيه.

تُعَظِّم هاتان الآيتان القرآن المجيد، وتأتيان لتخبرانك بالحكمة البالغة في تتابع آي القرآن وسوره، فسورة البقرة جاءت بعد قول ربنا ﷻ في سورة الفاتحة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، فأنت مع المؤمنين وجَّهتَ هذا الدعاء تطلبه من أرحم الراحمين، فكأن الله تعالى أجاب الداعين مخبراً إياهم أنه قد منحهم كتاب الهداية الذي لا ريب فيه، فهل يتبعونه أم يؤثرون عليه نخالات الشرق والغرب، والبيوت الحمراء والبيضاء والصفراء؟

من أجل ذلك قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: ٢]، إن كنتم تريدون هدىً، فهذا كتاب الهدى، وهنا تشعر بالمنطقية وبالترابط الواضح والتلاحم المتكاتف بين معاني القرآن في سورتي الفاتحة والبقرة، وتردد حينها:

هـدىً سـيبقى وما عشـرٌ وأربعـةٌ — من الزمانِ سيبقى ما الزمانُ بَقِي

اللهُ أنـزلَـه واللهُ حـافـظُـه — واللهُ ينجي به الدنيا مِنَ الرَهَقِ

يا ابنَ الهدى يا فتى القرآنِ دَعْكَ منَ الْـ — أوهامِ جلجِلْ بأمرِ اللهِ ولْتَفِقِ

ربما نتساءل: هذه هي المقدمة الأولى، فما المقدمة الثانية؟

الجواب: تعال بنا إلى نهاية الآية الثانية ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ وما بعدها إلى الآية (٢٠) فهنا تأتي المقدمة الثانية.

وعندها ربما تسأل: فما قصة بقية آيات المقدمة في سورة البقرة؟

الجواب: بما أن المقدمة الأولى حدثتنا عن الكتاب الذي لا ريب فيه، جاءت المقدمة الثانية لتحدثنا عن أقسام العالم في التفاعل مع هذا الكتاب الذي لا ريب فيه:

بعد أن أخبرنا الله ﷻ عن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، ينشأ سؤال منطقي، فما حال البشر في التعامل مع القرآن؟ ماذا فعلت البشرية مع هذا الكتاب؟

هنا تأتي المقدمة الثانية لتنبئنا بأهم أقسام العالم في التعامل مع هذا الكتاب:

فذكر الله ﷻ **القسم الأول**: وهم المتقون فقال عنهم: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي ينتفع به المتقون انتفاعًا كاملًا، ثم ذكر صفاتهم، وجزاءهم، وامتد الكلام عنهم في الآيات [٢-٥].

وذكر **القسم الثاني**: وهم الكفار المتطرفون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، فلا ينتفعون أبدًا بل لا يؤمنون أصلًا، ولاحظ وتأمل قوله ﴿لا يؤمنون﴾، إذ لم يقل "لا يهتدون"، وإنما قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فأساس الهداية غير

موجود، وهذا الصنف من الكفار يحارب القرآن حربًا شعواء لا هوادة فيها، وهم الذين سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وليس جميع الكفار هكذا، وذكرهم الله ﷻ في الآيتين [٦-٧].

القسم الثالث: هم الصنف الذي ظاهره مع المتقين يؤمن بالكتاب الذي لا ريب فيه، وباطنه مع الكافرين المحاربين للقرآن، وهم أشنع من الصنف الثاني وأضل، ولذلك نثر الله ﷻ صفاتهم وأنواعهم، فبدأ ذكرهم في الآية الثامنة بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨]، ثم فصَّل الله ﷻ أحوالهم وأنواعهم في ١٣ آية بين الآيات [٨-٢٠].

ربما نتساءل: فلماذا فصل الله ﷻ في شأنهم وأفاض في ذكر أمرهم؟

الجواب: لأنهم الأساس في محاولة طمس معاني القرآن، فَهُمْ يتكلمون وكأنهم من أهل القرآن، ولكنهم يحاولون أن يدمِّروا معانيه ومبانيه من داخل متبعيه.

فعلى أي أساس جاء هذا التقسيم للعالم في المقدمة الثانية؟

أكان على أساس الجنس؟ أم على أساس اللون؟ أم على أساس النسب والقبيلة؟

كلا. لم يكن شيئًا من ذلك، بل كان على أساس التعامل مع على أساس التعامل مع القرآن كتابا هاديا للقلوب والبصائر ودستورا منظما لمختلف شعب الحياة.

فإن قيل: أليس هنالك أقسام أخر، سوى من ذكر؟ فإذا ذكر الله ﷻ المتقين هنا، فهناك مؤمنون غير متقين ذكرهم القرآن، وإذا ذكر الله الذين لا ينفعهم الإنذار فهناك كفار ينفعهم الإنذار، وإذا ذكر الله ﷻ المنافقين فهناك الذين في قلوبهم مرض من غير أن يكونوا منافقين خُلَص، فلماذا ذكر الله ﷻ هنا هذه الأصناف الثلاثة فحسب؟

الجواب: إنما ذكر الله ﷻ الأقسام البارزة المؤثرة على سائر البشرية، فالمتقون يؤثِّرون تأثيرًا إيجابيًّا خيِّرًا مباركًا عظيمًا، والكفار المعرضون المتطرفون، وكذا المنافقون يؤثِّرون تأثيرًا ضاراً سلبيًّا مدمِّرًا مزلزلًا مفسدًا، وأما ما عداهم كالذين لا يعرفون عن القرآن شيئًا، ولو عرفوا لاتبعوه، أو لأحبوه فسيذكرون فيما سيأتي من الآيات.

وبعد أن قضينا الحديث عن المقدمتين، هلم بنا نشرع في ما بعدها من محاور الخريطة:

المحور الأول: حيث احتوى على الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي (العبادة الموحدة)، وبراهينه [البقرة: ٢١-٢٩]

انظر للترتيب المنطقي الحسن: بعد أن ذكر الله ﷻ الكتاب الذي لا ريب فيه لإدارة العالم، وبين لنا أهم أقسام البشرية فيه، آن الأوان لتساءل البشرية: ماذا يريد منهم ربهم؛ إذ خلقهم؟

هنا يأتي المحور الأول من محاور هذه السورة ليكون عنوانه المختار: الإعلان الإلهي العالمي للبشرية عن نظام الحياة الحقيقي (العبادة الموحدة)، وبراهينه:

فبدأ المحور بإعلان إلهي عالمي فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فدخل في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الأصناف الثلاثة السابقة وكذلك دخل غيرهم، فهذا إعلان إلهي للجميع، ثم أخبر العالم ما الذي يجب عليهم أن يفعلوه، فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، والعبادة نظام للحياة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فربنا عندما يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ يعلمنا نظام الحياة الذي ينبغي أن يسير عليه نظام البشرية.

وليست العبادة فيما يظن بعض الناس صلاة بضع ركعات فحسب، وإن كانت الصلاة من أجمل هدايا الله ﷻ لعباده، إذ تعين الإنسان على حياته كلها :﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥].

وليس نظام العبادة مقتصراً على صيام عدة أيام، ومنع للإنسان من الطعام والشراب فيها، بل إن نظام العبادة يشمل ذلك وغيره معه، يشمل كل مجالات حياة البشرية في صِلاتها المباشرة بربها، أو في صِلاتها بالكون حولها، أو في صِلاتها ببقية أفراد الإنسانية.. العبادة مبثوثة في المجالات الاجتماعية، وفي المجالات الاقتصادية، والمجالات التشريعية، وفي مجال السياسة والحكم والعلاقات الدولية، وهذا **ما ذكرت سورة البقرة أصوله بصورة مدهشة.**

قد يقول قائل: البوذيون يعبدون، والهندوس يعبدون، والنصارى يعبدون، واليهود يعبدون، والمسلمون يعبدون، والذين يعبدون الأوثان يعبدون، فما البراهين على أن الله ﷻ هو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه مما يُعبد؟

الجواب: فبعد أن يخبرنا الله ﷻ في الإعلان الإلهي العالمي عن نظام الحياة: العبادة الموحدة له، ينشر لنا من رحمته، ويبصِّرنا بستة عشر برهانًا من البراهين التي تثبت أنه يستحق العبادة دون سواه.. إن سمعتها علمت أنه لا يمكن لك أن تسوِّيَ بين الله ﷻ وبين أحدٍ من مخلوقاته، لا يمكن أن تسوِّيَ بين الله ﷻ وما يعبد سواه، بوذا، أو المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، أو أي نبي، أو صالح، أو حَجَر، أو شجر، أو شمس، أو نجم، أو ملك، ولا يمكن أن تسويَّ بين الله ﷻ وبين سيدنا محمد ﷺ، لذلك قال في هذا المحور: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

يمتد هذا المحور بتنوع شديد في الإقناع في الآيات (٢١-٢٩) من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

[البقرة: ٢٩]، وهو محور يحوي العظمة كلها، تشعر معه بجلال الآيات ورفعتها، وأنها في أحكم موضع لها وأحسنه، فأول ما يشتاق الإنسان لأن يسمعه بعد أن سمع في المقدمة عن عظمة القرآن أن يقول من الذي أنزل القرآن؟ فيخبرك الله ﷻ من أنزل القرآن، ويعلمك أن أعظم الهدايات التي يقدمها لك القرآن أن تعبد الله ﷻ، فلا تعبد البيوت الصفراء ولا البيضاء ولا الحمراء، لا تعبد بيوت مناة ولا العزى واللات ولا هبل، لا تعبد بيوت الشرق ولا بيوت الغرب، ولا الأموال ولا البنوك الدولية، إنما تعبد الله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فهذا موضوع المحور الأول في الخريطة ومقصوده.

الانتقال إلى المحور الثاني: في المحور الأول بيّن الله ﷻ أن من براهين استحقاقه لأن يُعبد ويُوحَّد خلق الكون، وخلق الأرض لتكون البيئة المناسبة للإنسانية، وآن الأوان لتعرف الإنسانية كيف كانت بداية وجودها على الأرض، وهنا جاء:

المحور الثاني: فيحدثنا عن (القصة الحقيقية لبدء البشرية) وامتد هذا المحور في الآيات [٣٠-٣٩]

ربما نتساءل: وهل يحتاج البشر إلى الوحي لمعرفة القصة الحقيقية لبدء البشرية؟

الجواب: نعم فالبصائر القرآنية هي الوحيدة التي تقدم لك القصة الحقيقية لبدء البشرية، وليست القصة المزيفة التي تحاول قوى الفسق والإلحاد والتحريف أن تزيف بها الوعي البشري.

يحاولون أن يخبروك أن البشرية جاءت نتيجة تفاعلات وتطورات في الكون، وليس نتيجة عملية الخلق من قبل عليم خبير حكيم.

إنهم يَكْذبون، ويُكَذِّبون، أشرق عليهم بالبصيرة القرآنية التي توقف كذبهم، وأخبرهم أن الله ﷻ يقول لهم: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف ٥١].

ومن قوى التحريف والضلال طوائف أخر تزعم أن الله ﷻ إنما خلق هذا الكون من أجل فلان أو علان، ويقلب الوعي الإنساني، فيخبرك أن الله ﷻ خلق الكون من أجل عيسى ؑ أو من أجل بني إسرائيل أو من أجل علي أو الحسين ؓ إنهم يكذبون، ويحرفون، وعن بصائر القرآن وهداه يعرضون، فأولى لهم ثم أولى لهم.

يأتي هذا المحور في الآيات [٣٠-٣٩] لتريك بصائر المعرفة القرآنية فيه النبأ اليقين عن كيفية بدء البشرية.. إنه النبأ الذي لا يمكن لبشر أن يعرفه أو أن يلم به أو أن يدركه من تلقاء نفسه، فيخبرنا الله ﷻ ابتداءً من الآية (٣٠) عن الإعلان الإلهي للملائكة حول خلقه بشرًا ليكون خليفة في الأرض، وكيف كرمه الله ﷻ بالعلم. ثم يخبر سبحانه كيف أسكنه الجنة مع زوجه مدة تدريبية ليبتليه ويختبره، قبل نزوله إلى الأرض، فلما مضت تلك المدة، وجاءت علامة إنزاله إلى الأرض، أهبطه الأرض، وهناك استبان وليه من عدوه، وخُتِم المحور بإخبار البشرية عن المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه أهل الأرض.

ربما نتساءل: لماذا جاءت قصة بدء البشرية في هذا الموضع؟

الجواب: لأنه الموضع المناسب في أول القرآن المجيد ليخبرهم عن بداية وجودهم في الكون: كيف كان؟ وما هدفه؟

وهذا الموضع كان سببًا في إسلام عالم الرياضيات جيفري لانج[١]؛ إذ أجابه عن أسئلة كان يظن نفسه ذكيًّا فيها، وكانت سبب إلحاده، ففوجئ بالبصائر القرآنية تنير له الطريق.

الانتقال إلى المحور الثالث: بعد أن تحدِّد المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه البشرية كان من المنطقي أن تستعرض سيرة أنموذج بشري حمل أمانة هذا المنهج، وكان وما زال له أثره الممتد عبر الزمان والمكان، وهنا جاء:

المحور الثالث: الأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف [البقرة ٤٠-١٢٣]

ربما نتساءل: ورود هذا المحور في سورة البقرة في هذا المكان المبكر من السورة قبل ذكر إبراهيم عليه السلام يمثل مفاجأة تجعلك في صرة، وهذه المفاجأة تشبهها المفاجأة التي وجدناها في اسم هذه السورة، فهل هناك محور خاص في السورة عني بالأنموذج الإسرائيلي في الاستخلاف؟

الجواب: نعم، ولم لا؟ فها هنا تمدنا المعرفة القرآنية ببصائر فريدة عن التجربة الإسرائيلية في أطول محور في السورة، وذلك كما يأتي:

١) إن آيات السورة تُعرِّف المهاجرين الذين وفدوا على المدينة، والأنصار الذين يسكنون المدينة بأهمية هذا الصنف وخطورة أثره في الماضي وفي الحاضر.. بل تنبئ السورة العالم بأثرهم على الأحداث المستقبلية.

---

(١) ضمن ذلك في كتابه (الصراع من أجل الإيمان) وكتابه (حتى الملائكة تسأل)، وجيفري لانج بروفيسور أمريكي في الرياضيات، ولد سنة ١٩٥٤م، ويعمل حاليًا في جامعة كنساس، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة بيردو عام ١٩٨١م، قرأ نسخة مترجمة من القرآن، وأعلن إسلامه، وله فيديوهات في اليوتيوب ذكر فيها قصة إسلامه.

٢) ويمتد هذا المحور في الآيات [٤٠-١٢٣] ليحدثنا عن خفايا التاريخ الإسرائيلي التي يجهلها كثير من الناس، بل يجهلها كثير من الإسرائيليين أنفسهم، ومن أبرز أمثلتها: قصة البقرة.

٣) وقد كشف الله ﷻ كثيرًا من ماضيهم السيء كما في قوله جل مجده ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة ٦١].

٤) وأخبرنا عن خفايا حاضرهم الأسوأ في عهد النبي ﷺ، حيث قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وأخبرنا كيف جاءوا من أنحاء الأرض إلى صحراء الجزيرة العربية في انتظار مبعث النبي ﷺ، ولما جاءهم ماذا حدث؟ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، فكذبوه وآذوه وحاربوه كبراً وحسداً؛ إذ لم يكن منهم.

٥) وقصَّ الله علينا كيف فشلوا في كثيرٍ من محطات تاريخهم في إقامة المنهج الذي أنزله عليهم ربهم ﷻ، فكشف لنا أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واعتمدوا على الشبه المتعددة التي أعمت بصائرهم عن الانقياد للحق، واستندوا إلى ما تلته الشياطين على ملك سليمان.

٦) وبصَّرنا الله ﷻ بأفضل أسلوب وأحسن طريقة وأقوم سبيل للتعامل معهم، وكيف تتكون عندنا المهارات اللازمة للمزج بين الأسلوب الدعوي معهم، وبين إتقان التفاوض السياسي، في دعوتهم أو في التفاوض معهم، أو في حربهم، أو في كشف مكائدهم ومعرفة طبائع نفوسهم، وختم المحور ببيان أن الله ﷻ فضلهم على عالمي زمانهم، وأن مقتضيات هذا التفضيل أن يقوموا بالمنهج لا أن يقاوموه، وأن يتبعوه لا أن يحرفوه، وذكّرهم أكثر

من مرة باليوم الفصل الذي لن تغني فيه نفس عن أخرى ولن يقبل منها فدية ولا شفاعة، وكأن ذلك كله لما يعلمه الله من كثرة جمعهم للأموال، واتخاذهم كثيرًا من البشرية أتباعًا لهم بطريقة أو بأخرى.

الانتقال إلى المحور الرابع: بعد أن ذكر الله ﷻ محور الاستخلاف الإسرائيلي، وذكر تفضيله للإسرائيليين على العالمين أخبر أن هذا التفضيل مقترن بأعمالهم، وأن من أهم أسباب فشلهم في القيام بحق الاستخلاف في الأرض: ادعاءهم أن التفضيل بسبب النسب، وقد أفضى بهم هذا لتحريف تاريخ إبراهيم وذريته عليهم السلام، حتى أخفوا اسم الدين الذي أمرهم الله ﷻ به وزيفوا حقيقته، ولذا كان من المنطقي أن يكون:

المحور الرابع: (إرث الأمة الاسلامية للملة الابراهيمية)، وامتدَّ هذا المحور في الآيات [١٢٤-١٥٨]

يبدأ هذا المحور ببيان النجاح الذي حققه إبراهيم عليه السلام في استخلافه في الأرض، ويصف الله تجربة النجاح، فيقول: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة ١٢٤]: أي فأدّاهن وأقامهن خير قيام.

من أجل ذلك قرَّبه الله ﷻ إليه فاتخذه خليلًا وجعله إمامًا؛ لا لأن اسمه إبراهيم، ولا لنسبه، ولا لبلده، بل لأنه ابتلاه بكلمات فأتمهن: ابتلاه بمواقف كبرى في الحياة لإقامة أمر الله ﷻ والاستخلاف في الأرض، فكان القانت الحنيف الأواب المطيع، فحقق النجاح المطلوب في كل مواقف الابتلاء الاستخلافي، وعلى سبيل المثال: ابتلاه الله ﷻ بالنبوة فقام بها حق القيام، حتى قُذِف في النار صابرًا محتسبًا في ذات الله ﷻ:

وذلـــك في ذات الإلـــه وإن يشـــأ ... يبـــارك علـــى أوصـــال شـــلوٍ ممـــزع

وابتلاه الله تعالى بتأخر الولد فصبر، حتى إذا ما ابتلاه بإنجاب ولده البكر إسماعيل عليه السلام على كبرٍ ابتلاه مرة أخرى بأن يبعده عنه إلى وادٍ غير ذي زرع، فاستجاب لذلك، وسلم الأمر لربه، فقال متضرعًا موقنًا بحكمة ربه في ذلك وحسن جزائه هاتفًا بالأهداف العظيمة المستقبلية المتوقعة من هذا الإبعاد: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم ٣٧]، وابتلاه الله تعالى بأن أمره أن يذبح ولده، فمضى هو وابنه لذلك ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات ١٠٣-١٠٦]، وابتلاه بغير ذلك من أنواع الابتلاءات.

فلما صبر في كل الابتلاءات، ونجح في القيام بتلك الكلمات على أتم وجه وأحسنه أتم وأوفى، وصبر واتقى، جازاه ربه بالحسنى، فاجتباه وأعقبه خير العقبى، وأناله الإمامة العالمية ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾، وهنا طمحت عينا إبراهيم إلى أن تشاركه ذريته فالذرية أحب من شارك أبًا في الخير ذريته، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾: يعني أي أطمح أن تكون الإمامة في ذريتي أيضًا، فقوله ﴿من﴾ هنا بيانية وليست تبعيضية، أي أن تمتد الإمامة لتكون في نسبي عبر ذريتي، فأخبره الله عز وجل أن النجاح في الاستخلاف بحسب الأعمال لا بحسب الأنساب ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة ١٢٤].

ربما نتساءل: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قاعدة تبين العدل الإلهي المطلق، فما هذه القاعدة القرآنية العجيبة التي تؤسسها سورة البقرة في حياتنا من خلال الحوار بين الله -جل مجده- وعبده النبي المكرّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: هذه قاعدة عظيمة في الحياة كلها، وفي السياسة الشرعية خاصة، ومقتضاها أن المتصدر لتولي مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية يجب أن يكون عدلاً، أي يتسم بصفات

نفسية وسلوكية من قبيل أن يكون "صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقيًّا للمآثم، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضى والغضب، مستعملًا لمروءة مثله في دينه ودنياه"[(١)].

ومعيار ثبوت العدالة هو: الاستفاضة والاشتهار الذي يتحدث به الناس، ونقيض ذلك هو الفسق.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يدل على اشتراط العدالة، وانتفاء الفسق عمن يتصدى لمنصب الإمامة، قال الإمام الجصاص رحمه الله: "أفادت الآية أن شرط جميع من كان في محل الائتمام به في أمر الدين العدالة والصلاح ... فثبت بدلالة الآية بطلان إمامة الفاسق... وأن من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق، لم يلزم اتباعه ولا طاعته"[(٢)]، وقال الإمام القرطبي رحمه الله: "استدل جماعة من العلماء بهذه الآية، على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل، مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا ينازعوا الأمر أهله... فأما أهل الفسوق والظلم فليسوا له بأهل"[(٣)].

وفي نصٍّ عظيم النفع جليل المعاني، يوضح شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله أهم علل اشتراط العدالة في المتصدر لمنصب الحاكم، ومبينًا أهم الآثار المترتبة على عدم وجودها، وكأنه يحذر المسلمين من التساهل في شرط العدالة، وأنهم متى ما تساهلوا في ذلك وولوا غير العدل، فإن محصلته اختلال أمور الدين والدنيا، قال رحمه الله: "العدالة ملاك الأمور، وعليها تدور الدوائر ولا ينهض بتلك الأمور التي ذكرنا أنها المقصودة من الإمامة، إلا العدل

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص٨٩.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٠٨.

الذي تجري أفعاله وأقواله وتدبيراته على مراضي الرب سبحانه، فإن من لا عدالة له لا يؤمن على نفسه، فضلاً عن أن يؤمن على عباد الله، ويوثق به في تدبير دينهم ودنياهم" ومضى يبين كيف يسخر غير العدل المنصب الذي تولاه ليكون مصدرًا لنشر الشرور في العالم، فقال عنه: "خبّط في الضلالة، وخلط في الجهالة، واتبع شهوات نفسه، وآثرها على مراضي الله سبحانه ومراضي عباده، لأنه مع عدم تلبسه بالعدالة وخلوه من صفات الورع لا يبالي بزواجر الكتاب والسنة، ولا يبالي أيضاً بالناس، لأنه صار متوليًّا عليهم نافذ الأمر والنهي فيهم"[(١)].

هنا يفرض السؤال نفسه: أليس إبراهيم عليه الصلاة والسلام قبل بني إسرائيل من حيث التاريخ، فلم ذكر بعدهم في السورة؟

الجواب: بلى! إبراهيم عليه السلام قبل بني إسرائيل؛ لأنه الجد الأكبر لمعظم من جاء بعد ذلك من الأنبياء عليهم السلام. إنه أبو إسماعيل وهو بِكره، وهو أبو إسحاق، وعن إسحاق انبثق يعقوب، وهو إسرائيل، وعنه انبثق بنو إسرائيل، وعن إسماعيل انبثق اثنا عشر ولدًا، ومنهم انبثق فرع العرب الذين كان منهم النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. وأما ذكر إبراهيم عليه السلام في السورة عقب بني إسرائيل، فله شأن وحكمة، بل به يظهر التميز القرآني، فإن القرآن لا يتقيد بالسرد التاريخي، ولا يأتي على طريق البناء الموضوعي التقليدي، بل يبني المحاور في السورة وفق ترتيب يثير التدبر من نواحٍ كثيرة، وينتج موضوعات متعددة يمكن أن ينتظمها موضوع أو موضوعات كلية، ويُدْرَجُ فيها عدد من المبادئ والقيم التي تحكم الحياة، ويريد الله عز وجل أن يثبتها في عقولنا وفي رؤيتنا للأحداث.

ولنجعل من هذا الموضوع مثالًا لهذا التقعيد:

---

(١) السيل الجرار ٣/ ٧٠٢.

فقد رأينا المعرفة القرآنية تحدثنا في المحور الثالث من السورة عن الاستخلاف الإسرائيلي المؤثر تأثيرًا كبيرًا على الحياة في الأرض، وكان من الأمور التي افتروها، واقترفوها أنه لن يدخل الجنة الا من كان هودًا أو نصارى، فجعلوا الهُوية النسبية والاسمية عاملًا حاكمًا للحياة، وأراد الله جل ذكره أن يبين أن الاستخلاف في الأرض يقوم على الأعمال والاكتساب لا على الانتساب، فجاء ذكر إبراهيم عليه السلام في موضعه من السورة يجلي هذا المعنى ويؤيده ويتمه.

ويحدثنا الله عز وجل في هذا المحور عن المهمة المحورية التي كلف بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتجديد البيت الذي وضع من أول يوم للناس: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة ١٢٧]، وثبت الله عز وجل مبدأ الملة الإبراهيمية التي ينبغي ألا يرغب عنها أحد من البشرية ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة ١٣٠]، وبناء على هذا يظهر الله عز وجل لنا أن الوريث الحقيقي للملة الإبراهيمية هي الأمة الإسلامية، فهي التي آمنت لموسى عليه السلام في زمنه، وكانت مع داوود وسليمان عليهما السلام في زمنهما، وهي التي بشر الحواريون باسمها بعد أن اتبعوا عيسى عليه السلام.

ربما نتساءل: لماذا كانت الأمة المسلمة الوارث الحقيقي للملة الإبراهيمية؟

الجواب: لأن أهم معالم الملة الإبراهيمية اسم الإسلام وحقيقته، فقد قال الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة ١٣١]، والإسلام وصية إبراهيم ويعقوب ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٢].

وتلاحظ بدقة تكرر اسم الإسلام في هذا المحور لتثبيت هذه الحقيقية العظيمة: الملة الإبراهيمية هي الإسلام: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٦]، ويخبرنا الله ﷻ كيف تصر قوى التحريف عند اليهودية والنصرانية ومثلهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن ينتسب إلى أمة الإسلام على التلاعب بهذه الحقيقة باسم الملة الإبراهيمية، وينبئنا الله ﷻ أن فساق اليهود وعابثي النصارى ومنافقي المسلمين يجتمعون على تشويه الملة الإبراهيمية عندما يريدون أن يضلوا العالمين باسم الاتفاق الإبراهيمي: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة ١٣٥].

وبذا تعلم هشاشة دعاوى التقريب بين الديانات الثلاث: الإسلام واليهودية والنصرانية، وصهرها في ديانة واحدة يزعمونها (الإبراهيمية)، فـ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]، وهل لإبراهيم عليه السلام من دين غير الإسلام؟

ويقرِّر الله تعالى أن الأمة الاسلامية هي الوارثة للملة الإبراهيمية، وبناء على ذلك ستكون الشاهدة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة ١٤٣].

ويؤكِّد هذا المحور على مركزية الكعبة في أن تكون القبلة التي يجب أن يتجه إليها كل من يتبع إبراهيم عليه السلام إن كان صادقًا، ويخبرنا أن أهل الكتاب يعلمون هذه الحقيقة، وأن الذين ظلموا منهم هم من يخالف في ذلك: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾

[البقرة ١٥٠]، ويبشر المسلمين في المدينة بأن هذا الرجوع إلى استقبال الكعبة يؤذن بأن يتم الله ﷻ عليهم النعمة، ويكمل لهم الدين، وما يتبع ذلك من تحرير مكة، وزوال الاحتلال الوثني القرشي.

وحتى تعلم مقدار الترابط الهائل بين الآيات، والتركيز على المعالم المركزية الثلاث لهذا المحور: (الإسلام، إبراهيم، القبلة) يختم الله ﷻ هذا المحور بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ١٥٨].

ربما نتساءل: فلماذا ختم المحور بهذه الآية مع أن الكلام عن الحج فصله الله ﷻ ابتداء من الآية ١٩٦؟

الجواب: لارتباط هذه الشعيرة بوراثة الأمة الاسلامية للملة الإبراهيمية، فلما ترك إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ورضيعها إسماعيل عليهما السلام بواد غير ذي زرع، فسألته هاجر عليها السلام: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ، وَلاَ شَيْءٌ قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ: نَعَمْ قالت: [إذًا لا يضيعنا] رَضِيتُ بِاللهِ[(١)]، وطافت صابرة بين الصفا والمروة، وأصبح الطواف بين الصفا والمروة مذكرًا المسلمين بهذا الإرث الكبير.

وهنا يأتي الانتقال السلس إلى المحور الخامس:

(١) البخاري (٣٣٦٤-٣٣٦٥)، وما بين المعقوفتين من الرواية الأخرى.

المحور الخامس: ويحدثنا الله فيه عن أعظم الحقائق الكونية التي يجب على البشرية أن تعرفها، ويجب على الأمة الخاتمة أن تبينها للعالم، وعن موانع اعتناق هذه الحقائق، ويمتد في الآيات [١٥٩-١٧١]:

جاء هذا المحور في موضعه المنطقي، وهنا ربما تسأل: كيف ذلك؟ ما العلاقة بين هذا المحور والمحور السابق؟

إذا رجعنا إلى المحور السابق سنجد أن الله ﷻ قرر عددًا من الحقائق الضخمة منها: أن العبادة والإخلاص لله لا شريك له، ومنها: أن دين إبراهيم وبنيه ودين إسرائيل وأبنائه هو الإسلام، ومنها: أن القبلة هي الكعبة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ [البقرة ١٤٤]، ومنها أن علماء أهل الكتاب يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ١٤٦]، ولا شك أن كل ذلك يثير سؤالًا ملحًا:

ربما نتساءل: فلماذا لا يتبعون الحقائق وهي بمثل هذا المستوى من الوضوح والظهور؟ ما الذي يمنعهم من الاتباع؟

الجواب: هنا يأتي هذا المحور ليبين الله لك الموانع التي تحجب وتصد عن اتباع الحقائق مذكرًا بأساس هذه الحقائق وأهمها على الإطلاق، وهي حقيقة التوحيد.

فيبدأ هذا المحور من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة ١٥٩]:

فأول مانعٍ من اتباع الحقائق: كتمان الأحبار والعلماء والقيادات الدينية للحق.

وقبل أن يكمل لك الموانع الأخرى يذكرك بأعظم الحقائق الكونية: إنها الحقيقة التي لا ينبغي الاختلاف عليها، ويذكرها لك بأسلوب يملؤك جلالاً وهيبة ومحبة: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ

وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة ١٦٣]، وتأتي الآية ١٦٤ لتفصل لك بعض الأدلة المشاهدة على هذه الحقيقة العظمى في حياة الإنسانية.

ثم تأتي الآية ١٦٥ حيث يذكر الله ﷻ فيها المانع الثاني الذي يمنع من اعتناق الحقائق ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة ١٦٥].

إنه اتباع الأمراء والزعماء والكبراء، فإذا كان المانع الأول كتمان الأحبار والعلماء والقيادات الدينية للحق، فإن المانع الثاني هو اتخاذ الأنداد من الطواغيت والقيادات الدينية والسياسية المفسدة.

ثم ينقلك الله ﷻ إلى المانع الثالث، وهو الخوف من الرزق والهلع على المعيشة وعبودية المال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة ١٦٨]، ولاحظ تغير الأسلوب حيث ضمن هذا المانع في سياق الامتنان بالحلال الطيب.

ثم يأتي المانع الرابع مباشرة وهو اتباع خطوات الشيطان ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة ١٦٨]،

ويختم هذا المحور بالمانع الخامس وهو التقليد للأسلاف والآباء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة ١٧٠].

هكذا استوعبت البصائر القرآنية في هذه الآيات المباركات الموانعَ التي تحول بين الإنسان وبين اعتناق الحقائق العظمى، وكشفت للناس حقائق قياداتهم وحقائق الضعف الذي يعتريهم مع وضوح الحق الذي أمامهم.

وكيما تتكامل الصورة البهية الفائقة الحُسْن يأتي المحور السادس من محاور سورة البقرة ليجلي الصورة الكاملة لهذه السورة:

ربما نتساءل: عن ماذا يتكلم هذا المحور؟ وكيف يكمل الصورة الكاملة؟

الجواب: يكلمنا المحور السادس: عن الأنظمة التشريعية الحيوية التي تنظم حياة الإنسان في جميع المجالات، ويمتد في الآيات [١٧٢-٢٠٧]

فبعد أن بين كتاب الإيمان الحق الهادي.. الكتاب الذي يفسر الحياة ويديرها في المقدمة الأولى.

وبين تفاعل الأصناف المؤثرين من البشر معه في المقدمة الثانية.

وأعلن للعالم البيان الإلهي عن عقيدتهم التي ينبغي أن يعتنقوها في المحور الأول، ووضع النظام الذي ينفع الإنسانية، وهو نظام العبادة الموحدة، ثم أقام حججه وبراهينه، ثم كلمنا عن تهيئة البيئة الأرضية لوجود البشر ضمن المحور الأول.

وقدم للبشر القصة الحقيقية لمجيئهم إلى الأرض في المحور الثاني، حيث قدم لنا التصوُّر التاريخي لبدء الإنسانية، وأخبرنا عن بداية خلق الإنسانية، وتكريمها بالعلم، وتحملها مسؤولية الاستخلاف في الأرض، وختم المحور بذكر المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه البشر ليجدوا الفلاح، وهو الهدى الموجود في الوحي الإلهي.

ثم أخبرنا في المحور الثالث عن صنف من أكثر أصناف البشر أثرًا على مستوى الإنسانية، وهو الصنف الإسرائيلي الذي أحسن قليلًا وأساء كثيرًا.

وأعلمنا في المحور الرابع أن الإسلام هو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء: إبراهيم عليه السلام فمن بعده، وأنه اصطفى إبراهيم إمامًا ومرجعًا للعالمين، ثم بين لنا ولبني إسرائيل وللعالم أن ديانة إبراهيم وبنيه عليهم السلام وأحفاده ليست إلا الإسلام، وأن قبلتهم الكعبة، وبصَّرنا في هذا المحور بأن القيادات الدينية الكبرى تعرف ذلك حق المعرفة.

ثم بصَّرنا في المحور الخامس بأن وجود الحقيقة لا يعني اعتناق الناس لها، وأخبرنا عن الموانع التي تصرف الناس عن اتباع الحق الواضح، وإلا لكانوا تبعوا الحقائق التي يعرفونها عن الإسلام مما هو موجود في واقع البشر.

هنا آن الأوان ليبسط لنا التشريعات التي تفصل لنا الهدى الإلهي في جميع مجالات الحياة، وحدث هذا في هذا المحور، وتكرر في المحور الثامن من هذه السورة.

ربما نتساءل: فبم تميز هذا المحور في التشريعات التي قدمها لنا؟

الجواب: لقد جاء المحور شاملًا للتشريعات التي تقيم مصالح الإنسان، وتدير حياته وتنيرها، وتنظم الحياة للمستخلفين في الأرض. إنها تدعو الإنسانية لما يحييها، وليس اجتهادات وقوانين يبتكرها الإنسان حسب أهوائه ونزواته.

فأنتم أيها البشر لا تشرعون لأنفسكم من عند أنفسكم، ولا تخوضون في حياتكم كما تهوون، بل تأوون إلى القواعد العامة والتفصيلية التي أنزلها ربكم عليكم، وفرضها في التشريعات الإلهية.

ربما نتساءل: هل هذه القواعد التشريعية المنظمة للحياة تتعلق بالعبادات الشعائرية كالصلاة والصيام وحسب؟

الجواب: تفاجئك الآيات بأن التشريعات تمتد إلى جميع مجالات الحياة، وجاءت هذه التشريعات على ترتيب غير متوقع، فلم يقدم أركان الإسلام، بل جعلها جزءًا من كل التشريعات، فلا تتعجب إذ تراها لا تبدأ بالصلاة ولا بالصيام ولا بالحج، وإنما تبدأ بالأنظمة الغذائية: ما الذي يجوز لك أن تأكله، وما الذي يحرم عليك أن تأكله، فيخاطبنا الله ﷻ قائلًا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وكأنَّ في هذا إلماحة إلى عدم إغفال الحاجات الفطرية الضرورية للإنسان، وأن تأمينها يأتي في سلم الأولويات عقلًا وشرعًا وواقعًا.

لا بد أن يجرنا هذا إلى التساؤل: ألم يبدأ القسم التشريعي بالصلاة في نحو قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وبالعبادة قبل ذلك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؟

الجواب: بلى! ولكن وورود الأمر بالعبادة أولًا، وبالصلاة بعد ذلك لم يكن ضمن إطار التشريعات المتكاملة المتتابعة لهذه الأمة بل كان في إطار المحاور التي ذُكِرت فيها هذه الآيات، فالعبادة جاء ذكرها في إطار براهين الإيمان بالله ﷻ، وعدم اتخاذ الأنداد له ضمن المحور الأول، والصلاة والزكاة والركوع مع الراكعين جاء ذكرها في إطار المحور الثالث حيث ذُكِر الاستخلاف الإسرائيلي، وكذلك في المحور الرابع، حيث ذَكر الله ﷻ وراثة هذه الأمة للملة الإبراهيمية المسلمة التي ليست يهودية ولا نصرانية ولا مشركة.

أما الآن فيذكر الله تشريعات متكاملة مفصلة لهذه الأمة التي تشرق حضارتها على الأمم والعالم.

وفي هذا المحور ينقلك الله من النظام الغذائي، إلى الكلام عن الفساد الإداري العلمي عند المشرعين المفسدين الذين يتلاعبون بالوحي الإلهي في الملل المتعددة، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٤]، ثم ينقلنا إلى آية جامعة لمختلف أنواع التشريعات في آية البر، فيقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الآية. [البقرة: ١٧٧]، فذكر فيها في المجال العقدي والفكري الإيمان بالأركان الخمسة وفي المجال المالي الاجتماعي الإنفاق في الوجوه الستة، ثم ذكر أهم ركنين من أركان الإسلام، يتعلقان

بالصلة بالله والصلة بالخلق، وأهم سلوكين في المجال الخلقي (الوفاء، والصبر) فهما أساس سائر الأخلاق.

وما زال هذا المحور مليئًا بالمفاجآت في الأحكام التشريعية، فحدثنا عن التشريعات في المجال الجنائي، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ووضعها ليحقِّق لنا الاستقرار ويضمن الأمن ويكرم الحياة الإنسانية باختفاء الجريمة ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٧٩].

ثم حبانا هذا المحور بتفصيل تشريعي مذهل في المجال الاجتماعي وترابط الأجيال، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

بعد هذه المفاجآت الخمس في المجال التشريعي يأتي تفصيلٌ ماتعٌ قويٌّ عن الركن الثالث من أركان الإسلام هو ركن الصيام، تأمل جيدًا!

أغدقت الآيات علينا بتفصيلٍ في الحديث عن مجالاتٍ متعددة في الحياة عدة مثل المجال الغذائي، والإداري والسلوكي، والفكري والإنساني، والخلقي والجنائي، والاجتماعي.. كل ذلك قبل تفصيل الكلام عن الركن الثالث من أركان الإسلام وهو الصيام الذي جاء وسط هذا المحور، لماذا؟

ليبين لك شيئًا جليلاً: وهو أن الإسلام الذي يعلمك إياه القرآن المجيد لا يمكن أن يدعيه إنسانٌ على الحقيقة إلا أن يكون مهيمنًا على جميع مناحي حياته وشأنه: فكما يحكم الإمام في المسجد متبعًا رسم القرآن، فإن الحاكم ينبغي أن يحكم في دار الحكم وفق هدى القرآن، ويجب أن يسير الأمير في دار الإمارة على خطى القرآن، ويستقيم الملِك في المملكة على نهج القرآن، وهكذا المصلح الاجتماعي، والخبير التربوي، والموظف الخاص أو العام، الاقتصادي والسياسي، الغني والفقير الذكر والأنثى، كل أولئك وغيرهم يجب أن يتبعوا

هدى القرآن وشرائعه في عام أمرهم وخاصه وصغيره وكبيره، ولا تظنن أن الاقتصادي يحق له أن يتبع هواه في وضع السياسيات والنشاطات الاقتصادية بل هو تابع للتفصيل القرآني إن ادعى الإسلام، وهكذا المصلح الاجتماعي، والخبير التربوي، والموظف الخاص أو العام.

وليتضح لك أن القرآن يبني الحياة في جميع الزوايا، فستتفاجأ ما القسم الذي جاء بعد التفصيل الفريد عن الصيام!! لقد أسست آيات الكتاب المجيد قوانين تحاصر الفساد المالي والإداري في الآية ١٨٨ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ويرتبط بما سبق وما لحق: الحديث عن المواقيت الزمنية الإسلامية المتعلقة بالعبادات والمعاملات.

ثم ينقلنا الله ﷻ في كلماته إلى الحديث عن تشريعات دقيقة تسبق جميع اتفاقيات هيئات الأمم وقوانين العالم، وتضبط فيها أسباب الحرب ضبطًا مدهشًا، وبذلك تؤسس لقواعد عادلة في العلاقات الدولية في مسائل السلم والحرب..

ربما نتساءل: ويبدأ هذا القسم بداية مثيرة حيث يُفَصِّلُ قانونًا عظيمًا من أهم القوانين التي ترسي العدالة الدولية، فما هذا القانون؟

الجواب: يظهر هذا القانون العظيم الكبير في هذه الآية الكبيرة، إذ تسمع رب العزة سبحانه يقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]، فاشتمل هذا القانون على ثلاثة من أهم مبادئ العلاقات الدولية:

١) مبدأ الحفاظ على استقلال الدولة وسلامة أراضيها ومواطنيها.

٢) ومبدأ المحافظة على توازن الردع، وليس على شرعية الفيتو الظالمة.

٣) ومبدأ عدم العدوان.

فالسياسية الشرعية تولي أهمية كبرى لمفهوم استقلال الدولة وحقها في السيادة، وحريتها في اتخاذ قرارها، وسن قوانينها وأنظمتها تحت المرجعية التي رضيتها، دون تدخل من الدول الأخرى.

وكثيرًا ما أشار فقهاء السياسة الشرعية إلى ضرورة اضطلاع السلطة السياسية الحاكمة بمهمة الاستعداد، لمواجهة مختلف مصادر التهديد الخارجي لاستقلال وسيادة الدولة الإسلامية، وذلك بجمع الجيوش وتدبيرها، وسد الثغور وتحصينها بالعدة المانعة والقوة الدافعة(١)، وبالأخذ بكل أسباب إعداد القوة بمختلف أنواعها (ماديًّا، ومعنويًّا) ومن ذلك تعبئة المواطنين وتدريبهم، وإعداد العدة والعتاد الحربي، وعقد المعاهدات الدولية عند الحاجة إليها، سواءً تعلقت بالتحالف ضد العدوان أو بوضع الحرب وإقرار السلام،ومنع وقوع اعتداءات محتملة.

وكما قرَّرت الآية مبدأ الحفاظ على كيان الدولة والمجتمع المسلم ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، وجعلت أهدافه نبيلة سامية، فقد قررت كذلك في الوقت نفسه مبدأ عدم الاعتداء ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾. فالقتال في الإسلام منضبط بمبدأ عدم العدوان، ومن ثم فهو يرفض رفضًا مطلقًا شن الحروب تعطشًا لسفك دماء الآخرين، أو لاحتلال أراضيهم، أو لنهب ثرواتهم، أو لإذلالهم والهيمنة عليهم، أو لغرض العلو في الأرض وإفساد معايش الناس وحياتهم.

ويختم الله ﷻ هذا المحور الكبير بالتبيين التشريعي التربوي لآخر ركن من أركان الإسلام، وهو العبادة الفريدة: (الحج)، وفي آخره تقسيم للناس في صدقهم وكذبهم حسب أثر هذه العبادات المتنوعة التي يقومون بها:

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص٢٣، والأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص٣٣.

فالصنف الأول يعجبك قوله، فتظنه من قوى الصلاح والخير، ولكنه يخفي غير ما يعلن، فيقوم بتدمير الحياة في الأرض والناس ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

ويقابله الصنف الذي يقوم بأركان الإسلام ليعكس أثره الخير في الحياة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

أخذ المحور السادس بأيدينا ليحدثنا عن التشريعات والقوانين التي تنظم الحياة، وجاءت تتمة التشريعات في المحور الثامن، فما الذي حدث؟ ولماذا جاء محور يفصل بين محورين متشابهين في الموضوع؟

هنا يفاجئك الأسلوب القرآني.. إنه ليس كتابًا للمعرفة فقط، بل هو كتاب للتزكية، وللتطبيق الواقعي، ولذا يوقفك أحيانًا في منتصف موضوع ليذكرك بركائز أساسية تتعلق بذلك الموضوع، عندها تدرك لماذا جاء المحور السابع.. فعن ماذا يتكلم هذا المحور؟

يحدثنا المحور السابع عن وجوب الدخول في الإسلام والسلام كافة، حيث يبدأ هذا المحور من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ويمتد في الآيات [البقرة ٢٠٨-٢١٤] فما معنى (السِّلم)؟

المقصود بالسِّلم أمران لا بد منهما معًا: الإسلام، والسلام، وقد وردا بالمعنيين في الشرع واللغة، والسلام جزءٌ من الإسلام، ولا يتحقق إلا بوجود القوة التي تردع قوى العدوان، وتحمي الحقَّ الذي ينشر الخير في العالم.

ربما نتساءل: ما علاقة الدخول في (السلم) كافة بالمحورين التشريعيين السابق واللاحق؟

الجواب: أنه في المحور السابق قد أفاضت الآيات في الكلام عن التشريعات والقوانين التي

تنظم الحياة.. إنها التشريعات التي تنشر عبق الحياة في مجال العبادات.. في أركان الإسلام.. في مجال المعاملات المالية.. في المعاملات الإدارية.. التشريعات في المسائل القضائية.. التشريعات في المسائل الجنائية.. التشريعات في مجال الوصايا وتواصل الأجيال.

وقبل أن يكمل لك مجالات عظيمة أخر في هذه الحياة النابضة المتحركة، يأتي المحور السابع:

ليخبرنا ربنا ﷻ عن أهم المواد الدستورية لمن يريد الإسلام: إذ لا يمكن لك أن تشعر بلذة الإسلام حقًّا، وبعظمة الإسلام صدقًا.. لا يمكن لك أن تجد نور حضارة الإسلام التي تشرق على الناس من المدينة إلا إذا دخلت في السلم كافة، ولذا قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ربما نتساءل: ما معنى الدخول في السِّلم كافة؟

فأقول: الدخول في السِّلم له معنيان كبيران متلازمان:

الأول: بأن تطبق كل تلك التشريعات، **والثاني**: أن تسعى مع المؤمنين لإيجاد حالة السِّلم العالمية.. وكيف ستحققها دون امتلاك أنواع القوى المتعددة لتوجد حالة الردع لقوى الشر والعدوان؟

وقد يقول قائل: كيف نجمع بين هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة ٢٠٨]، والآية التي سبقتها ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]؟

الجواب: إنهما يمثلان مجد الإسلام وإحكام شرائعه، حيث يتداخل مبدأ منع العدوان، مع مبدأ تحقيق السلام العالمي، فإذا كانت الدولة الإسلامية مأمورة شرعًا بأن تأخذ ابتداء بكل

أسباب إعداد القوة، فإن ذلك ليس لغرض العدوان على الخلق بغير حق، وإنما هو للحفاظ على أمن المجتمع، وحراسة أرضه وأمواله وأبنائه، واستقلال الدولة وسيادتها وسلامة أراضيها، فإعداد القوة إنما هو لدعم السلام العالمي عن طريق إرهاب الأعداء المحتملين، وهو ما يعرف بالتسلح من أجل إقرار السلام(١).

ويعلم هذا المحور المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة بأن يطبقوا جميع تشريعات الإسلام، فينبغي ألا يعتادوا حياة التناقض بين المبدأ والممارسة.. لا تتعلم حياة الانفصام والانفصال الشخصية بين الشعار والتطبيق:

فلا يأخذ المسلم بشيء من الإسلام، ثم يترك أمرًا آخر مثله، أو فوقه في المنزلة، أو يأتي بما يهدمه وينقضه.

فلا تقل: أنا أصلي، ولكنك في الوقت ذاته لا تبالي بأخذ المال الحرام بل ادخل في السِّلم كافَّة.

لا تقل: بنيت المسجد، ولكنك في الوقت ذاته تشيع الفاحشة في المجتمعات عن طريق تمويل أسوأ المشاريع الإعلامية والقنوات والمجمعات والمولات التي تعمل على هدم الفضيلة في كل لحظة، بل ادخل في السلم كافة.

لا تقل: أنا أؤمن بالكتاب، وبالصلاة، ولكنك لا تؤمن بتحريم الإسلام للربا

لا تقل: أنا أؤمن بالكتاب، ثم تتهاون في تطبيق الكتاب في المعاملات السياسية

لا تقل: أؤمن بالكتاب ثم تطبق أبشع أنواع العنصرية..

---

(١) د. حسن سيد سليمان، الحرب والسلام بين النظم الغربية والإسلام، مجلة كلية التجارة والاقتصاد، جامعة صنعاء، العدد ١٠، ١٩٩٨، ص٢٥٣.

هذا التناقض لا يخرجك من الإيمان بالضرورة، فالله يناديك باسم الإيمان، فيقول لك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وهو مع ذلك يحذرك من مواقعة ما يناقض مقتضى الدخول في السلم كافة ومغبته فيقول لك: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

لاحظ كيف جمعت كلمة (السلم) بين: السلام والإسلام، وكأن الله ﷻ يأمرك ألا تضرب السلام بالإسلام وألا تضرب الإسلام بالسلام.

وهذا من أجمل التأملات الجامعة للمعنين في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ومن توسعة دلالة اللفظ القرآني بما يحتمله.

وعليك أن تعلم سلمك الله أن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] ليس كلامًا خاصًا للحكومات فحسب.. ليس توجيهًا للمسؤولين فحسب.. ليس خطابًا للإدارات فحسب.. إنه توجيه عام، ونص حاكم لي ولك ولكل من يدخل في قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ من حاكم ومحكوم، ويخبرنا أننا يجب أن نتبع تفصيلات الهدى في جميع أمور الحياة: في الدستور والقوانين، والعبادات، والعادات، والمعاملات، والأخلاقيات.

فإذا وصل بنا الكلام إلى ما ذكرنا، فربما ينقدح في ذهنك هذا السؤال:

فهمنا معنى الدخول في السِّلم كافة، فما علاقة بقية الآيات الواردة في المحور بذلك؟

الجواب: تقدم لك بقية آيات المحور المعاذير التي ربما يعتذر بها من لا يدخل في الإسلام أو السلام كافة، وتأتي الآيات لتعالج هذا الخلل الكبير: وهو أن يأخذ المرء من الإسلام ما يشتهي، ويترك ما لا يوافق هواه، وينتهي هذا المحور بخاتمة مناسبة تدهشك عندما تربطها بالعنوان الذي اخترته له، والآية التي جعلتها عمودًا لأفكاره.. ينتهي عند قوله تعالى: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤] ليخبرك أن خيار الدخول في السِّلم كافة لا بد من أخذه مهما بدا لك استضعاف المسلمين، وبغي المجرمين.

وهنا يلوح لنا المحور الثامن الذي تضمن القسط الثاني من التشريعات والأحكام المنظمة للحياة:

المحور الثامن: عودة من جديد للكلام عن الأنظمة الحيوية التشريعية، وامتد المحور الثامن طويلًا في الآيات [٢١٥-٢٤٢]:

وهنا لا بد أن تتساءل بإلحاح: لماذا يعود بنا السياق إلى التشريعات التفصيلية التي تنظم الحياة بعد أن رأينا المحور السابع ينقلنا عنها؟

الجواب: كان المحور السادس تفصيلًا لبعض الأنظمة التشريعية الحيوية، لكن الله ﷻ أراد أن يثبِّت في أذهان الناس أن الإسلام لا يظهر نوره بأخذ بعض أجزائه، وترك أجزائه الأخر، فتصوَّر من يصوم دون أن يترك الفساد المالي والإداري، وتصوَّر من يفي بعهده مع البشر، ويترك عهده مع رب البشر بترك صلاته، وتصوَّر من يحج ولكنه يعتدي على الآمنين والمُؤَمَّنين، وتصوَّر من يُنفق ولكنه لا ينهض لردِّ عدوان المعتدين..

جاء المحور السابع، ليثبت مبدأ الدخول في السِّلم كافة، ثم جاء المحور الثامن ليكمل بقية التفاصيل التي تنظِّم الحياة:

فبدأ هذا المحور في القسم الأول منه: بالكلام عن الإنفاق في المصارف غير الزكوية: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ [البقرة ٢١٥].

ثم حدَّثنا في القسم الثاني منه: عن العلاقات الدولية القائمة على الردع المتبادل وليس على المسكنة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة٢١٦]، وأسس لطريقة الخطاب في مثل هذا الأمر الذي يظهر فيه توحش ذئاب العالم.

ثم بصرَّنا في القسم الثالث منه: بحصول الإثم الكبير الذي يشيعه انتشار الخمر والميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، ويجمع الله بين هذا القسم وبين القسم الرابع الذي يعلمنا المقدار الذي ينبغي أن تنفقه الدول والأفراد: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم ينتقل العرض القرآني في القسم الخامس من هذا المحور الجذاب إلى الدفاع عن اليتامى، وإصلاح أحوالهم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ربما نتساءل: لاحظنا بعد ذلك أن بقية المحور أقسام متعددة ترجع كلها إلى المجال الأسري، فلماذا؟

الجواب: رأيت الأقسام السابقة تتكلَّم عن إصلاح العقل بتحريم الخمر والميسر، وإصلاح العاطفة الإنسانية بالحثِّ على إنفاق (العفو): أي القدر الزائد الذي لا يحتاجه الإنسان، وإصلاح العاطفة الإنسانية لأضعف الفئات التي تعيش في المجتمع وهم اليتامى، وبعد ذلك يأتي التركيز في القسم السادس على إصلاح الأسرة وتنظيم شؤونها:

فتأخذ الآيات في بقية أقسام المحور بيدك في بيان مفصل طويل عن الأسرة لقاءً وفراقًا:

فالقسم السادس يبدأ معك من لحظة اختيار الرجل لرفيقة حياته، واختيار المرأة لشريك عمرها: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، حيث تؤسِّس الآيةُ البيتَ الصالحَ الذي يكون لبنة ثابتة من لبنات المجتمع.

ثم تأتيك آيات الأقسام الباقية تباعًا بتفاصيل محكمة وتشريعات متقنة مدهشة، تشعرك بعظمة القرآن؛ حيث يخبرك سبحانه عن الحياة الزوجية، وكيف يحدث الأنس الزوجي النفسي والجسدي، وما يعرض لتلك العلاقة من عوارض تشيع في الحياة الزوجية كالإيلاء. ويحدثك هذا المحور عن أحكام الطلاق بدقة شديدة حتى يكون الفراق بين الزوجين –إن حدث– آمنًا يعود عليهما بالراحة والاطمئنان، وكذلك على أولادهما، وعلى المجتمع الذي يعيشان فيه، وحتى لا يحدث فيه تلاعب أو استغلال، ويحدثنا الله ﷻ في أثناء ذلك عن كيفية تكوين حياة أسرية جديدة بعد الطلاق؛ إذ قد تبقى النفس تُكِّن محبة لزوجها وهو أليفها وشريكها من الجنس الآخر، وتذكره، وترجو عودته والتواصل معه، ولا بد لذلك من قواعد قانونية ضابطة تحمي الطرفين، وتصون حقوقهما، لا سيما المرأة التي ربما اجتاحها لضعفها بعض الظلم من الطرف الآخر أو من أطراف أسرية مناوئة لها.

وينتهي هذا المحور –بعد رحلة ماتعة مدهشة– بتذكير العالم أجمعين، والمؤمنين خاصةبقوة البينات الإلهية، وضخامة منظومة الإعجاز التشريعي الذي تقدمه الآيات للبشرية لتنقلها من مرحلة التخبط إلى مرحلة العقل الحقيقي حيث يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

وبعد هذه الرحلة التشريعية الماتعة شعرنا بمنظومة قانونية دستورية تربوية عظيمة، لكنها بحاجة إلى بيئة مناسبة للتطبيق، وهنا ينقلنا الله تعالى نقلة متوقعة إلى:

المحور التاسع: جاء هذا المحور ليكون مخصصًا للكلام عن سنن الخروج من مرحلة الاستضعاف، وصناعة التوازن والسلام العالميين، ويبدأ من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ويمتد في الآيات (٢٤٣-٢٥٤)، أي إلى ما قبل آية الكرسي.

وربما تتساءل: لماذا ينقلنا الله ﷻ من المحور التشريعي القانوني إلى الكلام عن سنن الخروج من مرحلة الاستضعاف، وصناعة التوازن والسلام العالميين؟

الجواب: كأن الله ﷻ يخاطبنا على إثر تلك التشريعات المذهلة بأنكم أيها المسلمون تصنعون حضارة حقيقية، وتقدِّمون للعالم هذه التشريعات، وتهدونهم إياها، ولا يمكنكم أن تصنعوها وأنتم مستضعفون، فإن أردتم الخروج من مرحلة الاستضعاف فسننبئكم عن مرحلة مشابهة، حدثت فيها الهزائم والنكسات بسبب عدم اتباع سنن المدافعة والأخذ بأسباب النصر وعُدَّته، ثم توالت بعدها الانتصارات للمنهزمين بعد أن اتبعوا سنن الخروج من الاستضعاف، وأبرز مثل لكم بنو إسرائيل الذين دهمتهم جحافل القوى المستكبرة لما أصابتهم الغفلة، وآثروا العبث بدينهم، فمروا بمرحلة الاستضعاف، ثم جاءت أجيال بحثت عن سنن الخروج من الاستضعاف والنهوض من الذل وتتابع الخسائر، والارتفاع إلى عرش التمكين، فنبذوا وراءهم المتردية والنطيحة، وخلعوا قيادات السوء والضعف، وأزاحوها عن المناصب القيادية، ولجأوا إلى نبيهم ليختار لهم قيادات قوية عظيمة، تردهم إلى ديارهم وأموالهم، وتقودهم إلى النصر والتمكين، ولما اختار الله ﷻ لهم تلك القيادة القوية الحكيمة بين أسباب الاختيار، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وبعد أن ثبتت النقطة الأساسية، وهي اختيار قائد الرشد انتخب من قومه ثلة قوية من الصامدين الصابرين معه.. إنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ٢٤٩]، فقاموا بمهمتهم، ونجحوا في اتباع سنن النصر التكتيكية، وتمكن المسلمون من بني إسرائيل في

حينها أن يهزموا القوى الوثنية المعتدية ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولاحظ هنا مدى التركيز على القيادات ودورها في تغيير موازين المعركة ومفاهيم الناس، وإلا فكما قيل:

لا يــــلام الـــــذئبُ في عدوانـــــه   إن يكـــنِ الراعـــي عـــدوَ الغـــنم

ولن تبرح هذا المحور حتى يبني فيك ضرورة أن تبحث القيادة عن نخبٍ صادقة تسير وراءها، فالشقة بعيدة والطريق زلق، والعوائق جمة، والشهوات خطافة، وطبائع الهوى غلابة، وهو ما وقع مصداقه في هذه القصة، ففي البداية جاء عموم الناس يظهر عليهم الحماس يريدون الخروج من الضياع والاستعباد والمهانة، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ثم بدأوا يبتعدون عن إظهار الصدق في اتباع المبادئ، فلما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أثاروا نُعرة المنافسة واتبعوا بغي الحسد، وأصروا على الانسلاخ من المبادئ التي رفعوها ابتداء، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

تجد هذه الاعتراضات تتكرَّر في كلِّ زمان بأساليب متجدِّدة، وفي حياة الاستضعاف التي نحياها اليوم خاصَّة.

ختم الله ﷻ هذا المحور بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، هنا ترى صناعة التوازن والسلام الحقيقيين.

ربما نتساءل: كيف يمكن إزالة الفساد في الأرض؟

الجواب: إن أنت أردت السلام في الأرض فلا بد من أن تقيم حالة المدافعة الحقيقية، وهي تعني أن توجد القوة الحقيقية التي تكافئ القوة الموجودة عند المعتدي، وإلا فإنك ستصبح

بين أسنان قوى التوحش التي تحكم الأرض بأسوأ المبادئ العنصرية ومبادئ الهيمنة في الأرض المسمى (الفيتو):

يَرى الجُبَناءُ أَنَّ العَجزَ عَقلٌ ... وَتِلكَ خَديعَةُ الطَبعِ اللَئيمِ
وَكُلُّ شَجاعَةٍ في المَرءِ تُغني ... وَلا مِثلَ الشَجاعَةِ في الحَكيمِ

هذا المحور من أخطر المحاور التي ترسم الحياة المستقبلية لأتباع الحضارة الجديدة؛ لأن الله ﷻ بين فيه أن الصراع سيبقى بين أتباع الملل الثلاث، ويحدد الله ﷻ ذلك في [الآية ٢٥٣] فيقول: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾.

من هذا الذي كلمه الله؟

الجواب: إنه موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ وهو محمد ﷺ في قول عامة المفسرين.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ربما نتساءل: لماذا ذكر الله ﷻ هؤلاء الأنبياء المختارين دون غيرهم؟

الجواب: بأن ظهور هذه الحضارة الجديدة ذات الرسالة الخاتمة قلب موازين العالم، وغير خطط العالم السفلي، وزلزل تفكير منظومة الشر الخفية أعني عالم إبليس.

وسيترتب على ظهور هذه الحضارة الجديدة ذات الرسالة الخاتمة أن أتباعها، وأتباع النبيين العظيمين (موسى وعيسى) عليهما السلام سيظلون في تفاعل: إما تفاعل إيجابي، وإما تفاعل سلبي.

تفاعل إيجابي عند الحوار فيما بينهم للبحث عن الحق، والحق سيهديهم إلى أن الإسلام هو دين الله ﷻ الذي بعث به الأنبياء عليهم السلام.

وتفاعل سلبي عندما يبغي بعضهم على بعض، لذلك قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]، أي لو شاء أن يمنعهم لمنعهم، ولكنه تركهم لاختيارهم ليبلو بعضهم ببعض: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ويعني ذلك أن الذي اختار الكفر اختار البغي على من اختار الإيمان.

ترسم هذه الآيات معالم العلاقات الدولية المستقبلية، ويجب أن يكون عند المسلمين مراكز بحثية استشرافية تستمد تصوراتها من القرآن كما لدى خصومهم من الملتين الأخريين الذين يأخذون تصوراتهم السياسية المستقبلية من الخرافات المنسوبة إلى التوراة المعاصرة.

ربما نتساءل: كيف كان الختام المدهش لهذا المحور؟

الجواب: ختم الله ﷻ هذا المحور بالتأكيد على أهمية التفوق المالي للمجتمعات والأمم الطامحة للنهوض، فهو مفتاح قلب الموازين، ولذا ذكر الله ﷻ الإنفاق في آخر آية من المحور، والإنفاق يعني البحث عن الموارد المالية للتحرر من حالة الاستضعاف والتبعية، فـ"من يملك غذاءه يملك قراره" فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والإنفاق له دور عظيم في الخروج من حالة الاستضعاف، وفي تأمين الجبهة الداخلية، وتعزيز صمودها، وتأمين احتياجات المرحلة مدنيًّا وعسكريًّا، والحماية من الانهيار في حالة التمكين، وما أكثر مَن يجمع الأموال ثم ينفقها في الإفساد وفي أخلاء السوء وحلفاء الشر بدلًا من أن ينفقها في الصلاح والرشاد، ويغفل عن يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

المحور العاشر: يحدثنا عن عظمة الله ﷻ ومزايا دينه ودلائل قدرته من الآية [٢٥٥-٢٦٠]:

ربما نتساءل: ولكن لماذا جاء هذا المحور في هذا الموضع من السورة، فقد كان المحور الأول من السورة صوتًا عظيمًا قويًّا في بيان الإعلان الإلهي للبشرية عن نظام العبادة الموحدة لله، وبعد كل هذه المحاور يأتي هذا المحور في هذا الموضع ليحدثنا عن عظمة الله ودلائل قدرته، فلماذا؟

الجواب: عند التأمل ستجد أن هذا المحور جاء في الموضع الأليق والأولى به، بعد أن تضع هذا المحور إلى جانب المحاور السابقة، ويقرِّر لك هذا المعنى عدَّة معالم:

أولها: بعد أن بيَّن الله ﷻ براهين الإيمان في المحور الأول، والإعلان العالمي للعبادة، وبداية قصة البشرية واستخلافها في الأرض في المحور الثاني، وأظهر أنموذج الاستخلاف الإسرائيلي، وجوانب الفشل فيه، وذلك في المحور الثالث، وأبرز في المحور الرابع الأنموذج الإبراهيمي الناجح في الاستخلاف، وقرَّر أن الأمة الإسلامية هي وريثة ملة إبراهيم عليه السلام، وذكر في المحور الخامس أهمَّ الموانع التي تمنع من اتباع الحق والحقيقة، وبسط في المحور السادس التشريعات التي تصنع الحياة وتسعد البشرية، وكذلك في المحور الثامن، وفَصَل بينهما بوجوب أن يدخل المسلمون في الإسلام والسِّلم كافة، فيطبقوا الإسلام دون تردُّد أو تبعيض أو تجزيئ أو لَدَدٍ، ثم جاء المحور التاسع لينبئنا كيف تستعيد حضارة العدل والحقِّ عافيتها في أزمنة الاستضعاف؛ إذ إن من السنن الكونية الكبرى ألا تدوم حضارة أبد الدهر، وأن الأيام قلب، والتداول الحضاري أمر مفروغ منه، وأن دولاب تصاريف حياة الأمم والشعوب يدور دون توقف، فلا بد من التداول بين الناس والأمم والحضارات، فلا أحد منهم يملك أمره وعمره وملكه. وإذا كان الناس لا يملكون السيطرة على الكون، والسيادة

على حركته، فيجب أن يعرف البشر مالك الخلق والأمر، مالك التدبير والتصريف. هنا ظهر هذا المحور في موضعه المناسب من السورة، حيث يكلمنا الله ﷻ عن عظمته جل مجده، وليخبرنا عن مزايا دينه الذي يكفي أن يعرفه العالم ليدخلوا فيه طوعًا لا كرهًا، وليزيد المؤمنين اطمئنانًا، والعالمين بصيرة، يخبرنا الله ﷻ في هذا المحور العجيب عن عظيم إحاطة الله ﷻ بهذا الكون وتصريفه له، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم.

ثانيها: الرد على الظنون الخاطئة، التي ربما يلقيها شياطين الإنس والجن في روع المتدبرين باعتبارها أثرًا من المحاور السابقة، فقد يظن بعضهم أن الصراع بين الملل الثلاث الذي عرضته آيات المدافعة، يعني أن الله ﷻ ترك لهم الكون ليتصرفوا وفق ما يشاءون، فتأتي هذه الآيات لتزهق هذه الظنون وتطيش بهذه الأوهام، فتبين أن سنن التدافع بين الناس، لا تقتضي أن الله ﷻ غافل عن هذا الكون، وأن الله ﷻ لم يجعل هذا الكون مرتعًا للظلم، لذلك بدء هذا المحور بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثالثها: دفع شبهة إرغام الناس على قبول الإسلام، فقد يحمل بعض الناس ما وقر في قلوبهم من صحة الإسلام، وأنه الحق الذي لا ريب فيه، ولا نجاة إلا به، على أنه لا بد من إكراه الناس عليه لتقع لهم النجاة. فتكلم الله جل مجده هنا عن أعظم صفاته ليُعلم الناس إحاطته بهم، ثم أخبرنا عن عظمة دين الإسلام، ونقاه من أن تكون عظمته سببًا في إجبار الناس عليه مما يحاول شانئوه أن يشوهوه به، فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن جُزَيٍّ ﵀: "المعنى أن دين الإسلام في غاية الوضوح وظهور البراهين على صحته، بحيث لا يحتاج أن يكره أحد على الدخول فيه، بل يدخل فيه كلُّ ذي عقل سليم من تلقاء نفسه دون إكراه، ويدل على ذلك قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: أي قد تبين أن الإسلام رشد وأن الكفر غي، فلا يفتقر بعد بيانه إلى إكراه، وقيل: معناها الموادعة، وأن

لا يكره أحد بالقتال على الدخول في الإسلام، ثم نُسخت بالقتال، وهذا ضعيف؛ لأنها مدنية، وإنما آية المسالمة وترك القتال بمكة"(١).

وهذه بحد ذاتها عظمة بعد عظمة، ومجد بعد مجد.

وهنا يبصرك هذا المحور أن المسلمين عندما يأخذون جانب الردع، فذلك لا يعني أنهم يكرهون الآخرين على دينهم. كيف وهذه الآية موجودة أمامهم؟

الجواب: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهي آية محكمة نزلت في أهل الكتاب ومن في حكمهم، ولم يعرض لها في ذلك نسخ.

ومهما حاول الطاعنون في الإسلام أن يرموه بشبهة الإكراه أو غيرها، فلن يضره ذلك شيئًا، فإن الحقَّ أبلج، والسبيل بيِّن: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وبطريقة مبطنة حاول بوب الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر أن يتهم الإسلام بالعنف، وبغير اعتماد على أسس فَهْم القرآن الكريم زعم أن هذه الآية منسوخة، ولم يكلف نَفْسَه أن يتعرف من المسلمين على سبب نزولها الذي لا يحتمل أن تكون معه منسوخة بالمعنى الأصولي، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ:« كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا -أي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ- فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]»(٢).

ربما نتساءل: لكن ما علاقة القصص الثلاث الأخيرة في المحور بهذا المعنى؟

هنا يأتي الجواب في هذا المَعْلم:

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي (ص٨٩ – ٩٠).

(٢) أبو داود (٢٦٨٢)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

رابعها: عدم إكراه الناس على الدين لا يعفيهم من تحمل تبعة إعراضهم وغفلتهم عن الحياة الآخرة، وعن قدرة الله تعالى المطلقة التي تحيي الأموات، وهنا ذكر الله تعالى دلائل قدرته وبرهان عظمته لمن أراد الهدى ورغب في الحق، في ثلاث قصص غاية في العجب والعظمة::

١) قصة إبراهيم والملِك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وفي آخرها يبصرنا بأن الظالمين اختاروا طريق الظلم فلم يستحقوا أن يلهمهم الله هداه.

٢) وقصة الذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ويبصرنا في آخرها بقدرته المطلقة ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٣) وقصة إبراهيم عليه السلام في طلبه أن يرى كيف يحيي الله تعالى الموتى، ويخبرنا في آخرها بعزته الغالبة، وحكمته الشاملة: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ويختم الله عز وجل محاور السورة بـ:

المحور الحادي عشر: المحور المالي ويمتد في الآيات [٢٦١-٢٨٣]، ويبصرنا بالإدارة المتميزة للأموال في الحضارة الجديدة:

إنه محور ذو مغزى خاص.. إنه محور يزيدك يقينًا بأن سورة البقرة تبني للمسلمين مجدًا جديدًا في المدينة يكمل الإنجازات العظيمة التي قاموا بها في مكة.. إنه محور يحدثنا عن عماد قيام حضارة مستقلة عن التبعية الخارجية.

ربما نتساءل: المشهور أن هذا المحور يتكلم عن الإنفاق وآدابه، فكيف قررتَ بأنه يتكلم عن المال عمومًا؟

الجواب: هنا ترى تفصيلًا يأخذ الأنفاس عند تدبره، فقد كان ترتيب هذا المحور مدهشًا جدًا،حيث انقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية:

القسم الأول: قسم الإنفاق، ويمتد في الآيات [٢٦١-٢٧٤]،

وهنا يفصِّل الله ﷻ ما يتعلَّق بالإنفاق الواجب والتطوعي، إنه الإنفاق الحقيقي في مواطنه الحقيقية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فبدلًا من أن ينفق الإنسان أمواله في الفساد، والإجرام، وقتل الأطفال، وفي جمع السلاح لقتل الضعفاء، وفي الليالي الحمراء، وفي اللهو المحرم، يأخذ الله ﷻ بيده لينفق أمواله فيما يؤدي إلى **الإعمار السُّنْبلي** للحياة في الأرض، ولبناء المستقبل في الآخرة.

ويبين الله ﷻ هنا آثار الإنفاق ومكاسبه ومغانمه في الدنيا والآخرة، بصورة تحبِّب الإنفاق وتعظِّمه في قلوب الناس، وتجعل المرء يود أن يكون له مال ينفق منه.. ذلك يعني أن يبحث عن سبل الكسب الحقيقية ليكون كذلك، وفي هذا القسم ترى تفصيل آداب الإنفاق بصورة دقيقة تقرؤها فتوقن أن هذا الكتاب تنزيل من حكيم حميد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويخبرنا ربنا تعالى بضرورة الإسهام المجتمعي عند التملك باختيار طيب الرزق وإخراجه في سبيل الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وكلمة ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: كلمة دقيقة تظهر مدى سعة الوعاء الإنفاقي (الزكوي وغير الزكوي)، وتتعجب كيف يكون عند المسلمين هذه الثروات التي تخرج من باطن الأرض، ثم لا يكون لها وعاء زكوي خاص، أو يكون لها وعاء نفقة مخصوص؟!

ربما نتساءل: وهل الإنفاق قاصر على المسلمين؟ وما علاقة ذلك بسورة البقرة؟

الجواب: لا. فإن الإنفاق في الإسلام على أهل الحاجة باب واسع، وهو ما جاءت سورة البقرة تعلنه للعالم، هنا تتيقن أن سورة البقرة جاءت لتبني حضارة واسعة تتعامل مع العالم

بما في ذلك أهل الملل الأخرى، حيث يوسع الله ﷻ وعاء الإنفاق ليشمل غير المسلمين؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فهذه الآية جاءت وسط الكلام عن أصنافٍ مخصوصةٍ ينبغي الإنفاق عليهم، وتساءل بعض المسلمين: هل يجوز لنا التصدق على أهل الأديان أي من غير المسلمين؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، أي ينبغي عليكم أن تتصدقوا على غير المسلمين، وموضوع هدايتهم لستم تملكونه.

ثم يلفت نظرنا في الإنفاق إلى صنف مخصوص له أثره في نشر الخير في العالم: إنهم الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﷻ.

قلِّبِ الطرف اليوم لترى كثرة المستضعفين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فما للمؤمنين بسورة البقرة عنهم معرضين؟

الانتقال إلى القسم الثاني:

وإذا قد تمهدت لنا الوظيفة المالية في هذا القسم، وأنبأنا الله عن الغاية من تملكه، وهي الإنفاق على النفس والمجتمع، وبناء مفهوم الإنفاق السُّنبلي، بعد ذلك كله تتشوَّف النفوس لتتملك المال لتكون هي الأعلى كعبًا في ميادين الإنفاق والتنافس على ذلك، وهنا يأتي:

القسم الثاني لينظم كيفية اكتساب المال، فحدثنا عن المعاملات الماليات المحرمة، ويمتد في الآيات [٢٧٥-٢٨١]:

وبصورة مثيرة تجد فيه تركيزًا على أهمِّ المحرمات في ميدان اكتساب المال: إنه الربا ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهنا لا بد أن تسأل: لماذا التركيز على الربا؟

الجواب: لأنه قلب المعاملات المالية الأنانية المجرمة في العالم قديمًا وحديثًا، ولأن الكلام عنه يناسب الجو العامَّ لسورة البقرة، فهو أعظم مصادر الأموال المحرمة التي تشيع في العالم، ويعترف بذلك العالم كلُّه، ويذكرون أن من أخطر أسباب تدمير الاقتصاد وجود الفوائد الربوية، وقد صرَّح بذلك كبار الساسة والاقتصاديين والفلاسفة في الشرق والغرب، وصرَّح (ترامب) رئيس الولايات المتحدة السابق بقريب من ذلك، وصارع القائمين على الاحتياطي الفيدرالي، ونقلت وسائل الإعلام عن الرئيس الأمريكي حينها أنه قال: "إن رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي "خذلنا" بخفض أسعار الفائدة بمقدار ربع نقطة مئوية فقط، مشيرا إلى أن السوق كانت بانتظار دورة مطولة وحثيثة لخفض الفائدة".

والكلام عن الربا في هذا القسم كان مناسبًا أيضًا، فأكثر قوم عملوا على إشاعته أصحاب البقرة الإسرائيلية، فهم أكبر المرابين في الدنيا، هم الذين يجثمون وراء أعظم المؤسسات والمنظمات المالية الدولية المعاصرة، كالبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ويسيطرون على الاحتياطي الفيدرالي، وغيرها من المؤسسات المالية الكبرى في العالم، فناسب الكلام عنه أيضًا في هذه السورة المباركة ليحذِّر منه أصحاب سورة البقرة الذين يبنون الحضارة الجديدة: حضارة الإيمان والخير والعدل التي تشرق من المدينة على العالم.

وبعد أن يفصِّل الله ﷻ لنا ما يتعلَّق بأساس المعاملات المالية غير المشروعة وهو الربا ينقلنا إلى:

القسم الثالث: تنمية الأموال عن طريق التداين الاستثماري والاستهلاكي، ويمتد في الآيتين [٢٨٢-٢٨٣]

حيث يفصِّل لنا المعاملات المالية المشروعة في آيتين أولهما تعد أطول آية في القرآن.

ويطرح السؤال نفسه ها هنا: أليست الآية الأولى مشهورة بأنها آية الدين؟ فما دخول المعاملات المالية المشروعة هاهنا؟

الجواب: فأقول: صحيح! اشتهرت الآية الأولى بأنها آية الدين، غير أن (الدَّين والتداين) أوسع مفهومًا من الإقراض، على خلاف ما يظنه بعض الناس. فإن الدَّين عند الفقهاء، وغيرهم هو: "لزوم حقٍّ في الذمة". فيشمل ما ثبت بسبب قرض، أو بيع، أو إجارة، أو إتلاف، أو جناية، أو غير ذلك.

ويلفت نظرك وصف هذه العملية بالتداين بدلًا من الدَّين في أول الآية الأولى، فجمعت هاتان الآيتان تفريعات دقيقة تهدي الأمم إلى أن يساعد بعضهم بعضًا في تنمية التجارة وسدِّ الحاجات الأساسية عن طريق معاملات التداين، حيث قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وليس يقتصر التداين على القرض الاستهلاكي: بأن تأخذ من فلان مبلغًا من أجل أن تشتري احتياجاتك، بل يشمل الدَّين الاستثماري بأن تستفيد منه وتنمي تجارة.

ربما نتساءل: ما الدليل على أن الدين الاستثماري مقصود هنا؟

الجواب: الدليل أن الله ﷻ قال في هذه الآية: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالله تعالى يكلمنا عن الدَّين لأجل إدارة التجارة، بل لو قيل إنه يتجاوز ذلك ليشمل مال المُضَاربة في يد العامل إذا صرفه في غير ما يرضاه رب المال، لكان وجيهًا، فإنه حينئذ يضمنه لتعديه، فيكون مدينًا له.

ربما نتساءل: لماذا يفصل الله لنا هذه التشريعات الدقيقة عن التداين الاستثماري؟

الجواب: لأن المسلم ينبغي أن يسعى في حيازة المال، فالمال أساس الاقتصاد المستقل، والاقتصاد عماد إدارة الحياة الكريمة.

وهناك سبب آخر: فإنك تجد البصائر القرآنية هنا تصحِّح النظرة التي تجعل (الزهدَ): تركَ المال، فهذه لُوْثة داخلت عقول المسلمين فحجبتهم عن الرؤية القرآنية التي ترشد إلى التملك وإعمار الدنيا، والعمل على الاستقلال المالي، ولما دخلت هذه اللُّوثة على بعض المسلمين، استطاع غير المسلمين أن يسيطروا على الموارد المالية، وأن يتحكموا في صناعة القرار داخل الدول والمجتمعات، مع أن الله ﷻ وهب بلداننا أعظم الثروات البشرية والموارد المالية تنوعًا وقوة في الأرض.

وقد كشف الدكتور/ عبد الفتاح السمان في دراسته (أموال النبيِّ ﷺ) عن علم (الاقتصاد النبوي)، وقرَّر أن ميزانية النبي ﷺ المكتسبة قاربت (١٢١٧) كغ من الذهب، وأن إنفاقه تجاوزت قيمته (١٢٥١) كغ من الذهب، وأن تركته تمثَّلت في وقف خمسة عشر أرضـًا، قيمة واحدة منها تزيد على ٢٥كغ من الذهب!!

إن هذه الآيات تعد معالم مهمة في ترشيد الخطاب الدعوي بشأن فلسفة نظرة الإسلام للمال والبناء الحضاري والتعاطي مع مستلزمات ومقتضيات الحياة المدنية.

وترى النور القرآني ساطعًا قويًّا؛ إذ يبين لك تفاصيل هذه التشريعات التي تبني الحياة، ويخبرك في خاتمة آية التداين الأولى بسعة علمه سبحانه، فيقول للعالم: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٨٢]، فهذا الختم المجيد إشارة إلى العلم الذي يحتاج البشر أن يستقوا منه لينظم حياتهم، ويأتي ختم الآية الثانية، حيث يقول الله ﷻ للمسلمين وللعالم: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٨٣]، فإن كان ختم الآية الأولى يحفز البشرية لتستفيد من الكتاب وما فيه من علم الله، فإن خَتْم هذه الآية يقرِّر بأن الله تعالى يعلم احتياجات الإنسانية، ولذا فصَّل لها هذه التشريعات، كما يتضمَّن الختم تشويقًا لمن اتبع هذه التشريعات القرآنية، وتهديدًا لمن خالفها، فالله تعالى عليم بتفاصيل ما يعمله كل إنسان.

خاتمة السورة:

هكذا اكتملت المقدمتان والمحاور الأحد عشر التي تتكون منها سورة البقرة، وتخلل هذه المحاور ما ذكره الله تعالى مجده في هذه السورة بأساليب مختلفة: من التصورات والأفكار الإيمانية العقدية، وأركان الإيمان والإسلام الأساسية، والتشريعات الدستورية والفقهية الحياتية، والأخلاق العَبِقة الزكية، وأصول الحياة الاجتماعية الطيبة لتكون الدافع المحفِّز للالتزام بالمنظومة التشريعية والأوامر الإلهية الواردة في سياق السورة، ولتشكِّل القيم الضابطة للبواطن وتجعل للمرء وازعًا ورادعًا من ضميره إذا غابت سطوة الحكم والحاكم بتلك التشريعات.

وهنا ربما نتساءل: إنها لوحة عظيمة لبناء حضارة مجيدة حقيقية في الأرض، فكيف كانت الخاتمة المناسبة لهذه المحاور الجذابة القوية؟

الجواب: جاءت الخاتمة مهيبة تحمل الكثير من مبادئ الإيمان والصدق المتميزة، كما تحمل الأشواق الإنسانية في محراب الله جَلَّ جَلَالُهُ.

تجد في هذه الخاتمة لكل كلمة عظمتها، وقوتها، ودورها الكبير.

إنها خاتمة إيمانية وجدانية تنظيمية تناسب عمود السورة، وتتلاءم مع موضوعاتها، وتتوافق مع محاورها الكبرى، جاءت متناسبة مع السياق العام في السورة: إنه السياق الذي يبني الحضارة المسلمة الجديدة لتشرق على العالم.

ربما نتساءل: هذا تشويق كبير، فكيف كانت الخاتمة؟

الجواب: خاتمة الزهراء الأولى امتدت في ثلاث آيات [٢٨٤-٢٨٦]، وكما تألفت المقدمة من مقدمتين، فكذلك تألفت الخاتمة من قسمين:

القسم الأول: تجده حوى الصفات الإلهية الكبرى التي تدفع الإنسان للشعور بحقيقة الوجود، وتظهر إحاطة الله بالمخلوقين وأعمالهم، وتوجب الإيمان بالكتاب كله وتجعل المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء [٢٨٤]:

ففي قول الله تعالى مجده: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ظهرت الخاتمة هنا ولها عظَمَةٌ تبرق بأنوار الجلال، فقد ذكَّرت العالم عمومًا، وأبناء الحضارة الإسلامية الجديدة خصوصًا بالصفات الإلهية الكبرى:

الصفة الأولى: الملك الشامل: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

الصفة الثانية: العلم المحيط بالظاهر والخفي والصغير والكبير: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾.

الصفة الثالثة: الحكم الفاصل الذي لا يمكن لأحد التدخل فيه: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾، فأثبت كمال فضله فيغفر لمن هو أهل لمغفرته، وأظهر كمال عدله فيؤاخذ المستحق بذنبه، فسبحان من تجلى جلالًا وجمالًا.

الصفة الرابعة: القدرة الكاملة المطلقة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢٨٤].

القسم الثاني: تجد فيه مزايا الإيمان في الحضارة الإسلامية الخاتمة، وذلك في الآيتين [٢٨٥-٢٨٦]:

لهاتين الآيتين منزلة خاصة ليست لغيرهما، فقد بيَّن النبي ﷺ أنهما نزلتا من كنزٍ تحت العرش:

فبناء على جميع المحاور السابقة، ولأن الله الإله الحق الأحد له الصفات الأربع الكبرى المتقدمة في القسم الأول؛ فإن الرسول والمؤمنين آمنوا بكل بما نزل إيمانًا يؤهلهم ويكلفهم بأن يهتدوا بالقرآن، ويحملوا هداه للعالمين، وهنا تأتي هاتان الآيتان لتصفا أهم مزايا هذا

الإيمان، وهي قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ..﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

وربما نتساءل: هل يوجد ارتباط بين المقدمة والخاتمة في السورة؟

الجواب: تأمل كيف أخبر الله ﷻ في هذه الآية عن إيمان الرسول والمؤمنين بما أنزله الله ﷻ، واجمع إلى ذلك ما جاء في أول السورة حيث قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢-٤]، ففي أول السورة ذكر الله ﷻ المتقين الذين جعلوا القرآن هدى لهم، وآمنوا بالغيب الذي جاءهم من ربهم، وفي آخرها أثنى على المؤمنين الذين آمنوا بما أنزل إلى الرسول ﷺ، وذكر أبرز مزاياهم المخبتة المنيبة التي تجعل رسالتهم الإلهية خاتمة للرسالات قبلها، وتجعل العالم ينتظر إشراق حضارتهم على العالم، وهنا يتجلى بشكل رائع أخاذ التناسب البديع بين مبتدأ السورة وختامها، ويتمثَّل أمامنا الاتصال الدائري للسورة بما يظهر بقوة تسوير (الزهراء الأولى) وانجذاب محاورها إلى مركزها وعمودها الرئيس.

وهنا سنسأل: فما المزايا التي تقدمها هاتان الآيتان للإيمان الذي جاء به خاتم الأنبياء ﷺ؟

الجواب: تفصِّل هاتان الآيتان مزايا الإيمان بالرسالة الخاتمة، وبعض هذه المزايا مشتركة مع الرسالات السابقة، ولكن ذكرها بيانًا لمعالم الإيمان في عقيدة هذه الأمة الخاتمة:

المزية الأولى: الرسول الخاتم أول المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه، وهو من الوحي الذي يحمل الهداية للعالمين ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

المزية الثانية: وكذلك المؤمنون آمنوا بمثل ما آمن به رسولهم ﷺ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾

المزية الثالثة: عدم التفريق بين الرسل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]:

لاحظ كيف أعاد هذا المعنى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ في السورة التي تبني الحضارة الجديدة؛ لأنه –عزَّ شأنه- يعلم أن الصراع الثقافي لمحاولة تحريف الإسلام سيظل مستمرًّا، ومن ذلك ما يسمى بالاتفاق الإبراهيمي أو اتفاق إبراهام أو إبراهيم، فأراد الله ﷻ أن يبين للمسلمين أنه لا فرق بين الرسل، ولكن وَفْق مبادئ الإيمان التي أنزلها الله ﷻ وليس وفق المبادئ المصطنعة التي أراد الناس أن يحرفوا بها الدين.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إشارة إلى وحدة المصدر للتشريعات السماوية، فكل الرسل إخوة، وكلهم استقوا شرائعهم من مصدر واحد، وكلهم يرشدون إلى دين الإسلام لأن الغاية واحدة وهي تعبيد الناس لربهم ﷻ، ولذلك أرسلهم الله تعالى إلى أقوامهم من أجل هذه الغاية.

المزية الرابعة: الاستقامة على النظام الإلهي كاملًا، والشعور بلذة السمع والطاعة له، والالتزام بأحكامه وتشريعاته الحيوية ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فهذا مبدأ أصحاب سورة البقرة عكس أصحاب الفكر البقري الذين قالوا: سمعنا وعصينا.

المزية الخامسة: العبودية، وليس التفاخر النَّسَبي والكَسْبي: فلجأوا إلى الدعاء والابتهال ولم يتكلوا فقط على الأعمال، فقد أعلنوا عن استجابتهم لربهم فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾، قرنوا ذلك بطلب المغفرة لمعرفتهم بتقصيرهم وعجزهم مهما بلغوا ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وهنا ترى الاعتراف بالتقصير والشعور بلذة العبودية، فهم لا يتفاخرون، بل يستغفرون.

المزية السادسة: استحضار حقيقة الرجوع إلى الله أولًا وآخرًا، حالًا ومآلًا: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي المصير الحق يوم القيامة للحساب والجزاء، والمصير الحالي أي نصير إليك ربنا في أمورنا.

المزية السابعة: التكليف ضمن دائرة الوسع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾.

المزية الثامنة: مسؤولية كل نفس عن عملها فحسب حسنًا كان أو سيئًا، ولا تؤاخذ بذنب غيرها، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾.

المزية التاسعة: عدم المؤاخذة على النسيان العرضي والخطأ الطارئ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

المزية العاشرة: عدم حمل الإصر ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والإِصْرُ: الْعِبْء الثَّقِيل الشديد الذي يَأْصِرُ صَاحِبَهُ أَيْ يَحْبِسُهُ مَكَانَهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ لِثِقَلِهِ، فيدخل فيه العهد الثقيل الذي ترتب على تركه العقوبات المستأصلة.

المزية الحادية عشرة: لا يحمل على الإنسان ما لا يطيق ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

المزية الثانية عشرة: العفو ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والعفو يقتضي محو السيئات: أي امح مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ من التقصير والزلل.

المزية الثالثة عشرة: المغفرة ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والغفران يقتضي ستر الزلات: أي استر ما كان منا عن عِبَادِكَ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مُسَاوِينَا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ.

المزية الرابعة عشرة: الرحمة ﴿وَٱرْحَمْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والرحمة تقتضي جلب الخيرات: أي أسبغ علينا رحماتك فِيمَا يُسْتَقبل، ومنها أن توفقنا فلا نقع في ذنب آخر.

المزية الرابعة عشرة: ولاية الله ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾، والولاية هي الغاية لما قبلها وما بعدها من الدعوات.

المزية الخامسة عشرة: النصرة على الكافرين الذين يغطون أعظم حقائق الكون، وهي حقيقة الإيمان الموحد لله ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، **فيمنحهم الله** القدرة على مواجهة الحلف الشيطاني للكفار.

صورة عامة عن روح السورة وتسلسل الانتقال في الأفكار والموضوعات في سورة البقرة من أولها إلى آخرها:

ربما نتساءل: هل آن لنا وقد فرغنا من بيان الخريطة العامة لسورة البقرة وشرحنا محاورها، أن نتصور تسلسل الأفكار والجو العام الذي تصوره لنا سورة البقرة؟

الجواب: نعم آن أوان ذلك، فإنا إن نظرنا في ذلك نظر متدبر متأمل، يظهر لنا أن سورة البقرة جاءت لتشرق بالحضارة الجديدة على العالم فتملأه بالنور والسعادة، وفق مبادئ الكتاب الذي يقدم للبشرية العلم والإيمان والريادة:

وبذلك مثّلت سورة البقرة الأساس لقيام حضارة جديدة في الأرض تعتمد على دستور مقروء هو كتاب لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتغرس بصائر هذا الكتاب المعرفة اللازمة للفئة المؤمنة التي تؤسس الحضارة العالمية الجديدة في المدينة:

فتبدأ السورة محاورها بصورة لافتة غير معهودة.. تبدؤها بنداء العالم إلى عبادة ربهم الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم.. إنه البيان العالمي الذي يلفت نظر الخلق جميعًا، من المخلوقات الصغيرة (البعوض) إلى المخلوقات الكبيرة (السموات).. إنه البيان الذي يصيح بهم منكرًا: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة ٢٨].

ثم في سلاسة عجيبة تنقلنا البصائر النيّرة إلى القصة الحقيقية لبداية التاريخ البشري.. لم تكن تلك البداية في الأرض، فهل يمكن لغير البصائر القرآنية من أحدٍ، أن يخبر العالم عن مثل هذه الحقيقة التاريخية الغيبية؟

ولأن بني إسرائيل يمثِّلون أقوى أمَّة اشتهرت بالكتاب من الأمم المعروفة في ذلك الزمن، ولآثارهم القوية الممتدة عبر الزمان والمكان، ولأنهم يؤسِّسون لحياة تنبع من تحريف الكتاب وابتغائه عوجًا، ويميلون إلى إنشاء حضارات تقوم على هذه المبادئ، ولأنهم مثَّلوا أنموذجًا لاستخلاف فاشل ناقض العهد الإلهي؛ كان لا بد من الكلام التفصيلي عنهم.

ثم انتقل الكلام بانسيابية كبيرة إلى بيان الإرث الذي تقوم عليه الحضارة الإسلامية الجديدة.. إنه إرث المسلمين لملة إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم أعظم من بث (الإسلام) في بنيه وعمل على أن يوصيهم به لينشروه في الأرض.

وهنا ترى الإشارات القوية التي تحمل في ثنايها بشاراتٍ ندية، تحث المسلمين على استخلاص الكعبة من الاحتلال الوثني القرشي، وتبشرهم بالنصر والتأييد.

يظهر ذلك في تفاصيل القبلة التي يرفع بناءها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم في أمر المسلمين بأن يُوَلُّوا وجوههم شطر المسجد الحرام. وقبل أن يأمرهم يشير إلى الغيظ الذي سيملأ القوى السفيهة من أهل الكتاب؛ إذ يعلمون أنه الحق من ربهم، لكنهم يكتمون الخبر أمام عوامهم. وفي هذا الموضع تأتي الإشارة إلى البشارة، حيث يشير الله تعالى عليهم أن يستعدوا لإتمام النعمة بتحرير الكعبة من الاحتلال الوثني القرشي فيقول: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة ١٥٠].

وبعد أن قرَّرتُ هذه المعاني في موضوع سورة البقرة، وجدت العلامة الفراهي رحمه الله، قد ذكر نحو ما ذكرته، بلفظ أخاذ وعبارة مشوقة مختصرة، فقال:

"فهذه السورة وافقت الهجرة وواقعة بدر تنزيلا كما وافقتها -تأويلًا.

فكما كانت الهجرة ظهور طلائع الإسلام ومنها فتقت أكمامه، وكما كان يوم بدر غرة هذا الدين وفيه رفعت أعلامه، فهكذا سورة البقرة معظم القرآن وسنامه، كما مرَّ من قول النبي عليه صلاة الله وسلامه"

ومضت سورة البقرة تبني الحضارة الجديدة بصورة مذهلة: تبني العقائد والعبادات الشعائرية، والعبادات الحيوية.. تبني الأركان الاقتصادية لهذا الكيان الجديد، وتربط الحبال الاجتماعية القوية. بعد أن ملأ المفسدون الأرض بالجور والعنصرية والاستكبار.

ولعلك أن تتصور انطباع طوائف اليهود عندما كانت تنزل سورة البقرة كيف كان وهم يسمعون الآيات تترى: تشرح لهم تاريخهم، وتصف عظمة الله جل مجده، وهو -تعالى شأنه- الذي نسوه في خضم عنصريتهم، وجعل العالم يتمحور حولهم.

ثم لا تبرح السورة حتى تفصِّل الحياة المالية ونظام التداين الذي ينبغي أن يسيروا عليه لتستقر لأبناء الحضارة الجديدة النهضة العامة في شؤون الحياة جميعًا، وينبئهم الله عزّ وجلّ عن نظامهم التجاري المقسط، ويعلمهم كيفية الإدارة الحقيقية للتجارة، ويقول لهم فيه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ [البقرة ٢٨٢].

تحبوك بصائر سورة البقرة بالتأسيس لحضارة الذين صدقوا.. حضارة المتقين المقبلة بدروع اليقين لتبينَ للعالم الرشد من الغي، وتحثّهم على الاختيار الصحيح، وتمنع الاعتداء في الأرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

انظر وقلب الطرف في حاضر المسلمين لترى ما يسمى (الشرعية الدولية): تجتمع في حلف واحد، للاعتداء على ديار المسلمين، وقتل الأبرياء والضعفاء والأطفال والنساء بمبررات واهية، وحجج ساقطة، ثم انظر إلى آثار ذلك في البشر والأرض، ثم انظر إلى الملايين الذين أبيدوا في سوريا والعراق واليمن الذين لا تباليهم شرعية الفيتو تلك بالةً.. انظر إلى الشقاء والجور والاعتداء.. يموت مئات الآلاف من العراقيين والسوريين ومن قبلهم الفلسطينيين بالصواريخ والبراميل والقنابل منذ سنوات طويلة والعالم الجائر يستمتع بالمراوغة، ويبتسم ابتسامة لا يفعلها عندما يشاهد مناظر القتل في أفلام الحركة.

ذلك بإنهم أبعد ما يكونون عن بصائر: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولذا لا يعرفون أين يضعون أقدامهم في التيه الكئيب!

لكأنك تسمع صرخات القلوب التي حرمت زاد ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، لكم حرموا أنفسهم من أعظم الأنس، وأجمل قوانين العدل، وأعظم درجات الراحة، وأحلى مناظر الأنوار.

وبعد: فهأنذا أهتف: اللهم تقبل كلَّ ما كتبته وقلته، يَا مَنْ لَا يُبْرِمُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ، وَلَا يَشْغَلُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ.. يا من يهدي الحائرين: أسألك لي ولأمتي: بصائر القرآن، ونور القرآن، وهدى القرآن، ورفعة القرآن وشفاعة القرآن..

اللهم أنر واقع أمتي الحائرة المستضعفة بنور كلامك، وأسمعهم جمال آياتك، وألهمهم ما يؤلِّف بين قلوبهم. يا أرحم الراحمين.

الأساس السادس: مدد السابقين من المفسرين في تعيين عمود السورة "موضوعها الكلي الذي كان سبب تسويرها:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الأساس السادس:

مدد السابقين من المفسرين في تعيين عمود السورة

1. **أولًا: الغرناطي رحمه الله:** سورة البقرة تدور حول الصراط المستقيم أخذًا وتركًا
2. **ثانيًا: البقاعي رحمه الله:** سورة البقرة تدور حول الكتاب الهادي
3. **ثالثًا: الفراهي رحمه الله:** عمود سورة البقرة "إنجاز العهد الإبراهيمي، والأمة الوارثة".
4. **رابعًا: محمد رشيد رضا رحمه الله:** السورة شطران: شطر لأمة الدعوة، وشطر لأمة الإجابة
5. **خامسًا: سيد قطب رحمه الله:** يجمعها محور واحد مزدوج: موقف بني إسرائيل من الدعوة، وبناء جماعة المسلمين
6. **سادسًا: ابن عاشور رحمه الله:** "الجامعة الإسلامية، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم"، وسمو الدين على ما سبقه، والتشريع والإصلاح
7. **سابعًا: فضلاء موسوعة التفسير الموضوعي:** خلافة الأرض

مفصل سورة البقرة (1)

تقرر معنا آنفا أن لدينا خمسة أسس أوصلتنا إلى عمود السورة وهي: النزول التاريخي، والترتيب المصحفي، واسم السورة، ومواضيعها الكبرى، وأخيرا خريطتها الكلية ومحاورها.. بعد ذلك كله ها نحن نصل إلى الأساس السادس الذي نفيد فيه من مدد السابقين وخلاصات آرائهم في تعيين عمود السورة وهو موضوعها الكلي الذي كان سبب تسويرها:

تنوعت آراء المتدبرين لكلام الله تعالى في تحديد الموضوع الذي من أجله سُوِّرت آيات سورة البقرة، فلنأخذ طرفًا من أهمِّ ما ذكر في ذلك، نكتفي به خوف الإطالة وخشية الإملال:

أولًا: الغرناطي ﵀: عمود السورة: الصراط المستقيم أخذًا وتركًا:

فذهب أبو جعفر بن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) إلى أن السورة بأسرها في بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال، أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه[1].

ربما نتساءل: فكيف ترى في كلامه؟ هل هذا الموضوع الذي اختاره للموضوع الكلي للسورة صالح ليكون عمودًا مميزًا لسورة البقرة؟

الجواب: دعنا ننظر في كلامه﵀: لقد أراد أن يبين قوة الاتصال بين سورة البقرة وسورة الفاتحة، فلما رأى سورة الفاتحة ذكرت الصراط المستقيم ضمن أغراضها العامة، قلَّب الطرف فرأى أن سورة البقرة تفصله أحواله، فجعل ذلك موضوعها.

هل ترى أن مثل هذا العنوان صالحٌ ليميز سورة البقرة؟

لا أظن أن ما ذهب إليه صالحٌ ليكون عمودًا يميِّز سورة البقره؛ أما إن سألتني لماذا، فلأن عمومية العنوان واضحة، فإن الصراط المستقيم يعني الإسلام.. يعني القرآن.. وكل القرآن

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (ص١٩٤).

يدور حول ذلك، ونحن نبحث عن شيء بيِّنٍ واضح: لماذا سوَّر الله ﷻ آيات سورة البقرة بهذا السور، فجعلها مميزة عن غيرها.. ذلك ما نبغي أن نبحثه لندرك أسرار سورة البقرة، ونحاول أن نجد موضوعها الخاصَّ.

ثانيًا: البقاعي: سورة البقرة تدور حول الكتاب الهادي:

حاول أستاذ علم الاتصال القرآني إبراهيم بن عمر البقاعي ﵀ (ت ٨٨٥هـ) أن يذهب مذهبًا أكثر تحديدًا، فذكر أن مقصود سورة البقرة[(١)]: وصف الكتاب المذكور أولها بصريح اسمه، المشير بوصفه إلى ما في آخر الفاتحة من سؤال الهداية، والإبعاد من طريق الضلال، ثم بوصفه في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، المنوِّه آخرها بالذين آمنوا به في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ربما نتساءل: فكيف بنى البقاعي ﵀ حجته فيما ذهب إليه؟ وكيف أقنع غيره بما ذهب إليه في عمود سورة البقرة؟

الجواب: لقد حاول البقاعي ﵀ أن ينصر ما اختاره، باعتماده على ذكر الكتاب مرة بعد مرة، بين كلِّ محور ومحور من محاور السورة، واستمر ذلك إلى آخرها.

وقد وصف ذلك بإطناب شديد الإثارة تراه بادي الرأي قوي الحجة محكم البرهان، فها أنت ذا ترى ذكر الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم في قوله ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، فرجع إليه بإنذاره بني إسرائيل فقال: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، واستمر يقنعك بهذه الطريقة الرائعة في التدبر إلى أن يصل بك إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ

(١) مصاعد النظر (١/ ١٥٠).

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾، [البقرة: ٢٥٢]، ثم ربط ذكر المحور المالي في آخر السورة مع طوله.. ربطه بأن الله ﷻ جعل من صفات المهتدين بالكتاب في أول السورة الإنفاق..."[1].

وفي كتابه "نظم الدرر" الذي ألفه قبل "مصاعد النظر" أخبر بمثل هذا الكلام، فقال: "مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتَّبع في كلِّ ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة"[2].

وهنا نتساءل: هل ما ذهب إليه البقاعي رحمه الله مقنع؟

الجواب: عندما تستمع للبقاعي تشعر بالمتعة تملأ عليك كل جوانحك، وتحس بأن الرجل يهديك إلى صراط مستقيم فيما يقوله.. إنه حقًا يوقفك على القول الفصل في تحديد موضوع السورة، لحسن بيانه، وقوة رأيه، وثبات جنانه، ويحشد لذلك كل ملكته التي استجمع بها الآيات كأنها أمام عينيه.. حسنًا، فهو إمام متفنن بارع.

وأظن أنه يأذن لي لأقف مع اختياره هذا وقفات:

أولها: ما ذكره من أن السورة تدور حول الكتاب الهادي، لا يُسَلَّم له به على إطلاقه، فما قرَّره يعدُّ من أهمِّ موضوعات السورة، ولكنك تتوقف في قبول أن يكون موضوع السورة الأكبر الذي سُوِّرَتْ السورة آياتها من أجله، بل هو موضوع مساعد لموضوع أكبر.. لماذا؟

لأن هذا الموضوع ستجده في سورة آل عمران، وسورة الأنعام وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة هود عليه السلام.. وهكذا في كثير من سور القرآن بما فيها الكهف.. فإنك تجد ذكر

---

(١) مصاعد النظر (١/ ١٥١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٥٥).

القرآن وتفخيم شأنه يتكرَّر في كلِّ صفحتين أو ثلاث صفحات، من السُّوَر الطِّوال والمِئين والمثاني عدا براءة.

ثانيها: لو ذكر صفة محدَّدة تتعلَّق بالكتاب تميِّز سورة البقرة عن غيرها من السُّوَر لكان وجيهًا وربما أدعى لقبوله، ولكنه ذكر الكتاب مطلقًا، وذلك يعني أنه رجع إلى المعنى الذي قرَّره الغرناطي رحمه الله من دوران السورة حول الصراط المستقيم، فقد جاء في تفسير الصراط أنه القرآن الكريم.

ولكن الذي ذكره شيخ علم المناسبات يظل محل اعتبار وافر كبير، ولا بد أن نصطحبه معنا إن هُدِينا إلى موضوع أكثر تحديدًا تدور حوله سورة البقرة، فسيظلُّ ما ذكره البقاعي رحمه الله موضوعًا مساعدًا يدعم الموضوع المركزي الذي نظنَّ أن السورة دارت حوله.

هنا يدفعك التدبُّر إلى البحث عن موضوع أكثر دِقَّة، وأكثر تحديدًا لسورة البقرة، فتعال بنا إلى إمام آخر:

ثالثاً: حميد الدين عبد الحميد الفراهي رحمه الله (ت١٣٤٩هـ): سورة البقرة "إنجاز العهد الإبراهيمي، والأمة الوارثة".

حدَّد الفراهي رحمه الله موضوع السورة وغايتها تحت هذا العنوان، ورأى رحمه الله أن هذه السورة جمعت عيون مطالب القرآن فإن شئت أن نعبر عن عمودها بكلمة واحدة قلنا: **إنها إنجاز لعهد الله تعالى لخليله إبراهيم** عليه السلام. وهذا العهد هو الجامع لحقيقة هذا الدين، فإن الخليل عليه السلام أقام ذريته في مركز التوحيد، ودعا الله أن يبعث فيه نبيًّا وأمته، على أكمل صفات الأنبياء والأمة، ووعده الله أنه يبارك به وبهم جميع الأرض. فأنجز ما وعد له ببعثة هذا النبي وأمته. وجعل بناء هذا الأمر على الصبر والصلاة - وهما قاعدتان للدين الإلهي، وبهما كَمُل إبراهيم عليه السلام وصار إمامًا.

وعند كمال ظهور هاتين الصفتين نزلت هذه السورة، فكانت هي أكبر مظهر لحقيقة هذه البعثة، ولذلك سماها النبي ﷺ سنام القرآن، وعند نزولها **أظهر الله تعالى إنشاء أمة جديدة، وجعل صرف القبلة آية على ذلك وفرقانًا لهم**. ومن أي جهة نظرت إلى هذه البعثة وجدت التوحيد أصلها، ووجدت المسجد الحرام مركزها، ووجدت القرآن دليلها وهاديها. ولذلك تجد سورة الحج قد وضعت في وسط القرآن، وجمعت فيه أبواب تنظر منها إلى حقيقة هذا الدين، وذكر أنها تشير بقوة إلى استخلاص الكعبة.

ثم جعل السورة جملة واحدة متصلة تحتوي على ستة أجزاء "مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة"(١).

ربما نتساءل: فما مدى قوة هذه الأنوار الفراهية في تحديد عمود سورة البقرة؟

الجواب: لا أملك نفسي من حجب إعجابي ببراعة هذه المحاولة القوية التي أبداها الفراهي رحمه الله، ولطيف مأخذه في التحديد الدقيق لموضوع سورة البقرة؛ إذ جعلها تدور حول **إنجاز عهد الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام، وليتم هذا الإنجاز أظهر الله تعالى إنشاء أمة جديدة عند إنزال هذه السورة، وجعل صرف القبلة آية على ذلك وفرقانًا لهم، وأدمج الفراهي** رحمه الله **الصبر والصلاة ضمن آليات إقامة سُورة البقرة للحضارة الوارثة.**

وعندما اخترتُ الموضوع الكلي الذي تدور حوله سورة البقرة لم أكن قد اطلعت على هذا التقرير، بل قرأت الكتاب قراءة عابرة قديمًا في التسعينات حينما قام فضيلة الشيخ الدكتور/ عادل الحرازي الندوي بإتحافي به محبًّا أن يحبوني أعظم الكنوز والذخائر، ثم مضيت في غواشي مرحلتي (الماستر والدكتوراه)، ولم يبق من الكتاب في عقلي إلا الإعجاب به، وظني أنه أدار موضوع سورة البقرة على القبلة، ولما رجعت إليه الآن بهرني هذا التوافق

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة ص٣١.

الكبير بين ما قرَّرته في موضوع السورة، وبين ما هدى الله ﷻ إليه هذا الرجل الذي ملأ القرآن حياته، وعلى الرغم من أنه لم يشر في العنوان صراحة إلى علاقة اسم السورة بموضوعها إلا أنك تستطيع أن تشعر بذلك من خلال كلامه عن إنشاء الأمة الجديدة، وعن جعل القبلة آية ذلك.

لقد اجتبى الله ﷻ الفراهي، فانفرد بعقله الثاقب في هذا التقرير، ويقاربه في ذلك سيد قطب، وبصورة أقل الطاهر بن عاشور –رحم الله تعالى الجميع- كما سيأتي إن شاء الله.

رابعًا: محمد رشيد رضا ﵀: السورة شطران: شطر لأمة الدعوة، وشطر لأمة الإجابة

رأى حمد رشيد رضا ﵀ أن السورة شطران، فشطر يُنَاهِزُ نِصْفَ السُّورَةِ، وَهُوَ شَطْرُهَا الْخَاصُّ بِأُمَّةِ الدَّعْوَةِ، وَالشَّطْرُ الثَّانِي قَدْ وُجِّهَ لِأُمَّةِ الْإِجَابَةِ[١].

وهي عبارة تقارب معظم عبارات المعاصرين، وكأنها منبع لجميعهم إن لم تكن عبارات بعضهم جاءت من محض التدبر الخاص، ثم اتفقت نتيجة تدبرهم في الجملة وإن لم يتواطؤوا عليها.

خامسًا: سيد قطب ﵀: يجمعها محور واحد مزدوج: موقف بني إسرائيل من الدعوة، وبناء جماعة المسلمين:

ربما نتساءل: يشتاق المتدبر لمعرفة رأي أستاذ من أساتذة المتدبرين المعاصرين للقرآن المبين، وهو سيد قطب، فماذا قال حول عمود السورة؟

الجواب: كأن النور يحيط ببصائر سيد ﵀ من كل مكان، فقد حاول أن يصل إلى موضوع دقيق لسورة البقرة، فقال وهو يسير على صراط مستقيم: "هذه السورة تضمُّ عِدَّة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج، يترابط الخطان

(١) تفسير المنار (١/ ٨٩).

الرئيسيان فيه ترابطًا شديدًا، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها.

وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد اللّه ﷻ بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكلُّ موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بِخَطَّيْهِ الرئيسين"[(١)].

سادسًا: الطاهر بن عاشور رحمه الله: "الجامعة الإسلامية، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم"، وسمو الدين على ما سبقه، والتشريع والإصلاح.

يفاجئك عدم تركيز الطاهر رحمه الله في قضية البحث عن عمود محدَّد للسورة.. لماذا المفاجأة؟

الجواب: لأن الطاهر أحد حجج علم التفسير خاصة، والعلوم الشرعية عامة على مر الزمان، ولقد كنت أحسب مسألة (عمود السورة)، أو (محور السورة)، أو (الموضوع الكلي للسورة)، أهمَّ أولوياته في التفسير، لكنك لا تجده يفعل ذلك بدِقَّة، وعندما تبلو تفاصيل كلماته تختبئ لك بعض الكنوز التي ربما تروي ظمأك، وما ذكره في سورة البقرة أنموذج لذلك:

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٨).

ففي البداية ترى الطاهر رحمه الله لا يميل إلى تحديد موضوع بعينه لكلِّ سورة، بل يميل إلى ذكر الأغراض العامة التي تدور حولها السورة، وهو في ذلك لا ينفي ترابطها وقوَّتها وإحكامها، ولكنه ما مدَّ يده الواسعة لمعرفة رابط جامع يجمع بين تلك المواضيع، فنجده في سورة البقرة يقول: "هَذِهِ السُّورَةُ مُتَرَامِيَةٌ أَطْرَافُهَا، وَأَسَالِيبُهَا ذَاتُ أَفْنَانٍ، قَدْ جَمَعَتْ مِنْ وَشَائِجِ أَغْرَاضِ السُّوَرِ مَا كَانَ مِصْدَاقًا لِتَلْقِيبِهَا فُسْطَاطَ الْقُرْآنِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ إِحْصَاءَ مُحْتَوَيَاتِهَا بِحُسْبَانٍ...وَقَدْ حِيكَتْ بِنَسْجِ الْمُنَاسَبَاتِ وَالِاعْتِبَارَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ لُحْمَةٍ مُحْكَمَةٍ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ، وَسُدًى مَتِينٍ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلِمَاتِ" وبعد أن بيَّن تنوُّعَ موضوعاتها عاد فحاول أن يرجع أغراضها إلى موضوعين كبيرين غير جازم بأن هذين الموضوعين يشملان كل ما تفرق فيها، فقال: "وَمُعْظَمُ أَغْرَاضِهَا يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ يُثْبِتُ سُمُوَّ هَذَا الدِّينِ عَلَى مَا سَبَقَهُ وَعُلُوَّ هَدْيِهِ وَأُصُولَ تَطْهِيرِهِ النُّفُوسَ، وَقِسْمٌ يُبَيِّنُ شَرَائِعَ هَذَا الدِّينِ لِأَتْبَاعِهِ وَإِصْلَاحِ مُجْتَمَعِهِمْ"[(١)].

ربما نتساءل: كيف ظهر الطاهر رحمه الله في هذه الرؤية التي قدَّمها عن أغراض سورة البقرة؟

الجواب: إنك لتجد عادة الطاهر رحمه الله الدائمة أن يبلغ في تقريب المعاني وإبراز أوجه الإعجاز والإحكام اللفظي والمعنوي أحسن ما يمكن فيأتي على ما في نفسك، حتى يكون مصدر إلهامٍ يغيثنا في تفاصيل الآيات، لكنه بهذه الكلمات خرج عن عادته تلك التي جذبت إليه نفوس العالمين، فهو يثبت للسورة الترابط والنسيج المحكم، لكنه كالذي يقول لنا: إنها موضوعات متعدِّدة ينقل أحدها إلى غيره بنوع جسر يربط بينها، لكنك لن تجد لها صورة كاملة تظهرها في أحسن تقويم.

ولما رأيت كلماته تكاد تخلف عادته، عدت أقرأ كلامه مجدَّدًا، فرأيته يثبت ما يمكن أن يكون موضوعًا كليًّا رائعًا للسورة قبل هذا الكلام الذي نقلته، وجدته قبل ذلك يقول: "وَإِذْ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٣).

قَدْ كَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدٍ بِإِقَامَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاسْتِقْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَدِينَتِهِمْ، كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ تَصْفِيَةُ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِعَنَاصِرَ مُفْسِدَةٍ لِمَا أَقَامَ اللهُ لَهَا مِنَ الصَّلَاحِ؛ سَعْيًا لِتَكْوِينِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ شَوَائِبِ الدَّجَلِ وَالدَّخَلِ "[١].

ترى كلامه ملهمًا كدأبك من أمهات كلماته، وغرر عباراته. هذا يمكنني أن أتقدم بين يديه، فأزعم أنه يوشك أن يقول: إن أهمَّ موضوع من مواضيع هذه السورة أنها تدور حول: "الجامعة الإسلامية، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم"، ولو قال: بمدنيتهم لصلح الأمر ليشمل كلَّ المدن التي تشرق فيها أنوار الإسلام.

سابعًا: فضلاء معاصرون: خلافة الأرض:

فمنهم القائمون على موسوعة التفسير الموضوعي حيث سموا "عمود السورة" أو موضوعها الكلي: محورًا، وقرروا أن محور سورة البقرة يدور حول: "منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه"[٢]، وهو تحديد يرجع إلى كلام من سبق ذكرهم من محققي المدرسة التفسيرية.

ومن تدبُّر المعاصرين الذي يتقاطع مع هذه الأقوال: قول د/ صلاح الخالدي: "هي سورة الخلافة والخلفاء[٣]، وقول د/ مصطفى مسلم: موضوعها: "القوامة على دين الله سلب وإسناد"[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٢).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (١/ ٢٨).

(٣) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص ٧٣.

(٤)بحث: المناسبات وأثرها ص ١٨.

وقبل الانتقال إلى الموضوع الكلي الذي اخترته ليكون عمود السورة لا بد أن أشير إلى مدرسة أخيرة تكلمت عن محاور السورة، وهي:

ثامنًا: منهج مدرسة البلاغة الساميّة "نسبة لسام بن نوح عليه السلام في زعمهم":

هذه المدرسة المعاصرة تسللت بهدوء وفق منهج يبدو متكاملًا، وتبذل جهودًا كبيرة يظنها المرء بادي الرأي بأنها محايدة، وسأتعامل معها وفق ذلك حتى الآن، ولكنني أراها تطرح منهجًا يعتري أُصولَه كثيرٌ من الشكِّ، ويشعر المتعمِّق في النظر فيه بريبٍ كبير، كما تُقدِّم بديلًا يلفت النظر، لكنه يحجب الرؤية عن التناسق الأقرب في السورة القرآنية، ودعنا نبصر ذلك من خلال ما طرحه واحد من أبنائها إنه: ريموند فارين.

ربما نتساءل: وما الذي ذهب إليه ريموند فارين في موضوع السورة؟

الجواب: بأنه في حوار معه ذكر أن ترتيب سورة البقرة ظهر وفقًا لنمط متحد المركز، ثم لخصَّ معاني الآيات بالطريقة الآتية[(١)]:

١) الآيات (١-٣٩) المؤمنون مقابل (الكافرون)، والنبي ﷺ يتحدَّى الكافرين بكتابة سورة، والله عز وجل يهب الحياة ويبعث الروح.

٢) الآيات (٤٠-١١٢) يُسَلِّم موسى عليه السلام الألواح لبني إسرائيل، رغبة بني إسرائيل بالتضحية ببقرة.

٣) الآيات (١١٣-١٤١) اختبار إبراهيم عليه السلام، والكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأحفادهم يقيمون الصلاة لله عز وجل.

٤) الآيات (١٤٢-١٥٢) الكعبة اتجاه الصلاة الجديد؛ اختبار للإيمان، والتنافس في فعل الخيرات.

---

(١) انظر الحوار على الرابط: /https://www.alukah.net/sharia/٠/٧٩٧٧٦/

٥) الآيات (١٧٧-١٥٣) سيتم اختبار المسلمين، إرشادات حول الحج لمكة المكرمة، تحذير من تعدُّد الآلهة عبادة الأجداد".

٦) الآيات (١٧٨-٢٤٢) النبي يسلم الشريعة للمسلمين، وحض المسلمين على الدخول في الإسلام بكل إخلاص.

٧) هـ- (٢٤٣-٢٨٦) الآيات تشجع المؤمنين في قتال الكافرين، يتحدَّى إبراهيم عليه السلام الملك بمعجزة الشمس، الله عز وجل يهب الحياة ويبعث الروح.

ربما نتساءل: فما رأيك فيما قرره؟ وهل تلاحظ شيئًا مميزًا فيه؟

إليك ملحوظات سريعة على هذا التقسيم:

فأولًا: فتشعر بالشكر الكبير للحماس الذي أبداه د.ريموند لفكرة التناسق القرآني؛ إذ ترى اندفاعًا في الشعور بقوة الفكرة.

ثانيًا: التقسيم الذي ذكره يفتقر إلى الدِقَّة، ويمكن إيراد الاعتراضات عليه بيسر، ولظهور البدائية في تقسيمه تشعر بالألم، وتخشى أن يُشعر الإنسان بتفكك النص القرآني أكثر مما يُشعر بإحكامه وتلاحمه، وقد رأيت مقاطع مصورة للدكتور ريموند يظهر فيها متحمِّسًا لفكرة التناسق القرآني، لكن التطبيق لم يكن قويًّا.

ثالثًا: وجدته يستخدم بعض العبارات بعيدًا عن المنهجية العلمية والدقة التعبيرية الواردة في الآيات القرآنية، مثل قوله: "والنبي يتحدى الكافرين بكتابة سورة".

وهذا التعبير منه، يجافي التعبير القرآني إلى حدٍّ كبير، بل يقرب من التزوير، وأنا أرجو أن يكون غير قاصد، وستسألني: لماذا حكمت عليه بذلك؟

الجواب: النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتحدَّ الكافرين بكتابة سورة، فالذي تحدَّاهم هو الله جل جلاله، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

فترى الآية واضحة، إذ يتحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بسورة، ولم يتحدَّهم أن يكتبوا سورة.. فإما أن العجمة طغت على تفكير د.ريموند وتعبيره، وإلا فكما قال العربي: لا أحك وراء أذني بلا سبب.

رابعًا: يقرأ ريموند -بحسب هذه المقابلة- قراءة عجلى تجعله لا يتحفظ في إيراد معانٍ لم ترد في السورة، فعلى سبيل المثال:

الآيات (٤٠-١١٢) يُسَلِّم موسى الألواح لبني إسرائيل، رغبة بني إسرائيل بالتضحية ببقرة. وتعجب من هذا المعنى المختلَق؛ إذ لم يرد ذكر للألواح في سورة البقرة أصلاً، ولم يرغب بنو إسرائيل بالتضحية ببقرة، بل أُمروا بذلك فعصوا وتلاعبوا، ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون، فهل يتعمد ريموند العبث أم هو متدرب؟

واقرأ ما قاله في: الآيات (١١٣-١٤١) اختبار إبراهيم عليه السلام، والكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل، وأحفادهم يقيمون الصلاة لله.

وبيسر تعلم أن اختبار إبراهيم عليه السلام إنما كان في الآية ١٢٤ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٢٤]، وأن مدار الآيات إظهار ديانة إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحاق وأحفاده، وأنها ديانة الإسلام، وهذا المحور تتمة قوية للمحور السابق لبيان أن الظالمين لا ينالون عهد الله تعالى بعد بيان الظلم الكبير الذي غرق فيه كثير من بني إسرائيل.

خامسًا: تفتقر الأقسام التي وضعها لسورة البقرة إلى عمود محوري يظهر في السورة.. والعمود المحوري يمثل خيطًا ناظمًا بين جميع موضوعاتها، ولا يظهر لك شيء في تقسيماته التي ابتكرها، فأين التناسق الذي يدعيه؟

أنا أرجو أن يكون د.ريموند صادقًا في توجهه لبيان إعجاز القرآن، لكن عدم إحكام الفكرة قد يجعله موضع شك عند الناقدين لطريقته، وأخشى أن يأتي من يتساءل: هل ريموند مجرد مبتدئ أو إنه يسير وَفْق مشروع جديد هدفه الإرباك، والتشويش على المعاني القرآنية المركزية؟

فقد قسَّم القرآن تقسيمًا مريبًا بعيدًا عن التقسيم السُّباعي والرُّباعي والتقسيم الثَّلاثيني، والتقسيم السِّتيني. ولا يظهر أنه يدرك ذلك مع إعلان إسلامه، وإني لأشعر من قراءتي العجلى لأفكاره أن فكرة النَّسَق القرآني عنده قوية، لكن تطبيقها ضعيف مبعثر إلى حدِّ إمكان التلاعب بالمعاني القرآني، بل إنها تبعد الناس عن الكمال القرآني.

يقول: "فإن القرآن ككلٍّ له شكل متحد المركز، مؤكِّدًا على يوم القيامة والآخرة في المركز، فضلًا عن الصلاة والدعاء...من واقع التناظر والتماثل تبدأ السور الطويلة من سورة البقرة إلى سورة الحجرات (٢- ٤٩)، السور المتوسطة الطول تعالج أحوال يوم القيامة والآخرة، تبدأ من سورة ق إلى سورة الواقعة (٥٠-٥٦)، السور القصيرة تبدأ من سورة الحديد إلى سورة الإخلاص (٥٧-١١٢)، سور التعوذ والالتجاء إلى الله، سورة الفلق وسورة الناس (١١٣-١١٤).

وفي قلب القرآن (سورة القمر والرحمن)، نجد التركيز على صفتين من صفات الله الرئيسية، الخشية!! والرحمة. أول هاتين السورتين تؤكد على عظمة الله سبحانه وخشيته، في حين تؤكد السورة الأخيرة على رحمته".

هل سمعتم؟؟

الرجل يأتي بهذا التقسيم الذي لا منطق فيه، ثم يصف الله ﷻ وصفًا غريبًا يجب أن ننزه الله تعالى عنه، فالله ﷻ يخشاه الناس، ولا يتصف هو بالخشية، ولعل عجمته لم تسعفه إلى أن يعبر عنه التعبير الصحيح، أو أمرًا آخر أخفاه ولم يفصح عنه.

وبغرابة شديدة يبعد رايموند قضايا الألوهية والتوحيد والنبوة جانبًا، ويجعل الأساس: القيامة، وصفة الرحمة والخشية "وهو وصف غير لائق" يوافق ذلك بدعة تعدُّد الأديان في ملة إبراهيم عليه السلام.

إذاً فمدرسة البلاغة السامية لم تتبع منهجية تظهر التميز الموضوعي لسورة البقرة، وأكتفي بهذا القدر.

ثم إنني طلبت من فضيلة الدكتور/ رضوان أحمد رئيس قسم اللغة الإنجليزية في جامعة قطر أن يقرأ كتاب فارين باللغة الإنجليزية لنتأكد حتى لا نظلم الرجل في تقويم عمله، فتحقق لي ما كنت افترضته من أن الترجمة غير الدقيقة لعمله إلى العربية جنت عليه شيئًا ما، فأفكاره وكتابته بالإنجليزية أكثر رصانة وإحكامًا، وإن كانت الملحوظات العامة ما زالت باقية، وودت أن يعمل فضيلة الدكتور -أيده الله- على اجتناب هذه الملحوظات، وأسأل الله المغفرة إن قسوت عليه في النقد

ربما نتساءل: بعد هذا العرض لمدد السابقين يمكنك أن تسألني: ما الذي هُديتَ إليه في بصائر المعرفة القرآنية في "عمود سورة البقرة"؟

الجواب: حسنًا.. كما ترى فهذه مجموعة من الآراء التي تحاول الوصول إلى موضوعٍ محدَّدٍ لسورة البقرة.

وموضوع سورة البقرة يرتبط بإثارة المسلمين للاستفادة الناضجة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية التي كانت إيجابية رائعة في جوانب كثيرة، وامتلأت بالتلاعب والعبث في جوانب أكثر، وشكّلت قصة البقرة رمزًا واضحًا لها.

وبعدُ، فبناء على المراحل الأربع الأولى التي مثّلت الركن الشديد في منهجية بصائر المعرفة، حيث تدبرتُ السورة مرات، ومرات، ثم بناء على هذه الأسس الستة التي شرحتها، توصلت إلى أن يكون الموضوع الكلي لسورة البقرة هو ما قرَّرته في هذا النور الكبير، والعنوان العريض المبهر:

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية.

وربما تتساءل: هذا العنوان يمثل مركزًا لجميع الموضوعات التي دارت حولها آيات سورة البقرة، فهل يتنافى مع الموضوعات المختارة التي ذكرها أهل العلم؟

الجواب: أن هنالك تقاربًا نسبيًّا محدودًا بين ما قررناه عمودًا للسورة وبين بعض ما عرضنا له من كلام من له قَدَمُ سَبْقٍ في محاولة تلمُّس الموضوع المركزي للسورة، وإن كانت جملة هذه المحاولات لا تكاد تختلف بينها اختلافًا جوهريًّا، فقد رأيتَ -أيدك الله- أنني أوردت ما كنا نبغي من الإيراد السريع للموضوع الذي تدور عليه السورة في نظر بعض أجلة علمائنا، وعندما تنظر في هذه الأقوال جميعًا ستجدها متقاربة إن لم يكن كلٌّ منها غلافًا للآخر، فدوران السورة حول مرتبة التقوى ووسائلها، وآثارها الحضارية الدنيوية والأخروية يشكِّل المركز الآمن الضامن للحياة السعيدة التي تقيمها المدنية الإسلامية بعيدًا عن الخداع العالمي والزيف الحضاري، وبذلك يتم إقامة الخلافة الإنسانية في الأرض وَفْق المنهج الإلهي الذي يسوسها وينير جوانبها، ولا يتم ذلك إلا بالهداية إلى المركز العبادي الإبراهيمي

الحق، وهو القبلة التي رفع قواعدها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وكلها تتعلّق بمفهوم (صفاء القلب) في مقابل (خَتْمِه بالسواد المؤدي إلى صلابته وقساوته).

وربما نتساءل: اتضح لنا معنى: إشراق الحضارة الإسلامية، فهل قولك: الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلي يعني أن لهم إيجابيات؟

الجواب: نعم! لبني إسرائيل كما لغيرهم من الأمم إيجابيات كما لهم سلبيات، وإن كان الغالب عليهم سوء الصنيع، ومحادة الله ورسالاته، ونقرر بدون مواربة أن سورة البقرة قد هدفت إلى الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية سلبًا وإيجابًا حسنًا وقبحًا، فإن الله ﷻ ذكر بني إسرائيل فأثنى عليهم في هذه السورة وغيرها، فمن الثناء عليهم مناداتهم بأحب الأسماء إليهم، وبيان تفضيله لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: ٤٧]، والتفضيل هنا نسبي كما هو معلوم، فهم مفضَّلون على عالمي زمانهم، وهذا يدلُّ على أنهم اتسموا بمزايا خاصة.

ومن الثناء عليهم كذلك، ذكر توبتهم المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: ٥٤]، فقد أشار الله ﷻ إلى أنهم نفذوا ذلك، وذكر المفسرون أنهم حقَّقوا شرط التوبة هذا على الرغم من شدته.

ومن الثناء عليهم ذكر الفئة القليلة المنصورة المشبهة بها الفئة البدرية، الذين ذكرهم الله ﷻ في قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠]، ومن الثناء عليهم قوله جل شأنه: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فكان ذلك إبرازًا للناحية الإيجابية.

وفي المقابل ذكر الله تعالى النواحي السلبية المؤلمة لكل ذي عقل، كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وهم استحقُّوا الثناء لما أحسنوا، كما جُوْزُوا بالذَّمِّ العظيم لما أساؤوا. وتجربتهم كانت وما زالت ثرية حافلة بالعطاء الوضَّاء والأخطاء الفاحشة الرعناء، فاستحقَّت أن تدرسها هذه الأمَّة الخاتمة عسى أن تفيد منها من جهة، وأن تدرك كيف تتعامل بناء على ذلك مع هذه الأمة المؤثرة من جهة أخرى.

وربما نتساءل: لماذا قلنا "الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية"؟

الجواب: لأن هذا ما تلمسه في موضوع السورة، ونسقها العام، وتجد ذلك في حظ اسم (سورة البقرة)، فسورة البقرة متعلقة بقصة البقرة، وقصة البقرة تمنحنا تصوُّرًا واسعًا يجعلنا نفهم النفسية الإسرائيلية ونحيط بأهمِّ التفاصيل الفاصلة والدقيقة للتاريخ الإسرائيلي، فما وجدناه من حَسَنٍ أخذناه، وبحثنا عن الوسائل المعينة لتنميته، وما وجدناه من قبيح اتقيناه وهجرناه، وبحثنا عن أهمِّ العوامل التي تعصمنا منه.

أليس من الظلم البيِّن أن القوى الفاعلة في أمَّة الإسلام في هذه الأيام يأخذون أقبح قبائح التجربة التاريخية الإسرائيلية، ويسيرون خلفها، وينظرون إلى أفضل ما عند الإسرائيليين، كتمسُّكِهم بالكتاب فيتركون ذلك ويهجرونه؟

بل هناك ما هو أدهى وأمر: لقد نظرت القوى الفاعلة في أمتنا إلى أشد المتطرفين انحرافًا وإفسادًا من أصحاب البقرة الإسرائيلية، فأيدوهم ودعموهم، ونظروا إلى أعظم مقدساتنا مثل: الكتاب المبين، فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، في مناقضة صريحة لما جاء في سورة البقرة.

وربما نتساءل: هل من أهل العلم من ذكر ما يشبه ما وصلت إليه في الموضوع الأساسي الذي دارت حوله سورة البقرة؟

الجواب: وصلت إلى هذا الموضوع، وظننتني حقَّقت إنجازًا عظيمًا باعتماده، لكني لما رجعت إلى التفاسير التي اشتهرت بالبحث في موضوع السورة، لأنظر في إرث الرَّكْب المفلحين، وَفْق المراحل التي قررتها في رجوعي إلى مدد السابقين وجدت سيد قطب ﵀ قد قرَّر قريبًا مما قرَّرتُه في موضوع السورة، ولكنه يعكس الترتيب؛ إذ قال: "هذه السورة تضمُّ عِدَّة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطًا شديدًا، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها...

وسائر ما يتعلَّق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورةُ نُكُولَ بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد اللّه ﷻ بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم ﵇ صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت

تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكلُّ موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بِخَطَّيْهِ الرئيسين"[١].

ختام ضروري: هل يجب اعتقاد أن السورة تدور حول الموضوع الذي اخترناه هنا في تدبرنا؟

إنني في ختام هذه الكلمات لا أرى أنه يتحتمُّ على القارئ أن يظنَّ أن الموضوع الذي تدور حوله السورة هو الموضوع الذي وصلت إليه، بل قد يجد أن صياغة أخرى لهذا الموضوع أو لما يقاربه من الموضوعات الكلية المبثوثة في السورة أولى، وقد -رأيت أعزك الله- مما سبق أن كلَّ العناوين التي وضعها المتدبِّرون لتعبر عن الموضوع الكلي لسورة يمكن جمع شعثها، والتوفيق بينها، وهذا الذي أميل إليه في أغلب السور؛ إذ يصعب تحديد موضوع بعينه للسورة الواحدة غالبًا، بل يمكن التعبير عن الموضوع الذي تدور حوله السورة من خلال (عناوين أو موضوعات متعدِّدة) لكنها تتلاقى غالبًا، وأرى أن هذا يعبِّرُ عن وجه إعجازي قوي في فَهْم السورة، فهو من أسباب عدم اختيار أسماء موضوعية للسور جميعًا.

واسم السورة الرمزي علامة فارقة في الكلام القرآني، فلو أردت أن تجعل موضوع سورة البقرة (التقوى) لكان لك ذلك، ولو أردت أن تجعله (الاستخلاف الإنساني في الأرض) لصحَّ ذلك، ولو أردت أن تجعله (نظام السمع والطاعة) لرأيت ذلك واضحًا، ولو ظننت موضوعها يدور حول (تعامل الأمة الإسلامية مع بني إسرائيل) لصحَّ ذلك، وكلُّ هذه المواضيع لها ارتباطٌ ما باسم (البقرة)، ولعلَّ هذا الملمح من جوانب الإعجاز القرآني المختلف في نَظْمِه عن النَّظْم المعتاد لدى البشر، وهو ملمحٌ جديرٌ بتفصيل أكثر، وأن تكتب فيه دراسات مستقلة.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٨).

وإليك هذه التتمة التوضيحية: لماذا قلنا بأن سورة البقرة تدور حول إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية؟

الجواب: لاجتماع الأسس الستة التي قرَّرناها على ذلك، على نحو ما فصلناه في كل أساس منها.

وأما ما يتعلق باسم السورة، فإنها سورة البقرة، والبقرة لا يعنى بها جنس البقر بل يشار بها إلى أصحاب البقرة الإسرائيلية باعتبار نفسياتهم، وحضارتهم، وفكرهم، وتعاملهم، والسورة تشير إلى أن عهدهم قد آن له أن ينتهي لتخلفه حضارة تشرق على العالم هي حضارة أصحاب سورة البقرة، التي ستخلف حضارة أصحاب البقرة.

ربما نتساءل: لماذا قلنا بأنها ستشرق على العالم؟ ولم لم نذكر إشراقها من مكة وهي أرض البعثة، ومنها خرج النور للعالم؟

الجواب: صحيح أن إشراق نور حضارة الإسلام الأول كان من مكة، ولكن إشراقها على العالم في مكة كان باعتبارها دعوة إصلاح.

أما إشراقها على العالم من المدينة فباعتبارها دعوة إصلاح، وحضارة إنقاذ، تقف أمام الحضارات الفاسدة المفسدة المسيطرة على الشرعية الدولية الزائفة.

ولذا اختار المسلمون أن يكون التاريخ الهجري بداية التاريخ الذي يسيرون عليه، فلم تكن البعثة النبوية بداية التاريخ مع عظمة البعثة النبوية؛ لأن التاريخ الهجري يصوِّر لنا أن الإسلام أخذ مكانته في الأرض ليطبق كاملًا لا ليستجدي الظالمين ليسمحوا بتطبيقه، والذي دل على تطبيق الإسلام بكامله سورة البقرة، فهي أول سورة نزلت على المسلمين في المدينة، وبذلك أشرقت الحضارة الإسلامية على العالم من المدينة.

ولقد كان القرآن في مكة يبشر العالم بأن الحضارة الجديدة ستخلف تلك الحضارة المفسدة التي أصر قساة القلوب الإسرائيليون على تكوينها..وقد تسأل: كيف ذلك؟

الجواب: يبصرك القرآن المكي أن هناك حضارة غربت وحضارة ستشرق في آيات سورة الجاثية التي مهدت للانتقال إلى المدينة، حيث قال الله ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١، ٢].

وهذه السورة لها اسمان مشهوران:

الاسم الأول: الجاثية

والاسم الثاني: الشريعة

ربما نتساءل: لماذا تسمى سورة الشريعة؟

جواب ذلك أن الله تعالى قال فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، وهذه الآية جاءت بعد أن ذكر الله ﷻ الحضارة الإسرائيلية التي تكاملت فيها العناصر الأربعة للحضارة المتكاملة القوية:

فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم﴾ [الجاثية: ١٦]، يخبرنا الله ﷻ عن حضارة كاملة: عندها كتاب وهو الدستور، وعندها الحكم وهو يقتضي وجود الملك، وعندها النبوة.. فهذه ثلاثة عناصر.

وماذا بعد ذلك؟ لم يقف الأمر عند هذا، بل يخبر الله ﷻ أنه منحهم عاملًا رابعًا من عوامل الحضارة المتكاملة: الخيرات الاقتصادية، فيقول: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الجاثية: ١٦]، فهناك خيرات تتتابع، ونعم تسير الحياة، وبركات تتسارع، ويصف الله ﷻ القوة العظيمة لمن منحه هذه العناصر الأربعة، فيقول: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

ثم يضيف لهم عنصرًا خامسًا، فيقول: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [الجاثية: ١٧].

فقد أوضح الله جلَّ ذكره لهم الصراط المستقيم في قيادة الحياة على الحق، ودعوة الأمم إلى الخير، فماذا حدث لهم؟

الجواب: اختلفوا في الحق الذي جاءهم بسبب البغي الذي سيطر على أنفسهم ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

فلم يعودوا يصلحون لنشر الخير في الأمم؛ إذ لم يتمسكوا به في أنفسهم، وفاقد الشيء لا يعطيه.

هنا يخبر الله ﷻ عن المكانة العظيمة التي ستكون للحضارة التي يقيمها خاتم الأنبياء ﷺ، فيقول: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، و﴿ثم﴾ تشير إلى أن الزمان قد طال بالأمة السابقة عسى أن تراجع نفسها، ولكنها لم تفعل.. لاحظ كلمة ﴿ثم﴾ التي تدل على التراخي، لأن بين إقامة حضارة النبي ﷺ وإقامة الحضارة الإسرائيلية حقبًا متطاولة تشرد فيها الإسرائيليون عندما بغوا وطغوا وتجبروا وعصوا وعتوا، فسلط الله عليهم الأشوريين أولًا ثم الفرس ثانيًا، ثم الرومان ثالثًا، فتشردوا في الأرض، فكان منهم من ذهب إلى يثرب (المدينة) من أجل أن ينتظروا النبي ﷺ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩]، فتأتي سنة تداول الأيام، ويأتي الدور عليك، وعلى أمتك يا رسول الله ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فبشَّرت سورة الجاثية بالتغيير الجديد القادم، وصارت سورة البقرة تخبر العالم بإشراق هذا التغيير، وبأنه واقع.

النور الثالث: أنواع الخطاب والأساليب المتبعة في سورة البقرة

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

النور الثالث

أنواع الخطاب والأساليب المتبعة في سورة البقرة

النوع الأول:

الأسلوب التربوي الإصلاحي الجذاب: كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]

النوع الثاني:

الخطاب النفسي العاطفي السلس الكاشف كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]

النوع الثالث:

الخطاب العقلي المنطقي: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ 21﴾ [البقرة: 21]

الوجه الرابع:

الخطاب التزكوي الوعظي التذكيري المشرق المتميز: كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ 281﴾ [البقرة: 281]

النوع الخامس:

الأسلوب الدستوري القانوني الفائق في المجالات التشريعية التنظيمية: كالذي تجده في آيات الطلاق، والصيام، ومناسك الحج وقواعد الحرب والقتال.

النوع السادس:

الأسلوب القصصي الآسر: كقوله –جل شأنه- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: 258]

النوع السابع:

أسلوب المحاجة والإقناع ونقض دعاوى المبطلين: كقوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111]

الْوَجْهُ الثامن:

الأسلوب التشويقي التحفيزي العملي: كقوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: 245].

مفصل سورة البقرة (1)

بعد هذه الإطلالة المنيرة على عمود هذه السورة الجليلة الكبيرة لا بد أن تتساءل عن أنواع الخطاب والأساليب التي عالجت هذا الموضوع العظيم الذي دارت حوله السورة مع ما يحمله من تنوع وضخامة؟

الجواب: قلّب الطَّرْف في السورة المباركة لترى أنها لم تحتوِ على **أسلوب واحد؛ بل أساليب، وقد** تنوَّعت تلك الأساليب في هذه السورة تنوعًا رائعًا عجيبًا، فتارة ترى الأسلوب الخطابي البارع، وتارة تجد الطريق العلمي الصادق، وتارة تقابل البرهان العقلي المحكم، وأخرى يأسرك السَّرْد العاطفي الذي يأخذ بمجامع القلوب..تجتمع في السورة الأساليب الخطابية والعلمية والعاطفية والعقلية المختلفة، كلُّ ذلك ببيان يكسوها جمالًا لافتًا فريدًا، وبهجةً جذابة آسرةً.

فمن أنواع الأساليب التي تراها حاضرةً في هذه السورة:

النوع الأول: الأسلوب التربوي الإصلاحي الجذاب:

كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]، وكقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٣، ٤٤].

النوع الثاني: الخطاب النفسي العاطفي السلس الكاشف:

كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

النوع الثالث: الخطاب العقلي المنطقي:

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وكقوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

النوع الرابع: الخطاب التزكوي الوعظي التذكيري المشرق المتميز:

كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

النوع الخامس: الأسلوب الدستوري القانوني الفائق في المجالات التشريعية التنظيمية:

كالذي تجده في آيات الطلاق، والصيام، ومناسك الحج وقواعد الحرب والقتال.

النوع السادس: الأسلوب القصصي الآسر:

كقوله –جل شأنه– ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

النوع السابع: أسلوب المحاججة والإقناع ونقض دعاوى المبطلين:

وتجده منتشرًا مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

النوع الثامن: الأسلوب التشويقي التحفيزي العملي:

وهو منتشر في السورة، مثل: قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وآيات السورة في ذلك كله، شديدة الجذب للسامع تأخذ الأنفاس، وتحدث الخضرة في الأرض اليباس، وتحيي الموات من سائر الناس كما قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: "وَكَانَ أُسْلُوبُهَا أَحْسَنَ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ أُسْلُوبٌ جَامِعٌ لِمَحَاسِنِ الْأَسَالِيبِ الْخِطَابِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ الْكُتُبِ التَّشْرِيعِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ التَّذْكِيرِ وَالْمَوْعِظَةِ، يَتَجَدَّدُ بِمِثْلِهِ نَشَاطُ السَّامِعِينَ بِتَفَنُّنِ الْأَفَانِينِ"[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٣).

النور الرابع: المناسبة والاتصال بين سورة البقرة وسورة الفاتحة

ائذن لي أن أستعير هنا كلمةَ حكمةٍ بديعة تلخص العلاقات بين السور، وهذه الكلمة الجامعة ذكرَها الإمام المَلَوِيُّ في تأصيل الترتيب بين الآيات، ولكنها أصل عام وقاعدة مطردة، ولذا سنجعلها تُبْرِزُ العلاقات الترتيبية بين السور كذلك، يقول رحمه الله: "فصل الخطاب أن سور القرآن كانت بحسب الوقائع والاحتياجات البشرية تنزيلاً، وبحسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً".

فأنت ترى الحكمة في الترتيب القرآني للسور على هيئةٍ معجزةٍ تجمع بين التربية، والتشريع، والتتابع، والتفصيل، وجمال الانتقال، والتنوع المعنوي والأسلوبي، وسورة البقرة ليست بدعًا في ذلك، وتأمّل بعض اللمحات لترى شِدَّة الوضوح في هذا الاتصال:

فأما أولاً: لقد طلب العبد المنيب الحامد لربه في سورة الفاتحة الهدى من مولاه، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].. فلم يتأخر الجواب لهذا السؤال العظيم بذلك الأسلوب المتذلل، إذ أعطاه الله الهدى في سورة البقرة وما بعدها، فقال له في أول هذه السورة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

وأما ثانيًا: فقد أعلن البشر السعداء عبوديتهم لله في الفاتحة فقالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] فأخبرهم الله بأهم ما يتعلق بالعبادة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، فهذه الآية العظيمة جمعت المبررات المقنعة لتوحيد العبادة لربنا عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والغاية التي توصل العبادة إليها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والنُّظُم التفصيلية التي تشملها العبادة، سواء أكانت في العبادات الشعائرية، أم في العبادات المعاملاتية، أم في النواحي الاقتصادية قد جاءت أو بعضها في هذه السورة.

وأما ثالثًا: فقد وصف العبد ربه في الفاتحة بأجمل الثناء، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة ١-٤]، وها هي سورة البقرة تبين جوانب ربوبيته ورحمته في المجالات التشريعية ومجالات الخلق بصورةٍ مفصلة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ..﴾ [البقرة: ١٦٤]، فرأينا سورة البقرة أقامت الدلائل المنطقية والبراهين المادية التي تُرَسِّخُها المعرفة القرآنية للدلالة على ألوهية الله تعالى، ووحدانيته، وتربيته للعالمين، ورحمته الشاملة بهم.

وأما رابعًا: فقد طلب العباد سلوك الصراط المستقيم في الحياة في سورة الفاتحة فقالوا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، فهداهم الله ﷻ للتفاصيل التي بها يكونون على الصراط المستقيم، وأخبرهم في البقرة بذلك، وقال لهم: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فجاءت سورة البقرة بعد سورة الفاتحة لتكون السورةَ الأولى في البناء المدني الحضاري المسلم، ولتُفَصِّل تفصيلًا عظيمًا مقاصد القرآن الكريم التي عبرت عنها الأصول القرآنية الكبرى الواردة في (الفاتحة)، ففصَّل الله تعالى فيها المعالم الإسلامية الكبرى، ورأينا فيها على نحوٍ مبهرٍ:

النظرة الإسلامية للعالم، والرؤية القرآنية للتعامل مع الأمم.

والتقسيم العالمي للناس، وفي مقدمتهم: المتقون، والكفار المعاندون، والمنافقون بأقسامهم.

ثم التركيز على فَهْم النفسية الإسرائيلية، والتفصيل التاريخي لحضارتهم واستخلافهم، والطريقة التي يسيرون عليها في تفكيرهم، وعواطفهم، وتغيير فئات منهم للتوراة، وبين كيفية

بناء العلاقات، معهم سواء في جانب السلم أو جانب الحماية من تآمرهم الدائم، فهذا كله تفصيلٌ لقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وأما خامسًا: فإنك تجد هذه السورة تُشيِّد البناء العقدي الإيماني بتفصيل أركانه الستة، لا سيما ما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبيَّن الله –جل ثناؤه- أهمَّ المفاهيم المتعلِّقة باليوم الآخر، مما ذكر الله ﷻ أصله في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وأما سادسًا: فتبني السورة ركائز الحياة الإسلامية السعيدة المعتمدة على المنظومة التشريعية التي تتضمن الحقوق والواجبات مما ذكره الله في سورة الفاتحة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وأما سابعًا: فبينت هذه السورة الطرقَ المختلفة التي تحقِّق أهمَّ الأهداف وأعظم الغايات الحيوية التي ينبغي أن تجتهد البشرية في السعي إليها لبناء الإنسان الصالح المهتدي إلى صراط المنعم عليهم:

تناولت السورة من أجل ذلك التشريعات العبادية الشاملة للحياة في النواحي المعاملاتية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأسرية، والجنائية، والسياسية، والدفاعية، والقلبية الوجدانية، وهذا تفصيل لمفهوم العبادة في الفاتحة، بل هو تفصيل للفاتحة كلها.

وأما ثامنًا: فتجد في سورة البقرة القصة التاريخية الحقيقية للنشوء الإنساني، إذ تظهر حقائق المعرفة القرآنية بتفصيل: الوجود الكوني، وتسخيره للإنسان، وقيام الصراع العالمي بين الإنسان والشيطان، وانحياز بعض بني الإنسان للجانب الشيطاني، ومحاولاتهم المستميتة للاتصال بالشيطان من خلال السحر، والكفر. وذلك يعني في الوقت ذاته تفصيلاً لأنواع الحماية من أسوأ الطرق المدمرة التي يسببونها للإنسان والأسرة والمجتمع، فـ"هذه السورة

هي فسطاط القرآن الجامعة لجميع ما تفصّل فيه؛ وهي سَنَام القرآن، وسَنَام الشيء أعلاه؛ وهي سيدة سُوَر القرآن؛ ففيها لذلك جوامع ينتظم بعضها ببعض.. أثر تفاصيله خلالها في سنامية معانيها وسيادة خطابها نحوًا من انتظام آي سورة الفاتحة المنتظمة من غير تفصيل وقع أثناءها ليكون بين المحيط الجامع والابتداء الجامع مشاكلة ما"[١].

وهذه التفاصيل المعلوماتية المتنوعة في السورة تمثل معجزة معرفية حقيقية تدل على المصدرية الإلهية للقرآن وأنه هو الحقُّ المبين؛ ولذا بدأ سورة البقرة ببيان عظمة الدستور القرآني المفصِّل للمقاصد المقرَّرة في الفاتحة التي يسعد العالم بالتمسُّك بها، وأنه يجمع بين أمرين لم يجتمعا في الكتب قبله: المنهج، والإعجاز.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ١٠٠).

تفصيل محاور سورة البقرة

المقدمة [البقرة ١-٢٠]

إنه لشأن لائق بأطول سورة في القرآن الكريم (الزهراء الأولى) أن يكون لها مقدِّمتان:

المقدمة الأولى لتقرير الدستور الهادي الذي ينبغي إدارة نظام العالم وفقه لتحقيق السعادة البشرية والبيئية، وهذا الدستور هو القرآن حيث تجد فيه البشرية تحقيق الهدى الذي طلبه العباد في سورة الفاتحة عندما قالوا: ﴿اهدنا﴾.

والمقدمة الثانية: لبيان أصناف الناس، ومواقفهم المتباينة والتفاعل العالمي مع هذا الدستور الذي يكفل تطبيقه السعادة البشرية.

المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم وإدارته [البقرة: ١، ٢]

تبين هذه المقدمة بصورةٍ معجزةٍ الآيتان الأولى والثانية من هذه السورة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] فلماذا بدأت سورة البقرة بهذه البداية؟

المناسبة والاتصال:

للكشف عن سبب ذلك يتوجب علينا الوقوف مليًّا لتلمُّس المناسبة والاتصال بين فاتحة الكتاب، وفسطاط القرآن (البقرة)، فهلمَّ بنا أيها القارئ الماجد نكشف عن سرِّ العظمة في هذا الاتصال، ونتملَّى بروعة هذا الجلال والجمال فنقول:

طلب أصحاب الصراط المستقيم الهدى من الله ﷻ في الفاتحة فأجابهم هنا، وبيَّن لهم أن الهدى موجود في الدستور الذي يدير العالم ويؤسِّس للحياة الطيبة السعيدة الرشيدة، وهذا الدستور يُمَثِّل كلمة الله ﷻ الخاتمة التي أنزلها على البشرية، وهو مكوَّن من الحروف التي يتكلَّمون بها فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

فيا لله ما أسرع إجابته دعاءهم، وتحقيقه رجاءهم، بإرشادهم وإسعادهم بما فيه فلاحهم في معاشهم ومعادهم!

ولعلك قد تتفاجأ من الفرق الكبير بين مقدمة التوراة الحالية، ومقدمة سورة البقرة: ففي التوراة الحالية يبدأ سِفْر التكوين بالكلام عن خلق السموات والأرض، بينما تبدأ سورة البقرة أول سورة بعد الفاتحة حسب الترتيب المصحفي بالكلام عن القرآن وهدايته، فلماذا؟

الجواب: لأن الأهمَّ من الخلق ألا يكون الخلق آلامًا وانحرافًا وصِعابا.. الأهمَّ من الوجود ألا يكون الوجود تيهًا ونَصَبًا وعذابًا، من أجل ذلك أنعم الله ﷻ على الإنسانية بأن يَذْكُر لها كتابَ سعادتِها قبل أن يخبرها عن خلق السموات والأرض.

ويعزِّز هذا المعنى ويقرِّره ما تواتر من أن أول ما نزل من كتاب الله ﷻ ووحيه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]، **وبهذا تتواطأ أولية النزول التاريخي للقرآن وأولية الترتيب المصحفي على حقيقة أن استبانة الطريق واجتلاء معالم الرشد والاهتداء له حق الأولوية والتقدمة والاهتمام على غيره من المقاصد.**

القرآن يأخذ زمام قيادتك، وقيادة العالَم، يبدأ بذكر الكتاب الذي يهدي البشر قبل أن يتكلم عن خلق الأرض وخلق البشر.. إنه القرآن المصدر المعرفي الأول المبين لأساس بناء العالم وإدارته على الوجه الرشيد؛ إذ يضم بين دفتيه الخير النافع الذي يحتاجه العالم.

كتاب السعادة والريادة:

ربما تتساءل: فعلك أيها الكريم تتساءل: كيف نعرف أن القرآن كتاب السعادة الذي لا ريب فيه؟

الجواب: يملؤك الإعجاب بالقرآن؛ إذ تجد أن الله ﷻ جمع في الآيتين الأولِيين من سورة البقرة كلَّ ما تحتاج إليه؛ لتطمئن أن القرآن المجيد كتاب السعادة الوحيد، فقد ضمَّت الآيتان ما تحتاج إلى معرفته عن القرآن من خصائص تبصرك بعظمة الإعجاز، وجلال الهداية.. تصوِّر ذلك! آيتان فقط تبينان لك بصورةٍ عجيبة تأخذ الأنفاس وتأسر القلوب ما يكفيك معرفته عن القرآن لتصدِّق به، وتجعله يوجهك في حياتك.

ربما تتساءل: ولكن ربما دار بخلدك وسألت: ما الآيتان المسعدتان؟

والجواب –يا رعاك الله– الآيتان هما قول ربنا: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، ألا يلفت نظرك نزول مثل هذه الآيات على الرسول ﷺ مفتتحًا حياة جديدة في الأرض تشرق على العالم من المدينة لتظلل الناس بسعادة العدل والحقِّ والخير والرحمة والجمال؟!

أليس لافتًا للنظر أن هذه الآيات تنزل على تجمع سكاني يجمع المسلمين والمنافقين والبقايا الوثنية واليهود؟

ربما تتساءل: ماذا تظنه اجتمع في هاتين الآيتين المباركتين من المزايا التي تقدم تلخيصًا معجزًا لخصائص (القرآن الكريم) دستور السعادة والريادة؟

الجواب: تعالَ بنا نُعمل العقل، ونشحذ الفكر ونحاول الوقوف على هذه المزايا والخصائص:

خصائص القرآن الكريم التي بينتها هاتان الآيتان؛ ليكون الكتاب الذي لا ريب فيه ليدير العالم بهدف توفير السعادة له:

الخاصية الأولى: الوضوح والبيان:

فليس غامضًا ولا خفيًا، وليس كلماته طِلْسمات غير مفهومة المعنى، ولا يحتاج فهمه بصورة إجمالية إلى دراسات متعمِّقة، بل يستطيع فَهْمَهُ العالِمُ الذكيُّ الذي يقبع وراء

المختبرات، أو تستهلكه الدراسة، والعاميُّ الذي يجري وراء المعيشة والحياة.. كلهم يفهمه بقَدره، فالقرآن يتميَّز بـ (الوضوح التفسيري)، فهو واضح مبين، وهذه الخاصية المُمَيِّزة نستنبطها من قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

حتى تتضح لك هذا الخاصية لا بدَّ أن نضع هذا السؤال:

ربما تتساءل: كيف بصرتنا الآيتان الأوليان أن من أهمِّ خواص القرآن المجيد: الوضوح والبيان؟

الجواب: دعنا نذكر بما تقرَّر من أن هذه الحروف الثلاثة ﴿الٓمٓ﴾ تنطق (ألف لام ميم) كما هي أسماؤها في حروف الهجاء، **فننطقها بأسمائها لا بأصواتها**، والصوت هو الجزء الأول من كلِّ حرف، فصوت العين هو الجزء الأول من (عين) و(عين) اسمها، ومن ذلك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[1].

---

(١) الترمذي (٢٩١٠)، وقال: "حسن صحيح"، والحديث مختلف فيه بين رفعه ووقفه، ورجَّح شيخنا المحقق عبد الله يوسف الجديع الوقف في تحقيقه لكتاب (الرد على من يقول الم حرف) لابن مندة، وناقش الشيـخ الألباني ما ذكره المحقق الجديع مناقشة مستفيضة، ورد عليه ردًّا علميًّا مقنعًا، ورجَّح صحة الحديث مرفوعًا.

ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٩٧٠، وما بعدها) وصحَّحه في صحيح الجامع الصغير (٦٤٦٩)، وفي صحيح سنن الترمذي (٢٩١٠)، وفي مشكاة المصابيح (٢١٣٧).

وقال المناوي: "رَوَاهُ التِّرمِذِيّ، وَقَالَ: صَحِيح، وَلم يُخرجهُ أحد من السِّتَّة غيره، وَلَا أَحْمد، نعم، أخرجه البُخَارِيّ فِي تَارِيخه، وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه - وَصَححهُ- وَابْن الْأَنْبَارِي، وَابْن الضريس، وَغَيرهم". الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي (١/ ١٢٢، ١٢٣).

والذي أميل إليه أن المراد بالحرف هو الحرف الهجائي، وليس الكلمة خلاف ما نقل عن ابن كثير متأيداً بنقلٍ عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- لاعتبارات متعددة.

لاحظ أنك تنطق ﴿الم﴾ بهذه الهيئة: ألف، لام، ميم. وهذا يشير إلى أن كلمات القرآن تتكون منها، فالأحرف المقطعة مِنَ «الْمُشْتَرَكِ الَّذِي يُعَيِّنُ مَعْنَاهُ اتِّصَالُهُ بِمُسَمَّاهُ»[(١)]، أي يظهر المقصود من هذه الأحرف من خلال السِّياق، وقد تكفَّل بذلك ما جاء بعيدها في سياقها القريب قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

فيكون المعنى: كلام الله تعالى -على عظمته- ليس مُكَوَّنًا من حروفٍ غريبة لا يعرفها البشر، بل هو مكوَّنٌ من هذه الحروف العربية التي بها تتكلَّمون، وبها تكتبون، فهو من جنس كلامكم وحروفكم كحروف (الم)؛ -وهو على الرغم من تَكَوُّنِهِ من هذه الحروف- يظلُّ الكتاب العظيم المنزلة الذي لا ريب فيه أنه كتاب ربكم لأجل سعادتكم.

ربما قلت متسائلًا: لكن هل هذا معنى الحروف المقطعة؟

والجواب المنصف: أن هذا أحد معانيها، فقد تعدَّدت الأقوال فيها حتى بلغت واحدًا وعشرين قولًا، وذكر الفراهي رحمه الله أنه اطَّلع على تسعة وعشرين قولًا فيها، وهذا من بين معانيها هو المعنى الأول والأشهر.

ولكن قد يثار على هذا التقرير السؤال الآتي: فكيف نصنع بقول بعض المفسرين بأن معنى هذه الحروف المقطعة من أمور الغيب وأسراره؟

والجواب: هذا الكلام له وجه، كما أن، له تتمة؛ فإن الله ﷻ أنزل هذا الكتاب ليعقله العالم، فلا بد أن يكون المعنى العام لهذه الحروف واضحًا، ويمكنك أن تبرهن بيُسرٍ على أن كلَّ ما في القرآن واضح في الجملة بما في ذلك هذه الحروف، فمن براهين ذلك:

أولًا: وصف هذا الكتاب بالإبانة في مثل قوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٠٣).

ثانيًا: لو كانت هذه الحروف طلاسم لا يعرف معناها لاعترضت قريش وغيرهم من العرب الفصحاء، وقالوا: كيف تخاطبنا بما لا نفهمه؟ وقد ذكر الله ﷻ عنهم هذا الاعتراض المتوقع لو حدث ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَ لَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ۝١٩٩﴾ [الشعراء ١٩٦-١٩٩].

هذه الآيات تُظهِر وضوح كلمات القرآن، وتحدِّيه لهم ليثبتوا عدم وضوحه.

ثالثًا: لشِدَّة وضوحه رأيناهم تأثروا بالقرآن تأثرًا عظيمًا، فأخذهم بيانه، ومَلَكهم برهانه، فلم يجدوا وسيلةً لمحاجحته إلا أن قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وذلك لما له من التأثير العظيم على من يسمعه، ولا يمكن أن يكون له كل هذا التأثير وبعضه عبارة عن طلاسم، بل له تأثير بأصواته وألفاظه كما أن له تأثيرًا بمعانيه، وهذا الذي دفع القس هويري ليقول: "كثيرًا ما نتساءل لِمَ يكون لكتاب له مثل هذا الأسلوب الفريد تأثيرٌ على الملايين في العالم الإسلامي؟"(١).

رابعًا: لا يمكن أن يوجد في القرآن ما لا يعرف معناه على العموم في ذهن المخاطبين؛ فالله سبحانه وتعالى تعبَّدنا بتدبُّر كلِّ آياته فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢] أَمَرَهُمْ بِالتَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَفْهُومٍ فَكَيْفَ يَأْمُرُهُمْ بِالتَّدَبُّرِ فِيهِ(٢).

---

(١) العلوم الطبيعية في القرآن، يوسف مروه، (ص: ٨١).

(٢) انظر تفسير الرازي فقد ساق أربعة عشر دليلاً على عدم جواز وجود كلمات ليس لها معانٍ معروفةٍ في القرآن الكريم (٢/ ٢٥١).

لعلك قد تسأل عن موقف العرب لما سمعت هذه الكلمات هل أنكروا؟ هل قالوا ما هذا الشيء؟ هل اعترضوا فقالوا: ما معنى هذه الحروف؟

الجواب: لا! بل حدث العكس، لقد أسرهم القرآن وأخذ قلوبهم.. فكأنَّ الله تعالى يقول للعرب: يا أيها العرب ما أتيناكم بكلامٍ أعجمي، أو بحروف غير مفهومة بل أتيناكم في القرآن بالحروف نفسها التي تتكوَّن منها كلماتكم، وتتكوَّن منها قصائدكم لحكمة واضحة، وهي تيسير كلام الله لكم ولغيركم من العالمين ووضوحه، فكلام الله العظيم يصاغ بحروفٍ تُمَثِّلُ أرقى اللغات الإنسانية ليستطيع الإنسان الضعيف أن يفهمه، ويتدبَّره، وينتفع به.

وربما عنَّ لك أن تسأل قائلًا: هل يمكن أن يكون لهذه الأحرف معنى آخر يظهر للعالم لاحقًا؟

الجواب: ولم لا يكون ذلك؟ فمع ما تقرَّر آنفا من أسرار هذه الحروف وحكمة تنزلها، فإن ذلك لا ينفي أن يكون لها معنى خاصٌّ بعد ذلك، وهذا المعنى الخاصُّ الله أعلم به، وقد يفتحه الله ﷻ للناس في دنياهم حين يشاء للمعرفة الإنسانية أن تصل إلى مستوى بعيد، فيفتح الله ﷻ من معناها على من يشاء من عباده.

أضف إلى ما سبق أن فريقًا من جِلَّة المفسِّرين[(١)] يقرِّرون بأن لهذه الأحرف معانيَ ولكنها من صفوة القرآن التي استأثر الله ﷻ بعلمه، فالمعنى العامُّ منها واضح وهو ما ذكرناه، ولكن يمكن أن يكون لها معانٍ خاصَّةٌ غيرَ ذلك الله أعلم بها، ومثل ذلك حِكْمَةُ الِاخْتِلَافِ فِي (الم) وَ (المص) واتصالها بسورها دون غيرها؛ فإن الله أعلم بها.

وقد قرَّر الفراهي رحمه الله هذا بأكمل عبارة، فقال: "لا يلزم من جهل المناسبة نفيها، فكلُّ شيء وضعه الله ﷻ لحكمة، ويومًا بعد يوم تظهر هذه الحكم بالتأمُّل وزيادة العلم وترويض الفكر.

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي (١/ ١٣٦)، التفسير البسيط للواحدي (١/ ١٣).

فما خفي نفعه نتفكُّر فيه ولا ننكره لعدم الاطلاع عليه، فكذلك تفكَّر العلماء في مناسبة هذه الأسماء بمسمياتها. ومهما غَمُضَ الأمر زاد إعمال الفكر وكان أنفع لترويضه، وأردع للنفس عن الغرور بما علمت، وأحثَّ لها إلى التعلُّم. فإنّ الإحساس بالجهل أول خطوة للتعلُّم. ومن نعمة الله ﷻ على العلماء أنهم مهما ازدادوا علمًا ازدادوا إحساسًا بجهلهم وبقِلَّة علمهم في جنب ما لم يعلموا؛ فغموض مناسبة هذه الأسماء ينطوي على حكمة عظيمة، فإنَّ القارئ في أوَّل نظره ينتبه على أن هذا الكتاب بحر عميق، وينبغي له أن يستفرغ جهده في تدبره حسب ما وجد في نفسه من الأهلية والاستعداد، فإنَّ كلَّ امرئ مكلَّف لما في وسعه"[(١)].

ومما يدلُّ على أن لهذه الحروف معناها الخاصَّ، وأسرارَها التي ربما يُطْلِعُ الله ﷻ عباده عليها في وقته المناسب أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومًا: «**إنْ بَيَّتكم العدو فقولوا: (حم)؛ لا ينصرون**»[(٢)]، وجعله شعارًا لهم كما في الرواية الأخرى، فهذا الشعار الدفاعي له معناه كما أن له وَقْعَه الخاص.

أراك ستقول بعد كل ما ذكر متسائلًا محتارًا: فما فائدة تأخير فهمنا للمعنى الآخر الذي يوجد في الحروف المقطعة؟

أقول لك مجيبًا: ألم ترَ أنه اجتمع لنا في هذه الأحرف أن تكون واضحة الموقع ولكنها في الوقت ذاته تنتمي إلى المتشابه الذي له فوائده الخاصة.

فإن بادرت بسؤالك وقلت: هلا أدركتني بهذه الفوائد الغرر؟

أجبتك موضحًا، ولما تطلبه مجليًا: بأن أعظم فوائده إبقاء أصل الإيمان قائمًا في نفس الإنسان، ودعني هذه المرة أنا من يبادرك بالسؤال: هل يجب أن يدرك الإنسان كل شيء؟

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة ص: ٥٢.

(٢) الترمذي (١٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٤٨).

فإذا أدرك كل شيء، فكيف يظهر إيمانه، وإيقانه؟!

وهل الإيمان في أصل معناه، وقوام كنهه ومبناه إلا التسليم للحق جل وتبارك في علاه؟

هذا معنى قول جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: إن هذه الحروف تنتمي إلى المتشابه، وقد تدارست معك –أيدك الله- أن له وجهين: وجه تظهر فيه واضحة المعنى، ووجه يظهر فيه أن هناك معاني لها لم نعرفها بعد، ولذا قال النبي ﷺ: «فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»(١).

الحروف المقطعة من مبتكرات القرآن:

هذه الحروف تعبِّر عن خاصية أسلوبية فريدة، فتمثِّل وجود ابتكار أسلوبي مشوِّق في القرآن الكريم مع كونه يتكوَّن من الحروف العربية المعتادة؛ ليدل على كنزٍ ضخم من المعاني لا حدود له، فهي عبارة عن أربعة عشر حرفًا وردت في تسع وعشرين سورة، معظمها مكية، وجمعها أهل العلم في قولك: (نص حكيم قاطع له سر)، وبعضهم في: (صراطٌ عليٌّ حقٌّ نمسكه)، وبعضهم في: (طَرَقَ سَمْعَك النصيحةُ)، وبعضهم في: (صحَّ طريقُك مع السُّنة).

ربما نتساءل: فهل من ملمح آخر غير ما ذكر يظهر تميز القرآن الكريم بالحروف المقطعة واحتفائه بورودها في فواتح سوره؟

الجواب: أقول لك غير مُغَالٍ في دعواي: إن مجيء هذه الأحرف بهذه الهيئة في البيان الإلهي القرآني يُمَثِّلُ أسلوبًا عربيًّا جديدًا ينبِّه السامعين، ويلفت نظرهم إلى عَظَمة ما يسمعون، وهو أسلوب لم يعتده السامع العربي في خطاباته، ولا أشعاره مع كونه غير خارجٍ عن الفصاحة والبيان، وهذا هو المعنى الثاني لهذه الأحرف بعد المعنى الأول الذي ذكرته قبل قليل؛ فهذه الحروف كوَّنت أسلوبًا تميَّز به القرآن، وهذا تقريرٌ قريبٌ مما قرَّره أئمة التفسير من أن هذه

---

(١) أحمد (٦٧٤١)، وحسن إسناده الأرناؤوط، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٣٧).

الحروف فواتح افتتح الله تعالى بها القرآن، كما روى الطبري ﷺ عن مجاهد ﷺ، قال: "﴿الٓمٓ﴾، و﴿حمٓ﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾، و﴿صٓ﴾، فواتحُ افتتح الله بها"[(١)].

وقد تأخذك الدهشة فتتساءل: إذا كانت فواتح فلأيِّ شيءٍ تمَّ تخصيص هذه الحروف دون غيرها لتكون كذلك؟

الجواب: يمكنك القول بأن وجود هذه الحروف في أوائل السور من مبتكرات القرآن، فلم تخرج عن الذوق العربي، إلا أن الله تعالى ذكرها في القرآن بأسلوبٍ لافتٍ جذَّابٍ قابلَه أعداء القرآن من العرب بالتسليم والإذعان.

فهل يأتي مثل ذلك في كلام البديع جُزَافًا؟ أم أنَّ من وراء ذلك أسرارًا وحكمًا لطافًا؟

لا شك عندي في أن هناك حكمة وراء ذلك ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، وقد حاول الزمخشري ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال، فأشار إلى أنه من اللافت للنظر أن هذه الأحرف تُمثِّل **نصفَ عدد حروف القرآن**، أي نصف عدد الحروف العربية، ووهي تُمثِّل نصف أجناس الحروف، فهي نصف الحروف المهموسة، ونصف الحروف المجهورة، ونصف الحرف الرخوة، ونصف الحروف الشديدة ونصف الحروف المُطْبقة، ونصف الحروف المُنْفتحة، فأشار بهذا النصف الى النصف الآخر[(٢)].

فماذا ترى في هذه المحاولة اللافتة من الزمخشري ﷺ؟

أما الشوكاني ﷺ فلم يرتض هذه المحاولة، وقال: «هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتدُّ بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال، فهذا متيسِّرٌ بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلَّمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتًا

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٠٦).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٢٩، ٣٠).

وإلزامًا يفهمه كلُّ سامع منهم من دون إلغاز وتعمية»، ثم قرَّر بأن هذه الالتفات لكون هذه الحروف أنصاف حروف الهجاء في الصفات أمر لا يتعلَّق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقرٍّ ولا مُنْكر، ولا مُسَلِّم ولا مُعَارض، ولا يصحُّ أن يكون مقصدًا من مقاصد الرب سبحانه، الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به. وهَبْ أن هذه صناعة عجيبة ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصفُّ بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيدًا أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصفَّ بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر(١).

وكلام الشوكاني ﵀ وجيه، إلا أنه يمكن الاستدراك على شيء منه، فيقال: ألم يتميز القرآن عن الشعر والنثر والسَّجْع، أفليس من التميُّز الأسلوبي أن يأتي بنطق الأحرف بأسمائها على هذه الهيئة للفت أنظارهم؟

ألم تر الوثنيين والكتابيين والمسلمين زمن النبي ﷺ لم يتساءلوا عن معانيها مع حرص كل فريق على ذلك لتحقيق هدفه الخاصِّ؟

أما لماذا تم تخصيص هذه الأحرف فيظل مفتوحًا لمُسْتقرِّه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقد يدعوك الشغف وحب الاطلاع لتتساءل: هل هناك رأي لافت آخر في معنى هذه الحروف غير المعنيين السابقين؟

الجواب: نعم! وجدت للفراهي ﵀ رأيًا آخر في الحروف المقطعة:

فقد حاول أن يثير البحث حول هذه الحروف عسى أن نصل إلى علمٍ جديد فيها، فرأى أن هذه الحروف ترمز إلى أسماء السور بطريقتها -وهذا رأي سبقه إليه مفسرون- واعتضد بأن

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٥، ٣٦).

العرب إذا وضعوا لشيء اسمًا جديدًا عمدوا إلى ما يناسب المسمى، أو يدلُّ على خاصَّة مميزة كما ترى فيما لقَّبوا به بعض الرجال كالملك الضِّلِّيل والمُرَقِّش وتَأَبَّطَ شرًّا؛ فإن الاسم من الوسم، فما يكون علامة يصلح للاسمية، وهكذا سمى بعض السُّوَر مثل: الروم، والنمل، والبقرة، والعنكبوت، وإذ قد ثبت أن هذه الحروف المقطعات أسماء للسور فلا بد أن تكون تلك الحروف المقطعة ذوات معان ودلالات والمركبات منها مثل الأسماء المركبة كمعدي كرب.

وقد علمنا طرفًا من معاني أسماء حروفها في العبرانية، مثل " ألف" فإنها اسم البقرة، وكانت على صورة رأس بقرة، و"الباء" فإنها تسمى بالعبرانية بيت، أي البيت، والجيم فإنها في العبرانية جمل.

و"نون" مثلًا هو الحوت، والسورة المسماة بها جاء فيها ذكر صاحب الحوت "يونس عليه السلام" ولم يذكر غيره من الأنبياء فيها؛ فإن كانت هذه السورة سميت بحرف" نون" لأجل معنى هذا الحرف فعسى أن تكون السور الباقية المسماة بالحروف أيضًا قد سميت حسب معانيها الأولية.

وهذا يحثنا على النظر في المعاني التي كانت حروفنا دالة عليها في الخط التمثالي؛ فمثلًا حرف الطاء صورتها في العبرانية تشبه الحية وتجد السورة المسماة بـ"طه" تبتدئ بعد التمهيد بقصة موسى عليه السلام وذكر الحية، وكذلك السور التي فيها" طس، أو طسم"(١).

وهذا الذي فتحه الفراهي رحمه الله مثير للنظر، ويحتاج إلى دراسات قوية في علوم اللغات والخطوط القديمة.

---

(١) تفسير سورة البقرة، للفراهي (ص ٩٩).

ربما قطعتَ كلامنا، فقلت: لقد طوفت بنا في تفاصيل الكلام حتى نسينا بداية حديثنا!!

فهلا عدت بنا إلى سابق ما بدأناه لنبلغ منتهاه؟

الجواب: وها أنا أعطيك سؤلك، وأحقق أملك، فاعلم –أيدك الله- أن محور حديثنا كان عن خصائص القرآن العظيم التي بصرتنا بها آيتا سورة البقرة بكونه حقًّا كتاب السعادة الذي يدير العالم، فذكرنا الخاصية الأولى، وهي الوضوح والبيان، وبصَّرتنا بها الحروف المقطعة أول السورة ﴿الم﴾، فهلمَّ بنا إلى الخاصية الثانية:

الخاصية الثانية: التنزيل الرباني والمصدرية الإلهية:

القرآن مصدره الله رب البشر، فهو كلامه.. ليس بكلام بشر ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣]:

وربما تتساءل: ونحن نفسر الآيتين الأوليين من سورة البقرة، فأين ما يُبصِّرنا بالمصدرية الإلهية للقرآن العظيم؟

ويأتيك **الجواب** عن ما سألت في ثلاثة شواهد تضمنتها هاتان الآيتان الكريمتان:

الشاهد الأول: الحروف المقطَّعة، فهي تَدُلُّ على أن الرسولَ ﷺ مُبَلِّغٌ للقرآن الكريم، ولا يمكن أن يكون القرآن من تأليفه.

صحيح! يستحيل أن يكون الرسول ﷺ مصدرَ القرآن الكريم، ولكن كيف عرَّفتنا ﴿الم﴾ بأن القرآن لا يمكن إلا أن يكون منزلًا من عند الله؟

و**الجواب عن ذلك** أن حروف (الم) تنطق في سورة البقرة (ألف لام ميم)، بينما تُنْطَقُ في سورة الشرح وسورة الفيل (ألم)، مع اتفاق هذه المواضع في الكتابة، فهذا يحتمل ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن يكون الرسول الأعظم محمد ﷺ قارئًا يعرف القراءة والكتابة بإتقان حتى يفرِّق بين هذه وتلك؟

ولكنك ترى هذا الاحتمال باطلًا بإجماع المسلمين والكفار، فالنبي ﷺ كان أميًّا، وكان يمكنه أن يفتخر بعلمه وثقافته، وتمكُّنه من القراءة والكتابة، ولكنه لم يفعل بل نجد القرآن يؤكِّد على أُمِّيته بتفصيل دقيق في أكثر من موضع مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

الاحتمال الثاني: أن يكون هناك بشر يعلِّمه، ولقد ادَّعى هذا بعض المشركين، وزعموا أن هذا البشر أعجمي، فعادوا بفضيحة أمام قومهم، فلم يصدِّقْهم المسلمون ولا الكفار من قومهم، وقال الله تعالى عن ذلك: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

يضاف إلى ذلك أن استعمال هذه الأحرف المقطعة في مواضعها وبأعيانها شيء لم تعهد مثله العرب الفصحاء، وأذعنوا برغم ذلك لفصاحته.

الاحتمال الثالث: الأحرف المقطعة تدل على أن مصدر القرآن هو خالق البشر، فهو الذي علم النبي الأمي ﷺ الفرق بين الأحرف المقطعة، وما يماثلها، حيث ترى عجبًا، فالنبي ﷺ بلَّغ (الم) بطريقتين في الأداء القرائي حسب كل موضعٍ مع أن لهما نفس الصورة الكتابية في القرآن، فهي لا تنطق بطريقة واحدة.

كما قال ابن سهل الأندلسي رحمه الله:

لقد كنتُ أرجو أن تكونَ مُوَاصلي   فأسقَيتني بالبُعدِ فاتِحَةَ الرَّعدِ[١]

هذا هو الاحتمال الذي تهدي إليه الآية. هنا لا تجد احتمالًا صحيحًا إلا هذا الاحتمال الثالث، فالحروف المقطَّعة تدل على المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ويؤكِّد ذلك أن النبي محمد ﷺ لما قيل له: اقرأ كذا، فقرأه كما سمعه، ونقله إلينا وبلَّغه كما أُمِر ﷺ[٢].

الشاهد الثاني الذي يدل على المصدرية الإلهية: قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، إنه ذلك الكتاب الذي لا يستحق وصف الكتاب سواه.

لعلك تسأل مستجليًا لخفي معنى ما ذكر: كيف يمكن أن يدل قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ على المصدرية الإلهية؟

والجواب عن ذلك -أيدك الله- أن هذه الجملة تنبئك أن كل البشر مهما تفاوتوا في أفهامهم وتأليفهم للكتب، فإنه يجمعهم القدر المشترك من القصور، ولا يمكننا وصف كتاب دون غيره بأنه الذي يستحقُّ وصف الكتاب دون سواه إلا ما جاء من خالق البشر جلَّ مَجْدُه.

ولنلفت النظر إلى هذه العبارة المحكمة العجيبة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ فإن جميع الخصائص المذكورة هنا تلخِّصها هذه العبارة؛ إذ (ال) في كلمة (الكتاب) لها معنيان: أن تكون للعهد،

---

(١) ديوان ابن سهل الأندلسي (ص: ٢٨).

(٢) وذهب بعض المتأخرين إلى أن الإعجاز حاصلٌ بالمرسوم الخطي كما هو حاصلٌ بالنطق اللفظي كما قال السيد محمد العاقب الجكني:

وَالْخَطُّ فِيهِ مُعْجِزٌ لِلنَّاسِ   وَحَائِدٌ عَنْ مُقْتَضَى الْقِيَاسِ
لَا تَهْتَدِي لِسِرِّهِ الْفُحُولُ   وَلَا تَحُومُ حَوْلَهُ الْعُقُولُ
قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَهْ   دُونَ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَهْ
لِيَظْهَرَ الْإِعْجَازُ فِي الْمَرْسُومِ   مِنْهُ كَمَا فِي لَفْظِهِ الْمَنْظُومِ

انظر: رَشْفُ اللَّمَى عَلَى كَشْفِ العَمَى (ص:٩٥)، وهي مسألة محل نظر.

وأن تكون لاستغراق خصائص الأفراد، أي ذلك الكتاب المعهود لكم -وهو القرآن- قد جمع جميع خصائص الكمال التي يستحقُّ بها أن يكون الكتاب الكامل، ومن ذلك أن يكون مهيمنًا على الكتب السابقة خاتمًا لها.

الشاهد الثالث الذي يدل على المصدرية الإلهية: قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

ستقول أيها المبارك كحال من يعقب فيتدارك: وكيف بصرتنا هذه الكلمات الثلاث بالمصدرية الإلهية؟

وجوابي على ما سألت أن من معاني هذه الكلمات: لا ريب في أن هذا الكتاب من عند الله،

ولنقارن هذا المبدأ الحاسم في نفي الريب عن مصدرية القرآن الإلهية مع العهد الجديد، فالمتخصِّص في علم النقد النصي (بارت إيرمن) يقرِّر أنه نظرًا لما أحاط نصَّ العهد الجديد من شكوك واسعة في نصِّه، فقد اكتشف (جون مل) نحو ٣٠ ألف موضعًا مختلفًا فيه بين مخطوطات نصوص العهد الجديد.

عند ذلك برزت وجهة نظر جديدة تتلخَّص تحديدًا في أن الاختلافات واسعة النطاق في المخطوطات أوضحت أن الإيمان المسيحي لا يمكن أن يبنى فحسب على الكتاب المقدس (أو ما يعرف بمبدأ "الكتاب المقدس فحسب" أو الـ(sola scriptura) عند البروتستانت الإصلاحيين)، حيث إن النصَّ كان متغيرًا ولا يعول عليه (unstable and unreliable).

وحاول الكاثوليك الخروج من هذا المأزق بأن قالوا: إن الإيمان في حاجة إلى التقليد الآبائي المحفوظ في الكنيسة (الكاثوليكية)، وقد عمل المؤلِّف الفرنسي (ريتشارد سيمون) (١٦٣٨- ١٧١٢) على نشر هذه الأفكار في سلسلة من الإصدارات المهمة[١].

بينما ترى القرآن من أول آياته في المصحف ينصُّ على أنه لا يمكن أن يخالط قارئَه غيرَ المعاند ريبٌ في أنه من عند الله ﷻ.

الخاصية الثالثة: العَظَمَة: فله الكبرياء والعظمة وبُعْدُ المكان عند الله وعند الناس.

وربما تسأل: ولكن من أين استنبطنا علو المكانة ضمن هذه الآيات؟

الجواب: بصرَّنا بذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، فالكتاب هو القرآن، فالمعنى: ذلك القرآن المكتوب البعيد مكانة العظيم منزلة.

فإن قلت فما أسباب الإشارة بالبعيد هنا مع أن القرآن قريبٌ في متناولنا؟

يظهر لذلك سببان:

السبب الأول: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تستخدم في الإشارة إلى البعيد مكانًا أو مكانة، ومنزلاً أو منزلة، فقول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي هذا الكتاب العظيم المنزلة، البعيد المكانة، السامق الرتبة، فهو يشير إلى مكانته العلية العظيمة عند الله وعند الناس، وقد استبق الخيرات من قال في وصف القرآن الكريم:

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ ... ظهورَ نارِ القرى ليلاً على عَلَمِ
لَمْ تقترنْ بزمانٍ وهي تخبرنا ... عن المعادِ وعنْ عادٍ وعنْ إِرَمِ
دامتْ لدينا ففاقتْ كلَّ معجزةٍ ... من النبيين إذْ جاءتْ ولمْ تَدُمِ

---

(١) انظر: تحريف أقوال يسوع لبارت إيرمن، وريتشارد سيمون كانت دراسته التي نال عنها درجة الماجستير، "تاريخ نقدي لنص العهد الجديد" ظهرت في ١٦٨٩م.

مُحَكَّمَاتٍ فما تُبقين من شُبَهٍ ... لِذي شقاقٍ وما تبغين من حِكَمِ

ما حُورِبَتْ قطُّ إلا عادَ مِنْ حَرَبٍ ... أعدى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ(١)

ومن الإشارة إلى القريب بالبعيد لغرض التفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، مع أن الله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، وكذلك قول الشاعر:

فإن تكُ خيلي قد أُصيبَ صميمُها ... فعمدًا على عينٍ تيممتُ مالكًا

أقولُ له والرمحُ يأطِرُ ... تأمَّلْ خفافًا إنني أنا ذلكا(٢)

يعني هذا مكاني ومكانتي وعَظَمتي.

ويكفي أن ترى هذا الأثر العالمي المدهش له لتعلم عظمة منزلته، وعلو مكانته.. ألا يكفي هذه الحرب الرهيبة التي تمارس ضده بين كتب الدنيا؟

ولعلك تبادر متسائلًا: فكيف نجمع بين الوصف للكتاب باسم الإشارة للبعيد ووصفه باسم الإشارة للقريب في قوله ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]؟

الجواب: عرفنا البصيرة في وصفه باسم الإشارة الدالِّ على البعد ﴿ذلك﴾، أما وصفه باسم الإشارة الدالِّ على القرب فيحبونا بمعنى آخر: هو قرب المتناول والتعامل مع القرآن على الرغم من عظمة منزلته، فأراد الله ﷻ أن يبين في سورة الأنعام التناسب بين كونه قريبًا منهم في متناولهم وبين كونه معجزًا وحجة، وذلك أن المراد هنا أن يتبعوه ويحكِّموه فيما بينهم، فالقرب أنسب، ومثل ذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ

(١) أبيات من ديوان البوصيري، لشرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، (ص: ١٩٦).

(٢) البيتان لخفاف بن ندبة. في ديوانه (٦٤)، وحكاهما ابن قتيبة في الشعر والشعراء (١٩٦).

ﱡﭐ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﱠ [الأنعام: ٧]، وبذا فالله تعالى يبين لهم بأقرب لفظ وأدله قرب الكتاب منهم، وكونه حجة عليهم.

وهكذا جمع لكتاب الله المُحْكَم بين بُعْدِ المكانة، وقرب المتناوَل كما قال الشاعر:

دنوتَ دُنُوَّ البدرِ منْ كلِّ مهجةٍ علوتَ عُلُوَّ النجمِ عنْ كُلِّ غيهَبِ

عند هذه النقطة(١) ربما أوردوا سؤالاً مترتِّبًا على ما سبق فقالوا بعد هذا التقرير:

ولعلك هنا قد تتساءل: كيف يجوزُ أن يكون "ذلك" بمعنى "هذا"؟ و"هذا" لا شكَّ إشارة إلى حاضر مُعايَن، و"ذلك" إشارة إلى غائب غير حاضر ولا مُعايَن؟

والجواب: أن (ذلك) إشارة إلى أن الكتاب كأنه قد حضر واكتمل وهذا يقتضي أمرين:

الأمر الأول: تقرير إعجازه بالإشارة إلى اكتماله وعدم قدرة قوى العدوان على إيقاف اكتماله، فكأنه قد اكتمل مع أن هذه الآية نزلت قبل توقُّف الوحي بنحو عشر سنين على الأقل.

الأمر الثاني: بيان شدة حضور الكتاب المجيد في حياة من نزل عليهم تلاوة وتدبُّرًا وعملًا، وإدارته لشؤون حياتهم وتفكيرهم.

---

(١) وهناك سبب ثانٍ لمجيء اسم الإشارة الدال على القرب في وصف القرآن: جعل الله تعالى القرآن الكريم سببًا للمحافظة على اللغة العربية، واللغةُ العربية يستعمل فيها اسم الاشارة القريب في موضع اسم الاشارة البعيد، واسم الاشارة البعيد في موضع اسم الاشارة القريب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، فدل على التبادل بين (ذلك وهذا)، لكننا لا بد أن نقرِّر أن هذا المعنى لا يُجوز لنا أن نبدل (هذا) بـــ(ذلك)، وإنما ذكرت ذلك لبيان التقعيد اللغوي فقط، وإلا فإن فعل ذلك يفوت المعنى الكبير الذي قررته في السبب الأول.

الخاصية الرابعة: الكتابة للتوثيق: فيكتب بمجرد نزوله، والكتابة متناقلة بالسند ليوثق توثيقًا لا يسمح لأحد أن يغيِّره، وبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾.

أما إن سألت: كيف بصَّرنا قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أن القرآن يجب أن يُكتب مع أن الرسول الذي بلغه ﷺ كان أميًّا؟

أجيبك أن الكتاب مشتقٌ من كَتَبَ: بِمَعْنَى جَمَعَ وَضَمَّ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ تُـجْمَعُ أَوْرَاقُهُ وَتضم حُرُوفُهُ لتكوِّن كلماتِه التي تُضَمُّ لتكوِّن جُمَلَه، وتسميته كتابًا يدل على وُجُوبِ كِتَابَتِهِ على سبيل الكِفَايَة.

وإذا عدت وسألت: لماذا يجب الكتابة على أمَّة في أصلها أمِّية؟

فالجواب عن ذلك من وجوه: أما أولًا: فليتم التوثيق الكتابي للبيان الإلهي الأخير في السطور فيوازي تسميته بالقرآن التي تدل على حفظه في الصدور.

وأما ثانيًا: فقد أوجب الله تعالى كتابة القرآن المجيد لتشرق حضارة أمة الكتاب الأخير على العالم بوسائل المدنية التي تنشر لها سبل العيش الكريم، ووسائل التقدم في العلوم، وأساس ذلك التدوين والكتابة، ولذلك كان للنبي ﷺ ثلاثة وأربعون كاتبًا، وأُسندت الكتابة للبشرية حتى تعمل على نشره على أوسع نطاقٍ توثيقًا له، ومنعًا من تحريفه، ونشرًا لنوره، وإقامة للحجة بنقله مقروءًا ومكتوبًا وَفْق قطعية التواتر، وهذا معنى قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «وأنزلت عليك- أي يا محمد- كتابًا لا يغسله الماء»[(١)] أي لا يُمحى، «تقرؤه نائمًا ويقظانًا» يدل على الحفظ في الصدر.

(١) مسلم (٢٨٦٥).

وبالطريقتين تمَّ ضمان أعلى درجات التوثيق للقرآن الكريم حمايةً له من وهن التحريف الذي أصاب الكتب السابقة.

وقد شهد بهذه المنصفون من غير المسلمين، يقول العالم الفرنسي البارز موريس بوكاي: "وأولا بأول كان النبي والمؤمنون حوله يتلونه عن ظهر قلب وكان الكتبة من حوله يدونونه. إذن فالقرآن يتمتع منذ البداية بعنصري الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل، وظل الأمر هكذا حتى موت النبي ﷺ"(١).

ولكن الإنسان يسأل: أليس غريبًا أن يسمى القرآن كتابًا، وهو إلى نزول سورة البقرة لم يُجمع في كتاب واحد؟

والجواب عن ذلك: أن هذا هو الإعجاز المدهش في أجلى صوره، وهو ما تدلنا عليه هذه التسمية المبكِّرة: فعلى الرغم من أنه لم يُجمع في كتابٍ بعد إلا أن الله تعالى يسميه بالكتاب، ويسمِّي ما يكتب فيه بالصحف، وهذا كلُّه يدلُّ على معجزةٍ أخرى للرسول ﷺ حيث ستقوم الأمة بجمعه في كتاب، ويشير النبي ﷺ إلى ذلك فيقول: «**قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يَجِدُونَ كِتَابًا بَيْنَ لَوْحَيْنِ**»(٢).

وإذا كان هذا معنى يجذبك إلى القرآن بصرتنا به كلمة ﴿كتاب﴾، فهنا ملمح إعجازي آخر من هذه الكلمة، فهل تعلم ما هو؟

وجوابًا عن ذلك: دعنا نذهب مع لفظة (كتاب) إلى أبعد مدى من واسع الدلالات وأجملها وأجزلها.

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، لموريس بوكاي (ص: ١٥٢).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٣٤٦٠)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٣١٠).

كلمة (كتاب) تدل على إثبات نبوة النبي ﷺ، فهذا كتاب مكتوب ولكن الذي يُعَلِّمه رجلٌ أُميٌّ!!، ولا تفسير لذلك إلا أن يكون هذا الأُميُّ نبيًّا مُعلَّمًا من الله تعالى

وهنا تندهش لهذا الإعجاز الذي يقيم الحُجَّة على أهل الكتاب، حيث جاءت الإشارة إلى معجزة أن يُعَلِّم الأُميُّ الكتابَ للعالَم في البقايا غير المحرِّفة للكتاب المقدس، **ففي سفر أشعياء[1]:"٢٩: ١٢ ثم يناول الكتاب لمن لا يعرف القراءة، ويقال له: (اقرأ هذا)، فيقول: ((لا أعرف القراءة))، وهذا في الترجمة اليسوعية، ويظهر أن ترجمات أخرى تلاعبت بالنص، فأوردته على النحو الآتي: "أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له: اقرأ هذا، فيقول لا أعرف الكتابة".**

ويحضرني أنني رأيت (تابعت) حوارًا بين مُلْحد من كبار دكاترة إحدى الجامعات الغربية وبين مسلم، فكان الملحد ينبرى ليبرز الدليل على عدم صحة الإسلام، فيقول: كيف أتَّبع أقلَّ الناس أهلية من الناحية العلمية؟

الجواب عن ذلك: لأنه نبي، ولأنه أُميٌّ، والأمية مع العلم الذي لا يقدر عليه البشر من أهمِّ علامات نبوته، فالنبوة اصطفاء، ولا علاقة لمستواه العلمي باختيار الله ﷻ له؛ لأن المستوى العلمي الذي سيرتقي إليه بعد الاصطفاء يصبح أعلى من أن يصله البشر بالجهد الذاتي، كما وصف الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

فالنبي الأُميُّ ﷺ هو الذي يخبركم عن الكتاب المكتوب فتزداد المعجزة، ويظهر أن الكتاب وحيٌ من عند الله تعالى، ومما يدلُّ على إعجازه وروده في إشارات الكتب السابقة،

(١) سفر أشعياء، أنطونيوس، (مشروع الكنوز القبطية)، (ص:١٦٢).

وإنما الذي دفع هذا لاتخاذ موقف الجاحد المعاند غرور العلم الدنيوي، وكثافة حجب المادية، وإلا لو نظر المنصف المتجرِّد لوجد أنه ينبغي أن يتبع هذا النبيَّ الأُميَّ المؤيد بعظيم المعجزات وأعلاها (الكتاب المحكم) الذي أقام الله تعالى له به الحجة، وأبان عن المَحَّجة لَمَا وسعه سوى التسليم كما قيل:

كفاكَ بالعلمِ في الأُمِّيِّ معجزةً ... في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتُمِ[1]

الخاصية الخامسة: التحدي والإعجاز، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾:

فكأن الله ﷻ يقول للعالم: أيها الناس نحن أنزلنا إليكم القرآن مكوَّنًا من الحروف التي تتكون منها الكلمات التي بها تتكلمون، فإذا كنتم حقًّا تزعمون بأن هذا القرآن ليس كلام الله، وأن محمدًا ﷺ لا يمثل له القرآن إعجازًا، فأتوا بمثله لفظًا ومعنى:

ربما تتساءل: ترى ماذا كان ردهم إزاء ما سمعوا؟

الجواب: لقد سكتوا وخرسوا وهم أفصح الناس وما أحاروا جوابًا حتى ذكروا أن مسيلمة الكذاب أتى بشيءٍ تضحك منه الثكلى المكلومة ملء شدقيها.

عادة قرآنية مطردة:

تلحظ بيسر إذا ذُكِرت هذه الأحرف في سورةٍ جيء بعدها بما يدلُّ على إعجاز القرآن وعظمته، وإحكام بنائه ومقاصده ومعانيه، والتحدي به، فهنا في سورة البقرة قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وهكذا في كلِّ السُّوَر حتى السُّوَر التي لم يذكر فيها القرآن مباشرة بعد الآية الأولى نجد ذكر القرآن لاحقًا في السورة، ففي سورة مريم قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١، ٢] فلم يُذْكَر

---

(١) ديوان البوصيري (ص: ١٩٩).

القرآن، ولكنه ذُكِرَ في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وكأنه يقول: هذا القرآن الذي يسَّره الله تعالى بلسانك يا محمد ﷺ هو الذي تكون من كلمات العرب فلماذا لا يجابهونه؟ ولماذا لا يردون عليه لو لم يكن من عند الله تعالى؟

"إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مُؤَلَّفٌ من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه- مع هذا- هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثلَه. الكتاب الذي يتحدَّاهم مرَّة ومرَّة ومرَّة أن يأتوا بمثله، أو بعشر سُوَرٍ مِثْله، أو بسورة من مِثْله فلا يملكون لهذا التحدِّي جوابًا!".

ربما تتساءل: ولكن ما الفرق بين كلام الله، وكلام غيره مع أن الحروف متماثلة؟

والجواب عن هذا: أن تطلُّبَ الفرق بين كلام الله وكلام غيره من جنس التكلُّف في تطلُّب التفاضل بين الخالق والمخلوق؛ وذلك أن القرآن كلام الله تعالى، فهو صفة من صفاته، ولا وجه للمقارنة بين عظيم صفات الله تعالى وبين ما يصدر عن المخلوق أو يتصف به، هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة.. هذا مع أن القرآن كلام الله، فهو صفة من صفاته العظمى، والفرق كبير بين خلق الله، وصفاته، ولتقريب المعنى نقول:

يصنع الإنسان تماثيل من التراب، فانظر إلى الإنسان المخلوق من الذَّرات ذاتها لتجد أن الله تعالى وضع فيه سرَّ الحياة.. ذلك السرُّ الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سِرَّه بشر.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانا، ولكنها عندما تنتظم في كلام الله تعالى تأخذ القِمَّة السامقة وتسري فيها روح من روح الله ولطف من لطفه، وهذا ما لا يستطيعه بشر، ولا يتوفر لبشر أن يأتي بمثاله، ولا النهج على منواله... هناك تسمع القرآن،

فتتساقط كل الكلمات الأخرى، ويهوي الكلام ذو الأوزان... هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض.. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة(١).

ولكن تعال ننظر إلى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهل تدل هذه الجملة على الخصائص السابقة؟

والجواب من دون أدنى تردُّد: نعم؛ إذ يدخل ضمن معاني الريب المنفي: الريب في مصدريته، وكذلك الريب في إعجازه، وكذلك الريب في هدفه وغاياته.

فكأن الله تعالى يقول: ذلك الكتاب لا شك في أنه معجزٌ لكم، وبذا فهذه الجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] **من أدلة الإعجاز معنى وموضعًا**؛ لأنه لما قال ﴿لا ريب فيه﴾ يكون قد نفى أن يطرقه شيءٌ ينقضُه، أو هجوم أو نقد يعارضه، بينما نجد من يكتب كتابًا، أو يؤلِّف سِفْرًا يقول: أرجو أن تعدلوا عند النظر في الكتاب، وسامحوا الكاتب على ما اعتراه من زلل ومن خطل، وكانت هذه الآية من الآيات التي تسبَّبت في إسلام الرياضي (جاري ميلر)، فهذه الثقة العظيمة بنفي الشك والتهمة للكتاب الكريم تدلُّ على أنه من كلام خالق الكون جل في علاه، ولاحظ -وفقك الله- جمال موضعها وترتيبها، حيث جاءت في أول القرآن الكريم من حيث الترتيب الموضعي لسوره وآياته.

من معاني الريب في كلام العرب:

ويقتضي قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ ألا يشك فيه العقلاء، وألا يحاول الطعن فيه النبلاء، فمن معاني كلمة (ريب):

المعنى الأول: الريب بمعنى الشك المصحوب بالخوف والقلق:

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٨)، وقد تصرفت فيه، وغيرت من عندي.

ومن ذلك حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دع ما يَريبك إلى مالا يَريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»(١).

يعني دع ما تشك فيه الى ما لا تشك فيه، كما قال الشاعر:

لـيسَ في الـحـقِّ يـا أمـيـمـةُ ريـبٌ ... إنـمـا الـريـبُ مـا يـقـولُ الـجَـهُـولُ(٢)

وقوله:

فقـالوا: تَرَكْنَـا الحَيَّ قد حَصِــرُوا بـه ... فلا رَيْـبَ أنْ قـد كـان ثَـمَّ لَـحِيـمُ(٣)

والشكُّ: التردُّد بين موقعي تُهْمَة، بحيث يمنع من الطمأنينة على كلِّ واحد منها، وأصله قلق النفس، ومنه ريب الزمان لنوائبه المقلقة(٤).

المعنى الثاني: الريب بمعنى التهمة:

ومن ذلك قول جميل بثينة:

قـالـت بـثـيـنـة: يـا جـمـيـل أربـتـنـي ... فـقـلـت كـلانـا يـا بـثـين مـريـب(٥)

فيكون المعنى: لا يوجد شك مقلق في مصدر هذا الكتاب وإصلاحه للعالم، ولا يمكن أن تتطرق إليه تهمةٌ تقدح فيه.

ولذا قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فقدم كلمة (ريب) بينما قال عن الخمر: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] فقدَّم (فيها) على كلمة (غول) -وهو الشيء الذي يغتال العقل-؛ لأن المقصود

---

(١) الترمذي (٢٥١٨)، وصحَّحه، أحمد (١٧٢٣) وقوَّى الذهبي إسنادَه".

(٢) البيت لعبد الله بن الزبعري. ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى (٤/ ٢٦٩١).

(٣) ينسب البيت لساعدة بن جؤية. ينظر: ديوان الهذليين، تعليق وترتيب: محمد محمود الشنقيطي (١/ ٢١٥)، تفسير الطبري (١/ ٢٢٩)، وحصروا أي أطافوا، ولحيم أي قتيل.

(٤)نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (١/ ٣٤).

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه، ٥/ ١٦٧.

هنا نفي التُّهمة والشكِّ فقدَّم ذكرهما، بينما المقصود هناك إثبات وجود الخمر في الآخرة، وأن الخمر الوحيدة التي لا يوجد فيها غول هي خمر الآخرة، فقدَّم ذكرها، فقدَّم في كلٍّ منهما ما يناسب المقام.

المعنى الثالث: الريب بمعنى الحاجة:

ومن ذلك قول كعب بن مالك رضي الله عنه :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَمْنَا السُّيوفا

نُخَيِّرُها ولو نَطقت لقالتْ ... قواطِعُهُنَّ: دَوْسًا أو ثَقِيفَا[1]

والمقصود: انتهينا من كلِّ حاجتنا من خيبرٍ، فاستعدوا يا ثقيف ويا أهل مكة يعني بعد معركة خيبر، وبعد أن انتصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أهل خيبر ونقض أهل مكة عهدهم وصلحهم أراد أن يعطيهم الإنذار، وكذلك لأهل ثقيف الذين كانوا يناوئون النبي صلى الله عليه وآله وسلم... هكذا ذكروا بأن الريب هنا الحاجة، وقال ابن فارس رحمه الله: "فَيُقَالُ: إِنَّ الرَّيْبَ الْحَاجَةُ. وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ؛ لِأَنَّ طَالِبَ الْحَاجَةِ شَاكٌّ، عَلَى مَا بِهِ مِنْ خَوْفِ الْفَوْتِ"[2]، ولعل المعنى: قضينا كلَّ ما رابنا مما احتجنا إلى قضائه.

والمعنى بهذا الاعتبار: لا توجد حاجة تدعوكم إلى غيره، بل ستجدون فيه كفايتكم، وسعادتكم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١]، وبهذا المعنى يكون الوقف على كلمة ﴿لا ريب﴾ والبدء بكلمة ﴿فيه﴾ والمعنى: ذلك الكتاب لا حاجة.. أي لكم في غيره –إن صح اعتبار هذا المعنى– فلا ريب في أنكم ستجدون فيه ما يشبع حاجاتكم النفسية والمادية والسياسية.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القرواني (١/ ٦٥).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٤٦٤).

هكذا قال بعضهم: الريب بمعنى الحاجة، ورتَّبتُ على ما قالوه معنى رأيته قبل قليل، وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أرى أن الريب يكون بمعنى الحاجة، بل هو بالمعنيين السابقين فحسب.

(لا ريب فيه) بين النفي والنهي:

ولكننا نتساءل: هل معنى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۛ﴾ النفي أو النهي؟

الجواب: إن المهيع هنا فسيح للتأمل؛ فإن هذه الجملة المباركة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۛ﴾ نفيٌ ونهيٌ في الوقت ذاته:

فأما النفي فلأن هذا الأصل في معناها، فهي خبرٌ على الحقيقة، فلا ريب في القرآن مصدرًا وأهدافًا، فمصدره من الله، وهدفه هداية البشر ليتحقق لهم الفلاح والسعادة..

وهنا ربما تساءلت فقلت: من أين فهمنا ذلك؟

والجواب عن ذلك -أعزك الله وسددك- أنه عمَّم نفي الريب فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۛ﴾ ولم يقل: لا ريب في أنه من عند الله، ولا قال: لا ريب في أنه معجزة، ولم يقل: لا ريب في أنه مصدر سعادتكم.. لم يقيد لنا الريب في أي جهة ليجعل الريب منفيًّا عنه في كلِّ جهة من جهاته، وحَذْفُ المتعلَّق يدلُّ على العموم فهذا الكتاب العظيم: **لا يوجد شكٌ في أنه منزلٌ من عند الله**، فلَا شُبْهَةَ فِي صِحَّتِهِ، وَلَا فِي كَوْنِهِ مُعْجِزًا[(١)]، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، **ولا شك في مصدره وحفظه**، فلا يمكن أن يتطرق إليه الريب أو الشك أنه من عند الله ﷻ، ولا ريب أن الله تعالى سيحفظه لكم، ولن يتطرق إليه الشك في مصدره في بقائه، **ولا شك في غايته وأهدافه العظيمة في إسعاد البشرية**.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٦٥).

لا ريب في إصلاح القرآن لواقعكم، فهو دستور حياتكم ومعاملاتكم النفسية والفردية والجماعية، فالأحكام المدنية، والتشريعية، والعقدية، والخلقية لهذا العالم لا يمكن أن توجد بعدلٍ كامل، وإتقانٍ لا يشوبه خطأ إلا بالقرآن العظيم، فهو الذي يقدِّم ركائز الحياة السعيدة للمجتمع بما يمكن أن يستغرق آلاف الصفحات ليستوعب احتياجات كلِّ زمان ومكان حتى تصفها بدقة إلا أن ذلك كله تحقق في القرآن الكريم.

وكذلك نفهم من هذا النفي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ النهي من باب الملازمة، أي لا ترتابوا فيه؛ لأنه من عند ربكم، واتهموا أنفسكم فإن لم تستوعب أفهامكم مسألة فيه، فارجعوا إلى أهل العلم يدلونكم.

والخطاب هنا لثلاث فئات:

الفئة الأولى: المؤمنون قبل الكافرين؛ لأنهم قد يقعون تحت تأثيرات شيطانية تشوِّش عليهم إيمانهم بالكتاب كالطعن في الحدود، وصلاحية أحكام القرآن لكل زمان ومكان، فيأتي التحذير للمؤمنين: لا ترتابوا فيه وارتابوا في أحكام البشر المخترعة.

الفئة الثانية: الكافرون الذين عندهم عقول، ولم يصحب تفكيرَهم عنادٌ وكبرٌ، أي لا ينبغي لمثلكم أن يرتابوا فيه وهم يرون دلائل عظمته وصحته وإعجازه.

الفئة الثالثة: الكافرون المعاندون؛ فمهما حاولتم أن تُظهِروا ريبكم فيه، فأنتم تحاربون البحر، فالقرآن لا ريب فيه، والخطاب هنا لكل فئات المجتمع العمرية، وجميع شرائحه بمختلف مستوياتها الثقافية، يدفع الريب عنهم ليستيقنوا ما فيها من حقائق، ويقبلوا على ما حواه من عظيم الحكمة وبالغ الرشد..

ربما قلتَ لي وأنا أظهر استمتاعي بهذا التحدي الجازم:

كيف نقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مع أن هناك من الكفار من ارتاب فيه، والله ﷻ يقرِّر وجود هذا الريب عند بعض الناس فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤]، ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ [النور: ٥٠]، ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]؟

الجواب: لا ريب فيه عند المنصفين ممن يتسمون بالصفات الإنسانية السوية الذين يقبلون بقلبٍ مفتوح وعقل متجرد، أما غيرهم فقد ارتابوا فيه على سبيل العناد لا على سبيل الهدى والبحث عن الحقيقة والرشاد، والمعاند ينكر الواضحات:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ[1]

فالعناد شيءٌ لا حيلة في علاجه إلا أن يعالجه صاحبه، كإبليس وهو في الملأ الأعلى يرى الملائكة ويرى ما لا يراه البشر، ويوقن ويأمره الله تعالى بأن يسجد فيأبى!

ومن أدلة أن اطراح العناد سبيل للهدى والسداد: إسلام كثيرٍ من الكفار من جنس المعاندين؛ فقد أسلم من اليهود ومن النصارى، ومن الملحدين من علماء الرياضيات والأجنة والفلك والقساوسة مَن إسلامهُم حُجَّة على من عاند منه، فماذا نصنع للمعاند؟ يكفي هذا الوصف له بأنه (معاند) لفَهْم نفسيته، وقد قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولكنك ربما تساءلت: هل كانت هذه البينة القرآنية التي لا ريب فيها كافية ليرجع المعاندون عن عنادهم واستكبارهم؟

---

(١) ديوان البوصيري (ص: ١٩٧).

والجواب: كلا ثم كلا، لا يمكن أن يوجد شيء يكفي المعاند؛ لأن العناد مرض نفسي.. العناد والاستكبار حاجبان من رؤية الشمس في رائعة النهار.

المعاندون وأوهام الثقب الأسود:

دعنا ننظر إلى أين وصلت الأفكار المعاندة عندما رأت نور القرآن، فأبت أن تذعن له، وبدلًا من الاعتراف بالبينة القرآنية حاولت ان تدخل الريب فيه.. حاولت إدخال التهمة والشك فيه:

لقد وجدوا القرآن لا يمكن أن يرتاب فيه إلا المجرمون أو الجاهلون جهلًا مركبًا لما يحتويه من قوة مذهلة في المبنى، ومعلومات مدهشة في المعنى، فنظر أحدهم، وفكر وقدر، وكان من هؤلاء **(باتريشا كرون)** المستشرقة الأمريكية ذات الأصول الدنماركية في كتابها **"تجارة مكة وظهور الإسلام"**، فبعد أن بهرها القرآن لم تجد لتصرف الناس عن عظمة القرآن إلا أن تفترض أن مكة التي ولد فيها النبي ﷺ ليست مكة التي يعرفها المسلمون والكافرون والعالمون.. لماذا؟ لأن الاعتراف بهذه الحقيقة المعروفة لدى أشد الكفار عداوة يجعل الكافر يقرُّ أن القرآن حقٌّ، لأنه يحتوي على معلومات لا يمكن لأُميٍّ في الصحراء أن يعرفها، فحاولت أن تقرب المسألة، فادعت أنها ليست مكة، وأن مكة في مكان آخر يمكن أن يكون فيه مَنْ علَّم محمدًا ﷺ، **فجاء من بعدها المؤرخ المستشرق والروائي الإنجليزي (توم هولاند)**، فأنتج فيلمه الوثائقي:

"Islam The Untold Story" "الإسلام: القصة التي لم تُرو" وموَّلته القناة البريطانية الرابعة.. ماذا يريد (توم هولاند)؟

لقد أزعجه أن القرآن كتاب مدهش فلا مجال عنده لتكذيبه إلا أن يثبت أن النبي ﷺ تعلَّمه عن بَشَر، ولا بد أن يثير الريبة في مكان ميلاد النبي ﷺ، ويضيف على ذلك البهارات

الإعلامية، فيزعم أن هناك نقصًا في المعلومات عن مكان مكة الحقيقي، ويسمي ذلك "الثقب الأسود"، ثم يفترض أن مكة في الشام، ولا يمكن أن تكون مكة هي مكة.

وتابع هذين الاثنين على ذلك المستشرق الكندي (**دان غيبسون**) في عام ٢٠١٦م فألَّف كتاب (**جغرافية القرآن**) وأنتج فيلمًا وثائقيًّا جديدًا بعنوان "The Sacred City" "المدينة المُقدسة"، ولأن السلطة في بلاد الحرمين هدمت الآثار القديمة، فقد افترض أن مكة هي مدينة البتراء جنوب الأردن وهناك وُلد رسول الله ﷺ وهناك كانت الكعبة المشرفة.

لماذا يصرُّون على نشر الريب في أن الشمس شمس، ويأبون إلا أن يعلموا الناس أنها قمر، وليست شمسًا؟

عندما يتكلم المنصفون:

ستقول: رأينا أن القرآن يؤثر على عموم الناس، فهل هناك مثال لإنسان صاحب علم واسع مكين أثَّرت فيه هذه الآية المباركة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]؟

وها أنا أجيب طلبتك، وأحقق لك حاجتك، إليك قصة الدكتور الرياضي (**جاري ميلر**)، وهو يذكر عن سبب إسلامه في مقطع مصور منشور على النت أن القرآن يحتوي على معلومات بداخله لا يمكن لعربي أن يعرفها، ولا بد أنه كان يملك مصدر معلومات خارجي يحضر له كل هذه المعرفة، وقد اتهمه بعض أعدائه بالكذب في أنه نبي، واتهمه بعضهم بالجنون، واتهمه آخرون بالسحر، وآخرون بالشعر.. لا يمكن أن تجتمع هذه التهم، فالمجنون واضح، والساحر والشاعر أذكياء دهاة.. هذا دليل على تهافت هذه التهم.

وقد ذكر أنه فوجئ بأن النبي ﷺ عندما كبرت سنه، وصار معظمًا في الأرض له دولته مات ابن صغير له اسمه إبراهيم عن سنتين تقريبًا، وحدث في اليوم ذاته كسوف للشمس، وجاء الناس إلى النبي ﷺ، وانتشرت إشاعات أن السماء أظلمت حزنًا على إبراهيم، فهذه

معجزة، فلو كان مجنونًا أو كاذبًا لاستغل الفرصة، وقال: صحيح هذا من أجل ابني لكنه قال لهم عكس ذلك تمامًا: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا، وَادْعُوا اللهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا**»[(١)].

وذكر (**ميلر**): أن (**إينشتاين**) عرض نظريته في عام١٩٠٥م ثم في عام١٩١٥م، وذكر ثلاث طرق لاختبار صحة نظريته، ونجد القرآن مليئًا بالمطالبة للخلق أن يثبتوا أن هناك ريبًا فيه. أتدري ما صنع؟ لقد استفزه التحدي، فقد قال: "من المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء، أو تقصِّي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها، والعجيب أن القرآن يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه، ولن يجدوا". ويقول - أيضًا- عن هذه الآية: "لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ويؤلِّف كتابًا ثم يقول: هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء، ولكن القرآن على العكس تمامًا يقول لك: لا يوجد أخطاء، بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء، ولن تجد"، وقاده بحثه المنصف إلى الإسلام، وألف على إثر ذلك كتابه (القرآن المذهل).

يقول (ميلر): في عام ١٩٧٨م بعد خمس عشرة سنة من المناقشات مع القسس قررت أن أقرأ القرآن لأنظر هل يستحقُّ القراءة أم لا، وظن أن هذا سيستغرق ثلاث سنين، لكنه استطاع أن يقرأ القرآن بعد ثلاثة أيام، ويختم بالوصية لكل إنسان: لا تغلق عينيك قبل فوات الأوان.

> **القرآن بذاته معجزة يهدي إلى الحق، فلا يحتاج إلى معجزة رديفة لتخبر أنه من عند الله ﷻ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى:** ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

(١) مسلم (٢٠٤٤).

ربما نتساءل: وحتى ندرك معنى هذه الخاصية نتذكر موسى ﵇، فقد احتاج إلى أن يُري فرعون العصا ثعبانًا؛ لتدل على أنه يقول الحق، فهل البينة القرآنية تحتاج إلى معجزة مادية معها ليظهر أنها من الله العلي العظيم؟

الجواب: لا! لأن القرآن بذاته بينة تدل بنفسها على نفسها، فلا عطر بعد عروس

بصيرة: يبصرنا قول الله ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢] **بأن الدعوة إلى الحق بنفس الحق أقوى تأثيرًا وأنجح عملًا دون حاجة إلى معجزة مادية**

والفراهي ﵀ يقول متدبِّرًا: "والكلام إذا كان فيه من نور الحق وسطوته ما يبهر العقول، ويعجز الثقلين عن الإتيان بمثله كان أعظم في صفة التبيان، وإتمام الحجة، ودحض الباطل، فهو نورٌ على نور، وقوة على قوة، فاتضح مما قدمنا أن كون القرآن منزلًا من عند الله تعالى لا يحتاج إلى كونه معجزة، بل كون كتاب الله ظاهرًا بيِّنًا لما فيه من النور والسكينة وبلغ في الصفات مرتبة الاعجاز...

فإن قيل: هذا لا يسكت الخصم. قلنا: وهل أسكته شيء من المعجزات كقلب العصا حيَّة، والماء دمًا، وإكثار القمل والضفادع....

فأما الدعوة إلى النظر والفكر؛ فهي أولى بالإنصاف، وبخطاب الأحرار ليؤمنوا بما اتضح لهم، وبها قد يسكت الخصم، كما في محاجة إبراهيم ﵇ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والحق مهما كان ظاهرًا لابد من التوجه إليه، ومشاهدته ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وإعمال النظر شرطه تصحيح الإرادة، والإرادة لا تصح إلا بالتقوى والرغبة في الخير؛ فإن المستكبر أو الراغب في الشهوات لا يلتفت إلى الحق وإن كان ظاهرًا بيّنًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس ٥-٦].

وهذا أمر معلوم مشهود فإن الغافل والمستكبر إذا مرَّ على الحقِّ أعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]"(١).

إن ما سبق ذكره يقضي بوجوب إعادة الألَق لمجالس القرآن والمركزية لكلام الله تعالى في أنشطة الحياة، وخاصة الحراك التغييري.. انظر كيف تقلَّصت المساحة التي يجب أن تمنح للقرآن المجيد لصالح التنظير الخلو من روح كلام الله وشقشقة الألفاظ والمصطلحات واجترارها.

فـ"مجالس القرآن وتلقي رسالاته هو العمود الفقري لمنهج التغيير والتجديد الفطري القرآني، وهو المجال التطبيقي لفكرة التجديد الفطري على هدى القرآن، وهذا يستلزم وضع دراسات تطبيقية في كتاب الله وتلقيه وتدبُّره ذات طابع تربوي، مع تيسير طرق التدبُّر وبما يكفل وضع منهج وبيان مسالك للتزكية مستوحاة من هدى الآيات"(٢).

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص١٠٠).

(٢) الفطرية لفريد الأنصاري (ص: ٤٠).

الخاصية السادسة: الهداية: فهو الدستور الهادي هداية لا يملكها غيره، فيهدي العالم لينظموا واقع الحياة، ويبصرنا بذلك الجمل الثلاث المكونة للآية الثانية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [البقرة: ٢]

كلمة ﴿هدى﴾ تصف الكتاب، فقول ربنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، يمكنك أن تقول في إعرابها: (ذلك) مبتدأ، و(الكتاب) خبر، وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ الجملة في محل نصب حال، أو خبرٌ ثانٍ، وقوله: ﴿هدى﴾ خبر ثالث.. والأخبار تصف القرآن، فصارت كلمة ﴿هدى﴾ بذاتها وصفًا لواقع القرآن

ربما نتساءل: ولكن هل تدري ماذا تعني كلمة ﴿هدى﴾؟ وهل جال بفؤادك لماذا اختارها الله ﷻ لتكون خبرًا عن القرآن؟

الجواب: كلمة ﴿هُدى﴾ تبصرنا بأن هناك من يتقدمك ليرشدك، ويبعثك بعده بلطفٍ، فيقال: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ نسميه هَادِيًا، ومنه قول امرئ القيس:

فَأَلْحَقَنَهُ بالهادياتِ ودونهُ جواحِرُها في صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ(١)

والهاديات: السوابق المتقدمات، وجواحرها: اللواتي قد تخلفن، ومن ذلك قول الأعشى:

إذا كانَ هَادِي الفَتى في البلا دِ صَدْرَ القَنَاةِ أطَاعَ الأمِيرَا(٢)

قال أبو عبيد ؒ: سمَّى الْعَصَا هاديًا لِأَنَّهُ يُمسكها بيَدِهِ، فَهِيَ تهديه: تتقدَّمه، وَقد يكون من الهِداية – أَي إنها تدلُّه على الطَّرِيق، وَكَذَلِكَ الدَّلِيل يُسمى هاديًا؛ لِأَنَّهُ يَقْدُم الْقَوْم ويتبعونه، فيهْدِيهم للطريق(٣)، ولعل معنى قوله: "أطاع الأميرا": أي صار مأمورًا بعد إذ كبِرت سِنُّه(٤).

---

(١) ديوان امرئ القيس (ص٢٢). والبيت في معلقته.

(٢) ديوان الأعشى (ص١٤٦).

(٣) غريب الحديث للقاسم بن سلام (١/ ٢٥٢).

(٤) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ٤٢، ٤٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٢٩٣، ٢٢٩٤).

ولا بد للـمُهْتَدِي ممن يهتدي به فيكون المهتدي خَلْفه، ويكون الهادي أمامه نحو: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] تنبيهًا أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالِم.

فكلمة (هُدى) جاءت إخبارًا عن القرآن لتحوي معنى ضخمًا، فالقرآن هو الدليل المرشد الذي يأخذ بيدك، وبيد الإنسانية نحو وجهة واضحة محدَّدة، ويكشف عنها كما يكشف النهار عن وجه الأرض، ولذا يُسمَّى النهار الهُدَى: كضحَى، لأن ضوءه يكشف الوجهة، وَمِنْه قولُ ابْن مُقْبل:

حَتَّى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجِمةٌ ... يخْشَعْنَ فِي الآلِ غُلْفًا أَو يُصَلِّينا[1]

والقرآن يهدي الطالبين الهدى بلطف، ويأخذ بأيديهم بحنان ورفق، وإن زلوا أو سقطوا أو تثاقلوا فإنه يهاديهم ليقفوا كما يهادى المريض بين رجلين يحملانه ويعينانه.

وعندما تدبَّر الدكتور سعيد بن دحباج هذا المعنى حدا به الحادي، فأنشأ قائلًا:

إِنْ تَاهَتِ الخُطُواتُ فِي سُبُلِ الرَّدَى ... فَلَنَا مِن الذِّكْرِ الحَكِيمِ سَبِيلُ
أَوْ ضَلَّتِ الأَقْدَامُ عَنْ دربِ الهُدَى ... فَكِتَابُنَا لِلسَّائِرِينَ دَلِيلُ
أَوْ زَاغَتِ الأَبْصارُ وانقطعَ الرَّجَا ... فَهْو المَلاذُ إلى حِمَاهُ نمِيلُ
فيهِ الهُدى منهُ التُّقى وبهِ النَّجَا ... وكتابُ ربِّي بالفلاحِ كَفِيلُ

ويطرح الراغب ﷺ هذا السؤال: إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]؟

(١) ديوان ابن مقبل (ص: ٢٢٩).

الجواب: ولا يتركك الراغب رحمه الله في حيرة من أمرك فيجيبك بأن ذلك من قبيل استعمال اللفظ على سبيل التَّهَكُّم كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١](١)، ومثله قول عمرو بن معديكرب:

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهُ بِخَيْلٍ ... تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضربٌ وجيعُ(٢)

ولعلك قد تتساءل فما الذي يقتضيه أن يكون القرآن هدى؟

أجيبك بأنه يقتضي أن يكون القرآن هو الإمام لي ولك وللإنسانية ليأخذ بأيدينا إلى الأهداف العظيمة في الدنيا والآخرة، ويصوِّر النبي ﷺ ذلك تصويرًا بديعًا، فيروي جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**القرآن مُشَفَّع، وماحل مصدَّق، من جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار**»(٣).

النبي ﷺ والقرآن الهاديان العاصمان:

أن يكون القرآن ﴿هدى﴾ يقتضي وجوب تطبيق أحكامه، والتزام مضامينه وقواعده وأعلامه، وعندما تجمع بين وصف الله تعالى للقرآن بأنه هدى، ووصف النبي ﷺ بأنه هاد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فهذا يعني:

١) أن تجعل القرآن رائدك الهادي في سكوتك وكلامك.. في بيعك وشرائك.. في ذهابك وإيابك.. في مالك وأسرتك.. في تعاملك وتناولك وأخذك وعطائك.. في قراراتك الصغيرة

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (ص: ٦٠).

(٢) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن معديكرب في ديوانه (ص: ١٤٩).

(٣) ابن حبان (١٢٤)، وجوَّد إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (٢٠١٩)، و(ماحل): أَيْ خَصْمٌ مجادَل مصدَّق، وَقِيلَ: ساعٍ مُصدَّق، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَحَلَ بفُلان، إِذَا سَعَى بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠٣).

والكبيرة، هدى أي هو بيانٌ، وإرشاد، ونورٌ وصلاحٌ وتثبيتٌ للمتقين.. إنه يحمل الأنوار الهادية في القضايا الفردية والجماعية والعالمية المتشابكة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

٢) أن ترجع في فهمك للقرآن إلى الهدي النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام.

٣) ألا نلتمس الهدى من المناهج البشرية الغربية ولا الشرقية إلا بالقدر الذي يكون فيه القرآن هو الأول دراسةً واستنارةً وهيمنة.. هنا تعلم لماذا قال (فانسان مونتيه) أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي في جامعة باريس: "إن مَثل الفكر العربي المُبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل أُفرغ من دمه!"[1].

٤) ألا نبحث عن الهدى عند الرجال الذين انفكوا عن الكتاب، سواء أكانوا أمراء، أم علماء، أم ساسة، أم مثقفين، ونزعم لهم العصمة، فهذا هو محض الضلال، وإنما نستمع لهم بقدر ما يستدلون بالهدى القرآني، ويعتمدون على البيان النبوي.

وكم يؤلمك أن تقرأ أو تسمع لبعض رموز التيارات الإسلامية الفكرية المعاصرة وهم يحتفون بعصارات الأفكار البشرية والنظريات والأقوال المنسوبة لمدارس ورؤوس الفكر والتنظير في الشرق والغرب وهم مع ذلك في فقر مدقع من كلام الله وهدى وحيه!

٥) القرآن هُدى يحتاج لهداه العالم كله، ويكفي أن نأخذ هذا المثال اليسير فعندما اعترف العالم بحاجتهم إليه لمعالجة الاقتصاد العالمي حين عصفت بهم الأزمة الاقتصادية عام ٢٠٠٨م، فاعترف الفاتيكان بالحاجة إلى الاقتصاد الإسلامي المنبعث من القرآن العظيم، وذلك في المقال الذي نُشر في السابع من آذار (٢٠٠٩م)، في صحيفة الفاتيكان الرسمية

---

(١) القرآن الكريم من منظور غربي، عماد الدين خليل (ص: ٧٨).

(أوسرفرتورو رومانو)، داعيًا البنوك في مختلف أنحاء العالم إلى أن تتبنى مبادئ المصرفية الإسلامية لاستعادة الثقة بالاقتصاد العالمي.

ولما قرأ الدكتور سعيد بن دحباج ما سبق، نادى قائلًا:

يا عُصْبةَ القرآنِ أنتمْ في الدُّجَى ... نورٌ يضِيءُ وللظلامِ يُزيلُ
إنْ عَمَّ ديجورُ الضَّلالِ بأُمَّتي ... بكتابِ ربِّي أنتم القنديلُ
منْ ظَنَّ هَديًا في سواهُ وشِرْعَةً ... فَقَدِ افتَرَى وكلامُهُ تَضْلِيلُ
أوْ ظَنَّ عزًّا في سواهُ ورفْعَةً ... قولوا له بسواهُ أنتَ ذليلُ

٦) إنه القرآن: الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ ليبث به النور في العالم.. شعور شعر به النابغة الجعدي فقال:

أتيتُ رسولَ اللهِ إذْ جاءَ بالهدى ... ويتلو كتابًا كالمجرَّةِ نَيِّرا
أُقِيمُ على التقوى وأرْضَى بفعْلِها ... وكنتُ من النارِ المخوفةِ أحذرا (١)

وهنا قد تتطلع لمعرفة الوقف أيكون على كلمة ﴿فيه﴾، أو على كلمة ﴿لا ريب﴾؟

وجوابي -سددك الله وأرشدك- أن الأمر حسبما سمعتَ فإنك تراني أتجه إلى أن قوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ ينبغي أن تقف فيه عند كلمة ﴿فيه﴾، ومجموعها ﴿لا ريب فيه﴾، وأن البينة التي بعدها تبدأ بكلمة ﴿هُدى﴾ ومجموعها ﴿هدى للمتقين﴾، ولا أميل إلى قول من جعل كلمة ﴿فيه﴾ متنازعًا عليها بين الجملتين، ويقرِّر هذه البصيرةَ القرآنيةَ الفراهيُّ رحمه الله بأبدع بيان، فيقول: "واعلم أن الله تعالى كلما ذكر الهدى في وصف القرآن لم يقل إلا أنه "هدى"، لا أن فيه هدى وبينهما فرق ظاهر، وترى رعاية هذا الفرق حين وصف الله عز وجل

(١) ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: الدكتور واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، (ص: ٥٦، ٧٨).

التوراة والإنجيل بكلا الطريقين: أي أنهما هدى وفيهما هدى، ومن هنا تبيَّن أن من قرأ ﴿لا ريب. فيه هدى للمتقين﴾ فقد أبعد من جهة المعنى أيضًا؛ لاختياره ما هو أدون مدحًا ولِما جاءت النظائر بخلافه"(١).

ولا يخفاك أن ترجيح الفراهي رحمه الله هنا باعتبار معهود القرآن وعادته، وهو مرجِّح معتبر قوي، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والواجب على من أراد أن يعرف مراد المتكلم، أن يرجع إلى لغته وعادته التي يخاطب بها، لا نفسِّر مراده بما اعتاده هو من الخطاب، فما أكثر ما دخل من الغلط في ذلك على من لا يكون خبيرًا بمقصود المتكلم ولغته"(٢).

الخاصية السابعة: الكتاب يعطي قوته للمتقين لا للكافرين ولا للمتلاعبين، ولا للمبعِّضين، ويبصرنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فالتقوى شرط للانتفاع التامِّ بالقرآن.

القرآن بيان الله ﷻ الذي يشرق على العالم، فيهديه، ويختلف حجم المساحة التي تنيرها إشراقات المعرفة القرآنية في الأفراد والدول حسب اختلاف الناس واستعداداتهم في استمداد هداية القرآن الكريم؛ ولا يجد القوة الكاملة التي يمنحها القرآن للعالم إلا المتقون، لأنهم يتقون الله تعالى في كلِّ لحظاتهم.

المحرومون من أنوار القرآن وألطافه:

قد يتبادر إلى ذهنك سؤال مفاده: فمن الذين لاينتفعون بقوة القرآن، ومجده؟

والجواب البديهي عن هذا السؤال أن الذين لا ينتفعون بالقرآن هم من يقابل المتقين، وهم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الكافرون به، لأنهم يحاربونه.

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ٧١).

(٢) الصفدية لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٢/ ٨٤).

الصنف الثاني: المتلاعبون به؛ لأنهم يستخدمون آياتِه لاتخاذ الحياة عوجًا فيتلاعبون به، ويدمِّرون حياتهم، وحياة غيرهم.

الصنف الثالث: المُبَعِّضون: لأنهم يطبِّقون بعضًا يوافق أهواءهم، ويتركون أبعاضًا لا توافق أهواءهم.

فيا بؤسًا لهؤلاء المخدوعين! عندهم النور التام، والهدى الكامل، والدستور الكافي الوافي، ثم هم يتنكرون له، ليعيشوا الخواء والفاقة والظمأ في أفكارهم وأرواحهم.

كالعيسِ في البيداءِ يقتلها الظما   والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

ولكن يا ترى ما المناسبة والاتصال بين هذه الجملة ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، والتي قبلها ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾؟

الجواب: تأتي هذه الجملة لتبين لنا أسلوبًا لافتًا من أساليب الاتصال ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣] فكانت جملة ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ معبِّرة عن اتصالها بما قبلها وما بعدها مؤثِّرة في المعنى عليهما معًا بصورةٍ بيانية مدهشة، فإنه يصحُّ أن تجعلها خاصية من خصائص القرآن الكريم، ولك أن تجعلها في الوقت ذاته بداية كلام لبيان المنتفعين بالكتاب **الذي لا ريب جوابًا عن سؤال لا بد منه**: **إذا كان لا ريب فيه، ألا يقتضي ذلك أن يخضع له الجميع؟** **فيجيء الجواب**: بل هو هدى للمتقين، وبقدر التقوى تكون الهداية.

ليس كلُّ من رأى الحق أذعن له، ولا كلُّ من علم الحقيقة اعترف بها.. الخلل ليس في الكتاب الذي لا ريب فيه بل في المحلِّ الذي يستقبله.. غَلَبَه المرض فلم يعترف به، بينما صفت قلوب المتقين فلم تكتف بالاعتراف به حتى انتفعت به، فصار هدى لهم.

ولما تأمل الدكتور سعيد بن دحباج هذا الكلام جادت قريحته بهذه الأبيات:

يا بَارِكَ الرحمنُ في قومٍ لهمْ ... بالذكرِ شُغْلٌ والهدى ترتِيلُ
قومٌ على الآياتِ أحْيَوا ليلَهمْ ... ولهم بها كَلَفٌ كذاكَ طويلُ
جعلوا كتابَ اللهِ أنْسَ حياتِهم ... فالذكرُ عنْهمْ طيِّبٌ وجَمِيلٌ
فازوا برضوانِ الإلهِ فأجرهمْ ... عند الكريمِ مضاعفٌ وجزيلُ

وربما تساءلت: لماذا قيَّد هدى القرآن بأنه للمتقين؟ أليس القرآن هدى للناس أجمعين؟

الجواب: بلى هو هدى للناس أجمعين، ولكن مرتبة الهداية تختلف من فرد إلى آخر من الناس:

فالمرتبة الأولى: مرتبة الناس أجمعين، حيث تسمع الإعلام الإلهي عن كون القرآن هدى لهم في قول الله ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالهدى هنا يعني أن القرآن:

يبيِّن ويدُّل ويرشد البشرية إلى مصالحهم الحقيقية، فإن علموها فعسى أن يقوموا بها.

ويبيِّن ويدُّل ويرشد البشرية إلى الأمور التي تفسد حياتهم عسى أن يتركوها.

يعلِّمك الله ﷻ أن القرآن هو النور الهادي المشرق على الحضارة المؤدي إلى إقامة العدل بين بني الإنسان فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

إنه نور المعرفة القرآنية يشرق على الإنسانية، فتشعُّ أنواره، ويظهر ضياؤه في جميع شئون الحياة.

ربما نتساءل: وإذا كان القرآن نورًا، فلِم نرى بعض الناس لا يبصره، ولا يعترف به؟

الجواب: أما الذي يقبل على القرآن بقلب مفتوح فإنه يرى النور فيه بارزًا ثم لا يلبث حتى يُسَلِّم قياده له كما فعل عتاة الكافرين، وصناديد المشركين.. ما إن استمعوا القرآن حتى ردَّدوا فيه بلسان حالهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن١، ٢].

أما أصحاب القلوب المقفلة فتراهم أمام هدى القرآن على صنفين:

صنفٌ منهم يقف على الحياد، فلا يلتفتون إلى الخطاب القرآني، بل يعرضون عنه كأن لم يسمعوه، فلا ينتفعون به.

وصنفٌ يصرِّون على محاربته، وكلا الصنفين يكون القرآن عليهم عمى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ربما نتساءل: نأتي إلى موضع ذَكَر الله فيه أن القرآن هدى للمؤمنين، فلم يقيده بالمتقين، ولا بالناس أجمعين، فما معنى ذلك؟

الجواب: هذه هي المرتبة الثانية: مرتبة المؤمنين، وهم الذين ينتفعون بالقرآن لكن ذلك الانتفاع يتفاوت حسب مقدار الإيمان، ويصف الله ﷻ التأثير القرآني على المؤمنين، فيقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، **والهدى للمؤمنين بمعنى الانتفاع الجزئي الفردي أو الجزئي الجماعي، وبين الله تعالى الفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها فقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ٥٧].

كأنك ستسأل: فما الفرق بين كون القرآن هدى للمؤمنين، وكونه هدى للمتقين؟

سيتضح لك الجواب عن هذا السؤال في المرتبة الثالثة:

الجواب: هذه هي المرتبة الثالثة: مرتبة المتقين، وهي المرتبة العليا، فتقرِّر هذه الآية المباركة: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، شيئًا عظيمًا لا بد أن يوجد في الواقع السياسي والواقع الثقافي والواقع العام، وهو أن نطبِّق القرآن في الظواهر والبواطن، في الكليات وفي الجزئيات، في الأمور الشخصية وفي الأمور العامة في الفرد وفي الدولة.

لقد بعث قوله تعالى: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ابن عاشور رحمه الله إلى أن يرى آيات القرآن هادية دائمة تفتح للمتقين أبوابًا جديدة من الهداية، فقال: "فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفي سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم.... ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن"[١].

فبقدر الاستقامة على المنهج القرآني يتمُّ الانتفاع بالقرآن، والمتقون صنفٌ خاص من المؤمنين إلا أنهم أعظم المؤمنين به انتفاعًا، وله استماعًا، حيث يستمدون منه هداياتهم في الأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولذا ينبغي أن تكون أهمُّ الأهداف التي يجب أن تحرص عليها الحكومات المسلمة: العملَ على إيصال المجتمع إلى مرتبة التقوى.

فهو بذلك ليس مصدر هدايةٍ حقيقيةٍ **للكافرين ولا للمتلاعبين** ولا للمدَّعين المبعضين.

لا يمكن أن يكون هدى ينقل البشرية من ظلمات الفساد إلى نور الحياة الحقيقية الصالحة إلا عندما نأخذه كله.. عندما يتم الانتفاع الكلي الفردي أو الجماعي وهو الانتفاع الذي يصحبه التوفيق ما دام القرآن هو مصدر الفكر والاندفاع، وهو أساس العلم والاتباع، كما **قال**

---
(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٧).

ابن القيم رحمه الله: **"أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمله تبصُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه"**[1]، بينما غير المتقين لا ينتفعون به إلا في حالاتٍ جزئية، ولو كانوا من المسلمين، فهذه أعلى المراتب.

لا تتعجل وتأمَّل في البصائر التي يحبونا بها هذا البيان الإلهي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد تقف متدبرًا فتسأل: لماذا وصف الله القرآن بأنه ﴿هدى﴾، ولم يأتِ بوصفه باسم الفاعل، فيقول: (هاديًا)؟

والجواب عن هذا يعدنا ببصيرة عظيمة القدر جليلة الفائدة وهي: أن وصف القرآن بالمصدر (هدى)، وليس باسم الفعل (هاديًا)، وصف قانوني يبصِّرنا بأنه هدى في حروفه وكلماته وترتيبه ومعانيه وقوانينه. يحثُّ العالم بذلك على أن يجعلوه هداهم في كلِّ جزئية من جزئيات الحياة الفردية والجماعية الخُلُقية والسياسية؛ لأن المصدر يحتمل الماضي والمضارع -الحال- والمستقبل:

إذ يظهر من خلال الوصف بالمصدر ثلاثة معانٍ:

المعنى الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقُرْآنَ هُدًى فِي زَمَنِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ بِالْمَصْدَرِ عِوَضٌ عَنِ الْوَصْفِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ، وَزَمَنُ الْحَالِ هُوَ الْأَصْلُ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ، أَيْ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ نَزَّهَ نَفْسَهُ وَأَعَدَّهَا لِقَبُولِ الْكَمَالِ يَهْدِيهِ هَذَا الْكِتَابُ، أَوْ يَزِيدُهُ هُدًى.

المعنى الثَّانِي: أَنَّهُ هُدًى فِي الْمَاضِي، أَيْ حَصَلَ بِهِ هُدًى، أَيْ بِمَا نَزَلَ مِنَ الْكِتَابِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْمُتَّقِينَ مَنْ كَانَتِ التَّقْوَى شِعَارَهُمْ، أَيْ أَنَّ الْهُدَى ظَهَرَ أَثَرُهُ فِيهِمْ فَاتَّقَوْا، وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ مَدْحًا لِلْكِتَابِ بِمُشَاهَدَةِ هَدْيِهِ، وَثَنَاءً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧).

المعنى الثَّالِثُ: أَنَّهُ هُدًى فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِلَّذِينَ سَيَتَّقُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِقَرِينَة الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ مُعَيَّنٍ.

فَحَصَلَ مِنْ وَصْفِ الْكِتَابِ بِالْمَصْدَرِ مِنْ وَفْرَةِ الْمَعَانِي مَا لَا يَحْصُلُ، لَوْ وُصِفَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ فَقِيلَ: هَادٍ لِلْمُتَّقِينَ، فَهَذَا ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَنْوِيهٌ بِهِ وَتَخَلُّصٌ لِلثَّنَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهَدْيِهِ، فَالْقُرْآنُ لَمْ يَزَلْ وَلَنْ يَزَالَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فَإِنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ هِدَايَتِهِ نَفَعَتِ الْمُتَّقِينَ فِي سَائِرِ مَرَاتِبِ التَّقْوَى، وَفِي سَائِرِ أَزْمَانِهِ وَأَزْمَانِهِمْ عَلَى حَسَبِ حِرْصِهِمْ وَمَبَالِغِ عِلْمِهِمْ وَاخْتِلَافِ مُطَالِبِهِمْ، فَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهَدْيِهِ فِي الدِّينِ، وَمِنْ مُنْتَفِعٍ فِي السِّيَاسَةِ وَتَدْبِيرِ أُمُورِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ، وَمِنْ مُنْتَفِعٍ بِهِ فِي التَّشْرِيعِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَكُلُّ أُولَئِكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَانْتِفَاعُهُمْ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَبَالِغِ تَقْوَاهُمْ[١].

إذًا فالقرآن كتاب «الزمان كله»، بمعنى أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل من الأجيال، ثم ينتهي أمده[٢].

وجمع الله ﷻ بين المرتبتين الأولى والثالثة فقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فهو بيان للناس أجمعين إلا أن المنتفعين به هم المتقون.

ولك أن تجمع بين الآيتين بأن تقول: جعل الله ﷻ المتقين هم الذين يستحقون أن يوصفوا بالإنسانية الحقة، فكلمة (متقين) هنا تساوي كلمة الناس في: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وذلك لاتباعهم منهج الرحمة بالعالمين، وحبهم للحق، وشفقتهم على الخلق.. إنهم البشر الحقيقيون، وكأن ما عداهم دواب من الدواب أو طين من التراب، أو مخلوقات تتخذ من التوحش منهجًا، ومن الجور والظلم أصلاً.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، (ص: ٧٥).

وفي هذا يقول الرازي ﵀: "ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلا ما في قوله تعالى: ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ كفاه، لأنه تعالى بين أن القرآن هدى للناس في قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدَى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال هاهنا في القرآن: إنه هدى للمتقين، فهذا يدلُّ على أن المتقين هم كلُّ الناس، فمن لا يكون متقيًا كأنه ليس بإنسان"[١].

ويظهر أننا بحاجة لمراجعة هذا التقرير من الرازي ﵀، وذلك لأن إسناد الهدى للمتقين يدلُّ على معنى يختلف عن المعنى الذي لأجله أُسند الهدى للناس.

لكأنك قد تتساءل عن جمال التعبير القرآني فتقول: لماذا قال الله ﷻ: ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؟ كيف يكون القرآن هدى للمتقين؟ فالقرآن إذا كان هدى لمن كان على التقوى من قبل كان تحصيلًا للحاصل؛ لأنهم إذا كانوا متقين فقد اهتدوا، فما السبب الذي لأجله جعل الله القرآن هدى لهم؟

الجواب: يطرح الفراهي ﵀ هذا السؤال، فتعال نشاركه توضيح الإجابة عليه:

أولًا: لـمَّا قال الله ﷻ: ﴿هدى﴾ علمنا أن القرآن: بيان ودليل ومرشد وناصح، لكن اللام في قول الله ﷻ: ﴿للمتقين﴾ تخبرنا أن هذه الهداية لا يستحقُّها ولا يختصُّ بها إلا المتقون، فاللام للاستحقاق والاختصاص، أما اللام في قوله: ﴿هدى للناس﴾ فلانتهاء الغاية وللتعليل، أي القرآن هدى ليتخذه الناس هدى، فمنهم من اتخذه كذلك، ومنهم من رفضه، فالمتقون هم الذين اختصوا به واستحقوه، وأول درجات استحقاقهم للهدى أنْ نظروا فيما جاءهم به فآمنوا به واتبعوه، ومن أهمِّ ذلك: أنهم يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٦٨).

ثانيًا: وصفهم بالمتقين باعتبار استعدادهم ليصلوا إلى مرتبة التقوى باتباع الهدى القرآني، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ٦٩]، ووصفهم بالمتقين لأنهم يطبِّقون الصفاتِ الخَمْسَ التي سيذكرها لهم.

وكلا السببين صحيح؛ فالقرآن كان هدى لهم عند استعدادهم للتقوى، وبقي هدى لهم يزيدهم تقى بعد ذلك.

فالعلاقة بين التقوى والهداية علاقة طردية؛ لأن كلًّا منهما مراتب، فنوع من التقوى يكون شرطًا للاهتداء بالقرآن، ونوعٌ منها يكون نتيجة للاهتداء به، ونوعٌ ثالث يكون سببًا لمزيد الهدى، وكلما زادت التقوى زاد الهدى، وكلما ازداد الهدى زادت التقوى.

الجُمَل الأربع والاتصال البديع:

فإن قلت: فكيف ظهر الاتصال المنطقي المدهش بين الجمل الأربع المكونة للآيتين الأوليين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]؟

الجواب: الاتصال والتناسب بين هذه الجُمَل الأربع أجلى ما يكون وضوحًا، وكلُّ ذلك يؤكِّد لنا مقدار الإحكام في الترتيب القرآني، حيث جاءت هذه الجُمَل متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلمَّ جرًّا إلى الثالثة والرابعة:

فقد ذكر الله تعالى[1] **أَوَّلًا**: أَنَّ القرآن هو الْكَلَامُ الْمُتَحَدَّى بِهِ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، فهذا تَسْجِيلٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَإِنْحَاءٌ عَلَى عَامَّةِ الْمُشْرِكِينَ عجزهم عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنْ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ، وَكَفَى بِهَذَا نِدَاءً عَلَى تَعَنُّتِهِمْ.

---

(١) الفكرة هنا منقولة من الزمخشري والطاهر الذي استفاد منه وبنى على كلامه. ينظر: الكشاف (١/ ٣٧)، التحرير والتنوير (١/ ٢٢٧).

ثم ذكر **ثانيًا**: بِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْمَنْعُوتُ بِغَايَةِ الْكَمَالِ لزيادة التَّحَدِّي ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، وفي ذلك فخامة في التعريف في الوقت ذاته، وتَنْوِيهٌ بِشَأْنِهِ، وَأَنَّهُ بَالِغٌ حَدَّ الْكَمَالِ فِي أَحْوَالِ الْكُتُبِ، فَذَلِكَ مُوَجَّهٌ إِلَى الْخَاصَّةِ مِنَ الْعُقَلَاءِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا كِتَابٌ مُؤَلَّفٌ من حُرُوف كلامكم، وَهُوَ بَالِغٌ حَدَّ الْكَمَالِ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ، فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُوَفِّرُ دَوَاعِيَكُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَالِافْتِخَارِ بِأَنْ مُنِحْتُمُوهُ، فَإِنَّكُمْ تَعُدُّونَ أَنْفُسَكُمْ أَفْضَلَ الْأُمَمِ، فَكَيْفَ لَا تُسْرِعُونَ إِلَى مُتَابَعَةِ كِتَابٍ نَزَلَ فِيكُمْ هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ؟ فَوِزَانُ هَذَا وِزَانُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وَمُوَجَّهٌ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِيقَاظِهِمْ إِلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِمَّا أُوتُوهُ.

ثم ذكر **ثالثًا**: أنه قد انتفى عَنْهُ الريب والشك والتهمة، فَكَانَ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ، فَإِنْ كَانَ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: (لَا رَيْبَ) تَعْرِيضٌ بِكُلِّ الْمُرْتَابِينَ فِيهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَيْ أَنَّ الِارْتِيَابَ فِي هَذَا الْكِتَابِ نَشَأَ عَنِ الْمُكَابَرَةِ، وَأَنْ (لَا رَيْبَ) فَإِنَّهُ الْكِتَابُ الْكَامِلُ، وَإِنْ كَانَ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ﴾ كَانَ تَعْرِيضًا بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي تَعَلُّقِهِمْ بِمُحَرَّفِ كِتَابَيْهِمْ، مَعَ مَا فِيهِمَا مِنْ مَثَارِ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ مِنَ الِاضْطِرَابِ الْوَاضِحِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ صُنْعِ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

ثم ذكر **رابعًا** المنتفعين به فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مبينًا سبب عدم الانتفاع به من قبل من اتخذ منه موقفًا معاديًا أو محايدًا..

أعد النظر في الجمل السابقة لتراه نبه أولًا على أن القرآن هو الكلام المتحدّى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريرًا لجهة التحدي، وشدًّا من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلًا بكماله، لأنه لا كمال أكمل

مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: **فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر اتضاحًا، وفي شبهة تتضاءل افتضاحًا**. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرَّر بذلك الجهة الحقيقية التي تنتفع به حتى يقال هناك الكثير ممن يعيش في البشرية دون توجيهات الكتاب[1].

هنا ترى الأمجاد، وتدرك –أيدك الله– لماذا كانت هذه المقدِّمة لهذه السورة المباركة؟ فالله ﷻ أراد أن يذكر الهدف العظيم من إنزال القرآن، وهو أنه أساس جميع ما تحتاج إليه البشرية من سعادةٍ في الدنيا والآخرة، وها هو أبو شريح الخزاعي رضي الله عنه يروي لنا بُشرى النبي ﷺ لنا بما يحويه القرآن المجيد من الكنز العظيم؛ حيث يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**أبشروا وأبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»؟ **قالوا: نعم، قال**: «**فإن هذا القرآن سبب طَرَفه بيد الله، وطَرَفه بأيديكم، فتمسَّكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا**»[2].

(١) أشار إلى أصل هذه البصيرة الزمخشري وفق تعبيره الأنيق السري في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٦)، ثم قال بعد أن تأنق وأورق: "زادنا الله اطلاعًا على أسرار كلامه، وتبيينًا لنكت تنزيله، وتوفيقًا للعمل بما فيه".

(٢) صحيح ابن حبان (١٢٢)، وصحَّحه الألباني، وحسَّن الأرناؤوط إسناده.

المقدمة الثانية

التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة (القرآن)

[البقرة: ٢ - ٢٠]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

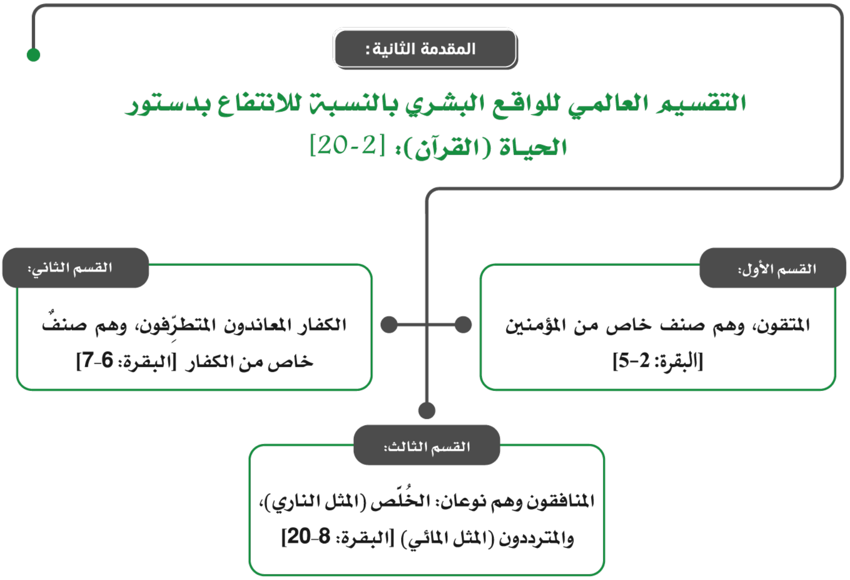

مفصل سورة البقرة (1)

المناسبة والاتصال:

ستسأل: ما العلاقة بين المقدمة الأولى والمقدمة الثانية من سورة البقرة؟

الجواب: التناسب بين المقدمتين وثيق مُحكَم، فهذه المقدِّمة تبدأ من قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فبعد معرفة خصائص الكتاب العظيم في المقدِّمة الأولى يأتي السؤال:

ما حال العالم في التعامل مع ذلك الكتاب العظيم المكانة؟ وكيف يتفاعل البشر معه؟ وما صفات من ينتفع به؟ ومن الذين يعملون ضده؟

هنا تأتي الإجابة في الآيات من (٢-٢٠) من هذه السورة المباركة لتبين التقسيم العالمي الحقيقي للناس، فتنص على من يريد الهداية والفلاح للعالم، ومن يعمل ضد المصالح البشرية، ويحاول حرمانها من الانتفاع بكتاب الهداية الحقيقية، وهو التقسيم الذي يجب بناء العلاقات المحلية والدولية وفقه.

إنه التقسيم الذي ينبغي أن يكون حاضرًا في العقلية المسلمة عند التعامل مع العالم، واعتماد هذا التقسيم يقوِّي الأمن القومي الإسلامي، ويجعله عصيًّا على الاختراق والكذب والاختلاق. أَوَلَا ترى أنه لإزاغة عقول المسلمين عن هذا التقسيم تمَّ اللجوء إلى تقسيم العالم على أساس التراب محضًا دون إضافة أي اعتبارات أخرى مثل الدِّين؟ ألا ترى كيف تم افتعال الحدود المعاصرة وفق خطط خارجية باتت تعرف باتفاقيات (سايكس بيكو) وما تلاها؟

القسمة الثلاثية لخريطة العلاقات العالمية:

فلننظر الآن فيما تقدمه لنا المعرفة القرآنية في سورة البقرة حول ذلك، فهذه الآيات تقدِّم لنا خريطة عالمية تبرز أهمَّ الأصناف الفاعلة المكونة لهذا العالم في النواحي الإيجابية والسلبية، ولا يعني أنه لا توجد أصناف غيرها؛ إذ سيأتي ذكرهم لاحقًا، فالمستقرئ للسورة يجدها ذكرت سبعة أقسام ومجموعات بشرية تكوِّن العالم الإنساني، وقدمت ذكر أهم هذه الأقسام، وبناء على ذلك يرسم المسلم لنفسه طريقة في التعامل مع هذه الفئات بعد فهم نفسياتها، ومعرفة طرائق تفكيرها:

فالصنف الأول: المتقون، وهم صنف خاص من المؤمنين [الآيات٢-٥].

والصنف الثاني: الكفار المعاندون، وهم صنف خاص من الكفار [الآيتان٦-٧].

والصنف الثالث: المنافقون [الآيات٨-٢٠]، وهم نوعان: الخُلَّص (وضرب الله ﷻ لهم المثل الناري)، والمتردِّدون المراوغون (وضرب الله ﷻ لهم المثل المائي).

وربما تتساءل: لماذا ذكر الله ﷻ هذه الأقسام الثلاثة دون سواهم من أصناف الناس في المقدمة الثانية من مقدمتي سورة البقرة؟

والجواب: لأنها تمثِّل الأقسام النَّشِطة المؤثِّرة على بقية العالم:

قِسم منها يتولى تعريف العالم بنور القرآن، ونشره في الأرض، وهو قسم المتقين[1].

وقِسمان متطرفان في حربهما للقرآن.. إنهما لا يكتفيان بعدم اتِّباع الخير الذي يدعو الله ﷻ له في القرآن، بل إنهما يقومان بجهود هائلة في حربهما غير المظفرة ضِدَّ القرآن، وهذان الصِّنفان هما: الكفار المحاربون المعاندون، والمنافقون المفسدون.

ينتمي لهذين الصنفين فئات متعددة بعضهم ظاهريًّا ينتمي للمسلمين، وبعضهم ظاهريًّا ينتمي لأهل الكتاب، لكن هذا التقسيم هو الذي يضع الأمور في نصابها، ويقيمها على حقائقها.

(١) هنا تراني أخالف بعض المفسرين الذين جعلوا المتقين بمعنى المؤمنين مثل قول البغوي في تفسيره١/ ٨١: «﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أَيْ: للمؤمنين»، ومثل قول ابن كثير (١/ ١٦٣): «وَخُصَّتِ الْهِدَايَةُ للمتَّقين؛ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٨٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفْعِ بِالْقُرْآنِ"، ومثل قول سيد في ظلاله (١/ ٣٠): «ولكنها تصف أولا ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة". فما قرَّروه يخالف أصولًا من أصول التفسير: فالأصل توفير المعاني، وعدم تكريرها، والأصل تكثير المعاني، وعدم ترادفها، والأصل إحكام القرآن وعدم رصِّ الكلمات دون قصد الإتقان، والأصل أن لكل كلمة حكمتها في لفظها وموضعها، فكلُّ ذلك من أعظم ما يمدح به البلغاء، فكيف في كلام أحكم الحكماء، وقد تبدو الحكمة في ذلك لمن يفتح الله تعالى له، وقد تخفى فيراها تفننًا في الكلام فحسب، ومنهجنا في البصائر يسير على غير ذلك.

هنا ترى كلمات القرآن تحرِّك الحياة.. هنا يتنفَّس الواقع من رؤية القرآن.. هنا تجد الأفراد يعيشون برؤية القرآن.. هنا تزهر الأرض من بصائر القرآن.

كلُّ قِسم من الأقسام الثلاثة يمثِّل مجموعات كبيرة من البشرية الممتدة في الأرض.. كل منها يعبِّر عن فكر متأصِّل عند فئات هائلة من الإنسانية تتكرَّر "في كلِّ زمان ومكان حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة.. وهذا هو الإعجاز.. في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة، نابضة بالحياة، دقيقة السِّمات، مميزة الصِّفات. حتى ما يبلغ الوصف المطوَّل والإطناب المفصَّل شيئًا وراء هذه اللمسات السريعة المبينة، الجميلة النَّسَق، الموسيقية الإيقاع"[(١)].

وربما سألتني فقلت: هل ذكرت في سورة البقرة أقسامٌ أخرى يتكون منها هذا العالم الإنساني؟

وأجيبك أن نعم! ذكر الله عَجَّلَ أقسامًا عالمية أخرى ربما رجعت إلى الأقسام السابقة، وهم:

الصنف الرابع: عامة المؤمنين الذين يعملون الصالحات. تجد الله عَجَّلَ يحدثنا عنهم ابتداء بالآية (٢٥) من هذه السورة حيث يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥].

ففي الآية إشارة إلى مؤمنين لا يعملون الصالحات، ومؤمنين يعملون الصالحات، ويدخل المتقون فيهم، مع أن الإيمان لا يُتَصَوَّر دون عمل الصالحات مع وجود السَّعة.

الصنف الخامس: الكفار غير المعاندين، وتبدأ مخاطبتهم مع سائر الأصناف أجمعين ابتداء من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٠).

الصنف السادس: بنو إسرائيل، وهم الصنف الأول من أهل الكتاب، ودخلوا في خطاب الآية (٢١)، وخُصِّصوا بحديث تفصيلي عنهم ابتداء من الآية (٤٠).

الصنف السابع: النصارى، وهم الصنف الثاني من أهل الكتاب، ودخلوا في خطاب الآية (٢١)، وصرَّح باسمهم ابتداء من الآية (٦٢).

وربما سألت: فإلى من ينتمي هذان الصنفان الكتابيان؟ أهم متقون أم كفار معاندون أم منافقون؟

فإليك الجواب: ينتمي هذان الصنفان إلى الأصناف الثلاثة، فمنهم من ينتمي إلى المتقين، ومنهم من ينتمي إلى الكفار المعاندين، ومنهم من ينتمي إلى الصنف العالمي الثالث أي إلى المنافقين، ومنهم من ينتمي إلى المؤمنين غير المتقين، أو إلى الكافرين غير المعاندين، والمقصود بانتمائهم إلى المتقين هنا حسب زمانهم، ففي زمان أنبيائهم يكون منهم المتقون والمؤمنون والكفار والمنافقون، وأما بعد بعثة النبي ﷺ فلا يكون أحدهم متقيًّا ولا مؤمنًا إلا أن يؤمن بالنبي ﷺ كما سيأتي تفصيل ذلك في الآية (٦٢) من هذه السورة المباركة.

إلا أن المحايدين والمتقين من النصارى أكثر من اليهود، ولكن القيادة السياسية والدينية تكون غالبًا بأيدي المتطرفين والغلاة الحاقدين منهم؛ لأنهم يُظهِرون نشاطًا في الإمساك بالمناصب القيادية.

الصنف الثامن: الصابئون، وبعض العلماء ألحقهم بأهل الكتاب، ودخلوا في خطاب الآية (٢١)، وصُرِّح باسمهم ابتداء من الآية (٦٢).

سورة البقرة ترسم خريطة العلاقات العالمية، وحاجة القيادات السياسية والدبلوماسية لها:

هذه السورة المباركة تشتمل على خريطة عالمية سياسية تنير الوعي المسلم بأوضاع العالم، وأحوال أهله، وتقدِّم توعية سياسية وثقافية فريدة تجمع بين تحليل النفسيات، ووصف الواقع، وفضح الخفايا، وبيان كيفية التعامل العادل في الحالات المختلفة.

أفلا تكون هذه السورة محور الاهتمام الإعلامي والتعليمي والثقافي في وسائل الاعلام والتوجيه في البلاد المسلمة بيانًا وشرحًا واستفادةً واستنارةً بصورةٍ أقوى وأعظم من اهتمامها بالأمور الأخرى؟ أليست السورة التي تبين ركائز الأمن القومي الإسلامي، ودعائم الحياة المجتمعية السعيدة، وتؤسِّس لقيام الأمة الإسلامية الوسط المستقلة؟ ما أحوجنا لهذا التدارس الثقافي للقرآن الكريم ليكون القرآن المنارَ الدستوريَّ للعالم حقًّا كما قال القائلون:

يا طِيبَ عَهْدٍ كنتَ فيه منارَنا ... فبعثتَ نورَ الحقِّ منْ فَارَانِ[1]
وَأَسَرْتَ فيه العاشقين بلمحَةٍ ... وسقيتهمْ كأسًا بغيرِ دِنَانِ
أحرَقْتَ فيه قلوبهمْ بتوقُّـ ... ـدِ الإيمانِ لا بتلَهُّبِ النيرَانِ
لَمْ نبْقَ نحنُ ولا القلوبُ كأنها ... لمْ تحظَ منْ نارِ الهَوَى بدُخَانِ[2]

---

(١) فَارَان: جبال الحجاز.

(٢) الأبيات لمحمد إقبال. ينظر: ديوان محمد إقبال، الأعمال الكاملة، إعداد: سعيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧، (١/ ٩٨).

تفصيل التقسيم العالمي حسب المعرفة التي يقدمها نظم الآيات:

الصنف الأول: المتقون، وهم صنف خاصٌّ من المؤمنين [البقرة: ٢-٥]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الصفات المؤسِّسة للتقوى

1 الصفة الأولى:
تكوين النفس المضيئة الطموحة
إلى أكمل مراتب الكمال الإنساني (مرتبة التقوى): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

2 الصفة الثانية:
الاهتداء بالقرآن:
فالانتفاع الكامل به إنما يكون بالتقوى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

3 الصفة الثالثة:
الإيمان بالغيب:
﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، وهذه صفة قلبية عقلية تصلنا بما نرى وما لا نرى

4 الصفة الرابعة:
إقامة الصلاة:
﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]، وهي أهم الصفات السلوكية التي تنظم الحياة

5 الصفة الخامسة:
الإنفاق:
﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، وهي أهمّ الصفات التي تبين علاقة الإنسان بالعالَم حوله

6 الصفة السادسة:
صفة السلام الإيماني بالجمع بين الكتب الإلهية:
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]

7 الصفة السابعة:
صفة اليقين المطمئن إلى الحياة الحقيقية القادمة بعدالتها الكاملة:
﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]

مفصل سورة البقرة (1)

الآيات التي تتعلق بهم: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٥].

ربما تتساءل: بظنك ماذا يعني أن يسمي الله ﷻ الصنف الأول المنتفع بالقرآن هذه التسمية المميزة: ﴿المتقين﴾؟

الجواب: تعال نستكشف خصوصية هذا الوسم دون سواه، لقد سمَّاهم الله ﷻ هذه التسمية المميزة ليحقِّقوا من خلالها الصفات التي تلزم ليصلوا إلى هذه المرتبة العظيمة: التقوى.

ولعلك تسأل: فما هذه الصفات؟

الجواب: لم يَكِلِ الله ﷻ رسم ملامح هذه الفئة السعيدة الموفَّقة وتحديد خصالها لأحد غيره، بل تولَّى هو سبحانه بذاته العلية هذا الأمر بيانًا للمحجَّة وإقامة للحجة، يخبرنا الله تعالى عن هذه الصفات في الآيات بصورة مدهشة:

الصفة الأولى: تكوين النفس المضيئة الطموحة: إنها النفس التي تملك النية الصادقة، والتطلع المحمود، والطموح إلى أكمل مراتب الكمال الإنساني.. إنها مرتبة التقوى، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

ربما تتساءل: فما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

الجواب: هنا يبزغ لنا جمال الاتصال القرآني؛ إذ تظهر التربية القرآنية للنفس الإنسانية من خلال ترقيتها في المدارج المختلفة:

المرتبة الأولى: مرتبة التربية الإلهية للخلق:

فرأينا أن الفاتحة ابتدأت بذكر التربية العامة التي يربي الله ﷻ بها الخلق، وهذه المرتبة ذكرها الله ﷻ في تعريف الخلق بأنفسهم في قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

خلقهم الله ﷻ كما شاء في الوقت الذي شاء، وربَّاهم على الوجه الأمثل الذي يقيم حياتهم، وهنا يدعون عبيدًا لله، حيث زوَّد كُلًّا منهم بما يحتاج إليه من نظامٍ حياتي ضروري غير إرادي من النَفَس وطريقة الحياة شُربًا وطعامًا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ثم تأتي المرتبة الثانية وهي مرتبة العبادة الاختيارية التي دل عليها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي لا تكون إلا بالسير على الصراط المستقيم.

ويتم الترقي من المرتبة الثانية إلى:

المرتبة الثالثة: مرتبة التقوى:

فنقلهم الله ﷻ من مقام العابدين نَقْلَةً نوعيَّة إلى مرتبة المتقين، فقال هنا مباشرة وغير بعيد من سورة الفاتحة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فالعبادة تقود أصحابها لتضعهم في رياض التقوى ومرابعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وبذا يحتاج المرء إلى نفس تضيء وهمة تتوقَّد.. فهل يغني عن الإنسان أن يقول: سيهدينا الله، وسيعيننا الله، وهو لا يملك أدنى حرارة في قلبه تتطلع إلى رضا ربه؟

ربما نتساءل: فإن قلت فلماذا ذكر الله ﷻ مرتبة التقوى في أول سورة البقرة مع أن الإنسان يحتاج إلى أعمال كبيرة ليصل إلى هذه المرتبة؟

والجواب: أن هذا من أهم ملامح النهج التربوي القرآني، أن يعلِّق القلوب بمعالي الأمور وأسمى المقاصد، وأسنى الغايات، وإن هذا لمقصود ومراد هنا في أول البقرة ليربي فينا التطلُّع لحيازة مرتبة التقوى، وهذا يعني أن تكون التقوى أهم الأهداف التي يجب أن يعمل الأفراد والحكومات على تحقيقها في الحياة:

يعبِّر الفراهي رحمه الله عن جاذبية التقوى للطامحين بعباراته المضيئة، فيقول: "والإنسان مسوق إلى شرف على جرف فإما أن يترقى أو يتردى"(١).

الحياة لا يمكن أن تعمر بالعدل والإحسان إلا عبر الانتفاع بهذا الكتاب، هنا تتحقَّق التقوى.

كلُّ محاولة للإعمار دون التقوى تتحول بطريقة أو أخرى إلى دمار، حقيقة لا ارتياب فيها ولا شك.

خذ على سبيل المثال:

الكهرباء نافعة للناس، لكنك قد تجد من يتخذها مطية لإيذاء الناس، وما الذي يردعه إلا التقوى؟ والاجتماع الإنساني يمكن أن يكون أداة حقيقية للتعاون لكنه يمكن أن يتحول إلى تعاون على الإثم والعدوان، كما تراه الآن في بعض المؤسسات الدولية والشركات عابرة القارات، ولذا ترى النَّبيَّ ﷺ يجعل التقوى أحد أعظم الأهداف الحيوية في قوله ﷺ: «**مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ**»(٢).

فإن قلت: ماذا ترى في هذا التوجيه النبوي؟

ويأتيك الجواب: لقد جعل النبي ﷺ التقوى أعظم الأهداف الأولية التي ينبغي أن يصل إليها المؤمن.. ينبغي أن يفكِّر بها قبل أن يفكِّر بشريكة حياته، ومثل ذلك الحكومات والمجتمعات القائمة على تربية التقوى في أفرادها ومؤسساتها.

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص:١١٠).

(٢) ابن ماجة (١٨٥٧)، وعلى الرغم من ضعف إسناده إلا أن الألباني جعله شاهدًا لحديث آخر في السلسلة الصحيحة (١٨٣٨)، وقال السخاوي:" وسنده ضعيف، ولكن له شواهد تدل على أن له أصلًا. المقاصد الحسنة (ص: ٥٧٤).

ولعلك تقول متسائلًا: ولكنك ذكرت التقوى، ولم تعرفنا بعد بمعناها الحقيقي، فما معنى التقوى؟

وأبادرك بالإجابة أن (التقوى)[1] كلمة تدل على الحفظ والحماية والصيانة بدفع المكروهات، فتقول: وَقَيْتُهُ أَقِيهِ وقيًا، ووقاية: حَمَيتُه من الوقوع فيما يكرهه، فالوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره أو يخاف الضرر منه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: ١١]، ومن ذلك قول علي رضي الله عنه: لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ، ولم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه[2]: أي جعلناه ﷺ وقاية لنا من هجوم المشركين، وتُطْلَق التقوى على الفعل بأن تجعل بينك وبين الشيء حماية أو حصنًا أو درعًا، كما قال أبو حَيَّةَ النُّمَيرِيُّ:

فألْقَتْ قناعًا دونهُ الشمسُ واتقَتْ　　بأحسنِ موصولين كَفٍّ ومِعصَمِ[3]

ومن قبله قال النابغة:

سَقَطَ النصيفُ ولَمْ تُرِدْ إسقاطَهُ　　فتناولتهُ واتقتنا باليَدِ[4]

فعندما يقال: اتق الله أي اجعل بينك وبين اللقاء الذي تستحيي أن تلقاه به وقاية.

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٣١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٠)، تاج العروس (٤٠/ ٢٢٦)، مفردات القرآن للفراهي (ص: ٢٥٤).

(٢) أحمد (١٠٤٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن وهو ثقة.

(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٧/ ١٨٣).

(٤) ديوان النابغة (ص: ٤٠).

فالتقوى: الوقاية الحقيقية والحماية الصادقة للإنسانية بترك كل ما يسبب الضرر من الجرائم والصفات الخسيسة والرذائل، ولا يتم ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصفات الكريمة النفيسة والفضائل، فالتقوى توجد الإنسان الصالح الذي يعمر الحياة ويحمي نفسه من نقاط الضعف الكامنة، والأخطار المستقبلية.

هل سألت نفسك أيها الموفق لماذا يقال: اتق الله أكثر مما يقال: اتق غضب الله؟

لعلك توافق في أن المراد اتق رؤيته لك، ومراقبته لحركاتك، واتق ملاقاته المباشرة وقت الحساب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وهنا تعلم من الأسلوب العربي أن هناك محذوفًا واضحًا، فالتقدير: اتق ملاقاةً تُخزى فيه أمام الله جَلَّ جَلَالُهُ، وتلاحظ أنه ليس هنالك مُتعلَّق يُظهر ما الذي يجب أن يتقيه المتقون... هذا ما يُطْلَق عليه حذف المُتعلَّق، وحذف المتعلق مما يفيد العموم، فإن شئت قلت: هم المتقون الله عَزَّ وَجَلَّ، أو غضبه، أو ناره، أو الوقوع فيما يغضبه، أو يوصل إلى عقابه.

ويتصوَّر الفَرَاهِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الثمار العذبة التي تنبجس عن التقوى، فيرى أن من يتقي ربَّه:

١) يخالطه كمال الخشية عن بُعْدِه وعما يبعد عنه، فلا يزال ملتمسًا لرضاه خائفًا عن السيئات.

٢) ثم إحساسه بكمال إنعامه عليه، يورِّثه كمال الخشوع والاجلال لربه عَزَّ وَجَلَّ.

٣) وإحساسه بقُدْسِه يخوِّفه عن التدنس بالإثم.

٤) وإحساسه بعدله يخوفه من نتائج السيئات.

٥) وإحساسه بعلمه يخوفه عن كل سيء مهما خفي[(١)].

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٣٣، ١١٤).

فكما أن التقوى تهدي إلى كمال العمل والعادات، فكذلك تهدي إلى كمال العلم والاعتقادات.

فإن قلت: ومتى ستلاقي الله؟

وأجيبك بأنك قد تلاقيه ﷻ في الدنيا حالاً أو مآلاً؛ أي قد يعجل الحساب لك، وإن كان الأصل التنبيه إلى أن تتقي لقاءه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق ٦].

وليس المراد اجعل بينك وبين الموعد المسمى لملاقاته حماية تمنعك من أن تصل إليه أو أن يصل إليك؛ فإنك لا بد أن ترد إليه، فقد قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] والتقدير: اتقوا خزي يوم أو حساب يوم، فاتق ذاك الحساب ولزيادة التعظيم للشعور بمعية الله قيل اتق الله دون أن يقال: اتق غضبه، مع ورود هذه العبارة الثانية.

هنا ندرك أن معنى: اتق الله اتق أن تخزى إذا حاسبك، أو اتق غضبه أن ينزل بك، وليس المراد: اجعل بينك وبين الله حماية ووقاية بل اجعل بينك وبين حسابه وغضبه حماية، فالله لا يمكن أن يعجزه أحد هربًا، ولن يسبقه أحد.

ولكن ربما قلت: كيف يمكننا أن نحقق التقوى في حياتنا؟

والجواب أن سورة البقرة عبارة عن خريطة تفصيلية لكيفية حيازة التقوى من خلال النظم العبادية المختلفة، فشرط طريق التقوى أن ترى نفسك تتقي ربك في كل حياتك، وليس في عبادة دون عبادة.

قد ذكر الله ﷻ أن عبادته في كل مناحي الحياة طريق للتقوى، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وبين أن التقوى تكون في الصيام وتكون في نتيجة الصيام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أي تتقون في الصيام، وفي النتيجة التي تحصلون عليها من الصيام.

والتقوى تكون في تطبيق قوانين القضايا الجنائية ونظمها: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وتكون بأخذ الكتاب كله بقوة وجد وعزم وحزم والعمل بتفاصيله ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

والتقوى التي تحقق الحفظ والحماية تكون: بأن تنظر إلى كلام الله تعالى فتفعل ما أمر، وتترك ما عنه نهى وزجر.

فإن قلت فهلا ضربت لنا مثلاً يوضح ذلك؟

وأجيبك أن النبي ﷺ ضرب مثالاً لكيفية تكوين هذه الوقاية فيقول: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(١)، فأفهمنا ذلك أن التقوى إنما تتم بفعل الصالحات واجتناب الخطيئات، وتقتضي فعل الأصلح للنفس.

والتقوى تعني تعظيم الله تعالى في النفس، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالمتقي بهذا المعنى: من أُشرِبَ قلبهُ تعظيمَ الرَّبِّ، وخوفَ سخطِه، ونتائج الإثم، فترك المعصية، واتبع الصراط السوي، ويلاحظ الفراهي ؒ المقابلة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فيفهم منها أن المتقين هم الذين يجتنبون الإثم مع الخشية، فإن "الفجور" هو ارتكاب الإثم مع الجسارة، وبذا يضم لمعنى اتقاء المكروهات والمخافات معنى غير مباشر هو التخشُّع والإقبال على الله تعالى، إقبال الرجاء مع الافتقار والتودد

---

(١) البخاري (٣٥٩٥).

بخلاف المستغني المستكبر، وهذا نجده في قوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٨]؛ فإن (اتقى) تأتي مقابل (استغنى)(١).

ويدخل في الشر الذي يجب أن يُترك: الموقف المحايد الذي يزيد الظلم، ويخذل الحق، ويُمكّن للخطأ، ويوهن الصواب، ولذا قال الله تعالى محذِّرًا: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

بعد أن تعرفنا على المراد بالتقوى، وتجلى لنا واسع دلالة لفظ (التقوى)، نتساءل هل التقوى منزلة واحدة أو أنها درجات متعددة؟

وجوابًا عن ذلك ينبغي أن يستقر لدينا أن التقوى درجات ومنازل، فهيا ننور بصائرنا بدرجات الاتصاف بالتقوى، وهي:

الدرجة الأولى للتقوى: يبينها الحسن البصري فيعرف المتقين بأنهم: "اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوا ما افتُرِض عليهم"(٢).

وبالنظر لهذه الدرجة الأولى في سُلَّم درجات التقوى يبدر سؤال لدى المشتغلين في علم التسليك والتربية الإيمانية: هل التقوى لا يصل إليها إلا من لا يخطئ؟

يجيبك أحد دهاقنة التربية، وخبير مسالكها علي بْن أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يعرفها تعريفًا محكمًا فيقول: "التَّقْوَى تَرْكُ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَتَرْكُ الِاغْتِرَارِ بِالطَّاعَةِ"(٣).

---

(١) مفردات القرآن الكريم للفراعي (ص: ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٣٢).

(٣) تفسير الرازي (٢/ ٢٦٨).

وهذا التعريف جميل، فهو يعني أن المتقين ليسوا معصومين من المعصية.. بل هم بشر من البشر لكنهم كما وصفهم ربهم ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

.. المتقون يحوم حولهم طيف الشيطان، فربما وقعوا في فخاخه إلا أنهم سرعان ما يفيقون، كذا وصفهم ربهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهنا تشعر بالتخفيف عنك شيئًا ما؛ إذ يمكنك أن تلحق بركاب المتقين مهما زلت بك القدم إن تذكرت حال الزلل، ومحوت عن نفسك غشاوة الشيطان.

وبناء على ذلك فما رأيك في قول بعضهم وهو يعرِّف التقوى: أن لا يجد الخلق في أفعالك عيبًا، ولا الله في سرك ريبًا؟

وأجيبك عن ذلك: إن كان يعني على سبيل الطموح والتطلع فنعم، أي إن كان ينبغي أن يطمح المرء إلى التطلع إلى هذه المنزلة العالية: ألا يجد الخلق في أفعاله عيبًا، ولا الله في سِرِّه ريبًا.. فنعم، أما على سبيل الواقع فلا! فإن المرء لا يعصم من الخطأ، فمن ذا الذي ما عثر؟ من ذا الذي ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط؟ فهنا لا يصلح هذا الكلام الجميل تعريفًا للتقوى، وأما إن كان على سبيل الطموح والتطلُّع إلى الأفضل فنعم يصلح أن يكون تعريفًا للتقوى.

فهذه -أعزك الله- الدرجة الأولى، فإذا ارتقيتها هنالك يطمح بصرك إلى:

الدرجة الثانية: أن يتقوا الوقوع في المشتبهات؛ فعن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس»[(١)].

فَهِمَ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما ذلك فقال: "لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ"[(٢)].

فهذه درجة ثانية.. وهي تؤدي إلى:

الدرجة الثالثة: وجود النفس اللوامة التي تؤنب الذات على فعل الأخطاء وتلوم على التقصير، وهذا يعني الخشية؛ لأن من يخشى يحذر ويتقي أن يقع فيما يخشى منه، فالحذر يعني الاحتياط للحصول على الأمن المستقبلي:

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: ما التقوى قال: أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى[(٣)].

احترس من نقاط ضعفك الكامنة احتراسًا يولد عندك العتاب الدائم على التقصير، واللوم المقلق على الوقوع في الذنب، والإشفاق على عدم فعل الأفضل؛ فالنفس اللوامة توجد التقوى، وتجعل المرء على أعلى درجات الحذر من الوقوع في معصية، أو إفساد في الأرض.

---

(١) الترمذي (٢٤٥١)، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الألباني. ضعيف سنن الترمذي (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) البخاري، (١/ ٩) معلقًا. قال زين الدين ابن رجب:" هذا الأثر لم أقف عليه إلى الآن في غير كتاب البخاري، وقد روي معناه مرفوعًا. وموقوفا على أبي الدرداء". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٦).

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٣٥١).

وعلى هذا قال ابن المعتز:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصنعْ كَمَاشٍ فوقَ أرضِ الشَّوكِ يحذرُ ما يَرَى
لا تَحْقِرنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحَصَى[١]

وقد نقلوا عن عليٍّ رضي الله عنه تعريفًا آخر شهيرًا عن التقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل، وهو كلام حسن لكن الأثر لم يثبت عن عليٍّ رضي الله عنه ولا عن غيره، ومنهم من قال: "التَّقْوَى أَنْ تُزَيِّنَ سِرَّكَ لِلْحَقِّ، كَمَا زَيَّنْتَ ظَاهِرَكَ لِلْخَلْقِ"[٢]، ومن أوجز ما جمع بين وسيلة التقوى وغايتها ودليلها ما ذكره بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ لطَلْقِ بن حَبيب: أَلَا تَجْمَعُ لَنَا التَّقْوَى فِي كَلامٍ يَسِيرٍ تَرْوِيهِ؟ فَقَالَ طَلْقٌ: "التَّقْوَى: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ. وَالتَّقْوَى: أَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ مَخَافَةَ عَذَابَ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ"[٣].

فالمتقون أعظم الخلق مكانة، وأجلُّهم في رعاية الحقوق وأداء الأمانة، وهم ملاذ الناس في حفظ الأرض من الفساد.. إنهم من يتقون الباطل، ويقفون أمام الاعوجاج بإصلاح الخلل والتسديد والصيانة.

والوصول إلى مرتبتهم حلمٌ لكلِّ إنسانٍ نبيل، وهدفٌ ينبغي أن يقصده الطموح الإنساني لكلِّ شابٍ يريد الوصول إلى المراتب العليا؛ إذ هم كما قال عصام العَطَّار:

قلوبُهُمُ طُهرٌ يَفيضُ على الورى وأيديهمُ تأسو جراحَ الخوافِقِ

(١) ديوان ابن المعتز، دار صاد بيروت، (ص: ٢٩).

(٢) الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، لمحيي الدين الجيلاني (١/ ٢٧٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٦)، الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٢٩٨).

هم السَّلْسَلُ الصافي على كلِّ مؤمنٍ وفي حَوْمَةِ الهَيجاء نارُ الصَّواعقِ
أطلُّوا على الدنيا كواكبَ يُهتدَى بنورِهم عند اشتباهِ المَفارِقِ
سبيلُهم ما أوضحَ اللهُ نَهْجَهُ إذا حادَ عنهُ كلُّ وانٍ وفاسقِ
هم الذَّهبُ الإبريزُ سِرًّا ومَظهرًا جباهُهُمُ بِيضٌ بياضَ الحقائقِ
كأني أراهمُ والدُّنا ليستِ الدُّنا صلاحًا ونورُ اللهِ ملءُ المشارقِ

ويقرع ابن الجوزي رحمه الله أفكارنا بما يجعلنا لا نستصغر أن نصل إلى مراتب المتقين، حيث يصيح في العالمين:

"إن صدقت في طِلابهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقَهم فالمعين قادر، تعرَّض لمن أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم. رُبَّ كنزٍ وقع به فقير، ورُبَّ فضلٍ اختصَّ به صغير، علَّم الخضر ما خفى على موسى عليه السلام وكشف لسليمان عليه السلام ما خفى على داود عليه السلام"[(١)].

الصفة الثانية من صفات المتقين: أن يكون القرآن هاديًا للإنسان، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فهذا التركيب العجيب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يخبرك أن الانتفاع الكامل بالقرآن إنما يكون بالتقوى، وأن التقوى لا تتحقَّق دون الانتفاع بالكتاب.

بصَّرنا الله جل ثناؤه بالصفة الأولى ترتيب هذه الآية مع ما جاء في سورة الفاتحة، وبصَّرنا بهذه الصفة الثانية كلمات هذه الآية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ولعلك تسأل: ما الذي يعنيه أن يكون القرآن هدى للمتقين؟

وأجيبك – وفقك الله –: أن يكون القرآن هدى للمتقين يعني أن يجعل المتقي القرآن أمامه وإمامه في كل شؤون حياته، فما قاده القرآن إليه انقاد له في شؤونه الشخصية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

(١) التقوى الدرة المفقودة والغاية المنشودة (ص: ٣).

وما أكثر من تراه يعظِّم القرآن في الظاهر، لكنه يخالف توجيهاتِ القرآن في كلِّ شأن من شؤون حياته، ففي الاقتصاد لا يتورَّع عن معاملة محرمة، وفي الاجتماع يرى التمايز بين المنتسبين إلى الإسلام، ويستكبر عندما ينظر إلى بقية الخلق، وفي الأخلاق تراه يحبُّ الغيبة والنميمة والكذب، أما في ميادين التفكُّر والتدبير للنجاح في الواقع والمستقبل، فكما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١١].

وخذ أنموذج الصلاة، فالقرآن الهادي يخبر الخلق أن أعظم الناس اهتداء من تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ومن يتماسك في التعامل مع تغيرات الحياة، فيقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج ١٩-٢٢]، فهذه الصلاة "تَقْتَلِعُ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةَ الرَّاسِخَةَ الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ فِطْرِيَّةً، فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صِلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَمْ تَقْتَلِعْ مِنْ نَفْسِهِ جُذُورَ الْجُبْنِ وَالْهَلَعِ، وَتَصْطَلِمُ جَرَاثِيمَ الْبُخْلِ وَالطَّمَعِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مُصَلِّيًا فِي عُرْفِ الْقُرْآنِ، وَلَا مُسْتَحِقًّا لِمَا وَعَدَ عِبَادَهُ الرَّحْمَنُ"(١).

وتزداد التقوى كلما جعل الإنسان الكتاب هاديًا له في حياته الشخصية.. في أسراره.. في حياته الاجتماعية.. في صداقاته.. في تعاملاته..في حياته المهنية.. في قراراته..

وكلما عَظُمَ شأنُ التقوى في قلب الإنسان ازداد انتفاعه بالقرآن وشعوره بلذة تلاوته وجماله، وظهرت في حياته أنواره.. فالعلاقة هنا متبادلة: التقوى تؤدي إلى الانتفاع بالكتاب، والانتفاع بالكتاب يعزز التقوى.

(١) تفسير المنار (١/ ١١١).

ثمار التقوى اليانعة:

ولعلك تسأل: ما أهم ثمار التقوى؟

وعزة ربي إن هذا لهو السؤال المتين، والركن الركين، والكنز الدفين، فالتقوى حال المواظبة عليها تنقلنا نقلة أعظم إلى ثلاث ثمرات عظيمة متوازية:

الثمرة الأولى: الفلاح: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]:

والفلاح يعني أعظم درجات النجاح.. الفلاح يعني الإنجاز للانتصار الكامل الذي يحققه الإنسان لنفسه.

الثمرة الثانية: الشكر: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]:

الشكر مرتبة عظيمة تحافظ على (الفلاح).. تحافظ على الإنجازات التي تحقَّقت، فالشكر قيد الموجود، وصيد المفقود: قيد الموجود من النِّعَم فلا تضيع، وصيد المفقود فيكون سهل المنال.

وبالشكر يحقق العبد أعظم الإنجازات في تقربه من ربه؛ وفي نفع الخلق؛ إذ إنه سيكون من الصفوة القليلة المختارة ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وشعر ابن عطاء الله السكندري عليه رحمة الله بأن كثرة النعم قد تجعل القلب معلقًا بها غير مركزٍ على شكرها، فقال: "لا تُدْهِشْكَ وارِداتُ النِّعَمِ عَنِ القِيامِ بِحُقوقِ شُكْرِكَ. فإنَّ ذلِكَ مِمّا يَحُطُّ مِنْ وُجودِ قَدْرِكَ"(١).

الثمرة الثالثة: الرحمة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]:

فهذه المرتبة تبين إنجاز الاستحقاق الذي سيجده من ربِّه؛ لأن الرحمة تعني جلب خيراتٍ جديدة تكوِّن رحمة عظيمة بينك وبين ربك، والرحمة مقدِّمة لأعظم الخيرات الدنيوية

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (لابن عطاء السكندري)، ابن عجيبة، (ص: ١٤).

الصالحة، والأخروية التي يفصلها النعيم المقيم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

خماسية بناء التقوى:

ثم انتقلت الآيات انتقالاً منطقيًا لتبين صفات خمسًا للمتقين يذكرها الله ﷻ في أول هذه السورة، فقال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥]:

سبق لنا أن تعرفنا إلى التقوى فوجدنا أنها بذاتها تكفي عن أي تفصيل، فلها ثلاث درجات: أولها أنهم أدوا ما افتُرِض عليهم وتركوا ما حُرِّم عليهم، والثانية: تركوا المشتبهات، والثالثة تدفعهم النفس اللوامة إلى السمو العظيم.

ولعلك تبادر فتسأل: إذا كان كلُّ ما سبق يدخل ضمن مفهوم التقوى، فلماذا ذكر الله ﷻ هذه الصفات الخمس القادمة؟

الجواب: ذكر الله ﷻ هذه الصفاتِ الخمسَ مع الصفتين السابقتين على طريقة التعليم والإعلام؛ فإنك في التعليم والإعلام تَذْكُرُ مجمل المسائل أو موجز الأخبار، ثم تقوم بتفصيل أهمِّ ما يتعلَّق بهذا الإيجاز، وذلك يحقِّق أربعة أهداف بالنسبة لهذه الصفات التي ذكرت في أول هذه السورة:

الأول: يبين الله ﷻ لك الصفاتِ المؤسِّسةَ للتقوى.

الثاني: يكشف لك الله ﷻ عن أهمِّ التفاصيل التي تضمُّها منزلة التقوى.

الثالث: يبيِّن لك أهمَّ ما ترتكز عليه هذه السورة التي تحاور العالم، وخاصة بني إسرائيل، فالذي يحاور بني إسرائيل ينبغي أن يكون من المتقين الذين تأصَّلت فيهم هذه الصفات، وليس من المفسدين الذين سيزيدون الأمر سوءًا.

الرابع: ذِكْرُ هذه الصفاتِ مدح وثناء لمن يستقيم عليها.

فأسَّست هذه الصفاتُ لكلِّ الإسلام حيث اشتملت على:

١) المقدِّمات: وهي ما ذكر في الصِّفَتين الأوليين.

٢) الأساس الفكري العقلي القلبي: وهو الإيمان بالغيب.

٣) الأساس العبادي الجسدي القلبي الذي يجعل العبد متصلًا بصورة مباشرة بالله تعالى: وذلك يتمثَّل في الصلاة.

٤) الأساس العبادي التعاوني المالي: الذي يَصِلُ العبد ببقية الخلق، وذلك يتمثَّل في الإنفاق.

٥) الأساس في العلاقات مع الآخرين المتقدمين واللاحقين: والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

٦) الأساس في النظر إلى الحياة الأخرى: وبالآخرة هم يوقنون.

الصفة الثالثة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: وهذه صفة قلبية عقلية تصلنا بما نرى وما لا نرى، فالكون المخلوق يتكون من عالم الشهادة، وعالم الغيب، وكلاهما يدلُّ على الخالق الذي لا تدركه الأبصار:

وأول ما يفجؤك نوره في الآية قول ربي –عز جاره-: ﴿الذين يؤمنون﴾، فماذا تعني؟

أقول –أيدك الله-: أما كلمة ﴿الذين﴾ فاسم موصول يدلُّ على تعريفه لما سبقه، فالذين هنا يُعرِّف بـ﴿المتقين﴾، لكن كلمة ﴿الذين﴾ تظل مبهمة فلا يتضح معناها بنفسها، بل تفتقر

إلى كلام بعدها تصله بها، فجاءت قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ليزيل الإبهام الذي في كلمة ﴿الذين﴾.

كما أن ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تقرِّر رسوخ هذا المعنى في الموصوفين (المتقين)، فليس بالعارض الذي يزول، وإنما هي خصلة متأصِّلة فيهم قائمة بهم.

فإن قلت فهل يشترط أن يكون الكلام بعد ﴿الذين﴾ معلومًا لدى المخاطب؟

والجواب: أنه جاء في "شرح ابن يعيش لكتاب المفصَّل": "وينبغي أن تكون الجملة التي تقع صلة معلومة عند المخاطب، لأن الغرض بها تعريف المذكور بما يعلمه المخاطب من حاله ليصح الإخبار عنه بعد ذلك"[(١)].

والمقصود أن تكون عارفًا بمعنى الكلمات التي بعد الموصول، وليس المقصود أن تكون عالـمًا بتفصيل الصفة التي عرفتها بالموصول.

ولكنك ربما سألت: ماذا يعني ذلك كله في بيان صفات المتقين؟

الجواب: يعني أن المتقين يعرفهم الله ﷻ بصفة عظيمة هي أنهم يؤمنون، وكلمة يؤمنون تعرفها بصفة عامة، ولكننا ينبغي أن تتعرف إليها بصفة محدَّدة، فتعال نتعرف إليها بشكل أوسع:

فإن قلت:فما معنى يؤمنون؟ ولماذا اختار الله ﷻ هذه الصفة الكبيرة لتعبِّر عن واحدة من أهمِّ صفات المتقين؟

لتعلم ذلك، وتدرك سره ولطفه تعال نشعر بنسيم الجمال المصطلحي القرآني؛ فهذه الكلمة المباركة (الإيمان) تتضمَّن ثمراتِه المطلوبةَ ونتائجَه المرجوة:

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٣٩٣).

جاءت من (أَمِنَ)، فالكلمة تدل على الْأَمْنِ أي على طمأنينة النفس وزوال الخوف وذهاب القلق وتلاشي الحَيرة، وجاء منها: الْأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ للشعور بالأمن ممن ائتمنته، فيُقَالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، وَآمَنَنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَانًا، والأَمْنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادر، وَبَيْتٌ آمِنٌ ذُو أَمْنٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مخبرًا عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ أُمَّانٌ: إِذَا كَانَ أَمِينًا. قَالَ الْأَعْشَى:

وَلَقَدْ شَهِدْتُ التَّاجِرَ الْـ أُمَّانَ مَوْرُودًا شَرَابُهُ[١]

ورَجُلٌ أُمَنَةٌ: إِذَا كَانَ يَأْمَنُهُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ غَائِلَتَهُ؛ وَأَمَنَةٌ بِالْفَتْحِ يُصَدِّقُ مَا سَمِعَ وَلَا يُكَذِّبُ بِشَيْءٍ، يَثِقُ بِالنَّاسِ، والأَمُون: الناقة يُؤْمَنُ فُتورُها وعُثُورها[٢]، بالنظر للمادة المعجمية لكلمة (أمن) يتلخَّص لنا المعنيان الشهيران للإيمان، وكلاهما مطلوب:

الأول: معنى التَّصدِيق والإقرار الذي يفيد سكون القلب، والشعور بالأمان ممَّن صدقته، واعتنقت قوله، ومنه قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وتعدَّى باللام ليفيد التصديق والإقرار، أَيْ: مُصَدِّقٍ لَنَا، مقرٍّ إقرارًا يجعلك تطمئن وتسكن وتأمن، فالإيمان هو التصديق والإقرار حيث يصحبهما الأمن.

الثاني: الاعتقاد، والتسليم، والثقة بمن تؤمن به، وبما تؤمن به، وإظهار الخضوع له، وقبول أمره ونهيه وشرعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

عد بنا مجدَّدًا: ماذا يعني الإيمان؟ لماذا له هذه القيمة الكبيرة في الحياة الإنسانية؟

---

(١) ديوان الأعشى الكبير (ص: ٢٨٩)، والأمَّان كـ(رُمَّان): المؤتمن الذي يوثق به، فلا يقدم إلا أجود الخمر.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ١٣٣، ١٣٤).

وأجيبك عن ذلك بأن معنى الإيمان: الدخول في الأمن مِنَ الشَّكِّ والاضْطِرابِ، فمن آمن حصل له الاطمئنان والراحة والسكينة، والتعدية بالباء أكسبته معنيين رفيعين:

الأول: تضمينه معْنى أقرَّ، فَيَقُولُونَ آمَنَ بِكَذا: أيْ أقَرَّ بِهِ كَما في هَذِهِ الآيَةِ.

الثاني: التعدية بالباء تدلُّ على التصاق الإيمان بالقلب التصاقًا لا ينفكُّ في التصوُّر والفكر، وفي القول والذكر، وفي العمل والحركة، كما يظهر لي أنها تدلُّ على السببية، فكَأنَّ حَقِيقَةَ آمَنَ بِهِ: أي استظلَّ بالأمن بسببه، ولم أرتض تأويل الآلوسي ﵀: آمَنَهُ التَّكْذِيبَ والمُخالَفَةَ(١)؛ لأن التعبير: آمن به، وليس آمنه.

والتعدية باللام تكسبه مَعْنى اطْمَأنَّ، فيَقُولُونَ: آمَنَ لَهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ٧٥].

واجتمعت التعدية بالباء واللام في قوله: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي يصدِّق تصديقًا آمنًا واثقًا بالله تعالى، ويسمع من المؤمنين سماع قبول.

كمال الإيمان سبيل للأمن الكامل:

والْإِيمَانُ إِفْعَالٌ مِنَ الْأَمْنِ، وهو التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الْمُقْتَرِنُ بِإِذْعَانِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا وَاسْتِسْلَامِهَا(٢).

وبذلك يمكننا أن نعرف الإيمان بأنه الدخول في الأمن الكامل.

(١) ينظر: روح المعاني (١/ ١١٠).

(٢) ينظر: تفسير المنار (١/ ١٠٧).

ولأهمية تقرير هذه الحقيقة كان داعيةالإيمان والأمان الأول ﷺ يؤكِّدها في خطابه ودعوته، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**»(١).

فإن قلت: فكيف تدخل في الأمن الكامل؟

أجيبك بأننا يمكننا أن ندخل في الأمن الكامل بتحقيق ثلاث ركائز يقوم عليها الإيمان:

الركيزة الأولى: التصديق الْجَازِمُ الْمُقْتَرِنُ بِإِذْعَانِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا وَاسْتِسْلَامِهَا بالأركان الستة، وبما عُلِم من الإسلام بالضرورة:

فهذا هو العمل القلبي حيث يخبت القلب باليقين بذلك، ولا يتحقَّق هذا التصديق إلا أن تذعن النفس والعقل والعاطفة والجسد للحق:

فالإيمان لا بد أن يستقر في القلب أولًا: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجُرات: ١٤]، وهنا تعلم لماذا ذكر الله اطمئنان القلوب بالإيمان حيث قال الله: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النَّحل: ١٠٦]، وقال ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المُجادَلَة: ٢٢]؟

والنتيجة أن المؤمن المليء قلبه باليقين يصبح من الصديقين، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [الحديد: ١٩].

والعكس بالعكس تمامًا، فبقدر نقص الإيمان أو اختلاله ينقص الأمن ويختل، بل ربما انعدم بكليته.

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ... ولا دنيا لمنْ لمْ يحي دينًا
ومنْ رضي الحياةَ بغير دينٍ ... فقدْ جعَلَ الفناءَ لها قرينًا(٢)

---

(١) أحمد، (١٢٣٨٣)، وحسنه الأرناؤوط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٢) ديوان محمد إقبال (ص:١٠٣).

ستقول: لماذا لم نكتف بأن نقول: الإيمان هو التصديق، فزدنا عليه بأنه التصديق بالأركان الستة، وبما عُلِم من الإسلام بالضرورة؟

الجواب: لأن الإيمانَ الحق لَيْسَ عِبارَةً عَنْ مُطْلَقِ التَّصْدِيقِ، فمَن صَدَّقَ بِالجِبْتِ والطّاغُوتِ لا يُسَمّى مُؤْمِنًا مطلقًا، ولكن يمكنك أن تقول: هو مؤمن بالباطل، بل الإيمان عبارة عن التصديق بالأركان الستة وما عُلِم من الإسلام بالضرورة.

الركيزة الثانية: الإقرار باللسان، فلا يمكن أن يكون هذا التصديق صادقًا إلا بأن يجتمع معه:

فلا بد من تواطؤ ما يجري على اللسان مع ما هو مستقرٌّ في الباطن، ويتوجَّب على المؤمن أن يجمع بين التسليم والإقرار الظاهر والباطن، ويعلن بلسان قاله ما تمثله بلسان حاله، كما قال سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

الركيزة الثالثة: الخضوع والعمل بالجوارح، فلا يكون التصديق إيمانًا حقيقيًا دون أن ينعكس ذلك على الواقع:

ربما تقول: لكن الله ﷻ كثيرًا ما يذكر الإيمان ثم يردفه بالعمل الصالح، فيقول مثلًا من أول المصحف: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهذا الاقتران دليل على أن العمل الصالح شيء آخر غير مسمى الإيمان، فكيف جعلت العمل الصالح كالجزء من مسمى الإيمان؟

أقول لك بعيدًا عن الخوض في جدال الفرق المختلفة:

العمل الصالح القولي والفعلي إما أن يكون داخلًا في مسمى الإيمان، وإما أن يكون لازمًا لمسمى الإيمان، أي لازمًا للإقرار والتصديق، وإما أن يكون دليلًا على صحة وجود هذا التصديق ما دام صاحبه يستطيع أن يأتي بالعمل الصالح المستطاع.

نعم، يذكر الله تعالى الإيمانَ، ويقرن به العَمَلَ الصّالِحَ، فإما أن يكون ذلك من عطف الخاصِّ على العامِّ لأهمِّيته وتهاون بعض الناس فيه، فيكون العمل الصالح جزءًا من الإيمان وإما أن يكون من عطف اللازم على الأصل، فالأصل الإيمان بمعنى التصديق، ويلزمه العمل الصالح، وحسبك أن النبي ﷺ جعل الإيمان بضعًا وسبعين شعبة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

تشعر باطمئنان تجاه ذلك عندما تسمع النبي ﷺ يفسِّر الإيمان بالتصوُّرات الفكرية القلبية فيقول ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(٢).

وفي الوقت ذاته تراه يجعل الفعل الحسن والترك الحسن جزءًا من مسمى الإيمان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»(٣).

وبذا نعلم أن الإيمان يعبر عن أمان الفكر، وأمان الواقع.. لماذا؟

---

(١) مسلم (٥٨).

(٢) مسلم (٨).

(٣) أحمد (٨٩١٨)، قال الأرناؤوط: إسناده قوي.

الجواب: لأن الإيمان بلازمه أو شرطه أو جزء ماهيته (العمل الصالح) يعني اطمئنان الباطن وسلامة الطوية تجاه الذات والغير بما ينعكس في ظواهر التصرفات والتعامل مع الموجودات بما يقتضيه من رحمة وعدل، وبهذا فالإيمان هنا صار مصدر أمان لصاحبه في قلبه ولسانه وأعماله، وهو مصدر أمان لمن حوله في جوانب الإنسان الثلاثة.

ستقول: أنت جعلت الأمن هو الإيمان بذاته، ولكننا نعلم أن وجود الأمن نتيجة الإيمان، فالله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام ٨٢]؟

أجيبك بأن ما قلته صحيح، ولكن ذلك لا يعني نفي ما أخبرتك به، فالإيمان هو الدخول في الأمن بالتصديق الجازم، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان الجسدية، فبمجرد الدخول في ذلك يحدث الأمن القلبي والنفسي والواقعي، ثم ينتج عن الثبات على الإيمان الحصول على الأمن الذي قرّره الله -تعالى مجده- في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام ٨٢]، والآية تبصّرنا بعموم الأمن الذي يجده المؤمن، فقد قال ابن عاشور رحمه الله: «والمراد الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه ،وما عُذّبت به الأمم الجاحدة، ومن عذاب الآخرة، إذ لم يكن مطلوبًا منهم حينئذ إلا التوحيد»[1].

وانظر إلى قول الله جل جلاله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الحج: ٥٤]: المعرفة أورثتهم الإيمان، فتركوا الحيرة والاضطراب، فأخبتت لذلك قلوبهم أي لانت واطمأنت، ثم ذكر الله عز وجل بعدهم الحيرة المدمّرة التي يرزح تحتها الذين كفروا فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣٤).

الإيمان يعني الأمن ثم ينتج بالثبات عليه: الأمن الدائم، والاطمئنان المتجدد، وهنا لا تلم الحواريين حينما أخبروا عيسى ﷺ عن أسباب طلبهم للمائدة، فذكروا منها: حدوث الاطمئنان أمام الضغوط التي يجدونها من قومهم ليتركوا الإيمان: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣]، وأخبرنا الله ﷻ أن الإيمان اطمئنان بذاته، ويثمر المزيد من الاطمئنان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

تصوَّر ذلك: الإيمان أمان وعلم، والشكُّ والإلحاد والشرك والوثنية والطاغوتية قلقٌ وحيرة واضطراب وخوف وجهل.

هل علمت الآن: لماذا اختار الله ﷻ هذه الكلمة المباركة ﴿الإيمان﴾ لتعبر عن أعظم المبادئ التي ينبغي أن يعتنقها الإنسان؟

أدركنا معنى الإيمان ولكن الله ﷻ قيد الإيمان هنا بكلمة فقال: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فلماذا هذا التقييد بهذه الكلمة؟ وما أسرارها؟

الجواب: تعال بنا إلى كلمة ﴿الغيب﴾:

هذه الكلمة أصلها "غَيَب"، فيقال "غاب يغيب غَيْبَةً وَغُيُوبًا وَغَيْبًا فهو غائب، وتدلُّ على اختفاء الشيء واستتاره عَنِ الْعُيُونِ، قال تعالى: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، فيُقَالُ: غَابَتِ الشَّمْسُ، وَوَقَعْنَا فِي غَيْبَةٍ وَغَيَابَةٍ، أَيْ هَبْطَةٍ مِنَ الْأَرْضِ يُغَابُ فِيهَا. قَالَ اللهُ ﷻ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ ﷺ: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] مكانٍ لا يراه الناس فيه، وَالْغَابَةُ: الْأَجَمَةُ ذاتُ الشَجَرِ المتكاثِف التي طَالَتْ ولها أطرافٌ مرتفعة باسِقَةٌ، وَالْجَمْعُ غَابَاتٌ وَغَابٌ، وَسُمِّيَتْ لِأَنَّهُ يُغَابُ فِيهَا، والغَيْب -بالفتح: ما اطمأن من الأرض. وغيَابة الجُبّ والوادي:

قَعْره. وغَيْبَان الشجرة بالفتح وتخفيف الياء– وبالفتح وتشديدها كـ(هَيَّبان): عروقُها التي تَغِيبُ في الأرض ".

وَالْغِيبَةُ: الْوَقِيعَةُ فِي النَّاسِ مِنْ هَذَا قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] لِأَنَّهَا لَا تُقَالُ إِلَّا فِي غَيْبَةٍ[1].

فاستعمل الغيب والغائب في كلّ غَائِبٍ عن الحاسّة.

فإن قلت: فهل الغيب يعني أن الغائب غير موجود؟

وجواب ذلك: لا، بل العكس قد يكون وجوده أعلى من وجود الجهة التي تريد رؤيته، فيأتي بمعنى الغَائِبِ عن نظر الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، لكن الغيب هنا غَيْبٌ باعتبار علم الناس لا علم الله تعالى به، فإنه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه.

ويستوقفنا هنا أمر: لماذا قال الله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فقدَّم الغيب على الشهادة؟

والجواب: لأنه الأكثر، ولأنه الأقوى وجودًا، بل قد يكون وجوده هو الوجود الحق الثابت الراسخ، ووجود غيره وجود عرضي، ولأن قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ثناء على الله ﷻ بلطيف علمه، ولا ريب أن وصفه بعلم الغيب أبلغ في المدح والثناء منه بعلم الشهادة؛ إذ هو سبحانه يعلم الغيب قبل أن يكون، ولأن ذلك من خاصة علمه، عكس علم الشهادة التي شركه غيره فيها من خلقه.**فإن قلت فهلا أخبرتنا ما معنى: ﴿بالغيب﴾؟**

أجيبك بأن: الغيب مصدر، فلم يستعمل اسم الفاعل، فيقول: يؤمنون بالغائب، بل قال: يؤمنون بالغيب، لماذا؟

---

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٥٥٠، ١٥٥١).

لأن المصدر هو الأصل، فيدخل فيه الفعل واسم الفاعل واسم المفعول: أي يدخل فيه الغائب والمغيب، وكل من يغيب عن العيون البشرية المحدودة لسبب قرنه الله ﷻ به، وعبَّر عنه بالمصدر للمبالغة، وبهذا يكون معنى قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣] أنهم يؤمنون أي يجدون الأمن بالتصديق والإقرار بما غاب عن عيونهم، وما لا يقع تحت حواسِّهم، ولكن تقتضيه العقول -خلافًا للراغب رحمه الله [(١)]- ويعلم إجمالًا أو تفصيلًا بخبر الأنبياء عليهم السلام، أو بأدلة أخرى توصل إليه.

ولكنك ربما تقول: قد أدركنا معنى الغيب، فما الذي يدخل في الإيمان بالغيب؟

الجواب: يدخل في الإيمان بالغيب:

أولًا: الإيمان باللهِ وملائكته ورسله والبعث ويوم القيامة والجنة والنار، فهذا كله غيب، ويدخل في الغيب كيفية مجيء الوحي إلينا، والجن، والأنبياء السابقون، والنبي الخاتم ﷺ بالنسبة لمن لم يره، وكذلك بالنسبة لمن رآه، لأنه آمن بكونه نبيًّا، والنبوة تتوقف على مجيء ملك الوحي، وذلك غيب، ومما يدخل هنا ما قاله زر بن حبيش رحمه الله: الغَيْبُ هو القرآن؛ لأننا نؤمن بأنه كلام الله بتبليغ النبي ﷺ، وعن زيد بن أسلم رحمه الله قال: هو القدر[(٢)].

وكل هذا إشارة منهم إلى بعض ما يقتضيه لفظه -كما يقول الراغب رحمه الله-.

ثانيًا: يدخل في الإيمان بالغيب ما خفي على البشرية من العوالم الكثيرة الزمانية والمكانية والمادية والقوانين الكونية التي لم تكتشفها البشرية بعد كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النحل: ٧٧]، وبعضها قد تكتشفه البشرية مع تقدُّم مسيرتها التاريخية، وبعضها لا يمكنها أن تكتشفه إلا في الآخرة، وبعضها لا تكتشفه أبدًا كما قال الله تعالى:

---

(١) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٣٦٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٦).

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [مريم: ٧٨]، ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ثالثًا: الأحداث والأنباء التاريخية الماضية: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] أو المستقبلية مثل: الساعة وما يتلوها.

رابعًا: أن تؤمن بالله تعالى في السر كما آمنت به في العلن كما في قوله تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [المائدة: ٩٤]: أي وهو غائب عن الناس لا يراه أحد، ولذا قال بعضهم: معنى يؤمنون بالغيب: يؤمنون إذا غَابُوا عنكم، وليسوا كالمنافقين الذين قيل فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وعلى هذا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]، فيكون حال من آمن بالغيب بهذا الاعتبار أولى بقول الشاعر:

وَإني لأَسْتَحْيِيكَ حَتَّى كَأَنَّمَا   عَلَيَّ بظَهْرِ الغَيْبِ مِنْكَ رَقِيبُ(١)

ويدخل في هذا أن تحفظ المرأة زوجها بالغيب، فيقال: أَغابَتِ المرأة: غاب زوجها. وقوله في صفة النّساء: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤]، أي: لا يفعلن في غيبة الزَّوج ما يكرهه الزَّوج.

فإن قلت: هل يمكن للإنسان أن يَعْلَم الغَيْبَ أمْ لا؟ وكيف صار هذا باب ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ من أعظم أبواب الردود على الملحدين؟

---

(١) البيت لعبد الله بن الدمينة. الشعر والشعراء، لابن قتيبة (٢/ ٧٢٢).

نستلهم الجواب عن ذلك بما قعده الرازي رحمه الله [١] هاهنا للمسألة، فإليك ما قاله مع زيادة تفصيل، فالغَيْب ينقسم إلى:

الغيب المطلق، والغيب النسبي:

فالغيب المطلق: هو الَّذِي لا دَلِيلَ عَلَيْهِ فلا يعلمه إلا الله سُبْحانَهُ وتَعالى، ولعل منه قول حاتم الطائي:

أَما وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ ... وَيُحيّ العِظامَ البيضَ وَهيَ رَميمُ [٢]

والغيب النسبي: هو الَّذِي عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وهو نوعان:

الأول: الذي يدل عليه الدليل الخبري الصادق مثل الوحي الذي يأتي الأنبياء عليهم السلام، فيخبرهم عن غيب لم يشاهدوه، فهنا نقول: قد علَّم الله تعالى الأنبياء من الغيب ما علموه وربما نقلوه إلينا إن أُمِروا بذلك كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٥-٢٨]، وهذا خاصٌّ بالأنبياء عليهم السلام، وأدخل بعضهم الأولياء الذين وردت فيهم النصوص مثل الخضر عليه السلام، ويظهر لي أنه نبي.

الثاني: الذي يدل عليه الدليل الحسي، فالِاسْتِدْلالُ بِالشّاهِدِ عَلى الغائِبِ أحَدُ أقْسامِ الأدِلَّةِ العلمية، بل هو أهمُّ أدلة العلم التجريبي، وهنا يمكن أن نقول: يَعْلم الإنسان من الغيب ما دلَّ عليه الدليل الحسي، وهذا ما يريدونه بقولهم: هذا من باب إلحاق الغائب بالشاهد.

بعد معرفتك لأنواع الغيب ربما تساءلت: ما الذي يثمره الإيمان بالغيب في حياة المؤمنين؟

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٧٤).

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ص: ١٢٠٣).

أبرك ثمرات الإيمان بالغيب في حياة المؤمنين أنهم استطاعوا أن يكونوا ذوي أَمْنٍ وسُكُونٍ وَطُمَأْنِينَةٍ وعلمٍ؛ لأنهم آمنوا بما يحميهم من التذبذب والارتباك والتردُّد والحَيرة، حيث صدقوا وأقروا بِما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب، ووثقوا بِأَنَّهُ حَقٌّ.

ولأنهم يؤمنون بالغيب فهم يؤمنون بالله ﷻ ويراقبونه حال غيبتهم عن الناس كما يؤمنون به ويراقبونه حال حضورهم بين الناس، فيراقبونه في التعامل البشري، وفي القضايا الحيوية، ولذلك قال عن مزية المراقبة الغيبية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يُوسُف: ٥٢]، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المَائِدَة: ٩٤]، وقالت أُمُّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها: حَدَّثَنِى سَيِّدِى رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[(١)]، وقَالَ الْحُطَيْئَةُ:

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ ... مِنْ آلِ لَأْمٍ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَأْتِينِي[(٢)]

إنهم المؤمنون بالغيب فلا تغريهم المحرمات من الشهوات.. إنها الصفة التي يباينون بها الْمُنَافِقِينَ المخادعين الَّذِينَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ.

إن الإيمان في حقيقته الشرعية هُوَ التَّصْدِيقُ القلبي الْجَازِمُ الْمُقْتَرِنُ بِإِذْعَانِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا وَاسْتِسْلَامِهَا.

وربما تتساءل: بما أن هذه الآية نزلت على الصحابة رضي الله عنهم وحولهم المشركون واليهود في المدينة، فاجعل نفسك تشعر أنك هناك عند نزول الآية، واطرح سؤالًا على نفسك: مَن أول الناس دخولًا في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؟

---

(١) مسلم (٢٧٣٢).

(٢) ديوان الحطيئة (ص: ١٤٦).

وأبادرك بالإجابة: إن أول من يدخل في مدلول الآية من دون أدنى ارتياب أو شك الصحابة ﭫ؛ فإنك لو كنت تستمع إلى النبي ﷺ وحوله أربع فئات في المدينة:

الفئة الأولى: أصحابه الذين آمنوا به.

الفئة الثانية: اليهود.

الفئة الثالثة: الوثنيون الذين لم يؤمنوا.

الفئة الرابعة: المنافقون؛ فإنهم يؤمنون في الظاهر، ويكفرون في الباطن.

فتصوَّر المشهد كأنك تعيش اللحظة التي نزلت فيها هذه الآية، فمن سيكون المعني الأول بأنه آمن بالغيب من هذه الفئات؟

لعلك أدركت أنهم الصحابة ﭫ لا سواهم، فهم الذين صدقوا في إيمانهم.

وهنا ستسأل: كيف يقال: إنهم يؤمنون بالغيب مع أن فيهم رسول الله ﷺ يشاهدونه، ويكلمونه، ويتمتعون بصحبته؟

وأجيبك بأن إيمانهم به ﷺ وصحبتهم ومجالستهم إياه لا يجرِّدهم من وصف (الإيمان بالغيب)، فالغيوب التي أخبرهم النبي ﷺ كثيرة:

فمنها: إيمانهم بالله تعالى الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

ومنها إيمانهم بملَك الوحي النازل عليه، ومنها إيمانهم بنبوته ﷺ، ومنها إيمانهم بوعد الله ﻷ ربنا وربهم ووعيده في الدنيا والآخرة.

فخذ مثلًا للأخبار التي يوردها النبي ﷺ عن لقائه بجبريل ﭺ.. أليست غيبًا؟ وعن الإسراء والمعراج، ورؤيته الملائكة، والتفت إلى حياة الصحابة ﭫ لتراهم لذلك مذعنين، وبه موقنين.

تعال لتأخذ أنموذجًا لذلك؛ فالنبي ﷺ كان يدرب أصحابه على الإيمان بالغيب، فيقول لهم: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ**»(١).

وكان الصحابة رضي الله عنهم يذكرون ذلك، فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ**» قَالَتْ: قُلْتُ: وَالسلامُ عليه وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا نَرَى(٢)، ويثني النبي ﷺ على من يعلم منه هذا اليقين، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ، فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي؟ وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ**» قَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِذَلِكَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**»(٣).

ويعمِّم هذا ما جاء عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وأناس من أصحاب النبي ﷺ: أما (الغيْبُ) فما غابَ عن العباد من أمر الجنة وأمرِ النار، وما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن. لم يكن تصديقهُم بذلك -يعني المؤمنين من العرب- من قِبَل أصْل كتابٍ أو عِلْم كان عندَهم(٤).

فالصحابة رضي الله عنهم أول من يدخل في الذين يؤمنون بالغيب، فمن يدخل معهم أيضًا؟

---

(١) أحمد (٢١٥١٦)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد منقطع، مورق – وهو العجلي – لم يسمع من أبي ذر. وحسنه الألباني. صحيح الجامع الصغير (٢٤٤٩).

(٢) البخاري (٣٢١٧).

(٣) البخاري (٣٦٦٣).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٣٦)، وضعفه إسلام منصور؛ من أجل أسباط بن نصر. تفسير الطبري (١/ ١٩٠) طبعة دار الحديث.

الجواب: يأتي مَن بعد الصحابة ﵃ ممن يؤمن بالإسلام إلى يوم الدين، ولكن الغيوب التي يؤمنون بها أكثر من الغيوب التي آمن بها الصحابة ﵃.

فلا يستقيم إيمان مؤمن حتى يؤمن بالغيب..

حسبك أن المؤمنين بالغيب يشعرون بالملائكة حولهم، ويتلذذون بالعيش معهم في حين ترى الناس في غفلة وهم معرضون.

فخذ مثلاً لهذا التعايش المثير للطمأنينة مع الملائكة ما يرويه أبو هُرَيْرَةَ ﵁ أن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ**»، قَالَ: «**فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، قَالَ: "**فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ**"، قَالَ: "**فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟**" قَالَ: "**فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟**" قَالَ: "**فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا**" قَالَ: "**يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟**" قَالَ: «**يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ**» قَالَ: "**يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا**" قَالَ: "**يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ**" قَالَ: "**يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا**" قَالَ: "**يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟**" قَالَ: "**يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً**" قَالَ: "**فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ**" قَالَ: "**يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**"[(١)].

---

(١) البخاري (٦٤٠٨).

يؤمنون بالجنة والنار، وبالطبع يؤمنون بخالق الجنة والنار، ولم يروا ذلك.. إنه جمال الإيمان بالغيب. اللهم اجعلنا منهم برحمتك وفضلك.

وإنه لمن التدبر الرفيع أن تبحث عن البصيرة التي يُبَصِّرك بها السؤال الكبير: لماذا قُدِّمت هذه الصفة على سائر الصفات؟ فالصفتان الأوليان استخرجناهما من لفظ (المتقين) لكن هذه الصفة هي الأولى من حيث التفصيل، ولذا قال قتادة: ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: هم مَنْ نعتَهم ووصفَهم فأثبت صفتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ فلماذا جاءت قبل بقية الصفات؟

فالجواب:

أما أولاً: فلأنها تمثل الشهادتين، وهما الركن الأول من أركان الإسلام، وبذا فالإيمان بالغيب أساس الصفات الأخرى، فكلُّ الصفات لا يمكن أن تتحقق في الواقع العملي دون الإيمان بالغيب، وإذا وُجِدَت فلا يمكن أن تُؤدَّى على خيروجه إلا بالإيمان بالغيب.

ولو سألت: كيف يمثل الإيمان بالغيب الشهادتين؟

أجيبك بأن الذي يدخل في الإسلام عندما يقول: أشهد ألا إله إلا الله، فإنه إنما آمن بالله ﷻ، وهو لا تدركه الأبصار، وآمن بوحدانيته في الألوهية، وعندما يقول: وأشهد أن محمدًا رسول الله، فإنه إن جاء بعد زمن النبي ﷺ أو في زمنه ولم يره يؤمن بالغيب، ويؤمن برسالة النبي ﷺ، وكل ذلك غيب.

وبعد ذلك فإن بقية الصفات المذكورة، وهي الصلاة والإنفاق، والإيمان بما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، وبقية الصفات التي ذكرت في القرآن الكريم مثل الصيام والحج، وحرمة أكل المال بالباطل، وكظم الغيظ، وسائر الأخلاق الحسنة.. كلُّ ذلك لا يمكن أن تكون صفاتٍ عبادية إلا إذا آمن من يتَّصف بها بالغيب: يؤمن بالله ﷻ، والله ﷻ غيب لا تدركه الأبصار، ويؤمن بثوابه، وثوابه مستقبل غيبي لا تراه العيون.. وهكذا.

الإيمان بالغيب –أيدك الله– صفة أوجبت الأجر العظيم لأصحابها، فعَنْ صالح بن جُبَيْرٍ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا أَبُو جُمُعَةَ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيُصَلِّيَ فِيهِ، وَمَعَنَا رَجَاءُ بن حَيْوَةَ رحمه الله يَوْمَئِذٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ خَرَجْنَا مَعَهُ لِنُشَيِّعَهُ، فَلَمَّا أَرَدْنَا الانْصِرَافَ، قَالَ: إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ جَائِزَةً وحقًّا أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقُلْنَا: هَاتِ يَرْحَمُكَ اللهُ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَعَنَا مُعَاذُ بن جَبَلٍ رضي الله عنه عَاشِرَ عَشَرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ مِنْ قَوْمٍ أَعْظَمُ مِنَّا أَجْرًا آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ؟ قَالَ: «**مَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم، **بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَأْتِيكُمُ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، قَوْمٌ يَأْتِيهِمْ كِتَابٌ بَيْنَ لَوْحَيْنِ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ أَجْرًا، أُولَئِكَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ أَجْرًا، أُولَئِكَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ أَجْرًا**»(١).

أي يؤمنون بأن هذا الكتاب من عند الله، فهذا إيمانٌ بالغيب.

والمقصود بأنهم أعظم أجرًا من الصحابة رضي الله عنهم أي: عظمة الأجر في الأمور التفصيلية إلا أن للصحابة رضي الله عنهم مثل أجورهم، حيث كانوا سببًا في إيصال الدين إليهم.

ولقد اشتاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمن يأتي من بعده ممن يؤمن به بالغيب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: «**السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**». قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**». فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلا يَعْرِفُ**

---

(١) الآحاد والمثاني (٢١٣٦)، وقال محقق الكتاب: وإسناده حسن، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣١٠)، وقال:" وهذا إسناد جيد؛ على ضعف في عبد الله بن صالح".

خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»(١).

وشعر ابن مسعود ﵁ بهذه الفضيلة العظيمة للإيمان بالغيب حيث روى عبد الرحمن بن يزيد ﵀: ذكروا عند عبد الله —بن مسعود- ﵁ أصحابَ محمد ﷺ وإيمانهم فقال عبد الله ﵁ : إن أمر محمدٍ ﷺ كان بيِّنًا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمنٌ أفضل من إيمانٍ بغيب، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ١ – ٣](٢).

وأما ثانيًا: فإن من أهم أسباب تقديم هذه الصفة أنها الصفة التي تقدم للإنسان أهدافًا حقيقية في الكون.. إنها التي تحقق للحياة غاياتها العظمى.. هي التي تبين أن هناك معنًى للوجود:

عند ذلك تترقَّى النفس للوصول إلى تحقيق أعظم الأهداف الغيبية الإنسانية.

عندما يؤمن بالغيب لا يضيع.. لن ينتحر؛ لأنه إذا أصيب بمصيبة أو وقع في كارثة، فهو يعلم أن هناك أجورًا تنتظره على صبره.. إنه يؤمن بغيب مشرق ينتظره.

إنها الأجور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ فعَنْ جَابِرٍ ﵄، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ؛ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**»(٣).

---

(١) مسلم (٢٤٩).

(٢) التفسير من سنن سعيد بن منصور (١٨٠) قال محقق الكتاب د. سعد آل حميد:" أقل أحواله أنه حسن لغيره"، والحديث أخرجه الحاكم (٣٠٣٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٣٣٠).

الإيمان بالغيب طوق النجاة من العدمية والتيه:

فإذا لم يؤمن الإنسان بالغيب تخبط، واستكبر، وفرح بما عنده من العلم الضئيل القليل، فيؤزه الشيطان ليكفر بما ذكر له الرحمن من الغيوب، فهذا نصر حامد أبو زيد يجعل القرآن أساطير الأولين لأنه لا يؤمن بالغيب، فيقول: "ما زال الخطاب الديني يتمسك بوجود القرآن في لوح المحفوظ اعتمادًا على فَهْمٍ حرفي للنص، وما زال يتمسَّك بصورة الإله المَلِك بعرشه وكرسيه وصولجانه ومملكته وجنوده الملائكة، وما زال يتمسَّك بالدرجة نفسها من الحرفية بالشياطين والجن، والسجلات، والعقاب، التي تدوَّن فيها الأعمال. والأخطر من ذلك حرفية صور العقاب والثواب، وعذاب القبر ونعيمه، ومشاهد القيامة، والسير على صراط... إلى آخر ذلك كله من تصورات أسطورية"[(١)]، وعدم الإيمان بالغيب جعل عبد المجيد الشرفي يقول: "حديث القرآن عن آدم وحواء وعن إبليس والجن والشياطين والملائكة وعن معجزات الأنبياء لا يضير المؤمن أن يرى في كلِّ هذا الذي ينتمي إلى الذهنية الميثية (الأسطورية) رموزًا وأمثالاً، لا حقائق تاريخية"[(٢)].

يردد الاثنان كلام القوى الوثنية التي لا تؤمن بالغيب، وقد ذكر الله ﷻ ما قالته القوى الوثنية أيام النبي ﷺ عن القرآن لعدم إيمانها بالغيب، فقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

---

(١) النص والسلطة والحقيقة لنصر حامد أبو زيد (ص:٧٠)، وانظر: إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر العدد٦٠.

(٢) الإسلام بين الرسالة والتاريخ لعبد المجيد الشرفي (ص:٦١)، وانظر: مقاصد العقلانية الحديثة وموقف الفكر الإسلامي منها (ص:٨٩).

إن لم يؤمن المرء بالغيب يشعر بأنه ضائع في حياته، فلا أهداف يحققها، ولا معنى لوجوده، وربما ردد مع أحد التائهين:

جئتُ، لا أعلمُ منْ أين، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقًا فمشيتُ
وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري! ولماذا لستُ أدري؟ لستُ أدري!

وهذا ضائع آخر ممن لا يؤمنون بغيب قبلي ولا بعدي يقول:

لبستُ ثوبَ العمرِ لمْ أُستَشَر وحرتُ فيه بين شتى الفِكَرْ
وسوف أنضو الثوبَ عني ولم أدرِ لماذا جئتُ أين المقَرْ

يقول: لم أستشر في المجيء لهذه الحياة، وسأموت ولا أعرف لماذا جئت وإلى أين سأذهب بعد الموت؟

أما المؤمنون بالغيب فيدرون الأجوبة عن الأسئلة الكبرى:

فيعلمون من أين جاءوا، وكيف جاءوا بما قصه الله عز وجل لهم من الغيب الماضي.

ولماذا جاءوا إلى الحياة بما قصه الله عز وجل عليهم من الغيب الذي يكشف سبب وجودهم.

وإلى أين سيكون مصيرهم بما أخبرهم الله عز وجل به من غيب المستقبل واليوم الآخر لأنهم يؤمنون بالغيب، وأعظم الغيوب هو الله سبحانه الذي أخبرهم في كتابه عن جوابه عن هذه الأسئلة[١].

---

(١) يمكن أن نذكر هنا كلمة لألبرت أينشتاين:

الإيمان بالغيب يوجه البوصلة ويجعل للحياة معنى:

وهذا الإيمان بالغيب يجعل أعظم الأهداف أمام أعينهم، وخذ هذه القصة تنبئك اليقين، فهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله يعبِّر عن هذه الأهداف العظيمة التي ينبغي أن تتطلع لها النفوس فيقول: «كَانَتْ لِي نَفْسٌ تَوَّاقَةٌ، فَكُنْتُ لَا أُبَالِي مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَاقَتْ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ، فَلَمَّا بَلَغَتْ نَفْسِي الْغَايَةَ تَاقَتْ إِلَى الْآخِرَةِ»، وفي رواية أن مُزَاحِمًا صاحب عمر قال لِعُمَرَ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي أَهْلِكَ خَلَلًا، فَقَالَ لِي: «يَا مُزَاحِمُ، أَمَا يَكْفِيهِمْ مَا يُصِيبُونَ مِنَ الْمَغَانِمِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَيْئِهِمْ مَعَ مَالِ عُمَرَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: وَأَيْنَ يَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَعَ مَا يَمُونُونَ، وَمَعَ ضِيَافَتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ نِسَائِهِمْ؟ قَدْ وَاللهِ خَشِيتُ أَنْ تُصِيبَهُمْ مَخْمَصَةٌ، فَقَالَ لِي عُمَرُ: «إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَّاقَةً، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَأَنَا بِالْمَدِينَةِ غُلَامٌ مَعَ الْغِلْمَانِ، ثُمَّ تَاقَتْ نَفْسِي إِلَى الْعِلْمِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ، فَأَصَبْتُ مِنْهُ حَاجَتِي، وَمَا كُنْتُ أُرِيدُ، ثُمَّ تَاقَتْ إِلَى السُّلْطَانِ فَاسْتُعْمِلْتُ عَلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ تَاقَتْ نَفْسِي وَأَنَا فِي السُّلْطَانِ إِلَى اللُّبْسِ وَالْعَيْشِ الطَّيِّبِ، فَمَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَلَا غَيْرِهِمْ كَانُوا فِي مِثْلِ مَا كُنْتُ فِيهِ، ثُمَّ تَاقَتْ نَفْسِي إِلَى الْآخِرَةِ وَالْعَمَلِ بِالْعَدْلِ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَنَالَ مَا تَاقَتْ نَفْسِي إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِي، فَلَسْتُ بِالَّذِي أُهْلِكُ آخِرَتِي بِدُنْيَاهُمْ»(١).

"How strange is the lot of us mortals! Each of us is here for a brief sojourn; for what purpose he knows not though he senses it. But without deeper reflection one knows from daily life that one exists for other people." "يا لغربة الكثير من البشر منا! كل واحد منا هنا لقضاء فترة وجيزة. لا يعرف لأي غرض، على الرغم من أنه يستشعر. ولكن من دون انعكاس أعمق يعرف المرء من الحياة اليومية أن واحدا موجود لأشخاص آخرين. "

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وأما ثالثاً: فإن الإيمان بالغيب يؤدي إلى اكتشاف هذا الكون، فالإيمان بالغيب يجعل المتقين يعلمون أن الله ﷻ سخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وأمرهم بالعلم ليكتشفوا حقائقهما:

يوضح ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ: «**ما أنزل الله داء، إلا قد أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[(١)]، زاد في سنن أبي داود: «**فَتَدَاوَوْا، وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[(٢)].

أرأيت! جعل النبي ﷺ الإيمان بالغيب أساس كل الاكتشافات للقوانين الفيزيائية والكيميائية والهندسية.. فما الذي يفعله هؤلاء المتقون إلا أنهم يؤمنون بغيب عنهم يتم اكتشافه من خلال المحاولات التي قد تمتدُّ إلى الآلاف فتنجح أو تخفق؟

لقد أثار القرآن الكريم عقول المؤمنين به مبكرًا، وأشعل لديهم جذوة التفكير فتوقَّدت واستضاءت لتقدم إنجازات وقفزات نوعية في العلوم الدينية والطبيعية على حد سواء، وهذا سر نهضة الأمة الإسلامية وتفوقها الحضاري عبر القرآن.

المحدود لا يحيط بالمطلق من عالم الغيب والشهادة:

عالَمُ الشهادة يقودنا مباشرة إلى خالقه، وإيماننا بخالق عالَم الشهادة يقودنا إلى إدراك أننا أضعف من أن نحيط بعالم الشهادة علمًا، فكيف يمكننا أن نحيط بعالم الغيب؟

محاولة إدراك عالَم الغيب دون مددٍ إلهي من عالِم الغيب والشهادة "محاولة فاشلة أولًا، ومحاولة عابثة أخيرًا:

فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال.

وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال.

---

(١) أحمد (٣٥٧٨)، وقال الأرناؤوط:" صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن".

(٢) أبو داود (٣٨٧٤). وقال الأرناؤوط:" صحيح لغيره"، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ص: ٣١٢).

ومتى سلَّم العقل البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق لزمه - احترامًا لمنطقه ذاته- أن يسلِّم بأن إدراكه للمطلق مستحيل.

وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون".

وفي هذا المعنى يقول أبو بكر الصديق ﷺ:

العـجزُ عـنْ دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ ... والبحثُ عنْ سرِّ ذاتِ الربِّ إشراكُ(١)

فإن قلت: كيف يكون الإيمان بالغيب مصدرًا للإيمان وبيانًا لصدق الرسالة؟

الجواب: هناك غيوب متعدِّدة تصبح شهادة مع تقدُّم البشرية تكون غيوبًا في مرحلة ثم تصبح شهادة في مرحلة أخرى، فيراها المخبتون.. يراها غير المعاندين، فتكون هادية لهم ليؤمنوا أو ليزدادوا إيمانًا، وأخبرنا الله تعالى أن المستقبل الكاشف لتحويل عالم الغيب والشهادة يختلف فقد يكون قريبًا وقد يكون بعيدًا، وقد يكون بين ذلك:

فقال ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص ٨٧-٨٨].

وهنا قد تتساءل: متى هذا الحين؟

أجيبك: الحين قد يبدأ بعد نهاية الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].. الغيوب تتكشف لك في الحياة الآخرة.

وقد يكون الحين بعد سنة، كما قال تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وقد يكون الحين بعد فترة قريبة أو بعيدة كما قال تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وربما عدت فسألت: هل من توضيح أكثر للوقت الذي نرى فيه الغيب شهادة؟

---

(١) روضة الأخيار، لمحيي الدين ابن الخطيب (٣٨٦).

أجيبك: نعم! فالقرآن العظيم يخبرك بأن الوقت الذي يتحول فيه عالم الغيب إلى عالم الشهادة قد يكون دانيًا قريبًا، فيقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، فهذه السين تدلُّ على المستقبل القريب عند بعض البيانيين.

ثم وجدنا الله ﷻ يقول لنا عن تحول عالم الغيب إلى شهادة: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، فهذه سوف تدلُّ على المستقبل البعيد عند بعض البيانيين.

الغيب يتحول إلى شهادة:

فإن قلت فهلا زدت الأمر إيضاحًا، فتذكر أمثلة تقرِّب لنا البعيد، وتملأ القلوب بالإيمان والتوحيد؟

الجواب: نعم! فخذ بعض الأمثلة على تحول عالم الغيب إلى شهادة لترى فيه الإيمان العظيم:

أخبرنا الله ﷻ في القرآن بوقوع أمور غيبية في المستقبل القريب في قوله تعالى:

المثال الأول: انتصار الروم في المستقبل القريب من نزول القرآن:

كان هذا مثالًا مدهشًا، وآية بينة لقوم يعقلون، ويحدثنا ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عن ذلك فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قَالَ: غُلبت وغَلَبت. قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فذُكر ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لَهُمْ، فَقَالُوا: "اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذا وَكَذَا". فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونَ**-أَرَاهُ قَالَ-

الْعَشْرِ»- قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ- قال: ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥](١).

وَفي رواية للطبري ﷺ عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فَارِسُ ظَاهِرًا عَلَى الرُّومِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الروم. وكان الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى دِينِهِمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١-٤] قَالُوا: يَا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، إِنَّ صَاحِبَكَ يَقُولُ: إِنَّ الرُّومَ تَظْهَرُ عَلَى فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ؟! قَالَ: صَدَقَ. قَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ نُقَامِرَكَ، فَبَايَعُوهُ عَلَى أَرْبَعِ قَلَائِصَ إِلَى سَبْعِ سِنِينَ، فَمَضَتِ السَّبْعُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ، فَفَرِحَ الْمُشْرِكُونَ بِذَلِكَ وَشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "مَا بِضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ"؟ قَالُوا: دُونَ الْعَشْرِ. قَالَ: "اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ فِي الْأَجَلِ". قَالَ: فَمَا مَضَتِ السَّنَتَانِ حَتَّى جَاءَتِ الرُّكْبَانُ بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ، فَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾(٢).

---

(١) الترمذي (٣١٩٣). وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٧٢)، وضعف إسلام منصور إسناده؛ من أجل سفيان بن وكيع الذي كان صدوقًا، لكنه ابتلي بورّاقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح، فلم يقبل، فسقط حديثه. ينظر: تفسير الطبري (٩/ ٦٣) طبعة دار الحديث، الرواية التي هي بسند حسن عند الطبري، عن قتادة ﷺ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قال: غلبتهم فارس على أدنى الشام ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ...﴾ الآية، قال: لما أنزل الله ﷻ هؤلاء الآيات صدّق المسلمون ربهم، وعلموا أن الروم سيظهرون على فارس، فاقتمروا هم والمشركون خمس قلائص خمس قلائص، وأجلوا بينهم خمس سنين، فولي قمار المسلمين أبو بكر رضي الله عنه، وولي قمار المشركين أُبيّ بن خلف، وذلك قبل أن ينهى عن القمار، فحل الأجل، ولم يظهر الروم على فارس، وسأل المشركون قمارهم، فذكر ذلك أصحاب النبيّ للنبي ﷺ قال: "لَمْ تكُونُوا أَحِقَّاءَ أَنْ تُؤَجِّلُوا دُونَ العَشْرِ،

ولك أن تتصوَّر حال الفئة المؤمنة في الصدر الأول يتقدمهم الصديق الأكبر وهم يرون ما آمنوا به غيبًا وتلقَّفوه بالتسليم والتصديق من حبيبهم ﷺ يرونه واقعًا مشهودًا منظورًا، أي عظمة تلك للإيمان بالغيب عاشوها؟ وأي لذة ذاقوها؟ وأي جلال من جلال الله تشرَّبوه؟

المثال الثاني: الإخبار الغيبي عن مستقبل أبي لهب وزوجته:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥]، فظهر صدق القرآن؛ إذ كان يمكن لأبي لهب إظهار التكذيب بأن يسلم وزوجته ولو نفاقًا.

"وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ، لَمْ يُقَيِّضْ لَهُمَا أَنْ يُؤْمِنَا، وَلَا وَاحِدَ مِنْهُمَا لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعْلِنًا، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الْبَاهِرَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ"(١).

المثال الثالث: الغيوب الكثيرة المتعلقة بآيات الأنفس والآفاق حيث تكتشفها البشرية مع تقدمها في العلوم:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فالله تعالى يذكر حقيقة أن الكون يتوسَّع، ولكن هذه الحقيقة لا يستطيع من يسمعها أن يكذبها؛ لأنها تتكلم عن أمرٍ لا يمكن للبشرية اكتشافه إلا بأدوات أقوى من الأدوات المعتادة.. لقد مالت البشرية

فإنَّ البِضْعَ ما بينَ الثلاثِ إلى العَشْرِ، وَزَايِدوهُمْ فِي القِمار، وَمادُّوهُمْ فِي الأَجَلِ"، ففعلوا ذلك، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس البِضْعِ سنينَ من قمارهم الأوّل، وكان ذلك مرجعه من الحديبية، ففرح المسلمون بصلحهم الذي كان، وبظهور أهل الكتاب على المجوس، وكان ذلك مما شدَّد الله ﷻ به الإسلام وهو قوله: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ...) الآية. وحسنه إسلام منصور. تفسير الطبري (٩/ ٦٢) طبعة دار الحديث.

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٧).

إلى اعتبار أن الكون محدود ولا يتوسَّع حتى افترض (إينشتاين) ذلك في نظريته النسبية، واحتوت نظريته على مصطلح سماه الثابت الكوني the cosmological constant.. لكن الجميع اكتشف أن الكون يتوسع.

حدث ذلك عندما تقدَّمت البشرية، فحسب موقع ناسا بالعربي في عام ١٩٢٩م، اكتشف عالم الفلك (إدوين هابل) Edwin Hubble من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا Caltech اكتشافًا خطيرًا قاد العلماء مباشرةً للإجابة عن هذه الأسئلة: فقد اكتشف أنَّ الكون يتوسع. ولما علم (إنيشتاين) ذلك عدّ افتراضه خطأ فادحًا[1].

فقد أخبرنا الله ﷻ بذلك من قبل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل ٦٧].

وأظنه يجول في بالك سؤال لافت جدًا حري بنا أن نتأمله جيدًا: لماذا قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] فجاء الكلام عنهم بصيغة الفعل المضارع، ولم يقل: آمنوا بالغيب، وأقاموا، وأنفقوا؟

والجواب أن الفعل الـمُضارِع هنا يحدثك عن العاطفة الجياشة التي تجتاح أنفسهم فرحًا بإيمانهم.. يحدثك الفعل المضارع عن العظمة الكاملة التي شعروا بها عندما عرفوا النور الأعظم.. يحدثك كيف تزلزلت عقولهم وأفكارهم السابقة، فآمنوا بما جاء به النبي الخاتم الأكرم ﷺ ومجد وكرَّم.

ولكنك ستقول: وكيف أفادتنا هذه الأفعال المضارعة ﴿يؤمنون-يقيمون-يؤتون﴾ ذلك؟.

كيف اكتنز هذا الفعل كل هذه المعاني؟

فإليك أيها الخِل المجتبى أُوجِّهُ دعوة لكي نتأمل سويا في الأمر: فالفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار: التَّجَدُّد في الإيمان بِالغَيْبِ، والتَجَدُّد في إقامَتِهِمُ الصَّلاةَ، والتَجَدُّد في

---

(١) ينظر هذا الرابط: https://nasainarabic.net/main/articles/view/frgreg

الإنْفاق.. بعد أن بهرهم نور النبوة، فأقنع عقولهم، وملأ عواطفهم، وأشبع أحاسيسهم انطلقوا في مضمار الحياة لا يكسلون إلا وفق الطبيعة الإنسانية الغالبة:

الفعل المضارع ﴿يؤمنون﴾ ينبئك أنهم إنْ آمنوا بغيبٍ لم يقفوا عنده حتى يؤمنوا بغيب آخر سمعوا عنه وفق الدليل العلمي الخبري...

الفعل المضارع ﴿يقيمون﴾ يعلِّمك أنهم إنْ أقاموا الصلاة رابطت قلوبهم وأفئدتهم انتظارًا للصلاة الآتية، فإن فرغوا من شغلهم رأيت الواحد منهم يقف على قدميه، فينصب، وإلى ربه يتجه ويرغب.

الفعل المضارع: ﴿ينفقون﴾ يخبرك أنهم إن أنفقوا مرة من مالهم لم يملوا، ولا اكتفوا بل يعودون للإنفاق مرة بعد أخرى، وهذا الفعل ﴿ينفقون﴾ يحدثك أنهم إن أنفقوا من أموالهم بحثوا عن سبيلٍ ينفقون فيه من علمهم.. من خبرتهم.. من جاههم.. من محبتهم..من عاطفتهم.. من شفاعتهم..من قوتهم.. إنهم ينفقون، ولا يملون

أفرأيت عظمة التعبير بالفعل المضارع في هذا الكتاب المكنون؟ أرأيت اكتناز الفعل المضارع لهذه المعاني التي تتكشف لك طبقة من تحت طبقة؟ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

إذْ لَمْ يَكُونُوا مُتَّصِفِينَ بِذَلِكَ إلّا بَعْدَ أنْ جاءَهم هُدى القُرْآنِ.

كانت تلك الصفة الأولى الأساسية من صفات المتقين (الإيمان بالغيب)، فما الصفة الثانية؟

الصفة الرابعة: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذه الصفة تعبر عن أهم الصفات السلوكية التي تنظم حياة الإنسان.. الصفة التي توجد الإشراق بالاتصال بمالك الملك العالم الخلاق:

جاءت هذه الصفة المميزة للمتقين بعد صفة الإيمان بالغيب لتبين جمال الاتصال القرآني المنطقي؛

ربما نتساءل: لكن ما المناسبة والاتصال بين هذه الصفة والإيمان بالغيب؟

والجواب عن ذلك من وجوه: **أما أولًا**: فالواو في قوله: ﴿ويقيمون﴾ عطفت إقامةَ الصلاة على الإيمان بالغيب، وحقيقة إقامة الصلاة إيمانٌ بالغيب، فأنت تصلي لله ﷻ ابتغاء مرضاته، ورجاء ثوابه، وطلب محبته، وكلُّ تلك غيوب، وأنت لا تناجي أثناء الصلاة من تراه، بل تناجي من كأنك تراه، وذلك أيضًا غيب.. فمعنى ذلك أن حقيقة الصلاة موجودة في الإيمان بالغيب، والعكس صحيح.

وربما سألت وقلت: فهل يجوز عطف شيء على ما هو منه؟

أجيبك: نعم! فهو مِن بابِ التفصيل بعد الإجمال، كَما في قَوْلِهِ: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البَقَرَة: ٩٨].

وأما ثانيًا: فالإيمان بالغيب شيء قلبي عقلي وجداني يدلُّ عليه في الواقع الحال والعمل، والعمل:

إما أن يكون بينك وبين الله تعالى فهو الصلاة.

وإما أن يكون بينك وبين الناس فهو الإنفاق، ولذلك جمع بينهما في آية واحدة.

وإما أن يكون بينك وبين أخص أصناف الناس، وهم مَنْ آمنوا بالأنبياء السابقين فهي الصفة السادسة.

وإما أن يكون بالاستعداد للمستقبل القادم، وهو يتعلّق بالإيمان بالآخرة.

هكذا رأيت الصفات متصلة بالإيمان بالغيب، وتراها متلاحمة مترابطة.

والصلاة لا يمكن الشعور بجمالها إلا لمن آمن بالغيب فتيقَّن بالحياة والقيومية لمن يصلي له، فالله هو الحي القيوم.. هناك فقط تشعر بالإشراق الإنساني عندما تتصل بمالك الملك، ومن أجل ذلك وصفها النبي ﷺ بأنها نُورٌ[١].

فيا لجلال وجمال موقف العبد حينما يقف برحاب مولاه مصلّيًا قانتًا تاليًا لآياته يملؤه الشعور الفياض أن الكون بأجمعه قد صار محرابًا لعبادة الحي القيوم العظيم.

الـكَـونُ حَـمْـدٌ و الـسَّـــمَـا تَـهْـلِـيـلُ ... والـلـيـلُ سِـــحْـرٌ و الـهَـوَاءُ عَـلِـيـلُ
والأرضُ مِـحْـرَابٌ صَـــدَاهُ الـوَحْـيُ ... مِنْ آيِ الكِتَـابِ شِـعَـارُهُ التَّبْجِيـلُ
والسَّـــفْـحُ يَعْشَـــبُ و الرَّوَابِي جَـنَّـةٌ ... وَالزَّهْرُ يَعْبَقُ و الغُصُـــونُ تَـمِيـلُ
والرُّوحُ يَغْمُرُهَـا السُّـــرُورُ و تَنْتَشِـــي ... والقَلـبُ يَخْشَـــعُ و الدمُوعُ تَسِـيـلُ
والـنَّـفْـسُ تَسْـــمُـو في مَرَاقِي عِـزِّهَـا ... إنْ قِـيـلَ شَـــعَّ بِنُـورِهِ الـتَّـنْـزِيـلُ[٢]

فإن قلت: هذه الصفة جمعت بصورة مدهشة بين القلب واللسان والأركان (أركان الجسد)، فهل فيها بذل مالي؟

والجواب: نقول عند التوسُّع: نعم! ستسأل: لماذا؟

لأن الوقت الذي تقدِّمه تفريغًا لفكرك وقلبك ونفسك وجسدك في ميدان السمو العظيم عند الله.. كان يمكن أن تبذله في التخطيط لمسألة دنيوية، أو البحث عن عمل يُدِرُّ عليك مالاً لكنك آثرت أن تجعله لسُمُوِّ نفسك ورُقِّيها في معارج الصلاة ومراقيها، ففي الصلاة أيضًا

---

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) أبيات للدكتور سعيد بن دحباج من قصيدة بعنوان (يا عصبة القرآن).

شائبة واضحة من الإنفاق المالي.. يشير إلى هذا الشيخ الشعراوي ﵀ إذ جعل كل أركان الإسلام مجتمعة في الصلاة.

ولكنك ربما سألت: لماذا جمع الله ﷻ بين إقامة الصلاة وبين صفة الإنفاق في آية واحدة، وتكرر هذا الاقتران العظيم في القرآن الكريم؟

الجواب: العلة من وراء ذلك ليبين الله تعالى لك أن الأثر الحقيقي للصلاة أن تبني الحياة مع الآخرين، وتتخذ من صلاتك مصدرًا للأمر والنهي المتعلِّق ببقية شؤون الحياة، ورأس ذلك أن تنفق مما عندك على الآخرين.

هنا تعلم سفاهة الرأي الذي اعترض به قوم شعيب على شعيب ﵇ حينما أمرهم بعبادة الله وحده من جهة، وأمرهم بالإصلاح الاقتصادي من جهة أخرى، فردُّوا عليه، فقالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧]؟

لقد استنكروا أن تكون صلة بين الصلاة وبقية شؤون الحياة، والله تعالى يعلمنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي متصلة ببناء الحياة.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكتنز الأسرار ولطيف المعاني:

لأنك شغوف بجمال التعبير القرآني فإنك ستسأل: لماذا وصف الله ﷻ أداءهم للصلاة بقوله ﴿ويقيمون﴾ ولم يقل يؤدون أو يصلون؟

أقول لك: هذا سؤال لافت وجوابه: لأن التعبير بكلمة (يقيمون) يدلُّ على إعجازٍ بياني يبني لك المعاني التربوية التزكوية العظيمة، فأنبأتك كلمة ﴿يقيمون﴾ بأنه لا بد أن يجتمع عندك خمس حقائق في الصلاة حتى تقيمها على وجهها الذي أراده الله تعالى:

الحقيقة الأولى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تقتضي أن ينشطوا عند القيام لها، وأن يظهروا الاهتمام بها:

فإن قلت: كيف فهمنا ذلك من قوله ﴿يقيمون﴾؟

الجواب: لأن أَصْل الْقِيَامِ فِي اللُّغَةِ هُوَ الِانْتِصَابُ الْمُضَادُّ لِلْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ، والقيام يحتاج إلى بذل طاقة وقوة أكثر من الاضطجاع والجلوس، وَإِنَّمَا يَقُومُ الْقَائِمُ لِقَصْدِ عَمَلٍ صَعْبٍ لَا يَتَأَتَّى مِنْ قُعُودٍ، فَيَقُومُ الْخَطِيبُ، وَيَقُومُ الْعَامِلُ، وَيَقُومُ الصَّانِعُ، وَيَقُومُ الْمَاشِي[1].

إذن كلمة (يقيمون): من أقام، أي جعل الشيء قائمًا، وذلك يعني أن تقيم جسدك، وتقوم بنفسك لتؤدي صلاتك.

﴿يقيمون﴾ تحذِّرك من كَسَلِك وتوانيك.. اصبر على تكلُّف الإتيان بالصلاة كما ينبغي. دعني أقرب لك المسألة: الرياضي يتكلف حتى يقيم أعضاء جسده كما ينبغي، والمتدِّرب على المهارات الجسدية يتكلَّف حتى يتقن حركاته، فما بالك تتعجَّل في صلاتك؟ فلا تقيم صورتها على الوجه المرضي.. ذلك يكون صعبًا في البداية لكنك ستجد لذته مع التدُّرب والاستمرار.

﴿يقيمون﴾: يتكلفون تحريك أجسادهم نحوها.. لقد سلك الصالحون السبل، وجاهدوا أنفسهم ليقيم أحدهم صلاتهم على الوجه الأكمل، ومن هؤلاء ثابت البناني رحمه الله قال: "كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتَنَعَّمْتُ بها عشرين سنة"[2]، وقال أبو يزيد رحمه الله: "سُقْتُ نفسي إلى الله عز وجل وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انساقت إليه وهي تضحك"[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣١).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٢٠).

(٣) نقله ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٣٢١).

فهذا هو المعنى الأول الذي حبتنا به كلمة ﴿يقيمون﴾، فهم يحرِّكون أجسادهم إلى الصلاة، وهذا يخبرنا لماذا قال النبي ﷺ: «**لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاة**»(١).

الحقيقة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي يداومون فيربحون، وفصَّل الله ﷻ ذلك في سُوَر أخرى، فقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الْمَعَارِج: ٣٤]، وقَال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [الْمَعَارِج: ٢٣]:

لكنك ربما سألت: كيف أخذنا معنى المداومة من كلمة ﴿يقيمون﴾؟

الجواب: مِنْ قَامَتِ السُّوقُ إِذَا نَفَقَتْ، وَإِقَامَتُهَا نَفَاقُهَا: أي أنها تقوم باستمرار، فحركة الاستثمار جارية فيها لا تتعرَّض للكساد، فإِذَا حُوفِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ كَالشَّيْءِ النَّافِقِ الَّذِي تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الرَّغَبَاتُ، وَإِذَا أُضِيعَتْ كَانَتْ كَالشَّيْءِ الْكَاسِدِ الَّذِي لَا يُرْغَبُ فِيهِ، كما قال الشاعر:

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ... ـضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا

وقال الآخر:

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ ... لِأَهْلِ العِرَاقيْنِ حَولًا قَمِيطًا(٢)

الحقيقة الثالثة: ﴿يقيمون﴾ تقتضي أن يقيموا صورة الصلاة وهيئتها، بتعديل أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها وسننها وآدابها:

فإن سألت: كيف فهمنا أن المقصود بكلمة ﴿يقيمون﴾ أن نقيم هيئتها وصورتها؟

الجواب: لأن كلمة ﴿يقيمون﴾ تنبئك بأنهم يقيمونها كما يقيمون العُوْد، ويقيمون البيت، وبذلك فيجب أن تقيم صورة الصلاة على الوجه الذي تكون به قائمة لا مختلَّة ولا معتلَّة، فتجعلها كالشيء القائم غير المختلِّ، ولا المعتلّ، ولا المائل، ولا المتحرك الجائل.

---

(١) البخاري (٢١١٩)، مسلم (٢٣٢)، ومعنى: (لا ينهزه): لا يدفعه وينهضه ويحركه إلا الصلاة.

(٢) الكشاف (١/ ٤٠)، والقميط: التام.

هكذا علم النبي ﷺ أمته إقامة صورة الصلاة على وجهها، فقد دَخَلَ رجل الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» فَرَجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا: عَلِّمْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**» وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، فِي الأَخِيرِ: «**حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا**»[(١)].

الحقيقة الرابعة: ﴿يقيمون﴾ يقتضي أن تقيم حقيقتها وروحها؛ حتى تستطيع تذوُّقها؛ إذ للصلاة ولسائر العبادات صورة وحقيقة، وكلاهما مطلوب، فصورة الصلاة الأذكار والأركان وحركات الأعضاء واللسان، وحقيقتها التي بها تقام: الخشوع والوصول إلى السكينة والاطمئنان وعدم الفتور في أدائها والقرب من الرحمن، وإقامة الصورة فقط سلب لحقيقتها وروحها.

ولعلك ستسأل: كيف دلَّ قوله تعالى: ﴿يقيمون﴾ على أنك يجب أن تقيم حقيقة الصلاة إن أردت أن تكون من المتقين؟

الجواب: السر وراء ذلك أن كلمة ﴿يقيمون﴾ مشتقة من قَوْلِهِمْ: أقام العود- إذا قَوَّمَهُ[(٢)]، وقَامَ بِالْأَمْرِ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقِهَا، وَفِي ضِدِّهِ: قَعَدَ عَنِ الْأَمْرِ، وَتَقَاعَدَ عَنْهُ إِذَا تَقَاعَسَ وَتَثَبَّطَ، فالمتقون يجدون لذة الصلاة، والْقَيِّم بِأَرْزَاقِ الْجُنْدِ إِنَّمَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ قَيِّمًا إِذَا أَعْطَى

---

(١) البخاري (٦٢٥١).

(٢) تفسير الزمخشري (١/ ٣٩).

الْحُقُوق مِنْ دُونِ بَخْسٍ وَنَقْصٍ، وَلِهَذَا يُوصَفُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَائِمٌ وَقَيُّومٌ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ دَوَامُ وُجُودِهِ(١)، ولأنه يقوم على غيره، وهل يُتصوَّر الكون دون أن يقوم عليه مَنْ لا تأخذه سِنَة ولا نوم ليحميه، ويُدِيم إِدْرَارَ الرِّزْقِ عليه؟. فكلمة ﴿يقيمون﴾ تنبئك أنهم يقيمون حقائقها كما أقاموا صورتها فأدوا حقوقها.

عندما تقيم صورة الصلاة وحقيقتها هناك: تتذوقها، فتجد لذتها، اللهم ارزقنا لذتها يا أرحم الراحمين.

ولقد حثَّك النبي ﷺ أن تتذوَّق طعم الإسلام وأن تجد لذَّته، ولا تكتفي بصورته، فقال: كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...**»(٢)، قال ابن رجب رحمه الله: "الإيمان له حلاوة وطعم يذاق بالقلوب، كما تذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم؛ فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقُوْتُها، كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقُوْتُها"(٣).

ولذا يلاحظ الراغب رحمه الله ببصر منير ثاقب أن كلّ موضع مدح الله تعالى بفعل الصَّلَاةِ أو حثّ عليه ذكر بلفظ الإقامة، نحو: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، **ولم يقل: المُصَلِّينَ إلّا في المنافقين، نحو قوله:** ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، **وإنما**

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٧٤).

(٢) البخاري (١٦)، مسلم (٤٣).

(٣) فتح الباري لابن رجب (١/ ٥٠).

خصَّ لفظ الإقامة؛ تنبيهًا أنَّ المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط(١).

ولكن هذه القاعدة قد تعترض عليها بأنها منتقضة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج ٢٢-٢٣].

لكنك تشعر بأنه لا موجب لأن يقول هنا: إلا المقيمين للصلاة؛ لأنه فصَّل أوصافهم التي بها يقيمون الصلاة، ومنها أنهم دائمون للصلاة، وعليها يحافظون، ويراعون ما يتعلَّق بها من جميع الصفات الأخرى.

وقد تعترض على ذلك بقول المجرمين وهم يخبرون عن سبب وجودهم في النار: ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ [المدثر: ٤٣]، وكذلك قول الله ﷻ عن الهارب من رحاب سعادته: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة:٣١]، فأقول لك: هذا لا يُعترض به على القاعدة التي ذكرناها؛ لأن الله تعالى يخبرنا عن هؤلاء أنهم لا يتنمون لأهل صورة الصلاة فضلًا عمَّن يقيمها.

يشعر الألوسي رحمه الله بهذا الحقائق الأربع من معاني قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فيقول: «ومعنى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعدلون أركانها بأن يوقعوها مستجمعة للفرائض والواجبات، أولها مع الآداب والسنن من: أقام العُوْدَ إذا قَوَّمَهُ، أو يواظبون عليها ويداومون من: قامت السوق إذا نَفَقَتْ، وأقمتها إذا جعلتها نافقة، أو يتشمرون لأدائها بلا فترة عنها ولا توانٍ من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جَدَّ فيه، أو يؤدونها ويفعلونها وعبَّر عن ذلك بالإقامة لأن القيام بعض أركانها»(٢).

فإن وجدت هذه الحقائق الأربع:

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٢٨٦).

(٢) روح المعاني (إحياء التراث العربي) (١/ ١١٥).

الأولى: أن تنشط للقيام بها عند القيام لها، وأن تظهر الاهتمام بها.

الثانية: أن تداوم عليها.

الثالثة: أن تقيم صورتها وهيئتها الخارجية.

الرابعة: أن تقيم حقيقتها.

هناك تجد للصلاة لذة كبيرة؛ وجدها رسول الله ﷺ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّب إليَّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجُعلَت قرة عيني في الصلاة**»(١).

لقد أخذت لذّة الصلاة بمجامع فؤاد النبي ﷺ، ويعلِّم أصحابه رضي الله عنهم تنمية هذه العاطفة فروى رجل من أصحاب النبي ﷺ مِنْ خُزَاعَةَ قال: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا**»(٢).

قيل لمالك بن مِغْول رحمه الله – وهو جالس في بيته وحده –: ألا تستوحش؟ قال: أَوَ يستوحش مع الله أحد؟ وكان حبيب أبو محمد رحمه الله يخلو في بيته ويقول: "من لم تقرَّ عينه بك فلا قرَّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أَنِس"(٣).

---

(١) أحمد (١٤٠٣٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سَلام أبي المنذر، فهو صدوق حسن الحديث. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣١٢٤).

(٢) أبو داود (٣٩٨٥)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مسدد فمن رجال البخاري. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٨٩٢).

(٣) جامع العلوم والحكم. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس (١/ ١٣٣).

الحقيقة الخامسة: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ذكرها الله ﷻ في أول سورة البقرة؛ ليدلِّل على صدق نبوَّة النبي ﷺ، وليقيم الحُجَّة على أهل الكتاب.

كيف فهمنا هذا المعنى العجيب: أن إقامة الصلاة حجة على أهل الكتاب، وبرهان على نبوة النبي ﷺ؟

الجواب: لأن إقامة الصلاة وفق الحقائق الأربع السابقة بما في ذلك إقامة صورة الصلاة دليلٌ عظيم على صحة نبوة النبي ﷺ، وتغيير أهل الكتاب لدينهم؛ فقد جاء النبي ﷺ ليعيدهم إلى ما غيروه من دينهم، فعلى الهيئة التي نقيم عليها صلاتنا علَّم الأنبياء عليهم السلام أقوامهم الصلاة، فوصف الله ﷻ آل إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وأول أمر تفصيلي تلقاه موسى عليه السلام أن يقيم الصلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٣-١٤].

وتعال بنا إلى كتاب أهل الكتاب المقدس لنجد فيه –على الرغم من تحريفه– وصفًا لصلاة الأنبياء لا يشبهه إلا صلاة المسلمين:

فنجد عند اليهود الوضوء لكنهم يكتفون بغسل اليدين، وزاد بعض حاخاماتهم، فقد قال الحاخام سعيد الفيومي في كتابه "جامع الصلوات والتسبيح": «وينبغي أن نُثبت شروط الصلاة التي لا بد منها. أما قبل كلِّ صلاة لا بد من غسل اليدين وحدُّ ذلك إلى الزندين، والرجلين إلى الكعبين من أيِّ صنعة عملية بعد الاستنجاء وغُسل الوجه على هذا الترتيب».

ويظهر لي أن ذلك تحريف وهروب من الطهارة المطلوبة، ويخبرك بذلك أنهم يتناقلون أنه خلال فترة التلمود وفي بعض الحالات، كانت الصلاة، لا تصحُّ بدون غسل الجسم.

ويخبرنا سفر (التكوين ٣:١٧-٥) أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يسجد لله عز وجل: "فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلاً: «أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ...»[(١)].

وكذلك موسى وهارون عليهما السلام كانا يسجدان لله عز وجل أيضًا، ففي سفر (العدد ٢٠:٦): "فَأَتَى مُوسَى وَهَارُونُ مِنْ أَمَامِ الْجَمَاعَةِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَسَقَطَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا، فَتَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ"[(٢)].

وفي وصف عيسى عليه السلام نجد وَصْفَ صلاته شبيهة بما يقوم به المسلمون:

ففي سفر لوقا ٦: ١٢ "وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليُصلي. وقضى الليل كُله في الصلاة لله"[(٣)].

وفي لوقا٢٢: ٤٥ "ثُم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نيامًا من الحُزن"[(٤)].

وفي لوقا٢٢: ٤١ "وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على رُكبتيه وصلى. قائلاً يا أبتاه إن شئتَ أن تُجيز عني هذه الكأس"[(٥)].

وفي مرقُس١١: ٢٥ " ومتى وقفتم تُصلون...."[(٦)].

---

(١) سفر التكوين (ص: ٢٦).

(٢) سفر العدد (ص: ٤٢).

(٣) سفر لوقا (ص: ١٢).

(٤) سفر لوقا (ص: ٤٩).

(٥) سفر لوقا (ص: ١٢).

(٦) سفر مرقس (ص: ٢٣).

وفي متى٢٦: ٣٩ "ثُم تقدم قليلاً وخر على وجهه، وكان يُصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس"(١).

وفي متى ٢٦: ٣٦-٣٩ حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: اجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ... ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَان يُصَلِّي(٢). وفي مرقُس١٤: ٣٥ "ثُم تقدم قليلاً وخر على الأرض، وكان يُصلي لكي تعبر عنهُ الساعة إن أمكن"(٣).

بل إن تحية المسلمين وتحية الفراغ من الصلاة ليست إلا التحية التي كان يقولها عيسى عليه السلام، ففي لوقا ٢٤: ٣٦ "وبَينَما التِلْميذانِ يتكلّمانِ، ظهَرَ (عيسى) هوَ نَفسُهُ بَينَهُم وقالَ لهُم: سَلامٌ علَيكُم"(٤).

ولقد أخبر موسى عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن وجود الصلاة في حياة بني إسرائيل، فقال: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء والمعراج، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى** عليه السلام **فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ**» وفي البخاري: «**أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ**»(٥).

---

(١) سفر متى (ص: ٥٠).

(٢) سفر متى (ص: ٥٠).

(٣) سفر مرقس (ص: ٢٩).

(٤) سفر لوقا (ص: ٥٤). ينظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت - http://St-Takla.org.

(٥) مسلم (٢٥٩)، البخاري (٣٢٠٧).

ولقد حافظ بعض اليهود والنصارى على الكيفية العامة للصلاة بما فيها من ركوع وسجود، ولذا ذكروا ذلك في أشعارهم:

فقالَ النّابِغَةُ في ذِكْرِ دَفْنِ النُّعْمانِ بْنِ الحارِثِ الغَسّانِيِّ:

فَآبَ مُصَلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بِالجُولانِ حَزْمٌ ونايِلُ(١)

وقالَ:

أوْ دُرَّةٌ صَدَفِيَّةٌ غَوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدُ(٢)

وربما سألت: لماذا اختار الله ﷻ هذا المصطلح (الصلاة) ليعبر عن العبادة ذات الأذكار والأركان بينما قصرها العرب على الدعاء؟

أجيبك: إنها بصيرة جديدة حيث يبصِّرنا اختيار هذا المصطلح (الصلاة) لأجلِّ العبادات الإسلامية:

لإظهار غاية الصلاة؛ إذ غايتها أن تكون أعظم أوجه صلة الإنسان الضعيف المحتاج بربه القوي الغني، فحقيقة الصلاة صلة ممتلئة بالثناء على رب الأرض والسماء الله ﷻ، وهو الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].. ولا يعزبن عن ذهنك الوقاد أنك إذا ذكرت الله ﷻ ذكرك، وإذا أثنيت عليه أثنى عليك، فحقيقة صلاتك أن تقيم حياتك، وتبحث عن مصلحتك، لا لأجل نفعٍ يعود إلى ربك.

ولكنك ستسأل: كيف ذلك؟ كيف تعني كلمة الصلاة: الصلة الممتلئة بالثناء؟

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر – الجزائر، ١٩٧٦م، (ص: ١٨٩)، ومصلوه: أي صلوا عليه، وهم الرهبان يدعون للميت، لأن النعمان كان متنصرًا، بعين جلية: أي بعين شاهدت موته ودفنه.

(٢) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٩٦).

أجيبك: الصلاة مشتقة في الأصل من صَلِيَ يصلى صليًا، وهذا التعبير يكشف لك عن صلة بين جهتين على سبيل الدمج القوي بينهما، فمن ذلك:

الأول: الصَّلْيُ: هو الإيقادُ بالنار، فهي صِلة قوية، فيقال: صَلِيَ بالنار أي: قاسى حرها، وأَصْلَاهَا غيرَهُ، قال ربنا ﷻ: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾ [النساء:٣٠]، وصَلَيْتُ الشاةَ: شويتها، وهي مَصْلِيَّةٌ. قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: ٦٤]، وقال: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]، وقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فيقال: صَلَيْتُ الْعُودَ بِالنَّارِ، والصِّلَاءُ وَالصَّلَى: مَا يُصْطَلَى بِهِ وَمَا يُذْكَى بِهِ النَّارُ وَيُوقَدُ، ويقال للوقود وللشّواء. وَقَالَ:

تَجْعَلُ الْعَوْدَ وَالْيَلَنْجُوجَ وَالرَّنْ ... دَ صِلَاءً لَهَا عَلَى الْكَانُونِ(١)

الثاني: التصلية: صلَّيت العصا تصلية: إذا أَدَرْتها على النار لتقوِّمها، وكذلك إدارتك للحم على النار إنما كان لتلينه وتقومه ليصلح أن يكون أهلًا لأن يطيب لك ويوائمك للعمل، أو للأكل، فاذكر هذه الفكرة عند كلامنا عن الصلاة.

الثالث: التصلية تقال للتدفئة المريحة، قالوا: "صَلَى ظهره بالنار (رمى): أدفأه" فهذا مجرد تقريب الظهر من النار ليدفأ ويلين، ثم صار الاصطلاء الاستدفاء مطلقًا للظهر ولغيره، ومنه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وهذا ينبئك أن الاصطلاء قد يكون وسيلة للسكينة والهناء، وارتياح الجسد من البرد.

الرابع: الاتصال التام، فالصَّلَا: وَسَطُ الظَّهْرِ مِنَّا ومن كلِّ ذِي أَرْبَعٍ، وقيلَ: مَا انْحَدَرَ من الوَرِكَيْنِ، والصَّلَوان مُكْتَنِفا الذَّنَبِ من الناقةِ وغيرِها، وأَوَّلُ مَوْصِلِ الفَخِذَيْنِ مِن الإنْسانِ فكأنَّهما فِي الحقِيقَةِ مُكْتَنِفا العُصْعُصِ؛ ويجمع على صَلَوات، وأَصْلاءٌ، وصَلَوْتُهُ وصليته:

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣٠٠)، واليلنجوج نوع من العود، والرند نوع من الشجر الطيب الرائحة.

أَصَبْتُ صَلاهُ أو ضَرَبْتُه في صلاه، وأَصْلَت الناقة: إذا وقع ولدها في صَلاها وقرب نِتاجها. أَصْلَت الفر إذا استرخى صَلَواها، وذلك إذا قرب نتاجها. وأَنْشد الليث:

كأن صــلا جـهـيـزة حـين قـامـت   حَـبـابُ الـمـاء يـتـبـع الـحَـبـابا[1]

الخامس: الاتصال بين الأول والثاني: فيقال: صَلَّى الفَرَسُ تَصْلِيةً إذا تَلا السَّابِقَ، سمي الفرس المصلي؛ لأنَّ رأْسَه عنْدَ صَلا أو صَلَوَيْ الفَرَسِ السابِقِ المجلي[2].

والآن: فما الذي يتخلص لنا من معنى الصلاة لغة بعد هذا الاستعراض؟

نقول مستمدين من الله ﷻ فتحه ولطفه: هذه الصلاة لها ثلاثة وجوه في تحققها حسب المصلِّي:

الوجه الأول: تتحقق الصلاة بالثناء الحسن الدال على المحبة والمكانة المتميزة للمصَلَّى عليه، وهذا معنى صلاة الله ﷻ على نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب ٥٦]، وهو معنى صلاة الله ﷻ على عباده الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب ٤١-٤٣].

هنا تجيب على الطاعنين الذين يظهرون الحذق، وهم عن اللغة العربية وفهمها معزولون.. هل تعلم ماذا يقولون؟

يقولون: الله ﷻ يقول في كتابكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب ٥٦] فلمن يصلي ربكم؟ هل هناك إله يصلي له ربكم؟

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ١٦٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٤٣-١٢٤٥)، والحباب النفاخات التي تعلو الماء.

(٢) ينظر: تاج العروس (٣٨/ ٤٤٠).

أجب هؤلاء المساكين الذين لا يعرفون أساسيات اللغة العربية: وقل لهم: لم تحسنوا ترجمة الكلمات العربية إلى الإنجليزية، فظننتم أنكم قد عثرتم على شبهة عظيمة، ودعونا نعلمكم معنى الكلمات التي تقرؤونها:

معنى الصلاة تتفرع غايتها حسب الجهة التي لازمت هذا الذكر المشرق:

فالصلاة هنا استعملت في معنى ثناء خاص يثني فيه الله ﷻ عندما يصلي على عبده، فإذا كان المصلي الله ﷻ، فالمراد أنه ذكر عبده، وأثنى عليه، حتى يقربه ويُبلِّغه حاجته، ويرفع له مكانته، وهذا معنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

هل صحيح أن معنى الصلاة من الله ﷻ: الرحمة؟ وماذا يقول البخاري ﵀ عن أبي العالية في المعنى الصحيح القوي هنا؟

والحقيقة أنك تستطيع هنا الاعتراض بسهولة على قول بعضهم: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى الرَّحْمَةُ؛ فقد رد ابن القيم ﵀ على هذا الرأي بخمسة عشر ردًّا منها:

أن الله ﷻ عطف الرحمة على الصلاة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فهل يكون المعنى: عليهم رحمة ورحمة؟

إن ذلك غير صواب البتة فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتوكيد، والراجح انعدام الترادف في كلام الله الحكيم.

ومن الردود: أَن صَلَاة الله ﷻ سُبْحَانَهُ خَاصَّة بأنبيائه وَرُسُله وعباده الْمُؤمنِينَ، وَأما رَحمته فوسعت كلَّ شَيْء، فَلَيْسَتْ الصَّلَاة مرادفة للرحمة، لَكِن الرَّحْمَة من لَوَازِم الصَّلَاة وموجباتها وثمراتها(١).

على هذا ستقول: فماذا يكون المعنى؟

---

(١) ينظر: جلاء الأفهام (ص: ١٥٨).

أقول لك: المعنى ما قرَّرته لك من أن الصلاة هي الصلة التي توجب الثناء والتعظيم، وقد فعن أبي العالية رحمه الله: "صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ"[(١)]، وصلاة الملائكة والآدميين أيضـًا دعاؤها الله رحمه الله أن يصلي على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أي أن يثني على عبده هذا الثناء الخاص العظيم، وهذا هو الذي نقله في (تاج العروس)، فقال: الصَّلاةُ حُسْنُ الثِّناءِ مِن اللهِ، عز وجل، على رَسُولِه صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)]، وهذا القول قريب مما نقله ابنُ الأثيرِ فِي (النِّهايةِ) من أنَّ الصلاة أَصْلَها فِي اللَّغَةِ التَّعْظيم[(٣)]، فنستطيع أن نقول: التعظيم نشأ بسبب هذه الصِّلة.

ولذا قال الحرالي رحمه الله: "الصَّلاة الإقْبالُ بِالكُلِّيَّةِ عَلى أمْرٍ، فَتَكُونُ مِنَ الأعْلى عَطْفًا شامِلًا، ومِنَ الأدْنى وفاءً بِأنْحاءِ التَّذَلُّلِ، والإقْبالِ بِالكُلِّيَّةِ عَلى التَّلَقِّي"[(٤)].

فقَوْلُنا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمدٍ، مَعْناه: اجعل صِلته بك صِلة تعظِّمه فِي الدُّنيا بإعْلاءِ ذِكْره، وإظْهار دَعْوتِه، وإبْقاءِ شَرِيعَتِه، وَفِي الآخِرَةِ بتَشْفِيعِه فِي العالم وفي أُمَّتِه حسب أنواع الشفاعات المعروفة وتَضْعيفِ أَجْرِه ومَثُوبتِه؛ ومن معانيه: أنه لـمَّا أَمَّرَنا اللهُ عز وجل بالصَّلاةِ عَلَيْهِ وَلم نَبْلغْ قَدْرَ الواجِبِ من ذلكَ أَحَلْناه على اللهِ تعالى: اللهُمَّ صَلِّ أَنْت على محمدٍ لأنَّكَ أَعْلَم بِمَا يليقُ بِه.

الوجه الثاني: تتحقَّق الصلاة بالدعاء أن يصلي الله عز وجل على من يدعو له:

وهذا الدعاء إن صدق صاحبه كما ينبغي أشبه في حُرْقَتِه ولَوْعَتِه وأثره ما تراه من أثرٍ عندما تصلي النارُ غيرَها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

---

(١) البخاري (٦/ ١٥١).

(٢) تاج العروس (٣٨/ ٤٣٨).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٥٠).

(٤) نظم الدرر (١/ ٨٤).

فالصلاة عليهم هنا الدعاء لهم بأن يصلي الله ﷻ عليهم، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»(١).

فإن قلت فكيف يكون المعنى إذا كانت الصلاة صادرة من الملائكة؟

الجواب:

إذا كان المصلي هم الملائكة، فالمعنى أنهم يذكرون المُصَلَّى عليه، فيدعون له الله ﷻ له أن يصلي عليه لتتحقَّق له غاياته، كما قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**»(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا، فَلْيَطْعَمْ**»(٣).

أي: لِيَدْعُ لأهله بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، ومنه قَالَ الْأَعْشَى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحِلًا ... يَا رَبِ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي ... نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعًا

وَقَالَ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ:

---

(١) البخاري (١٤٩٧).

(٢) البخاري (٦٤٧).

(٣) مسلم (١٤٣١).

وَقَـابَـلَـهَـا الـرِّيـحُ فِـي دَنِّـهَـا وَصَـلَّـى عَـلَـى دَنِّـهَـا وَارْتَسَـمْ

وقال:

لَـهَـا حَـارِسٌ لا يَـبْـرَحُ الـدَّهْـرَ بَـيْـتَـهَـا وَإِنْ ذُبِـحَـتْ صَـلَّـى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا(١)

يذكر الخمر في دنها، وزمزم: إذا تكلَّف الكلام عند الأكل وهو مطبق فمه بصوت خفي لا يكاد يفهم، وفعلهم ذلك هو الزمزمة، "ذبحت": أي أزيل ختمها، وعندئذ يدعو مخافة أن تكون فاسدة، فيخسر.

الوجه الثالث: الصلة الممتلئة بالثناء والدعاء من خلال الهيئة الخاصة العظيمة:

(وصَلَّى صَلاةً)، و(لَا) يقالُ: صَلَّى تَصْلِيةً، فسميت صلاة، وفيها يقول الراغب: "الصَّلَاةُ التي هي العبادة المخصوصة، أصلها: الدّعاء، وسمّيت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمَّنه"(٢).

والصحيح عندي أنها سُميت صلاة؛ لأنها تُعَبِّر عن أعلى ما يقوم به العبد في طلب أن يثني الله ﷻ عليه، فيجمع لأجل ذلك الدعاء والثناء والأقوال الخاشعة، والحركات الخاضعة، وهذه هي الصلاة الشرعية؛ إذ التقى فيها القلب واللسان والجوارح، واتصل فيها القول والعمل؛ إظهارًا للخشوع، وطلبًا للحاجات والمنائح.

الصلاة بوابة العروج للاتصال الكبير:

هذا الاتصال الكبير الذي تبينه صيغة: (صلَّى) لعله السبب في استعمال الصلاة لتعبر عن أعظم أوجه الصلة بين العبد وربه، ففي هذه الصلة: تجد اتجاه العبد بقلبه، وقوله، وجوارحه، ووقته، وثيابه، ومكانه، وطهارة جسده إلى ربه ﷻ، فيذكر ربه ﷻ لا ككُلِّ ذكر؛ إذ يجمع كلَّ

---

(١) ينظر: على الترتيب: ديوان الأعشى الكبير (ص: ١٠١)، (ص: ٣٥)، (ص: ٢٩٣).

(٢) المفردات للراغب (ص: ٢٨٥).

أنواع الذكر والثناء الذي يثير العاطفة، حتى كأنها تحترق لشدة الصلة برب الأرض والسماء، ففي الصلاة: تجد الطهارة الفعلية، والطهارة القولية بقراءة القرآن، وذكر الباقيات الصالحات، وزيادة على ذلك، وتجد الأفعال المنضبطة التي تفوق في ضبطها انضباط الجوارح في صيام رمضان.

ولعله أيضًا لذلك سميت الصلاة كذلك؛ لأنَّها مِن الصَّلَوَيْن وهُما مُكْتَنِفا ذَنَبِ الفَرَسِ وغيرِهِ ممَّا يَجْرِي مجْرَى ذلكَ، وَهُوَ رأْيُ أَبي عليَ؛ قالَ: واشْتِقاقُه مِنْهُ أَنَّ تَحْريكَ الصَّلَوَيْن أَوَّلُ مَا يظهرُ مِن أَفْعالِ الصَّلاة، فأَمَّا الاسْتِفْتاح ونَحْوه مِن القِراءَةِ والقِيامِ فأَمْرٌ لَا يَظْهَرُ وَلَا يخصُّ مَا ظَهَرَ مِنْهُ الصَّلاة(١).

فالمصلِّي متعرِّضٌ لتحقيق طلبه من السكينة والسعادة والثواب وتحقيق الرجاء كما يتعرّضُ الداعي عندما يدعو ربه استنجاحَ حاجاته، وإغاثة لهفاته، فيُظهِرُ بكلماته وحركاته غاية الثناء على ربه، وأشد مظاهر الْحَاجَة والافتقار إِلَى الرحيم الغفار.

كما يقول السيد رشيد رضا ﷺ: "أَرَأَيْتُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقِفُونَ بَيْنَ أَيْدِي الْمُلُوكِ نَاكِسِي رُءُوسِهِمْ حَانِيِي ظُهُورِهِمْ، وَتَارَةً يَقَعُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يُقَبِّلُونَهَا، أَلَيْسَ الْبَاعِثَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ إِمَّا خَوْفٌ مِنْ عُقُوبَةٍ يَطْلُبُونَ بِهِ دَفْعَهَا، وَإِمَّا حَذَرٌ عَلَى نِعْمَةٍ يَتَوَقَّوْنَ سَلْبَهَا وَرَفْعَهَا، فَيَلْتَمِسُونَ بَقَاءَهَا وَيَرْجُونَ زِيَادَتَهَا وَنَمَاءَهَا؟"(٢).

وهنا تبدو لك قيمة هذه الصفة ﴿يقيمون الصلاة﴾.. فما قيمة هذه الصفة في الواقع العملي؟

---

(١) تاج العروس (٣٨/ ٤٤٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٠٨).

الجواب: إنها القيمة العليا والصفة العظيمة التي ترفع الإنسان الضعيف المحدود ليتصل بخالق هذا الوجود.. الصفة التي تملأ الإنسان المجهود الضعيف ليستمد السكينة من الله ﷻ الخبير اللطيف.. الصفة التي تحرر الإنسان من عبادة العبيد ليكون سيد قراره بهداية العزيز الحميد.

سـجدةٌ تَـخْفِضُ الـجَبَاهَ ولـكنْ ... عَـزَّ فـيـهـا مُسَـبِّحٌ وتَـعَـالـى
ظنَّـهـا الـجـاهـلون غُلًّا عـلى العبـدِ ... ولـكـنْ تُـحَـطِّـمُ الأغـلالا
تُـثْبِـتُ الـوجـهَ والـجـوارحَ في الأر ... ضِ، ولـكـنْ تُـقَـلْـقِـلُ الأجـبـالا
تَـهْدِمُ الشـركَ والوسـاوسَ في النَّفـ ... ـسِ، ولـكـنْ تُشَـيِّدُ الأجـيـالا
في سـكـونٍ، ولـلـقـلـوبِ مَسِـيـرٌ ... سَـخَّـرَ الأرضَ رَهـبـةً وجَـلالًا
هـي لله، وحَّـدَتْـهُ، فَـقَـرَّتْ ... ومَـحَـتْ كـلَّ غـاشـمٍ يَـتَـعَـالـى
مَـنْ وَعَـاهـا: وَعَـى السِّـيـادةَ في ... الأرضِ جَلالاً، ورحمـةً، وجَمَـالا[1]

الصلاة كما قال أحمد شوقي رحمه الله: "لو لم تكن رأس العبادات، لعُدَّت من صالحة العادات؛ رياضة أبدان، وطهارة أردان، وتهذيب وجدان، وشتى فضائل يشب عليها الجواري والولدان.

أصحابها هم الصابرون، والمثابرون، وعلى الواجب هم القادرون، عَوَّدْتهم البكورَ، وهو مفتاح باب الرزق، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق؛ ولهم إليها بعد البكور رواح؛ فإذا هي تصرفهم عن دواعي الليل ومغرياته، وتعصمهم فيه من عوادي الفراغ ومغوياته، والليل خلوات وشهوات، وبيت الغوايات.

---

(١) الأبيات للدكتور عبد الوهاب عزام، ونشرت في مجلة (المسلمون) السنة الأولى. ينظر: المنطلق (ص: ٤١).

وتجزئة الوقت مع الصلاة ملحوظة، وقيمته عند الذين يقيمونها محفوظة، عَوَّدتْهم أن يذكروه، ويقدروه، وأن يسوسوه في أعمالهم ويدبروه، والوقت ميزان المصالح، وملاك الأمور، ودولاب الأعمال.

انظر جلال الجُمَع، وتأمل أثرها في المجتمع، وكيف ساوت العِلْية بالزَّمَع؛ مست الأرض الجباه، فالناس أكفاء وأشباه، الرعية والولاة، شرع في عتبة الله؛ خرَّ الجمع للمناخر، فالنصف الأول كالآخر، لم يرفع المتصدِّرَ تَصَدُّرُه، ولم يضع المتأخِّرَ تأخُّرُه"(١).

معنى دقيق لطيف رائق للصلاة:

وهناك وجه آخر ليس ببعيد في تسمية هذه العبادة المخصوصة بالصلاة: قاله بعضهم: معنى صَلَّى الرّجلُ، أي: أنه ذاد وأزال عن نفسه بهذه العبادة الصَّلَى الذي هو ما يحرق العبد ويحزنه في الدنيا، ويعرضه لنار الله تعالى الموقدة في الآخرة، وبناء كلمة (صَلَّى) كبناء كلمة (مَرَّضَ) لإزالة المرض، ويسمَّى موضع العبادة الصَّلَاةَ، ولذلك سمّيت الكنائس صَلَوَاتٌ، كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقد سبق الإمام ابن فارس ﵀ بالقول باشتقاق الصلاة من صَلَّيت العود: ليَّنته؛ لأن المصلي يلين بالخشوع.

والآن هلمَّ بنا إلى الصفة الخامسة: الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]:

فهذه الصفة تعبِّر عن أهمِّ الصفات التي تبين علاقتك بالعالَم حولك إن كنت تريد أن تحقِّق التقوى. إنها صفة العطاء، حيث تنفق ممَّا عندك على من يعيش في عالم الشهادة ابتغاء العطايا في عالَم الغيب.

---

(١) أسواق الذهب (ص: ٨٢).

كلُّ حرف في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينير لنا بصيرة جديدة من بصائر القرآن، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه أولاً: لماذا ذكر الله ﷻ الإنفاق ضمن الصفات الأساسية للمتقين في سورة البقرة، بل في أولها بهذه الصيغة المدهشة؟

بطول تأملك، ولطيف تدبرك تشرق في نفسك عدة أسباب لذكر الإنفاق بعد الصلاة ضمن صفات المتقين الأساسية:

أما أولًا: فلأن الصلاة تبين الصِّلة المباشرة بالله ﷻ، وفي مقابل ذلك فإنها لا تنفك عن الإنفاق الذي يبين الصِّلة المباشرة بخلق الله، والصلاة والإنفاق مظهران من مظاهر الإيمان بالغيب المذكور قبل، وثمرتان دانيتان له:

فكما أن الصلاة حقٌّ لك لتتَّصلَ بربِّك ليَذْكُرَكَ ربُّك، فكذلك لا تكون متقيًّا حتى تبني صلتك بالعالم من خلال الإنفاق.

هذا يعني: هل أنت أيها المتقي لا تأبه بالعالم؟ هل أنت محارب للعالم؟ هل أنت منعزل عن العالم؟

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: تبين لك أنك ينبغي أن تتفاعل مع العالم إلى الحدِّ الذي تنفق فيه ما رزقك الله ﷻ على هذا العالم.. هنا التقوى يا أيها الموفق.

مشهد الجلال الثلاثي الاتصال:

هذه الصفة تعني أنك تدرك معنى الإيمان بالغيب، وتعني أنك تدرك قيمة الصلاة، فكلا الصفتين يؤديان إلى المرحمة.. إلى البرِّ بضِعاف الخلق.. إلى التضامن مع المحتاجين.. إلى الإحساس بالآصرة الإنسانية.. إلى الشعور بالأخوة البشرية..

"وقيمة هذا كلِّه تتجلَّى في تطهير النفس من الشُّحِّ، وتزكيتها بالبرِّ، وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تُؤَمِّنُ العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب! والإنفاق يشمل الزكاة

والصدقة، وسائر ما ينفق في وجوه البر، وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة؛ لأنه الأصل الشامل الذي تخصِّصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه"(١).

وأما ثانيًا: فلأن سورة البقرة المدنية تبني مجتمع المدينة حسب تاريخ نزولها، وتبني حضارة الأمة حسب ترتيبها في المصحف.. إنها تبني عاصمة الحضارة الإسلامية الجديدة التي بدأت بالإشراق على العالم، وذلك يعني أن تبني لها الاستقلال الاقتصادي في العالم:

لم تَعُدْ هذه الأمة محاصرة من قبل قريش، وقد استعصى المسلمون على الحصار الوثني الذي كان يقيِّد حركتهم في مكة، ولا بدَّ لهم أن يبنوا عاصمة منيرة، ومن أهمِّ مقوماتها: بناء الاقتصاد، فأنت تلاحظ كيف يقيم الله ﷻ نظام التكافل التطوعي، وكيف يبني نظام التعاون الاستثماري من خلال هذه الجملة الفريدة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ إذ معناها:

ينفقون مما رزقناهم إنفاقًا يعود على المُنْفَق عليه بالخير؛ فإما أن يعينه على شراء قوت، وإما أن يساعده على قضاء حاجة، وإما أن يلبي له القيام باستثمار يعود بالنفع عليه.

فدخل في الإنفاق: التكافل التطوعي، والتعاون الاستثماري، ويدخل في الإنفاق أيضًا كلُّ مساعدة عامَّة في أي شيء يمكن الإنفاق فيه.

ولعلك تسأل: هل تعلم ما معنى أن يمدح الله ﷻ المتقين بالإنفاق من أول سورة البقرة إلى آخرها؟

الجواب: مدح الله ﷻ المتقين في أول هذه السورة؛ ليبنوا لأنفسهم الاستقلال الاقتصادي خاصَّة مع السيطرة اليهودية على أسواق المال في المدينة وما حولها، فإذا سمع الصحابة ﷺ أن من صفات المتقين أن ينفقوا سعوا إلى تحصيل ما ينفقون منه.

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٠).

فلسفة الكسب والإنفاق في المنظور القرآني:

ولكنك هنا قد تقول: الفقهاء يقولون: "تحصيل الواجب ليجب ليس بواجب" ونفهم من هذه القاعدة أنه لا يجب علينا أن نحصل المال لننفق، وزاد من هذا الفهم الخاطئ: الفهم الخاطئ لمعنى الزهد، فشاع مفهوم مغلوط للزهد، إذ كثر عند الناس أن يفهموا أن الزهد ترك الدنيا برمَّتها ابتداء، وليس أن تقع في يدك دون أن تفسد قلبك وتشغلك عن ربِّك، أو تجيد إدارتها غير مملوك لها.

هنا تأتي هذه الصفة في أول السورة لتُفْهِمَك غير ذلك، فقد عزَّز الله ﷻ مفهوم تحصيل المال مراتٍ كثيرة:

ففي هذه الآية الثالثة يمدح الله ﷻ المنفقين، وهل ينفقون إلا إذا كان عندهم ما ينفقون منه؟ وفي الآية الثالثة والأربعين يأتي بالأمر بالزكاة، ومثلها في الآية (٨٣)، وفي الآية (١١٠)، وفي الآية (١٧٧) نص على إيتاء المال، وتوزيع مصارفه خارج الزكاة، ثم في الآية (١٩٥)، ثم في الآية (٢١٥) وهنا يَسْتَحِثُّكَ الله ﷻ حثًّا عظيمًا على الكسب بأسلوب مدهش، فيبين لك أنه ينبغي أن تنفق على والديك ابتداء، وهل يمكنك أن ترى والديك يحتاجان ثم لا تتحرك لتكسب المال من أجلهما، ومن أجل ذوي القربى على الأقل، وإذا كان ﷻ قرن الوالدين والأقربين باليتامى والمساكين... فماذا تظنُّ؟ ألا يعني ذلك أنه ينبغي أن تكسب المال كذلك لتعطي اليتامى والمساكين؟

ثم رأيت الأمر مطردًا في الآية (٢١٩)، ثم كلمك الله تعالى شأنه عن الزواج، وهو يقتضي الإنفاق، وكلَّمك عن الطلاق، وهو يقتضي الإنفاق، وكلَّمك في الآية (٢٣٣) عن أولادك، وضرورة توفير ما يحتاجون من اللباس والطعام والإرضاع للصغار، وما يحتاجون له من

الكسوة وتبعات التربية، وكلُّ ذلك يقتضي الإنفاق.. فهل تراك ستنعزل، وتترك أولادك، وتقول: أنا زاهد؟ فهذا حثٌّ شديد على كسب المال لتستطيع الإنفاق.

ثم استمرَّ الأمر في الآية (٢٤٥) لتحثَّك على أن تسابق لتقرض الله ﷻ أي لتنفق في الوجوه التي ترضي الله ﷻ مما يحصِّن الأمة من الفقر، ويحفظ لها تفوقها العلمي والأمني والعسكري، والاقتصادي، وأسلوب الحث هنا مدهش: فإنك إن فعلت أي شيء من ذلك فكأنك أقرضت ربك؟ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١].

واستمرَّ الأمر بصورة عجيبة وأسلوب مختلف في الآية (٢٥٤) حيث يحثُّك الله ﷻ على الإنفاق بعد أن ذكر لك البغي الذي سيحصل من المجرمين الذين يعتدون على الحق المبين في الآية التي تسبقها.

ثم ختمت السورة بالمحور المالي ابتداء من الآية (٢٦١) إلى الآية (٢٨٣)، وبيَّن الله ﷻ ضرورة الإنفاق، والتجارة الممنوعة، والتجارة المشروعة، وحثَّ على تكوين المصارف (البنوك) التي تقرض القرض الاستثماري والتكافلي في أطول آية في القرآن الكريم.

فهذه اثنا عشر موضعًا على الأقل.. هذا إن جعلت الموضع الأخير المفصَّل موضعًا واحدًا، وهو ليس كذلك، فقد حظي المال فيه بتفصيل لم يوجد للصلاة ذاتها.

ولقد وجدنا أن الله ﷻ يجعل السعي في الأرض في سورة المزمِّل أحد أسباب التخفيف في قيام الليل، وجدنا أ، الله يحثنا على المشي في مناكب الأرض في وسورة الملك في القرآن المكي، وألمح إلى المساواة بين المجاهدين والساعين في الأرض يبتغون من فضل الله ﷻ.

إن هذه الآية الثالثة من سورة البقرة بداية تغيير شامل تمهيدًا لحضارة جديدة عادلة بعيدًا عن إجرام الشرق الكسروي، وظلم الغرب الرومي.. يعلمنا الله ﷻ لنأكل مما نُنتج ونزرع، ونلبس مما ننسج ونصنع. كل ذلك يبدو في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

فأين هذا مما تلوكه ألسنة الخطباء الداعين للمَوَات والزَّهادة العوجاء، والانصراف عن محراب الحياة، وصبغ الخطاب الدعوي والتربوي بالموقف السلبي المقيت من أفضال الله تعالى ونعمه المبثوثة في أرضه التي أباحها الله عز وجل لعبادة طيبة سائغة؟

فليس الزهد أن تعرض عن الدنيا التي جعلك الله تعالى خليفة فيها، إنما الزهد أن تؤدي حقَّ الله عز وجل في المال الذي في يدك، وألا يكون هذا المال شاغلًا عن طاعة الله عز وجل، أو سببًا للتقصير في حقِّه سبحانه.

فماذا ترى من عظمة بصائر القرآن ودقة تعبير كلام المنان؟

الجواب: ألا تشاركني الرأي أنه تتصاغر أمام بصائر هذه الجملة أجملُ ما في النُّظُم الاشتراكية –إن كان فيها جمال– وأفضل ما في النُّظُم الرأسمالية –إن كان فيها فضل–.

ووجود هذه الصفة في أول سورة بقرة بني إسرائيل تنبيهٌ قوي لمن يتصدر لأمور المسلمين، ويتولى القيادة الدينية أو الدنيوية.. ألا فليعلم أن أعظم دليلٍ محسوسٍ على إقامته لحضارة قوية، ومدنية حقيقة أن يركِّز على إشاعة إقامة الصلاة، ونشر الإنفاق في سبيل الله، والحث على تحصيل المال.

لا تقل –أيدك الله–: فهل كان النبي ﷺ يسعى لتحصيل المال؟

لأننا نقول لك: في الجملة نعم، وانظر في سيرته ﷺ لكنه لم يجعل نفسه تاجرًا بعد بعثته، فمن ذا يمكنه أن يبايع النبي ﷺ دون أن يصيبه حَرَج، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يعلِّم الصحابة رضي الله عنهم أن يكسبوا من عرق جبينهم، ويبايعهم أحيانًا كما حدث مع جابر رضي الله عنه عندما اشترى منه جَمَلَه[(١)].

فإن قلت: فماذا يكون المعنى العام لقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؟

(١) ينظر: البخاري (٢٠٩٧).

الجواب: أي: ومن بعض الذي رزقناهم ينفقون، فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، و﴿ما﴾ بمعنى ﴿الذي﴾.

وهنا ستسأل: لماذا أتى بكلمة ﴿مِن﴾ التبعيضية؟ فلم يقل: والذي رزقناهم ينفقونه؟

الجواب: يبصرنا الْإِتْيَانِ بِمِنَ التبعيضية أن الْإِنْفَاق الْمَطْلُوب شَرْعًا هُوَ إِنْفَاقُ شيءٍ محدود ممَّا رزقهم الله ﷻ.

ولاحظ: أنه لم يحدد هنا مقدار هذا البعض الذي ينفقونه ليترك لكل إنسان النظر في الذي يملكه، وما الذي يمكنه أن ينفقه مما يملكه، أو أن يقدِّمه في غير ضرر عليه أو على واجباته الأخرى.. ثم إن الله ﷻ حدَّد مقدار الزكاةِ بعد ذلك باعتبارها أحد مصارف الإنفاق، وترك غيرها دون تحديد؛ لأن الإنفاق أعم من الزكاة.

ومن أجمل ما تراه في هذه الآية: هذا التوازن العظيم بين حثِّ من يريد تحقيق التقوى على أن ينفق، وبين إخباره أن النفقة ينبغي أن تكون من بعض مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ لَا أن ينفق كُلَّ مَا يَمْلِكُ.

أوعية الإنفاق ومصارفه:

فإن قلت: الإنفاق هنا أعم من الزكاة، فماذا يدخل فيه؟ وما المقدار الذي ينبغي إنفاقه؟

الجواب: يَدْخُلُ فِي الْإِنْفَاقِ: الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ، وبذا ترى أنه يدخل في قول الله ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، كل نفقة ممكنة مشروعة في كل جهة من جهات الإنفاق، ويشعر الشوكاني رحمه الله بهذه الدلالة الفاخرة، فيقول: "وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يَصْدُقُ عليها مسمى الإنفاق يُشعر أتمَّ إشعار بالتعميم"[١].

وقد رتَّب الله ﷻ القَدْر الذي ينبغي أن تنفقه من المال على المراتب الآتية:

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٣).

المرتبة الأولى: النفقات الواجبة كالنفقة على النفس والأهل:

هذا الإنفاق لا بدَّ منه ليَحْدُثَ للمنفق التكريم الإنساني اللائق به حتى يحقِّق السعادة في الدارين.

المرتبة الثانية: الزكاة:

وهي نفقة واجبة يُطَهِّرُ الإنسان بها ماله، ويُنَمِّيه، وقَدْرها محدود جدًّا، وتدلُّ على أن المنفق لا يجب عليه إنفاق كلَّ ماله ولا نِصْفَه ولا رُبْعَه، ويجلِّي لك ابن عمر ﵄ معنى هذه الآية مع آية التوبة، فعَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﵄، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵄: «مَنْ كَنَزَهَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا، فَوَيْلٌ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ ﷻ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ»(١).

وربما تساءلت فقلت: قوله: «كان هذا قبل أن تنزل الزكاة» لا يظهر منه أن هذه الآية نزلت قبل نزول الزكاة، بل القبلية هنا رُتَبية لا زمنية.. ماذا يعني ذلك؟

الجواب: يعني ابن عمر ﵄ أن هذه الآية التي فيها الوعيد على كنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله نزلت بعد نزول الزكاة من حيث الزمان، فسورة التوبة من أواخر السور نزولًا، ولكنها من حيث ترتيبها في الفهم تعد قبل نزول الزكاة، فنفهم منها أن الذي يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في خطر عظيم، فإذا أخرج الزكاة زال عنه ذلك الخطر، ولا يكلف أن ينفق كل ماله، وهنا تستبين لك الأهمية العظيمة للسنة النبوية التي بينت لنا ذلك. **قال ابن حجر** ؒ:" **قَوْلُهُ «إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ»: هَذَا مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْوَعِيدَ عَلَى الِاكْتِنَازِ: وَهُوَ حَبْسُ مَا فَضَلَ عَنِ الْحَاجَةِ عَنِ الْمُوَاسَاةِ بِهِ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِفَرْضِ**

---

(١) البخاري (١٤٠٤).

الزَّكَاةِ لَمَّا فَتَحَ اللهُ ﷻ الْفُتُوحَ، وَقُدِّرَتْ نُصُبُ الزَّكَاةِ، فَعَلَى هَذَا الْمُرَادُ بِنُزُولِ الزَّكَاةِ بَيَانُ نُصُبِهَا وَمَقَادِيرِهَا، لَا إِنْزَالُ أَصْلِهَا وَاللهُ أعلم"[١].

المرتبة الثالثة: الْإِنْفَاقُ فِي أنواع الْجِهَادِ لحماية الثغور العلمية والأمنية والمكانية إن تخلفت الجهات الحكومية عن القيام بواجبها نحوهم، أو لم تكْفِ، وهذا إنفاق واجب أيضًا.

المرتبة الرابعة: الإنفاق على قضاء الدَّين:

وهذا إنفاق واجب أيضًا، وذلك يعني أن تحصل المال لتقضي دَينك، وتعجب من حكومات تظلُّ تقترض وتقترض، ولا تنشئ استقلالاً اقتصاديًّا لنفسها.. كما تعجب كيف أصبح الاقتصاد الموهوم في عصرنا البائس سببًا لدمار المبادئ في عملية المبايعة "لإسرائيل" باسم التطبيع زعمًا لحاجتنا إلى الاقتصاد–وإن كان بعضهم يهرول إلى التطبيع وهم من أغنى الدول.. مع أن (نتنياهو) يصرُّ على أن تلك العملية برُمَّتها قائمة على القوة، أي على الرجوع إلى السيادة مقابل الحماية، ولكن بلغة أخرى.

المرتبة الخامسة: الإنفاق على المحتاجين خارج نطاق الزكاة:

إن لم يكن معهم ما يكفيهم مهما تناءت ديارهم وتباعدت أقطارهم؛ فإن أُنفِقت الزكاة ولم تغطِ احتياجاتهم، ولم يوجد من يقوم بتمويلهم، فعند ذلك يجب على الناس أن ينفقوا عليهم مهما تناءت بهم الأقطار بغض النظر عن الحدود السياسية، بل بغض النظر عن الدين،

ويدخل في المحتاجين: كل من تخشى أن يهلك بسبب احتياجه ولو كان كافرًا، فإن كانت المرأة التي حَبست هرَّة قد دخلت النار بسبب ذلك، فما بالك بمن يمنع إنسانًا حاجته؟ أو أن يحاصر دياره؟ ويدخل فيهم الفقراء، والمساكين، والأسرى، والمحتاجون للعلاج والزواج.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٧٣).

وكلُّ هذه المراتب واجبة إلا أنه قد يقدِّم بعضها على بعض حسب مقتضيات الزمان والمكان.

المرتبة السادسة: الْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ:

حيث امتلأ القرآن الكريم بالحث عليه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وَأَرَادَ بِهِ الصَّدَقَةَ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الْمُنَافِقُون: ١٠].

المرتبة السابعة: إنفاق الزائد الذي لا يُحتاج إليه في الحال أو في المآل القريب مما جرت العادة بعدم التضرر بإنفاقه:

فقد قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والعفو: الزائد الفضل الذي لا تحتاجه. لا تذهب بعيدًا.. بل لِيَبْقَ تصوُّرُك متزنًا، ولا تظنن أن كلَّ زائد ينبغي أن تنفقه؛ لأنك لو فهمت ذلك لما وجدت التجارة أصلاً، ولكن المراد الزائد الذي جرت العادة بإنفاقه، فعَنِ الْحَسَنِ رحمه الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] قَالَ: «ذَلِكَ أَنْ لَا تَجْهَدَ مَالَكَ، ثُمَّ تَقْعُدَ تَسْأَلُ النَّاسَ»[1].

المرتبة الثامنة: ينبغي أن تعرف التوازن الكامل بين الإنفاق وبين الإمساك:

إذ يصوِّرُه لك القرآن بهيئة أكثر دِقة، حتى لا تظنن أن كل زائد عندك ينبغي أن تنفقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولكن الله عز وجل حثَّك حثًّا عظيمًا على ألا تتخلَّف عن الإنفاق ما دمت تستطيع، ولو بأن تُؤْثِرَ على نفسك بما لا يؤدِّي إلى الإضرار بك وبمن تعول، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

لكننا وجدنا الطبري رحمه الله يروي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، قَالُوا: هِيَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَهَذَا

---

(١) كتاب الأموال لابن زنجويه (١٤٠٤)، قال المحقق: وإسناده حسن، فيه هَوذة بن خليفة، وهو صدوق.

قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ الزَّكَاةُ، وعَنِ الضَّحَّاكِ ﵀: كَانَتِ النَّفَقَاتُ قُرُبَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللهِ ﷻ عَلَى قَدْرِ مَيْسَرَتِهِمْ وَجُهْدِهِمْ، حَتَّى نَزَلَتْ فَرَائِضُ الصَّدَقَاتِ: سبعُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ، مِمَّا يُذْكَرُ فِيهِنَّ الصَّدَقَاتُ، هُنَّ النَّاسِخَاتُ الْمُثْبَتَاتُ(١).

لعلك ستسأل: فهل يعني ذلك أنه لا يجب عليك أن تنفق شيئًا بعد نزول الزكاة خارجها، وخاصة أننا وجدنا من يقول بأن الزكاة ناسخة لما قبلها على حسب ما سبق؟

والجواب: أن النَّسْخ هنا لا يعني الرفعَ الكلي فيما يظهر، فإذا سمعت السلف يقولون: هذه ناسخة، فلا يعنون بذلك عدم العمل بالسابق، بل يعنون علاقة محددة بين السابق واللاحق.

وتفصيل ذلك: أن الله ﷻ أطلق مقدار الإنفاق دون أن يحدِّده هنا، ثم حدَّد أحد واجباته، وهو الزكاة، وتَرَك الإنفاق في الأمور الأخرى خارج الزكاة حسب ما يملكه الإنسان، ويستطيعه وَفْق مبدأ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وينبئك بذلك فعل النبي ﷺ وسيرته الطاهرة المباركة بنفسي أفديه ﷺ، فقد روت عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: أَمَرَنِي نَبِيُّ اللهِ ﷺ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِذَهَبٍ كَانَتْ عِنْدَنَا فِي مَرَضِهِ، قَالَتْ: فَأَفَاقَ، فَقَالَ: مَا فَعَلْتِ؟ قَالَتْ: لَقَدْ شَغَلَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْكَ، قَالَ: فَهَلُمِّيهَا قَالَ: فَجَاءَتْ بِهَا إِلَيْهِ سَبْعَةَ، أَوْ تِسْعَةَ دَنَانِيرَ، فَقَالَ حِينَ جَاءَتْ بِهَا: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ ﷻ وَهَذِهِ عِنْدَهُ**»(٢)، وعن أنس ﵁ قال: «**كان النبي ﷺ أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجعَ الناس**»(٣).

بل بلغ جوده وإنفاقه إلى حدٍّ يشير إلى ولايته لربِّه قبل النبوة، فقد قالت خديجة ﵂ في أول مبعثه: «والله، لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتَقْري الضيف، وتحمل الكَلَّ،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) أحمد (٢٤٥٦٠)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٣) البخاري (٢٠٢٨)، واللفظ له، مسلم (٢٣٠٧).

وتكسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»(١)، وأما بعد بعثته فيكفي وصف ابن عباس رضي الله عنهما له حين قال: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فَلَرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة»(٢).

وفيه يصدق قول القائل:

تَعَوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لو أنهُ ... ثناها لقبضٍ لم تُجبه أناملُهْ
تراه إذا ما جئتَهُ مُتهلِّلاً ... كأنك تعطيه الذي أنتَ سائلُهْ
هو البحرُ من أيِّ النواحي أتيتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ روحه ... لَجَادَ بها، فليتقِ اللهَ سائِلُهْ

وعلَّم أصحابه ﷺ الإنفاق في غير تضييع لمن يعولون، واسمع لهذه الرواية المضيئة عن عُمَرَ رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟!**»، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شيء أبدًا(٣).

وهنا قد تقول: ها هو أبو بكر رضي الله عنه قد بسط يده كلَّ البسط، فلم لم ينهه النبي ﷺ مع أنه نهى غيره؟

---

(١) ينظر: البخاري (٢)، مسلم (١٦٠).

(٢) البخاري (٦).

(٣) أبو داود (١٦٧٨)، وحسّنه الأرناؤوط والألباني.

أجيبك: بأن أبا بكر رضي الله عنه اشتهر بالتجارة مع صدق التوكل، وكان ممن يستثمر فيربح، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم أن مثله يمكنه أن يجد العوض بسهولة إن عاد إلى السوق مصحوبًا ببركة ما قدَّم، مع إيكاله إلى إيمانه، وعِلْمِه أنه لن يتحسر على ما فعله.

وهذا يجعلك تسأل أيضًا: ألم يروِ مسلم رحمه الله بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»؟[1].

نقول لك: الأمر صحيح، فالنبي صلى الله عليه وسلم يبين لك ترتيب الحقوق حتى لا يبغي هذا على هذا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عِنْدِي دِينَارٌ فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: "**أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ**". قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرَ، قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ قال: «**أنت أعلم**»[2].

فنفقتك على أهلك وولدك وخادمك يوجب عليك أن تبدأ بهم، فَهُمْ الذين تعولهم، فإن وسَّع الله عز وجل عليك فلا تمسك يدك عن الوجوه الأخرى، وأنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

وهنا تدرك قوة فَهْمِ قَتَادَة بن دعامة السدوسي رحمه الله حين قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ **فَأَنْفِقُوا مِمَّا أَعْطَاكُمُ اللهُ عز وجل، هَذِهِ الْأَمْوَالَ عَوَارِي وَوَدَائِعُ عِنْدَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، يُوشِكُ أَنْ تُفَارِقَهَا**[3].

---

(١) مسلم (٩٩٥).

(٢) ابن حبان (٤٢٣٣)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨٧٩٣).

ولذا اختار الطبري رحمه الله أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ فِي الزَّكَاةِ وَالنَّفَقَاتِ، فقَالَ: "وَأَوْلَى التَّأْوِيلاتِ وَأَحَقُّهَا بِصِفَةِ الْقَوْمِ: أَنْ يَكُونُوا لِجَمِيعِ اللَّازِمِ لَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ مُؤَدِّين، زَكَاةً كَانَ ذَلِكَ أَوْ نَفَقَةَ مَنْ لَزِمَتْهُ نَفَقَتُهُ، مِنْ أَهْلٍ أَوْ عِيَالٍ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْهِمْ نَفَقَتُهُ بِالْقَرَابَةِ وَالْمِلْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَمَّ وَصفَهُمْ وَمَدَحَهُمْ بِذَلِكَ، وَكُلٌّ مِنَ الْإِنْفَاقِ وَالزَّكَاةِ مَمْدُوحٌ بِهِ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ"(١).

ولكن هذا التقرير يثير إشكالًا:

فقد ذكرنا أن الكلام في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] يشمل الفرض والنفل في الإنفاق، فكيف نقول أمام اختيار الرازي رحمه الله إلى أن الـمُرادَ بِهَذِهِ الآيَةِ الفَرْضُ خاصَّةً؛ لِأَنَّهُ الَّذِي يَقِفُ الفَلاحُ عَلَيْهِ(٢).

وجعل الله عز وجل أصحاب هذه الصفات المفلحين على سبيل الحصر، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة ٥]، فالتعريف للمسند والمسند إليه، وضمير الفصل مؤشرات على الحصر، وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك للأعرابي، فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «**الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا**»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «**شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا**»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَرَائِعَ الإِسْلَامِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**»، وفي رواية: فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام فأدبر الرجُلُ وهو يقول:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٤٤).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٢٧٥).

"وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ شَيْئًا"(١)، ووجه الإشكال: أن النبي ﷺ حكم على الرجل بالفلاح إن اقتصر على الواجبات، ونحن نقول ينبغي له أن ينفق النفقة الواجبة والمندوبة ليتحقق له الفلاح المذكور في آخر هذه الصفات، **فكيف نجمع بين الأمرين؟**

أجيبك بأن: هذا إشكال صحيح، لكنه يزول عند أدنى تفكر، فالنبي ﷺ ذكر أن ذلك الرجل سيفلح إن صدق، والكلام هنا عن حالة فلاح عامة، فيدخل فيها من ينفق الإنفاق الواجب، ويدخل فيها من باب أولى وأعظم من ينفق النفقة المستحبة، وأشار أهل العلم إلى أن هذا الحديث يربِّي فيه النبي ﷺ هذا الأعرابي تربية خاصَّة، فقالوا:

الفريضة رأس مال والنافلة ربح، ولا يصون رأس المال عن العوارض إلا الربح، فأراد النبي ﷺ أن يثبت له رأس المال، وهو بذاته سيذهب إلى الربح، فالنبي ﷺ، إنما قال له ذلك ليناسب بداية إسلامه، فأراد أن يطمئن فؤاده على الفرائض، وبعد ذلك سيقوم بأداء ما سواها بنفسه.

ولذا قال الصالحون: لا يتمُّ للرجل القيام بالفريضة حتى تكون له نافلة؛ لأنه إذا أكثر من النوافل جاء إلى الفريضة مطمئن القلب، نشيط الجوارح، مقبوض القلب عن الخواطر(٢).

ينبئك بهذا المعنى قول النبي ﷺ: **«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا قَالَ اللهُ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتُكْمِلُوا بِهَا فَرِيضَتَهُ؟ ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»**(٣).

---

(١) البخاري (١٨٩١)، (٦٩٥٦).

(٢) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص:٣٦٧).

(٣) أحمد (١٦٦١٤) وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الصحيح".

فالنوافل سُوْر حامٍ وحائط واقٍ للفرائض لا ينبغي لعاقل أن يفرِّط فيها حتى لا يتسرَّب الخلل على الفرائض والواجبات.

أما الصحابة ﷺ الذين اطمأنت قلوبهم بالإسلام، فقد حثَّهم الله ﷻعلى ما هو أعلى من ذلك مما تراه في هذه الآيات.

فلا ينافي أنه ينبغي أن يقوم ببقية الأمور ليضمن الفلاح.

فإن قلت: فهلا زدت الأمر توضيحًا؟

الجواب: نعم! ففي هذا الحديث لم يبيِّن له النبي ﷺ المحرَّمات، فهل تظن أنه يفلح إن غَشَى الكبائر؛ لأن النبي ﷺ لم يبيِّن له ذلك.. نسأل الله ﷻ العافية؟

فالنبي ﷺ يحدِّثه عما سأل عنه، وترك ما لم يسأل عنه ليظهر له مع التدريج والمعرفة.

فيكون معنى قول النبي ﷺ: (أفلح): أي إن استكمل الفريضة تمامًا، ولكن ذلك لا يتم على الحقيقة إلا بالتطوع، والتدرج اقتضى أن يقول له النبي ﷺ ذلك.

هنا تعال بنا نشير إلى المسألة الشهيرة التي قرَّرها بعض المحققين: هل في المال حقٌّ سوى الزكاة ليستبين لنا أن قوله جل ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تشمل الزكاة الواجبة، وغيرها مما ينبغي إنفاقه؟

فقد سئل الشعبي ؒ: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، وتلا هذه الآية: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[البقرة: ١٧٧] إلى آخرها[١].

(١) الناسخ والمنسوخ (١/ ٣٦)، التفسير من سنن سعيد بن منصور (٩٢٦)، قال محقق الكتاب: سنده صحيح. وقد روي مرفوعًا ولا يصح.

وعن إبراهيم النَّخَعي رحمه الله قال: كانوا يرون في أموالهم حقًّا سوى الزكاة، ومثله عن مجاهد رحمه الله[١]، وعن قَزَعة رحمه الله قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: إن لي مالاً، فما تأمرني إلى من أدفع زكاته؟ قال: ادفعها إلى وليِّ القوم، يعني الأمراء، ولكن في مالِك حقٌّ سوى ذلك يا قَزَعة[٢].

وحسبك أن تسمع ابن عباس رضي الله عنهما يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس المؤمن بالذي يشبَعُ وجارُه جائع إلى جنبه**»[٣]؛ وعن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: انتهيتُ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في ظلِّ الكعبة، فلمَّا رآني قال: «**هم الأخسرون وربِّ الكعبة!**»، قال: فجئت حتى جلست، فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَن هم؟! قال: «**هم الأكثرون أموالًا، إلَّا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا - مِن بين يديه ومِن خلفه، وعن يمينه وعن شماله - وقليلٌ ما هم**»[٤].

فكل ذلك حث على الإنفاق فوق الزكاة.

وستتساءل: لماذا جاء الإنفاق بعد الصلاة والإيمان بالغيب، وما علاقته بالتقوى؟

الجواب: هناك أوجه تخبرك عن علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب:

الوجه الأول: الإنْفاقُ حقيقته قيام بواجبات الاستخلاف الإنساني.. ألم يجعل الله عز وجل الإنسان في الأرض خليفة؟

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٠٥٢٣)، (١٠٥٢٤)، وصححهما إسلام عبد الحميد. تفسير الطبري طبعة دار الحديث (١١/ ١٠١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٠٥٢٦)، وأخرجه الطبري بهذا الإسناد بلفظ: "إن عليك حقوقا سوى ذلك"، وصححه إسلام منصور. تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (١١/ ١٠١).

(٣) المعجم الكبير (١٢٧٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٣٨٢).

(٤) البخاري (٦٦٣٨)، مسلم (٩٩٠)، واللفظ له.

فمن أهم واجبات الاستخلاف الإنساني الإنفاق: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]، والإيمان بالغيب إيمان بالله تعالى الذي استخلف الإنسان، وإيمان بأنبياء الله عليهم السلام الذين أرسلهم إلى بني الإنسان، وإيمان بِمُحَمَّدٍ ﷺ الذي ختم الله ﷻ به النبوة إلى بني الإنسان، والإنفاق عمل مُشاهَد يدلُّ على إيمانك بكلِّ ما لم تره عيناك مما تؤمن به.

الوجه الثاني: التَّقْوى محلها القَلْب الباطِن، فالنبي ﷺ قال:«**التَّقْوَى هَاهُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(١).

والإنْفاقُ حقيقته عملٌ ظاهر يبدو للناس حيث يعرفه واحد على الأقل، والصَّلاةُ صلَةٌ بَيْنَ العمل الباطن والعمل الظاهر، فهي من جهة ترى، ومن جهة أخرى لا يعلم حقيقة أنك تقيم أركانها باطنًا إلا الله ﷻ، فالصدق دليل على هذا الإيمان الغيبي، وعلى التقوى الباطنة.

هنا تعلم لماذا قال النبي ﷺ: «**وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»(٢)، فالصدقة برهان حقيقي على الإيمان بالغيب وعلى التقوى الباطنة.

الوجه الثالث: إذا أنفقت انتظرت العِوَض من الله ﷻ في الدنيا والآخرة مؤمنًا بوجود هذا العَوَض في الدنيا والآخرة، حيث قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»(٣)، وهذا العوض مدد غيبي، وهذا الشعور بأن المال لا ينقص مع أن ظاهره ابتداء النقص.. إنما هو إيمان غيبي.. من أجل ذلك جاء الإنفاق ليعبر عن أعظم مظاهر الإيمان بالغيب.

---

(١) مسلم (٦٦٣٣).

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) مسلم (٦٦٨٤).

ولذا كان أعظم الإنفاق ما فيه إسرار بالصدقة، فليس الإنفاق ما تنفقه على الأهل والولد فقط؛ لأنك عندما تنفق عليهم كأنك أنفقت على نفسك، وليس المراد فحسب أن تنفق النفقة التي يمدحك بها الناس كقرى الضيف، وإن كان هذا يدخل في الإنفاق.

وإنما الإنفاق المرتبط بالغيب أن تنفق على الوجوه المختلفة العلمية والإنسانية وتشعر يقينًا أن الله ﷻ لن يضيع عملك، وتجتهد في عدم رؤية الناس لك إلا أن تريد منهم أن يقتدوا بك.. فإن اجتهدت في الإسرار منتظرًا العوض من الوهاب الغفار كان ذلك من أعظم ما يبرهن على إيمانك العظيم بالغيب.

وفي هذا التعبير المثير ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، يبرز لنا هذا السؤال: ما معنى قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾؟ ما الرزق الذي ينفقونه؟

وأجيبك: بأن الرزق الذي ينفقونه هو العطاء الجاري الذي يصلهم من ربهم، وهو النصيب المقسوم، والحظ المعلوم سواء أكان من المال، أم من الجاه، أم من العلم، أم من القوة.

وإذا رجعنا إلى اللغة العربية[1] فإننا سنجد أن الرِّزْق بالكَسْرِ: ما يُنْتَفَعُ به، وجمعه أرزاق، فيقال: رُزِقَ الخَلْقُ رَزْقًا ورِزْقًا، والفرق بين الرَّزْق والرزق: أن الرَّزْق بالفَتْح: المَصْدَرُ الحَقِيقِيُّ أي حال المنح المرزوق ذلك العطاء، وبالكَسْرِ: الاسْمُ: أي العطاء نفسه، وشاهِدُه قولُ عُوَيْفِ القَوافي في عُمَرَ بنِ عبدِ العَزِيزِ رحمه الله:

يا عمرَ الخيرِ الملقَّى وَفَّقَهْ ... سميت بالفاروقِ فافرقْ فَرْقَهْ

وارزق عيالَ المسلمين رَزْقَهْ ... واقصد إلى الخيرِ ولا توَقَّهْ

فيدخل في الرزق كل عطاء يصل من رب الأرض والسماء:

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٩٤)، تفسير الرازي (٢/ ٢٧٥).

مثل الغذاء، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، فصار الرزق ما تسد به احتياجات الإنسان وضروراته، ويحدث به الالتذاذ بحياته مهما يكن نوع المال الذي رزقه.

ومثل المسكن والماء: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ومثل المال السائل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨].

ومثل الكنوز المدخرة مهما كان مصدرها، كما قال الله ﷻ تعقيبًا على كنوز قارون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القَصَص: ٧٦- ٨٢].

ومثل المطر، كما في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فأول ما يدخل في الرزق الواصل من السماء: الغيث الذي به حياة الحيوان، قال لَبِيدٌ:

رُزِقَتْ مَرابِيعَ النُّجوم وَصَابَهَا ... وَدْقُ الرَّواعِدِ جَوْدُها فرِهامُها[1]

أنواع الرزق:

والأرزاقُ نَوعانِ:

الأول: الأرزاق الظاهِرَة: للأبدانِ كالأقْواتِ، والكنوز، والطعام، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: بطعام يتغذَّى به، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ١٠-١١] فعني به الثروة الزراعية والغذائية، ويمكن أن يحمل

---

(١) المعلقات العشر (ص: ٩٧). مرابيع: أمطار الربيع. صابها: أي جادها ونزل عليها. الودق: المطر الداني من الأرض. الرواعد: السحائب ذات الرعد. الجود: المطر التام العام، الرواعد: ذوات الرعد من السحاب، واحدتها راعدة. الرِهام والرِهَم: جمعا رِهمة وهي المطرة التي فيها لين. شرح المعلقات التسع (ص: ٢٦٦).

على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل، وكلُّ ذلك ممّا يخرج من الأرضين، وقد قيَّضه الله ﷻ بما ينزّله من السماء من الماء.

الثاني: الأرزاق الباطِنَة: وهي أرزاق القُلُوبِ والنُّفوسِ والعقول، كالمَعارِف والعُلُوم[1].

بعد هذا الاستعراض الرحيب لمعاني كلمة ﴿رزق﴾، فلعك تسأل: ماذا يعني قوله جل ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ؟

وأجيبك بأن المعنى: ينفقون من كلِّ ما آتاهم الله ﷻ: من الطعام.. من المال.. من الجاه...من العلم.. من القوة.. من الأفكار

فإن قلت: كيف يكون الإنفاق من ثروات الرزق المختلفة؟

فالجواب أن: مصطلح الإنفاق واسع الدلالة رحب الأفياء؛ إذ ترى الله –عز في علاه– قد ذكر الرزق مطلقًا ولم يقيِّده بمالٍ ليدخل فيه كلُّ ما يصح إنفاقه من العلم، والمال، والخلق الحسن، والكلام الطيب، والابتسامة اللائقة، والمساعدة الجسدية المناسبة:

فالإنفاق في كلِّ شيء من ذلك بحسبه، فيكون من الثروات المختلفة مثل الثروة المالية، والقوة البدنية، وثروة الجاه والرئاسة، والثروة العلمية، فإنفاق الرزق في القوة الجسدية معناه الإعانة بهذه القوة، وإنفاق الرزق من ثروة الجاه معناه السعي في مصالح الناس، والإنفاق من الثروة المالية معناه: منح الناس المالَ المطلوب، أو ما يمكن منه على سبيل الهبة، أو على سبيل القرض، أو على سبيل المشاركة.

فيكون المعنى: رزقناهم المال لينفقوا منه، ورزقناهم الجاه لينفقوا منه، ورزقناهم القوة يعينون الناس ويسهمون في تفريج كرباتهم، ورزقناهم العلم لينفقوا منه.

---

(١) لسان العرب (١٠/ ١١٥).

ها هو النبي ﷺ يوسِّع مدارك الأمة في الأمور التي ينفقون منها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَئِنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثَبِّتَهَا لَهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ**»(١).

ومما لا ينبغي أن تنسى النفقة منه: رزق الحِرْفة والخِبْرة، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أي الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِاللهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**». **قَالَ قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ**: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «**تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ**».

فهذا يمثِّل الإنفاق من الخِبرة والتجربة والقوة والوقت، فقوله: «**تصنع لأخرق**» يعني أن تعين الذي لا يعرف صناعة شيء، فتعلِّمه أو تعمل له ما لا يستطيع عمله.

قَال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢).

وجعل الله عز وجل من الإنفاق أن تنفق صوتك في الخير، فتحضَّ على إطعام المسكين، وتبلغ رسالة رب العالمين حتى لو كان المبلغ آية واحدة.

---

(١) المعجم الصغير للطبراني (٨٦١)، وسند الطبراني ضعيف جدًّا، لكن الألباني في الصحيحة (٩٠٦) ذكر له إسنادًا آخر خيرًا منه، قال إنه إسناد حسن، ولهذا ذكر في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٢٣) أنه حسن لغيره.

(٢) البخاري (٢٥١٨)، مسلم (١٦٣).

وقد تتساءل: لماذا قدم الجار والمجرور على الفعل، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ولم يقل: وينفقون من الذي رزقناهم؟

هنا أدعو نفسي وأدعوك لتتذوق الكلام الإلهي، وتشعر بعظمته:

فالتقديم هنا للاهتمام لتهتم بما عندك، وتنظر كيف يمكن أن تنفق منه، فلا تقل: لا أنفق حتى يكون عندي كذا وكذا، بل من أي شيء رزقك الله ﷻ فأنفق منه، ويبين لنا ذلك النبي ﷺ، فقد أخرج أحمدحديثًا عجيبًا يبين سعة ما يمكن أن ينفقه الإنسان في يومه وليلته، فعن أبي ذر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**على كلِّ نفس في كلِّ يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه**» قلت: يا رسول الله، من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ قال: «**إن من أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظمَ والحجرَ، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه-أي تعلمهما وتوضح لهما- وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدِّة ذراعيك مع الضعيف، كلُّ ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماعك زوجتك أجر**». قال أبو ذر رضي الله عنه: كيف يكون لي أجر في شهوتي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أرأيت لو كان لك ولد فأدرك، فرجوت خَيْرَه فمات، أكنت تحتسب به؟**» قلت: نعم. قال: «**فأنت خلقته؟**» قال: بل الله خلقه. قال: «**فأنت هديته؟**» قال: بل الله هداه. قال: «**فأنت ترزقه؟**» قال: بل الله كان يرزقه. قال: «**كذلك فَضَعْهُ في حلاله، وجَنِّبْه حرامه، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء أماته، ولك أجر**»[1].

(١) أحمد (٢١٤٨٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الصحيح، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٧٥)، قال" وهذا سند صحيح، رجاله كلهم ثقات، رجال مسلم".

وستتساءل أيضًا: لماذا أسند الله ﷻ الرزق له لا لك، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ولم يقل: (ومن رزقهم)، أو (ومن خيرهم)، أو (من عطائهم)؟

الجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً: ليذكِّرك بما يحاول الشيطان أن يُنسيك إيَّاه: فالرزق الذي عندك، إنما هو من ربك مهما كان نوع هذا الرزق.. إنه من ربك.. لا تغتر بنفسك.. فهي ليست التي جمعت المال.. لا تغتر بما عندك من الثروة.. لا تغتر بما عند من الجمال.. لا تغتر بما عندك من القوة.. لا تغتر بما عندك من الخبرة والذكاء والعلم.. لا تغتر بما عندك من الجاه والمكانة.. كل ذلك من عند ربك، فلا تكن كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وكان ابن تيمية يقول رحمه الله:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي (١)

ثانيًا: يذكرك بأنك تضارب تتاجر في رزق أعطاكه الله، وستربح من الله ﷻ الذي أعطاك هذا الرزق عندما تخرج منه شيئًا يسيرًا تنشره على بقية بني الإنسان والمخلوقات حولك.

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٤).

فكلُّ ذرَّة رزقها الإنسان في جسده وعقله وروحه، وكل خيرٍ جُبِيَ إليه فهو من الله تعالى، فيشكر ذلك فقط من خلال الإنفاق مما رزقه الله ﷻ على غيره.

حوارٌ بين الزمخشري وابن المُنَيِّر رحمهما الله حول تعريف الرزق(١):

يرى الزمخشري رحمه الله أن إسناد الرزق إلى نفسه ﷻ للإعلام بأنهم ينبغي أن ينفقوا الحلال الطَّلْق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ﷻ، ويسمى رزقًا منه.

ونازعه في هذا المفهوم ابن المُنَيِّر رحمه الله، ورد كلامه بأنه ينبع من تعصُّب المعتزلة، فهم يزعمون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه، ثم تمادى الأمر والبغي بين الفريقين حتى كاد كلٌّ منهما أن يجعل الآخر أسوأ من المشرك.

دعك من بغي بعضهم على بعض -رحمهم الله ﷻ وجمعنا بهم في ظل عرشه- ولا يحجبك جدلهم عن جمال الوصف القرآني؛ فصِفَة الإنفاق جاءت تبين حقيقة المتقين العملية، وهل يتصوَّر عاقل أن يكسب المتقي حرامًا لينفق منه؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»(٢)، ولكن هذا التقرير لا يعني أن دابَّة من الدواب، أو أن إن إنسانًا يمشى فوق التراب يمكن أن يصبح أو يمسي دون رزق، بل هو مرزوق لكن الإنسان قد يطلب الرزق من الطيبات، وقد يطلب الرزق من الخبائث.

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٤٠).

(٢) مسلم (١٠١٥).

وقد قسَّم الله ﷻ الرزق لكل دابَّة تدِب في الأرض ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هُود: ٦]، والرِّزْق يأتيه لكن الذي يأخذه بالحرام يأبى إلا أن يجعل أخذه له حرامًا، فطريقة الكسب والأخذ هي التي حرَّمت أو أحلَّت، وإلا فرزقه مقسوم مكتوب، ولأنه ضعيف الإيمان بالغيب يسارع بظنه إلى أن الرزق لا يأتيه إلا عن هذا الطريق المحرم.

ستقول: لماذا قال: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ بنا الدالة على العظمة ولم يقل: رزقتهم مع أنه واحد أحد جَلَّاله؟

الجواب: لتعظيم الله ﷻ، وتعظيم نِعمه.. التعظيم هنا أقوى في إدخال الهيبة عليك، فترى الله ﷻ يُذَكِّرُك بعظمته مجدَّدًا من خلال (نا) الدالَّة على التعظيم، ويرحمك بهذا التذكير، فهو يعلم كيف يستمر الشيطان في الإغارة عليك.. كيف يستغل الشيطان وقت نسيانك، فيسند الرزق إلى ﴿نا﴾ الدالَّة على التعظيم بدلًا من أن يسنده إلى التاء الدالة على التوحيد؛ لأن التعظيم هنا يخفف من غرورك.. ويجعلك تفكر مرارًا بعظمة المنعم الرزاق ذي القوة المتين جَلَّاله.

يخبرك الله جلَّ مجدُه أنه سخَّر لك في رزقك الذي أوتيته خلقًا من خلقه.. يا لَلرحمة الإلهية.. يا لَلبركة الربانية.. لقد سخَّر لك بعض خلقه حينما رزقك، لكنه يذكرهم معه حينما يذكر لك أنه رزقك، فوجودك في الدنيا سخَّر الله ﷻ لك فيه والديك، ودعاك لشكرهما على الرغم من أن كل شيء قدماه لك إنما هو بتسخير الله جَلَّاله ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وكذلك البيت الذي تسكنه: إنما رزقكه الله ﷻ لكن الله جَلَّاله يشير إليك أنه سخَّر لك من منحك المال أو أربحك فيه، ورزقك من ساعدك في البناء من العُمَّال، فكأنه قال سبحانه: رزقتهم، وسخرت لهم خلقًا من خلقي يجلبون لهم ذلك الرزق، فالتسخير رزق، والمسخَّر لك كأنه يرزقك، فينبغي أن تشكره مع شكرك لربِّك سبحانه.

لا تغتر، واذكر أن الرزق من الله ﷻ الكبير المتعال، وهو الذي سخَّر لك البيئة وسخَّر لك سواعد النساء والرجال.

وتظهر لنا بصيرة جديدة: لماذا اختار الله ﷻ الفعل ﴿ينفقون﴾ على أي فعلٍ آخر مثل: يقدِّمون، يعطون؟

والجواب: أن لكلمة ﴿ينفقون﴾ مَزيَّة خاصة، فهي مشتقةٌ من أنفق، وأصلها (نَفَق)، وهذه الكلمة تدل على ذهاب شَيْءٍ واختفائه مع ظهور عوضٍ عنه، فيقال: نَفَقَ الشَّيْءُ يَنْفُقُ نُفوقًا: مَضَى ونَفِدَ، نحو: نَفَقَتِ الدَّابَّةُ: ماتت بأن ذهبت منها قوة الحياة مع بقاء الجسد ظاهرًا، وقيل بأن هذا يقال لكلِّ دابَّة ذات خُفٍّ أو ظِلْفٍ أو حافر ما خلا الإنسان.

ونَفِق مالُه، ودرهمُه، وطعامه على وزن تعب: فَنِيَ وذهب، ونَفِقَتْ نَفَقَةُ الْقَوْمِ: فنيت.

ونَفَقَ البَيْعُ ينفُق نَفَاقًا، وَنَفَقَ السِّعْرُ نَفَاقًا، كأن رأس المال ذهب، وخلفه عوض عنه: رأس مال مع ربح، فَلَا يَكْسُدُ وَلَا يَقِفُ، فذهبت قيمته الأولى، وحل محلها قيمة جديدة.

ومنه النَّفَقُ: سَرَبٌ فِي الْأَرْضِ لَهُ مَخْلَصٌ إِلَى مَكَانٍ يُمْكِنُ الْخُرُوجُ مِنْهُ من جهة أخرى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥].

والنُّفَقَة- كهُمَزة والنافقاء: جُحْر الضَبِّ واليَرْبُوع مَوْضِعٌ يُرَقِّقُهُ الْيَرْبُوعُ مِنْ جُحْرِهِ فَإِذَا أُتِيَ مِنْ قِبَلِ الْقَاصِعَاءِ ضَرَبَ النَّافِقَاءَ بِرَأْسِهِ فَانْتَفَق، أَيْ خَرَجَ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ النِّفَاقِ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَكْتُمُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ، فَكَأَنَّ الْإِيمَانَ يَخْرُجُ مِنْهُ، أَوْ يَخْرُجُ هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ فِي خَفَاءٍ(١).

فقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الأنفال: ٦٣]: أي لو صرفته وأذهبته مقابل أن تحصل على مقابله مما يحقِّق هدفك.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٤، ٤٥٥)، المفردات للراغب (ص: ٥٠٢).

وهنا يلوح لك السبب الحقيقي لاختيار كلمة ﴿ينفقون﴾ دون يعطون مثلًا؛ لأن النفقة تقتضي ذهاب شيء مقابل الحصول على شيء، فهم عندما ينفقون لا بد أن يربحوا، والسبب واضح.. أنهم يتعاملون في إنفاقهم مع ربهم، فهو الضمين لهم بتحقق ما يريدون، وفوق ما يريدون.

والآن: تعال إلى بصيرة جديدة: لماذا أُتي بالفعل المضارع ﴿ينفقون﴾، ولم يقل: (ومما رزقناهم أنفقوا)، أو (كانوا منفقين)؟

وأجيبك عن ذلك: بأن الفعل المضارع يُمِدُّك بصورتين عظيمتين:

الأولى: يُمِدُّك بصورةٍ متحركة لواقع الإنفاق، فالفعل المضارع ينقل لك الخبر كأنك تراه أمامك مباشرة.

الثانية: يدلُّك في الوقت ذاته على تكرر الإنفاق واستمراره وتجدده ليصبح سلوكًا دائمًا معتادًا، وسجية متكررة يتم من خلالها نفع المجتمع، وتقريب الهوة بين الطبقات، وإظهار المحبة بين أفراد الأمة، وإظهار الرحمة والمحبة للعالم.

يجيء المنفق للمحتاجين كنفحة طيبة، وعبير عذبٍ رائع يملأ الكون بالسلام:

كشوق الليالي لضوء القمر ... كعشق اليباب لقطر المطر

فإذا كانت الصفات السابقة تتعلق بالمسلم وعلاقته بالمجتمع المسلم حوله، فكيف علاقته بغير المسلمين؟. هنا تأتي الصفة السادسة (الرابعة المباشرة)، ويأتي معها ذكر صنفٍ ثانٍ من المتقين:

الصفة السادسة (الرابعة): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]

صفة السلام الإيماني بالجمع بين الكتب الإلهية.. إنها أعظم مميز للمسلمين عن مُحَرِّفة أهل الكتاب:

المعنى: والذين يؤمنون بما أنزل إليك من الوحي الخاتم إيمانًا تفصيليًّا، ويؤمنون بما أنزل من قبلك من الوحي السابق على الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام إيمانًا إجماليًّا.

فإن قلت: كيف ظهر الإعجاز البياني القرآني في هذه الصياغة المدهشة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] ؟

يظهر لنا ذاكم الإعجاز من خلال سوق البصائر الآتية:

بصيرة: **﴿والذين﴾ عبَّرت عن المتقين عمومًا، وعن صنفٍ آخر خاصٍّ من المتقين في الوقت ذاته هم المؤمنون من أهل الكتاب، فالواو مع تجدُّد ذكر الاسم الموصول يحبوانك بمعنيين:**

هنا ترى عظمة الصياغة القرآنية المذهلة.. تعال معي أبين لك التفصيل:

المعنى الأول: إكمال صفات المتقين الذين ذكرهم من قبل، فتكون هذه الصفة الرابعة المباشرة، والصفة السادسة تفصيلًا إن نظرنا إلى الصفتين الأوليين باعتبارهما تقديمًا، ونعني بهما الصفتين اللتين استنبطناهما من قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهما الطموح إلى مرتبة التقوى، وجعل القرآن هاديًا في الحياة، وميَّز الصفتين: الرابعة والخامسة بالنسبة للمتقين عمومًا بإعادة الاسم الموصول دون الاكتفاء بالعاطف، فجاءت الصفات الخمس لتبين أسس صفات المتقين، مع تميُّز الصفتين الرابعة والخامسة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

ورجَّح ابن كثير رحمه الله هذا المعنى، فالْمَوْصُوفونَ أَوَّلًا هُمُ الْمَوْصُوفُونَ ثَانِيًا، وَهُمْ كُلُّ مُؤْمِنٍ، فيدخل فيهم: مُؤْمِنُو الْعَرَبِ وَمُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ، كما قرَّر ذلك مُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ رحمهم الله، فالْوَاوُ عطفت صِفَاتٍ عَلَى صِفَاتٍ، ونرى هذا العطف للصفات على الصفات كثيرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الْأَعْلَى: ١-٥]، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ ... وليثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمِ[(١)]

فَعَطَفَ الصِّفَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَالْمَوْصُوفُ وَاحِدٌ.

قال ابن كثير رحمه الله: "فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَكِتَابِيٍّ مِنْ إِنْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ، وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْأُخْرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْأُخْرَى وَشَرْطٌ مَعَهَا، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم، وَمَا جَاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْإِيقَانِ بِالْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَاكَ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ الْآيَةَ [النِّسَاء: ١٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٌ﴾ الْآيَةَ [الْعَنْكَبُوت:٤٦]"[(٢)].

(١) البيت بلا نسبة. ينظر: الإبانة في اللغة العربية (١/ ٤٢١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٠، ١٧١).

ورجَّح الفراهي رحمه الله أن المراد بهذه الآية كل مؤمن صحيح الإيمان، فالله تعالى قد وصف أتباع النبي ﷺ أنهم يؤمنون بكلِّ ما أنزل الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

المعنى الثاني: تجدُّدُ ذكرِ الاسم الموصول ينبئك في الوقت ذاته بصنف آخر من أصناف المتقين: إنهم المؤمنون من أهل الكتاب.

فهم الذين حدثنا الله ﷻ عن إيمانهم بما أُنزل إلى النبي ﷺ وما أُنزل من قبله، فقال عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الْآيَةَ [آل عِمۡرَان: ١٩٩]، وقال عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [القَصَص: ٥٢-٥٤].

وهذا يريك الإعجاز في الإيجاز.

الصياغة القرآنية المدهشة (كمال الإعجاز، وجمال الإيجاز):

وبهذه الصياغة المدهشة يمكنك أن تجعل هاتين الصفتين في وصف فريق الكتابيين المسلمين بسبب تكرار الاسم الموصول مع حرف العطف ﴿والذين﴾ وهو الذي مال إليه الطبري رحمه الله، ورجَّحه[1] بأن الله ﷻ قسَّم المتقين إلى صنفين:

المتقون من غير الكتابيين وهم الموصوفون في الآية الثالثة.

والمتقون من الكتابيين وهم الموصوفون في الآية الرابعة.

وذلك مقابل الكفار الذين جعلهما الله ﷻ صنفين:

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

الكفار المعاندون المطبوع على قلوبهم.

والمنافقون.

ومال إلى هذا أيضًا الطاهر بن عاشور رحمه الله ورأى: أن الله عز وجل صنَّف الناس بِحَسَبِ اخْتِلافِ أحْوالِهِمْ في تَلَقِّي الكِتابِ الـمُنَوَّهِ بِهِ إلى أرْبَعَةِ أصْنافٍ بَعْدَ أنْ كانُوا قَبْلَ الهِجْرَةِ صِنْفَيْنِ، فَقَدْ كانُوا قَبْلَ الهِجْرَةِ صِنْفًا مُؤْمِنِينَ وصِنْفًا كافِرِينَ مُصارِحِينَ، فَزادَ بَعْدَ الهِجْرَةِ صِنْفانِ: هُما المُنافِقُونَ وأهْلُ الكِتابِ[1].

ولكن ترجيح الطبري رحمه الله لا يمنعنا من أن نرى الصياغة القرآنية لهاتين الصفتين (الرابعة والخامسة) تجعلهما تتمة لوصف المتقين سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، فقد قال مجاهد رحمه الله: أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين[2].

إنها الصياغة القرآنية العظيمة تظهر لك في حلتها البهية لتحتمل الأمرين في وقت واحد؛ فإن المتقين يتصفون بهذه الصفات الخمس سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من العرب أم من غيرهم.. لكن الاسم الموصول ﴿والذين﴾ يثير أهل الكتاب إثارة خاصة ليتركوا عنادهم وكبرهم، ويظفروا بالفوز الحقيقي عندما يؤمنون بما أنزل إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم كما آمنوا بما أنزل إلى من قبله.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٢٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

وقد شعر الرازي رحمه الله بعظمة هذه الصياغة القرآنية وبين احتمالها لتكمِّل صفات المتقين، ولتَخُصَّ أهل الكتاب بمزيد تنويه وذكر؛ ليحثَّهم على المسارعة إلى التَّشرُّفِ باتباع هذا الدين المتين[١].

بصيرة: تميَّزت الصفة الرابعة بإظهار تميُّز المسلمين بالإيمان بجميع الكتب، وهذا يعني الإيمان بجميع الرسل دون تفريق، وأما أهل الكتاب فيفرِّقون.

هذه الصفة (الإيمان بالوحي الخاتم والوحي السابق) صفةٌ عقديةٌ سياسية تضبط علاقة المؤمنين بالأنبياء السابقين، وتظهر المسلمين بمظهر الذي جمع ولم يفرق، **فلماذا يصر اليهود والنصارى على التفريق بين النبيين؟**

هذه الصفة تعطي تميُّزًا حقيقيًّا للمؤمنين، فالمسلمون يؤمنون بجميع الكتب والرسل، ولا يفرقون بين أحد منهم، وأما أهل الكتاب فيفرقون.

وصل النبي ﷺ إلى المدينة.. هناك كان اليهود يظهرون تميزهم على الوثنيين، ويزعمون أنهم ينتظرون خاتم النبيين.. ها هو خاتم النبيين ﷺ قد وصلهم مصدِّقًا لما بين يديه من التوراة، معظِّمًا موسى وسائر الأنبياء، فما لهم لا يؤمنون؟

وهذه الصفة ينبغي أن يفقهها السياسيون والمثقفون والناس أجمعون؛ لأنها تعطي من يؤمن بها أفضلية التقدُّم، ولا تجعلهم في محلِّ الدفاع الدائم عن دينهم، والخوف من اتهامهم في إيمانهم.

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٧٧).

هذه الصفة تملأ نفوس المتلقين للقرآن من المتقين بالآتي: لا تخافوا اللقاء بأهل الكتاب.. لا تشعروا بالدُّونية.. عندكم أفضلية مطلقة: أنتم تؤمنون بالكتاب كلِّه، وهم يؤمنون ببعضه، قولوا لهم:

من يؤمن بالأنبياء كلهم، وبالكتب جميعها لا يحملون إلا المحبة لهم جميعًا، لكن الذي يفرِّق في إيمانه بينها يحمل بذور الاعتداء والكراهية والحقد على الآخرين، كما أنه يتجرأ بذلك على رب العالمين الذي أرسل كلَّ أولئك الرسل عليهم السلام.

صارت هذه الصفة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤] **داعيةً بذاتها لأهل الكتاب عن محبة وقوة، كما صارت مصدر إحراج لمن أبى من أهل الكتاب.**

بل كان إنزال هذه الصفة في أول سورة البقرة المدنية يمثِّل حكمة تربوية عظيمة لتجميع الصفوف حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قد جمع نزول هذه الآية كلَّ تلك الأسرار الفائقة؛ لأنها تخبر الإنسان الكتابي بالوصف المميز الذي ينتظره:

سيكون مؤمنًا سابقًا بما أنزل إلى نبيه، وسيؤمن الآن بما أنزل إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد كان نزول هذه الآية في أوائل سورة البقرة المدنية مصدر إثارة هائلة للوثنيين، ولمن آمن منهم، ولأهل الكتاب؛ إذ كلهم سيرون التفوُّق العظيم الذي تُظهره الرسالة الجديدة حين تتحدَّث هذه السورة عن بعض دقائق الحياة الإسرائيلية مما لا يعرفه الإسرائيليون أنفسهم مثل قِصَّة البقرة.

.. الرسالة الخاتمة تلفت أنظار الفرق الثلاث بتسمية أكبر السور باسم بقرة بني إسرائيل.. الرسالة الخاتمة تظهر أنها أعلى من الجميع حتى يشعروا جميعًا بتضاؤلهم أمامها ليصدق الوثنيون، وينجذب أهل الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.. ثم ها هو الله عز وجل ينزل في الرسالة

الخاتمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ ليشعر أهل الكتاب أنهم المعنيون الأوائل بذلك..

وقبل هجرة النبي ﷺ، وأثناء هجرة المسلمين إلى الحبشة ينزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] يبشرهم الله ﷻ بالأجر مرتين، ويذكِّرهم النبي ﷺ في المدينة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ** ﷺ...»(١).

صفة النبي ﷺ في الكتب السابقة آصرة قوية بين الوحيين السابق والخاتم:

فعن عطاء بن يسار رحمه الله، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة، قال: "أجل، والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق -السخب: الصياح- ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولا يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلْفًا" (٢).

فهذه البشارة موجودة عندهم فقد نقل القرطبي، وابن تيمية، وابن القيم رحمهم الله عما رأوه في نسخ التوراة في سفر أشعياء ما يماثل هذه الصفات: "عبدي الذي سُرَّت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يُسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصمّ، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطيه أحدًا، يحمد

---

(١) البخاري (٩٧).

(٢) البخاري (٢١٢٥).

الله حمدًا جديدًا، يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرِّيَّة وسكانها، يهللون على كلِّ شرف، ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى مُشْقِحٌ، ولا يذلُّ الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوِّي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يُطفى، أثر سلطانه على كتفيه"(١).

وعندما عقدت مقارنة سريعة مع النُّسَخ الحالية وجدت في سفر أشعياء٤٢:

١ «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ.

٢ لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ.

٤ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ».

٥ هكَذَا يَقُولُ اللهُ الرَّبُّ، خَالِقُ السموات وَنَاشِرُهَا، بَاسِطُ الأَرْضِ وَنَتَائِجِهَا، مُعْطِي الشَّعْبِ عَلَيْهَا نَسَمَةً، وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا رُوحًا:

٦ «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ، وَأَحْفَظُكَ، وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ.

٧ لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ.

ثم يُكمِل السفر الكلام بما يشعرك بأن المقصود محمد ﷺ؛ إذ يذكر أن الذكر الذي سيأتي سيكون جديدًا، ويذكر ديار قيدار (وهم بنو إسماعيل) خاصة، وسكان سالع (جبل معروف عند العرب)، فيقول:

١٠ غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا.

---

(١) ينظر: الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام (٢٧٣)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ١٥٧)، مدارج السالكين (١/ ٢٣١).

١١ لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا.

١٦ وَأُسَيِّرُ الْعُمْيَ فِي طَرِيقٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا. فِي مَسَالِكَ لَمْ يَدْرُوهَا أُمَشِّيهِمْ. أَجْعَلُ الظُّلْمَةَ أَمَامَهُمْ نُورًا، وَالْمُعْوَجَّاتِ مُسْتَقِيمَةً. هذِهِ الأُمُورُ أَفْعَلُهَا وَلاَ أَتْرُكُهُمْ.

١٧ قَدِ ارْتَدُّوا إِلَى الْوَرَاءِ. يَخْزَى خِزْيًا الْمُتَّكِلُونَ عَلَى الْمَنْحُوتَاتِ، الْقَائِلُونَ لِلْمَسْبُوكَاتِ: أَنْتُنَّ آلِهَتُنَا!

١٨ «أَيُّهَا الصُّمُّ اسْمَعُوا. أَيُّهَا الْعُمْيُ انْظُرُوا لِتُبْصِرُوا»(١).

وقوله: (وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ) مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قصة ابن الهيبان من الذين آمنوا بالوحي الخاتم والوحي السابق:

هذه الصفة العظيمة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وجدنا بعض أهل الكتاب يطبِّقها، فيروى ابن إسحاق في سيرته عن بعض بني قريظة أنه قال: قَدِمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ يَهُودَ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيَّبَانِ، فَأَقَامَ عِنْدَنَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلاً قَطُّ لاَ يُصَلِّي الْخَمْسَ خَيْرًا مِنْهُ، فَقَدِمَ عَلَيْنَا قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسِنِينَ فَكُنَّا إِذَا أُقْحِطْنَا وَقَلَّ عَلَيْنَا الْمَطَرُ نَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ الْهَيَّبَانِ اخْرُجْ فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ حَتَّى تُقَدِّمُوا أَمَامَ مَخْرَجِكُمْ صَدَقَةً. فَنَقُولُ: كَمْ نُقَدِّمُ. فَيَقُولُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ مُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ظَاهِرَةِ حَرَّتِنَا، وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَسْتَسْقِي، فَوَاللهِ مَا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى تَمُرَّ الشِّعَابُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلاَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ ثَلاَثَةٍ، فَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ

(١) سفر إشعياء، القس أنطونيوس فكري (ص: ٢١٨- ٢٢١).

الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إِلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ فَقُلْنَا: أَنْتَ أَعْلَمُ فَقَالَ إِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرَجَنِي أَتَوَقَّعُ خُرُوجَ نَبِيٍّ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ هَذِهِ الْبِلَادُ مُهَاجَرُهُ فَأَتَّبِعُهُ فَلَا تُسْبَقُنَّ إِلَيْهِ إِذَا خَرَجَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ فَإِنَّهُ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَيَسْبِي الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَلَا يَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ، ثُمَّ مَاتَ فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ فِيهَا قُرَيْظَةُ قَالَ أُولَئِكَ الْفِتْيَةُ الثَّلَاثَةُ -وَكَانُوا شَبَابًا أَحْدَاثًا-: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ لَلَّذِي كَانَ ذَكَرَ لَكُمُ ابْنُ الْهَيَّبَانِ قَالُوا مَا هُوَ قَالُوا بَلَى، وَاللهِ إِنَّهُ لَهُوَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّهُ وَاللهِ لَهُوَ لِصِفَتِهِ، ثُمَّ نَزَلُوا فَأَسْلَمُوا، وَخَلَّوْا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَهَالِيهِمْ، قَالَ: وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي الْحِصْنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَلَمَّا فُتِحَ رُدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ(١).

وروى ابن إسحاق رحمه الله عن صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: كنت أَحَبُّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(٢).

---

(١) السير والمغازي لابن إسحاق (ص: ٨٥، ٨٦).

(٢) قال محمد بن حمد الصوياني صاحب كتاب "الصَّحيح من أحاديث السِّيرة النبوية": [درجته: سنده قوي، رواه: من طريقه البيهقي (٢/ ٥٣٣)، وأبو نعيم، جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر، وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم، وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمَّد بن عمرو بن حزم قال الحافظ في (التقريب ٢/ ١٩٥): له رؤية، وليس له سماع إلا من الصحابة، وحفيده تابعي صغير وثقة، من رجال الشيخين (١/ ٤٠٥التقريب)، وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٢/ ٥٣٢)].

وبعد: فلا أظنك إلا مستشعراً أن من أعظم البصائر القرآنية: أن يظهر الله ﷻ مزية النبي الخاتم ﷺ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، **فهذه الصفة من أعظم أدلة صدقه:**

وهذه هي "الصفة اللائقة بالأمة المسلمة، وارثة العقائد السماوية، ووارثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان. وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة معبودها.. قيمتها هي تنقية الروح من التعصب الذميم ضدَّ الديانات والمؤمنين بالديانات ما داموا على الطريق الصحيح.. قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله تعالى للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها.

هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد. قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تتقلب الأيام والأزمان، وهو ثابت مطرد، كالنجم الهادي في دياجير الظلام"(١).

فالمسلمون هم الذين يجب أن يعتذر إليهم صنَّاع الكراهية الذي يفرِّقون بين رسل الله عليهم السلام، ولذا يقول م. كويت: "قد شبَّ أغلب الغربيين على كراهية الإسلام، بينما شبَّ المسلمون على حبِّ المسيح والإنجيل المُنَزَّل عليه"، ويقول البريطاني أرسكين تشايلدرز: "إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم لم تكن متوازنة من البداية! فقد اعترف الإسلام بالديانات السماوية، واعتبر الإيمان بأنبيائها جزءًا من سلامة اعتقاد المسلم، في حين أن أهل هذه الأديان لم يعترفوا بالإسلام ولم يهادنوه يومًا".

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤١).

أول عرض للعلاقات الحقيقية غير المراوغة مع أهل الكتاب.. تكشف عنها روعة البيان القرآني في عرض الصفات الإيمانية أول سورتي البقرة ولقمان:

ويتضح لك سرُّ التركيز على ذلك الإيمان بالوحي الخاتم اللاحق، والوحي السابق عندما تقارن هذا البناء للصفات الإيمانية في أول سورة البقرة المدنية مع أول سورة لقمان المكية:

فماذا ترى؟

سورة لقمان مكية، وفي أولها يقول الرحمن ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [لقمان: ١ – ٥]، وهي بذلك تشبه إلى حد ما سورة النمل المكية، فالبداية بأسماء الحروف الهجائية، ولكن الله ﷿ وصف الكتاب بالحكمة في سورة لقمان، والله ﷻ يخاطب الوثنين المشركين في المقام الأول، ثم بيَّن هدف الكتاب وأنه هدى ورحمة للمحسنين.. إنه يرغبهم فيه كما يطمعهم في الإحسان والتفضل، ويبيِّن أن مقصد القرآن الهداية لهم، والرحمة بهم في عالم الدنيا القاسي، ثم يذكر ثلاث صفات لهم: صفتين موجودتين في سورة البقرة، وهما إقام الصلاة، والإيمان بالآخرة، وذَكَر فيها إيتاء الزكاة بدلًا من ذِكرِ الإنفاق العام الذي ذَكَره في سورة البقرة، ورتَّب المكافأتين نَفْسَيْهما في السورتين..

لم يذكر الإيمان بالغيب ولا الإيمان بالكتب الإلهية مما ذكره في سورة البقرة، وفي البقرة ذكر عموم الإنفاق بدلاً من أن يحصره في الزكاة.. إنه الخطاب القرآني الذي يملأ الناس بالمعرفة المبهرة يخاطب كلًّا بما يناسبه، وقد خاطب في البقرة المسلمين الذين ينبغي أن يرتقوا إلى مرتبة المتقين بينما خاطب المشركين ليحثهم على الإحسان، ويبين رحمة النظام القرآني بهم، **وناسب أن يزيد الإيمان بالغيب وبالكتب الإلهية في المجتمع المدني ليخاطب**

أهل الكتاب مع المسلمين، ويذكرهم بما هم عنه منصرفين، ويبيّن سَبْقَ الإسلام في سلوك سُبُل السلام بالإيمان بالكتب كلها، فمن آمن ببعض وكفر ببعض فكأنه أوشك أن يعلن العداوة على ما كفر به.. فمن هو الذي يزرع الكراهية في هذا العالم إذن؟

هل يمكن أن يتضح الانسجام في علم الاتصال القرآني بين هذه الصفة وما قبلها؟

الجواب: إي وربي يتجلى الانسجام في علم الاتصال في هذه الصفة العظيمة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ حيث ترى الانسجام بينها وبين ما قبلها:

فإن كانت الصلاة تميزًا شخصيًّا ذاتيًّا، والإنفاق تميُّزًا اجتماعيًّا، فإن هذه الصفة تميِّزُ الإيمان في الدين الإسلامي عما يدَّعيه اليهود والنصارى من إيمان؛ بل إن هذه الصفة هي أعظم الأبواب لبيان تفوق الدين الإسلامي على كل ما عداه؛ والمعنى العام لها: يصدقون تصديقًا قائمًا على المعرفة اليقينية التي لا يخالطها شك ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾: هو القرآن الكريم، وما يقوله النبي ﷺ مما قُبِلَ من أحاديثه لأنه لا ينطق عن الهوى، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾: أي جميع الكتب السماوية السابقة ومنها التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، أي نؤمن بجميع الكتب، وهذا يقتضي الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام الذين جاءوا بهذه الكتب.

أفلا يشعر أهل الكتاب نحو ذلك بأقوى درجات الانجذاب؟ أفلا ينبذون الارتياب وراءهم ظهريًا، ويقبلون بكل قلب منيب أواب؟

هنا ستسأل: إذا كانت هذه الصفة المباركة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ تشمل المؤمنين من غير أهل الكتاب، والمؤمنين من أهل الكتاب، وميزهم الله ﷻ بالاسم الموصول كأنه يتحدث عنهم خاصّة، أفلا بدأ هذه الصفة بذكر ما أنزل من قبل

الرسول أولًا ليجذبهم أكثر، وليكون الحديث مرتبًا من الناحية الزمنية، فيقول مثلًا: والذين يؤمنون بما أنزل من قبلك وما أنزل إليك؟ فما فائدة هذا الترتيب غير المعتاد؟

وأجيبك بما يدهشك:

فالترتيب القرآني أهدى وأقوم؛ إذ إن البدء بذكر ما أنزل إلى النبي ﷺ يبصِّرك بعِدَّة أهداف منها:

الأول: يذَّكرُ المؤمنين وأهل الكتاب بأن الأصل الإيمان بالبيان الإلهي المتأخِّر زمانًا؛ إذ المتقدِّم يهدي إليه، ويدلُّ عليه، وعدم الإيمان بالأخير زمانًا كفرٌ بالمتقدِّم في النزول؛ فالإيمان بالمتقدِّم فقط يعني أن هذا المؤمن بالرسالة السابقة آمَنَ على هواه، وليس بما أنزله الله ﷻ، فمن الطبيعي أن يأخذ المرء بآخر رسالة تصله من الملك في عالم البشر، وكذلك الأمر في الرسالات التي جاءت من رب العالمين.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾: عبد الله بن سَلَام شاهد حقٍّ وداعية خير:

كما أن في هذا الترتيب إيماء إلى أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالسابق لا يستقيم إيمانهم به حتى يؤمنوا باللاحق، وقد صرَّح الله تعالى بهذه القضية في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥]، ولذا نقول لأهل الكتاب: نحن نؤمن بما أنزل إلى النبي ﷺ، ونؤمن بما في التوراة والإنجيل قبل أن تحرفوها بينما تصرون أنتم على المعاداة والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، فلماذا هذا العداء المستمر؟ وكان النبي ﷺ يزور يهود، ويحرص على تذكيرهم ما ينفعهم، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله: «**يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا**

رسول الله **يُحْبِطُ الله عن كلِّ يهوديٍّ تحت أديم السماء الغضبَ الذي غضب عليه**» فأَسْكَتُوا ما أجابه[١] منهم أحد، ثم ردَّ عليهم فلم يُجِبْهُ أحدٌ، ثم ثَلَّثَ فلم يُجِبْهُ أحدٌ، فقال: «**أبيتم. فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذبتم**»، ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت محمد. قال: فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدِّك قبل أبيك قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبتَ، ثم ردُّوا عليه قولَه، وقالوا فيه شرًّا. قال رسول الله ﷺ: «**كذبتم لن يُقبل قولُكم، أما آنفًا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يُقبل قولُكم**» قال: فخرجنا ونحن ثلاثة رسول الله ﷺ، وأنا وعبد الله بن سلام، وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠][٢].

فهذا الهدف الأول من أهداف تقديم ما أنزل إلى النبي ﷺ بالذكر في الآية.

الثاني: التقديم يخبر الجميع بأن الرسالة الخاتمة مصدِّقة لما بين يديها لكنها في الوقت ذاته مهيمنة على ما قبلها، فحقُّها التقديم في الإخبار، وإن تقدَّم غيرُها عليها في الزمان، فقدَّم الله القرآن في الإيمان به على الكتب التي سبقته؛ لأن القرآن هو المهيمن باعتباره البيانَ الإلهيَّ الأخير، وهو ما أكدَّه سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، والمهيمن يبيِّن الكلامَ المحرَّفَ من غيره.

---

(١) قال محققو المسند: تحرف في (م) و (ظ٢) و (ق) إلى. ما جاء به، والتصويب من "جامع الأسانيد" وغيره.

(٢) أحمد (٢٣٩٨٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح موارد الظمآن (١٧٦٤).

ولكنك ربما تسأل: فلماذا استخدم البيان القرآني الفعل الماضي ﴿أُنزل﴾ هنا دون غيره مع أنه بقيت سور وآيات لم تنزل على رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية؟

الجواب: استخدام الفعل الماضي يُبَصِّرك بالترابط العقدي في المنهج الإسلامي، فإذا آمنوا بالقرآن المنزل أولًا قبل نزول هذه الآية فلابد أن يؤمنوا بما سينزل بعدها، والمراد ما أنزل إليك سابقًا؛ ومن المنطقي أن يستمر إيمانهم بما ينزل إليك لاحقًا:

"لِأَنَّ الْعِنَادَ وَعَدَمَ الِاطْمِئْنَانِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَإِذَا زَالَا بِالْإِيمَانِ أَمِنُوا مِنَ الِارْتِدَادِ"[١].

وممَّا يخبرك بذلك أن الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] مع أنهم لم يسمعوا جميع الكتاب عندما آمنوا، فالقرآن لم يكتمل نزوله بعد، لكنهم آمنوا بما نزل، ولن يترددوا في الإيمان بما سينزل.

وربما سألت لماذا ذكر الله ﷻ هذا اللفظ "الْإِنْزَالِ" دون غيره؟ لم يقل مثلًا: يؤمنون بما جاءهم منك؟

فيأتيك الجواب أن: كلمة (نَزَلَ) تَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ وَوُقُوعِهِ، ونَقْله مِنْ مَكَانٍ عَالٍ إِلَى مَا دُونَهُ حسًّا أو معنى، فمن النزول الحسي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ومن النزول المعنوي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وَالنُّزُلُ: مَا يُهَيَّأُ لِلنَّزِيلِ، وَمَكَانٌ نَزِلٌ: يُنْزَلُ فِيهِ كَثِيرًا، وَالنَّزِيلُ: الضَّيْفُ. قَالَ الشاعر:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٨)، وانظر: تفسير الكشاف (١/ ٤٢).

نَـزِيـلُ الْـقَـوْمِ أَعْـظَـمُـهُـمْ حُـقُـوقًـا   وَحَـقُ اللهِ فِـي حَـقِ الـنَّـزِيـلِ

والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازل من الزَّاد، قال: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾ [السجدة: ١٩]، وقال: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال في صفة أهل النار: لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ إلى قوله: هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٣].

وَيُعَبِّرُونَ عَنِ الْحَجِّ بِالنُّزُولِ. وَنَزَلَ، إِذَا حَجَّ. قَالَ:

أَنَـازِلَـةٌ أَسْـــمَـاءُ أَمْ غَـيْـرُ نَـازِلَـهْ   أَبِينِي لَنَـا يَـا أَسْـمَ مَـا أَنْـتِ فَـاعِلَـهْ

وَقَالَ:

وَلَـمَّـا نَـزَلْـنَـا قَـرَّتِ الْـعَـيْـنُ وَانْـتَـهَـتْ   أَمَانِيُّ كَـانَـتْ قَبْـلُ فِي الـدَّهْـرِ تُـسْــأَلُ

فصار النزول: الهبوط من جهة عالية في المعنى أو في الحس كأن يكون الـمُنزِل معظَّمًا(١).

فإن سألت: ما الفرق بين النزول والهبوط؟

الجواب: ذهب أبو هلال العسكري ﵀ في الفروق اللغوية(٢) إلى أن الفرق بين الهبوط والنزول أن الهبوط نُزُول يعقبه إِقَامَة، وَمن ثمَّ قيل: هبطنا مَكَان كَذَا أَي نزلنَا لنقيم، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦٣]، وقوله تعَالَى ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، وَمَعْنَاهُ: انزلوا الأَرْض للإقامة فيها، وَلَا يُقَال هَبَط الأَرْض إِلَّا إذا اسْتَقر فِيهَا حينًا، وَيُقَال: نُزُول وَإِن لم يسْتَقرَّ، فالنزول أعمُّ، ويظهر في الهبوط: الحس أي الأمور المحسوسة، أما النزول فأعم، فقد يكون النازل أمرًا محسوسًا، وقد يكون أمرًا معنويًا.

أدركنا بذلك الفائدة الأولى من فوائد استعمال كلمة ﴿أُنزل﴾ هنا دون استعمال (أُهبِط) أو (وصل) أو (جاء) أي أُنزِل إليكم، مما وصل من الملك العظيم الأعلى إلى مكانكم، فإن

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤١٧).

(٢) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٩٦).

آمنتم به نلتم الانتفاع والارتفاع، وبذلك ترى لكلمة الإنزال إيقاعًا خاصًّا، وتحمد الله ﷻ على النازل، كما علمنا الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١](١).

إنه ﷻ يعلمك الإحساس بهيبة المُنْزَل، وعظمة المُنْزِل، ومكانة المُنْزَل عليه؛ إذ تشعر بأنه وَرَدَ مِنْ جَانِبِ الرُّبُوبِيَّةِ الرَّفِيعِ الْأَعْلَى، وقد احتوى على الْإِرْشَادِ الْإِلَهِيِّ الْأَسْمَى.

ويشير رشيد رضا رحمه الله إلى أنه سُمِّيَ إِنْزَالًا لِمَا فِي جَانِبِ الْأُلُوهِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الْعُلُوِّ، عُلُوِّ الرَّبِّ عَلَى الْمَرْبُوبِ، وَالْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ، الَّذِينَ لَا يَخْرُجُونَ بِالتَّكْرِيمِ وَالِاصْطِفَاءِ عَنْ كَوْنِهِمْ عَبِيدًا خَاضِعِينَ(٢).

وربما تساءلت: لماذا قال هنا: ﴿أُنزل﴾ ولم يقل ﴿نُزل﴾؟

تعال بنا إلى فائدة ثالثة في استعمال هذه الكلمة:

يخبرنا بها الراغب الأصفهاني رحمه الله؛ إذ يميل إلى أن الفَرْق بَيْنَ الإِنْزَالِ والتَّنْزِيلِ في وَصْفِ القُرآنِ والملائكةِ أنّ التَّنْزِيل يختصُّ بالموضع الذي يُشِيرُ إليه إنزالُهُ مفرَّقًا، ومرَّةً بعد أُخْرَى، والإنزالُ عَامٌّ(٣)، فقولُه: ﴿نَزَّلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] في قراءة ابن عامر، وشعبة وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف بالتشديد ونصب (الروح الأمين) إخبار عن أن الله ﷻ نزَّل جبريل عليه السلام تنزيلًا تدريجيًا مرة بعد مرة بالقرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة.

---

(١) ذكر الراغب من الفروق بينهما أيضًا: إذا استعمل في الإنسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف بخلاف الإنزال، فإن الإنزال ذكره تعالى في الأشياء التي نبه على شرفها كإنزال الملائكة والقرآن والمطر وغير ذلك.

المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٥٣٦).. فماذا ترى؟ لا يظهر لي ما قرره، بل وردت كلمة اهبط مع المكرمين كما قال الله ﷻ لنوح عليه السلام: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]. إلا أن يقال إن هذا من غير الغالب.

(٢) تفسير المنار (١/ ١١١).

(٣) المفردات للراغب (ص: ٤٨٩).

وقراءة نافع، وأبي جعفر، وابن كثير، وأبي عمرو، وحفص بالتخفيف ورفع ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ فإخبار عن إنزال جبريل عليه السلام بالقرآن جملة إلى السماء الدنيا[١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "أنزل القرآن جملة من الذِّكر في ليلة أربع وعشرين من رمضان، فجُعل في بيت العزّة"[٢] [جملة واحدة إلى السّماء الدُّنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك بعشرين سنة –أي في عشرين سنة ولم يذكر الكسر– ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]" [٣]، وفي رواية: "فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويرتّله ترتيلًا"[٤].

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يدلُّ على أننا نؤمن بكلِّ ما أنزل الله عز وجل حتى لو لم يكن الوحي قد اكتمل حين نزول هذه الآية؛ لأن لفظة ﴿أنزل﴾ تدل على النزول الجُمْلي.

والإنزال يمنحك شعورًا عارمًا بعلو المكان والمكانة التي للوحي المُنْزَل، فلا تظنن أن هذه النعمة الكبرى جاءت من مكانٍ يجاورك.

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٦).

(٢) تفسير الطبري طبعة دار الحديث (٢/ ١١٣)، قال إسلام منصور:" صحيح، رجاله كلهم ثقات".

(٣) تفسير الطبري طبعة دار الحديث (٧/ ٥٠٨)، قال إسلام منصور:" صحيح، رجاله كلهم ثقات".

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧٩٣٧)، والحاكم في المستدرك (٢٨٨١)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

مشهد حي لإيمان صامد متجدِّد:

التعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يدلُّ على أن الآية تنقل لك صورتهم، وكأنهم يؤمنون أمامك، كما يدلُّ هذا التعبير على الاستمرار والتجدُّد، فمهما واجهوا من شُبَهٍ وعوائق، وحاول الزائغون تقييدهم فَهُمْ يستمرون على إيمانهم بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك غير عابئين بمكر شياطين الإنس والجن أجمعين.

ولك أن تسأل لماذا عُدِّي الفعل ﴿أنزل﴾ هنا بـ﴿إلى﴾ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مع أن الأكثر أن يجعل تعديته بـ(على)، كما في قوله تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]؟

والجواب: لأنه أراد به هنا معنى الوصول والاستقرار عِنْدَ الْمُنْزَلِ عَلَيْهِ، فالرسول ﷺ هو الغاية التي انتهى نزول الوحي إليها، والكلام هنا عن الأنبياء عليهم السلام، والنبي كان ختامهم ﷺ، وأما قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، فيراد به معنى الوصول من الملَك إلى النبي ﷺ، ثم من النبي ﷺ إلى المؤمنين، وأول من يقول ما بعد قوله: ﴿قولوا﴾ هو النبي ﷺ الذي استقرَّ عنده الوحي، ثم عند من تبعه.

والآن تعال إلى:

الصفة السابعة (الخامسة): ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] إنها صفة اليقين المطمئن إلى الحياة الحقيقية القادمة بعدالتها الكاملة:

بصيرة: **الآخرة مقابل الأولى، ويجمع هذا اللفظ ثلاثة معانٍ: وصف المكان فهي الدار الآخرة، ووصف الزمان، فهو اليوم الآخر، ووصف طبيعة الحياة فهي الحياة الآخرة، فالآخرة هي المستقبل الحقيقي القادم** ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أول ما يقع عليه بصرك: هذه التسمية ﴿الآخرة﴾ فماذا تعني؟ ولماذا جاء التعبير عنها بقوله ﴿وبالآخرة﴾ دون أن يقول: ﴿ولدار الآخرة﴾ كما في آيات أخرى؟

الجواب: الآخرة اشتُقت من كلمة (آخِر) بكسر الخاء ونقابل بها كلمة (أوّل)، وَالْأُخُرُ نَقِيضُ الْقُدُم، تَقُولُ مَضَى قُدُمًا وَتَأَخَّرَ أُخُرًا. وَآخِرَةُ الرَّحْلِ وَقَادِمَتُهُ وَمُؤَخَّرُ الرَّحْلِ وَمُقَدَّمُهُ، والتأخير مقابل للتقديم، قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]: أي نذيرًا لمن شاء منكم أن يتقدَّم إلى الخير والطاعة أو يتأخَّر إلى الشرِّ والمعصية.

ويعبَّر بالدار الآخرة عن النشأة الأُخْرى، كما يعبَّر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى، والدار الآخرة هي الحياة الحقيقية؛ إذ يقول الله ﷻ عنها: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وربما ترك ذكر الدار نحو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

فكلمة الآخرة في قوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] أشمل من قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ لأنها جمعت ثلاث صفاتٍ:

الصفة الأولى: وصف الدار أي للمكان، فالآخرة هي المكان الأخير بالنسبة للبشر.

الصفة الثانية: وصف زمان هذه الدار، فهي وقت الآخرة وزمان الآخرة، ونجد هذا الوصف مستقلًا في مثل قوله تعالى: و﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٨]، وهو زمنها، وهو كذلك في كلِّ القرآن، عدا ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: ١٠]، و﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] سبحانه وتعالى.

الصفة الثالثة: وصف طبيعة الحياة التي بعد دار الدنيا، فهي الحياة الأخيرة المستقرة، فلا انتقال بعدها، وهذا التعبير ﴿الآخرة﴾ في كل القرآن بهذا المعنى عدا ما في قوله: ﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ [ص: ٧].

فيبصرنا تسمية الدار القادمة بالآخرة بأنها مقابل الدار الأولى، والحياة الباقية بالآخرة بأنها مقابل الحياة الأولى، ويوم الآخرة بأنها مقابل الأيام العابرة للدنيا، **فالآخرة هي المستقبل الحقيقي القادم**، فالدار الأولى هي التي تتقدَّم الدار الآخرة، وأشار الطبري رحمه الله إلى معنى آخر في تسميتها بالدار الآخرة، هو تأخُّرها عن الخلق، كما سميت الدنيا "دنيا" لِدُنُوِّها من الخلق[1].

والآن تعال لننظر: بم يذكرك هذا؟

أجيبك: يذكرك بأن سبب عدم العمل للآخرة هو أن الغافل تحجبه كثافة أعراض الدنيا القريبة التي يبصرهافينشغل بها عن المستقبل الحقيقي؛ لأن المتقدم الظاهر المشهود يغلب عليه ويحجبه عن العمل والاستعداد للمتأخر الموعود..

وبين الحياتين والدارين والزمانين برزخٌ ينقل من الأولى إلى الأخرى، والأولى وهي الدنيا من عالم الشهادة، فهي مشاهدة ملموسة، وأما الآخرة فهي عالم غيبي وجدنا الإخبار الصادق عنه في الوحي الإلهي الصادق المصدوق.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٤٥).

بصيرة: جاء لفظ ﴿يوقنون﴾ بدلًا من لفظ ﴿يؤمنون﴾ في قوله: ﴿وَبِٱلۡـَٔاخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ لأن اليقين يعني العلم الكامل الراسخ الذي لا يعتريه شك، فهو بوابة للإيمان المطمئن.

لاحظ في هذه الصفة أن الله ﷻ يقول: ﴿وَبِٱلۡـَٔاخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة ٤].

فإن سألت: لماذا التعبير عن الإيمان باليوم الآخر بلفظ الإيقان وليس الإيمان فقط بينما نرى التعبير عن الأركان السابقة بلفظ الإيمان؟

الجواب: هذه بصيرة جديدة؛ إذ وصف الله ﷻالمتقين بأنهم بالآخرة يوقنون، وهذا يدفعنا إلى أن نعرف معنى: ﴿يوقنون﴾ حتى ندرك لماذا اختار الله ﷻ هنا هذا الوصف لهم في شأن الآخرة دون كلمة ﴿يؤمنون﴾:

﴿يوقنون﴾ من أَيْقَنَ يُوقِنُ إِيقَانًا، فَهُوَ مُوقِنٌ، ويَقِنَ يَيْقَن يَقَنًا، فَهُوَ يَقِنٌ[(١)].

فاليقين هو العِلْم المستقرُّ الذي أزاح الشَّكَّ وحقَّق الأَمر، ولذا يقابله كلُّ مراحل ما قبل العلم المستقرِّ من الوهم والشكِّ والظنِّ، فقد حكى الله ﷻ عن الذين لم يتأكَّدوا من حقيقة البعث أنهم يقولون:

﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ومن هذا المعنى جاءت كلمة (الموقونة)، وهي الجارية المصونة المُخَدَّرة[(٢)] التي لا يحوم حولها حائم، ويقال: يَقِنَ الماءُ إذا سكن وصفا، وظهر ما تحته[(٣)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٥٧)، لسان العرب (١٣/ ٤٥٧)،.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٢٤٥).

(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل(١/ ١٨٤٨).

فيمكننا أن نعرف اليقين بأنه: العلم الصافي الذي يورث سكون النفْس، وثَلَجُ الصدر، وصفاء النفس من شوائب الريب والشكِّ، ويثمر استقرار التفكير، ورسوخ التصوُّر والتصديق بالحكم. **وكأنَّ اليقينَ من مبتكرات القرآن في وصف العقائد.**

وبذا ترى اليقين: يجمع الصفاء والصلابة في أعماق النفس، فعبر به عن العلم الذي كمل عقل صاحبه المصون من الشك، حتى سكنت نفسه واطمأن قلبه.

وهذا من أسرار التعبير عن الإيمان بالآخرة باليقين

لأن الإيمان تصديق وتسليم، وضده: التكذيب والجحود والكفر، والإيقان: ضده الظن والشك، فليس كلُّ من أيقن صدق وسلَّم، بل ربما يكذب الإنسان عتوًّا ومكابرة: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وليس كل من آمن فقد أيقن، فربما يؤمن الرجل بغلبة الظن ثم يوفِّقه الله تعالى فيخرج من الظن، ولكن لا يكمل الايمان إلا باليقين، فالإيمان جزءان: عِلمٌ وتسليم[١]، والإيمان بالآخرة داخل في الإيمان بالغيب في الصفة الأولى، ولكن الله تعالى يمدحهم على أن إيمانهم بالآخرة لم يعتمد على ظن، بل وصل إلى مرتبة الإيقان:

ويعبِّر عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه عن ذلك، فيقول: "الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ"[٢] أي غايته وذروته ومنتهاه، وهذا يقتضي أن يترقَّى الإنسان في درجات الإيمان حتى يصل إلى اليقين.

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ٦٦، ٦٧).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٧/ ٢٧٣)، وأبو بكر الخلال في السنة (١٥٠٩)، والحاكم (٣٦٦٦)، وغيرهم، صححه موقوفًا البيهقي، والحاكم، والذهبي، وابن حجر، والألباني.

بصيرة: مراحل الوصول لليقين:

المرحلة الأولى: أن ينظر في القضية أمامه، ويفكر في أدلتها، وفي هذه المرحلة ينتقل من الوهم إلى الشكِّ إلى الظنِّ، فهذه المراحل سابقة لليقين، فمثلًا: يرى خيال شيء قادم من بعيد فيقول: هل هذا إنسان أم حيوان أم سراب؟ فإذا اقترب منه أكثر قال: هذا ليس سرابًا لكنني أشك هل هو إنسان أم حيوان، فإذا اقترب أكثر قال: أظن هذا إنسانًا.

الثانية: يزداد عنده الفهم للقضية والإدراك لحقيقتها، وهنا يصل إلى مرتبة العلم بعد أن يزيح جميع الشكوك فيها، فيستقر عنده العلم الثابت بصحَّتها، وهنا ينتقل من مرحلة ظنٍّ كون القادم إنسانًا كما في المرحلة الأولى إلى الجزم بذلك.

الثالثة: ينتقل من العلم الفكري إلى الاطمئنان القلبي بصحَّة تلك القضية، ويَرْسُخ علمه بها، وهذا هو علم اليقين، ولذا قرر ابن عاشور ﵀ أن اليقين أَخَصَّ مِنَ الْإِيمَانِ وَمِنَ الْعِلْمِ[(١)]، ولكنه لا يكون يقينًا حتى ينتقل من مرحلة الاستدلال إلى مرحلة الاطمئنان، فالتَّعْبِيرُ عَنْ إيمانِهِمْ بِالآخِرَةِ بِمادَّةِ الإيقانِ -كما يقول الطاهر- لِأنَّ هاتِهِ المادَّةَ تُشْعِرُ بِأنَّهُ عِلْمٌ حاصِلٌ عَنْ تَأمُّلٍ وغَوْصِ فِكْرٍ في طَرِيقِ الِاسْتِدْلالِ.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا نحتاج إلى التأمل والاستدلال حتى نوقن بالآخرة؟

الجواب: لِأنَّ الآخِرَةَ حَياةٌ غائِبَةٌ عَنِ المُشاهَدَةِ غَرِيبَةٌ بِحَسَبِ المُتَعارَفِ، فلا بد للإنسان أن يفكِّر في أدلة وجودها، ثم سيترقى في فَهْمِ وجودها حتى يوقن بها إن لم يحجبه حاجب العناد.

ولأنها حياة غائبة فقد أكثر الملحدون من الشبه التي تزعزع الإيمان بها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٤٠).

هنا تعلم لماذا عرَّف الرازي ﷺ اليَقِينُ بأنه العِلْمُ بِالشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ كانَ صاحِبُهُ شاكًّا فِيهِ، فَلِذَلِكَ لا يَقُولُ القائِلُ: تَيَقَّنْتُ وُجُودَ نَفْسِي، وتَيَقَّنْتُ أنَّ السَّماءَ فَوْقِي، لِما أنَّ العِلْمَ بِهِ غَيْرُ مُسْتَدْرَكٍ، ويُقالُ ذَلِكَ في العِلْمِ الحادِثِ بِالأُمُورِ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ العِلْمُ ضَرُورِيًّا، أوِ اسْتِدْلالِيًّا"(١).

فاليقين يورث الاطمئنان والتسليم الكامل والإذعان، ولذا قالوا في تعريف اليقين:

رُؤْيَةُ العِيانِ بقوَّةِ الإيمانِ، وليس فقط بالحجَّةِ والبُرْهانِ، وقالوا: هو مشاهَدَةُ الغُيُوبِ بصَفَاءِ القُلوبِ، ومُلاحَظَةَ الأَسْرار بمحافَظَةِ الأفْكارِ(٢).

ثم يرتفع اليقين، ويصبح مراتب في قلوب المؤمنين، ويحدِّد هذه المراتب أبو بكر الورَّاق ﷺ، فيقول: «اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة»، ويشرح ابن القيم ﷺ هذه المراتب، فيقول: «يريد بيقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر وتَوَثُّقُه به. وبيقين الدلالة: ما هو فوقه، وهو أن يقيم له -مع وثوقه بصدقه- الأدلة الدالة على ما أخبر به.

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن. فإنه سبحانه -مع كونه أصدق الصادقين- يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره. فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة: وهي يقين المكاشفة بحيث يصير المُخْبَر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم. فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب: كنسبة المرئي إلى العين. وهذا

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٧٨).

(٢) روح المعاني (٢٧/ ١٦٣).

أعلى أنواع المكاشفة. وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»(١).

والآن لننظر إلى الآخرة بهذه المعاني:

فالمرحلة الأولى يتساءل فيها الإنسان الحائر الذي لم يجد بصائر القرآن تبني في قلبه اليقين، فربما قال: هل توجد آخرة أم أن الحياة التي نعيشها فقط هي الحياة لا سواها كما تساءل إيليا أبو ماضي فقال:

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟

فحياة فخلود أم فناءٌ فدثور؟

أكلام الناس صدقٌ أم كلام الناس زور؟

أصحيحٌ ان بعض الناس يدري

لست أدري

إن أكن أبعث بعد الموت جثمانًا وعقلًا

أترى أبعث بعضًا أم ترى أبعث كلًّا

أترى أُبعث طفلًا أم ترى أبعث كهلًا

ثم هل أعرف بعد البعث ذاتي

لست أدري

إنها مرحلة الأسئلة، والوهم، والريب.

هنا ينقذك القرآن لو استمعته، فيقول لك: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فالتفكير في الحياة بنور القرآن سيهديك إلى أن الذي خلق هذه الحياة قادر على أن يخلقك خلقًا آخر، وهنا

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٧).

ستنتقل إلى مرحلة الشك ثم يقوى الشك، فتنتقل إلى مرحلة الظن.. بقيت مرحلتان: العلم بالآخرة، ثم اليقين بها.

للأسف كثيرٌ من الناس يبقى في مرحلة الظن، فهكذا أبى الكفار قبل عهد النبي ﷺ وفي عهده أن ينتقلوا إلى مرحلة العلم بالآخرة، واليقين، فقد قال واحد منهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف ٣٦]، فهو يعني أن عنده شكًّا قويًّا، فيحتمل أن توجد الآخرة، ويحتمل ألا توجد، ويقول كثير ممن يتقلبون في نعم الله ﷻ عن تلك النعم: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت ٥٠].

هنا يبرز المتقون الذين انتقلوا من مرحلة الشك والظن إلى مرحلة العلم واليقين، فالمتيقنون هم الذين أزاحوا الشك والظن.. هذه المراحل يمر بها الباحثون.. لكن أكثر المسلمين يشعرون باليقين بالآخرة فطرة وطبيعة دون تردد، وينتقلون من اليقين بها إلى أن يعملوا لها العمل الصالح المستبين

وهنا يبرز سؤال: لماذا أزاحوا الريب في الآخرة؟

الجواب: لأن الريب قذفٌ رديء يلقيه الشيطان في فكر الإنسان، فيوهمه أنه لا توجد آخرة؛ لأنك لم ترها، ويقوم المشكِّكون يرددون: ﴿مَا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، فقطع المتقون هذا الشك، وردوا ذلك التشكيك؛ لأنهم بإخبار الله تعالى لهم عن الآخرة مصدقون، وعبَّر عن هذا التصديق باليقين لأنه يقطع شكَّ الشاكِّين، ويزيل ريب المتردِّدين(١).

(١) العين (٥/ ٢٢٠).

بصيرة: التعبير باليقين يوقظ من يزعم الإيمان بالآخرة دون نظر أو تفكر في حقيقتها فيجعلها دائمًا أمام عينيه، كما قال الصالحون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان ١٠].

فإن قال: "أنا مؤمن بالآخرة" فكلامه يدل على اعتقاد قد يكون اكتسبه دون نظر أو تفكر، أما إن قال: "أنا أوقن بالآخرة" فهذا يعني أنه نظر وفكَّر وتدبَّر وقرَّر الإيمان بما لا يليق الإيمان إلا به:

"فاليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحسِّ المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يُمَهِّدُ للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود"[١].

وينقل محمد رشيد رضا رحمه الله ما يوضح ذلك، إذ ترى الرجل يَأْتِي إِلَى الْمَحْكَمَةِ بِدَعْوَى زُورٍ يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ بِهَا حَقَّ أَخِيهِ بِالْبَاطِلِ، أَوْ يُجَامِلَ آخَرَ بِشَهَادَةِ زُورٍ، أَوْ يَنْتَقِمَ بِهَا مِنْ ثَالِثٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُزَوِّرٌ وَمُبْطِلٌ.

يُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ إِنَّ أَمَامَكَ يَوْمًا يَعَضُّ الظَّالِمُ فِيهِ عَلَى يَدَيْهِ.

فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ أَمَامِي يَوْمًا، وَأَنَّ أَمَامِي شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ - يَعْنِي الْقَبْرَ- وَالدُّنْيَا لَا تُغْنِي عَنِ الْآخِرَةِ، فأنا أومن بالآخرة. وَلكن هذا الكلام كلّه لا يمنعه من أن يَحْلِف الْيَمِينَ الْغَمُوسَ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُحِقٌّ فِي دَعْوَاهُ أَوْ فِي شَهَادَتِهِ، ثُمَّ يُظْهِرُ التَّحْقِيقُ أَنَّهُ مُزَوِّرٌ، وَيُضْطَرُّ إِلَى الِاعْتِرَافِ وَالْإِقْرَارِ بِذَلِكَ، فَكَأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَهُ خَيَالٌ يَلُوحُ فِي ذِهْنِهِ عِنْدَمَا يُرِيدُ الْخِلَابَةَ وَالْخِدَاعَ لِأَجْلِ أَكْلِ الْحُقُوقِ أَوْ إِرْضَاءِ الْهَوَى، وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ فِي

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤١).

أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، فَمِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ -وَإِنْ تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ تِلْكَ- لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنَ الْإِيقَانِ، وَيَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ.

فالْيَقِينِ: إِيمَانُكَ بِالشَّيْءِ، وَالْإِحْسَاسُ بِهِ مِنْ طَرِيقِ وِجْدَانِكَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، بِأَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَ بِكَ الْعِلْمُ بِهِ أَنْ صَارَ مَالِكًا لِنَفْسِكَ مُصَرِّفًا لَهَا فِي أَعْمَالِهَا[١].

فقوله ﴿يوقنون﴾ أقوى من قوله هنا ﴿يؤمنون﴾؛ لأن التعبير باليقين يعني أن تفكِّر، وأن تقدِّر، وأن تتأمَّل، وليس أن تعبِّر عن عقيدة عابرة.

وقد تسأل: ما السر البلاغي في توسط الضمير ﴿هم﴾ بين كلمتي ﴿وبالآخرة﴾، و﴿يوقنون﴾؟ مع أنه كان يمكن أن يقول: (وبالآخرة يوقنون) من دون (هم)، فما فائدة ذلك؟

الجواب: أشار البقاعي رحمه الله إلى أن ذلك لمزيد الاهتمام بشأن اليوم الآخر، قال: "ولِمَا تقدَّم من الاهتمام عبَّر بالإيقان، وأتى بضمير الفصل فقال: ﴿هم يوقنون﴾؛ لأن ذلك قائد إلى كل خير، وذائد عن كل ضير"[٢]، وزاد محمد رشيد رضا رحمه الله بأن ذلك أيضًا لبيان أن الإيقان بالآخرة من خواص الذين آمنوا بالقرآن وبالكتب السابقة دون غيرهم، قال: "وَأَكَّدَ الْإِيقَانَ بِالْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: (هُمْ)؛ اهْتِمَامًا بِشَأْنِهِ، وَلِيُبَيِّنَ أَنَّ الْإِيقَانَ بِالْآخِرَةِ خَاصَّةٌ مِنْ خَوَاصِّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ وَبِمَا أُنْزِلَ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهِ سِوَاهُمْ"[٣].

وذكر ابن عاشور رحمه الله أن تقديم الضمير (هم) "لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ؛ إِذْ هُوَ إِيقَانٌ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْإِجْمَالِ"[٤].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١١٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٨٧، ٨٨).

(٣) تفسير المنار (١/ ١١٤).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢٤١).

بصيرة: هذه الصفة جاءت مباشرة بعد الإيمان بالوحي اللاحق والسابق في هذه السورة المدنية، فلها علاقة وثيقة ببني إسرائيل؛ إذ الإشارة هنا لليهود واضحة، فهم لم يبقوا من ذكر الحياة الآخرة في (التناخ) إلا شيئًا قليلًا غير صريح.

وحتى نوضح ذلك نضع هذا السؤال:

لماذا ذكر الله ﷻ الآخرة بعد أن ذكر الإيمان بالوحي الإلهي اللاحق والسابق في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]؟ لماذا جاء الكلام القرآني عن الآخرة في الآية الرابعة من سورة البقرة التي تمثِّل الإشراق الإسلامي على العالم، وبداية التفاعل الحقيقي مع أهل الكتاب؟

الجواب: هنا ترى عظمة البيان القرآني، وتدرك علم الاتصال في القرآن الكريم، وكيف كان يؤسِّس لإشراق الحضارة الإسلامية على العالم.. الحضارة التي تبدأ بإحياء معالم الإيمان:

فإنه لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة كان من أبرز المكونات البشرية التي تعيش فيها: اليهود، وقد كانت عقيدة الإيمان باليوم الآخر من أعظم العقائد التي تلاعبوا بها؛ فلما أخبر الله ﷻ المؤمنين وأهل الكتاب أن من أهمِّ صفات المتقين الإيمان بالغيب، ومنه: الإيمان بالوحي الإلهي الخاتم، والوحي الإلهي السابق كان من المنطقي أن يحيي فيهم الإيمان بالدار الآخرة، فقد اندثر هذا الإيمان عند كثيرٍ منهم حتى يكاد أن يضمحلَّ عند جماهيرهم في الزمان المتأخِّر.

اليوم الآخر عبر التاريخ:

ولتدرك عظمة الإيقان باليوم الآخر هنا دعنا نأخذ لمحة عن الإيمان باليوم الآخر عند الملل الأخرى:

المصريون:

إذا رجعت إلى التاريخ البشري تجد الاعتقاد باليوم الآخر فطرةً مثل الاعتقاد بوحدانية الله ﷻ، فقد قال المؤرخ اليوناني(هيرودوت): «إن المصريين هم أول الشعوب الذين اعتقدوا بخلود النفس».

«وعبارة (هيرودوت)، تشرحها الأعمال الدينية التي قام بها المصريون استعدادًا ليوم الحساب، فلقد كانوا يعتقدون بخلود النفس بعد الموت، وورد في النصوص المنقوشة على الأهرام، والتي يرجع تاريخها إلى الأُسَر الأولى «أن النفس خالدة لا تموت أبدًا، وفي كتاب (الموتى) تجد أن الميت يقول: أنا لا أموت مرة ثانية في العالم الثاني»[(١)]. وحتى بناء الأهرام إنما ارتبط بالدين وعقيدة اليوم الآخر والخلود ولم يرتبط بفن العمارة، فقد بنيت الأهرام لتكون مقابر تودع فيها أجساد وأرواح الفراعنة في العالم الآخر[(٢)].

وفي كتاب "الأديان القديمة في الشرق" نص دفاع الميت عند الحساب: «سلام عليك أيها الإله العظيم، صاحب الحق، إني جئت إليك يا رب خاضعا أمامك لأعاين مجدك، إني أعرف اسمك وأسماء الاثنين والأربعين قاضيًا الجالسين معك في قاعة الحقِّ والعدل، لقد أتيت لك يا إلهي بالحق متخليًا عن كل خطيئة، فإني لم أظلم أحدًا، ولم أحنث في يميني، ولم أشته امرأة قريني، ولا مال غيري، ولم أكذب قط، ولم أخالف الأوامر، ولم أبع القمح بثمن باهظ، ولم

(١) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ص٢٤.

(٢) قصة الحضارة، (٢/ ٧٠).

أُطَفِّف الكيل، ولم أخالف نظام الري، ولم أتلف الأرض الزراعية، ولم أكن قوّالًا ولا نمّامًا، أنا طاهر، وبما أني مبرأ من الذنوب فأرجو أن أكون من الفائزين»[١].

الهنود:

نجد الاعتقاد بالجزاء عند الكهنة الهنود، فقانون الحياة عندهم يقول: جزاء الخير خير مثله، وعقاب الشر شر مثله، وهذا القانون اسمه (الكارما)[٢]، وكما انحرف المصريون في تصورهم عن الإيمان باليوم الآخر انحرف الهنود كذلك، فجعلوا الجزاء عقيدة التناسخ، وسموا مجمع الجنة والنار (لوك)، والعالم الأعلى (سفرلوك) وهو الجنة، والعالم الأسفل (تاكلوك)، أي مجمع الحيات وهو جهنم، ويسمَّى أيضًا (باتال)، أي أسفل الأرضين، وأما الأوسط الذي نحن فيه (مارلوك)، (مانشرلوك)، أي مجمع الناس، والأوسط للاكتساب، والأعلى للثواب، والأسفل للعقاب، ثم دارت بهم الأيام، فاعتقدوا أن الجزاء على الأعمال يكون بالتناسخ، حيث تتناسخ الروح إلى مخلوقات دنيا إن كانت شريرة، وإلى مخلوقات عليا إن كانت خَيِّرَةً، ولذا تجدهم ربما عظَّموا الصورة الحسنة حتى لو امتلأت شرًّا[٣].

الفرس:

ولو عدنا للزرادشتية لدى الفرس نجد أن ممَّا يوعد به أتباعها فصل سعيد يعقب هذه الحياة الدنيا، بعد أن تغلب قوى الشرِّ في آخر المطاف، ويكون مصيرها الفناء، وينتصر الحق،

---

(١) الأديان القديمة في الشرق ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) ينظر: فصـول في أديان الهند، محمد ضـياء الرحمن الأعظمي، دار البخاري، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧، ص١٢٣، ١٢٤

(٣) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ص: ٣٨- ٤٢.

وينعدم الشر فلا يكون له وجود، وينضمُّ الصالحون إلى (أهورا مزدا) في الجنة، ويسقط الخبيثون في هُوَّة من الظلمة يطعمون فيها أبد الدهر سُمًّا زُعَافًا[(١)].

النصارى:

يسمي النصارى الآخرة "الاسخاتولجيا"، وهو معنى مركب من كلمتين يونانيتين يؤديان إلى: «الكلام في الآخرة»، أي الأمور المختصَّة بمستقبل النَّفْس ونهاية العالم، ومجيء المسيح الأخير والدينونة، ونصيب الأبرار السماوي، وقصاص الأشرار الأبدي.

وكما انحرف من قبلهم في تصوُّره عن الآخرة انحرف النصارى في تفاصيل تتعلق باليوم الآخر، والذين قلَّ التحريف عندهم يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا عميقًا شبيهًا بالتفاصيل التي نجدها في الوحي الخاتم، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُم، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دفعَهَا فخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا.

قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟**»[(٢)].

---

(١) قصة الحضارة، (٢/ ٤٣٠).

(٢) ابن ماجه (٤٠١٠)، وابن حبان (٥٠٥٨) وحسَّنه الألباني، وصححه الأرناؤوط بشواهده.

اليهود -جيران المسلمين في المدينة ذلك الوقت، وفيهم نزلت سورة البقرة-:

هنا ترى الغرابة الكبيرة، فقد ضعفت عند اليهود عقيدة اليوم الآخر، فيقول شارل جينيير: "وكأن اليهود بإطلاقهم اسم (آخرة الأيام)، أو نحو ذلك، لم يكونوا على أدنى شبه بما استعمله المسيحيون أو المسلمون الذين يؤمنون بالاخرة، وبأنها قريبة جدًّا، فاليهود يسخرون منها، ويرون أنها بعيدة جدًّا، ولذلك أطلقوا عليها الاسم العبري (أحرنيت هياميم) التي معناها آخر الأيام أو الآخرة، ولكن (التناخ) لا يذكر عن الآخرة شيئًا؛ لا في أسفار موسى التي كتبها عزرا، ولا على عهد القضاة حسب النصوص الموجودة اليوم بين أيدينا"[(١)].

وقلما كان اليهود يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت، ويبالغ ول ديورانت فيقول: "ولم يرد في دينهم شيء من الخلود، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورَين على الحياة الدنيا، ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض"[(٢)].

وبالرغم من خلو التوراة الحالية من ذكر اليوم الآخر تصريحًا إلا أننا نجد في القرآن أن الله ﷻ علَّمهم أحداث اليوم الآخر، وأثبتها في كتبهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٩]، وذكر الرجل المؤمن في بلاط فرعون الآخرة أكثر من مرة، وذكر بعض أحداثها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر ٣٨-٣٩].

---

(١) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية (ص: ٥٥)، والفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه، للدكتور حسن ظاظا، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ١٩٧١م، (ص: ١١١، ١١٢).

(٢) قصة الحضارة (٢/ ٥١٢).

ووجدنا بعض اليهود في زمن النبي ﷺ يؤمن باليوم الآخر، وينقل بعض تفاصيله التي قد لا تكون دقيقة، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاءَ حَبْرٌ إلى النبيِّ ﷺ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أَوْ يا أَبا القاسِمِ إنَّ اللهَ تَعالى يُمْسِكُ السموات يَومَ القِيامَةِ على إصْبَعٍ، والأَرَضِينَ على إصْبَعٍ، والْجِبالَ والشَّجَرَ على إصْبَعٍ، والْماءَ والثَّرى على إصْبَعٍ، وَسائِرَ الخَلْقِ على إصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فيَقولُ: أَنا المَلِكُ، أَنا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَواجِذُه، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] "[(١)].

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذَّبون في قبورهم، فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليَّ النَّبِيِّ ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين، وذكرت له، فقال: «صدقتا، إنهم يعذَّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها» فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر[(٢)].

ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ مَرْكَبًا فَخَسَفَتِ الشَّمْسُ فَرَجَعَ ضُحًى فَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ ظَهْرَانَي الْحُجَرِ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي وَقَامَ النَّاسُ وراءه»...وانصرف، فقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَعَوَّذُوا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنه قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ للنبي ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا إليَّ من كان ها هنا من يهود**» فجمعوا له، فقال: «**إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقي عنه؟**»، فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: «**من أبوكم؟**»، قالوا: فلان، فقال:

---

(١) البخاري (٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) البخاري (٦٣٦٦).

(٣) البخاري (١٠٥٠) ومسلم (٩٠٣).

«**كذبتم، بل أبوكم فلان**»، قالوا: صدقت، قال: «**فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟**»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «**من أهل النار؟**»، قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «**اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا**»، ثم قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا؟**»، قالوا: نعم، قال: «**ما حملكم على ذلك؟**»، قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرَّك[١].

ولكنك عندما تراجع عقائد اليهود المعاصرة في اليوم الآخر تفاجأ بأن (التناخ) يكاد يخلو من ذكر اليوم الآخر إلا إشارات محدودة، إلا أن بعض علماء اليهود صرَّحوا بالإيمان باليوم الآخر؛ فيقول سعديا الفيومي: "أما إحياء الموتى الذي عرَّفنا ربنا أنه يكون في دار الآخرة للمجازاة، فذلك مما أمتنا مجمعة عليه"، وليس كذلك فإن فرقة الصدوقيين تنكر البعث[٢].

عندما ترجع إلى (التناخ) تجد من إشارات اليوم الآخر: في سفر دانيال١٢:

٢(وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، بعضهم للحياة الأبدية، وبعضهم للعار والذعر الأبدي)[٣].

إيمان العرب باليوم الآخر مما بقي من آثار الملة الإبراهيمية:

ظهرت بقايا الحنيفية الإبراهيمية في إيمان بعض العرب باليوم الآخر، ومن ذلك قول زهير[٤]:

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم   لِيَخفى، وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ

---

(١) البخاري (٣١٦٩).

(٢) الأمانات والاعتقادات، سعديا الفيومي، طبعة لندن ١٨٨٢م، (ص: ٢١١).

(٣) العهد القديم العبري، ترجمة الأبوان بولس الفغالي، وأنطوان عوكر، سفر دانيا (١٢: ٢)، (ص: ١٢٠٢).

(٤) ديوان زهير (ص١٤).

يُؤَخَّر فيوضَــع في كِتابٍ فَيُدَّخَر لِيَومِ الحِســابِ أو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

واشتهر ذلك عن قس بن ساعدة، فروى خَلَفُ بْنُ أَعْيَنَ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «**فَعَلَ مَا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الإِيَادِيُّ؟**» قَالُوا: مَاتَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي سُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا فَاسْمَعُوا مَا أَقُولُ وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، كُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعُ، وَنُجُومٌ مَا تَمُورُ، وَبِحَارٌ مَا تَغُورُ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِي السموات خَبَرًا، وَفِي الْأَرْضِ عِبَرًا، أُقْسِمُ أَنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَرْضَى لَهُ مِنْ دِينٍ أَصْبَحْتُمْ عَلَيْهِ**»(١).

إلا أن بعضهم كان يعمل بمقتضيات هذا الإيمان، وأكثرهم لا يبالي.

ونحن المسلمين نؤمن بالحساب بعد الموت ابتداء من الحياة البرزخية في القبر، ثم الشهود، والميزان، وتطاير الكتب، والصراط، وتجسد الأعمال.. فكيف نجمع بين ما عندنا من تفاصيل اليوم الآخر، وما ذكر عن المصريين القدماء؟

الجواب: يظهر لي أن الله ﷻ قد بعث للمصريين رسلًا، فكلموهم عن أركان الإيمان، وكلموهم عن الإيمان باليوم الآخر، وممن كلمهم عن ذلك يوسف ﵇، فقد قال لهم: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف ٣٧]، ولعل أولئك الأنبياء نقلوا لهم صورًا من مشاهد الحساب، ولكن خيالَهم، وبُعْدَهم عن الدين، مع تقادم الزمان،

---

(١) «الزهد لأحمد بن حنبل» (ص٢٨٧)، والحديث موضوع، قال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢١٤): "وَهَذَا الحَدِيث من جَمِيع جهاته بَاطِل، قَالَ أَبُو الْفَتْح الأَزْدِيّ: الْحَافِظ: هُوَ حَدِيث مَوْضُوع لَا أَصْلَ لَهُ". وقال ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٤١٣، ٤١٤):"وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس، وفيه شعره، وخطبته، وهو في «المطوّلات» للطبراني وغيرها، وطرقه كلها ضعيفة"، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة الأحاديث الموضوعة (١/ ١٧٣).

وإصرار سادتهم على أن يسبغوا على أنفسهم الصفات الإلهية جعلهم يجمحون في افتراض صور من مشاهد اليوم الآخر من عند أنفسهم.

ولعل أبلغ تعبير عن تصوير البعث والحساب عند المصريين ما ذكره الدكتور (عمارة نجيب) بقوله: «فالإيمان بالبعث والحساب حقيقة دينية، وصلت إلى المصريين عن طريق دين صحيح، لولا أن عبث بها الفكر الإنساني البشري، وخالطها التحريف، فحوَّل صورة البعث إلى خيال بشري!»[١].

فقوله: ﴿يوقنون﴾ تنبئك أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر تضاءلت عند اليهود، فجاءت كلمة توقظهم كما توقظ الغافلين من المسلمين وغيرهم.

وهي كلمة ﴿يوقنون﴾ إذ تقتضي المراحل في التفكر والتدبُّر ونفي الشكِّ مما ذكرناه في السبب الأول.

وهنا تبرز لنا بصيرة جديدة تظهر من السؤال الآتي:

لماذا قدَّم الله ﷻ الآخرة على فعل ﴿يوقنون﴾ فلم يقل: ويوقنون بالآخرة، ولم يجعل الأمر كما في الصلاة حيث قال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾؟

هذا تساؤل وجيه مشروع، وفي الجواب عنه نقول: أمَّا الصلاة فإن إقامتها خير من وجودها دون إقامة لصورتها وحقيقتها، لذلك قدَّم الإقامة على الصلاة للاهتمام بها، أما بالنسبة للآخرة فقد قدَّم ذِكرَها على الإيقان؛ لأنها مقصودة في ذاتها، ولأن ذِكْرَ اسمَها يعني الإيمان بها، بينما اليقين مرتبة زائدة على الإيمان كما بيَّنا، ولذلك قدَّم ذِكرَها على فعل الإيقان، فهي أهمُّ ما يؤمن به الإنسان بعد الإيمان بالله تعالى.

---

(١) يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية ص٣١.

عدم الإيمان الحق باليوم الآخر بوابة للضياع:

هنا تبرز لك حالة الضياع الهائلة لمن يؤمن بإله الكون لكنه لا يؤمن بالآخرة، وقد وقع في عدم عدم الإيمان بالآخرة الأصناف الآتية:

الصنف الأول: متأخرو بني إسرائيل واليهود، فبعضهم لا يؤمن بالآخرة، وبعضهم يخترع لها تصورات لا توجد على الحقيقة في الوحي.

الصنف الثاني: النصارى الذين تشوَّهت حقيقة الآخرة عندهم.

الصنف الثالث: جماعات من الملحدين الذين يزعمون الإيمان بالله ﷻ، لكن لا يؤمنون بالآخرة حسب ما جاء في كتاب الله ﷻ، بل يخترعون شيئًا من عند أنفسهم، كما قال لي أحدهم: في الآخرة كلُّ الناس يكونون مرحومين.

الصنف الرابع: الوثنيون الدهريون الذين قالوا مستهزئين: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

الصنف الخامس: **بعض** المسلمين الذين استحلُّوا المحرَّمات، وعملوا كلَّ أنواع الفسق، ثم يزعمون النجاة في الآخرة بانتسابهم إلى الإسلام فحسب.

أما المتقون فيوقنون بالآخرة؛ لأنهم قطعوا وساوس شياطين الجن والإنس من الدهرية والماديين، فأيقنوا بالآخرة لأن أرحم الراحمين أخبرهم عنها فصدقوه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فالإقامة للصلاة مقدَّمة على الصلاة؛ فهي التي تجعلها تؤتي أكلها كل حين، أما في هذه الصفة: فالآخرة هي المقدَّمة، فالمرء ينبغي أن يضع الآخرة قبل كلِّ شيء بعد الإيمان بالله تعالى.

والإيمان باليوم الآخر هو المحفز للإيمان ببقية الأركان، كالإيمان بالملائكة والكتب والنبيين، ولذلك كان النبي ﷺ يُكثر من قول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» عند ذكر

حقوق الآخرين على الإنسان، قال أبو شُرَيْحٍ الْعَدَوِيُّ ﵁: سَمِعَتْ أُذُنَايَ، وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قَالَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يومٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهْوَ صَدَقَةٌ عَلَيْه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)].

ولنعد إلى التعبير القرآني النوراني عن هذه الصفة، فالله تعالى يقول فيها: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، لنضع تساؤلًا تدبريًّا:

ما الصورة التي أبرزها تقديم الجار والمجرور ﴿بالآخرة﴾ على متعلَّقِها وهو كلمة ﴿يوقنون﴾، فالمعتاد أن يقال: وهم يوقنون بالآخرة؟

الجواب: ليظهر لك الاهتمام الكبير بالآخرة، فقدَّم الله ﷻ ذكرها لنستحضرها، فاستحضارها في النفس والحياة الإنسانية يقود إلى كُلِّ خَيْرٍ، ويدرأ كُلَّ شرٍّ وضَيْرٍ، فالإيمان باليوم الآخر يقينٌ بالمحاسبة فيها مما يدفع إلى أن لا يترك الإنسان شيئًا مما أمره الله ﷻ به الا وأتاه، ولا يترك شيئا مما حذر منه إلا وحاول أن يتقيه ويتفاداه ما دام يستطيع ذلك.

بصيرة: لماذا كانت هذه الصفة خاتمة الصفات السابقة؟ كيف نتبين مركزية الإيمان باليوم الآخر وأثره في المنظومة العقدية؟

الجواب:

أولاً: لعلك تذوقت الأسلوب التربوي القرآني، ليبدو لك هنا سر ذلك؛ فهذه الصفة هي التي تربط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء.. إنها الصفة التي تشعر الإنسان أنه ليس مهملًا، وأنه لم يخلق عبثًا، ولن يترك سدى وأن العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن

---

(١) البخاري (٦٠١٩).

قلبه، وتستقر بلابله، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل اللّه ﷻ ورحمته في نهاية المطاف".

ثانيًا: هذه الصفة هي معيار جودة كل تلك الصفات، فهي التي تؤدي إلى العمل الحقيقي في إقامة بقية الصفات: الموقن بالآخرة يحسب حساب المستقبل القادم فيها، فيصلح عمله ويتقنه استعدادًا للغد المنتظر الذي أيقن بالوصول إليه.

تعال انظر كيف يبني القرآن ذلك: فقد ذكر الله ﷻ اليقين في سورة الجاثية فقال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ثم بيَّن سبب اليقين، وهو الاستعداد للنتائج المرجوَّة عندما يقوم الناس لرب العالمين، فقال بعدها: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] يعني هل يظنون؟ أمعقول أن يظنوا أنهم في الدنيا والآخرة سواء لا حساب ولا ثواب ولا عقاب؟!

هذا لا يمكن ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ لأن هناك حسابًا وميزانَ عدلٍ، ثم قال بعدها ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] هنا يزداد المتقي إيمانًا بالغيب، وخشوعًا في إقامة الصلاة بلا ريب، وإنفاقًا لِمَا رزقه الله تعالى، وتصديقًا بالكتب المنزلة.. إنه لا يضيع حياته هباء، فهو يوقن باليوم القادم، واللقاء الحاسم.. سيتقن فعل كلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وتركه لشيء من ذلك يكون بحسب مقياس اليقين باليوم الآخر، **ولذا قال أبو الدرداء** ﵁: **"أَضْحَكَنِي ثَلَاثٌ، وَأَبْكَانِي ثَلَاثٌ: أَضْحَكَنِي مُؤَمِّلُ دُنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بِمِلْءِ فِيهِ، وَلَا يَدْرِي، أَرْضَى اللهَ أَمْ أَسْخَطَهُ؟ وَأَبْكَانِي فِرَاقُ الْأَحِبَّةِ، مُحَمَّدٍ وَحِزْبِهِ، وَهَوْلُ**

الْمَطْلَعِ عِنْدَ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ يَوْمَ تَبْدُو السَّرِيرَةُ عَلَانِيَةً، ثُمَّ لَا أَدْرِي إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ؟"(١).

ويستنبط الحسن البصري رحمه الله بعث الآخرة من التفكُّر في تقلبات الدنيا، فيقول: "كانوا يقولون -يعني أصحاب النبي ﷺ - الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقًا دائمًا لا يتصرَّف لقال الشاكُّ في الله ﷻ: لو كان لهذا الخلق ربٌّ يحادثه -أي لو كان هناك إله لأحدث فيه تغييرات-، وإنه ﷻ قد حادث بما ترون من الآيات: إنه جاء بضوء طبَّق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشًا، وسراجًا وهَّاجًا، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكنًا ونجومًا وقمرًا منيرًا، وإذا شاء نباتًا جعل منه المطر والبرق والرعد، والصواعق ما شاء، وإذا شاء صرف ذلك الخلق، وإذا شاء جاء بِبَرْد يُقَرْقِفُ الناس -أي: يرعدون من شدَّة البَرْد-، وإذا شاء ذهب بذلك، وجاء بِحَرٍّ يأخذ بأنفاس الناس؛ ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربًّا هو يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة"(٢).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق رقم (٢٤٩)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (٥٦٥)، وسنده جيد خلا شيخ ابن المبارك ففيه إيهام، وقد روي ذلك عن سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) الخَافِقانِ أُفُقا المشرق والمغرب؛ لأن الليل والنهار يخفقان فيهما، رواه أبو الشيخ في العظمة. انظر الأثر في «الآثار المروية عن أئمة السلف في العقيدة من خلال كتب ابن أبي الدنيا» (١/ ٢٣٦)، وقال المؤلف: إسناده حسن.

مكافأتان ضخمتان للمتقين [البقرة: ٥]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

مكافأة المتقين عندما يستقيمون على تلك الصفات

المكافأة الأولى: تحقيق الهداية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾، وتبصرنا بالآتي:

بصيرة (1): ﴿أولئك﴾
تصف لك التبجيل العظيم الذي يستحقُّه المتقون، فاسم الإشارة بذاته تكريم من الله عز وجل لهم

بصيرة (2): ﴿على﴾
تشعرك بأنهم استقلُّوا مركب الهدى ليقودهم إلى تحقيق الإنجازات البشرية في عالم الاختبار الدنيوي

بصيرة (3): ﴿هدى﴾
الاستقامة على الصفات السبع يورث الصوابية في القرارات والاطمئنان في تحقيق المصير القادم

بصيرة (4): ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾
تبصرك بأنهم على احتياج دائم لاستمداد الهدى والتوفيق من ربهِم، وهو يربيهم ويمنحهم ذلك.

بصيرة (5): ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾
تبصِّرك بمصدرهم في الهداية، فهم يستمدُّون الهدى من مصدره الحقيقي، وهو ربهم عز وجل، من مقبول الدليل، لا من الهوى وعبث الأقاويل

المكافأة الثانية: الفلاح: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: وهم صانعو الإنجازات والنجاح الحقيقي في الحياتين

وفَصَل بين المبتدأ ﴿أولئك﴾ والخبر ﴿المفلحون﴾ بضمير الفصل ﴿هم﴾ لثلاث فوائد:

1. الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْوَارِدَ بَعْدَ ضمير الفصل خَبَرٌ لَا صِفَةٌ.
2. لزيادة الاهتمام والإشادة والثناء، فيُبرز ذلك مكانتهم بصورة أكبر.
3. لتأكيد حصر الخبر في المبتدأ، فتعريف المبتدأ والخبر (أولئك المفلحون)، أفاد الحصر فَهُم المفلحون لا غيرهم، ثم تأكَّد الحصر بضمير الفصل.

مفصل سورة البقرة (1)

ثم قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]:

المناسبة والاتصال:

الأعمالُ الدائمة صفاتٌ راسخة: عبَّر الله ﷻ عن هذه الصفات بالفعل المضارع: ﴿يؤمنون بالغيب، يقيمون، ينفقون، يؤمنون بما أُنزِل، يوقنون﴾ ليخبرك أن تجعل العمل سلوكًا، والسلوك صفة دائمة:

تلوح بوارق هذه البصيرة من الفعل المضارع في هاتين الآيتين [٣-٤]، فما الذي يفيضه الفعل المضارع من معان ويصوره في هذا المقام والسياق؟

الجواب: بتأملك مليًّا، وتذوقك لجمال التعبير تجد أن الفعل المضارع يجعل هذه الصفات حالةً واقعيةً ومستقبلية، فالأعمال الخمسة السابقة ينبغي أن يُكَرِّرَها المرء لتتحوَّل من عملٍ إلى سلوك، والسلوك مع الثبات عليه يتحوَّل إلى صفةٍ دائمة لازمة.. ثم تتحول إلى صفة محبَّبة يشعر المرء بأشدِّ درجات الانزعاج لو لم يقم بها، ففي حديث سؤال الميت قال ﷺ: «**فيقالُ له اجلسْ فيجلسُ قدْ مُثِّلَتْ له الشمسُ قد دنت للغروبِ، فيقالُ له: أخبِرْنا عما نسألُكَ فيقولُ: دَعوني حتى أُصَلِّيَ، فيقالُ له إنكَ ستفعلُ**»[(١)] لا يريد ترك الصلاة بعد موته.

يقلق المرء لو أخلفها، فقد أصبحت ديدنًا وطبيعة فكيف يتركها؟ وبذلك يحقِّق التقوى في حياته.

كلُّ هذا بصَّرنا به الفعل المضارع، فكأن الفعل المضارع يقول لك: لا تتوقف.. استمر حتى تلاقي ربك.

---

(١) ابن حبان (٧٨١) واللفظ له، والطبراني في الأوسط (٢٦٣٠)، وحسنه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٦١).

بعد أن أصبحت هذه الأعمال صفات لازمة استحق صاحبها أن يكافأ، وهنا جاءت الآية الخامسة مبشرة بمكافأتين عظيمتين لأصحاب هذه الصفات:

المكافأة الأولى: الثناء الإلهي بالهدى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾.

والمكافأة الثانية: الفلاح: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

المكافأة الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾:

فتعال لترى كيف تمنحك كل كلمة من كلماتها بصيرتها المدهشة:

بصيرة: **﴿أولئك﴾ تصف لك التبجيل العظيم الذي يستحقُّه المتقون، فاسم الإشارة بذاته تكريم من الله ﷻ لهم.. كأنه يقول: ﴿أولئك﴾ المتقون المستقيمون على تلك الصفات يستحقُّون التبجيل والتكريم في الدنيا والآخرة.**

والمثير أنك ترى التبجيل في كلِّ حرف في هذه الآية، حيث استحقوا التكريم من وجوه جهات متعددة:

ما هذه الجهات؟ ومن أين استنبطنا هذه البصيرة؟

الجواب: الجهة الأولى: اسم الإشارة ﴿أولئك﴾ تكريم من حيث هو اسم إشارة، فالله ﷻ يقول: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

ستسأل: كيف يكون اسم الإشارة ﴿أولئك﴾ من حيث هو تكريمًا؟

الجواب: بدأت الإشادة بهم بالإشارة إليهم في سياق المدح. والأصل في اسم الإشارة أن يُشار به إلى ذاتٍ مشاهدة قريبة أو بعيدة، فلما كان الموصوفون بهذه الصفات كأنهم متميزون تحدَّدت معالمهم، واختصُّوا بمنزلة فصلتهم عن غيرهم أُشير إليهم كأنهم حاضرون بيننا بتميزهم الواضح، فتمييزهم بصفاتهم أوجب لهم التميز في ذواتهم عند ربهم ﷻ.

فجعل الله ﷻ أصحاب هذه الصفات كأنهم حاضرون أمام جموع العالمين يشير الله ﷻ إليهم من بين سائر الخلق أجمعين، وتصور المشهد العظيم: هؤلاء هم الذين يكرمهم الله ﷻ بين سائر العالمين.

وأما الجهة الثانية في المدح والثناء على هؤلاء المتقين الأصفياء: فالإشارة إليهم باسم الإشارة الدال على البعد، دون اسم الإشارة الدال على القرب؛ لأن المقصود هنا بُعْدُ مكانتهم: أي رفعتهم وبُعْد ما بينهم وبين غيرهم من الناس:

فكلمة (أولاء) هو اسم الإشارة، وهو موجود في قولك: "هؤلاء" ولكن مع هاء التنبيه، وهذه اللفظة "هؤلاء" دال على الإشارة للقريب، فتكونت هذه اللفظة من: هاء التنبيه، وكلمة ﴿أولاء﴾.

وكذلك تجد كلمة "أولاء" في قولك: "أولئك"، فتكونت هذه اللفظة من "أولاء" والكاف حرف خطاب، واسم الإشارة هنا للرُّتبة القصوى كما يذكر أبو حيان ؒ(١).

فإن قلت: لماذا جيء بكلمة ﴿أولئك﴾، ولم يستخدم كلمة ﴿هؤلاء﴾ ؟

الجواب: جعل الإشارة إليهم بقوله: ﴿أولئك﴾ وهم ليسوا بعيدين مكانًا، ليُعْلِمَك أنهم بعيدون مكانةً ومنزلة وعظمة، ومرتفعون شأنًا، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، فاسم الإشارة هنا للتعظيم والفخر والاعتزاز، وإلا فإن الله ﷻ قريب من عباده.

يُوقفك الزمخشري ؒ على تذوق هذا المعنى، ولنأخذ من نَفَسه ما يعيننا على تحليل الأمر بصورة أوسع:

فينقل عن حاتم الطائي مرثيته لأحد ممدوحيه قائلًا:

---

(١) البحر المحيط (١/ ٧٢).

ولِـلَّـهِ صُـــعْـلُـوكٌ يُســـاوِرُ هَـمَّـهُ ... ويَمْضِـي عَلى الأَحْداثِ والدَّهْرِ مُقْدِما

فَتى طَلِباتٍ لا يَرى الخَمْصَ تَرْحَةً ... وَلا شَــبْعَـةً إنْ نـالَـهـا عَـدَّ مَغْنَما

ويغشـــى إذا مـا كـان يوم كريهـةٍ ... صـدورَ العوالي وهو مختضِـبٌ دَمَا

أو الحربُ أبدت ناجذيها وشـمرت ... وولـى هِـدانُ الـقـومِ أقـدم مُـعْـلِـما

فـذلـك إن يَهْلِـك فحســبي ثـنـاؤه ... وإن عاش لم يَقْعُد ضـعيفًا مُذَمَّمَا(١)

وهنا الشاهد، فبعد أن مدحه بأجمل المدح أشار إليه باسم الإشارة، فقال: فذلك، المعنى: فذلك الموصوف بتلك الصفات المختص بتلك الخصال، هو المستحق لأن يقال فيه إن يهلك ويمت فيكفنى ثناؤه فخراً، أى ذكره بين الناس بالجميل.

واسمع للفرزدق حينما أراد أن يفخر ويفاخر جريرًا بأجداده فقال:

أولـئـكَ آبـائي فـجـئـني بـمثـلـهـم ... إذا جـمـعـتـنـا يـا جريرُ المَجـامِعِ(٢)

وهنا ترى الأمر كذلك حيث زاد في مدحهم وتبجيلهم وتكريمهم؛ لأنه يريد تعظيم منزلتهم وإعلاء مكانتهم في الدنيا، فهم الذين على هدى، وهم الذين يستحقون أن يهتدي بأقوالهم وأفعالهم الناس، ولأنهم استطاعوا أن يحققوا هذه المكانة في الدنيا، فإنهم سيستحقون مثلها في الآخرة.

فالإشارَة بذاتها وباستعمالها (للرُّتبة القصوى) قُصِد بها التَّنوِيهُ باستقامتهم على هذه الصفات الخمس (السبع إجمالًا)، فكأن الله ﷻ يقول: أولئك المتصفون بالصفات السبع على هدى من ربهم.

---

(١) ديوان حاتم الطائي وأخباره- رواية الكلبي- (ص ٢٤٠، ٢٤١)، ذكر فيه البيتان الأولان فقط، وفي الهامش ذكر المحقق أن الثلاثة الأبيات موجودة في مختارات ابن الشجري. والخمص: الجوع، والترح: الحزن، والناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم، والهدان- ككتاب-: الأحمق الثقيل، والمُعلم: من علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها ثقة بنفسه واقتدارًا.

(٢) شرح نقائض جرير والفرزدق، لمعمر بن المثنى، (٣/ ٨٢٤).

وأما في الآخرة، فتصوَّر معي بُعْدَ منزلِتهم اسمع إلى الإشادة بأصحاب هذه الصفات في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ، أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «**بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**»(١)، وهذه الصفة صفة من يؤمنون بالغيب، اللهم ألحقنا بهم بفضلك ورحمتك.

بصيرة: ﴿على﴾ تشعرك بأنهم استقلُّوا مركب الهدى ليقودهم إلى تحقيق الإنجازات البشرية في عالم الاختبار الدنيوي.

وقد تقول فهمنا المعنى الكبير الذي تضمنه اسم الإشارة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، فما المعنى الذي يحبونا به حرف ﴿على﴾ ؟، ولماذا ﴿على﴾، وليس ﴿في﴾ ؟

والجواب: هذه هي الجهة الثالثة في مدحهم، فقد جاء التعبير القرآني عنهم **بحرف الجر ﴿على﴾ دون جرف الجر ﴿في﴾** ليصوِّرَ لك أن الهدى بالنسبة لهم كالمركب الذي يسوقهم إلى القرارات الصائبة، والأعمال الصالحة، ويَمْخُرُ بهم في سُبُل الفلاح، فـ﴿على﴾ تعني الِاسْتِعْلَاء لتدل على تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْهُدَى وَاسْتِقْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، حَيْثُ شُبِّهَتْ حَالُهُمْ بِحَالِ مَنِ اعْتَلَى الشَّيْءَ وَرَكِبَهُ، كقولهم: «فُلَانٌ عَلَى الْحَقِّ، أَوْ عَلَى الْبَاطِلِ» وَقَدْ صَرَّحت العرب بِهِ فِي قَوْلِهِمْ: «جَعَلَ الْغِوَايَةَ مَرْكَبًا، وَامْتَطَى الْجَهْلَ»، وقالوا: رَكِبَ مَتْنَ عَمْياءَ، تَخَبَّطَ خَبْطَ عَشْواءَ، وقالَ النّابِغَةُ يَهْجُو عامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الغَنَوِيَّ(٢):

فَإِنْ يَكُ عامِرٌ قَدْ قالَ جَهْلًا ... فَإِنَّ مَطِيَّةَ الجَهْلِ الشَّبابُ

---

(١) البخاري (٣٢٥٦).

(٢) ديوان النابغة (ص: ١٠٩).

فالهدى يسير بهم، وهم عليه بسم الله ﷻ مجراه ومجراهم[(١)]،ويعلمنا النبي ﷺ أن ندعو فنقول: «**اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهديين**»[(٢)].

ترى المتقين مطمئنين.. أتعلم ما الذي يدل على اطمئنانهم في هذه الجملة القرآنية؟

إليك الجواب حثيثًا: إنه الحرف (على) في قوله: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ**﴾، **فهذا الحرف يدل على الاستعلاء**، والاستعلاء يدل على الاستقرار والاطمئنان والظهور لا الاضطراب والتذبذب والانزواء.

﴿على﴾ تمنحك أيضًا معنى الاستعلاء، وتعطيك صورةً مشوِّقةً، فالهدى ليس عبئًا عليهم، بل هو مركبٌ حسنٌ لهم يرتفع بهم ويعلو، وتشعرك بأن أولئك المتقين يسيرون على مركبٍ من نور ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله تعالى إياهم.

المتقون يسيرون على مراكب الهدى الآخذة بهم إلى صراط مستقيم.. يسيرون على تلك المراكب بسم الله مجراها ومرساها.

كلمت حادي البصائر القرآنية الشيخ الشاعر الشاب محمد المثيل عن هذا المعنى الجميل الثمين –فانطلق يهتف:

على الهدى مركبُ القرآنِ أجراها ومن عواصفِ بحرِ التيهِ أنجاها

---

(١) بين الطاهر ﷺ هنا المعركة التي اشتد أُوارها بين سَعْد الدِّينِ التَّفْتَزانِيّ الذي يرى الاستعارة هنا تمْثِيلِيَّة والسَّيِّدُ الجُرْجانِيُّ الذي يرى الاستعارة تبَعِيَّة، وبين كيف تَراشَقا سِهامَ المُناظَرَةِ الحادَّةِ، ثم قال: "ونَحْنُ نَدْخُلُ في الحُكُومَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ العَلَمَيْنِ" ولقد أحسن كعادته– في الحكم؛ إذ جعل المعيار في الحكم النظر في الأعظم بلاغة، والأشد تصويرًا وتأثيرًا، فصرَّح في آخر المطاف بميله إلى التَّمْثِيل لأنه أخَصُّ أنْواعِ التَّشْبِيهِ لِأنَّهُ تَشْبِيهُ هَيْئَةٍ بِهَيْئَةٍ فَهو أوْقَعُ في النُّفُوسِ وأجْلى لِلْمَعانِي.

وعند هذا الحد أترك هؤلاء الأئمة الأكابر رضي الله ﷻ عنهم ورحمهم؛ إذ لا أبلغ ذرة أمام نخل طوال، ولأن كثرة الإيراد لمثل هذه المباحث يسعف المتخصص، ويحجب جمال المعنى عن المتذوق.

(٢) مسند أحمد (١٨٣٢٥)، وصححه الأرناؤوط، والألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٧).

سـرى بهـا لـبـحـارِ الـنـورِ مُشْـرَعـةً ... بـالـحُـبِّ والأُنسِ يُسـراهـا ويُمنـاهـا

وصـفـوةُ الـخَـلْـقِ قُـبطـانٌ بـقُـمرتهـا ... يقـولُ بـالله ﴿مُجريهـا ومرسـاهـا﴾

ولعلك تسأل: هل تعلم ما معنى أن يكون الهدى يسير بهم؟

الجواب: من شريف معاني امتطائهم لمركب الهدى ولطيفه وكريمه وسني أحوالهم وهم يستقلونه، أنهم لو أرادوا الخطأ لا يُمَكَّنون منه إلا بالقدر الذي يُظهر بشريتهم، وأما الكافرون فيصفهم الله ﷻ بكلمة (في)؛ ليدل على إحاطة ظلمات الضلالة بهم ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، وتأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ومن ذلك قول الْحَمَاسِيِّ[1]:

وَفَارِسٍ فِي غِمَارِ الْمَوْتِ مُنْغَمِسٍ ... إِذَا تَـأَلَّى عَلَى مَكْرُوهَـةٍ صَـدَقَـا

فالموت محيط به، وهو منغمس فيه.

بصيرة: كلمة ﴿هُدًى﴾ في قوله ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ ذكرها الله ﷻ مرة أخرى هنا للثناء عليهم أمام العالم، ولإظهار أنهم يزدادون هدى عندما يستقيمون على الصفات الخمس (السبع إجمالًا)، والهدى هنا يجعلهم على صوابٍ في القرارات التي يتخذونها غالبًا، ويرشدهم إلى الحقِّ في تحقيق المصير القادم، بينما ذكر الله ﷻ كلمة ﴿هُدًى﴾ في الآية الثانية؛ ليبين أن أنهم يهتدون بالقرآن.

ليتضح لك ذلك:

اجمع بين الهدى في أول الآيات: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، **والهدى هنا ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.. هو هدى لهم، وهم على هدى..**

---

(١) هو بلعاء بن قيس الْكِنَانِي، انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ١٣).

فإن سألت: ماذا أضافت كلمة ﴿هدى﴾ في المرة الثانية؟ ألم تكن الهداية في المرة الأولى كافيةً؟

الجواب: هنا تشرق أمامك هذه البصيرة:

ففي المرة الأولى: قال الله ﷻ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالقرآن مصدر تفكيرهم، وقراراتهم، فهو هاديهم، وليس قول فلان، وفلان.

وفي المرة الثانية: قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾.

فذكر الله ﷻ أنهم هنا على هدى للثناء عليهم حيث استقاموا على الصفات الخمس (السبع) ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾، فالمرة الأولى تدلك على أنهم اهتدوا بالقرآن، وهنا بعد أن استقاموا على الصفات صاروا يستحقون الثناء بأنهم على الهدى المبين.

كما أنها تعني أنهم صاروا يتسمون بأربعة أمور: (حسن التدبير، وصحة المصدر، وسلامة السير، والازدياد من الهدى)، كما قال الله تعالى في علاه عن بعضهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وهاهنا تدرك جوهرة قرآنية في بناء العقل الإسلامي؛ إذ إن كلمة (هدى) جاءت نكرة ولم يعرفها، فلم يقل (الهدى) فلماذا جاءت نكرة؟

الجواب: يحتمل أن يكون سبب تنكير كلمة (هدى): **أنها** تفيد التكثير ما دامت نكرة في سياق المدح، ولكن هذا التقعيد يحتاج إلى زيادة تحرير وتأمل، ولكنك تشعر من الكلمة أن مناحي الهدى في حياتهم كثيرة، ومجالاته عندهم متعددة في الحياة الإنسانية الشخصية والعامة، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[1] - يعني خيرًا كثيرًا.

---

(١) البخاري (٥٦٤٥).

وقال الهُذلي[١]:

فَلَا وَأَبِي الطَّيْرِ الـــمُرِبَّةِ بالضُّحَى عَلَى خـالِـدٍ أنْ قَـدْ وَقَعْنَ على لَحَم

يحلف بأن الطير العاكفة في الضحى على قتيله خالد بأنها وقعت على لحم كثير.

من دلالات تنكير (هدى) هنا إضافة لما سبق التعظيم.. تعظيم الهدى، فهو هدى عظيم في ذاته لا يبلغ الإنسان حقيقته وكُنْهَهُ، ولا يَقْدُر قَدْرَه كأنه قيل: على أي هدى، كما تقول: لو أبصرت فلانـًا لأبصرت رجلًا. ومثل هذا ما يروى عن رجل من اليهود أنه رأى عليًّا رضي الله عنه يشتري جهازًا لامرأة فقال له: بمن تزوجت؟ فقال: بفاطمة ابنة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال اليهودي: لقد تزوجت بامرأةٍ! أي: ذات شرفٍ عظيمٍ. وأولى من ذلك وأفْخَمُ قول ربنا عز وجل: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣].

بصيرة: قوله ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ تبصرك بأنهم على احتياجٍ دائم لاستمداد الهدى والتوفيق من ربهم، وهو يربيهم ويمنحهم ذلك، ولذا قال: ﴿من ربهم﴾، ولم يقل (من الله).

لكن ربما خطر بخلدك سؤال: كيف دلتنا هاتان الكلمتان ﴿من ربهم﴾ على احتياجهم لاستمداد الهدى من ربهم؟

أقول لك: لأن أول معاني كلمة ﴿مِن﴾ ابْتِدَاء الْغَايَة، بل هذا المعنى هُوَ الْغَالِب عَلَيْهَا حَتَّى ادّعى جمَاعَة أَن سَائِر مَعَانِيهَا رَاجِعَة إِلَيْهِ -كما قال ابن هشام رحمه الله في المغني[٢].

---

(١) الخزانة (٥/ ٧٥)، وديوان الهذليين (٢/ ١٥٤)، وفي شـرح أبي العلاء المعري لديوان المتنبي (ص:٥٤) مضبـوطة (أنْ قَدْ وَقَعْنَ) بدلًا من (لقد وقعت) وأرى الوزن وفق هذا الضبط مستقيمًا.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٤١٩).

فهم لا يجدون الهدى إلا من ربهم، وهنا أيضًا تدرك لماذا اختار الله ﷻ في وصفه كلمة ﴿ربهم﴾ ولم يسمِّ نَفْسَه باسمه العلم الأعظم ﴿الله﴾؛ فكلمة ﴿رب﴾ تدلُّ على التربية، وهو سبحانه يربيهم بالأصلح لهم.

﴿من ربهم﴾: تعني أنه يكون الهدى الذي يبحثون عنه عند ربهم، فيطلبونه منه بالذل بين يديه والحب له.

﴿من ربهم﴾ لها سرُّها العظيم؛ إذ إنها تدعوهم إلى أن يبتدئوا مسيرة الهدى بأن يطلبوها من ربهم، وقد فعلوا في سورة الفاتحة، ثم تعود الكلمة مجدَّدًا لتدعوهم إلى أن يطلبوا الثبات على الهدى من ربهم، ثم تدعوهم مجدَّدًا إلى أن يطلبوا الازدياد من الهدى من ربهم.. إن كلمة ﴿من ربهم﴾ تصوِّر افتقارهم له ﷻ، وحفاوته بهم عندما يأتونه مظهرين شعار العبودية والاحتياج

من أجل ذلك قال ابن عطاء ﵀: "إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠]"(١).

ثم زاد ذلك وضوحًا بقوله:

"تحقَّق بأوصافك يمدَّك بأوصافه. تحقَّق بِذُلِّك يمدَّك بعزه. تحقَّق بعجزك يمدَّك بقدرته. تحقَّق بضعفك يمدَّك بحوله وقوته"(٢).

وحينها تخاطب ربك، فتقول:

إني إليك مدى الأنفاسِ محتاجُ ... لو كان في مفرقي الإكليلُ والتاجُ

(١) فيض القدير (٢/ ١٣٠).

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ١٣).

فكلما أقبلوا عليه ربَّاهم بما يهديهم ويصلح بالهم، فليذهبوا إليه وليقبلوا عليه كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، فهذه من أعجب الآيات؛ إذ قالها إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بعد أن ألقوه في النار وصارت له بردًا وسلامًا وازداد يقينًا كأنه يقول: ما زلت في معركة الحياة أتقرب الى الله وأطلب هداه.

﴿من ربهم﴾ تعني امتلاء المرّبَّى بتعظيم المرَبِّي، والتذلُّل له، والمحبة لمقامه، فقد قال ابن القيم رحمه الله: "وبقي نوعان من أنواع التذلُّل والتعبُّد، لهما أثرٌ عجيب، ويقتضيان من صاحبهما من الطَّاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرُهما:

أحدهما: ذلُّ المحبَّة، وهو خاصَّةُ المحبَّة ولبُّها، بل روحُها وقِوامُها وحقيقتُها، وهو المرادُ على الحقيقة من العبد لو فَطِن.

وهذا يستخرجُ مِنْ قلب المُحِبِّ من أنواع التقرُّب والتودُّد والتملُّق والإيثار والرِّضا والحمد والشُّكر والصَّبر والتقدُّم وتحمُّل العظائم ما لا يستخرجُه الخوفُ وحده، ولا الرَّجاءُ وحده؛ كما قال بعض الحكماء: "إنه ليسْتَخْرِجُ محبتُه من قلبي من طاعته ما لا يستخرجُه خوفُه".

الثَّاني: ذلُّ المعصية.

فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فَنِيَتِ الرُّسوم، وتلاشَتِ الأنفُس، واضمحلَّتِ القُوى، وبطَلَت الدَّعاوى جملة، وذهبت الرُّعونات، وطاحت الشَّطحات، ومُحِيَ من القلب واللسان: أنا وأنا، واستراح المسكينُ من شكاوى الصُّدود والإعراض والهجر، وتجرَّد الشُّهود، فلم يبق إلا شهودُ العزِّ والجلال المحض الذي تفرَّد به ذو الجلال والإكرام، الذي لا يشاركه أحدٌ من خلقه في ذرَّةٍ من ذرَّاته، وشهودُ الذُّلِّ والفقر المحض من جميع الوجوه بكلِّ اعتبار؛ فيشهدُ غاية ذلِّه وانكساره، وعزَّة محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغِناه.

فلِلَّه أيَّ مقامٍ أُقِيم هذا القلبُ إذ ذاك؟! وأيَّ قربٍ حَظِي به؟! وأيَّ نعيمٍ أدركه؟! وأيَّ رَوْحٍ باشره؟!

فهو لا يزالُ محسنًا وعند نفسه المسيء المذنب منكسرًا ذليلًا خاضعًا، لا يرفعُ له رأسًا، ولا يقيمُ له صدرًا، وإنما ساقه إلى هذا الذلِّ الذي أورثه إياه مباشرةُ الذَّنب، فأيُّ شيءٍ أنفعُ له من هذا الدَّواء؟!

لعل عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُه ... ربَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

ونكتةُ هذا الوجه أنَّ العبدَ متى شَهِد صلاحَه واستقامتَه شَمَخ بأنفه وتعاظمت إليه نفسُه، وظَنَّ أنَّه... وأنه...، فإذا ابتُلي بالذَّنب تصاغرت إليه نفسُه، وذلَّ وخضع، وتيقَّن أنَّه... وأنه...!" [(١)].

وفي هذا المعنى يقول حكيم القوم في حِكَمِه: "معصيةٌ أورثتْ ذلًّا وافتقارًا خيرٌ من طاعة أَورثتْ عزًّا واستكبارًا" [(٢)].

فَيَا مَنْ هُوَ القُدُّوسُ لا رَبَّ غَيْرُهُ ... تَبَارَكْتَ أَنْتَ الله لِلْخَلْقِ مَرْجِعُ
وَيَا مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى فَوْقَ خَلْقِهِ ... تَبَارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ العُلَى ... تَوَسَّلَ عَبْدٌ بَائِسٌ يَتَضَرَّعُ
أَسِيْرُ الخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ يَقْرَعُ ... يَخَافُ وَيَرْجُو الفَضْلَ فَالفَضْلُ أَوْسَعُ
مُقِرٌّ بِأَثْقَالِ الذُّنُوبِ وَمُكْثِرٌ ... وَيَرْجُوكَ فِي غُفْرانِهَا فَهْوَ يَطْمَعُ
فَإِنَّكَ ذُوْ الإِحْسَانِ وَالجُوْدِ وَالعَطَا ... لَكَ المجد وَالإِفْضَالُ وَالمَنُّ أَجْمَعُ

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٢٠).

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ١٠).

فَكَمْ مِن قَبِيحٍ قَدْ سَتَرْتَ عَنِ الوَرَى ... وكَمْ نِعَمٌ تَتْرَى عَلَيْنَا وَتَتْبَعُ
وَمَنْ ذَا الذِي يُرْجَى سِوَاكَ وَيُتَّقَى ... وَأَنْتَ إِلهُ الخَلْقِ مَا شِئْتَ تَصْنَعُ

كيف ترى ستكون مكانة من استقاموا على صفات المتقين، فأتحفهم الله تعالى بالبصائر الأربع السابقة؟ إنها مكانة عظيمة حقًّا، وهنا تلوح لنا البصيرة الخامسة:

بصيرة: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تبصِّرك بمصدرهم في الهداية، فهم يستمدُّون الهدى من مصدره الحقيقي، وهو ربهم ﷻ، من مقبول الدليل، لا من الهوى وعبث الأقاويل.

وهذه البصيرة نأخذها من موضعين:

الأول: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فالقرآن هاديهم ودليلهم، نور حياتهم ومركب نجاتهم، ومصدر تفكيرهم، وقراراتهم، وعنه يصدرون وإليه يعودون، لا يعدلون إلى غيره ولا يبغون الهدى إلا منه..

الثاني: قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ فربُّهم تعالى هو مصدر الهدى، الذي نزل به الملك المكرم على النبي المعظم ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

ذلك يعني أن يكون القرآن هدى لنا نقيم حياتنا الفردية، وقراراتنا المصيرية وتفاعلنا مع الحياة وفق هداياته.

قوله ﴿من ربهم﴾: تدلُّ على أنهم استقوا الهداية من ربهم فلم يأتوا به من الشرق، ولا من الغرب، ولا من الشياطين، ولا من البحر، ولا من الحجر، ولا من سائر البشر، ولا من مشرق الشمس ولا من مغربها، بل ﴿من ربهم﴾.

﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾: تنبيهٌ على أن الوحي من الكتاب والسنة المقبولة هو المعتبر في مصادر التفكير والتشريع في حياتهم.

فإن قلت: أتدري إلى ما يرشد هذا؟

الجواب: يرشدنا إلى ضرورة إعادة صياغة جميع المراكز التأهلية والبحثية في المجالات الإنسانية والتقنية والاستشرافية لتَصْدُرَ عن المعرفة القرآنية، وتأهيل من يشرفون على صدور أي قرار أو إنتاج ليراجعوه في ضوء بصائر القرآن الكريم.

هنا تشعر بالفهم السديد الذي آتاه الله ﷻ **عَوْنَ بْنَ عَبْدِ اللهِ** ؒ، حين قال: **"الْهُدَى مِنَ اللهِ كَثِيرٌ، وَلَا يُبْصِرُهُ إِلَّا بَصِيرٌ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا يَسِيرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ يُبْصِرُهَا الْبُصَرَاءُ، وَلَا يَهْتَدِي بِهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ"**(١)، ولتقريب المسألة نأخذ هذا المثال الذي سار عليه قادة الضلالات المعاصرة، فالكاتبة الأمريكية (غريس هالسيل) كاتبة خطابات الرئيس الأمريكي الأسبق (ليندون جونسون) تذكر في كتابها "النبوءة والسياسة" "أنه في كلِّ مرة يجتمع مجلس الأمن القومي لاتخاذ قرار يتعلَّق بالشرق الأوسط يُدَعى ممثِّل من هذه الكنيسة الإنجيلية تحديدًا حتى يأتي القرار متوافقاً مع الإيمان بالنبوءات الدينية الواردة في التوراة، التي وَضعت هذه الكنيسةُ تفاسيرَ وترجماتٍ حديثةً لها"(٢).

فالسياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربي - الصهيوني تنطلق في مجملها من أبعاد دينية، فهنالك اعتقاد راسخ مُوَجِّهٌ للسياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصراع العربي- الصهيوني، يقوم على أُسُسِ نبوءاتٍ توراتية تشير لأحداث مستقبلية تقود إلى استعادة "إسرائيل" والعودة الثانية للمسيح، معتبرين أن إسرائيل الواردة في العهد القديم هي إسرائيل

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٢).

(٢) يراجع كتاب: النبوءة والسياسة فهو ممتلئ بإظهار البعد الديني المزور في السياسة المعاصرة لأقوى دول العالم الحديث.

المعاصرة في فلسطين، وأن ميلاد الدولة الصهونية المسماه: "إسرائيل" في عام ١٩٤٨م في فلسطين هو تأكيد لصلاحية النبوءات التوراتية وعلامة على اقتراب العودة الثانية للمسيح، وأن هنالك مدى واسعًا في استعمال الرموز الخطابية التوراتية في العمل السياسي الأمريكي، بحيث صوَّر الصراع العربي- الصهيوني في الخيال العام الأمريكي على أنه امتداد للصراع التوراتي بين اليهود وغير اليهود، وعلى أن العلاقة الأمريكية "الإسرائيلية" هي علاقة خاصة قائمة على فَهْمٍ توراتي تراثي مشترك، ومن هنا تأتي المقولة الثابتة في السياسة الخارجية الأمريكية مهما اختلفت الإدارات في البيت الأبيض جمهورية أو ديمقراطية: وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية ملتزمة أخلاقيًّا وأدبيًّا بدعم "إسرائيل"، وهو الاصطلاح الذي لا تستعمله الولايات المتحدة الأمريكية مع أي دولة صديقة غير "إسرائيل".

وينطلق هذا الدعم من اعتقادات أهمها:

١) أن خِطَّة الله تتضمَّن العودة الثانية للمسيح للتبشير بمملكة الله.

٢) أن ذلك مشروط بعودة إسرائيل إلى فلسطين باعتباره الشعب المختار لأرضها الموعودة من أجل تمهيد المكان للمجيء الثاني للمسيح.

٣) أن إنشاء "إسرائيل" في فلسطين عام ١٩٤٨م، ووجود القدس كاملة تحت الحكم "الإسرائيلي" لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام، هما أبرز الإشارات الدالَّة على أن العودة الثانية للمسيح على وشك الحدوث.

٤) اعتبار كلِّ الأشخاص والمجموعات والدول التي تعارض أو تناهض دولة "إسرائيل" أعداء الله لأنهم يعوقون النبوءات التوراتية.

٥) ضرورة دعم إسرائيل والدفاع عنها بكل الوسائل واعتبار مباركتها من رضى الله " الذي يلعن معارضيها ومنتقديها"[(١)].

إن مجانين السياسية الدولية يقيمون قراراتهم على أساس مجموعة من التفاسير الضالة للكتابات الدينية في "التناخ" والعهد الجديد، وهي كتابات مشكوك في تحريفها عندهم.

فكيف لا نصدر نحن أصحاب الكتاب الخاتم عن هدى ربنا؟

الأتقياء والنداء للاهتداء:

والمتقون الذين على هدى من ربهم ينادون الذين يصرِّون على جذب البشرية إلى الضلالة والشهوات والتصورات المنحرفة، فيقولون لهم:

"هذا العفن الذي أنتم فيه نجس والله يريد أن يطهركم.

هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيِّبكم.

هذا العيش الذي تطمئنون إليه ظلمات، والله يريد أن ينير دروبكم.

هذه الحياة التي تحيونها دُونٌ، والله يريد أن يرفعكم.

هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفِّف عنكم ويرحمكم ويسعدكم".

ما أجمل أن تشعر أنك على هدى!، ولقد حثَّ النبي ﷺ أمّته على طلب الهداية، فعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ «**قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ**»[(٢)]، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رحمه الله قال: قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا

(١) د. يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي – الصهيوني، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩٠م، (ص ١١– ١٥).

(٢) مسلم (٢٧٢٥).

قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١)، و عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى»(٢).

المكافأة الثانية: الفلاح: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

والمفلحون هم صانعو الإنجازات والنجاح الحقيقي في الحياتين: الدنيا والآخرة، فالْمُفْلِحُ هو الظَّافِرُ بِالْمَطْلُوبِ كَأَنَّهُ الَّذِي انْفَتَحَتْ لَهُ وُجُوهُ الظَّفَرِ، كما انفتحت الأرض للفالح، فجنى خيراتِها وثمراتِها.

بصيرة: الواو العاطفة مع إظهار اسم الإشارة في ﴿وأولئك﴾ يفيدان زيادة في الإشادة والثناء يستحقه المتقون الأصفياء.

فأول ما يلفت نظرك حرف العطف ﴿و﴾ فلماذا جاء هذا الحرف العاطف؟ ولماذا كرر الله ﷻ اسم الإشارة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]؟ لماذا لم يقل: (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وهُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)؟

وما الفرق بين هذا الموضع وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؟

أجيبك: أن الواو العاطفة دخلت هنا مع تجدد اسم الإشارة ﴿أولئك﴾ ليتحقّق هدفان:

---

(١) مسلم (٧٧٠).

(٢) مسلم (٢٧٢١).

الأول: الإشادة بهم، فتكرير الإشارة إليهم يبين قَدْرهم في سياق تعديد المناقب، وبيان المجد الذي حازوه، ولتفخيم شأنهم بالإطناب والبسط في الكلام عنهم، وينبهنا الله تعالى بذلك إلى أنه كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى فقد ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضًا، فتميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين[1].

الثاني: تنبيهًا على أن كلَّ منزلة من المكافأتين يمكن أن تنفرد بذاتها، وهم بها مغتبطون، فكما ثبتت منزلة الثناء بالهدى لهم، فقد ثبتت لهم منزلة الفلاح، فكلُّ واحد من هذين الثوابين لو انفرد لكان كافيًا، كما قرَّره الزمخشري رحمه الله[2].

فالجملتان المتعاطفتان هنا تخبر كلٌّ منهما عن مكافأة مستقلة، وكلُّ واحدة من المكافأتين أعظم من الأخرى، وإن كانت كل منهما تقتضي الأخرى غالبًا.

وجاء ترتيبهما على سَنَن مستقيم، فالذي يسير على هدى قد يؤدي به الأمر إلى الفلاح، وقد لا يصل إليه، ومثاله: الذي يسير على هداية تُبَصِّرُه طريقَ ذَهابِه.. فهو يسير على هداية، وقد يصل إلى وجهته لكنه قد لا يجني ثمرة الوصول بفناء أو مرض، هنا تأتي كلمة ﴿المفلحون﴾ لتبين لك أنهم جنوا ثمرة تلك الهداية.

أما قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] **فالخبران** متفقان في تسجيل الغفلة عليهم، فشبههم الله عز وجل بالبهائم في هذه الغفلة، ثم بيَّن أن غفلتهم أسوأ، فالصفة واحدة. إذ أخبرنا الله عز وجل عن انحطاطهم إلى الأولى (مرتبة البهائم)، ثم انحطاطهم إلى الثانية (أضل)، فالمناسب للمقام هنا (بل) وليس الواو.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٧٩).

(٢) الكشاف (١/ ٤٥).

بصيرة: ضمير الفصل ﴿هم﴾ في قوله: ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يدل على تكريم جديد لهؤلاء المتميزين بإنجازاتهم.

يمكنك في الكلام المعتاد أن تقول: وأولئك المفلحون، لكن الله ﷻ فَصَل بين المبتدأ ﴿أولئك﴾ والخبر ﴿المفلحون﴾ بضمير الفصل ﴿هم﴾، فلماذا؟

الجواب: ضمير الفصل (هم) تتحقَّق به ثلاث فوائد:

إِحْدَاها: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْوَارِدَ بَعْدَ ضمير الفصل خَبَرٌ لَا صِفَةٌ، فيكون الكلام قد تم عند الخبر أما الصفة فتنتظر كلامًا بعدها.

فلو قال: ﴿وأولئك المفلحون﴾ لظنَّ السامع أن كلمة ﴿المفلحون﴾ صفة، وهو ما زال ينتظر الخبر، كأنه يقول: المفلحون ما لهم؟ فجاء ضمير الفصل ليبين أن كلمة ﴿المفلحون﴾ هي الخبر عنهم.

الثانية: لزيادة الاهتمام والإشادة والثناء، فيبرز ذلك مكانتهم بصورة أكبر، فكان يمكن أن يقول: (وأولئك المفلحون) لكنه أتى بضمير الفصل؛ ليزيد في تكريمهم وتبجيلهم وتعظيمهم.

وَثَالثها: لتأكيد حصر الخبر في المبتدأ، فتعريف الجزأين -المبتدأ والخبر- (أولئك المفلحون)، أفاد الحصر فَهُم المفلحون لا غيرهم، ثم تأكَّد الحصر بضمير الفصل، فهو لتأكيد أنهم المفلحون لا غيرهم، فحقَّقوا بذلك أعظم الانتصارات في الدنيا والآخرة، ووصولهم إلى مرتبة الفوز والظفر والنصر المبين على الرغم من شِدَّة الابتلاءات ومسِّ القرح، ومحاصرة الأعداء من شياطين الإنس والجن، ويصوِّر الزمخشري رحمه الله بتحليله الرائق عظمة الحشد البياني القرآني في تعظيم المفلحين مما احتوت عليه هذه الكلمات الثلاث، فيقول: "فانظر كيف كرَّر الله ﷻ التنبيهَ على اختصاص المتقين بنَيلِ ما لا يناله أحد

على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين (أولئك)؛ ليُبصِّرَك مراتبهم ويُرغِّبَك في طلب ما طلبوا، وينشِّطَك لتقديم ما قدَّموا، ويثبِّطَك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ﷻ ما لا تقتضيه حكمته(١) ولم تسبق به كلمته. اللهمّ زينا بلباس التقوى، واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة"(٢).

بصيرة: ﴿المفلحون﴾ تخبرك بالنتيجة ووسيلتها، وبالعاقبة ودليلها في كلمة واحدة.

ولعلك تسأل: لماذا اختار الله ﷻ اسم المفلحين دون اسم الفائزين في هذا الموضع؟ فكان يمكن أن يقول: أولئك الظافرون أو المنتصرون أو الفائزون، لكنه اختار ﴿المفلحون﴾.. لماذا؟

أجيبك: هذه كلمة قرآنية مميَّزة جاءت في موضعها المناسب، فهي مشتقة من الفَلْح، ويشبهها الفَلغ، والفَلخ، والفَلج، والفَلذ، والفَلّ، تُطلق جميعًا على القطْع، فتقول: فَلَحْتُ الْأَرْضَ: أي شَقَقْتُهَا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ"، وَيُقَالُ لِلْمَشْقُوقِ الشَّفَةِ السُّفْلَى: أَفْلَحُ، وَهُوَ بَيِّنُ الْفَلَحَةِ. وَكَانَ عَنْتَرَةُ الْعَبْسِيُّ يُلَقَّبُ "الْفَلْحَاءَ" لِفَلَحَةٍ كَانَتْ بِهِ. قَالَ:

---

(١) كأن في هذه العبارة أثارة من اعتزال، ألمح إلى ذلك الطيبي في حاشيته على الكشاف (٢/ ١١٦) حيث قال: "وقوله: (والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته) معناه: توقع الثواب من غير عملٍ باطلٌ، **لامتناع الثواب بدون العمل على مذهبه**، وتلخيص كلامه: أن المتقي من صدر منه تلك الخصال المذكورة، فمن أخل بشيءٍ منها لم يكن متقيًا، ومن لم يكن متقيًا لم يكن مفلحًا، بدليل تكرير ما كُرر، ومن لم يكن مفلحًا لا خلاص له من العذاب السرمد"، وليت الزمخشري أبعد التعصب لمذهبه جانبًا ووعظ الناس، وخوفهم عاقبة التمني الباطل حيث تجتمع كلمة المسلمين على هذا القدر، دون أن يُلِح في إدخال مبادئ مذهبه.

(٢) الكشاف (١/ ٤٦).

وَعَنْتَرَةُ الْفَلْحَاءُ جَاءَ مُلَأَّمًا كَأَنَّكَ فِنْدٌ مِنْ عَمَايَةِ أَسْوَدُ[(١)]

وَسُمِّيَ الْأَكَّارُ (المزارع) فَلَّاحًا، لأنه يشقُّ الأرض، وينتظر الظفر، فإن فلح الأرض رُجي له أن يكون قد أفلح أي جنى الفلاح وهو ما يترتب على الفلح من نيل الثمر، وسمَّوا السُّحور: الْفَلَاحُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ تَبْقَى مَعَهُ قُوَّتُهُ عَلَى الصَّوْمِ، وروى أحمد رحمه الله: «فجمع نساءه وأهله واجتمع الناس، قال: فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح. قيل: وما الفلاح؟ قال: السحور. قال: ثم لم يقم بنا شيئًا من بقية الشهر»[(٢)].

ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

اعْقِلِي، إِنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْقِلِي وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقَلْ[(٣)]

يعني ظَفِر بحاجته وأصابَ خيرًا، ومنه قول الراجز:

عَدِمتُ أُمًّا ولَدتْ رِياحَا جَاءَتْ بِهِ مُفَرْكَحًا فِرْكَاحَا

تَحْسِبُ أَنْ قَدْ وَلَدَتْ نَجَاحَا! أَشْهَدُ لا يَزِيدُهَا فَلاحَا[(٤)]

وهنا تدرك السر:

فالفلَّاح سمِّي فلاحًا؛ لأنه يقطع الأرض فيشقها شقًّا ويضع البذر، وينتظر ألذ ما يُنتَظَر، وهو الثمار النَّضِرة، والأكل الطيب، والهواء النقي مع نمو النباتات والمنظر البهي.

---

(١) البيت لشريح بن بجير التغلبي. لسان العرب (٢/ ٥٤٨)، والفند: القطعة من الجبل. وعماية: اسم جبل. الإبانة في اللغة العربية (١/ ٣٤٨).

(٢) أحمد (٢١٤٤٧). قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة (ص: ٩١).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٥٠) والفركحة: تباعد ما بين الأليتين. والفركاح، والمفركح منه، يعني به الذم وأنه لا يطيق حمل ما يحمَّل في حرب أو مأثرة تبقى.

أنواع الفلاح:

فالفَلَاحُ: الظَّفَرُ وإدراك البُغْية على أحسن الوجوه بناء على عمل سابق، وجهد تم، وهو نوعان:

١) الفلاحُ الدنيويُّ: وهو الظَّفَر بالسّعادات التي تطيب بها الحياة الدُّنيا، مثل البقاء والغنى والعزّ.

٢) الفَلَاحُ الأخرويُّ: ويتحقَّق بجنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حيث رضوان إلهي لا سخط بعده، وبقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزٌّ بلا ذلٍّ.

فالمفلحون هم الذي حققوا ذلك، ويبين ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: **"أي الذين أدْركوا ما طلبوا، ونجَوْا من شرّ ما منه هَرَبُوا"**[١].

فالمراد أنهم لم يكونوا يتمنون الأماني وهم كسالى، بل سعوا كسعي الفلاح ليجني ثمرته.

وتتعجب لهذه الكلمة الدقيقة الرائعة التي تدلُّ على قيام الفلاح بالمطلوب منه، بأن يشقَّ الأرض، ويضع فيها البذرة، والله هو الذي خلق الفلاح، وخلق البذرة، وخلق الأرض، وخلق الماء، وخلق الشمس، وجعل في البذرة القوة لتنمو النمو المناسب عندما يقوم الفلاح بوضعها في الأرض، وعند ذلك ينميها الله عز وجل له، فيجعلها تنتج سنابل في كلِّ سنبلة ماشاء الله، وكذلك العمل الصالح الذي فيه إما محبة الحقِّ أو نفع الخلق، فإن الله يتقبله الله عز وجل بيمينه -إن قصد به العامل وجهه الكريم-، ثم يربيه له، كما تنبت تلك البذرة، فيصبح أعظم من الجبل في أثره، وأجره.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تصدَّق بعَدْل تمرة من كَسْبٍ طيِّبٍ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبَّلُها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبه، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ، حتى تكون مثل الجبل»[٢].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٥٠).

(٢) البخاري (٧٤٣٠).

ومن أعظم مظاهر الفلاح البقاء على الحالة الصالحة دون تغيير أو تحويل، وذلك يكون في الآخرة، كما يكون في الدنيا صاحب سيرة طيبة وسمتٍ صالحٍ وديانة وصيانة مصحوبًا بطيب العيش وهناءته، وقد رأى الطبري ﵀ أن من معاني الفلاح البقاء[1]، وذكر منه قول لبيد:

نَحُلُّ بِلادًا، كُلُّهَا حُلَّ قَبْلَنَا ... وَنَرْجُو الْفَلاحَ بَعْدَ عَادٍ وَحِمْيَرِ[2]

يريد البقاء، ومنه أيضًا قول عَبيد بن الأبرص:

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ، فَقَدْ يُدْرَكُ بِالضَّـ ... ـعْفِ، وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ[3]

يريد: عِش وابقَ بما شئت، وكذلك قول نابغة بني ذبيان:

وَكُلُّ فَتًى سَتَشْعَبُهُ شَعُوبٌ ... وَإِنْ أَثْرَى، وَإِنْ لاقَى فَلاحًا[4]

أي نجاحًا بحاجته وبَقاءً، ومن ذلك قول الأضبط بن قريع:

لِكُلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ ... والمُسْيُ والصبحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[5]

أي لا بقاء.

ومع بعض التأمل يأتيك الجواب على سؤالٍ افتراضي: لماذا قال (المفلحون)، ولم يقل (الفائزون)؛ إذ الفوز هو الناتج النهائي للفلاح؟

الجواب: لأنه جل ذكره يريد أن يخبرك بالنتيجة ووسيلتها، وبالعاقبة ودليلها في كلمة واحدة.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٥٠).

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ص: ٤٧).

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٣٨).

(٤) البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث (ص: ٨٢)، و"شَعُوبُ": اسْم للمنية.

(٥) خزانة الأدب (١١/ ٤٥٢).

سيقال: لكن ربنا وصف المهتدين بالفائزين في آيات أخرى، فلماذا وصفهم بالمفلحين في هذا الموضع خاصة؟

وأجيبك: لأن الله ﷻ أكدَّ لنا في هذه السورة على ضرورة الانتباه إلى الأعمال، والاكتساب، وعلى أنه لا ينفع عنده الأحساب ولا الأنساب.

فلهذا الذِّكر للعمل ناسب أن يَصِف هؤلاء الأتقياء بالمفلحين؛ لأن وصف الفلاح يتضمَّن عملًا وفوزًا.

وهذا من أوجه الإعجاز البياني القرآني المدهشة، فالفلاح كلمة تصوِّر لك عمل المفلح الفلَّاح الذي يحرث الأرض، ويهتمُّ بها، يصيب منها ما أراد، ويقال: مفلح أو أفلح وجهه؛ لأنه يظفر بتحقيق هدفه من الفلاحة.

ويلقِّب الله ﷻ الفائزين بالمفلحين ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لكنه يخبر أن بداية الفلاح أن يقوموا بوسيلة ذلك، بأن يزكوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ونفى الفلاح عمن لم يحقِّق وسيلتَه ولم يأخذ بسبيله، ومنه قولهم في الأذان: (حي على الفَلَاحِ) أي: على الظَّفَر الذي جعله الله تعالى لنا بالصلاة، أي على الفوز ووسيلته العظمى وهي الصلاة. فأطلق الفلاح على العبادة ووسيلتها.

وإلى أمرٍ ثانٍ يتعلق بالفلاحة: فهي شقٌّ للأرض، وكلُّ شقٍّ لمكان صُلب يسمى فَلْحًا:

فاستخدام هذه الكلمة الجامعة يعني الاستعداد لبعض الألم وبذل الجهد، وكد النفس، والتصبر على بعض العنت واللأواء، وآلام الطريق ومشقاتها، كما يقول المتنبي:

ذريني أنلْ مالا يُنالُ من العلا ... فصَعْبُ العلا في الصَّعبِ والسَّهلُ في السهلِ

تريدين لُقيانَ المعالي رخيصةً ... ولا بدَّ دون الشَّهْدِ من إِبَرِ النَّحْلِ

استخدام هذه الكلمة اللامعة (الفلاح) يعني الاستعداد لبعض الألم في الوصول إلى الفلاح، بتدريب النفس على ما يشق عليها، ومجاهدة رغباتها التي تميل إلى الدعة والخمول والشهوات العاجلة.

ثمة أمر ثالث مدهش في هذه الكلمة اللامعة: ﴿المفلحون﴾ وهو البركة المتوقَّعة من العمل:

إنه الشعور بالمقدار المتوقَّع من نتيجة الفلاحة. إنك تضع البذرة فتجني منها سنابل أو ثمراتٍ لا حصر لها، كما قال جلَّ مجدُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].. إن الأرض التي تفلحها تعطيك سبعمائة حَبَّة من حَبَّة، فماذا سيهبك خالقك إذا أنت سرت على منهاجه من المضاعفة للعمل؟

وثمة أمر آخر يتعلَّق بالفلاح، فهذه الكلمة تجمع كل معاني الفوز والنجاح والظفر والإنجاز ولذا سمعناها تتكرَّر على مسامعنا في الأذان كلَّ يوم خمس مرات دون غيرها.

لعلك شعرت هنا أننا نسير على أساس أن الفلاح يكون في الدنيا والآخرة، كما أن الهداية تكون في الدنيا والآخرة.

وقد تتساءل، فتقول: الهداية إنما تكون في الدنيا، والفلاح إنما يكون في الآخرة، كما قال الطاهر رحمه الله: "ووَجْهُ العَطْفِ بِالواوِ دُونَ الفَصْلِ أنَّ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ تَوَسُّطًا بَيْنَ كَمالَيِ الِاتِّصالِ والِانْقِطاعِ؛ لِأنَّكَ إنْ نَظَرْتَ إلى اخْتِلافِ مَفْهُومِهِما وزَمَنِ حُصُولِهِما فَإنَّ مَفْهُومَ إحْداهُما وهو الهُدى حاصِلٌ في الدُّنْيا، ومَفْهُومَ الأُخْرى وهو الفَلاحُ حاصِلٌ في الآخِرَةِ كانَتا مُنْقَطِعَتَيْنِ"،

ولكنك تخالف الطاهر، وتزعم أن الهداية والفلاح يكونان في الدارين، وهل يحتاج المتقون إلى هداية في الآخرة، وهل يتحقق الفلاح في الدنيا؟

فأقول لك: إني إنما قلت ذلك لأن دلائل القرآن تنصره، والحق أحق أن يتبع، فأما الهداية فقد تكون في الآخرة كما قرَّرتُ ذلك في تفسير سورة الفاتحة "الإسلام في سبع آيات"، وذلك أن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، فهي هداية جزاء.

وأما الفلاح فيكون في الدنيا أيضًا بالثبات وبملازمة جادَّة طريقة الاستقامة المثمرة للكرامة، وطيب الحياة، وطمأنينة القلب، وصلاح البال، وسعادة الحال، وكلُّ هذا من عظيم الفلاح والفوز والنجاح العاجل، أو بتحقيق الانتصار الدنيوي، ومن أصرح الآيات التي جاءت كذلك قول الله ﷻ: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]، والطاهر رحمه الله كان ينقل عن حواشي الكشاف، وإلا فإنه قرَّر قبل أن الفلاح هو الفَوْزُ وصَلاحُ الحالِ، فَيكُونُ في أحْوالِ الدُّنْيا وأحْوالِ الآخِرَةِ[1].

ولكأني بك تسأل: من هم الذين يستحقون هاتين المكافأتين (الهدى، والفلاح)؟

والجواب أن كلَّ من طبَّق الصفاتِ الخمسَ (السبع إجمالًا) السابقة راجيًا يرجى له أن يدخل في المهتدين المفلحين، وكلما كانت هذه الصفات أقوى وأظهر كان الرجاء للفلاح والاهتداء أقوم وأكبر، وأول من تنطبق عليهم هذه الصفات العظيمة هم من آمن بالنبي ﷺ من صحابته وأهل بيته رضي الله عنهم.

تَصَوَّرْ نزول هذه الآيات على أصحاب النبي ﷺ تربية لهم، ومدحًا لمن سارع إلى بناء نفسه منهم بأكبر قدرٍ من هذه الصفات.. تَصَوَّرْ رسول الله ﷺ وهو يزكِّي أنفسهم بها،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٤٦).

وهم يسمعونها غضةً طريةً نزل بها جبريل عليه السلام فتلقَّاها سيد الخلق ﷺ يتلوها عليهم، وهم يستمعونها فتزكو نفوسهم وتطمئن قلوبهم، وتبني في عقولهم التصوراتِ الصادقةَ، والخبراتِ الحقَّةَ، وتمضي بهم إلى المستقبل في خطوات واثقة.

فالباعِثُ الَّذِي بَعَثَهم عَلى الإسْلامِ هو التَّقْوى دُونَ الطَّمَعِ أوِ التَّجْرِبَةِ، هذا وإنه مع إقامة الحجة واستقامة المحجة حينها تسامى قوم بهمتهم ومقاصدهم فأعزهم الله بدينه، وارتكس آخرون وقَصُرَت بهم هِمَمُهم فنالوا من الخزي في الدنيا ما سوف ينالون أضعافه في الأخرى، فَوائِلُ بْنُ حُجْرٍ رضي الله عنه مَثَلًا لَمّا جاءَ مِنَ اليَمَنِ راغِبًا في الإسْلامِ هو مِنَ المُتَّقِينَ، ومُسَيْلِمَةُ حِينَ وفَدَ مَعَ بَنِي حَنِيفَةَ مُضْمِرَ العَداءِ طامِعًا في المُلْكِ هو مِن غَيْرِ المُتَّقِينَ[١].

ودعنا نراجع الآية لنقرر فوق ما بدأه لنا الزمخشري رحمه الله، فنقول: انْظُرْ كَيْفَ نبَّهك الله عز وجل على قيمة هؤلاء المتقين ومكاناتهم من وجوه شتى: اسم الإشارة الأول ﴿أولئك﴾ من حيث هو اسم إشارة، ومن حيث استعماله بما يدل على بُعْدِ المكانة وعُلُوِّها، وحرف الاستعلاء ﴿على﴾، ووجود كلمة ﴿هدى﴾ نكرة: أي هدى عظيم كثير، وبيان استمدادهم الفكري والحاجي في قوله ﴿من ربهم﴾، وعطف ذلك بالواو، وتكرير اسم الإشارة ﴿وأولئك﴾، وضمير الفصل ﴿هم﴾، ووصفهم بالفلاح مع تعريف الكلمة ﴿المفلحون﴾ لينبِّهك جميع ذلك على اخْتِصاصِ المُتَّقِينَ بِنَيْلِ ما لا يَنالُهُ أحَدٌ، ولِيُبَصِّرَكَ مَراتِبَهم، ويُرَغِّبَكَ في طَلَبِ ما طَلَبُوا، ويُنَشِّطَكَ لِتَقْدِيمِ ما قَدَّمُوا[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٤٦).

ختام في الكلام عن صنف المتقين في أول سورة البقرة:

قبل أن نمضي مع أنوار الآيات الهادية في هذه السورة، وقبل أن ننتقل من تدبر الآيات الواردة في المتقين نطرح هذين السؤالين التدبريين:

السؤال الأول: لماذا هذا التركيز الكبير على التقوى في الزهراوين؛ إذ رأينا تكرر الحديث عن التقوى مراراً؛ فتكرر ذكرهما أكثر من (٥٠) مرة؟ ويتفرع عن هذا السؤال سؤال آخر عن تميز الموقع: فكيف طبقنا علم الاتصال القرآني على موقع هذه الصفات الخمس للمتقين في السورة؟

الجواب: أما التركيز الكبير على التقوى في الزهراوين فلعل من أهمِّ أسبابه تأهيلَ الأمَّة عامَّة والرعيلِ الأول خاصَّة وإكسابَهم أصولِ التعايش مع أهل الكتاب، فالكلام عن التقوى يحقِّق أربعة أهداف:

الأول: جعل التقوى صِمَام الأمن، والضمان الحقيقي للأخذ بمقومات الاستخلاف الحضاري الذي جاءت سورة البقرة تقرِّره وتؤصِّل له.

الثاني: التقوى عامل رئيس لا بدَّ من حضوره في تعامل الفئة الموفَّقة المهتدية مع غيرها من الأصناف المعاندة والمحايدة المضمن ذكرهم في البقرة.

الثالث: لِيَحْذَرَ المسلمون من أن يتعاملوا مع أهل الكتاب بالنَفَس التجاري أو السياسي فقط، بل لا بد من الجمع بين الوعي السياسي، وأنفاس المتقين.

الرابع: ليتعاضد الوحي الإلهي القرآني مع بقايا الوحي الإلهي في التوراة والإنجيل لبناء التقوى في النفس الإنسانية، وليتذكَّر أهل الكتاب بما يوجد في كتبهم من ذكر التقوى، ولتحرجهم عندما تخاطبهم بخطاب التقوى في كتابنا وكتبهم، فأفعال كثيرٍ منهم تخالف تلك التعاليم، فقد رأينا الكلام عن التقوى موجودًا في (التناخ).

المتقون تربيِّهم المعرفة القرآنية ليحوزوا الفلاح في المجالات الحياتية، وينشروا الخير والسعادة في الواقع الإنساني..

وذلك منهجٌ أساسيٌ في الوحي الإلهي الذي نلمس بعض بقاياه في النصوص التوراتية والإنجيلية، ففي تتمَّة سفر يشوع ابن سيراخ ستسمع كلامًا رائعًا يبني التقوى:

٧ أيها المتقون للرب انتظروا رحمته ولا تحيدوا لئلا تسقطوا* ٨ أيها المتقون للرب آمنوا به فلا يضيع أجركم* ٩ أيها المتقون للرب أَمِّلُوا الخيراتِ والسرورَ الأبديَّ والرحمةَ* ١٠ أيها المتقون للرب أحبُّوه فتستنير قلوبكم* ١١ انظروا إلى الأجيال القديمة وتأمَّلوا هل توكل أحد على الربِّ فَخَزِي* ١٢ أو ثَبَتَ على مخافته فَخُذِلَ، أو دعاه فأُهمل* ١٣ فإن الرب رؤوف رحيم يغفر الخطايا ويُخَلِّصُ في يوم الضيق* ١٤ ويل للقلوب الهَيَّابة، وللأيدي المتراخية، وللخاطئ الذي يمشي في طريقين* ١٥ ويل للقلب المتواني، إنه لا يؤمن، ولذلك لا حماية له* ١٦ ويل لكم أيها الذين فقدوا الصبر، وتركوا الطرق المستقيمة، ومالوا إلى طرق السوء* ١٧ فماذا تصنعون يوم افتقاد الرب* ١٨ إن المتقين للرب لا يُعَاصُون أقوالَه والمحبين له يحفظون طُرُقَهُ* ١٩ إن المتقين للرب يبتغون مرضاته والمحبين له يمتلئون من الشريعة* ٢٠ إن المتقين للرب يُهَيِّئُون قلوبَهم ويُخضِعون أمامه نفوسَهم*[١].

فما للقوم من أهل القرآن والتوراة والإنجيل يخاطبون بهذا الخطاب في الكتب الثلاثة ثم لا يفلحون؟

(١) ينظر: سفر يشوع ابن سيراخ، الإصحاح الثاني. موقع الأنبا تكلا هيمانوت - الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مصر-Takla //:St.org http

ما لهم يزيدون البشرية شقاء وتعاسة وبشريعتهم يلعبون ويتلاعبون؟

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وبذلك ندرك أن الخطاب لأهل الكتاب لا ينبغي أن يقتصر على الجوانب السياسية والتجارية المَحْضَة دون أن يُخاطبوا بالخطاب الإيماني، وإنك لتعجب من (مسلمين!!) مَلَكوا أَزِمَّة الخطابِ السياسي والثقافي كيف لا يطبِّقون ما يوجد في هذه السورة وغيرها من التعامل مع بني إسرائيل.. وتعجب أكثر عندما تراهم يعظِّمون المتدينيين من أصحاب الكتب السماوية الأخرى، ويحبسون أو يقتلون العلماء والمتدينين من المسلمين.

أما عن تميز هذا الموقع: فهذا الموقع من سورة البقرة يبيِّن لك التناسب المنطقي في علم الاتصال القرآني وفي المنهجية التربوية القرآنية.. فتلك الصفات تجدها في موضعها المناسب من سورة البقرة:

لأن السورة ستتكلَّم عن أقسام الناس في هذا العالم، وعن أصحاب البقرة الإسرائيلية، فناسب جوَّ السورة أن يبيِّنَ الله تعالى صفاتِ المتقين الأساسيةَ الإيمانيةَ والعمليةَ المتعلقةَ ببناء الجيل الذي سيحمل رسالة الرحمة للعالمين، وهذا الجيل سيتمكَّن من التفاعل مع الواقع العالمي الذي يعيشه، وهذه الصفات هي التي تحقِّق الهدى القائد والفلاح في الحياتين.

اسمع إليها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

كيف أشارت هذه الصفات الخمس إلى الإنسان الصالح الذي يبني المجتمعات ويُعِدُّ العُدَّةَ الحقيقية لروضات الجنات؟

الجواب: الْمُتَّقِي هُوَ الإنسان الصالح الذي يتقي حدوث الغضب الإلهي، ويعمل على طريقة الحذر من الوقوع فيما يخالف التشريعات القرآنية، فيحمي بذلك نَفْسَهُ، كما يحمي

المجتمعاتِ ويبنيها، ولا يمكن أن يوجد إلا بهذين الأمرين: ترك ما لا ينبغي، وفعل ما ينبغي، والصفات السبع تحقّق ذلك؛ إذ المتقي هو:

١) المؤمن بالفكر الحقّ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهذا فعل القلب.

٢) الفاعل لِأجمل الأفعال الحسنة الفردية بإقام الصلاة، وهذا فعل جسدي.

٣) الذي يلتزم بأفضل الأفعال الحسنة الجماعية بالنفقة مما رزقه الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، وهذا فعل مالي.

٤) الذي يُظْهِر عبوديتَه لله بالإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ وبذا يكون عبدًا صادقًا لله تعالى، وينشر المحبة بدلاً من أن يتَّبع هواه فيؤمن ببعض ويكفر ببعض.

٥) ويفعل بقية الأفعال الجميلة، ويترك الأفعال القبيحة لأنه يؤمن بالآخرة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فالإيمان بالغيب يعني أن يشعر المؤمن بالمراقبة الغيبية له من الله تعالى وملائكته، فيكفَّ عن المحارم، وبذلك يحقق الإنجازاتِ الحقيقيةَ، فيتقي الخسارة ويحقّق الفلاح.

ويشير الفراهي – بما فتحه الله عليه في تدبُّر هذه الآيات- إلى أن الله ﷻ بدأ السورة بالأساس، ويتكَّون الأساس من: الهدى والتقوى، ومزجهما حسبما مزجهما في الفطرة، وجمع بهما جانبي العلم والعقل، ثم بعد ذلك ذكر الفرع على الترتيب فذكر الإيمان بالغيب رعاية لجانب العلم والنظر، ثم ذكر الصلاة والإنفاق رعاية لجانب العمل، وبتقديم الصلاة على الإنفاق دلَّ على كونها أولَّ الأعمال وأوسعَها وجوبًا، وفي كون الصلاة محضًا بين العبد والرب تعالى، وكون الإنفاق بين العبد والعبد أيضًا دليلٌ على تقدُّمِها وهذا العملان رأس الشرائع كلها[١].

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٢٤).

الصنف الثاني: الكفار المعاندون المتطرِّفون، وهم صنفٌ بشريٌ خطيرٌيهدِّد البشرية بسبب عناده وتحجُّره، وإغلاقه منافذ المعرفة والتواصل، فهو لا يريد إبصار الحق، ويعمل على محاربة الخير الذي جاء به القرآن [البقرة: ٦-٧]

الآيات المتعلقة بهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

المناسبة والاتصال:

العلاقة بين هاتين الآيتين وما سبقهما: التقابل:

فلما ذكر الله ﷻ المتقين وهم المؤمنون الصرحاء حقًّا المنتفعون بالقرآن الذين يقومون بنشر الكتاب الذي لا ريب فيه، ذكر من يقابلهم، وهم فئتان:

الفئة الأولى: الكفار المعاندون، وهم فئةٌ خاصة من الكفار يعملون على محاربة الكتاب الذي لا ريب فيه؛ ولا يبالون بإنذاره: إنهم الكفار المتطرِّفون؛ إذ يوجد من الكفار من لا يعاند بل يستمع للخير، ويرجع إلى ما يقتضيه العقل، وينقاد للحقِّ، ويوجد منهم المحايد، الذي يصرُّ على كفره لكنه لا يعارض الحق، ولا يهتمُّ له، ولا يحاربه فذكر الله ﷻ هنا أخطرَ الأصناف وأشدَّها على العالم البشري، "وهم العتاة المَرَدة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يُجْدِي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته"(١).

الفئة الثانية: الكفار المنافقون: وهم الكفرة الخبثاء المراوغون.

---

(١) الكشاف (١/ ٤٦).

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الفئة الثانية:

الصنف الثاني: الكفار المعاندون المتطرِّفون

الصفة الأولى

تغطية الحقِ

والحقائق عن أنفسهم وعن غيرهم لئلا يروها أو يراها العالم حولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 6]

الصفة الثانية

العناد والتعصب

وعدم المبالاة بسماع ما ينفع: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]

الصفة الثالثة

صفة إغلاق أدوات المعرفة الأساسية

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[البقرة: 7]

الصفة الرابعة

وهي صفةٌ أخروية مآليةٌ جسدية

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:7]

مفصل سورة البقرة (1)

وترى تناسب ذلك مع آخر الفاتحة، فقد ذكر الله ﷻ المُنْعَم عليهم هنالك إجمالاً، وفصَّل أحوالهم هنا عند الكلام عن المتقين، ثم ذكر المغضوب عليهم وذكر الضالين، وفصَّل هنا نوعين يأخذان بحظِّهما من الغضب والضلالة، وهم الكفار المحاربون، والمنافقون.

وقد تسأل: فمن الكفار المحاربون؟ كيف نعرفهم؟

الجواب: يبين الله ﷻ في هاتين الآيتين أن لهم أربع صفاتٍ أساسية: صفتان أساسيتان حاليتان وصفتان مآليتان:

الصفة الأولى: تغطية الحقِّ والحقائق عن أنفسهم وعن غيرهم لئلا يروها أو يراها العالم حولهم.

ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فهم يغطون أعظم حقائق الوجود، وهي حقيقة الإيمان بالله تعالى:

بصيرة: **التصنيف الأولي للعالم ينبغي أن يكون بالنظر إلى الإيمان وعدمه، ويبصِّرنا بذلك أن الكلام عن الذين كفروا جاء مستأنفًا، ولم يأت ذكرهم بواو العطف، ثم عطف عليهم الكلام عن المنافقين.**

ربما تتساءل: فأول ما يلفت نظرك في ذكر هذا الصِّنف أن الله ﷻ قطع قِصَّتهم عن قِصَّة المؤمنين، ولم يعطف بينهما كنحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فلم يقل: هدى للمتقين... وإن الذين كفروا سواء عليهم، وإنما أتى بكلمة ﴿إن﴾ في بداية الآية دون حرف العطف، فلماذا؟

الجواب: حاول الزمخشري ﵀ في تدبُّره الماتع أن يبيِّن سبب ذلك فأسَّس للنظر في الآيات، وقد ظهر لي وَفْقًا لرؤية التقسيم العالمي للناس في اهتدائهم بالكتاب التي انتهجناها في فَهْم هذه الآيات؛ أن الحديث هنا يتمحور حول الاهتداء بالكتاب، والفلاح بنشر أنواره،

وبين محاربته في المقابل، وبذا فالأسلوب استحقَّ الاستئناف، فكأن الله ﷻ قال: أصناف العالم بالنسبة لجعل الكتاب هدى اثنان:

الصِّنف الأول: المتقون الذين جعلوا الكتاب هدى لأنفسهم وللناس.

والصِّنف الثاني: المحاربون هدى الكتاب، وهم فئتان: الكفار الصرحاء المعاندون، والمنافقون المخادعون، ومن هنا نعلم لماذا أتى بواو العطف عند الكلام عن الفئة الكافرة الثالثة، فقال بعد ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٨]، فلم يقل: إن من الناس من يقول.. بل عطف بالواو؛ لأن هذا الصِّنف الثالث نوع ثانٍ رديف للصِّنف الثاني (الكفار المعاندين المتطرفين).

وتقدير الاستئناف: قد عرفنا حال الذين جعلوا الكتاب هدى لهم وللناس، فما حال من ضَادَّ هذا الصنف، فجاء الجواب: ﴿إن الذين كفروا...﴾، فأدركنا فائدة الابتداء بكلمة ﴿إن﴾ دون واو العطف.

بصيرة: ﴿إِنَّ﴾ حرف يصوِّر لك التأكيد للمؤمنين المشفقين الغافلين بأن الصِّنف المتطرِّف من الكافرين لن يلتفت إلى إنذارهم المشفق عليهم، ويبصِّرنا تأكيدُ حقيقةِ المعاندين بالحرف ﴿إِنَّ﴾ هنا بضرورة معرفة النَّفْسيات الإنسانية التي تتقبل الحقَّ وتنقاد له وتُسَلِّم بالإيمان وتهتدي به، من النَّفْسيات التي تحارب الحقَّ وتعانده، وتغطِّي الإيمان وتعرض عنه....فأكَّد هذه الحقيقة بـ﴿إِنَّ﴾ إِذَ كَانَ الْخَبَرُ بِأَمْرٍ قد يستبعده السامع.

وقد تسأل: ما الصورة البيانية العظيمة التي يقدمها لنا الحرف ﴿إن﴾ ؟ كان يمكن القول: الذين كفروا سواء عليهم... فهل وجود ﴿إن﴾ أضاف معنى؟

الجواب: أضاف الحرف ﴿إِنَّ﴾ معنى جديدًا قويًّا للجملة، وصوَّر لك الأحداث كما ينبغي أن تراها؛ فإن معناها الأصلي: الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

ولكننا نرى بعض المؤمنين الصالحين يُصرُّون على إفناء جهودهم في العمل على تقريب الكفار المتطرِّفين عساهم يؤمنون، أو يكونون منصفين للمؤمنين، مناصرين لهم، هنا ندرك الوظيفة التصويرية للحرف ﴿إِنَّ﴾.

لما أدخلت ﴿إِنَّ﴾ على الجملة أورثنا ذلك التأكيدَ للمتردِّدين المشفقين، والتنبه للغافلين، فكأنه يقول:

أيها المتردِّد المشفق الذي يبذل جهودًا عظيمة لإنذار المتطرفين من الكافرين اعلم أنهم لا يؤمنون مهما حاولت.

أيها الغافل عن حقيقة نفوس الناس: اعلم أن الصِّنف المتطرِّف من الكفار سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

بصيرة دعوية: النذارة لا تؤثر في النفوس الجاحدة المعاندة:

كلُّ ذلك لتبذل جهودك في ميادين أخرى، ولا تتعلَّق بما لا يكون، وهو أنهم قد يلينون للحقِّ حينًا من الدهر.

كلُّ هذا بصَّرنا به حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، وهنا توقن أن الحرف في القرآن لم يوضع إلا في مكانه ولبَيِّنةٍ عظيمة، وحكمة بالغة.

فكأنَّ النفوس المؤمنة المحبَّة للخير في العالم عندما تتحاور مع هذا الصنف المعاند المستكبر تَأْمَلُ فيه خيرًا، وربما تصدِّق مراوغاته، وأراد الله ﷻ أن يؤكِّد لهم سواد هذه الفئة لئلا تضيع الجهود والطاقات والأوقات معها، فالتصدير بـ﴿إِنَّ﴾ من أسبابه التأكيد على إرشاد الدعاة ألا يجعلوا حُبَّهم لهداية الخلق يعميهم عن حقيقة وجود المعاندين.

إن الحقَّ جلَّ مجدُه هنا يجذبنا من أن نسبح وراء خيال حسن الظن بهذا الصِّنف المعاند المستكبر الصادِّ، ويعيدنا إلى مربع الواقع كما هو على حقيقته، فلا نتطلَّب في النار شربة ماء ولا نتأمَّل في سحابة صيف وابلًا من مطر.

فانظر إلى الوصف القرآني المبين لتغطيتهم للحقِّ وعنادهم كيف ابتدأه بأداة التأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ ليصوِّر لك مقدار الإصرار المجرم لديهم.

ولا بأس بأن نستطرد في بيان مزية الكلام الفصيح على غيره، بأن نذكر أن ابن الأنباريِّ رحمه الله قال: ركبَ الكِنْديُّ المُتَفَلسِف إلى أبي العبَّاس وقال له: إني لأَجِدُ في كلامِ العَرب حَشْواً! فقال له أبو العباس: في أيِّ وَضْعٍ وجَدْتَ ذلك؟ فقال: أَجدُ العربَ يقولون: "عبدُ الله قائمٌ"، ثم يقولون "إنَّ عبدَ الله قائمٌ"، ثم يقولونَ: "إنَّ عبدَ اللهَ لقائمٌ"، فالألفاظُ متكرِّرةٌ والمعنى واحدٌ. فقال أبو العباس: بلِ المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه، وقولهم: "إن عبدَ الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ، وقولهم: "إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تكرَّرَت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني. قال فما أَحَارَ المتفلسِفُ جوابًا....

وعلَّق الجُرجاني رحمه الله على هذا فقال: "واعلمْ أنَّ ههنا دقائقَ لو أنَّ الكِنْديَّ استقرى، وتصفَّحَ، وتتبَّعَ مواقِعَ "إنَّ"، ثم ألْطَفَ النظرَ، وأكثرَ التدبُّرَ، لعَلِمَ عِلْمَ ضرورةٍ أنْ ليس سواء دخولها وأن لا تدخل"(١).

وهذا مثل يصوِّر لك أهمية الحرف ﴿إِنَّ﴾.

هل تريد توضيحًا أقوى؟

---

(١) دلائل الإعجاز، ت شاكر (١/ ٣١٥).

الجواب: دعني أُزَيِّن لك الدليل الذي أقامه عَبْدُ القاهِرِ الجرجاني على صِحَّةِ قَوْلِهِ[1]، ففي قَوْله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكَهْف: ٨٣، ٨٤] لم يقل: (نحن مكنا)، وكذلك قال ربُّنا ﷻ في أوَّلِ سُورَةِ الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكَهْف: ١٣] لم يقل: هم فتية، وهذا يدل على أن الكلام سِيق للجواب عن سؤال السائل طلبًا لتأكيد الخبر، أو لتنبيه الغافل، أو للتوكيد للمتساهل، ولِذَلِكَ تَراها تَزْدادُ حُسْنًا إذا كانَ الخَبَرُ بِأمْرٍ يَبْعُدُ مِثْلُهُ، كَقَوْلِ أبِي نُواسٍ:

فَعَلَيْكَ بِاليَأْسِ مِنَ النّاسِ ... إنَّ غِنى نَفْسِكَ في الياسِ[2]

فأكَّد قوله: "غنى النفس في اليأس" لأنه يريد أن يؤكِّد لك حقيقة أن الناس مهما كان بينك وبينهم من العلائق والروابط ستتقطع حبالهم بك إن لم يصلها الله ﷻ لك، فاقصده ليسخرهم لك.

فإن سألت: لماذا اختار الله ﷻ كلمة ﴿كفروا﴾ ليحدثنا عن الصنف المعاند للقرآن الكريم؟

أجيبك بأن: ﴿كفروا﴾ مشتقة من (الكفر) بمعنى ستر الشيء وتغطيته تغطية تامة، فالكافُور من الكَرْم: الوَرَق المغطِّي لما في جوفه من العنقود، وكِمُّ العنب قبل أن يُنوِّر، ووعاءُ طَلْع النخل، كالكَفَر - محركة، والكَفْر: بالفتح: ظُلْمةُ الليل وسوادُه، والزارع يكفُرُ البذرَ المبذور بتراب الأرض، إذا أَمرَّ عليها مالَقَه أي الزَّحَّافة، ويقال للزارع: كافر، لأنه يغطِّي الحَبَّ بتراب الأرض، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]، وكَفَر الرجلُ متاعَه: أَوْعاه

---

(١) دلائل الإعجاز (١/ ٣٢٤ - ٣٢٦).

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب (٧/ ٨٢).

في وعاء، والمكَفِّرُ: الرجل المتغطِّي بسلاحه، وكَفَر الليلُ الشيءَ: غطَّاه بسواده، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سَتَر شيئًا فقد كَفَره(١).

ووُصِفَ الليل بالكافر لستره الأشخاص، وَقد فُسِّر بهما قولُ ثَعلَبَة بن صُعَيرٍ المازنيُّ يصفَ الظَّليم والنَّعامةَ ورَواحَهُما إِلَى بَيضهما عِنْد غرُوب الشَّمْس:

فَتَذَكَّرا ثَقَلاً رَثِيدًا بَعدَما ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمينَها فِي كافِرِ(٢)

وذُكاءُ: اسمٌ للشمس، وأَلْقَتْ يمينَها فِي كَافِرٍ، أَي بدأَتْ فِي المَغيب، فيحْتَمل أَن يكون أَرَادَ اللَّيْل، ويحتمل أنه عَنَى بِهِ البحْرَ،

والكفَّارات سميت كفَّارات، لأنها تُكَفِّر الذنوب أي تسترُها، مثل كفَّارة الأيمان، وكفَّارة الظِّهار، إلا أنه **يظهر لي الفرق بين كفَّر، وكفَر، فالتخفيف معناه: التغطية والسَّتر.**

والتكفير بالتضعيف قد يكون بمعنى السَّتر والتغطية المضاعفة التي تعني السَّترَ والمَحْوَ معًا، وذلك يعني التطهير.

وقد يكون بمعنى السلب والإزالة؛ فالتضعيف يغيِّر المعنى ويَقْلِبُه، ومن أمثلة ذلك: مرَّض: أى أزال المرض، وتهجَّد: أى ترك الهُجُود، وتحنَّث أى ترك الحِنْثَ وهو الإثم وهكذا(٣)، فالتكفير من الكفَّارة أي أزال الكفر، والمقصود أزال الذنوب التي ليست من خصال المسلمين، وليس بالضرورة أن تكون كفرًا في ذاتها.

---

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٩٠٧).

(٢) الإبانة في اللغة العربية (٣/ ١٠٦).

(٣) تاج العروس مادة كفر ١٤/ ٦.

هنا تعلم لماذا اختار الله ﷻ وصف هؤلاء بالكفر لأن ذلك يعني فَضْحَ حقيقتِهم حيث ستروا أعظمَ الحقائق في الدنيا، وهي حقيقة الألوهية وحقيقة النبوة، وحقائق الإسلام العظمى الأخرى.

بصيرة: في وصف هذا الفريق بـ (الذين كفروا) تسمية للأشياء بأسمائها دون مواربة؛ إذ الوضوح والتمايز مطلبٌ ومقصودٌ، وأدعى للمكاشفة مع الذات ومع الآخر، ويتأكد مثل هذا في عصرنا الذي تسعى فيه جهات للتمويه والمغالطة والوصول بالمسلم إلى ضبابية التصور والموقف من الحدود الفاصلة بين ملة الإسلام والملل الكفرية الأخرى.

فإن قلت: قد عرفنا معنى الكفر لغة، لكن ما تعريفه فيما نفهمه من سياق ذكره في القرآن؟

الجواب: قد أبان لنا قوله ﷻ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن الكفر هو تغطية الحقيقة الواضحة المتعلِّقة بالإيمان، وحاول الرازي ﵀ استلهام ذلك، فذكر أن مَن لم يؤمن بالمعلوم من الدِّين بالضرورة فهو الكافر، والمعلوم من الدين بالضرورة مثل:أن محمدًا هو الرسول الخاتم عَلَيْهِ الصلاة والسَّلامُ، فمَن لَمْ يُصَدِّقْهُ في ذَلِكَ، فَإمّا بِأنْ لا يُصَدِّقَهُ في جميع ما جاء به، أوْ بِأنْ لا يُصَدِّقَهُ في بَعْضِ ما جاء به، فَذَلِكَ هو الكافِرُ على الحالين.

ومثل: إنكار وجود الله ﷻ، فهذا كفر.

ومثل: إنكار كَوْنِهُ ﷻ عالِمًا قادِرًا مُخْتارًا، أوْ كونه واحِدًا.

أوْ مثل إنكار كونِه مُنَزَّهًا عَنِ النَّقائِصِ والآفاتِ.

أوْ مثل إنكار صِحَّة القُرْآنِ الكَرِيمِ.

أوْ أنْكَرَ الشَّرائِعَ الَّتِي عَلِمْنا بِالضَّرُورَةِ كَوْنَها مِن دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَوُجُوبِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوْمِ والحَجِّ وحُرْمَةِ الرِّبا والخَمْرِ، فَذَلِكَ يَكُونُ كافِرًا؛ لِأنَّهُ تَرَكَ تَصْدِيقَ الرَّسُولِ فِيما عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ أنَّهُ مِن دِينِهِ.

ومن ذلك أن يعلم أن الدِّين الذي ارتضاه الله ﷻ للعالمين هو الإسلام.

فَأمّا المسائل التي لم تعرف بالضرورة، وإنما عُرِفَت بِالدَّلِيلِ، فلا يكون إنْكارُها ولا الإقْرارُ بِها داخِلًا في ماهِيَّةِ الإيمانِ فَلا يكفر مُنْكِرِها[1].

أنواع الكفر:

نقل أبو منصور الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) أن الكفر على أربعة أنحاء، ويمكن تهذيب عبارته وضمها لما قرَّره غيره[2] لتكون أنواع الكفر على النحو الآتي:

النوع الأول: كُفْرُ إنكارٍ، بِأَن لَا يَعْرِفَ اللهَ تعالى أَصلاً وَلَا يعْتَرف بِهِ، فيكفُرَ بِقَلْبِه ولِسانِه، وَلَا يعرف مَا يُذْكَر لله من التَّوحيد.

النوع الثاني: كُفرُ جُحود، بِأَن يعترفَ بِقَلْبِه وَلَا يُقِرَّ بِلِسَانِهِ، ولا يخضعَ بجوارحه فَهَذَا كافرٌ جاحدٌ، ككُفْرِ إبليسَ، وكُفْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْت.

النوع الثالث: كُفرُ نفاقٍ بأن يُقرَّ بِلِسَانِهِ وَيكفرَ بقلبِه، كما فعل ابن أبي بن سلول ومن معه.

النوع الرابع: كُفرُ مُعانَدَةٍ بأَن يعرفَ اللهَ بِقَلْبِه ويقرَّ بِلِسَانِهِ بأن الإسلام حقٌّ، وَلَا يدين بِهِ فلا ينقاد له إما حَسدًا وبَغيًا، ككُفر أبي جَهلٍ وأَضرابه، أو يأبى أَنْ يَقْبَلَ الانقياد لمصالح محددة في ذهنه، كأَبي طَالب، حَيْثُ يَقُول[3]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خيرِ أَديان البَرِيَّة دِينا
لَوْلَا المَلامَةُ أَو حذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحًا بذاكَ مُبينا

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٨٢).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١٠، ١١١).

(٣) الأبيات في لسان العرب (٥/ ١٤٤).

ويدخل في هذا النوع مَنْ مَرِضَتْ نَفْسُهُ وَاعْتَلَّ وِجْدَانُهُ فَلَا يَذُوقُ لِلْحَقِّ لَذَّةً، وَلَا تَجِدُ نَفْسُهُ فِيهِ رَغْبَةً، بَلِ انْصَرَفَ عَنْهُ إِلَى هُمُومٍ أُخَرَ مَلَكَتْ قَلْبَهُ وَأَسَرَتْ فُؤَادَهُ، كَالْهُمُومِ الَّتِي غَلَبَتْ أَغْلَبَ النَّاسِ الْيَوْمَ عَلَى دِينِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، كشهوات النساء، أو الرئاسة، أو المحرمات الدنيوية، ومن أشهر قصص المتقدِّمين قِصَّة أَعْشَى قيس لما خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام، فقال يمدح النبي ﷺ[١]:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا ... تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ صُحْبَةَ مَهْدَدَا
أَلَا أَيُّهَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّمَتْ ... فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
فَإِنْ تَسْأَلِي عَنِّي فَيَا رُبَّ سَائِلٍ ... حَفِيٍّ عَنْ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا
وَآلَيْتُ لَا آوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِنْ حَفًى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدَا
نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

فاعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليُسْلِم، فقال له: يا أبا بَصير إنه يحرم الزنا. فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أَرَبٍ. فقال: يا أبا بصير إنه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في نفسي منها العَلَالات[٢]، ولكني منصرف فأَتَرَوَّى منها عامي هذا، ثم آتيه فأُسلم. فانصرف، فمات في عامه ذلك. قال ابن كثير: وقوله: ثم آتيه فأُسلم. لا يخرجه عن كفره، بلا خلاف[٣].

---

(١)الأبيات في ديوانه (ص١٨٥-١٨٧)

(٢) العَلُّ، والعَلَلُ مُحرّكةً: الشَّرْبَةُ الثانيةُ، أَو الشُّربُ بعد الشُّربِ تِباعًا. تاج العروس (٣٠/ ٤٤).

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٨٠).

النوع الخامس: ذكره السيد رشيد رضا رحمه الله، وهو مَنْ لَا يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَهُ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال٢٢-٢٣]، فَهَؤُلَاءِ كُلَّمَا صَاحَ بِهِمْ صَائِحُ الْحَقِّ فَزِعُوا وَنَفَرُوا، وَأَعْرَضُوا وَاسْتَكْبَرُوا، فَفِي أَنْفُسِهِمْ شُعُورٌ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّهُمْ يَجِدُونَ فِيهَا زَلْزَلَةً، كُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ شُعَاعُهُ يَحْجُبُونَهُ عَنْ أَعْيُنِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوا أَنْظَارَهُمْ فِي فَهْمِ الْحَقِّ، وَيَخَافُونَ لَوِ اسْتَعْمَلُوهَا أَنْ يَنْقُصَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا يَظُنُّونَهُ خَيْرًا، وَيَتَوَهَّمُونَهُ مَعْقُودًا بِعَقَائِدِهِمُ الَّتِي وَجَدُوا عَلَيْهَا آبَاءَهُمْ وَسَادَاتِهِمْ[١].

ومما يوضِّح هذا المعنى من قصص المشهورين بإيثار المُلك على الإيمان قِصة هِرْقل، قال هِرْقل وهو يسائل أبا سفيان رضي الله عنه: «فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ»[٢]، ولكن كلامه هذا لا يعني أنه آمن، فقد ورد أنه كتب من تبوك إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إني مسلم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**كذب عدوُّ الله، ليس بمسلم، وهو على النصرانية**»[٣].

النوع السادس: كفر النِّعمة، وهو المعروف بقولهم كفر دون كفر، وهو كفر النعمة أو الوقوع في الذنوب الكبيرة التي لا يخرج الوقوع فيها من الملة، ومنه قول ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: «إنه ليس بالكفرِ الذي يَذهبون إليه، إنه ليس كفرًا يَنقلُ عن الملّةِ، كفرٌ دونَ كفرٌ»[٤]، وروى سفيان

(١) تفسير المنار (١/ ١١٩).

(٢) البخاري (٧).

(٣) ابن حبان (٤٥٠٤) وصححه الأرناؤوط، والألباني.

(٤) الحاكم (٣٢١٩) وصححه، وقال الذهبي: صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٥٢) على شرط الشيخين.

عَنْ عَطَاءٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ، وظلم دون ظلم»(١)، ومن ذلك ما جاء في حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كُفْرٌ بكم**»(٢)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»(٣).

ولكنك ربما تساءلت: ما الذي يقابل الكفر؟

الجواب: يقابل الكفر معنيان عظيمان (الإيمان، والشكر) فأما الكفر الأكبر، فيقابله (الإيمان والشكر معًا)، وأما الكفر الأصغر فيقابله (الشكر)، فالشكر إظهار النعمة، وإبانة الحقيقة أمام الآخرين كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل ٤٠].

وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة ١٥٢] قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "أي لا تكفروا نعمتي وَأَيَادِيَّ، فالكفر هنا ستر النعمة، لا التكذيب"(٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، أي: لم تشكر نعم الله عَزَّ وَجَلَّ.

فيا ترى أي أصناف الكفار يعني في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]؟

---

(١) تفسير سفيان الثوري (ص: ١٠١)، وأخرجه الطبري (١٠/ ٣٥٥) بسنده إلى سفيان أيضًا، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٥٢).

(٢) البخاري (٦٨٣٠).

(٣) مسلم (٦٧).

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ١٧٢).

وأجيبك بأن: الكلام في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] عن الكفار المتطرفين الذين غطّوا الحقَّ الواضح، وعملوا على أن يستروه عن أعين أنفسهم وعن العالم، ولذلك أتى بصيغة الماضي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليدلَّ على تقدُّم فِعْلِهم مع استمراره، وليس مع زواله، ويدلُّ لذلك السياق كما ترى، فإن فيه قرائنَ تدلُّ على استمرارهم على الكفر، مثل قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ فهم ينذرون ليتركوا هذا التلاعب بالحقائق، وليقبلوا بها، فلا ينتفعون بالإنذار.

بصيرة: **من أهم الفوائد العملية لذكر الكفار المتطرفين: التبصير القرآني ببيان سبيل المجرمين، وكيفية التعامل السياسي والحيوي معهم: بالاحتراس منهم، وإعداد العُدَّة لمواجهتهم في الميادين المختلفة، مثل الميادين الإعلامية، حيث يظهر سِحْر الحجة والجدال، وكذلك ينبغي عدم الغلوِّ في التعامل معهم شِدَّة أو رخاوة.**

فذكر الله ﷻ الكفار المتطرفين لأجل أن تعرف الشرَّ، فتتقيه، وتعرف أهله، فتحذر منهم، وكذلك لتُعِدَّ العُدَّة لكيفية التعامل معهم سِلْمًا أو حَرْبًا حسب ما يفعلونه، ومن أسباب ذكرهم ألا يغلوَ الإنسان في التعامل معهم بالشِّدَّة لأن الله ﷻ ذكرهم واصفًا لهم، ولم يأمر بمعاقبتهم، وألا يغلو في التراخي معهم حتى لا يظهر كالمغفَّل بينهم.

الصفة الثانية من صفات الكفار: العناد والتعصب، وعدم المبالاة بسماع ما ينفع:

ويبصرنا الله تعالى بهذه الصفة في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، **فتلقوا الإنذار المشفق بالعناد، بل كأنه معدوم في حياتهم، وهو ما يدلُّك عليه رفع (سواء) على أنه خبر (إن)، فيكون المعنى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَوٍ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ:**

ولكنك ربما تساءلت: ماذا تعني كلمة ﴿سواء﴾؟

الجواب: "سواء" تأتي بمعنى القصد والمنهج والعَدْل من سَاوَاهُ في القَدْر، فاعتدل طرفاه أو اعتدل هو مع الطرفين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ [الكهف: ٩٦].

وأصل "السواء" الوسط، ومكان سُوىً، وسَوَاءٌ: وسط، كما قال: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، وذكر عن عيسى بن عمر النحوي رحمه الله أنه قال:"ما زلت أكتب حتى انقطع سوائي"، يعني: وسطي. وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد(١)

ولعله أُطلق على الوسط السواء؛ لأنك إن سلكته لم تكن قريبًا من أحد الطرفين، بل تأخذ مكانًا معتدلًا مستقيمًا، لا يخاف عليك مقاربة حدود الطرفين والانحراف منهما إلى مكان سحيق، ومنه قولك: "هما عِندي سَواءٌ"، أي هما متعادلان عندي، ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات:

تُغِذُّ بيَ الشّهبَاءُ نَحوَ ابن جَعْفرٍ سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا ونَهَارُهَا(٢)

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٦)، والبيت في ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (ص: ٦٦).

(٢) العقد الفريد (٧/ ٢٨)، ومعنى (تغذ): تسرع.

يعني بذلك: معتدلٌ عندها في السير الليلُ والنهارُ، لأنه لا فُتُورَ فيه

ولعلك تسأل: فما معنى ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؟

أجيبك: بعد أن بيَّن الله ﷻ لنبيه ﷺ ولكلِّ داعية أن هذا الصِّنف المتطرف من الكفار لا يؤمن لشِدَّة عنادهم، بيَّن لنا أن وسيلة الإنذار بأعظم الكلام وأقواه في الأرض.. لا تفيد معهم، فقال الله ﷻ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦]، والمعنى سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُ إِنْذَارِكَ لَهُمْ، وعبَّر عن فاعل ﴿سَوَآءٌ﴾ بالفعل: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ دون أن يقول: (سواء عليهم إنذارك)؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا قَدْ بَلَغُوا فِي الْإِصْرَارِ وَاللَّجَاجِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ إِلَى حَالَةٍ مَا بَقِيَ فِيهِمُ الْبَتَّةَ رَجَاءُ الْقَبُولِ بِوَجْهٍ(١).

فكلمة ﴿سَوَآءٌ﴾ يمكن أن تكون خبرًا لـ(إنَّ)، ويمكن أن تجعلها خبرًا مبتدؤه ما بعده، وهو أحسن، فخبر (إنَّ) هو جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وكلمة ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مبتدؤه ما بعده، والتقدير: إنذارك وعدم إنذارك سواء عليهم، ورجَّح الإمام الرازي رحمه الله هذا المعنى الواضح الجميل، فالله ﷻ يريد أن يصف لنا الإنْذار وعَدَم الإنْذارِ بِالِاسْتِواءِ، ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ٢١]، أي: أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات محياهم ومماتهم سواء(٢).

وقد تسأل: لماذا عبَّر عن كفرهم بالفعل الماضي (كفروا)، وعبَّر عن عدم إيمانهم بالفعل المضارع: ﴿لا يؤمنون﴾ مع أن المعنيين (الكفر وعدم الإيمان) سواء في ظاهر الأمر؟

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٨٥).

(٢) ومن العجيب تشدد الكوفيين هنا، ومنعهم لهذا الإعراب متمسكين بما لا يتمسك به، وتجويز البصريين له، وفي مقدمتهم سيبويه.

الجواب: لأنهم اتخذوا قرار الكفر أول ما سمعوا النذير، وهو قرار راسخ عندهم ثابت لا يتغير، فالفعل الماضي هنا يدلُّ على الرُّسوخ لا على الانتهاء، وهذا التعبير يذكِّرك بوصف الله ﷻ في مقابل ذلك بأنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فإن لفظ الماضي هنا يدلُّ على الرُّسوخ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٤]، فـ(كان) تفيد أن الصلاة مفروضة منذ أن نزل فرضها، وفرضُها مستمرٌّ إلى يوم القيامة.

أما المضارع فيدلُّ على أن النذير كلما أنذرهم، أو كلما تذكروه أصروا على تجديد عدم الإيمان في كلِّ مرَّة.

فالمضارع يدلُّ على الحال والاستقبال، وهو ينبئك بالجهد العظيم الذي كان يقوم به النبي ﷺ، وكذلك ينبغي أن يكون كلُّ وارثٍ دعوته.. يدعوهم إلى الله ﷻ.. يدعوهم إلى الخير، فلا يلتفتون، ولا يأبهون، ولا يؤمنون.

وبعد أن عرفت معنى (سواء) يجدر بك أن تعرف هل الهمزة في قوله ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ للسؤال أو لا؟

الجواب: ليست الهمزة للسؤال، فقد ذكر الزمخشري ؒ أنها و(أم) مجرَّدتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى السؤال رأسًا[1]. قال سيبويه: ؒجرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهمَّ اغفر لنا أيها القوم[2]، فخرج عن ظاهر النداء، كذلك جرت الهمزة على صورة الاستفهام ولا استفهام.

(١) الكشاف (١/ ٤٧).

(٢) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٧١).

فربما تساءلت: فما جمال القراءات الواردة في قوله ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ ؟ وهل تفيدنا تصويرًا معنويًّا؟

الجواب: نعم! فإنها تشعر بإيقاع معنويٍّ كبير بناء على التغيُّر الصوتي الذي طرأ على الهمزتين المجتمعتين، وحتى تتضح المشاهد المتعدِّدة تعال ننظر في القراءات الواردة في هذه الكلمة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾[١]:

المشهد الأول: تُظهره قراءة قالون وأبي عمرو وأبي جعفر وهشام بخلفه: بتسهيل الهمزة الثانية منهما بين الهمزة والألف، مع إدخال ألف بينهما، وهنا تشعر بامتداد صوتي تلا الهمزة الأولى ثم اقترن بالوهن في نطق الهمزة الثانية تسهيلًا على الذي يتلو القرآن أو على من يتكلَّم، فيَظهر بهذا الصوتِ تألُّمُه على هؤلاء المعاندين، ويمكن أن نقول إن التسهيل هنا مشعر بالتساهل في معاودة إنذارهم مرة بعد مرة، لعدم إفادته.

المشهد الثاني: قرأ ورش من طريق الأصبهاني والأزرق في أحد وجهيه، وابن كثير ورويس بالتسهيل من غير إدخال ألف، وهو مثل الأول إلا أن التألُّمَ الذي يظهر على التالي أقل من سابقه.

المشهد الثالث: قرأ ورش من طريق الأزرق في الوجه الثاني: بإبدال الهمزة الثانية ألفًا خالصة مع المد المشبع للساكنين، وهنا ترى التألُّمَ أو التنبيه يظهر على التالي بالغًا مبلغه بسبب إعراض هؤلاء الأشقياء عن النظر في مصلحة أنفسهم، وفي الوقت ذاته يفيدك هذا الاطمئنان بحكم الله ﷻ.

فإن قلت: قد أنكر الزمخشري ؒ هذا الوجه العربي الفصيح.. فما حجته غفر الله ﷻ له؟

---

(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر (ص ٦٤).

الجواب: زعم الزمخشري رحمه الله أن قارئه لاحن خارج عن كلام العرب خروجين: **أحدهما** الإقدام على جمع الساكنين على غير حدِّه- وحدُّه أن يكون الأوَّل حرف لِين والثاني حرفًا مدغمًا نحو قوله: الضالين[1].

والثاني: إخطاء طريق التخفيف لأن طريق تخفيف الهمزة المتحرِّكة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين، فأما القلب ألفًا فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس.

وهذه مشكلة مزمنة عند هذا العالم العلم الجهبذ عفا الله ﷻ عنه: هو يظن القراءات المتناقلة المتلقاة اجتهادًا صوتيًّا في العربية، وليست نقلًا ثابتًا ثبوته أقوى من الثبوت الحديثي غالبًا، فالأصل أنها حجة في ذاتها يُحتج بها ولا يحتج لها ولا عليها، ولكن المرء عدو ما جهل، وقد قسى أبو حيان ﷻ في الردِّ عليه فذكر بأن عادة هَذا الرَّجُلِ إساءَةُ الأدَبِ عَلى أهْلِ الأداءِ ونَقَلَةِ القُرْآنِ[2]، والذي يظهر أن الزمخشري ﷻ واسع العَطَن من علم العربية قصير الباع في تلقي القراءات القرآنية، فعادى ما جهله، وما أكثر هذه الخصلة المؤلمة في بعض أهل العلم، يتسع علمه في أشياء، ويضيق في شيء، فإذا به يجعل نفسه حاكمًا على ما لا يعلمه، وكم جرَّ ذلك من بغي على الدين وأُخُوَّة المؤمنين، وتبجيل العلماء العاملين الراسخين.

المشهد الرابع: قرأ هشام في الوجه الثاني والباقون وهم: ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ورَوْح، بهمزتين محققتين، وفيها ترى الانطلاقة الواثقة بحكم الله ﷻ عليهم، تطمئنك بحقيقة حال هؤلاء المتطرفين، فلا تجزع من إعراضهم.

المشهد الخامس: قرأ هشام في الوجه الثالث بالتحقيق، وإدخال ألف بين الهمزتين: وفيها تمتد الثقة والاطمئنان لتأخذ مداها.

---

(١) الكشاف (١/ ٤٨).

(٢) البحر المحيط (١/ ٧٩).

والآن ماذا يكون المعنى الإجمالي للآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؟

الجواب: ستعرفه بتمامه عندما تعرف موقع كلمة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وقد ذكروا له موقعين يبينان معنيين:

الأول: أن يكون جملة مؤكِّدة للجملة قبلها، وتقدير الكلام: إن الذين كفروا سواء عليهم إنذارك لهم أم عدم إنذارهم، ثم يسكت القارئ ثم يقول: لا يؤمنون، فقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تؤكِّد ما قبلها. والمعنى: أنهم لا يستفيدون شيئًا من هذا الإنذار، لأنهم يأبون الانتفاع به.

الثاني: أن يكون خبرًا لـ(إنّ)، والجملة قبلها اعتراض ينبئك بتفصيل التعامل معهم، وهذا المعنى هو الذي أميل إليه، فيكون المعنى الإجمالي للآية: إن الذين كفروا لا يؤمنون سواء عليهم إنذارك لهم وعدم إنذارك.

فهذا الصِّنف المتطرِّف الذي اتخذ قرار الكفر قبل أن يسمع ما عندك لا يؤمنون مهما فعلت لهم.

ولكنك ربما تساءلت: لماذا جاء بالاعتراض بين اسم (إن) وخبرها؟

الجواب: لأنه يريد أن يبين لنا واقع النبي ﷺ، فهو شديد الدأب في إنذارهم، عظيم الجهد في القيام عليهم عساهم يثوبون إلى رشدهم.

بصيرة: المقصود من هذه الآية نوع خاص من الكفار هم الكفار المتطرفون المعاندون، ويدخل فيهم الذين عندهم علم سابق بصحة النبوة الشريفة لكنهم يصرون على الباطل، فيعمهون، ويدخل فيهم الكفار المقلدون المحاربون.

كيف يمكن أن نفهم التخصيص ولفظ الآية عام فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]﴾ فاسم الموصول وصِلَته ﴿الذين كفروا﴾

يدلان على العموم، وكلمة ﴿لا يؤمنون﴾ جمع، فكيف نقول إن المراد بذلك صنف خاص هو الكفار المتطرفون؟

عد إلى الآية لتسمع الله ﷻ يقول فيها: ﷻ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ **فهل هذا يعني أن كل كافر لا ينفعه الإنذار؟**

الجواب: لا، بل كثير من الكفار ينفعهم الإنذار، والعموم في هذه الآية مخصوص أو أريد به الخصوص، نفهم ذلك من جهتين:

الجهة الأولى: التخصيص العُرْفي: إذ اعتاد الناس على أن يقولوا: الناس لا يفعلون كذا، وهم يعنون صنفًا خاصًّا منهم.

وهو ما يسميه علماء الأصول (العام المراد به الخصوص)، وقد ذهب كثير منهم إلى جواز ذلك ووروده في اللغة، بل وجد ذلك في كتاب الله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وعموم لفظ (الناس) يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين، والمراد بعضهم: (نعيم بن مسعود الثقفي في الأول، وأبو سفيان في الثاني)، ونحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] لم يدخل فيه الأطفال والمجانين، ومثله كثير في القرآن. وإطلاق اللفظ في مثله مجاز وليس بحقيقة عند الجمهور(١)؛ لأنه كُلِّيٌّ اُسْتُعْمِلَ فِي جُزْئِيٍّ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مَجَازًا لِنَقْلِ اللَّفْظِ عَنْ مَوْضُوعِهِ الأَصْلِيِّ، وَقَرِينَتُهُ عَقْلِيَّةٌ لا تَنْفَكُّ عَنْهُ(٢).

---

(١) انظر: الفصول في الأصول للجصاص الحنفي (١/ ١٣٧). وتقريب الوصول لابن جزي (ص١٥٩) والإبهاج شرح المنهاج (٢/ ١٣٢) والبحر المحيط للزركشي (٤/ ٣٣٦).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/ ١٦٦)، وجمع الجوامع مع حاشية المحلي (٢/ ٥).

قال الشوكاني رحمه الله: "ولا يخفاك أن العام الذي أريد الخصوص هو ما كان مصحوبًا بالقرينة عند التكلُّم به على إرادة المتكلِّم به بعضَ ما يتناوله بعمومه، وهذا لا شك في كونه مجازًا لا حقيقة؛ لأنه استعمال اللفظ في بعض ما وُضِعَ له سواء كان المراد منه أكثرَه أو أقلَّه، فإنه لا مدخل للتفرقة بما قيل من إرادة الأقلِّ في العام الذي أريد به الخصوص، وإرادة الأكثر في العامِّ المخصوص"(١).

وعلى هذا يكون المراد بالكفار في الآية صنفًا بعينه، وتكون القرينة التي صَرَفَتْ دلالةَ العام إلى ذلك، عدم نفع النذارة لهم أبدًا مع نفعها لآخرين قطعًا بدلالة العقل والشرع.

الجهة الثاني: النصوص المخصِّصة لهذا العموم (على اعتبار أنه من العموم المخصوص)، أو المبيِّنة له (على اعتبار أنه عامٌّ أريد به الخصوص):

منها تلك النصوص التي تبيِّن أن مِنَ الكافرين مَنْ نفعه الإنذار، وهذه النصوص قد بلغت الغاية في الكثرة، ومنها قول الله تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

الجهة الثالثة: التخصيص العقلي: وهو أنه لو لم يكن من الإنذار فائدة، ولا نفع لجميع المُنْذَرين، لَمَا بعث الرسل، ولكان إنزال الله تعالى لآدم إلى الأرض للاستخلاف عبثًا. وذلك محال.

---

(١) انظر إرشاد الفحول (١/ ٣٤٩) لتجد فيه: أن العام الذي أريد به الخصوص مجاز على كل تقدير، وأما العام المخصوص، فهو الذي لا تقوم قرينة عند تكلم المتكلم به على أنه أراد بعض أفراده، فيبقى متناولًا لأفراده على العموم، وهو عند هذا التناول حقيقة فإذا جاء المتكلم بما يدل على إخراج البعض منه، كان على الخلاف المتقدم هل هو حقيقة في الباقي أم مجاز؟

الجهة الرابعة: التخصيص الواقعي. **ألم يكن** المسلمون الذين على عهد رسول الله ﷺ قبل الإسلام كفارًا؟ ولكن نفعهم الإنذار، فالدليل الواقعي (قرينة الحال) يجعلك تفهم أن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهرها العموم، وحقيقتها الخصوص، فَهُمُ الصِّنف المتطرِّف الذي لا يبالي بالمعرفة، ويعرض عن سماع ما ينفعه من فوره، ويسدُّ كلَّ سبيل يمكن أن ينير عقله، ويرقي فهمه.

فالآية واضحة في تقرير معنى خطير جليل، وهو أن الراسخ في تغطية الحقائق، وتعمية الناس عن الحقِّ لا تنفعه نذارة، ولا يُيَسَّرُ له هدى، وعلى هذا، فهذه الآية ما نزلت إلا في صنف خاصٍّ من الكفار[1].

ويروي لنا الطبري رحمه الله أمثلة من هؤلاء المعاندين:

المثال الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما إذ يمثِّل لهم بكفار أهل الكتاب، فيقول: "إن الذين كفروا": أي بما أُنزِل إليك من ربِّك، وإن قالوا إنا قد آمنا بما قد جاءنا من قبلك، قال الطبري رحمه الله: "وكان ابن عباس رضي الله عنهما يرى أنَّ هذه الآية نزلتْ في اليهود الذين كانوا بنَواحي المدينةِ على عهد رسول الله ﷺ، توبيخًا لهم في جُحودهم نبوَّةَ محمد ﷺ وتكذيبِهم به، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنَّه رسولُ الله إليهم وإلى الناس كافَّة".

المثال الثاني: يروي الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما مثالاً آخر لهم يذكر فيهم المنافقين من الأوس والخزرج، فهذا تمثيل للمعاندين المتطرفين الذين لا يريدون سماع الإنذار، وليس حصرًا لهم فيهم[2].

---

(١) تفسير الطبري(١/ ٢٥٢).

(٢) وقد نظرت في هاتين الروايتين فوجدت المحقق إسلام منصور عبد الحميد يضعفهما، فلا نستطيع الجزم بصدورهما عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: تفسير الطبري، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٣١هـــ/ ٢٠١٠م، خرج أحاديثه وعلق عليها: إبراهيم منصور عبد الحميد (١/ ٢٠١).

المثال الثالث: روى الطبري ﵀ أيضًا عن ابن عباس ﵄ بسند ضعيف أنهم من كتبه الله ﷻ في الأزل سعيدًا وشقيًا.

المثال الرابع: القيادات المجرمة المصرة على محاربة القرآن، فروى الطبري ﵀ عن ابن عباس ﵄: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي أنهم قد كفروا بما عندهم من العِلْم بالذكر، وجحدوا ما أخِذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذارًا وتحذيرًا، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟[١]، ولكن الربيع بن أنس ﵀ يذهب إلى أن هذه الآية ألصق بقيادات الأحزاب المجتمعية المتحالفة ضدَّ الإسلام فيقول: آيتان في قادةِ الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧]، قال: وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وذكر أمثلتهم الشخصية فقال: فهم الذين قُتلوا يوم بدر فلم يدخل من القادة أحدٌ في الإسلام إلا رجلان: أبو سفيان بن حَرْب، والحَكَم بن أبي العاص[٢].

ويتعاون هؤلاء الكفار المتطرفون مع أصناف شتى، فمن أبرز من يتعاون معهم؟

إنك إن تأملت حال هؤلاء الكفار المتطرفين لن تجد جهودهم ودأبهم في الصدِّ عن الحقِّ وسبيلُه بمنأى عن جهود أصناف أخرى من المحادين لله ولدينه.

فإن قلت: ما أبرز الجهات والمعسكرات التي تقف رديفة متحالفة معهم في مسلكهم الخبيث؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٥٧).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٥٢).

الجواب: تعال بنا نتعرف على جملة من أبرز أمثلة هؤلاء المجرمين المعاندين المتعصبين: المعتدون من أحبار أهل الكتاب والفُسَّاق من علماء المسلمين، والفُجَّار من ذوي السلطة السياسية من الفريقين، فكلٌّ هؤلاء يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، لكنهم يأبون اتباعه.

وقد ذكر الله ﷻ فسادهم الخلقي المنشئ لفسادهم وإجرامهم العلمي في مواضع كثيرة منها في سورتي الكتابيين: البقرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وآل عمران: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وإنما ذكرهم الله تعالى في هاتين السورتين وفضحهم؛ لأنهم السبب في مآسي هذا العالم وعماه عن الحق الواضح البين.

وعندما تمعن النظر فيما رجَّحه الطبري ﵀ **يمكنك بيسر أن تعيد صياغته ليناسب سياق الآيات ودلالات** ألفاظها، فتقول: نزلت الآية في المعاندين لدعوة الخير التي جاء بها الصادق الأمين ﷺ، وثبت لنا أسماء بعض هؤلاء مثل قادة قريش الذين رموا في قليب بدر، ولكن كتابة أسمائهم في الأزل لا يعني عدم ثبوت الاختيار لهم كما هو معلوم في قضايا القدر، ويدخل فيهم كل معاندٍ محارب اتخذ أهل قليب بدر له قدوة، فقد كان من أبرز صفاتهم أنهم أصروا على قيادة الجموع وتحشيد الأحزاب لقتال دعوة الخير، وردمها في المدينة النبوية، فكان عاقبة سعيهم خسرًا.

أشد هؤلاء الأصناف خسارًا وأقبحهم منزلة:

قد ذكرنا فيمن ذكرنا من أصناف هؤلاء البؤساء (الفساق من علماء المسلمين)، ولعمر الله إن الحجة بالغة على هؤلاء القوم؛ إذ قد تحققوا سبيل الهدى ولكنهم تنكَّبوه، وحادوا عنه،

بل وصدُّوا عنه وحاربوه وآذوا أهله وحملته، وهذا ما دعا شاعر البصائر سعيد بن دحباج للتنديد بصنيعهم وبشنيع فعالهم حينما قال مخاطبًا أحدهم ممن تطاول عمره وساء عمله:

وَخَـطَ المشيبُ بعارضيك ومَدَّدا ... وسرى بفرعِكَ منذرًا ومهدِّدا
وَأَرَاكَ أَقْـرَبَ للمنونِ مُوَدِّعًا ... دنياكَ لكنْ في فُتُونِكَ أَبْعَدا
بِعْتَ الديانةَ والأمانةَ والتقى ... وعَدَلْتَ عن دربِ النجاةِ إلى الرَّدَى
يا مَنْ سَعَى بالعلمِ يُشْبِعُ بَطْنَهُ ... لِيَصُدَّ عَنْ خَبَرِ الهُدَى والمُبْتَدا
تلقى الإلهَ مواليًا لِعدَاتِهِ ... ولشَرْعِهِ والمصلحين معاندا
والعلمُ إنْ لَمْ تكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ والعلمُ ... بِيضٌ كَسَى أهليهِ ثوبًا أَسْوَدَا

"نسأل الله ﷻ يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود، ونعوذ بالله من سبيل رُعاع يتسمون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى، وقد نهوا عما يأخذون، غَلَبَتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخسُّ حالًا من العوام الذين يجهلون، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]" (١).

حوار مع شيخ المفسرين الطبري رحمه الله:

استدلَّ الطبري رحمه الله بالسياق على أن الآية نزلت في أهل الكتاب، وسأستعمل دلالة السياق ذاتها ولكن لأوسع ما ضيَّقه رحمه الله من دلالة الآية؛ إذ ترى الآية عامَّة في كلِّ معاند متطرِّف يُغْلِقُ سمعه وقلبه؛ ونحن نستدلُّ بما استدلَّ به ونوسِّع ما ضيَّقه جمعًا بين دلالة السِّباق التي استشهد بها، ودلالة اللاحق، ودلالة عموم الألفاظ وذلك أنا وجدنا هذه الآية جاءت بعد الكلام عن المتقين من المؤمنين عامة ويدخل فيهم مؤمنو أهل الكتاب، وجاءت قبل الكلام

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص: ٤٥١).

عن المنافقين الذين يسعون لحرب دعوة الخير في الأرض، ومنع نور القرآن من أن يسمعه العالمون، فليست الآية قاصرة على كفار بني إسرائيل كما حاول الطبري رحمه الله أن يصرَّ على إثباته، فحسبهم الكلام الطويل المفصَّل الذي سيأتيهم ابتداء من الآية (٤٠) ضمن محور طويل أسميته بمحور الاستخلاف الإسرائيلي.

وربما تبادر إلى ذهنك هذا السؤال لماذا أخبر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الصنف من الذين كفروا لا يؤمنون؟

الجواب: أخبر الله عز وجل سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم عن هذا الصنف لأسباب:

الأول: ألا يفني الداعية طاقته وعاطفته في الحرص عليهم، فقد كانَ عليه السلام حَرِيصًا عَلى أنْ يُؤْمِنَ الناس جَمِيعًا، ويصف الله عز وجل حرصه فيقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكَهْف: ٦]، ويقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩].

الثاني: أن يجعل إنذارهم جزءًا من تبليغه العامِّ للناس، لكنه ينبغي أن يتَّجه إلى غيرهم ولا يقتصر عليهم، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يتجه إلى القبائل بل بدأ التحرُّك إلى مدن خارج مكة حتى منَّ الله عز وجل عليه بالأنصار، ثم اتَّجه إلى العالم حوله وأرجأ أصحاب مكة وطوائف اليهود حتى منَّ الله عز وجل عليه ففُتحت مكة، وكفاه الله عز وجل شرور مَنْ لم يؤمن من اليهود، وهكذا ينبغي أن تأخذ دعوة الخير مسارها في الأرض، ولا تقتصر على مكان واحد كأنه المقدس بين الأمكنة.

الثالث: التسرية عن الرسل ومن تبعهم من المؤمنين، ويدلُّ لذلك الآيات الكثيرة في هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ

اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

بصيرة: مادة الإنذار التي سينذرهم بها المُبلِّغ سواء أكان النبي ﷺ أم ورثته هي القرآن المجيد، وما يتضمنه من المعرفة القرآنية.. ألم يقل الله ﷻ مبينًا ذلك ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وهذا المعنى يعزب عن كثير من روَّاد الخيرية والدعاة إلى الله تعالى، فتجدهم غُفْلًا عن أهمية التأثير القرآني وفاعليته في الحياة، وينعكس ذلك في أداءاتهم السياسية والتوعوية، فتجدها مجرَّدة منزوعة الروح عارية عن دفء الوحي وبركته، ولعل هذا ما قصده إقبال مخاطبا فئاما من هؤلاء:

أرى التفكيرَ أدركه خمولٌ ... ولمْ تبقَ العزائمُ في اشتعالِ
وأصبحَ وعظُكُمْ من غير سحرٍ ... ولا نور يُطِلُّ من المقالِ
وعند الناسِ فلسفةٌ وفكرٌ ... ولكنْ أين تلقين الغزالي
وجلجلةُ الأذانِ بكلِّ أرضٍ ... ولكنْ أين صوتٌ من بلالِ
منائركمْ علتْ في كلِّ حيٍّ ... ومسجدكمْ من العُبَّادِ خالي(١)

بصيرة: عبَّر هنا عن رسالة القرآن بالإنذار؛ لأنه رسالة لحماية العالم من الشرور الحاضرة والمستقبلة، وهذه الحماية تمثِّل أعلى درجات المحبة والرحمة الحقيقية بالعالمين.

وحينما يوجد العناد والصدُّ والإعراض عن الهدى والحق فلا أنسب وأولى من ارتفاع حِدَّة الخطاب، وتغليب النَّذارة على البِشارة، ولربما اقتضى الحال بعض قسوة في الطرح.

فقسا ليزدجروا ومن يكُ راحمًا ... فليقسُ أحيانًا على من يرحمُ

(١) ديوان محمد إقبال، الأعمال الكاملة (ص: ١٠٥).

هنا نجد التقابل تامًّا بين صورة المتقين وصورة الكافرين.. فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين، فإن الإنذار وعدم الإنذار سواء على الكافرين المحايدين. إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين، والوشائج التي تربطهم بالوجود وبخالق الوجود، وبالغيب والحاضر.. ان هذه النوافذ المفتحة كلها في أرواح المتقين وقلوبهم، مغلقة كلها عند أولئك، وإن الوشائج الموصولة كلها هنا، مقطوعة كلها هنالك.

لماذا عبر عن الوظيفة النبوية هنا الموجهة للعالم بالإنذار؟ ولم يذكر التبشير إلا في الآية (٢٥)؟

الجواب: لأن السياق يقتضي ذلك؛ فإن القوم المتكلَّم عنهم معاندون للحق صادون عنه فناسب ذلك ذكر الإنذار، وتلحظ بوضوح أن الإنذار أكثرُ ذكرًا في القرآن، وذلك لأن الإنذار يدل على شدة الإشفاق على المنذَر، إذ اشتقت كلمة ﴿أنذر﴾ من نَذَرَ على نَفسه يَنْذِرُ، بِالْكَسْرِ، ويَنْذُرُ، بالضّمِّ، نَذْراً، بِالْفَتْح، ونُذُورًا، بالضَّمِّ بمعنى أَوجَبَ على نفسه ما يتضمَّن التزامًا وتبعاتٍ، كما قال الله ﷻ عن مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦]، ونذيرةُ الجَيْشِ: طليعَتُهم الَّذِي يُنْذِرُهم أَمْرَ عَدُوِّهم[(١)].

فالإِنْذارُ إخبارٌ أو إعلام بشتى الوسائل يدل على شفقة المنذِر على المنذَر، وحماسه لأن يستمع هذا المنذَر كلمة الإنذار كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرور كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وَقَالَ النَّابِغَةُ الذُّبياني يَصِفُ حَيَّة، وَقِيلَ يَصِفُ أَن النُّعْمَانَ توعَّده فبَاتَ كأنه لَدِيغٌ يَتململ عَلَى فِراشه:

فبِتُّ كأَني ساوَرَتْني ضَئِيلَةٌ ... مِنَ الرُّقْشِ، فِي أَنيابِها السُّمُّ ناقِعُ
تَناذَرَها الرَّاقُون مِنْ سُوءِ سَمِّها ... تُطَلِّقُه طَوْرًا، وطَوْرًا تُراجِعُ[(٢)]

---

(١) تاج العروس (١٤/ ١٩٨، ١٩٩).

(٢) الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (٣/ ٩٧).

الإنذار هو الوظيفة النبوية الأولى، ويعني الإخبار بقلق وإشفاق عن المخاوف والمخاطر التي تنتظر البشرية إنْ هم وقعوا أسارى لعدوهم الأول: الشيطان الرجيم.

والتعبير بالإنذار يدلُّ على خطورة المُنْذَر منه، وعلى أن المنذَر قد وصل إلى درجةٍ سيئة من الغفلة في تفكيره، وربما في حياته ويوشك أن يسقط في أسوأ حالاته، والتعبير بالإنذار – أيضًا- يدل على رحمة المنذِر وشفقته بالمنذَر.

ألا ترى أنك إذا رأيت رجلاً يتجه إلى هاوية جبل قمت تصرخ عليه منبهًا إياه، فإن أصر على المضي في عَمايته أعدت الإنذار له بلهجة شديدة تخفي معها كل حرص على مصلحته..

الرسالة القرآنية إنذارٌ عالميٌّ لمحاولة استنقاذهم من التشريعات الظالمة، والتحكمات المتعسفة، ولذا قيل: عليك بمن يكثر الإنذار والإبلاس، وإياك ممَّن يقول: لا بَاسَ، ولا تَاسَ.

أي: لا بأس عليك، ولا تأس أي: لا تحزن على الواقع المؤلم.

وقد استعمل النبي ﷺ تعبيرًا لافتًا في التمثيل بشِدَّة شفقته في إنذاره للعالم، حيث وصف نفسه بالنذير العُريان أي الذي نزع ثوبه يلوح به من بعيد إعلامًا لقومه بالغارة عليهم؛ لشِدَّة حرصِه على أن يفهم قومه، حيث يُرى ولا يُسمَع صوته، فقد قال ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ**»(١).

(١) البخاري (٧٢٨٣).

ربما تتساءل: بما أنهم لا يؤمنون سواء أنذرناهم أم لم نفعل، فهل ذلك لعيب في محتوى الإنذار؟ هل الخلل في النص الذي أنذرناهم به؟

الجواب: **هذا سؤال لافت تجيب عنه البصيرة الآتية:**

بصيرة: عدم تأثرهم بالإنذار القرآني يرجع إلى عنادهم وإصرارهم على إمراضِ قلوبهم، لا إلى قصور في هدايات القرآن المجيد.

فمثلهم كمثل ذاك الذي يُعَاقِرُ المُسْكِرات، وهو يعلم أنها تهلك جسده وتذهب عقله، فإذا ناصحته راحماً أو أنذرته مشفقاً، هزَّ عِطْفَيْه ولَوَى عنقه، ومضى في صنيعه، لا يرجع إلى قول ناصح، ولا يلوي على رأي حليم، وهو في ذلك يتبختر قائلاً: شأني فلا مدخل لكم ولا رأي، وبَدَني أنا أعلم به منكم، فقولكم هدرٌ، ورأيكم هباء. فكيف يفلح هذا وكيف ينتصح!!

وفي كثير من الأحيان تكون الحقيقة واضحة للعِيان وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن الأبصار الكليلة لا تراها، أو تتعامى عنها وتتجاهلها، لِهَوَىً نَفْسٍ، أو مرض قلب، أو تسلُّط شهوة، أو غيرها من دواعي الافتتان والزيغ، كما قال الشاعر:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ[1]

وأيم الله إن ذلك ليس بضائر وحي الله تعالى ونُذُرَه وشِرْعته شيئًا، ومن أبى إلا النكوص والجحود فلا يوبق إلا نَفْسَه، ولا يَفُلُّ إلا فَأْسه، ولقد صدق من قال:

ما ضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ أن لا يَرَى ضوءَها مَنْ ليس ذا بَصَرِ

أو من قال:

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجدْ مُرا به الماءَ الزُّلالا

---

(١) ديوان البوصيري (ص: ١٩٧).

إن هذا الصِّنف لعنادهم لا يفتحون قلوبهم، بل يصمِّمون على الكفر تصميمًا لا رجوع عنه.. ما لهم يصرُّون على العيش في التفكير كما تعيش البهائم المُسَيَّرة المُسَخَّرة؟ لقد حذرهم الله ﷻ من هذا الأسلوب في الحياة، فقالَ اللهُ تَعالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ – ٢٣].

فعدم الإيمان يرجع إلى قبح استقبالهم، وعناد طباعهم كالمريض يقال له: لا بدَّ لك من العلاج، فيُصِرُّ بأنه صحيح غير محتاج إلى شيء، وكمن يتناول سموم المخدرات والخمور يقال له: أقلع، فالأمراض سَتَفْتُكُ بك، فيأبى، وكمن يتناول الدُّخان، فتأكل كَبِدَه، ولكنه يصرُّ على غيِّه.

وينقل لنا السيد رشيد رضا رحمه الله مثلًا على ذلك، فيقول: "انْظُرْ إِلَى رَجُلٍ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَيَمْشِي فِي طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُهَا فَيَسْقُطُ فِي حُفْرَةٍ وَتَتَحَطَّمُ عِظَامُهُ، هَلْ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِ بَصَرِهِ، وَيَبْخَسُ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي الْإِحْسَانِ بِهِ عَلَى هَذَا الَّذِي لَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ فِيمَا خُلِقَ لَهُ؟"(١).

وما زال مشهد نوح عليه السلام أمام عيني، وهو يدعو ابنه لِيُنْقِذَ نَفْسَه بأن يستعمل رجليه للحركة، ويتبع أباه لكنه يأبى.. يأبى أن يستعمل قدميه ليخرج من الخطر المحقَّق.. أصرَّ على أن يعطِّلَ أدوات نجاته وهي تحت تصرُّفه، وأصرَّ على أن يتَّبعَ هواه، فمن الذي يُلام؟ هل قصَّر نوحٌ عليه السلام أو لم تستبن عبارته وعاطفته ومحبته؟

ولا يكتفون بعدم الإيمان بل يزيِّفون الواقع ليبرِّروا عدم إيمانهم.. تأمَّلْهم كيف يحشدون جيوشهم الإعلامية والعسكرية والثقافية، ويُجَنِّدون المخابراتِ والسفاراتِ في محاولة يائسة

(١) تفسير المنار (١/ ١١٧).

لتغطية الحقِّ الذي تسعد به البشرية، وتطمئن به الإنسانية في حياتها: إنه نور الله ﷻ ورحمته المتمثِّلة في الإسلام الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام أجمعون.

هنا يبرز سؤال مهم حقًّا: هل يعني ذلك أنه لا يجب علينا إنذار الكفار؟ هل يعني ذلك أنه يجوز أن يكلف الله ﷻ عباده بما لا يطاق؟

بصيرة: يبصِّرنا ورود هذه الآية في القرآن المجيد بأن الإخبار عن عدم إيمانهم لا يعني عدم تكليفهم ولا يعني عدم التكليف بإنذارهم وتبليغهم، فالآية تبيِّن لنا أن هذا الصنف المعاند لن يؤمن مهما كان، لكن ذلك لا يعني عدم تبليغه نور القرآن الكريم إقامة للحجة عليه، وهذه البصيرة أدركناها من الآيات الأخرى التي نجمعها مع هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فالْقُرْآن مَمْلُوءٌ بالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْإِيمَانِ مثل قوله –تعالى ذكره–: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإِسْرَاء: ٩٤]، وقَوْلُهُ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟﴾ [النساء: ٣٩]، وَقَوْلُهُ لِإِبْلِيسَ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَقَوْلُ مُوسَى لِأَخِيهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ [طه: ٩٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الاِنْشِقَاق: ٢٠]، وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٤٩].

ولكن الإخبار عن عدم إيمانهم إخبارٌ غيبي إعجازي، لا يحول بين الصالحين وبين تبليغهم رسالة الله تعالى، فقد يكونون من المعاندين الذين تلين قناتهم، وقد يكونون من المعاندين الذين يختبئ فيهم خيرٌ لا يعرفه الخلق.

وإن أردت أمثلة لذلك، فأبرزها أن بعض عظماء الصحابة رضي الله عنهم الذين كانت لهم سابقة معاندة في الجاهلية منهم عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، ومن أبرزهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويوضِّح لك شِدَّة عناده رضي الله عنه ما جاء عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أُمِّه

ليلى قالت: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشدِّ الناس علينا في إسلامنا، فلمَّا تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنا على بعيري وأنا أريد أن أتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله، حيث لا نؤذى في عبادة الله، فقال: صحبكم الله، ثم ذهب فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رِقَّة عمر، فقال: ترجين أن يُسْلِمَ؟! فقلت: نعم، فقال: والله لا يُسْلِمُ حتى يُسْلِمَ حِمار الخَطَّاب(١).

هنا ترد على من زعم التناقض في آيات الله فقال: كَيْفَ يَأْمُرُهُ بِالْإِيمَانِ وَقَدْ مَنَعَهُ عَنْهُ؟ وَيَنْهَاهُ عَنِ الْكُفْرِ وَقَدْ حَمَلَهُ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ يَصْرِفُهُ عَنِ الْإِيمَانِ ثُمَّ يَقُولُ: ﴿أَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ وَيَخْلُقُ فِيهِمُ الْإِفْكَ ثُمَّ يَقُولُ ﴿أَنَّى تُؤْفَكُونَ؟﴾ وَأَنْشَأَ فِيهِمُ الْكُفْرَ ثم يقول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ؟﴾...؟(٢)

فما ذكر في الآية إخبار عن علم الله تعالى بكفرهم، وذلك لا ينفي أن يقوم الداعون إلى الخير بدعوتهم إليه، ولذا قال الله تَعالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: ١٦٥]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

ولو عذَّبهم الله عز وجل بعلمه فيهم لاحتجُّوا، بأنه لو جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، وقد قطع الله عز وجل عذرهم فأرسل لهم الرسل عليهم السلام، وختمهم بخير الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فماذا فعلوا؟ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر ٤٢].

والعلم الإلهي السابق لا يمنع من حرية الاختيار، ولذا لم يحتجوا على الله عز وجل بعلمه السابق، بل احتجوا بعدم إرسال أحد إليهم، فقطع عنهم هذا العذر.

---

(١) الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٠٧) برقم (٢٠٥٧٠)، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥ / ٤٤٠): رواه الطبراني، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح.

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٨٧).

وقد شَرَّق الرازي ﵀ وغَرَّب في بيان ذلك، وأتى بفوائد عزيزة، وذلك لأَنَّ هَذَا الْمَبْحَثَ صَارَ مَنْشَأً لِضَلَالَاتٍ عَظِيمَةٍ –كما يقول– إلا أن الجواب التفصيلي عن شيءٍ واضحٍ يغمضه أحيانًا، ولذا لا أرى التفصيل فيما هو واضح فلا يقال: ما دليل وجود الشمس والناس يرونها بأعينهم؟

فيكفي أن تقرأ هذا البيان الوافي الوافر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣] خلق إنسانًا، وجعله مختارًا، وبين له الخير والشرَّ، وخيَّره بينهما، وأنت تجد ذلك في نفسك ضرورة طبيعية، فلمَ تفترض أنك مجبر بناء على علمٍ ما أنت ببالغٍ فَهْمَهُ يتعلق بقدرة الله ﷻ الكاملة؟

وعلى هذا فكيف نتعامل مع قول الطبري ﵀: "وهذه الآية من أَوْضحِ الدليل على فساد قول المنكرين تكليفَ ما لا يُطاق إلا بمعونة الله، لأن الله جل ثناؤه أخبرَ أنه ختم على قلوب صِنْف من كُفَّار عبادِه وأسماعِهم، ثم لم يُسقِطِ التكليف عنهم، ولم يَضَعْ عن أحدٍ منهم فرائضَه، ولم يُعذِرْهُ في شيء مما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه - بَلْ أخبر أن لجميعِهم منه عذابًا عظيمًا على تركِهم طاعتَه فيما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه، مع حَتْمِه القضاءَ عليهم مع ذلك، بأنهم لا يؤمنون"[(١)]؟

والجواب: لعل شيخ المفسرين ﵀ لم يُحْكِمِ العبارة ولا المسألة هنا كما ينبغي كما لم يحكمها في مسائل أخرى مثل معنى الأحرف السبعة، والعلاقة بينها وبين القراءات، فإن ما يقرره ينافي بديهيات القرآن فيما رأيته، وعزة ربي: إن هذا لا يقدح في مكانته، ولا في قَدْره الذي قد ارتفع في أعلى ذرا المجد، وما نساوي عنده قَضْبًا نبت في الأرض، غير أنني أحاوره محاورة المحب الصغير من تلاميذ مدرسته، فيظهر لي أنه لم يستحضر الجمع بين هذه الآية

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٢).

والآيات الأخرى التي تبين أن الختم عقوبة لهم، ثم ربط ذلك بهذه المسألة التي تنازع فيها المتكلمون، وبغى بعضهم على بعض كأنهم لا يرون الآيات الواضحة في تكليف الناس بما يطيقون، وقد قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات:" ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببَه القدرةُ على المُكَلَّف به، فما لا قدرة للمُكَلَّف عليه لا يصح التكليف به شرعًا"[1].

وحتى عقلًا فلا يجوز التكليف بما لا يطاق، وقد فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة، وذكر الأقوال فيها، ونسبها إلى قائليها في الجزء المتعلِّق بالقَدَر من مجموع الفتاوى[2].

الصفة الثالثة: صفة إغلاق أدوات المعرفة الأساسية:

ويبصرنا بها قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[البقرة" ٧]، **فهذه صفة تعليلية مآلية عقلية نفسية، فهي صفة (تعليلية)؛ لأنها تكشف سبب عدم إيمانهم، و(مآلية)؛ لأنها تكشف نتيجة عدم إيمانهم في الوقت ذاته:**

المناسبة والاتصال:

بصَّرنا الله عز وجل في الآية السابقة أن الصنف المتطرِّف المعاند من الكافرين لا يفيد معهم الإنذار، وربما يتساءل المرء مندهشًا، فيقول: الإنذار يدلُّ على الإخبار عن أمرٍ رهيب إخبارًا يقترن بالإشفاق، فإذا كان هذا الإخبار هو البيانَ الإلهيَّ الأخيرَ الذي نزل إلى الأرض، فكيف لا يقبله هؤلاء؟

هنا تأتي هذه الآية لتكشف عن سبب ذلك ومآلاته باعتبارها استئنافًا بيانيًا يجيب عن هذا السؤال.

(١) الموافقات (٢/ ١٠٧).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٠-٣٠٢).

فنقول لك: هذه صفة تعليليةٌ مآليةٌ في الوقت ذاته؛ ربما تتساءل عندها: كيف يكون ذلك؟

الجواب: هي صفة تعليلية؛ لأنها تعبر عن السبب الذي من أجله لا يؤمن هذا الصنف المتطرف بالبيان الإلهي الأخير، حيث كشفت لنا هذه الصفة أنهم مارسوا دور الكفر بتغطية الحقائق، ولذا عبَّر الله ﷻ عنهم بأنهم (كفروا) بالفعل الماضي، ولماذا كفروا؟ لأنهم أغلقوا أدوات المعرفة عندهم، وأدوات المعرفة الأساسية هي: الأفئدة التي تفكِّر وتستنتج، والسمع الذي يدرك الأصوات، والأبصار التي تميِّز المُبْصَرات، فلما أغلقوا هذه الأدوات كفروا، لأنهم لا يفكرون التفكير النافع فيهتدون، إنما يفكرون التفكير الخاطئ فيَضلون ويُضلون، فبيَّن لك سبب كفرهم.

ومن هنا قلنا بأن قول الله ﷻ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ صفة تعليلية.

ولكنها أيضًا صفة مآلية كشفت لنا عن نتيجة كفرهم، وهو أن الله ﷻ ثبت هذا الختم على قلوبهم وسمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة؛ لأنهم ما زالوا يمارسون ما يُرَسِّخون به كفرهم حتى استحقُّوا أن يختم الله ﷻ عليهم.. فلتعجب من اجتماع السببية والمآلية في جملة واحدة!!

دعونا نزيد الأمر إيضاحًا:

فإن سألت: ما معنى الختم في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؟

أجيبك: الختم مصدر خَتَمَه يَخْتِمُه خَتْمًا وخِتامًا فهو مَختوم ومُخَتَّمٌ، والختم أمران:

الأول: بُلُوغُ آخِرِ الشَّيْءِ، فيُقَالُ: خَتَمْتُ الْعَمَلَ، وَخَتَمَ الْقَارِئُ السُّورَةَ، ومنه قيل: ختمت القرآن، أي: انتهيت إلى آخره، ومنه قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌۚ﴾ [المطففين: ٢٦] أَيْ: إِنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ مِنْهُ عِنْدَ شُرْبِهِمْ إِيَّاهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ[١].

وكلمة "ختم" هنا لا ترادف "طبع"[٢]، بل الطبع مرحلة عامة بدأت قبل الختم.

الثاني: قد يؤتى بعد ذلك بالْخَتْم، وهو نقشٌ أو صورةٌ يُختم بها على الشيء ابتغاء حفظه لمنع أن يدخله شيء أو يخرج منه شيء، فمن ذلك:

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٤٥).

(٢) نقل ابن القيم عن أبي إسحاق الزجاج قوله: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء ...، قال ابن القيم رحمه الله: "الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيَّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق". شفاء العليل (ص: ٩٢)

ما يُختم به على جِرار الخمر لمنع شيء من الخروج منها، ولِيُصْلِحَهَا انْحِبَاسُ الْهَوَاءِ عَنْهَا، وَتَسْلَمَ مِنَ الْأَقْذَارِ فِي مُدَّةِ تَعْتِيقِهَا، فيسد على الإناء بما يختمه، ومنه قَوْلُ الأَعشى:

وصَهْباء طَاف يَهُودِيُّها　　وأَبْرَزَها وَعَلَيْهَا خَتَمْ
وَقابَلَها الريحُ في دَنِّها　　وَصَلَّى عَلى دَنِّها وَارتَسَمْ[١]

وقد جعل بعض المازنيين الحُبْسة في اللسان والعِيَّ ختمًا عليه فقال:

خَتَمَ الالهُ عَلى لِسَانِ عُذَافِر　　خَتْمًا فلَيْسَ عَلى الكلامِ بقَادِرِ
وإذا أَرَادَ النُّطْقَ خِلْتَ لِسَانَهُ　　لَحْمًا يُحَرِّكُهُ لِصَقْرٍ نَاقِرِ[٢]

ومن ذلك ختم الكتاب بأن تغلق الكتاب بنقش محدد موجود في خاتم أو نحوه..

لماذا تختم على الورقة بالختم؟

لتوثيقها ولمنع التغيير فيها، واتَّخَذَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَاتَمًا لِذَلِكَ.

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: الخَتْم والكَتْم أخوان؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتمًا له وتغطية؛ لئلا يُتَوَصَّلَ إليه ولا يُطَّلَعَ عليه، ولا يمكن للمكتوم أن يخرج منه شيء حتى النَّفس[٣].

فأصل استعمال الخاتم أن يختم به ما يتمُّ توثيقه، وصار الخاتم ملازمًا للإصبع لضمان حفظه تحرُّزًا من أن يتمكَّن منه غير صاحبه، فيختم به ما لا يريد صاحبه، ومن هذا الإلزام اتُّخذ زِينة.

---

(١) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، (ص ٣٥)، الصَّهْبَاءُ: الْخَمْرُ الْحَمْرَاءُ، وَالْيَهُودِيُّ هَاهُنَا صَاحِبُهَا، يَقُولُ هَذَا الْيَهُودِيُّ الَّذِي هُوَ صَاحِبُ هَذِهِ الْخَمْرِ: طَافَ عَلَيْهَا، (وَأَبْرَزَهَا): أَيْ أَخْرَجَهَا، وَخَتَمَ عَلَيْهَا، وَوَضَعَهَا فِي مُقَابَلَةِ الشَّمْسِ فِي دَنِّهَا، وَدَعَا عَلَى دَنِّهَا، (وَارْتَسَمَ) أَيْ كَبَّرَ وَتَعَوَّذَ، وَحَذَّرَ انْكِسَارَ الدَّنِّ، وَانْصِبَابَ الْخَمْرِ، يَصِفُ عِزَّتَهَا عَلَيْهِ، وَرَغْبَتَهُ فِيهَا، وَحَذَرَهُ عَلَيْهَا.

(٢) الكشاف (١/ ٤٩).

(٣) الكشاف (١/ ٤).

ومما ورد من الختم بمعنى المنع من التغيير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥]، أي: نمنعهم من الكلام.

وهو المراد بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣] فخَتْم القلبِ: مَنْعُه من أن يخرج منه شرٌّ أو ظلمة أو يدخله خير أو نور.

والختم بهذا المعنى الثاني يَقْرُب من معنى الطَّبْع في جزئية أنه آخر ما يتمُّ عَمَلُه لإحكام الشَّيْءِ، وتوثيقه، وجزء منها قبل الختم.

إذا كان ختم القلوب سببًا لعدم إيمانهم فربَّما طرقك سؤال وقلت: وما ذنبهم حتى يختم الله تعالى على قلوبهم، ويمنعهم من الإيمان؟

وجواب ذلك: لأنهم كفروا ابتداءً.. لاحظ الجمال ودِقَّة التركيب: عرض عليهم الإيمان فأبوا إلا العناد والكفر، كحال إبليس أمره الله ﷻ بالسجود، فأبى واستكبر وكان من الكافرين، فكانت النتيجة أن طرده الله ﷻ، وكذلك هؤلاء عرض الله ﷻ عليهم الإيمان، فكفروا، فختم على قلوبهم، إنه المآل الذي ساقوا أنفسهم إليه بسبب تغطيتهم للحق وتعصبهم وعنادهم، وصار الختم على قلوبهم سببًا لعدم الإيمان، فهذه الجملة مآلية بالنسبة لكفرهم سببية بالنسبة لعدم إيمانهم في إيجازٍ بديعٍ.

فالله ﷻ حجب عنهم الاستعداد لمعرفة الحق، وسماعه، ورؤيته، فختم على قلوبهم، ولكنهم الذين تسببَّوا في ذلك ابتداء، فقد وصفهم الله ﷻ بدِقَّة فقال ﷻ: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤، ٥].

الجزاء من جنس العمل قانون قرآني مطرد:

هذا قانون من أوسع بحوث القرآن وأعمقها: الجزاء إنما يكون على العمل، فالله ﷻ يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٨] فعلامَ يدل ذلك؟

يدلُّ –كما يقول ابن تيمية ﵀ – "على أن أَعْمَالهم أسخطته فَهِيَ سَبَب لسخطه، وَسخطُه عَلَيْهِم بعد الْأَعْمَال لَا قبلهَا، وَكَذَلِك قَوْله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وَكَذَلِك قَوْله ﷻ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧]، عَلَّق الرِّضَا بشكرهم، وَجعله مَجْزُومًا جَزَاء لَهُ، وَجَزَاء الشَّرْط لَا يكون إِلَّا بعده"(١).

ولكن ربما ألح عليك سؤال آخر: كيف يحدث هذا الختم؟

الجواب: ذهب الراغب ﵀ إلى أن الختم إشارة إلى ما أجرى الله تعالى به العادة من أنَّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولم يلتفت إلى الحقِّ، ولم يستجب للنذير المشفق أورثه ذلك هيئة تُمَرِّنه على استحسان المعاصي، وحينها يعاقبه الله تعالى بأن يختم على قلبه بما مَرَنت عليه نَفْسه، وفي ذلك قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ [النحل: ١٠٨](٢).

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية – رشاد سالم (٢/ ١٥)، ولكن هذا لا يعارض أنهم وأفعالهم (المرضي عنها والمسخوط عليها) بمشيئة وإرادته، كما قال الله جل مجده:: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

(٢) وحاول بعضهم أن يفر من هذا المعنى، فقال الجبّائيّ: يجعل الله ختمًا على قلوب الكفّار، ليكون دلالة للملائكة على كفرهم فلا يدعون لهم، ورد عليه الراغب فقال: ليس ذلك بشيء؛ فإنّ هذه الكتابة إن كانت محسوسة فمن حقّها أن يدركها أصحاب التّشريح، وإن كانت معقولة غير محسوسة فالملائكة باطّلاعهم على اعتقاداتهم مستغنية عن الاستدلال. وقال بعضهم: ختمه شهادته تعالى عليه أنه لا يؤمن. انظر: المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٤٣).(٣) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٠).

مراحل مسخ القلوب:

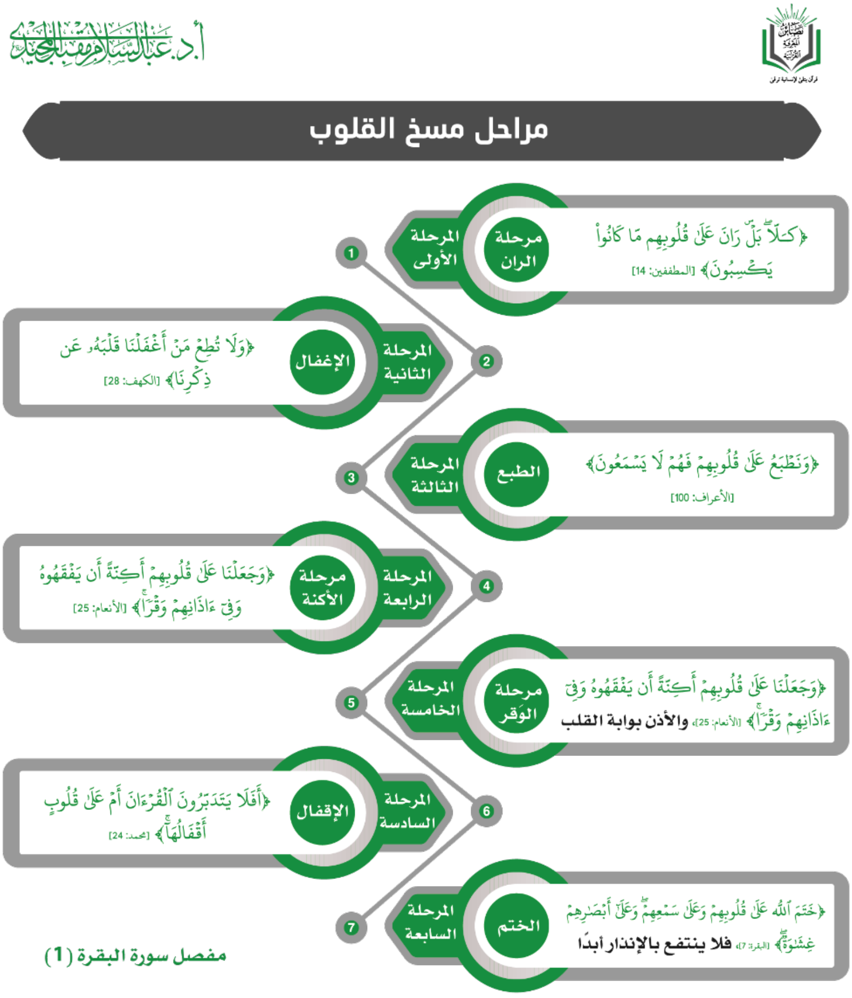

بصيرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ **تتضمَّن تحذيرًا قرآنيًّا حول المراحل الخطيرة التي يصل إليها القلب بسبب الذنوب.**

لعلك تسأل: ما هذه المراحل التي يتدنس خلالها القلب ويمسخ، حتى يرتكس فلا ينتفع برشد، ولا يستنير بهدى، ولا يتخذ قرارًا صائبًا؟

والجواب: هي سبع مراحل عبارة عن دركات يهوي فيها القلب من مرحلة إلى أخرى إن لم يجد العون الإلهي، ولم يستفق، وهي المراحل الآتية:

الران، والإغفال، والطبع، والأكنة، والوقر، والختم، والأقفال

المرحلة الأولى: مرحلة الران:

الأصل أن القلب أبيض على الفطرة، ثم يُدَنِّسه صاحبه بالذنب الذي يقترفه، ثم يدنسه بذنب آخر، وربما يحدث توبة وتراجعًا، ولكنه لا يلبث أن ينقض تراجعه بذنب جديد، ثم تستمرُّ النَّفْس على فعل الذنوب من غير توبة، حتى يبدأ الران يعلو على القلب.. فما الران؟

الجواب: الران (الرين) كلمة تدُلُّ عَلَى غِطَاءٍ وَسَتْرٍ بأمرٍ مفسدٍ للواقع، فَالرَّيْنُ: الْغِطَاءُ عَلَى الشَّيْءِ، وَرَانَ النُّعَاسُ يَرِينُ، وَرَانَتِ الْخَمْرُ عَلَى قَلْبِهِ: غَلَبَتْ، وَقَدْ رِينَ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ غُشِيَ عَلَيْهِ(١).

فالران دنسٌ صغير اجتمع على دنسٍ صغير آخر، فأحدثا في القلب صدأً يدمِّر جودتَه وبياضَه ويَحْجُبُ جوهَره، وتتضاءل وتضعفُ بسبب هذا الران مقاومةُ القلب للشرور، ومع تكرُّر الأمر تتكون طبقة غريبة شيئًا فشيئًا، **لا تلبث بكثرتها على القلب، أن تغطِّيه،** فإذا غلبت على النَّفْس غَيْرَتَها، فأفسدت رؤيتها للأشياء، فبداية الران: نكتة سوداء في القلب بسبب الذنب

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٠).

سواء أكان من قبيل الذنوب الباطنة أو الظاهرة، ومع تواليها واستمرائها تعمي صاحبها عن معرفة الخير من الشر، والنفع من الضر.

ومن هنا قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، **بسبب كَسْبِهم بدأ الران يظهر في القلب، الران يُمَثِّل المرحلة الأولى، لكنها يوشِك أن تهوي به إلى دركة أسوأ.**

ولما عرفت خطورة الران ربما تساءلت: هل يمكن للران أن يصيب الصالحين من المؤمنين بني الإنسان؟

الجواب: **أما الأنبياء فلا يصيبهم هذا الران**، ولكن يأتيهم شيء عبر عنه النبي ﷺ بالغين، فعَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ - وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١)، وفي "تصحيفات المحدثين"(٢) لأبي أحمد العسكري: العرب تقول إن الغينَ والرينَ السحابُ الرقيقُ الذي دون السحاب...يُغان على قلبي مثل يُران: أي يُغَطَّى، ويُغام مثله... يقال: غامت السماء وغانت، وعَن أَبِي عُبَيْد فِي قَوْله «**يُغان عَلَى قلبِي**» يَعْنِي: يتغشى القلبَ مَا يلْبسهُ، وَقَالَ غيرُه كأنه يَعْنِي السَّهْوِ، وَكَذَلِك كلُّ شيءٍ يُغَشِّي شَيْئًا حَتَّى يَلْبِسَه فقد غين عَلَيْهِ، يُقَالُ: غِينت السماءُ غَيْنًا وأَنشد:

كـأنـا(٣) بـيـن خـافِـيـتـي عُـقـابٍ ... أصـــابَ حـمـامـةً في يـومِ غـيـنِ

وحاول علماؤنا أن يكتشفوا معنى ذلك، فقالوا:

هي الْخَطَرَات الْعَارِضَة لِلْقَلْبِ، وَالطَّلَبَات الْوَارِدَة عَلَيْهِ، الشَّاغِلَة لَهُ بِهَذِهِ الْغَشْيَةِ الْمُلَابِسَةِ، ثُمَّ يَسْتَدْرِكُهَا النَّبِيُّ ﷺ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالْإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ مِنْهَا إِلَى رَبِّهِ عَاتِبًا عَلَى قَلْبِهِ، فَإِذَا كَانَ

---

(١) مسلم (٢٧٠٢).

(٢) تصحيفات المحدثين (١/ ١٥٩).

(٣) وهي في مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٧) وغيره: (كأني)، بدلًا من (كأنا).

الرَّسُولُ ﷺ هَذَا وَصْفُهُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْخَلِيقَةِ الْمُنْهَمِكَةِ فِي الْهَلَكَةِ، وَبِاللهِ الْعِيَاذُ، وَبِهِ الِاعْتِصَامُ، وَعَلَيْهِ التَّوَكُّلُ(١).

قال عياض رحمه الله: "المراد بالغين فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه؛ فإذا فتر عنه لأمر ما عَدَّ ذلك ذنبًا فاستغفر عنه، فبصيرة النبي ﷺ متعرضة للأَغْيَرَة الثائرة من أنفاس الأَغيار فدعت الحاجة إلى السَّتْر على حَدَقَةِ بصيرتِه صيانةً لها ووقايةً عن ذلك"(٢).

ذلك حال النبي ﷺ، وأما أنا وأنت عافانا الله جل جلاله فيصيبنا الران، كالصدأ يغشى الحديد، أو يصيب المرآة فيشينها، ويبيّن النبي ﷺ ذلك بتصوير بديع، فيقول: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»(٣)، **وقالَ الحَسَنُ البصري** رحمه الله: **هُوَ الذَّنْبُ على الذَّنْبِ حَتَّى يَسودَّ القلْبُ**(٤)، وعَنْ مُجَاهِدٍ رحمه الله: قَالَ: "الْخَطَايَا عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى غَمَرَتْهُ، وَهُوَ الرَّانُ"(٥).

ولعلك تسأل: ماذا يحدث بعد مرحلة الرين أو الران الذي يعتري القلوب؟

الجواب: تأتي بعد ذلك:

---

(١) شعب الإيمان (٦٦٢٥).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٣) أحمد (٧٩٣٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، ورواه ابن ماجه (٤٢٤٤)، واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٠).

(٤) أخرجه الطبري (٣٠/ ١٢٢).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي(٦٨١٣)

المرحلة الثانية: الإغفال:

وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]: أيْ لا تطع من جَعَلْنا قَلْبَهُ غافِلًا عَنْ ذِكْرِنا.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا أغفل الله ﷻ قلبه؟ لماذا لم يعنه على أن يهتدي؟

والجواب بَيِّنٌ جَلِيٌّ في ذات الآية فهي واضحة المعنى، وهي تجيبك بذاتها، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف ٢٨].

فالله جلاله لم يؤيد قلب هذا الغافل بعونه وتسديده؛ لأنه اتصف بالأمور الآتية:

الأمر الأول: أنه كما قال جل ذكره: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فبدلًا من أن يتَّبع الحقَّ، ويصاحب الصالحين اتبع هواه، فإن أراد هواه رؤية المُحَرَّم تبع هواه، وإن أراد هواه التجارة بالخمر تبع هواه، وإن أراد التعامل بالربا سار على ذاك النهج...

الأمر الثاني: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ ومعناه كما يقول الرازي رحمه الله: "أيْ مُجاوِزًا لِلْحَدِّ مِن قَوْلِهِمْ: فَرَسٌ فُرُطٌ، إذا كانَ مُتَقَدِّمًا الخَيْلَ، يُقالُ: كُلُّ أمْرِ فُلانٍ فُرُطٌ، وأنْشَدَ شِعْرًا:

لَقَدْ كَلَّفَنِي شَطَطا وأمْرًا خائِبًا فُرُطا

أيْ مُضَيَّعًا، فَقَوْلُهُ: وكانَ أمْرُهُ فُرُطًا؛ أي سابقًا في فعل السيئات"(١).

فبدلًا من أن يحفظ أمر نفسه فَرَّط وقَصَّر، وأفرط في الأمر السيء، والفُرُط كما يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: "الظُّلْمُ والِاعْتِداءُ"(٢).

---

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٦).

فيميل نحو المعاصي والهوى وينأى رويدًا رويدًا عن الهدى، وهنا يعاقبه الله تعالى بأن لا يُذَكِّره به، بل يجعل قلبه غافلًا عن ذكره.

ومن أهم مظاهر تفريطه أنه لم يَصْبِر نَفْسَه على مجالس الخير؛ فإن الله ﷻ ذكر في أول الآية ذلك، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، وهو لا يجالس الصالحين؛ إما لأنهم فقراء أو ضعفاء، وإما لعدم رغبته ولعناده، فعَنْ سَعْدٍ رضي الله عنه -هُوَ ابْنُ أَبِي وَقَاصٍّ-قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا!. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ رضي الله عنه وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسْمَيْهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢][(١)].

ومن كان هذا حاله فقد بطل اسْتِعْداد نفسه لأنْ تذكر الله تعالى؛ وفرَّط في حقِّ نفسه، ويدخل في هذا الصنف أصحاب الذنوب القلبية مثل المستكبرين؛ فإن الآية نزلت فيهم بسبب عنصريتهم المُفْرِطة، كما قال الآلوسي رحمه الله: "كَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إلى طَرْدِ الفُقَراءِ فَإنَّهم غافِلُونَ عَنْ ذِكْرِنا، عَلى خِلافِ ما عَلَيْهِ أُولَئِكَ الفُقَراءُ مِنَ الدُّعاءِ في الغَداةِ والعَشِيِّ، وفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلى أنَّ الباعِثَ لَهم إلى اسْتِدْعاءِ الطَّرْدِ غَفْلَةُ قُلُوبِهِمْ عَنْ جَنابِ اللهِ تَعالى شَأْنُهُ، ومُلاحَظَةِ المَعْقُولاتِ، وانْهِماكِهِ في الحِسِّيّاتِ حَتّى خَفِيَ عَلَيْهِ أنَّ الشَّرَفَ بِحِلْيَةِ النَّفْسِ لا بِزِينَةِ الجَسَدِ"[(٢)].

فالإغفال هنا لا يعني أن الله ﷻ جعل قلبه غافلًا بلا سبب، بل إن هذا الغافل تسبب في جلب الران إلى قلبه، وحينها يجعل الله ﷻ قلبه غافلًا فلا يعينه، ويؤكِّد ذلك أن الله تبارك اسمه ذكر

(١) مسلم (٢٤١٣).

(٢) روح المعاني (٨/ ٢٥٢).

حرية الاختيار بعد هذه الآية فقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، ولكنهم كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦]، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: "وقَدِ اعْتَضَدَ هَذا المَعْنى بِجُمْلَةِ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، فَإنَّ اتِّباعَ الهَوى يَكُونُ عَنْ بَصِيرَةٍ لا عَنْ ذُهُولٍ"(١).

فهذا الذي اتبع هواه لم يذكر ربَّه تعالى، ولم يفكِّر كيف يجاهد نفسه ليرتقي بها، ولم يطلب بصدق الاستعانة بربِّه عز وجل على فتور نَفْسِه، فلمَّا لم يساعد نَفْسَه لم يُعِنْهُ ربه عز وجل، ولما أهمل نَفْسَه عن تدريبها على معالي الأمور صارت خاملة ذات قلب غافل، فقوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ مِن قَوْلِهِمْ: أغْفَلَ فُلانٌ إبِلَهُ: إذا تَرَكَها غُفْلًا، أي مِن غَيْرِ سِمَةٍ وعَلامَةٍ يميِّزها عن غيرها، ومِنهُ إغْفالُ الخَطِّ بأن تكون الحروف غير معجمة أي غير مُنَقَّطَة، فالعين مُغْفَلة، والغين مُعْجَمة(٢)، فترك الله عز وجل قلبه غافلًا دون تأييد.. ماله؟

إن أراد المرء أن يُقَوِّيَ جسده تعاهده بالرياضة.. إن أراد أن يبدو أنه حسن الهيئة اعتنى بِهِنْدَامه وشَعَره.. إن أراد أن يحسن شيئًا، أو يتعلَّم علمًا، أو يَمْتهن حرفةً سعى في ذلك، وحصَّل أسبابَه.

حتى إذا ما جاء في مسألة الهداية قال: لا رغبة لي! ولو أراد الله أن يهديني لفعل.. ونحن نقول له: لماذا لا تتقرب إلى ربك عز وجل عسى أن يتقرَّب الله جل جلاله منك.

لو أراد عون الله تعالى لسأل ذلك، وعمل بأسبابه، فمن أسبابه أن يتصدَّق، أو يدعو، أو يصلي بالليل طالبًا العون الإلهي، كما قال من أراد ألا يكون قلبه غافلًا:

طرقتُ بابَ الرجا والناسُ قدْ رقدوا ... وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجدُ

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٦).

(٢) روح المعاني (٨/ ٢٥٢).

وقـلـت: يـا أمـلـي في كـلِّ نـائـبـةٍ يا منْ عليه لكشـفِ الضـرِّ أعتمـدُ
أشـكـو اليك همومًا أنت تعلمها مـالي على حَمْلِها صـبرٌ ولا جَلَدُ
وقـد مددتُ يـدي بـالـذُّلِ مبـتـهـلًا إليـك يا خيـرَ مـنْ مُدَّتْ إليـه يَـدُ
فـلا تَـرُدَنَّـهـا يـا ربِّ خـائـبـةً فـبَحْـرُ جُـودِك يَـروي كـلَّ مـنْ يَـرِدُ

إذا كانت المرحلة الأولى التي تصيب القلوب المذنبة: الرين، والثانية: الإغفال، فما المرحلة الثالثة؟

الجواب:

المرحلة الثالثة: مقارنة للمرحلتين السابقتين ولما بعدها: إنها (الطبع):

لكن هل تدري معنى الطبع؟

الجواب: الطبع في لغة العرب من طَبَعَ يَطْبَع، والطبع أن تجيء إلى المادة القابلة للتشكيل، وتصوِّرها على هَيئة معينة لتناسب حقيقة محدَّدة تصبح طبيعة لها تميِّزها، كما يطبع الرجلُ الطين ليصبح لَبِنًا، وكما يطبع قطعة الفضة لتُصبح درهمًا، وكما يطبع المعدن ليصبح سيفًا، وهذا يقتضي أن يُلَيِّنَها ويُشَكِّلَها ويصوغها ويسوِّيَها حتى تصبح لها طبيعة خاصة تميِّزُها، فتقول طَبَعْتُ من الطين جَرَّة: صَوَّرتها وشَكَّلتها حتى اتخذت هيئتها المميزة، والطَّبَّاع: الذي يأخذ الحديدة فيطبع منها سيفًا أو سكينًا أو سِنَانًا، فإذا وصلت إلى طبيعتها الجديدة يقال: تَطَبَّعت، ومنه تَطَبَّعَ النَّهَرُ، إِذَا امْتَلَأَ، وَكَذَلِكَ إِذَا حُمِّلَتِ النَّاقَةُ حِمْلَهَا الْوَافِيَ الْكَامِلَ، فَهِيَ مُطَبَّعَةٌ. قَالَ:

أَيْـنَ الشِّـظَـاظَـانِ وَأَيْـنَ الْـمِـرْبَـعَـهْ وَأَيْنَ وَسْـقُ الـنَّـاقَـةِ الْـمُـطَـبَّـعَـهْ[1]

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٣٨).

والراغب رحمه الله يرى أن الطبع أعمُّ من الختم وأخصُّ من النَّقْش[(١)].

ومرحلة الطبع خطرة جدًا على الإنسان؛ إذ تكون حاجزًا وصادًا كثيفًا ومانعًا من رجوع الإنسان إلى ربه.

ودعني أبين لك خطورة هذه المرحلة:

فالطبع نَقْش المرءِ صورتَه وطبيعتَه وَفْقَ الاختيار الذي يختاره رويدًا رويدًا، وشيئًا فشيئًا، حتى تصبح اختياراتُه عاداتٍ له تنطبع حياتُه عليها، وحينها تصبح أفعاله سجايا تمامًا، كما لو نَقَش في جسده نقوشًا ثابتة لا تتغير يوشك ألا يستطيع إزالتها، كما قال المتنبي رحمه الله:

يراد من القلب نسيانُكم ... وتأبى الطِّبَاعُ على الناقل[(٢)]

ويقال: لَهُ طابِعٌ أو طَبْع حَسَنٌ، أَي طَبِيعةٌ؛ وأَنشد:

لَهُ طابِعٌ يَجْرِي عَلَيْهِ، وإِنَّما ... تُفاضِلُ مَا بَيْنَ الرِّجالِ الطَّبائِعُ[(٣)]

حين يعود الإنسان نفسه على الخير يتطبع عليه حتى يصبح طبيعته، فإن حاول أن يُغَيِّره لم يستطع، أو استطاع لكن بمشقة كبيرة، ولذا تراه يبكي إن فاته الخير.

وما أصدق قول البوصيري رحمه الله:

وَالنَّفْسُ كالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وَإِنْ تَفطِمْه يَنْفَطِمِ[(٤)]

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٣٠١).

(٢) الأمثال السائرة من شعر المتنبي، الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة المعارف، بغداد، ط١، ١٣٥هـ/ ١٩٦٥م، (ص: ٣٨).

(٣) تهذيب اللغة (٢/ ١١).

(٤) ديوان البوصيري(ص: ١٩١).

وفي المقابل: فعند أول مرة يصيب الذنب ربَّما بكي وتألَّم وشعر بالحياء من ربِّه تعالى، ثم يعتاد الذنب حتى يصبح الفسقُ مألوفًا له، فاجتمعت النِّقاط السوداء على قلبه ونفسيته، وأصبحت رانًا، ثم تزداد محبته للذنوب فينتقل إلى **مرحلة الإغفال**.

ثم تصر هذه الأبدان على عادات السوء، وتصبح لها طبيعة، وهنا تصبح النُّكَت السوداء في القلب كثيرة حتى تشكِّل أنسجة تغشي القلب فتطبعه بطابَعها، وتمنعه من أن تصل ألطاف الله ﷻ إليه، ثم يزداد إِلْفُه للمعاصي من السوء والكذب والإجرام، فيكثر عليه طَبَعُ الْقَلْبِ، وهُوَ تَلْطِيخُهُ بالأَدْناس، وتتزايد عليه الأوساخ المدمِّرة، مثل ترك الجُمَع، فعن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: «**لينتهين أقوام عن وَدْعِهِم الجُمُعَات، أو ليختمنَّ الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»(١).

فتصبح المعاصي طبيعة له لا يستطيع منها فِكاكًا، بل ولا يتصوَّر حياته دونها كطَبِيعَة النارِ، فيقال: تَطَبَّع فلان على شيء، حتى صار طَبْعًا له وسجية له، وكأن الطبع تحويل الحالة إلى طبيعة معتادة لا تتغير.

فإذا تطبَّع بالفسق، وصار الفسق له طبيعة وضع الله ﷻ الطابع على قلبه، ثم يزداد ولا يبحث عن علاج حينها يجيء الختم على ذلك الطابَع، فلا يعود يستطيع العيش دون الإجرام والفسق؛ لأنه أبى أن يترك منفذًا للخير ليدخله، وأبى أن يترك منفذًا للشر ليخرج منه.

فعملية الطبع والختم بينهما شيء من الاقتران والتماس والتداخل، ويقرب ذلك إلينا ما نراه عند البشر، فالطَّابَعُ بِالْفَتْحِ: الشكل أو النقش الخاص الذي تلصقه على الظرف أو الورقة، وَالطَّابِعُ: الإنسان الَّذِي يَخْتِمُ، والختم فوق ذلك، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال

(١) مسلم (٨٦٥).

رسول الله ﷺ: «**مَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْنُهُ لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ، عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس مجلسًا، أو صلَّى تكلَّم بكلمات، فسألته عائشة رضي الله عنها عن الكلمات فقال: «**إن تكلَّم -يعني الإنسان الذي جلس المجلس- بخير كان طابَعًا عليهن إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارةً له-ثم ذكر الكلمات: سبحانك اللهم، وبحمدك [أشهد ألا إله إلا أنت]، أستغفرك وأتوب إليك**»(٢).

وكأن الطابَع مثل النقش الذي وضعه الله ﷻ عليه ليدُلَّ أنه سيلزم هذه الطبيعة دون تغيير، وأما الختم فهو المرحلة الأخيرة لتكامُلِ تلك الطبيعة، فيؤتى بالخاتَم، ليكون فوق الطابع.

فالطبع يدُلُّ على التمادي في الكفر والإصرار والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به مأيوسًا من قبوله للحقِّ، فمعنى قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]: ونضع عليها طابَعًا يثبت بقاء طبيعتها على ما مَرَّنَ عليه أصحابُها قلوبَهم، وعند ذلك لا يسمعون أي خيرٍ يصلهم.

لكن هل يا ترى يوجد بعد مرحلة الطبع مرحلة أخرى تنتقل لها القلوب المذنبة؟

الجواب: نعم هنالك محطة أخرى يتدسى ويتدنى فيها القلب أكثر عن سابقتها..

---

(١) أحمد (٢٢١١٠)، قال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل ابن ثوبان، وحسنه الألباني.

(٢) أحمد (٢٤٤٨٦)، والنسائي (١٣٤٤)، وصححه الأرناؤوط والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥١٨).

المرحلة الرابعة: مرحلة الأكنة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥]:

إن هذا الذي طُبع على قلبه، فبدأ يصعب عليه أن يحوِّل طبيعته يمكنه أن يستعين بآخرين ليعينوه على الخروج من مرحلة الطبع، مثل الذي ابتلي بالدخان أو بالمخدر، فاستعان بعلاج ليخرج من دَنَسه، **فماذا يحدث له إن لم يفعل ذلك؟**

الجواب: إن لم يستدرك نفسه ينتقل إلى مرحلة أسوأ وأشد تعقيدًا: إنها مرحلة الأَكِنَّة، حيث يصبح القلب في أَكِنَّة، فما معنى ذلك؟

الأَكِنَّة جمع (كِنٍّ) والكِنُّ - بالكسر: البيتُ، وما يرُدُّ الحرَّ والبردَ من الأبنية والمساكن، وجمع الكِنّ أَكِنَّة وأَكْنَانٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١]، والكِنُّ في الجبل: هو الغار، والكِنُّ: المكان أو الأداة المحدَّدة المحيطة على هيئة مُحْكَمة تسترُ أو تَحْمي ما فيها كالكِنانة، فيُقَالُ منها: كَنَنْتُ الشيء كَنًّا: جعلته في كِنٍّ، وَأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]: أي أخفيتم وسترتم(١).

فالأكنة هي الحجب المحيطة بالقلوب قد أحاطت بها كما أحاطت البيوت بمن فيها، فسترت هذه القلوب على هيئة محكمة تمنعها من أن تصل إليها أنوار الهدى، ولكننا وجدنا الآية تحدثنا أيضا عن الوقر، فما الوقر؟ وما الفرق بين مرحلة الأكنة، ومرحلة الوقر؟

وجواب ذلك: أنه عندما يحيط بالقلب المطبوع الكِنُّ يمكن أن تناديه من خارج الكِنِّ كما تنادي الإنسان من خارج البيت، فإن أبى أن يستجيب تأتي مرحلة موازية وتالية وهي مرحلة الوَقر:

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٤٤٢)

المرحلة الخامسة: مرحلة الوَقر:

ويبصرنا بها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، **والأذن بوابة القلب:**

فالوَقْر:

كلمة تدل عَلَى ثِقَلٍ فِي الشَّيْءِ، ومِنْهُ الْوَقْرُ: الثِّقَلُ فِي الْأُذُنِ، فيُقَالُ مِنْهُ: وَقَرَتْ أُذُنُهُ تَقِرُ **وتَوْقَرُ**، ووُقِرَتْ أُذُنُهُ فَهِيَ مَوْقُورَةٌ، وَالْوِقْرُ: الْحِمْلُ الكثير، **ومنه قوله:** ﴿فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]، **وهي السحب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوِقْر**، وَيُقَالُ: نَخْلَةٌ مُوَقَّرَةٌ وَمُوقِرٌ: أَيْ ذَاتُ حَمْلٍ كَثِيرٍ، ومن ذلك توقير الإنسان؛ فإنه يقتضي أن يتحمل الإنسان بعض التكلُّف لِيُعَوِّدَ طبعُه على حُسْن الأخلاق مع غيره[1].

فقوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]: أي أن هناك ركامًا على آذانهم وطبقة تعلوها فتمنعها من السماع الجيد.

وهنا ستعود للسؤال: ما ذنبهم عندما لا يتبعون الإسلام إن جعل الله ﷻ في آذانهم وَقرًا؟

هذا تساؤل مشروع يفتح لنا بابًا آخر للتدبُّر، وحتى نفهم لماذا جعل الله تعالى قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرًا لا بد أن نستقرئ المواضع الواردة بذكر ذلك في كتاب الله ﷻ ننظر أين ورد الكلام عنها في القرآن لتتضح الصورة الكاملة؟

الجواب: ورد ذكر الوَقْر في أربعة مواضع من القرآن المجيد:

الموضع الأول: صدَّ فيه المعرضون عن الحقِّ، وأرادوا أن يقذفوا اليأس في قلب الداعية المصلح، فأخبروه أنه لا يمكن أن يصل النور إلى قلوبهم؛ ولكن هل تدري لماذا أقدموا على ذلك؟

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٣٢).

لقد بينوا له أن قلوبهم في أكنة تحجبها من وصول الخير الذي يريد أن يوصله، وفي آذانهم وقرًا يمنعها من سماع كلام المصلحين خاصَّة، فالاختيار من عند أنفسهم، وقد ورد ذلك في سورة فصلت: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

فلما عتوا وأصروا على الامتناع عن أن يسمحوا للنور أن يدخل إلى قلوبهم، ومنعوا أسماعهم من أن تسمع الهدى، تقرَّر أنهم هم من اصطنعوا الوقر في آذانهم على سبيل الاختيار، فلا حجة لأحد أن يقول: إنه لا خيار لهم ولا تبعة عليهم في وضع الوقر في آذانهم؛ فإنما يؤاخذون ويلامون بهذا القدر من حرية الاختيار، والذي لا يخرج مع ذلك عن مراد الله تعالى وقدرته، ويأتي بعد هذا الموضع:

الموضع الثاني: في سورة الأنعام حيث أخبر الله ﷻ أنهم يستمعون لكلام الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾، لكنهم قد دربَّوا قلوبَهم على عدم وعي الهدى، ودربَّوا أسماعَهم على جعل ما يستمعونه كأن لم يسمعوه، ودرَّبوا أعينَهم على عدم رؤية الآيات البينات، فكانت النتيجة أن الله ﷻ أعطاهم ذلك: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾، فمن درَّب نَفْسه على أمر وصل إليه، وهم درَّبوا قلوبهم على أن تكون في أكنة، فجعلها الله ﷻكذلك، فتراهم بدلًا من أن يقبلوا الحق إذا سمعوه يجادلون فيه، وينكرونه، ولذا قال الله ﷻ عنهم بعد ذلك: ﴿جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وهنا تعلم لماذا اخترت أن يكون موضع الأنعام تاليًا لموضع فصلت: لأنه يخبر عن عقوبة من جنس عمل هؤلاء المعاندين، فهم زعموا أن قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم، فجعل الله تعالى ذلك لهم، وذلك أشبه بعقوبة من يَدَّعي العَرَج والعاهة، فتُسَلَّط عليه.

وستسأل: كيف يقول الله ﷻ في آخر آية الأعراف التي عرضنا لها في مرحلة الطبع ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] ونحن نعلم أنهم يسمعون القرآن وغيره؟

الجواب عن ذلك: أنهم يسمعون، ويبقى الداعية حريصًا على أن يُسمعهم القرآن ويرشدهم إلى أنواره وهديه والنور الذي ينبثق عنه، ولكنهم يسمعون سماع مَنْ لا ينتفع؛ لأنهم أصرُّوا على وضع قلوبهم في أَكِنَّة، وعلى وضع الوَقر على آذانهم، فعاقبهم الله ﷻ بأن لبَّى لهم ذلك، وجعل بينهم وبين القرآن حجابًا مستورًا، وهذا ظهر في:

الموضع الثالث: في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾، ولذا لا يقبلونك عندما تتكلَّم عن الله ﷻ وتصرُّفِه في الكون، وربما جعلوا ذلك مما لا يحسن الحديث عنه، ثم ضربوا لك الأمثال، وخلعوا على الهدى ثوب الضلال، ويكشف الله تعالى عنهم هذه الحقيقة، فيقول: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ۝٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ – ٤٧].

الموضع الرابع: يخبرنا الله ﷻ فيه عن حقيقة الوضع، ويجمع بين المواضع الثلاثة السابقة، فيعلمنا أنه إنما جعل قلوب المعرضين في أكنة؛ لأنهم يصرُّون على الإعراض، وينسون الجرائم التي يقومون بها، فاستحقُّوا ذلك، وهذا ظهر في موضع سورة الكهف: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهكذا لاحظنا أن هذه الحالة النفسية الخطيرة التي أوصلوا أنفسهم لها باختيارهم:

عندما يصرون على الامتناع عن سماع الهدى، يتبخترون فيقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ يزعمون أنهم لا يسمعون؛ لأن نفوسهم لا تسوقهم لذلك ولا تدعوهم إليه، فقلوبهم في أَقْبِية مُحْكَمة الإقفال تمنع أن يصل إليها النور.

فكأنه يقال لهم: فيمكن للقلوب التي في داخل الأكنة أن تسمع مَن في الخارج، فيزدادون هربًا فيقولون: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾. فكأنه يقال لهم: يمكن أن نوصل لكم الهدى والنور بغير الطريق الأول، فينفرون أكثر ويقولون: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وقد رضينا بما نعمله، فلا نحتاج منك أن تدلنا على أي عمل آخر: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].. هكذا وَضَح لك جمالُ الآية في وصف الحالة النفسية والواقعية بينهم وبين الداعية إلى الخير.

ويداوي قلوبنا الإمام علي رضي الله عنه، فيخبرنا بالتفصيل عن هذه المرحلة الخطيرة، فيقول: "إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً بَيْضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ -أي الإنسان- الْإِيمَانَ ابْيَضَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّ النِّفَاقَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ النِّفَاقُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ سَوَادًا، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ النِّفَاقَ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ". قَالَ: "وَاللُّمْظَةُ هِيَ الذَّوْقَةُ، وَهُوَ أَنْ يَلْمُظَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ شَيْئًا يَسِيرًا: أَيْ يَتَذَوَّقَهُ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ يَدْخُلُ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، ثُمَّ يَتَّسِعُ فِيهِ فَيَكْثُرُ"(١).

إذن: فمرحلة الران أدت إلى مرحلة الإغفال، ومرحلة الإغفال أدت إلى مرحلة الطبع، وصاحَبَ ذلك أن تكون قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقر، وحينها لا تسمع ما يقال لها من خير، فهل تنتقل القلوب المذنبة إلى مرحلة أشد؟

الجواب: هنا تأتي:

---

(١) شعب الإيمان (٣٨)، وورد الحديث أيضًا في السُّنة لأبي بكر بن الخلال (١٦٠١)، قال المحقق: وإسناده ضعيف؛ لأنه منقطع.

المرحلة السادسة: وهي مرحلة الإقفال:

وقال الله تعالى عنها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، **وكأن الأكنة التي جعلوا قلوبهم فيها أقفلت بأقفالٍ محكمة.**

فتغلق المنافذ على تلك القلوب، ويصبح الشر لها أحب من كل شيء؛ إذ لا منفذ للخير يصل إليه ليراه. ويصوِّر ابن القيم رحمه الله حال هذا القلب وقد أحاطت به الأقفال فيقول: "وكأن القلب بمنزلة الباب المُرْتَجِّ، الذي قد ضُرِب عليه قفل. فإنه ما لم يَفْتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان ولا القرآن"(١).

ثم تأتي المرحلة السابعة: الختم:

وهي التي ذكرها الله تعالى في أول البقرة لبيان أن صاحبها لا ينتفع بالإنذار أبدًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٦، ٧]:

ويظهر لي أن المرحلة الأخيرة هي الختم، وإن كنت مترددًا أيهما أسبق: الإقفال أم الختم، فالختم يأتي بعد أن تغلق الظَّرْف وتُحْكِم إغلاقه بوضع الطابع.

فهذه الآية الثامنة تصوِّر لنا القلوب وقد ظهرت في صورة صلدة، مظلمة، جامدة، لا يمكن أن يصل إليها الخير.

وعند قراءة تفصيل هذه المراحل نظمها الشيخ عامر الخميسي، فقال:

والقلبُ يغشاه رانٌ ثم إغفالُ ... طَبْعُ الأَكِنَّةِ وقرٌ تلك أثقالُ
والختمُ إن لَجَّ في العصيانِ مُقْتَرِفًا ... هو الأخيرُ وبعضٌ قال إقفالُ

---

(١) شفاء العليل (ص: ٩٥).

ونظمها د/ سعيد بن دحباج، فقال:

رانت على القلبِ الذنوبُ فأَعْقَبَ الـ (الإغفالُ) ثم (الطبعُ) و(الأكنانُ)
وتحمَّلتْ (وِقرَ) الخطايا وَيْحها (بالقُفْل) أَحْكَم قَيْدَها السَّجَّانُ
و(الختمُ) مرسومٌ بخِذلانِ الذي لم يَهْدِهِ لسبيلِه الرحمنُ

العقوبة النفسية المهلكة في تحليل الإمام مجاهد ﵀ لكيفية الختم وأسبابه:

بصَّر القرآنُ المجيدُ عيني مجاهد بن جبر ﵀ فأخبرنا عن كيفية الختم بنور قرآني، ونظرة تنبع من الذكر الحكيم، حيث يحكي صاحبه الأَعْمَش ﵀ تربيته القرآنية لهم، فيقول: أَرَانَا مُجَاهِدٌ بِيَدِهِ فَقَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْقَلْبَ فِي مِثْلِ هَذِهِ -يَعْنِي: الْكَفَّ- فَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا ضُمَّ مِنْهُ، وَقَالَ بِأُصْبُعِهِ الْخِنْصَرِ هَكَذَا، فَإِذَا أَذْنَبَ ضُمَّ. وَقَالَ بِأُصْبُعٍ أُخْرَى، فَإِذَا أَذْنَبَ ضُمّ. وَقَالَ بِأُصْبُعٍ أُخْرَى وَهَكَذَا، حَتَّى ضَمَّ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا، ثُمَّ قَالَ: يُطْبَعُ عَلَيْهِ بِطَابَعٍ، وقال: نُبِّئْتُ أَنَّ الذنوبَ على القلب تحُفُّ به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤُها عليه الطَّبعُ، وقَالَ ابْنُ جُرَيْج ﵀: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ كَثِير، أَنَّهُ سَمِعَ مُجَاهِدًا يَقُولُ: "الرّانُ أَيْسَرُ مِنَ الطَّبْعِ، وَالطَّبْعُ أَيْسَرُ مِنَ الْإِقْفَالِ، وَالْإِقْفَالُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ"(١).

بصيرة: أسند الله تعالى الختم إلى نفسه بالفعل الماضي في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧] **ليبصرنا بأنه جَمَعَ بين العلم والعدل والقدرة، فحَكَمَ على هؤلاء المعاندين بما يستحقُّونه، وختم على قلوبهم جزاءً وفاقًا، وأبانت الآيات الأخرى ذلك مثل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾** [الصف: ٥].

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٥٨)، وقد حكم إسلام منصور على هذه الآثار بالضعف. ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٠٥)، طبعة دار الحديث.

هنا نؤكِّد على الجواب عن السؤال: ما ذنب الإنسان إن أغفل الله تعالى قلبه عن ذكره، وطبع عليه، وجعل عليه الأكنة، وعلى أذنه الوقر، وختم عليه؟ ما ذنبه حتى يحاسب على أمرٍ الله أسنده إلى نفسه؟ وسؤال يقوي هذا السؤال: وجدنا التعبير عن الختم بالفعل الماضي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فهل هذا يعني أنهم مجبورون عَلَى الْكُفْرِ، وعلى أن الله تَعَالَى منعهم الإيمان بالقهر؟

الجواب أننا لو تدبرنا ذلك مليًّا لوجدنا أن التعبير بالفعل الماضي مدهش في الجمع بين قضيتين معًا:

القضية الأولى: إثبات القدَر الذي ترى فيه حكم الله ﷻ.. فلقد أصدر الحكم عليهم بناء على كمال علمه وقدرته وعدله، ولذا أسند ﷷ الختم إليه؛ لأن ذلك أقوى درجات العدالة والعلم السابق.

القضية الثانية: إثبات الاختيار لهم من جهة أخرى؛ إذ قد أخبرنا في الآية السابقة أنهم اختاروا الكفر أي تغطية الحقَّ، فقال: ﴿إن الذين كفروا﴾ لم يقل: إن الذين أجبرناهم على الكفر.

عد معي أخبرك اليقينا! فعندما تنظر في المراحل السبع السابقة، ترى تعاضد الآيات وتناصرها في إثبات الاختيار، وأن الختم حُكْمٌ استحقوه بناء على حركتهم وكسبهم وأفعالهم من جهة، وعلى علم الله تعالى وقضائه القسط من جهة أخرى[1].

---

(١) اختلف المفسرون في الختم: هل هو حقيقة أم مجاز؟ سأترك هذه المسألة على المنهج الذي اتبعته من عدم الخوض فيما يأخذنا بعيدًا عن بصائر الآيات، فإن المفسرين ما زالوا مختلفين في هذه المسألة، ولا يظهر أننا بحاجة للخوض في اختلافهم في هذا الموضع؛ إذ لا يترتب عليها عمل في الواقع، ولو نظرت في بعض المسائل التي اختلفوا فيها لوجدتها مسائل جدلية كلامية ثار غبار غشي العيون فيها عن الصواب بين المعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث، ثم بين طوائف داخل تلك الفرق، وقد يكون الصواب مفرقًا بينهم، وما لأحد منهم من دليل يخبر عن عصمته دون الآخرين، وقد استهلكتهم هذه المجادلات

ولكن قد يقول قائل: ماذا ترى في عبارة العاصي: لو أراد الله أن يهديني لفعل.. ماذا ترى في هذه العبارة التي وردت في سورة الزمر على لسان الخاسر؟

فالجواب: أن العبارة صحيحة، والاستعمال خاطئ، فإن الله تعالى لو أراد أن يجبرك لفعل، لكنه أعطاك الاختيار ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف:٢٩]، أيها الإنسان: لا تزد وضعك سوءًا بأن تذنب، وتتطرف في ذنبك وعنادك، ثم تنسب ذلك إلى ربك جل جلاله، فقد أخبرك الرحمن الرحيم بالواقع البائس المؤلم للمنافقين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقد ذكر الله أن هذه هي

–رحمهم الله– فأنستهم حظًا عظيمًا مما ينبغي لهم أن يجتمعوا عليه في دعوة العالمين إلى الخير، وفي الحذر من سنن الدمار التي تحيط بهم، فكانت عاقبة ذلك خسرًا.

وفي خصوص هذه المسألة: فقد نقل ابن عطية رحمه الله ثلاثة أقوال في المسألة، ثم رأيت الطاهر رحمه الله يعقب على ابن عطية، فيقول: "ولَيْسَ الخَتْمُ عَلى القُلُوبِ والأسْماعِ ولا الغِشاوَةُ عَلى الأبْصارِ هُنا حَقِيقَةً كَما تَوَهَّمَهُ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ فِيما نَقَلَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ بَلْ ذَلِكَ جارٍ عَلى طَرِيقَةِ المَجازِ"، ولا أدري ما الذي يضطر السابقين واللاحقين إلى مثل هذه الأبحاث التي لم يكلفوا بها، وما أملك إلا أن أردد قول حميدان بن يحيى القاسمي:

ما الذي ألجأهم إلى الخَطَرْ ... والخوضِ في علم الغيبِ بالنظرْ
وما يقال فيه للمخطي كفرْ ... وفي النبي أسوةٌ ومعتبرْ
وقدوةٌ محمودةٌ لمن شكرْ ... ولم يخالف في الوهوم والفكرْ
فإنه للفكر في الله حظرْ ... وفي عجيبِ الصُّنعِ بالفكر أمرْ

وإنك لترى نار البغي المستعرة قد تسلطت على الفرق في مسائل، فحجبت بهاء القرآن ونور آياته، وها هو الطاهر على أنه المحقق الذي يحكم بين أساطين المفسرين يقف منتصرًا لجهة منهم كأن التحقيق قد غاب عنه، فيقول: "ولا يُرَدُّ عَلَيْنا أنَّهُ كَيْفَ أقْدَرَهم عَلى فِعْلِ المَعاصِي؟ لِأنَّهُ يرد عَلى المُعْتَزِلَةِ أيْضًا أنَّهُ كَيْفَ عَلِمَ بَعْدَ أنْ أقْدَرَهم بِأنَّهم شارِعُونَ في المَعاصِي ولَمْ يَسْلُبْ عَنْهُمُ القُدْرَةَ فَكانَ مَذْهَبُ الأشاعِرَةِ أسْعَدَ بِالتَّحْقِيقِ وأجْرى عَلى طَرِيقِ الجَمْعِ بَيْنَ ما طَفَحَ بِهِ الكِتابُ والسُّنَّةُ مِنَ الأدِلَّةِ. ولَنا فِيهِ تَحْقِيقٌ أعْلى مِن هَذا بَسَطْناهُ في رِسالَةِ القُدْرَةِ والتَّقَدُّرِ الَّتِي لَمّا تَظْهَرْ". ينظر: المحرر الوجيز (١/ ٨)، التحرير والتنوير (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

حجة الكافرين جمعيًا ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

أيها الإنسان: الختم عقوبة عادلة لمن فسق وأذنب وأجرم وعاند مع أنه يعلم الصواب، ويدري الأبواب التي ترضي الملك الوهاب.. حدثك ﷻ عمن يعبد نفسه، ومع أنه يعلم الصواب إلا أنه يجلب لنفسه باستكباره شقاءه وتعسه، فقال تعَالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].. انتبه: فهو لم يقل: من أجبرناه على اتباع هواه، بل من اتخذ إلهه هواه أي باختياره.

أيها الإنسان: إنك مهما حاولت التنصُّل من مسؤوليتك تجاه قراراتك وتصرفاتك فإنك لا تستطيع؛ فواقع الحال يحكي أن لديك مجالًا للاختيار في أن تسلك أي النجدين، وتلزم أحد السبيلين، لا يرغمك على ذلك أحد، وأنت حينما تحاسب يوم التغابن إنما تحاسب وتؤاخذ على هذا القدر من حرية الاختيار الذي لا تستطيع له إنكارًا، وأنت مع ذلك لم ولن تخرج عما أراده الله وشاءه أزلًا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

أيها الإنسان! لا تتهرب من المسؤولية.. أوضح الله تعالى أنك تتحمل عاقبة اختياراتك، فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

أيها الإنسان: لا تلقي التَّبِعة على ربك ﷻ، وهو الذي يدعوك إلى الهدى، ويخبرك أنه يطبع على القلب الذي يصِّر على فعل الكفر: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النِّساء: ١٥٥].

أيها الإنسان: إن ربك استمع لمجرمين زعموا أنهم لا يستطيعون التوبة والإيمان، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البَقَرَة: ٨٨]، فرد الله عليهم فقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].

أيها الإنسان: يكلمك ربك مرات أنه الرحمن الرحيم ولكنه أيضًا الملك الذي يأمر بالعدل، فهو الحق المبين ولذلك يخبرك محذرًا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر ٣٥]، فلِمَ تتكبر؟ لِـمَ تتجبر؟ ولـمَ تزعم بعد ذلك أن الله طبع على قلبك، فلا تستطيع أن تترك التجبر والتكبر؟ أنت تعلم أن طبع الله تعالى على قلب المتكبر جاء بسبب تكبره وتكرار هذا التكبر، والإصرار على ذلك التكبر.. اتخذ الخطوة الصحيحة، وعد إلى الرشد واترك الغي، انبذ هواك وأطع مولاك، وارجع قبل أن يختم على قلبك.

أيها الإنسان: عندما يسند ربك الختم إليه، فما ذلك إلا عقوبة عادلة، لقلب أسرف وبغى وتكبر وطغى، والله هو الحكم العدل الذي يجازي الذين أساؤوا بما عملوا ويجازي الذي أحسنوا بالحسنى، لا تجعل ذلك ظلمًا.. كن صادقًا مع نفسك.. فما ذلك إلا عقوبةٌ عادلة، وربك يقول لك: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف:٢٨].

أيها الإنسان: لا تتابع الذنوب وتعرض عن الوهاب علام الغيوب، وتكون من الذين وصفهم ربك فقال: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤].

صفة الختم تبيِّن لك خطورة تغطية الحق والعناد، والإعراض عن نصح الناصحين، وإنذار المنذرين؛ والبقاء على أعمال الذنوب، ومخالفة كلام علام الغيوب؛ إذ يكون المآل أن يختم الله تعالى على قلوب هؤلاء المعرضين، وعلى سمعهم، ويجعل على بصرهم غشاوة.

ويصوِّر الفراهي ﵀ مسؤولية الإنسان في جلب الختم إلى قلبه، فيقول: "جعل الله أحوال القلب أسبابًا لأعمالها وإرادتها، وبيَّن أن القلب يَفْسُد بالسيئات حتى يصير لا ينفعه نصح ولا إنذار كالمريض الذي لا يرجى بُرْؤُه، بل كالذي شرب السمَّ فمات فلا ينفعه علاج الطبيب حينها"(١).

هنا نجيب على سؤال آخر: لماذا ذكر الله ﷻ مرحلة الختم على القلوب في أول المصحف مع أن الختم آخر المراحل؟

الجواب: إنه كلام ربك الرحمن الرحيم، فلرحمته بك أخبرك أن رحمته لا تنافي عدله، ومن أول هذه السورة أخبرك أن المتقين اختاروا أن يؤمنوا بالغيب، ويقوموا بالأعمال الصالحات الذاتية مثل إقامة الصلاة، والمتعدية مثل النفقة ممَّا رزقهم ربهم ﷻ، فكافأهم بأنهم المفلحون، وأخبرك أيضًا أن الذين اختاروا الكفر ورَسَخَ هذا الكفرُ عندهم لا يؤمنون، فاستحقُّوا أن يختم الله تعالى على قلوبهم، فذِكْرُ الختم في هذا الموضع تحذير مبكر، وإنذار متقدِّم وهذا من رحمة بك ﷻ.

دعني أختم لك بنور البصائر التي نستلهمها من مشكاة النبوة، فعن حُذَيْفَةَ ﵁ قال: **سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السموات وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**(٢).

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٣٨).

(٢) مسلم (١٤٤)، و(مربادًّا): مسودًا، و(مجخيًّا): مائلًا عَن الاسْتقَامَة منكوسًا.

فكلُّ أوضاع الدنيا التي يُفتن بها الإنسان، فيُختبر فيها في كلِّ نَفَسٍ يتنفسه مثل الأكل والشرب والنوم والنَّفَس والأهل والمال والولد والصداقة والأعمال، فتجدها القلوب في حياتها ملاصقة لها، كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثِّر فيه، فمن اختار الفتنة أي رضي الاختيار السيء فهو صاحب القلب الذي أُشربها، فقد اختار أن تدخل فيه دخولًا تامًّا وحلت منه محل الشراب، فتنكت مع كل فتنة اختارها نكتة سوداء، والذي ينكر الحرام منها، ويختار الحلال تنكت فيه نكتة بيضاء، وتتكاثر النُّكَت السوداء والبيضاء حسب الاختيار حتى تصير القلوب على صنفين:

أبيض مثل الصَّفا: وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء

والآخر أسود (مُرْبادًّا): وهو شيء من بياض يسير يخالط السواد.

فهذا ما يتعلَّق بالحكم العدل في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة:٧].

وجدير بنا هنا أن نقف مع لفظ (القلوب)، ونتساءل: ما المراد بها؟

الجواب: في لغة العرب قَلْب كلِّ شيء: لُبُّه وخالصه ومَحْضُه، وقَلْب النخلة بفتح القاف وضمها وكسرها: لُبُّها تحت الليف والسعف، ويكون طيب المذاق.

والقلب ردُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ معاكسة، يكون في الأمام فتقلبه إلى الخلف، وبالعكس، ويكون في الأعلى، فيرد إلى الأسفل وبالعكس، وفي الأجمل فيرجع إلى الأردأ وبالعكس، فقَلَبْتُ الثَّوْبَ قَلْبًا حولته من جهة إلى جهة مضادة، والمِقْلَب - كمنجل: الحديدة التي تقلب بها الأرض للزراعة.

فالقلب محور الشيء وخالصته التي بها يُقلِّب الأمور، فسمي القَلْب قلبًا لأنه محور حياة الجسد، وحسب فهمه، وفقهه تتضح أمور الحياة، وهو الذي يفقه فيقيم الأمور كما ينبغي أو

يقلبها ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وَقَالَ بعضُهُم: سُمّي القَلْبُ قَلباً لِتَقَلُّبِه، وأنشد:

مَا سُــمِّيَ الـقَـلْـبُ إلاَّ مِـنْ تَـقَـلُّـبِـهِ   والرَّأْيُ يَصْـرِفُ بالإِنسـانِ أَطْوارَا[١]

فالقلب المراد هنا مركز التفكير الأصلي الذي به يتمُّ الاختيار، وهو بمعنى (العقل) في الاستعمال القرآني، وإن كان لفظ (العقل) لم يرد في القرآن، فإن بعض أفعاله المشتقة قد وردت في كتاب الله تعالى، لكنها مسندة إلى القلوب أو مستقلة عنها.

لعلك تسأل: ما معنى (سمعهم)؟

أجيبك: السمْع جمعه أسماع: وهو قوّة في الأذن به تُدرك الأصوات، وفِعْله يقال له السَّمْعُ أيضًا، تَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والْمِسْمَعُ والْمَسْمَعُ: خَرْقُ الأذن، وبه شُبِّه حَلْقةُ مِسْمَع الغَرْب وهي الدلو العظيمة وأَسْمع الدلو: جعل لها عُروة[٢].

فإن قلت: على ماذا يطلق السمع؟

١) يطلق السمع على الأذن، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ويظهر لي هنا أن المراد قوة السمع التي أداتها الأذن، وليس الأذن، فالأصل إجراء اللفظ على ظاهره الأول، فكم من ذي أذن ولا يسمع.

٢) ويطلق على السماع نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]: أي عن الاستماع.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٩/ ١٤٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٢٨).

(٢) ينظر: تاج العروس (٢١/ ٢٢٣-٢٢٦).

٣) ويطلق على الفهم، كما تقول لمن تحدثه: أنت لا تسمع ما أقول لك مع أنه سمع ما قلتَ، وتعني أنه لم يفهم، ومنه قول العصاة: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [النساء: ٤٦]، أي: فهمنا قولك ولم نأتمر لك.

٤) ويطلق على الطاعة، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، يجوز أن يكون معناه: فَهِمنا وهم لا يفهمون، وأن يكون معناه: فَهِمنا وهم لا يعملون بموجبه، وإذا لم يعمل بموجبه فهو في حكم من لم يسمع.

٥) يطلق السمع على الإجابة والقبول كقولك: سمع الله لمن حمده أي أجابه وقبل منه(١).

إذن فالختم على السمع في هذه الآية معناه: الختم على القوة التي بها يدرك الكلام المسموع، فيسمعه لكنه لا يفهمه ولا يتأثر به، ولا يحاول ذلك.

فإن سألت: ما معنى ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾؟

الجواب: جمع بصر، والبصر:

يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فيقال: انظر لبَصَره: أي لعَيْنه.

ويقال: للقوة الموجودة في تلك الجارحة التي يدرك بها الأشياء المرئية، فيقال: ما لفلان ما عنده بَصَر؟ أي ما يرى بعينه.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢٥).

ويقال لقوة القلب المُدركة: بَصِيرَة وبَصَر، نحو قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي: على معرفة وتحقُّق، وقوله: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤] أي: من جوارحه بصيرة، تبصره فتشهد له وعليه يوم القيامة(١).

وعرفه الزمخشري رحمه الله، فقال: "والبصر: نور العين، وهو ما يُبصر به الرائي ويدرك المرئيات. كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله عز وجل فيهما آلتين للإبصار والاستبصار"(٢).

والأصل تفسير البصر في حقِّ المخلوق بأنه ما يُدرك برؤية العين، فإذا جاء ما يتعلق به مثل: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فُسِّر بما يتعلق به، أي: فستعلم ويعلمون عِلمًا واصلًا في إدراكه كأنك تشاهده بعينك، ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٥]: وأبصِرْهم وما يُقْضَى عليهم من الهزيمة والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصر والتأييد والثواب في العاقبة.

وإذ قد علمنا المراد بالأبصار فما معنى ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؟

فالجواب -أيدك الله- الغشاوة الغطاء فِعالة من غَشِيَهُ وتَغَشَّاهُ، وهي ما يغطّى به الشيء، وغَشَّيْتُهُ كذا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ﴾ [لقمان: ٣٢] غِشَاوَةً وغِشَاءً، والظاهر أن التغشية تغطية جاءته من مكان خارجي، كقوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾ [يوسف: ١٠٧] أي: نائبة تَتَغْشَاهُمْ وتغطيهم، ومنه يقال: تغشّاه الهمُّ: إذا تجلَّله وركِبه، وكلُّ مَا اشْتَمَل على شيءٍ فَمَبْنيٌّ على فِعالَةٍ كعِمامَةٍ وعِصابَةٍ؛ وَكَذَا الصِّناعاتُ لاشْتِمالِها على مَا فِيهَا كالخِياطَةِ والقِصارَةِ(٣).

فهذه الغشاوة تغطِّي العين فلا تمكنها من رؤية الأشياء على حقيقتها عندها لا يبصر صاحبها الحقائق، فيصرُّ على غيه، ومنه قول الشاعر

تَبِعْتُكَ إذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ ... فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطعتُ نَفْسِي أَلُومُهَا(٤)

ولربما تساءلت فقلت: لماذا جاءت كلمة ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ نكرة؟

والجواب عن ذلك أن التنكير -حسب السياق هنا- يصوِّر لنا أن على أبصارهم نوعًا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التَّعامي عن آيات الله تعالى(٥)، فجاء تنكير "غِشَاوَةٍ"؛ لإِفادة أنَّها نوعٌ خاصٌّ يحجُبُ فقط رؤية آيات الله تعالى، وقد دلَّ على هذا أَنَّهُم يَرَوْن بأبصارهم أشياء كثيرة إلاَّ أنهم محجوبون عن إدْراك آيات الله ﷻ (٦).

ولا بد أن تتساءل عندما تقرأ الآية: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ فاللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية، فهل الأسماع مختوم عليها أم عليها غشاوة؟

هكذا طرح الزمخشري ﵀ السؤال، ثم أجاب عنه بالمتفق عليه، وهو:

أن السمع يدخل في حكم، الختم وليس في حكم الغشاوة؛ لأن ذلك مقتضى اللغة، ولما أرشدتنا له آية الجاثية، حيث قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولربما بدا لك أن تسأل: لماذا خصَّ الله ﷻ القلب والسمع بالختم، وخصَّ البصر بالغشاوة؟

---

(١) ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/ ١٩٥).

(٢) الكشاف (١/ ٥٣).

(٣) ينظر: تاج العروس (٣٩/ ١٦٥).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٦٥)، والبيت في شرح ديوان الحماسة، أبو زكريا يحيى بن محمد التبريزي، دار القلم، دمشق، (٢/ ٩١).

(٥) ينظر: الكشاف (١/ ٥٣).

(٦) البلاغة العربية (١/ ٤٠٧).

الجواب: خَصَّ الْقَلْبَ وَالسَّمْعَ بالختم؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ السَّمْعِيَّةَ التي ينقلها الناس لَا تُسْتَفَادُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ، وَالْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ لَا تُسْتَفَادُ إِلَّا مِنْ جَانِبِ الْقَلْبِ، وأزيدك إيضاحًا فالقَلْب والسمع؛ يتبادلان المنفعة، ففائدة السمع أن يُوْصِل إلى العقل (القلب) المعلومة التي يستطيع العقل تحليلها وتمييزها، وإلا كان لا فائدة منه كالمجنون يسمع ولا يعقل، وكذلك فإن العقل يعطي للسمع قيمته عندما يجعله يميز بين المسموعات المختلفة.

وكلٌّ منهما مكنونان مستتران، والْخَتْم يَكُون عَلَى الْمَكْنُونِ الْمَسْتُورِ، وَأَمَّا الْبَصَرُ فَالْحَاسَّةُ مِنْهُ ظَاهِرَةٌ مُنْكَشِفَةٌ.

هنا تعلم أن كلَّ كلمة في القرآن لا بد أن تُخْفِيَ علمًا يتدبره المتدبرون، فمِثْلُ هَذِهِ الدَّقَائِقِ هِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِ صَاحِبِ التَّلْخِيصِ: "وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ"[١].

هنا لا بد أن تتساءل أيضًا: أيُّ فائدة في تكرير الجارِّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾؟ لمَ لمْ يقل: ختم على قلوبهم وسمعهم؟

الجواب: تكرير الجارِّ يدل على اختلاف نوع الختم، بناء على اختلاف وظيفة كلٍّ منهما، فتعدِّي الختم إلى القلوب يختلف عن تعدِّيه إلى الأسماع، وكما يقول الزمخشري ﷺ: "لو لم يكرَّر لكان انتظامًا للقلوب والأسماع في تَعْدِية واحدة، وحين استجدَّ للأسماع تَعْدِية على حِدَةٍ، كان أدلَّ على شِدَّة الختم في الموضعين"[٢]، أو كما قال النَّورسي ﷺ: "كرَّر (على) للإشارة الى استقلال كلٍّ بنوع من الدلائل، فالقلب بالدلائل العقلية والوجدانية، والسمع بالدلائل النقلية والخارجية، وللرمز إلى أن خَتْم السمع ليس من جنس خَتْم القلب"[٣].

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٩٤)، تفسير المنار (١/ ١٢٣).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٥٣).

(٣) إشارات الإعجاز، للنورسي، (ص: ٨٥).

وتالله إنها لعقوبة مُرَّة أن يُختَم على السمع، فلا يستجيب لنداء الله تعالى، ولا يَلْتذُّ بخطابه، مع أن المُوَفق من عباد الله "ليسمعُ من تَرَنُمات هبوب الريح، ومن نَعَرات رعد الغيم، ومن نَغَمات أمواج البحر، ومن صرخات دَقْدَقة الحَجَر، ومن هَزِجات نزول المطر، ومن سَجَعات غناء الطير كلامًا ربانيًّا، ويفهم تسبيحًا علويًّا، كأن الكائنات تُهيِّج في قلبه حزنًا علويًّا، وعِشقًا روحانيًّا.. وإذا أظلم ذلك السمع بالكفر صار أصمَّ من تلك الأصوات اللذيذة"(١).

لكنك قد تسأل: لماذا جمع الله ﷻ القلوب والأبصار، وأفرد السمع مع أنه إنْ ذكر الآذان جَمَع، كما في قَوْلِهِ ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] وقَوْلِهِ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]؟

الجواب: أفضل من وجدته أجاب عن ذلك هو الأستاذ محمد عبده(٢)، فقد حاول التماس الحكمة بعد إذ لم يجد قوّة لتدبُّر من سبقه، فقرَّر أن الله ﷻ جمع القلوب؛ لأن الْعَقْلَ لَهُ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ، فَلَيْسَ النَّاسُ فِيهِ سَوَاءً، فَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِ، ولتنوع تصرفهم حسب مداركهم بِخِلَافِ السَّمْعِ، فَإِنَّ أَسْمَاعَ النَّاسِ تَتَسَاوَى فِي إِدْرَاكِ الْمَسْمُوعَاتِ، فَلَا تَتَشَعَّبُ تَشَعُّبَ الْعُقُولِ فِي إِدْرَاكِ الْمَعْقُولَاتِ، فأنت تسمع الكلمة التي يسمعها غيرك، ولكن عقلك يُحلِّلُها تحليلًا قد يختلف اختلافًا جزئيًّا أو كليًّا عن غيرك، وَأَمَّا الْأَبْصَارُ: فَهِيَ مِثْلُ الْعُقُولِ فِي التَّشَعُّبِ، وَالأبصار أَعْظَمُ مُعِينٍ لِلْعُقُولِ فِي إِدْرَاكِهَا؛ لِأَنَّ أَنْوَاعَ الْمُبْصِرَاتِ كَثِيرَةٌ فَتُعْطِي لِلْعَقْلِ مَوَادَّ كَثِيرَةً، وَالسَّمْعُ لَا يُدْرِكُ إِلَّا الصَّوْتَ، وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ عِنْدَ النَّقْلِ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ إِلَّا التَّوَاتُرُ بِخِلَافِ مَا نَقْطَعُ فِيهِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ

(١) إشارات الإعجاز، للنورسي، (ص: ٧٧) بتصرف.
(٢) تفسير المنار (١/ ١٢١).

وَالْبَصَرِ، فَهُوَ كَثِيرٌ، فَالْأَوَّلِيَّاتُ كَالْحُكْمِ أَنَّ الْجُزْءَ أَصْغَرُ مِنَ الْكُلِّ وَأَنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، وَالْقَضَايَا الَّتِي قِيَاسَاتُهَا مَعَهَا مِنَ الْمَعْقُولَاتِ الْمَحْضَةِ، وَالتَّجْرِيبِيَّاتِ وَالْحَدْسِيَّاتِ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْعَقْلُ وَالْبَصَرُ، وَالْقِسْمُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ سَبِيلُ الْإِدْرَاكِ فِيهِ الْبَصَرُ، فَالْعُقُولُ وَالْأَبْصَارُ بِمَنْزِلَةِ يَنَابِيعَ كَثِيرَةٍ تَنْبَجِسُ مِنْ كُلٍّ مِنْهَا عُيُونٌ لِلْعِلْمِ مُخْتَلِفَةٌ، بِخِلَافِ السَّمْعِ فَإِنَّهُ يَنْبُوعٌ وَاحِدٌ لَا اخْتِلَافَ فِيمَا يَصْدُرُ عَنْهُ، وَإِنَّ الْمُشَاهَدَةَ قَاضِيَةٌ بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا مُنْتَهَى لِتَصَرُّفِهِ، وَبِأَنَّ أَقَلَّ مَا قِيلَ فِي الْبَصَرِ: إِنَّهُ يُدْرِكُ الْأَلْوَانَ، وَالْأَشْكَالَ، وَالْمَقَادِيرَ. وَالسَّمْعُ: لَا يُدْرِكُ إِلَّا الْأَصْوَاتَ فَقَطْ، وأمّا الأسْماعُ فَإنَّما كانَتْ تَتَعَلَّقُ بِسَماعِ ما يُلْقى إِلَيْها مِنَ الْقُرْآنِ، فالجَماعاتُ إذا سَمِعُوا القُرْآنَ سَمِعُوهُ سَماعًا مُتَساوِيًا وإنَّما يَتَفاوَتُونَ في تَدَبُّرِهِ، والتَّدَبُّرُ مِن عَمَلِ العُقُولِ فَلَمّا اتَّحَدَ تَعَلُّقُها بِالمَسْمُوعاتِ جُعِلَتْ سَمْعًا واحِدًا.

وَإِنْ كَانَ مَا يَصِلُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ قَدْ يَتَضَمَّنُ حِكَايَةً عَنْ مَعْقُولٍ أَوْ مُبْصِرٍ، وَلَكِنَّ وُرُودَهُ عَلَى الْحِكَايَةِ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَتِهِ، فَهُوَ مَعْقُولٌ أَوْ مُبْصَرٌ.

الصفة الرابعة: وهي صفةٌ أخروية مآليةٌ جسديةٌ، ويبصِّرنا بها قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، وَالْعَذَابُ اسْمٌ لِمَا يُؤْلِمُ ويوجع من الضرب والإهانة والحرمان التي تَذْهَبُ بِعُذُوبَةِ الْحَيَاةِ:

تأمل جمال التنسيق والتناغم بين جمل الآية!

ولنضع التأمل في ذلك على هيئة سؤال: جاءت هذه الصفة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في آخر الآية لتبين مآلهم بعد تلك الحياة المجرمة، فلماذا جاءت في هذا الموضع؟

الجواب: لقد جاءت في موضعها المنطقي المناسب الذي يقتضيه الكلام، فبعد أن وصف الله ﷻ حياتهم المظلمة، وإصرارهم على الكفر بعناد وفساد، وإصرارهم على عدم الالتفات إلى الإنذار حتى وصل بهم الأمر إلى أن ختم العدل الحكيم على قلوبهم.. بعد ذلك كله يأتي

ذكر العقوبة الجسدية، فيقول الله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧] لكأنه يحكي كيف طال عليهم العمر، وقد خُتم على قلوبهم.. عند ذاك أصابتهم قارعة العذاب العظيم، وهذه العقوبة قد تكون دنيويةً (تقع أو لا تقع حسب مشيئة الله تعالى)، وأما في الآخرة فهي مؤكَّدة الوقوع نسأل الله العافية.

لكنك ربما تساءلت: لماذا اختيرت كلمة ﴿عذاب﴾ للتعبير عن العقوبة التي سيتلقاها هذا الصنف المجرم يوم القيامة؟ فلماذا لم يختر كلمة عقوبة مثلًا؟

الجواب: لأن هذه الكلمة كافية لأن يعيدوا النظر والتفكير، وأن يستدركوا أنفسهم قبل يوم الجزاء الكبير، فكلمة ﴿عذاب﴾ جاء اشتقاقها من العَذَبة -بالفتح وبالتحريك وكفرِحة وَالْجَمْعُ عَذَبٌ: طَرَف السوط، والسيف، واللسان.

وكذلك العَذَبة، الطُحْلَب، وهي طبقة خضراء تعلو الماء الراكد في الحوض أو نحوه، فيقال: اضْرب عَذَبة الحَوْض حتى يظهر الماء، فالعذبة هنا هو الطُحْلَب، وتضربها بعذبة السوط أو أعواد الشجر حتى يعذب الماء،

والْعَذَابُ اشتُق من هذا، فيقال: عَذَّبَ تَعْذِيبًا، إذا ضرب كما يضرب الماء لإزالة كَدَره، قال زُهَيْر:

وَخَلْفَهَا سَـــائِقٌ يَحْـدُو إِذَا خَشِــيَـتْ   مِنْـهُ الْعَـذَابَ تَمُـدُّ الصُّـلْـبَ وَالْعُنُقَـا

ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ شِدَّةٍ.

هنا تدرك قوة هذه الكلمة في التعبير عن العقوبة، وتدرك معنى هذه الكلمة المفجعة (عذاب)، فيقال: عَذَّبْتُهُ أي: أزلت عَذْبَ حياته بأن ضربته بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، على

بناء مرَّضته: أي عالجته حتى أزلت مرضه، وبذا يقال: عَذَبَ الرّجلُ يعذِب: إذا ترك المأكل والنَّوم، فهو عَاذِبٌ وعَذُوبٌ(١).

فالعذاب حمل الإنسان على أن يعذِبَ، أي: أن تُزال منه عذوبة الحياة، فيجوع ويسهر، ويُضرَب، ويتلوى من الألم الجسدي، ويذوق الأوجاع النفسية المهينة.

وأسوأ العذاب أن كل ما يجده من الآلام يجعله يتمنى الموت ولا يجده ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، فهو إهلاك للقوة الجسدية وتجريع للغُصَص بإيقاع الآلام النفسية، وقانا الله ﷻ من كل أنواعه. اللَّهم آمين.

وبناء على ذلك ورد وصف العذاب في القرآن المجيد على النحو الآتي:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، **وقد تتساءل عن الفرق بينها؟**

الجواب: أولًا: الأليم يقابله اللذيذ، والسّارُّ، والـمُبْهِج، والـمُريح.

والعظيم يقابله الحقير.

والكبير يقابله الصغير.

والمهين يقابله الكريم بمعنى المُكْرِم.

والمقيم يقابله المؤقَّت.

ثانيًا: الأليم صفة لتذوُّق العذاب وبيان لأثره في الجسد.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٥٩، ٢٦٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٢٩، ١٤٣٠).

والعظيم صفة لكيفيته وهيئته في ذاته، فهو يصيب الجِهاتِ كُلَّها بقوّة ظاهرة.

والمهين صفة لأَثْره على النفس والعقل والعاطفة والمكانة.

والكبير صفة لحجمه.

والمقيم صفة لمُدَّته، فهو مستمر لا ينقطع.

ربنا أجرنا من كلِّ عذاب إنك أنت الرحيم الغفار الوهاب.

ولما قرأ الشيخ عامر هذا الجمع لأوصاف العذاب نظمها فقال:

وصفُ العذابِ - ربَّنا أَجِرْنا- في الذِّكر جاء لفظُه ذو معنى

فِصفَّةُ الذَّوق هي "الأليمْ" وصِفَّةُ الذاتِ هي "العظيمْ"

أما "المقيمُ" صِفَّةٌ لمُدَّتِهْ كذا "الكبيرُ" صِفَّةٌ لهَيْئَتِهْ

مُؤَثِّر في النَّفْس والمَكانهْ والعقلُ إن كان "مُهِينًا" شَانهْ

فإن سألت: لماذا جاءت كلمة ﴿عذاب﴾ منكرة هنا؟ وما وجه قوتها؟

أجيبك: إنه الأسلوب المناسب للتخويف عسى أن يرتدعوا، فقيل: التنكير حسب هذا السياق للتهويل، والمقصود أن لهم مِنْ بَيْنِ الآلام العِظام نوعًا عظيمًا لا يعلم كُنْهَهُ إلا الله ﷻ، ولكننا وجدنا الله -عز ذكره- يصف كلمة ﴿عذاب﴾ هنا بأنه ﴿عظيم﴾، فيكون التنكير لكلمة ﴿عذاب﴾ ليس للتهويل، فقد قرَّر الطاهر رحمه الله أن دَلالَةَ التَّنْكِيرِ عَلى التَّعْظِيمِ غَيْرُ وضْعِيَّةٍ[1]، وهنا قد جاءت كلمة ﴿عظيم﴾ تهوِّل العذاب، فلا يكون التنكير للتهويل، وإنما للإبهام المرعب، فهو عذاب مُبهَمٌ لا يمكنكم أن تقارنوه بما في الدنيا، وحسبك هذا الإرعاب، ويعبر عنه الواحدي رحمه الله بقوله: "ومعنى وصف العذاب بالعِظَم، هو المواصلة بين

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٥٨).

أجزاء الآلام بحيث لا تتخللها فُرجة، أو إحداث ألم في كلِّ جزء، أو يخلق ألمًا أشد من أَلَمٍ"(١). اللهم أجرنا من عذابك، ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

لم تنته البصائر القرآنية في الآية؛ إذ تبقى لنا في الآية الإشارة إلى تتمَّة بيانية إعجازية نستكشفها بوضع هذا التساؤل المستبصر: فلماذا قدَّم السمع على البصر؟

الجواب: ورد في القرآن الكريم لفظا السمع والبصر معًا أكثر من ثلاثين مرة، ولفظ السمع فيها مقدَّم على لفظ البصر إلا في ثلاثة مواضع فقط. إنه أمر لافت، ويتعلق به مواضع إعجاز رحيبة، فمن حكم ذلك:

الحكمة الأولى: آلة السمع، وهي الأذن تتكون قبل آلة البصر وهي العين، فتنمو آلة السمع حتى تصل إلى الحجم الطبيعي في نهاية الأسبوع الواحد والعشرين، أما العين فلا يتم تكامُل طبقتها الشبكية الحسَّاسة للضوء إلا بعد الأسبوع الخامس والعشرين.

الحكمة الثانية: الأذن تبدأ في العمل قبل العين، فقد ثبت علميًّا أن الأذن الداخلية للجنين تسمع الأصواتَ في الشهر الخامس، ويسمع الجنين أصوات حركات أمعاء أُمِّهِ وقَلْبِها، ولم تسجل مثل هذه الإشارات العصبية في الجهاز البصري للجنين إلا بعد ولادته، وقريبٌ من ذلك أن يقال: العين تحتاج إلى نور حتى ترى؛ فإن العين لا ترى في الظلام، ولكن الأذن تؤدي مهمتها في الليل والنهار.

الحكمة الثالثة: اكتمال حاسة السمع قبل حاسة البصر بعد خروج الجنين، حيث يمكن للجنين أن يسمع الأصوات بالطريقة الطبيعية بعد بضعة أيام من ولادته بعد أن تُمتص كلُّ السوائل وفضلات الأنسجة المتبقية في أذنه الوسطى والمحيطة بعظيماتها، ثم يصبح السمع حادًّا بعد أيام قلائل من ولادة الطفل.

---

(١) التفسير البسيط (٢/ ١٢١).

أما حاسة البصر فهي ضعيفة جدًّا عند الولاة؛ بل تكاد أن تكون معدومة، ويصعب على الوليد تمييز الضوء من الظلام، ولا يرى إلا صورًا مشوَّشة للمرئيات، وتتحرَّك عيناه دون أن يتمكن من تركيز بصره وتثبيته على الجسم المنظور، ولكنه يبدأ في الشهر الثالث أو الرابع تمييز شكل أُمِّه أو قِنِّينةِ حَلِيْبه وتتبُّع حركاتهما، وعند الشهر السادس يتمكن من تفريق وجوه الأشخاص، إلا أن الوليد في هذا السن يكون ضعيف البصر، ثم يستمرُّ بصره في النمو حتى السنة العاشرة من عمره.

الحكمة الرابعة: تعلُّم النطق يتمُّ عن طرق السمع، والذي يفقد سمعه قبل النطق لا ينطق فيصبح أبكم، فما يتعلم عن طريق السمع دون البصر أوسع بكثير مما يتعلَّم عن طريق البصر دون السمع.

الحكمة الخامسة: إذا نام الإنسان فإنَّ كلَّ شيءٍ يسكن فيه إلا سمعه، فإذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه، فإنه لا يحس، ولكنك إذا أحدثت ضجيجًا بجانب أذنه، فإنه يقوم من نومه فزعًا، ولذا كانت الأذن صلةً بين الإنسان والدنيا، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

ولكنك في المقابل ترى تقدُّم العين على الأذن في آيات، بخلاف السمع الذي يتقدَّم على البصر، وهذا يتناسب مع تقدُّم العين على الأذن في رأس الإنسان، وكشف العلم الحديث عن حقيقة تتناسب مع تقدُّم السمع على البصر، وهي أن مركز السمع يتقدَّم مركز الإبصار في مخ الإنسان تشريحيًّا؛ وهنا ظهرت المعجزة العلمية الباهرة فالترتيب المكاني للسمع والبصر في الآيات يأتي وفقًا للترتيب المكاني لمراكز السمع والبصر في مخ الإنسان.

تعال نتدبر كيف أظهرت هذه الآية جمال البيان القرآني؟

الجواب: تجد جمال البيان القرآني بهيًا جاذبًا لفكرك، فانظر في تقابل هذه المواضع الثلاثة:

الموضع الأول: الصنف المهتدي بالكتاب الذي لا ريب فيه يعرِّفه الله ﷻ، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ..﴾ [البقرة: ٢-٥].

ويقابله الصنف الجاحد المحارب للكتاب الذي ريب فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

الموضع الثاني: يبيِّن الله ﷻ سبب وصول الصنف المهتدي ومكافأته الأولى في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

ويقابل ذلك: سبب وصول الصِّنف الكافر المتطرِّف وعقوبته الأولى، فيقول: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

الموضع الثالث: ويمنح الله ﷻ الصنف المهتدي بالقرآن المكافأة الأخروية الأخيرة، فيقول: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ٥].

ويقابل ذلك: يخبر الله ﷻ عن العقوبة التي يستحقها الصنف الكافر، فيقول: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة ٧].

إنها تراتبية عجيبة آسرة تأخذ باللُّب، وتبرز لك قوَّة إحكام بناء النصِّ القرآني، وتماسك جُمَلِه وعباراته بما لا مزيد عليه.

الصنف الثالث: زاعمو الإيمان من المنافقين وغيرهم [البقرة: ٨-٢٠]

الآيات المتعلِّقة بهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨ - ٢٠].

المناسبة والاتصال:

أراد الله –جل في علاه- أن يملأ العقلية المسلمة بمعرفة الأصناف الثلاثة المؤثِّرة على الواقع العالمي، وموقفها من الانتفاع بدستور الحياة الحقيقي (القرآن):

الصنف الأول: المتقون الذين ينتفعون بالهدايات القرآنية أعظم الانتفاع وينشرونها، وتكشف المعرفة القرآنية نفسيتَهم الصافيةَ المستقيمةَ في اتجاهها، ويُظهِرُ الزمخشري رحمه الله حرصه على إظهار نَظْم الكلام القرآني، فيقرِّر أن الله عز وجل افتتح سورة البقرة بذكر الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبُهم ألسنتَهم، ووافق سِرُّهم عَلَنَهم، وفِعلُهم قولَهم.

ثم ذكر الله ﷻ الصنف الثاني: وهم مقابل الصنف الأول: إنهم الكفار المتطرِّفون، وهم أعداء النور القرآني الذين يغطُّون حقيقة المجد الذي يرسمه القرآن للعالمين، وتكشف المعرفة القرآنية نفسيتَهم المعتمةَ السادرةَ في اتجاهها، فهؤلاء الذين "محَّضوا الكفر ظاهرًا وباطنًا قلوبًا وألسنة" حسب تعبير الزمخشري رحمه الله.

وهذان الفريقان (المتقون، والكفار المتطرفون) واضحان، واستدعى الترتيب المنطقي:

أن يثلِّث بالصنف الثالث: زاعمو الإيمان من المنافقين: إنه الصنف الغامض المؤثِّر على الواقع العالمي، وهو الذي ينتمي إلى المتقين في الظاهر، وإلى الكفار المعاندين في الباطن، وهذا الصنف يتكون من الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ولم يقفوا عند ذلك محايدين، بل حاربوا باطنًا النورَ الذي زعموا التمسُّك به ظاهرًا على درجات متفاوتة، وهم الذين قال فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٣]. إنهم أصحاب النفوس الملتوية المفسدة المريضة المعقَّدة المُقْلِقَة[(١)].

وبذلك تبني المعرفة القرآنية خريطة الواقع العالمي في ذهن المسلم في صورة واضحة ليتمكن من الفهم الواعي للواقع القائم.

حدثنا الله ﷻ عن الصنف الأول وهم المتقون في (٤) آيات، وحدثنا عن الصنف الثاني، وهم الكفار المتطرفون في آيتين، ولكنه حدثنا عن هذا الصنف المنافق في (١٣) آية، فلماذا الإطالة الواضحة في الكلام عن هذا الصنف مقارنة بالصنف الثاني مع اشتراك الصنفين في الكفر المتطرف المعادي؟

الجواب: هذه الإطالة تبين ضخامة الدور الذي يقومون به في محاربة نور القرآن المجيد، وأهلِه، وتزوير الحقائق على العالمين، كما تبين مدى حاجتنا للكشف عن ألاعيبهم

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٥٤).

المجرمة، وأمراضهم السيئة التي يحرصون على نقلها إلى غيرهم، ولخطورتهم الشديدة فَصَّلَ الله تعالى أفعالَهم وصفاتِهم، وأقسامَهم، فَهُم أسوأ من الكفار المعاندين، بل هم كما يقول الزمخشري ﷺ: "أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشرك استهزاء وخداعًا، ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خُبْثهم ومكرهم، وفضحهم وسَفَّهَهم، واستجهلهم واستهزأ بهم، وتهكَّم بفعلهم، وسجَّل بطغيانهم، وعَمَهِهم ودعاهم صمًّا بكمًا عميًا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة"[(١)].

كما أن "العدوّ إذا لم يُعرَف كان أضرَّ، وإذا كان مُخْنَسًا كان أخبث، وإذا كان كذَّابـًا كان أشدَّ فسادًا، وإذا كان داخليًّا كان أعظم ضررًا؛ إذ الداخلي يُفَتِّت الصلابة ويشتِّت القوَّة بخلاف الخارجي فإنه يتسبَّب لتشدد الصَّلَابة العصبية.."[(٢)].

وما جاء في هذه الآيات من سورة البقرة ليس سوى جولة من جولات القرآن الكثيرة في فضح هذا الفريق، بل إن سُوَرًا من كتاب الله تعالى قد توفَّرت على ذاكم الغرض، وأفاضت مستقصية تشخيص حالهم، والتنبيه على مخاطرهم على المجتمع المسلم.

حتى نتعرف إلى هذا الصنف ينبغي أن نعرف: ما النفاق؟

الجواب: النِّفَاقُ: إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ، وَهُوَ نوعان كبيران:

النوع الأول: اعْتِقَادِيٌّ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ، فليس صاحبه بمسلم، بل هو أحد المجرمين الكبار.

---

(١) الكشاف (١/ ٥٤).

(٢) إشارات الإعجاز، للنورسي، (ص: ٨٨).

والنوع الثاني: عَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ، وهو نوعٌ خطير جدًّا، لأن المسلم قد يقع فيه، فيستسهل الأعمال التي توصل إليه، فيرتكب إثمًا كبيرًا كأن يقع في الكذب، ويعتاد عليه، وفي الخداع ويراه مهارة ضرورية.. وهكذا!

وقد ذكر الله ﷻ صفات النوعين معًا في هذه الآيات دون تفريقٍ بينهما ليحرك مشاعرك، ويوقظك من غفلتك عسى ألا تقع في النفاق العملي، فيأخذك إلى النفاق الاعتقادي. لقد كان هذا المنهج القرآني موقظًا لأصحاب النبي ﷺ؛ إذ كانوا يخشون النفاق على أنفسهم، ولا يزكونها، ويتهمون أنفسهم، ولا يركنون إلى التسويف والأماني، كما هو حالنا وحال كثير من الناس، في قوم يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا.

وهنا يبرز سؤال آخر ينتظر إجابة: ما ملابسات النزول التاريخي لهذه الآيات؟

والجواب -أيدك الله-: أنه لا أظنه يخفى عنك أن ترتيب ذكر الطوائف الثلاث يتناسب مع وجودها الواقعي المرحلي أيضًا، فبداية القصة كان الإيمان والمنهج الذي دعا إليه سيد الرسل ﷺ، وترتَّب على ذلك مباشرة أن آمن به أهل السعادة المفلحون، وكفر به وناصبه العداء أهل الشقاوة والخسران، وبقي الحال على ذلك دهرًا، حتى أذن الله تعالى له بالهجرة وإقامة دولة الإسلام، وبناء معسكر الإيمان حينها برزت طائفة النفاق والكيد الداخلي والطابور الخامس المُنْدَسّ.

فالسورة تصف حال "تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة- بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الذين يرد ذكرهم فيما بعد مطولًا- وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك"(١).

ولعلك ستسأل: لماذا جاء الكلام عن المنافقين في أول سورة البقرة؟

---

(١) في ظلال ال(١/ ٣٣).

وجواب ذلك: أن بصائر هذه السورة جاءت لتبني وعي أبناء الحضارة المسلمة الجديدة التي تنشأ في المدينة، فتخبرهم بالأخطار الهائلة التي تحدق بهم، ومن هذه الأخطار: خطر المنافقين.

تقرَّر لدينا أن الزهراء الأولى تؤسِّس لمجتمع جديد، وتضع له الرؤية الحضارية التي يتأسَّس عليها، وبما أن مسيرة البناء الحضاري طريق لاحِبٌ طويل له مراحله المتوالية، ولكلِّ مرحلة مقتضياتها وتحدياتها ومتطلباتها فقد توجَّب أن يُكشف مبكِّرًا عن الخطر الأعظم على هذه المسيرة المباركة، إنه خطر (معسكر النفاق)، وهذا التبكير والأولية في معالجة هذا الملف الخاص والمهمِّ جدًّا تَمَثَّل في تناول سورة البقرة له، البقرة التي توفرت عليها الأولية في الترتيب المصحفي، وأولية التنزُّل إبان الشروع في بناء المجتمع المدني بقيادة النبي الكريم ﷺ.

والنفاق إنما نشأ في المدينة عندما أصبح للأمة المسلمة الصاعدة القوة وصناعة القرار، واستقلال الإرادة والحركة، وأما في مكة، فقد كانوا مستضعفين، فلم يكن هناك نفاق؛ إذ لماذا ينافق من يكره المسلمين، والمسلمون مستضعفون؟ فهو لا يحتاج ذلك، بل إنه سيظهر نفسه بمظهر القوة والشِّدَّة ضدَّهم، ليُثْبِتَ ولاءه للكفر، ولذلك نشأ ما يقابل النفاق، وهو أن يُظْهِرَ المسلمُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا، وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ، وكان من يكفر بالنبي ﷺ يختال بكفره، وإجرامه، فلما صارت مقاليد الأمور في المدينة بيد القيادة النبوية، وجمع الله ﷻ له بين النبوة والحكم، بقي بعض الأوس والخزرج في أول أمرهم على كفرهم يظهرونه، وهم يزدادون ضعفًا وقِلَّة، فكان المشركون منهم يظهرون شركهم، ويودون أن يزيحوا رسول الله ﷺ، ورأسهم ابن أبي بن سلول، ويروي البخاري لنا قصة نشوء النفاق، فيخبر أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ رضي الله عنهما، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ رضي الله عنه فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْن سَلُولَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي المَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ

المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَاليَهُودِ وَالمُسْلِمِينَ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ -أي غبار حركتها- خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ -أي غطاه- ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْن سَلُولَ: أَيُّهَا المَرْءُ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ -أي منزلك- فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا -أي ائتنا-، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ - يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ - قَالَ: كَذَا وَكَذَا**»، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، لَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةِ -أي المنطقة- عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ، فَيُعَصِّبُوهُ بِالعِصَابَةِ -أي يعمِّموه بعمامة الملوك-، فَلَمَّا أَبَى اللهُ ذَلِكَ بِالحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] الآيَةَ، وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ ﷻ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ ﷻ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْن سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ -أي

ثبت واستقر- فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا(١): أي فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وبدأوا يتآمرون مستترين لتدمير المسلمين باسم الإسلام الذي أظهروه.

وأما في مكة فقد بدأ الكلام عن النفاق في أواخر العهد المكي كما في سورة العنكبوت، ولعل سبب ذلك يعود إلى ظهور صنفين من الناس في ذلك الوقت:

الصنف الأول: هم الذين ارتدوا على أعقابهم بعد أن ذاقوا الأذى من المشركين، أو ارتدوا بعد حادثة الإسراء، وهم قِلَّة قليلة لا تذكر.

الصنف الثاني: هم جواسيس الوثنية، فإن القوى الوثنية لما وجدت أن الإسلام يزداد قوة وأتباعًا كلفوا بعضهم ليكون ضمن عيونهم على المسلمين، ويظهرون لهم الإسلام، ومن أجل ذلك ذكر الله عز مجده في أول سورة العنكبوت هذين الصنفين.

ولعل الله ﷻ أراد أن يهيئ المسلمين قبل أن يصلوا إلى المدينة، فيملأ وعيهم بمعرفة هذا النفاق والمنافقين، وهذا ملمح لافت توقفنا عليه سورة العنكبوت، ومعلم من معالم مرحلة الاستضعاف التي تختص بفقه خاصٍّ لا بد أن يَعْلَمَه المسلمون خاصَّتُهم وعامَّتهم عندما يمرون بها في عصر من العصور، وتالله ما عصر كعصرنا بلغت فيه الأمة من الاستضعاف، وتسلط عدوها الظاهر عليها، وهذا يحتم عليها أن تكون يقظة تنافح وتكافح، فلا تؤتى كذلك من عدوها الباطن الخفي (معسكر النفاق)، فيقتحم عليها ما بقي من ثغورها، ويسقط آخر قلاع قيمها ومبادئها التي لا تزال -رغم البؤس- تحافظ عليها متماسكة.

خريطة الكلام عن المنافقين في هذه الآيات:

انقسم الكلام عنهم إلى فصلين كبيرين: فصل عن صفاتهم، وفصل عن أقسامهم:

---

(١) البخاري (٥٦٦٣).

الفصل الأول: الكلام عن صفات زاعمي الإيمان (المنافقين) [البقرة: ٨-١٦]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

صفات زاعمي الإيمان {المنافقين} {البقرة: ٨-١٦}

صفة {1}: ترديد زعم الإيمان أمام المجتمع
ويبصرنا بذلك صيغة المضارعة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ [البقرة: 8]

صفة {2}: مخالفة ما في قلوبهم لأقوالهم في زعم الإيمان
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]

صفة {3}: الخداع
﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ [البقرة: 9]

صفة {4}: عدم الشعور، وفقدان الأحاسيس
﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]

صفة {5}: مرض القلوب
﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10]

صفة {6}: الكذب
﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10] **على قراءة حفص ومن وافقه**

صفة {7}: التكذيب
﴿بِمَا كَانُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ [البقرة: 10] **على قراءة الجمهور**

صفة {8}: الإفساد في الأرض
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 11]

صفة {9}: تبديل المعاني وتغيير الحقائق من خلال اللعب بالألفاظ
﴿... قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11]

صفة {10}: عدم الشعور بإفسادهم في الأرض
﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12]

صفة {11}: نبز الصالحين بالألقاب المنفِّرة
﴿...قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]

صفة {12}: اصطناع إيمان يخالف إيمان الناس
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]

صفة {13}: الاتصاف بالسفه والجهل المركب معًا
﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]

صفة {14}: الظهور بوجهين متناقضين، والتكلُّم بلسانين متعارضين
﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: 14]

صفة {15}: التآمر المستخف المستهزئ بالمؤمنين
﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14]

صفة {16}: ازدياد العمى على طول المدى
﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]

صفة {17}: بيع أفضل ما يسعد الحياة الإنسانية، وشراء أعظم ما يشقيها
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]

مفصل سورة البقرة (1)

الصفة الأولى: ترديد زعم الإيمان أمام المجتمع:

ويبصرنا بذلك صيغة المضارعة في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، ولم يقل: قالوا، وذلك يدلُّ على تكرُّر هذا القول، ليفعلوا الجرائم، ثم ينكروا على من أنكر عليهم فعل الجرائم.. يا للإرباك الذي يحدثونه في التعامل معهم:

وقد تتساءل: لماذا بدأ الجملة بالواو العاطفة؟ في حين لم يبدأ الآية السادسة التي تتحدث عن الكفار المتطرفين بالواو؟!

هذا ما نحاول تفهمه والإجابة عنه في البصيرة الآتية.

> بصيرة: **الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تكشف أن المنافقين جزء من الكافرين المتطرفين يتصفون بصفاتهم، ويزيدون عليهم في الإجرام، والتمكُّن من إيصال الضرر والكيد بالمسلمين.**

الجواب: زيادة الواو تبين الأمر؛ فدعنا نقرِّر أن الواو تكشف لنا الاتصال القوي بين هذه الآية وما قبلها، وهذا يعني أنها تكشف الاتصال القوي بين هذا الصنف وما قبله (الكفار المتطرفون)، فعطف هذا الصنف الخطير **الخفي** على ذلك الصنف الخطير **الجلي** في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، وكأنه يقول: الكفار المتطرفون لا يؤمنون، ومن بينهم صنف أخبث وأغلظ كفرًا، ومن الناس مثلهم من يقول آمنا بالله وما هم بمؤمنين.

هذا العطف هنا يستكمل لك التقسيم العالمي للبشرية ليضيء عقلك بأهمِّ الأصناف المؤثِّرة في الواقع البشري: المتقين، الكفار المتطرِّفين، المنافقين.

والعطف أيضًا يعلمك أن هؤلاء أيضًا مختوم على قلوبهم، وانطبقت عليهم الصفات السابقة إلا أنهم اتصفوا بصفة زائدة استوجبت كشف حقيقتهم.

بهذا الفهم تُعصم من الإشكالات التي وقعت لبعض المفسرين، فظنوا أن العطف هنا يقتضي المغايرة الكلية[١]، وأن هؤلاء غير مختوم على قلوبهم، والأمر غير ما ظنوه، بل كلُّ ما في الصنف الثاني موجود في الصنف الثالث، إلا أن الصنف الثالث اتَّسم بصفات خاصَّة أوجبت إظهار واقعِه في العالم، ويعبِّر الزمخشري رحمه الله بأسلوبه الفذِّ عن هذا فيقول: "الكفر جَمَعَ الفريقين معًا وصيَّرهم جنسًا واحدًا. وكون المنافقين نوعًا من نوعي هذا الجنس- مغايرًا للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء- لا يخرجهم من أن يكونوا بعضًا من الجنس، فإن الأجناس إنما تنوَّعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض. وتلك المغايرات إنما تأتى بالنوعية ولا تأبى الدخول تحت الجنسية"[٢].

ثم جاءت الصفات التفصيلية الأخرى بعد هذه الصفة بعضها يبدأ بواو العطف، وبعضها بالاستئناف، وكلُّ ذلك لتفصيل صفاتهم، ويمكننا الاكتفاء بتقرير هذا دون الحاجة إلى معرفة تفصيلية لسبب العطف أو الاستئناف.

والآن لنعد إلى قول ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾:

بصيرة: يبصرك قوله ﴿ومن الناس﴾ أن الله عز وجل قدَّم هاتين الكلمتين ليكشف لك إصرار المنافقين على الاستخفاء بين سائر الناس، حتى لا يستطيع العالم معرفتهم، فيحسبونهم من المؤمنين، وهم ليسوا كذلك.

هنا نتساءل متدبرين: القرآن في الدرجة العليا من بلاغة الكلام، وها هو يصوِّر لنا هذا الصنف تصويرًا دقيقًا، فقول ربنا: ﴿ومن الناس﴾ خبرٌ مقدَّم، والمبتدأ مؤخَّر هو: ﴿من

---

(١) ممن نبه على أن الواو لا تقتضي المغايرة الكلية: ابن عاشور. التحرير والتنوير (١/ ٢٥٩).

(٢) الكشاف (١/ ٥٤، ٥٥).

يقول﴾، وتقدير الكلام: والذي يقول آمنا بالله وما هم بمؤمنين من الناس أيضًا، فلماذا قدَّم الخبر على المبتدأ؟

الجواب: قدَّم الله جلَّ ذكره الخبر على المبتدأ للتشويق والاهتمام بذكر صفة من صفات هؤلاء، كَقَوْلِ مُوسَى بْنِ جَابِرٍ الْحَنَفِيِّ(١):

وَمِـنَ الـرِّجَـالِ أَسِـــنَّـةٌ مَـذْرُوبَـةٌ ... وَمُزَنَّدُونَ شـهودهم كَـالْغَـائِـبِ(٢)

بعد أن عرفت أن التقديم كان من أجل التشويق والاهتمام، فربما تساءلت: ما التشويق هنا؟ وما فائدته؟

الجواب: جاء التشويق لأنَّ الله جلَّ شأنه يريد أن تهتمَّ بمعرفة هذه الفئة الغريبة الفريدة المفسدة التي لا يتمُّ التركيز على وجودها لشِدَّة مكرها، وعظيم شرِّها، لأنها من الناس، فبين أنهم ﴿من الناس﴾، فكلمة ﴿مَنْ﴾ في ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ موصوفة، كأنه قيل: ومن الناس صنفٌ يقول كذا، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إن جعلت اللام للجنس، وإن جعلتها للعهد فموصولة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٦١](٣).

فإن قلت: ماذا تعني كلمة ﴿الناس﴾ حتى ندرك المقصود من هذه الجملة؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٦٠).

(٢) شرح ديوان الحماسة، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (ص: ٢٦٣)، والمعنى: من الرجال رجالٌ كالأسنة المطرورة، أي يمضون في الأمور ويفصلونها نفاذ الأسنة؛ ومنهم مزندون. والمزند: المبخَّل. وقوله " شهودهم كالغائب " أي لا غناء عندهم، ولا دفاع بهم، فحضورهم كغيبتهم.

(٣) الكشاف (١/ ٥٤).

الجواب: ﴿الناس﴾ اسم من أسماء الجموع حذفت همزته تخفيفًا، أصله أناس جمع إنسان، وسُمُّوا كذلك؛ لأن أهمَّ خصائص الإنسان: الأُنس ضد الوحشة، فهم يبرزون ويظهرون، ويأنسون ويؤنِّسون، كما سُمِّي (الجن) جِنًّا؛ لاجتنانهم، وليس سبب التسمية أنهم ينسون، فأبو الفتح البُّستي ذكر النسيان باعتباره صفة له عندما قال:

يا أَكْثَرَ النَّاسِ إِحْسَانًا إِلَى النَّاسِ وَأَكْثَرَ النَّاسِ إِفْضَالًا عَلَى النَّاسِ
نَسِيتُ عَهْدَكَ وَالنِّسْيَانُ مُغْتَفَرٌ فَاغْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ(١)

فالنسيان من صفات الإنسان، وقد ذكرها الله تعالى في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ولكن الإنسان سُمِّي إنسانًا؛ لأنه يأنس ويؤنس، ويَبْرُز ويظهر(٢).

فأول من يأنس به ولا تطيب له الحياة إلا به: ربُّه جلَّ مجده، وهذا يشير إلى الفطرة التي في صدره، والتي مهما تراكم عليها من أوساخ الإنكار يرجع إليها يومًا من الدهر.

وكذلك لا يستغني عن أُنسه بجِنسه فلا يستطيع العيش بمفرده، وأُنسه بجِنسه إما بالعدل والإحسان، وإما بالجور والطغيان، وأول ذلك أُنسه بزوجه: الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل..

ماذا يعني ذلك؟

يعني أنه مدني بطبعه، فالهمزة في كلمة (أناس) أصلية من أَنِس، أو من آنس: أي أبصر، كما قال تعالى ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، وقال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنسِهِ ولا القلبُ إلا أنه يَتَقَلَّبُ(٣)

(١) ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق: شاكر العاشور (ص١٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبرى (١/ ٢٦٨)، والكشاف (١/ ٥٤)، الدر المصون (١/ ١١٩، ١٢٠).

(٣) والبيت منسوب إلى الهذلي. ينظر: الإبانة في اللغة العربية (١/ ٢٠٦).

وبناء على أنسه بغيره تراه يَنُوس: أي يتحرك باختيال، ومنه حديث أم زرع: «**أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ**»(١)، أي حركهما بما ملأهما من ذهب ولؤلؤ، وأنت ترى قابلية الإنسان للحركة والتغيير والإعمار والتدمير، وهذه القابلية تجعله عرضة لاتخاذ القرارات الصائبة والخاطئة.

فإن قلت: ما دلالة أنهم ﴿من الناس﴾ حتى يجعلها الله ﷻ في أول الكلام مع أنها متعلقة بخبر؟

الجواب: بما أنهم من الناس فذلك يعني أنهم ليسوا جنسًا مختلفًا، بل هم من جملة الذين يظهرون ويبرزون في المجتمع؛ فيأنسون بالناس ويأنس ويُؤنس بهم، وبذلك يستطيعون إخفاء أهدافهم الخبيثة، فهذا التشويق والتهييج في قوله: ﴿ومن الناس﴾ يدفعك لمعرفتهم، وسياق الكلام عنهم يدعوك للحذر في التعامل إن ظهر لك من يتصف بالصفات التفصيلية التي سيذكرها الله تعالى لك.

وكأن الله ﷻ يرشدك، فيقول لك: بما أنهم يؤنسون فسيخفون عليكم، لن تعرفوا مكانهم، ولن تميزوا شخصياتهم بيسر.. لكنني سأدلُّكم عليهم، فأول صفاتهم أنهم يردِّدون أنهم يقولون: آمنا بالله، وليس فقط به سبحانه، بل وباليوم الآخر.

يقول الله ﷻ: ﴿ومن الناس﴾ فمَنْ هم الذين ينتمون لهذا الصنف الأكثر خطورة؟

الجواب: ليس هذا الصنف من اليهود فقط كما ذهب إليه الطبري والزمخشري رحمهما الله(٢)، بل ينبغي التركيز على صفاتهم؛ ومن خلال صفاتهم يمكن أن يظهروا مهما كان انتماؤهم، فهم ينتمون لكلِّ صنف من أصناف بني آدم، ولفظ (الناس) ذاته يرمز الى أن النفاق لا يختص

(١) البخاري (٣٦٥٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبرى (١/ ٢٧٠، ٢٧١)، والكشاف (١/ ٥٥).

بطائفة ولا طبقة، بل يوجد في نوع الإنسان، ومتوقع في أية طائفة كانت[١]، فمتى وجدت الصفة ثبت الحكم، والتركيز على الانتماء إلى هذا الجنس أو ذاك أضاع علينا المعرفة القرآنية القويمة التي أراد الله ﷻ منا أن نبصر بها واقع الناس من أعمالهم وصفاتهم، وليس من نسبهم، فتعجبُ من إمام مفسر كالطبري والزمخشري رحمهما الله وغيرهما من أئمة التفسير عندما جعلوا التركيز في معرفة المنافقين على اليهود، وهذا غير صحيح واقعًا، فأشهر المنافقين في زمن النبي ﷺ لم يكونوا إلا عَرَبًا، ولكن كلام أئمتنا صحيح أيضًا، من جهة أن من اليهود منافقين، فقد دخل بعد ذلك من اليهود أناس أحدثوا في الإسلام فتنة مثل: عبد الله بن سبأ اليهودي.

وتصوَّر أن كعب بن مالك رضي الله عنه أشار في حديث توبته إلى أن عددهم كان بضعًا وثمانين[٢]- فإذا كانوا بهذا العدد في زمن النبي ﷺ، فكم يكونون في زمن غيره؟!

فقط فتِّش عن الصفات التي يذكرها الله ﷻ لك في هذا التشخيص القرآني الدقيق، وستراهم، ولذا لم يحدد الله ﷻ شخصياتهم وإنما ذكر صفاتهم، وقد جازف بعض المفسرين بذكر الأسماء، وبعض من ذكروه لا دليل على نفاقه إلا أن تقع منه معصية عارضة[٣]، ولكن الآيات تُشخِّص لك بدِقَّة هذا الصنف من خلال الصفات، ومنهم من ينتمي إلى أصحاب القرار الذين "لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحقَّ بالإيمان الصريح، أو يجدون في نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحقَّ بالإنكار الصريح، وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس، وعلى تصوُّرهم للأمور!"[٤].

(١) ينظر: إشارات الإعجاز، للنورسي (ص: ٩٠).

(٢) البخاري (٤٤١٨).

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٤٢).

(٤) ممن نبه على ذلك ابن عاشور. التحرير والتنوير (١/ ٢٦٣).

تعال لننظر في المسألة: أو ليس غريبًا أن يردِّدوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بين المسلمين مع أن المسلم لا يحتاج أن يقول ذلك لإخوانه؟ فلماذا يفعلون ذلك؟

الجواب: كأنهم يطلبون من بقية المجتمع ألا ينسبوهم إلى العصيان مع إصرارهم على فعل المعصية، ويطلبون من المجتمع ألا ينسبهم إلى الفجور والاعتداء والإجرام مع أنهم يمارسون كلَّ ذلك.

لاحظ مرة أخرى دقة الوصف التصويري في الآية، حيث تجد الله ﷻ يخبر فيها عنهم أنهم يقولون: ﴿آمنا﴾ بصيغة الماضي، ولم يقل عنهم بأنهم يقولون: نؤمن، فلماذا؟

الجواب: إن ورود مثل هذه الكلمة بصيغة الماضي يبصرنا بمعنيين في حياة هؤلاء:

المعنى الأول: أن يدلَّ على تجذُّر حقيقة النفاق عندهم كما ذكرنا في كلمة ﴿كفروا﴾ في الآية السادسة، فالفعل الماضي هنا مقصود بزمنه، أي آمنوا بمجرد النطق بكلمة الإيمان ثم انسلخوا من مقتضاتها إلى الكفر كما قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣﴾ [المُنَافِقُون: ٣].

المعنى الثاني: أن يدلَّ على المكر بالمخاطب، فهم يقصدون حقيقة الماضي الذي انقضى ثم تغير، فهم آمنوا بألسنتهم، وانتهى مفعول الإيمان، وأصبح جزءًا من الماضي...

هؤلاء هم المنافقون: آمنوا فعلاً، ولكن ذلك كان بألسنتهم في الماضي، ثم ماذا بعد؟ لقد بقي تلفظهم بالإيمان خِلْوًا من حقيقة معناه، ولم يتبعوا ذلك بما يقتضيه إظهار الإيمان، ولا العمل بمقتضاه، أما بعد انقضاء كلمتهم عن الإيمان، فلم يعد فيهم شيء من معاني الإيمان، بل الذي يظهر منهم أفعال الإجرام التي يقترفونها، ولذا اكتنز قولهم فيما حكاه الله ﷻ لنا في

الآية: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ **"خبثًا مضاعفًا وكفرًا موجهًا"** كما يقول الزمخشري رحمه الله[1].

فإن قلت: لماذا ذكروا الإيمان باليوم الآخر، ولم يكتفوا بذكر الإيمان بالله عز وجل؟

الجواب: ذكروا أعظم أركان الإيمان: الإيمان بالله لأنه الأصل والمبدأ لبقية أركان الإيمان، لكنهم لم يكتفوا بذلك ليثبتوا إيمانهم للمؤمنين بل ذكروا معه اليوم الآخر؛ لأنه باعث الأعمال الصالحة في الدنيا، وكأنهم عندما ذكروه يزيدون في خداع المؤمنين بأنهم كانوا على الخير والصلاح، وكأنهم يقولون: نحن لم نؤمن بالله فحسب بل آمنا باليوم الآخر، وهذا يعني أننا ندرك الحساب يوم القيامة.

وقد تسأل: فلماذا تكررت الباء في قوله ﴿وباليوم الآخر﴾؟

الجواب: لأنها تصوِّر لنا كيف يجتهدون في تزييف الواقع على المؤمنين، فالباء للإلصاق، وذلك يدلُّ على أنهم ادَّعوا كلَّ واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام، والقوة[2].فانظر أسلوبهم الخبيث في خداع المؤمنين بأنهم ضمن صفوفهم.

هذا التصرُّف منهم يحدث إرباكًا شديدًا في نفوس العامة، وحينها يحدث الانقسام في النظر لهم: فأقوالهم حسنة كأقوال المؤمنين، وأفعالهم أفعال المفسدين.

قد تتساءل تساؤلًا جانبيًا: لماذا يسمى يوم القيامة باليوم الآخر؟

الجواب: يشرح الطبري رحمه الله أنه سُمِّيَ يوم القيامة باليوم الآخر لأن "اليومَ عند العرب إنما سُمي يومًا بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدَّم النهارَ ليلٌ لم يسمَّ يومًا؛ فيوم القيامة يوم لا ليلَ بعده، سوى الليلة التي قامت في صبيحتها القيامة، فذلك اليوم هو آخر الأيام. ولذلك سمَّاه الله جل

---

(١) الكشاف (١/ ٥٥).

(٢) الكشاف (١/ ٥٥).

ثناؤه "اليوم الآخر"، ونعتَه بالعَقِيم. ووصفه بأنه يوم عَقيم، لأنه لا ليل بعده"[١]، ويزيده الزمخشري ﷺ بيانًا، فيخبر أن مصطلح اليوم الآخر له إطلاقان:

الأول: يراد به الوقت الذي لا حدَّ له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع، لتأخُّره عن الأوقات المنقضية.

الثاني: أن يراد الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حدَّ للوقت بعده[٢].

ويفرِّق بعضهم بينهما بأن اليوم الآخر أعمُّ من يوم القيامة؛ فاليوم الآخر يشمل أحداث الآخرة كلها بدءًا بنفخة الصعق وحتى الخلود في الجنة أو النار، ويوم القيامة يطلق على ما بين نفخة البعث إلى أول دخول الجنة أو النار، أما ما قبل ذلك وما بعده فهو من الآخرة وليس من القيامة[٣].

ولكنك قد تسأل: لماذا لم يذكروا اسم الرسول ﷺ ضمن ما آمنوا به؟

الجواب: يحتمل ذلك عددًا من الاحتمالات، والسياق يحدِّد الاحتمال الأرجح منها، ويظهر لي أنهم يتلاعبون بالكلام حسب المكان والزمان والناس والمخاطبين:

فإذا تكلموا مع عامة المؤمنين ذكروا هذين الركنين فقط، ولا يذكرون الرسول ﷺ عمدًا؛ لأنه المقياس الحقيقي لصدق الإيمان من خلال اتباعه في التطبيق لمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، ولأنهم لا يرغبون في الحكم على أقوالهم وأفعالهم في ضوء هديه ﷺ، ولعلك تجد ذلك مثلًا في زماننا في القوم الذي يدعون للديانة الإبراهيمية المفتراة، فيعرضون عن ذكر

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٢).

(٢) الكشاف (١/ ٥٥).

(٣) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، د عبد الستار فتح الله سعيد (ص ٢٣٥-٢٣٨).

الرسول ﷺ، لأن أعظم ثمار الدعوة الإبراهيمية الصحيحة البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والبعثة النبوية تعني ألا يُعْرَف الدين الإبراهيمي الحقُّ إلا بالإسلام.

وإذا تكلموا مع الرسول ﷺ فإنهم يظهرون الإيمان به كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ١]، أَيْ: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فَقَطْ، لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ وَلِهَذَا يُؤَكِّدُونَ فِي الشَّهَادَةِ بأنَ وَلَامِ التَّأْكِيدِ فِي خَبَرِهَا[١].

وكذلك إذا تكلموا مع المؤمنين في مناسبات يُذكر فيها اسم النبي ﷺ، فإنهم يظهرون الإيمان به ومحبته.

ولكنك قد تتساءل: ما المشهد التصويري الذي تقدِّمه الآية؛ وقد اختلف تعبيرها عنهم بين الإفراد في قوله: "يقول" والجمع في قوله: "آمنا"؟

الجواب: يميل الطبري ومن بعده الرازي رحمهما الله[٢] إلى أن التعبير هنا بدأ بالمفرد فقال الله تعالى: ﴿يَقُولُ﴾ وهذا لَفْظُ الواحد، ثم ذكر الجمع فقال: ﴿آمَنَّا﴾، لأن ﴿مَنْ﴾ لَفْظَةٌ صَالِحَةٌ لِلتَّثْنِيَةِ، وَالْجَمْعِ، وَالْوَاحِدِ. أَمَّا فِي الْوَاحِدِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [الْأَنْعَام: ٢٥]، وَفِي الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ﴾ [يُونُس: ٤٢]، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّهُ مُوَحَّدُ اللَّفْظِ مَجْمُوعُ الْمَعْنَى، فَعِنْدَ التَّوْحِيدِ يُرْجَعُ إِلَى اللَّفْظِ. وَعِنْدَ الْجَمْعِ يُرْجَعُ إِلَى الْمَعْنَى، وَحَصَلَ الْأَمْرَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وهذا سبب لفظي يُفهم من المحافظة على أساليب اللغة العربية، وهو سبب صحيح لمقصد عظيم من مقاصد القرآن الكريم.

---

(١) تفسير ابن كثير، تحقيق سلامة (١/ ١٧٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٣٠٢).

دعني أتدبر معك البحث عن مشهد تصويري يثيره التعبير هنا؛ إذ يحتمل أن في تعبيرهم بالجمع ﴿آمنا﴾ الدلالة على أنهم مجموعة متكاتفة ينصر بعضهم بعضًا في الباطل، فإن لُمِز أحدهم بأنه يفعل أفعال المنافقين دافع أصحابه عنه، ويُظهِر المنافقون أنفسهم كذلك عادة.

وقد ذكر الله ﷻ عنهم هذا التعاضد عندما يضعف أمر المؤمنين، فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

الصفة الثانية: مخالفة ما في قلوبهم لأقوالهم في زعم الإيمان، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، فيقولون شيئًا، وقلوبهم تخالفه:

هذه الآية حرَّكت مكامن التدبُّر الكبير لدى الفخر ؒ فذكر اثني عشر قِسمًا لحالات القلب واللسان(١)، وحسبنا أن نعلم أن المنافق هو الذي يعتقد الباطل بقلبه ويقرُّ بلسانه بالحق، وأسوأ النفاق أن يردد صاحبه: آمنت بالله وباليوم الآخر، وقلبه ينكر ذلك، بل يعمل ضدَّ ذلك.

هنا تثير البصائر القرآنية عندك هذا السؤال: يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، ولم يقل: وقلوبهم تنكر ذلك، بل قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، فلماذا؟

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٣٠٠، ٣٠١).

الجواب: هنا يظهر لك كيف تحرك بصائر القرآن المجيد الحياة، فلو قال: ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، ولكن قلبه ينكر ذلك، لقال قائل: وكيف نصل إلى قلبه حتى نحكم عليه بالنفاق؟

فأخبرنا الله ﷻ بالعلامات الظاهرة، وبالواقع الذي يحياه المنافقون، فألسنتُهم تقول الإيمان، وأفعالُهم تُظهر العصيان، وتنصر الكفران، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، ويبين ابن جريج ؒ هذا التناقض الخبيث بين القول والفعل فيقول: هذا المنافقُ، يخالِفُ قولُه فعلَه، وسرُّه علانِيَتَه ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مَغيبَه[1].

هذا النور القرآني المتحرك في الحياة أقوى في تسليط الضوء على هؤلاء من التقسيمات الكثيرة التي ذكرها الرازي ؒ، فتلك تفيد من الناحية النظرية، والجدلية.

المنافقون يبطنون الكفر في قلوبهم، بل ينصرونه.. يظهرون للعالم أنهم في معسكر المؤمنين، وهم فيه من حيث الواقع الجسدي، والانتماء (الوطني)، ولكنهم عيون للمجرمين والمعتدين، وأيدٍ للظالمين والملحدين، وخونة لمن يعيشون بينهم، ويقومون بمهتهم الواضحة: يلتهمون ثروات المؤمنين، ويدمِّرون بلدانهم، ويمزِّقون نسيجهم الاجتماعي والثقافي، ولا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحقَّ بالإيمان الصريح، أو بالإنكار الصريح، ولذا يراوغون، ويُرْبكون العالم حول حقيقتهم، ويعدُّون ذلك ضمن مواهبهم، حيث استطاعوا أن يتلاعبوا بالمؤمنين الذين يسمونهم السفهاء، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٣].

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠).

تعال نتدبر الآية لنجد أن الله يصف هؤلاء المنافقين بأنهم يقولون: ﴿آمنا﴾ وهذا فعل، وكان يمكن أن يَرُدَّ الله تعالى عليه بفعل مثله، فيقول: وقد كذبوا، أو وما آمنوا، بل قال ﴿وما هم بمؤمنين﴾، فردَّ على الفعل الذي أثبتوه بنفي الفاعل، فما دلالة ذلك والسر فيه؟

والجواب: أن هذا النفي أعلى بلاغة وأعظم وصفًا لحقيقتهم:

فالفعل في قولهم ﴿آمنا﴾ يدلُّ على الوقوع مرة بألسنتهم

والنفي بالجملة الاسمية ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يبصرك بنفي الإيمان عنهم دوامًا في الماضي والحال والمستقبل، ولهذا التعبير مدلول بلاغي أقوى، فهو يخرج ذواتِهم وأنفسَهم من أن تنتمي إلى مسمى الإيمان أو تكون مع المؤمنين، فحالهم تفضحهم وتنافي حال الداخلين في الإيمان، لذا فالنفي هنا أبلغ، ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ [المائدة: ٣٧]، فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها[١]، فنفي الاسم يقتضي نفي حقيقة الإيمان في الماضي والحاضر، فهم قالوا: ﴿آمنا﴾ بالماضي، فلو ردَّ عليهم، فقال: وما آمنوا لكان يحتمل أن يؤمنوا حالًا أو مستقبلًا، فلما قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ دلَّ عَلَى انْتِفَاء الإيمان عَنْهُمْ فِي الْحَالِ، وذلك يعني أنهم لم يؤمنوا في الماضي أيضًا.

ستقول: هم قالوا: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهو سبحانه لم يقل: وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر بل أطلق فقال: وما هم بمؤمنين، فلماذا؟

والجواب: أن هذا يدعى بحذف المتعلق، وهو هنا يفيد دلالة العموم، فهذا الصنف المخذول المذموم ليس بمؤمن بالكلية لا في الماضي ولا الحاضر، ولا بالله ﷻ، ولا بشيء ممَّا يتوجب الإيمان به؛ لأن الإطلاق أقوى، فهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا آمنوا بالله ولا آمنوا باليوم الآخر، ولا آمنوا بغيرهما من أركان الإيمان.

---

(١) الكشاف (١/ ٥٥).

هل تريد من بصائر المعرفة القرآنية أن تجلو عنك شِدَّة الحيرة في التلاعب العالمي؟ عد إلى الآية لتجد الله –جل في علاه– لم يذكر كلمة (منافقين) في هذه الآيات مع أنه قد ذكر هذا المصطلح في آياتٍ أخر في خمسةٍ وعشرين موضعًا قرآنيًّا، مثل سورة (المنافقون) أو التوبة، فلمَ لمْ يصرِّح بذكرهم هنا، مع أنهم هم المقصودون؟ فعن ابن عباس وابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ هم المنافقون[1].

فلماذا إذن ذكر الله ﷻ الوصف هنا فقط ولم يقل الله ﷻ: ومن الناس منافقون يقولون آمنا، بل قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؟

الجواب: لأن كلمات القرآن تبني رؤيتك الصائبة في الحياة؛ فهناك ثلاثة أهداف لعدم التصريح بهذا المصطلح في أول سورة البقرة:

الهدف الأول: أن يبني الله ﷻ المعرفة القرآنية في العقلية المسلمة على توسيع مداركها حول المعركة الشيطانية ضدَّ البشرية، فمن أبرز جنود المعسكر الشيطاني الكفار المعاندون الصرحاء، ويدخل فيهم الملحدون، وتكفَّلت الآيتان السادسة والسابعة ببيان أوضاعهم، ولكن أبرز الجند الشيطاني هذا الصنف الغامض الذي ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].. نعم يدخل فيهم دخولًا أوليًّا المنافقون الذين يقتاتون على خيرات المجتمع المسلم وثرواته؛ إلا أنه يدخل فيهم أيضًا من يزعم الإيمان، ويتمسح به من الأديان الأخرى، وهو يفعل كلَّ مناقضٍ للإيمان الذي يعتنقه، فضلاً عن الإيمان الذي أراده الله ﷻ، وخذ أنموذجًا لرئيس وزراء لدولة من أقوى دول العالم في العصر الحديث يتحدَّث بكلِّ فخر، ودون تردُّد حول أثر تدينه في قراراته السياسية التي ترتب عليهم قتل ملايين الضحايا

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠).

في العراق ومناطق الحروب العالمية.. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، فأدخل الله ﷻ في هذا الوصف العجيب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] **المنافقين الذين يعيشون في مجتمع المؤمنين، ومن يلبس ثياب العُبَّاد ويتمسحون بألبسة العلماء والأحبار والرهبان والربانيين أمام أتباعهم يزعمون الإيمان، ثم تراهم يضحكون عند انتهاك حرمات الرجال والنساء والولدان.**

الهدف الثاني: هذا التعبير يحدث أعظم التأثير في جميع النفوس:

أما النفوس المؤمنة المتقية؛ فإنها تزداد إيمانًا بخوفها أن تدخل فيمن يقول: آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين.. يدفعها ذلك إلى أن تُظهر صِدقها في حياتها وواقعها. وهنا تعلم أثر القرآن في تربية الصحابة والصالحين، فعن ابن أبي مليكة قال: " أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلُّهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل "(١).

وهذا حال أهل الورع والديانة من صلحاء أمة محمد ﷺ أن يعودوا على أنفسهم باللوم، ويتخوفوا أن يلابسوا النفاق أو يلابسهم، كما قال أحدهم مخاطبًا نفسه موبخًا إيَّاها(٢):

يَا نَفْسُ هَـذَا الَّـذِي تَـأْتِينَهُ عَجَبٌ ... عِـلْـمٌ وَعَـقْـلٌ وَلا نُسْـكٌ وَلا أَدَبُ
وَصْـفُ النِّفَاقِ كَمَا فِي النَّصِّ نَسْـمَعُهُ ... عِلْمُ اللِّسَـانِ وَجَهْلُ الْقَلْبِ وَالسَّـبَبُ
حُـبُّ الْمَتَـاعِ وَحُـبُّ الْجَـاهِ فَـانْتَبِهِي ... مِنْ قَبْلُ تُطْوَى عَلَيْكَ الصُّحُفُ وَالْكُتُبُ

وأما النفوس العاصية غير المنافقة فإنها تحذرهم من المضي في عصيانهم؛ إذ ربما انجرفوا إلى أن يدخلوا في معنى هذه الآية.

(١) البخاري (٣٧) معلقًا، وقد وصل ابن حجر هذا التعليق في تغليق التعليق (٢/ ٥٢، ٥٣).

(٢) الأبيات من قصيدة لعبد الله بن علوي الحداد، في ديوانه (الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم) (ص: ٨٠).

فالآية وإن تكلمت عن المنافقين كشفًا لتصرفاتهم، ففيها تأثير إيجابي على غيرهم.

الهدف الثالث: أنه لم يفضحهم بالتعيين، بل سترهم تحت عنوان "الناس" إيماءً الى أن سترهم وعدم كشف الحجاب عن وجوههم القبيحة أنسب بسياسة النبيّ ﷺ؛ إذ لو فضحهم بالتشخيص لتوسوس المؤمنون؛ إذ لايُؤْمَن من دسائس النفس. والوسوسة تنجر إلى الخوف، والخوف إلى الرياء، والرياء إلى النفاق، ولأن بعضًا من الفساد لو بقي تحت الحجاب لانطفأ شيئًا فشيئًا واجتهد صاحبُه في إخفائه، بخلاف لو رُفع الحجاب فربما صار شعار صاحبه: فليكن ما كان[1].

لعلك تسأل: أيهما أخطر وأكبر جرمًا، وأقبح وجودًا: كُفْر الكافِرِ الأَصْلِيِّ أَمْ كُفْرَ المُنافِقِ؟

يجيبك الرازي ﵀ على ذلك: فيذكر أن قومًا زعموا أن كُفْر الكافِرِ الأَصْلِيِّ أَقْبَحُ؛ لِأَنَّهُ جاهِلٌ بِالقَلْبِ كاذِبٌ بِاللِّسانِ، والمُنافِقُ جاهِلٌ بِالقَلْبِ صادِقٌ بِاللِّسانِ.

والصحيح أن كفر المنافق أقبح، فهو كاذِبٌ بِاللِّسانِ أيضًا، فَإنَّهُ يُخْبِرُ عَنْ كَوْنِهِ عَلى ذَلِكَ الِاعْتِقادِ مَع أنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ، ولِذَلِكَ قالَ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المُنافِقُون: ١]، وزاد المنافق جرائم على ما عند الكافر، منها: أن كذبه مضاعف، فالكافر أظهر كفره الصريح وكان صادقًا في قوله إنه كافر، وأما المنافق فقد جعل حجب الكذب ومراوغاته المتعددة تغطي حقيقة اعتقاده، وقد يكون الكفر اختيارًا لكن صاحبه قد لا يجمع الاعتداء إلى الكفر، أما المنافق فطبعه المكر والمؤامرة والاعتداء غالبًا، ولِأجْلِ غِلَظِ كُفْرِهِ قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء: ١٤٥] [2].

---

(١) ينظر: إشارات الإعجاز، للنورسي (ص: ٨٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٣٠١).

الصفة الثالثة: الخداع، وهو الإفساد بصورة خفية، وبصرنا بهذه الصفة قوله:
﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[البقرة: ٩]:

أول ما نبدأ به ونحن نباشر الآية بالدرس والتحليل أن نتساءل: لماذا جاءت ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ دون واو عطف، فلم يقل: ويخادعون؟

والجواب: لأن جملة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ بدل اشتمال من جُمْلَةِ: ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، فهذه الكلمة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ تحذِّر المؤمنين من الاستكانة لقول المنافقين: آمنا بالله وباليوم الآخر، فهذا القول منهم هو أحد أهمِّ أوجه المخادعة.

وقد تتساءل: لماذا اختار الله ﷻ كلمة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ في وصف أفعالهم دون غيرها؟

الجواب: لأن كلمة (خَدَعَ) تعني أخفى الشَّيْء في باطنٍ يلتئم ظاهره عليه فيخفي حقيقته، فلا يُظَنُّ وجودُ الشيء الباطن فيه، والأخدعان: عِرقان خفيَّان في موضع الحجامة من العُنق قد خَفِيا وبَطَنا، وخَدَعَ الضَّبُّ: دخل في وِجاره ملتويًا لئلا يُحترَش، فيُعدَّ عقربًا تلدغ من يدخل يديه في جحره، حتى قيل: العقرب بوّاب الضَّبِّ وحاجِبُه، ولاعتقاد الخديعة فيه قيل: أَخْدَعُ من ضبٍّ، وخَدَعَ الريقُ: أي يَبِس فأنتن، ومن ذلك قال سويد بن أبي كاهل يصف ثَغر امرأة:

أبـيـضُ الـلـونِ لـذيـذٌ طـعـمُـهُ ... طـيِّـبُ الـريـقِ إذا الـريـقُ خَـدَعْ

لأنَّه يغلظ وقت السَحَر فييبس ويُنْتِنُ(١).

لأن المعنى الجامع لحال هذا الصنف ودَيْدَن فعلِهم إنما هو اشتمال ظاهرهم الحسن على باطن خبيث مُنتن، ولأن ذلك دأبهم للتمويه بهذا الظاهر على الباطن المرذول صار أصدق وصف لهم المخادعة والمخاتلة.

فإن قلت: متى يكون الخداع مذمومًا؟

---
(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١٢٠١).

الجواب: فإن كان الإخفاء لأجل الإفساد فالخداع مذموم، وقد قيد البيضاوي رحمه الله المخادعة بأن يقصد المخادِع المكروه(١)، وجعله الراغب رحمه الله أعمَّ، فالمخادعة الإخفاء لغرض(٢)، وفي حالة المنافقين فإنهم يريدون إيقاع المكروه بالآخرين من حيث لا يعلمون، فتكون النتيجة إيقاع الفساد، وهذه الكلمة تصف أفعالهم بدقة شديدة، كما يُسْتَخْفَى في الـمَخْدَع، وهو مكان نومه ومرتفق مأمنه في غرفته الخاصة، وحتى ندرك معنى الخدع بصورة دقيقة فلنتصور الاختفاء في المخدع هل هو لأجل السَّتر الصحيح أم هو لأجل الاختفاء من أصحاب الحقوق مثلًا، فإن كان لأجل السَّتر الصحيح كأن يخلو بزوجته فهو ممدوح، وإن كان لأجل الاختفاء من ذوي الحقوق فإنه مذموم.

لكن الأصل أن الخداع صفة خبيثة من صفات الفجرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خَبٌّ لئيم**»(٣)، ولذلك يتقيها المؤمن، وفي تطبيق ذلك يقول قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه: "لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**المكر والخديعة في النار**» لكنت من أمكر الناس"(٤).

والْعَمَلُ الظَّاهِرُ الَّذِي لَا يَصْدُقُهُ الْبَاطِنُ إِذَا قُصِدَ بِهِ إِرْضَاءُ آخَرَ له أحوال:

الحال الأول: أن يسمى مداهنة، إذا قصد به الإقرار الظاهري للفساد الذي يريده الآخر، فهذا الحال مذموم، وقريب منه الـمُدَاجَاة.

(١) ينظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الراغب (١/ ٩٥).

(٣) الأدب المفرد (١ / ١٥١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص:١٦٢)، وهو عند أحمد (٩١١٨) وقال الأرناؤوط: حسن.

(٤) المرفوع رواه البزار (٩٥١٧)، وذكر ابن حجر أنه رواه في كتاب الكامل لابن عدي، قال:" وإسناده لا بأس به". فتح الباري (٤ / ٣٥٦).

الحال الثاني: أن يسمى مُدَارَاة إذا قُصد به تطييب خاطر الآخر بالميل لما يريد دون ترتب فساد، فيقصد به إصلاح الأرض، وإقامة المصالح البشرية العامة.

الحال الثالث: أن يسمى مُخَادَعَة، وهو مذموم بإطلاق إذا حدث التوافق الظاهري مع قصد الإفساد والإضرار بالآخر، وهذا هو عَمَلُ الْمُخَادِعِ لَا عَمَلُ الطَّائِعِ الْخَاضِعِ، فيتآمر على الدين، ويبحث عن سبيلٍ لإيذاء الآخرين[١].

هذه الصفة تكشف لك الكبر الذي يتمتعون به، فهم يظنون أنهم الأذكى والأدهى والأقوى، ولذا يستطيعون التلاعب بهؤلاء المؤمنين البسطاء، فيخادعونهم ولكن الله جلَّ ذكره يذكر أمرًا غير متوقع، فيقول: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلماذا ذكر الله ﷻ أن المنافقين يحاولون مخادعة الله مع المؤمنين؟

ذِكْر الاسم المعظَّم (الله) ينبئنا ببصيرتين عظيمتين:

بصيرة: يبصرنا قوله تعالى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] بحقيقة الصلة بين اللّه ﷻ والمؤمنين حيث يجعل الله ﷻ صفَّهم صَفَّه، ويذكر نفسه –جلَّ مجده– لبيان انهدام مؤامراتهم على المستوى البعيد.. انظر جلالة التعبير وجماله.. ذكر الله ﷻ اسمه الجليل معهم، فقال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فانظر مبلغ بؤسهم وخذلانهم، إذ ظنوا بجهلم وعنادهم أنهم يخدعون ملك السموات والأرض، وعالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر وأخفى، فكيف لمخلوق ضعيف أن يظن أنه يقدر على خداعه، ألا ساءت ظنونهم، وتبًا لهم وبُعْدًا؟

بصيرة: أهمُّ أسباب الهزائم وتدمير البلدان قدرة المنافقين على خداع المؤمنين عندما تصر القيادات على الاعتماد على الذكاء السياسي وتنحية الرؤية القرآنية عن ميادين الصراع،

---

(١) ينظر: تفسير المنار (١/ ١٢٦).

فيفقدون ولاية الله تعالى بجانبهم، لذا ذكر الله ﷻ نفسه مع المؤمنين، فقال: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

الجواب: تعال بنا نتذوق جمال الآية، فقد ذكر الله ﷻ اسمه العظيم في صفِّ المؤمنين عندما يحاول المنافقون مخادعتهم لسببين:

السبب الأول: أن المنافقين حقًا يظنون أنهم يستطيعون مخادعة الله تعالى، ففي سورة النساء سيخبرنا الله ﷻ أنهم فعلًا يحاولون مخادعة الله على الحقيقة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا المعنى يكون واضحًا على قول كثيرٍ من المفسرين: إن آيات النفاق وردت في بعض أهل الكتاب أيضًا، فعندما ترجع إلى كتابهم المقدس، تجد أنهم يلحدون في صفات الله تعالى، فيظهرونه بمظهر الذي يمكن أن يُخدع كما في القصة الرديئة التي صوَّروا فيها يعقوب عليه السلام وأمَّه يخدعان إسحاق عليه السلام، ويكذبان من أجل أن يحصل يعقوب عليه السلام على البركة وحده دون أخيه البكر عيسو، وينخدع إسحاق عليه السلام، وكأن الله تعالى الذي يُوحي إليه لا يعلم، ويرتِّبون على ذلك أن المسكين عيسو بسبب كذب يعقوب أصبح وذريته عبيدًا ليعقوب، كما في سفر التكوين٢٧، ففيه: ٣٥ فَقَالَ إِسْحَاقُ: «جَاءَ أَخُوكَ وَاحتَالَ عَلَيَّ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ»[(١)]. تعالى الله عما يفعل الظالمون علوًا كبيرًا.

وكذلك فإن المنافقين لا يقدرون الله حقَّ قَدْره، ولذا سيظلُّون يظنون أنهم يمكنهم أن يخدعوا ربهم ﷻ حتى يوم القيامة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [الْمُجَادلَة: ١٨].

السبب الثاني: ذكر الله ﷻ اسمه فقال: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٩] كأنه يبيِّن أن المنافقين على الساحة العالمية والمحلية يحاولون أن يخدعوا المؤمنين، ولكن هذه

---

(١) سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري، كنيسة السيدة العذراء، القاهرة، ٢٠١٦ (ص: ٣١٤).

المحاولة سوف تبوء بالخيبة والخزي المبين، ويكون عاقبتها خُسرًا ما دامت القوى المؤمنة مع الله تعالى، فالله ﷻ سيحرسهم من الخداع، أو من نتائجه الآثمة، وعندما يحاول هؤلاء المجرمون الخداع فهم لا يزيدون على أن يحاولوا خداع الله.. ما لهم أأصابهم جنون حتى يحاولوا خداع رب السموات والأرض؟ ومن ذا يقدر أن يخدع من يعلم السر وأخفى؟

لعلك قد تسأل: فما فائدة ذكر اسمه سبحانه وتعالى مع المؤمنين؟ وما الرسائل التي نستلهمها من ذلك؟

الجواب: ذكر -سبحانه- اسمه في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٩] ليقدِّم رسالةً مزدوجة إلى صنفين:

الصنف الأول: إلى المؤمنين لئلا يعرضوا عن المقتضيات الإيمانية باسم الحِذق السياسي، أو التلوُّن الواقعي، وإلى كلِّ مؤمن لتسكب في قلبه "طمأنينة لا حدَّ لها، وهو يرى الله- جلَّ شأنه- يجعل قضيته هي قضيته، ومعركته هي معركته، وعدوه هو عدوه، ويأخذه في صفه، ويرفعه إلى جواره الكريم.. فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير؟!".

والصنف الثاني: إلى المنافقين ليعلموا أن خداعهم ما هو إلا في ضلال، فهذا "تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هي مع الله القوي الجبار القهار. وأنهم إنما يحاربون الله ﷻ حين يحاربون أولياءه، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة"، ولذا يكرر الله ذكر اسمه العظيم في معرض بيان حمايته للمؤمنين فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ [الفتح: ١٠][(١)].

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٣).

هنا تضع المعرفة القرآنية في ذهنك هذه البصيرة الواضحة: التمسك بولاية الله، والقيام بمقتضيات الإيمان يجعل المخادعة النفاقية متوجِّهة إلى الله ﷻ قبل الذين آمنوا، وفي ذلك من الحضِّ والتأكيد وَفْق منهجية التربية القرآنية أن يكون المؤمنون دائمًا في كنف الله لائذين بكلامه، يمدون أيديهم متضرعين في أن يحميهم من المخادعة النفاقية المدمرة، مع إعداد الوعي اللازم المنطلق من المعرفة القرآنية في التعامل مع هذا الصنف الماكر الخبيث.

فذكر الله تعالى اسمه العظيم ليوضِّح للمنافقين الصلة الكبرى التي بين الله ﷻ وعباده المؤمنين. "إنه يجعل صفَّهم صفَّه، وأمرَهم أمرَه، وشأنَهم شأنَه. يضمُّهم سبحانه إليه، ويأخذهم في كَنَفِه، ويجعل عدوَّهم عدوَّه، وما يُوَجَّه إليهم من مكر موجَّهًا إليه- سبحانه- وهذا هو التفضل العلوي الكريم.. التفضل الذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق، والذي يوحي بأن حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق"[(١)].

وهو في ذات الوقت تهديد رهيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم، وإيصال الأذى إليهم.

تعال ننظر إلى روعة التعبير القرآني، لنعرف: لماذا ذكر فعل ﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾، مضارعًا؟

الجواب: جاء فعل ﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾، فعلًا مضارعًا ليدلَّ على استمرار مخادعتهم ومخاتلتهم للمؤمنين، هم يحاولون مخادعة الذين آمنوا في أمنهم القومي والثقافي والغذائي.. يأخذون الأراضي، ويحتلون البلدان، ويسيطرون على الموانئ، ويتاجرون بالمخدرات، ويغيِّرون المناهج الدراسية.. يدمِّرون الإنسانية، ويسبغون على ذلك كله الألقاب البراقة مثل:

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٣).

التحرير، والعدل، والأمن، والحماية، والشرعية الدولية، والمبعوثين الدوليين، وحقوق الإنسان.

بعد أن عرفت أن مخادعة المنافقين تبوء بالفشل، فقد تسأل: ما المغانم التي يحقّقها المنافقون عند مخادعتهم للمؤمنين؟

الجواب: المغانم كثيرة منها إظهار أنفسهم بمظهر أصحاب المبادئ مثل مبادئ الوطنية، والحرص على المصلحة العامة، فيكسبون المناصب والامتيازات المتعدِّدة، ويحصلون على الأسرار الأمنية والعسكرية؛ إذ يصبحون العملاء الذين لا يحتاج العدو الخارجي إلى أن يدفع لهم مقابل عمالتهم، ويفصِّل قَتَادَة رحمه الله حال المنافق فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩]"نَعْتُ الْمُنَافِقِ عِنْدَ كَثِيرٍ: خَنِعُ الْأَخْلَاقِ، يُصَدِّقُ بِلِسَانِهِ، وَيُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَيُخَالِفُ بِعَمَلِهِ، يُصْبِحُ عَلَى حَالٍ، وَيُمْسِي عَلَى غَيْرِهِ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ، ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفأ السَّفِينَةِ، كُلَّمَا هبَّت رِيحٌ هَبَّ مَعَهَا"(١).

وهنا تتساءل لماذا استخدم صيغة "الـمُفاعلة" وهي لا تكون إلا من فاعلَيْن، كقولك: ضاربتُ أخاك، وجالست أباك - إذا كان كل واحد مجالس صَاحبه ومضاربَه، فلم يقل: يخدعون؟

الجواب: لعلَّ البيان القرآني يبرز لك أمورًا منها قوة الفعل المزيد مع أنه معناه معنى الآخر كما في كلمة: قاتلك الله بمعنى قتلك(٢). وذكر الألوسي رحمه الله من فوائد التعبير بلفظ المخادعة

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٣)، وصحح أ.د. حكمت بشير إسناده. الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (١/ ١٠٨).

(٢)نقل الطبري جوابًا قريبًا من ذلك ولم يرتضه. انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٧٤).

المبالغة، قال:" ويكون إيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في الكيفية: فإن الفعل متى غولب فيه بُوْلِغَ به، أو في الكمية: كما في الممارسة والمزاولة فإنهم كانوا مداومين على الخدع"(١).

ونقل ابْنُ عَطِيَّةَ ﷺ عَنِ الْخَلِيلِ ﷺ معنى جليلاً آخر يوضِّح نفسيتَهم في الصبر على ترويج الخدعة، فِفِي الْمُخَادَعَةِ مُهْلَةٌ، كَمَا يُقَالُ عَالَجْتُ الْمَرِيضَ لِمَكَانِ الْمُهْلَةِ(٢)، انظر إلى خُدَعِهم ودجلهم وأكاذيبهم ألا ترى كيف يمرِّرونها عبر وسائل الإعلام التي تطحن العقول البشرية طحنًا لتوقعها في فخاخها المجرمة؟

تعال نتعرف إلى وجه جديد من أوجه البينة القرآنية، فنتأمل: لماذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ مع أنهم استطاعوا فعلًا أن يخدعوا المؤمنين، فأظهرُوا بألسنتهم قول الحقِّ، واستطاعوا بذلك أن يخالطوا المؤمنين، ويلعبوا بدينهم ودنياهم؟

الجواب: هذه الآية مدهشة تكشف لك سببًا من أهمِّ أسباب الدمار الذي يحلُّ بالبلدان المسلمة، وترشد من طرف إلى كيفية توقِّي هذا الخسار والبوار والدمار؛ فإذا تمسك المؤمنون بالقرآن، وكانوا صارمين في تطبيقه، والتحذير والحذر ممن تتكرَّر منه أفعال المنافقين، فهنا حينها لا يمكن للمنافقين أن يخدعوا المؤمنين.

من الخطأ أن يقال: إنهم خَدعوا المؤمنين؛ لأن أفعال المنافقين ترجع بالخيبة عليهم إن اتسم المؤمنون بالوعي القرآني، فينبغي أن نحكم على النتيجة الأخيرة، وليس على المشهد الأول، ويقرِّب الطبري ﷺ لك الصورة كما تقول في رجل قاتَل آخر، فقتَل نفسَه ولم يقتُل صاحبه: قاتَل فلان فلانًا فلم يقتل إلا نَفْسَه، فتُوجِبُ له مقاتَلةَ صاحبِه، وتنفي عنه قَتْلَه

---

(١) روح المعاني (١/ ١٤٩).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٨٠).

صاحبَه، وتُوْجِبُ له قتلَ نفسِه، فكذلك تقول:"خادَعَ المنافقُ ربَّه والمؤمنين فلم يخدعْ إلا نفسَه"، فتثبت منه مخادعةَ ربَّه والمؤمنين، وتنفي عنه أن يكونَ خَدع غير نفسه[١].

فلعلك تسأل: كيف توحي هذه الآية ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أن الله تعالى مع المؤمنين؟ وما مظاهر ذلك في واقع المؤمنين؟

الجواب: يخبرك قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] أن الله تعالى دائمًا في صفِّ المؤمنين، وكيف يكون ذلك؟

بأن يستحضر المؤمنون الرؤية القرآنية في حياتهم، وتصرفاتهم، وتعاملهم مع العالم حولهم.. لا يستطيع المنافقون حينها أن يخدعوهم، بل يخدعون أنفسهم، فالخادعُ هو الذي قد صحَّت الخديعة له، وَوقع منه فعلُها؛ فيحاول الـخادع الخداعَ، والطرف الآخر يعلم تحركاتِه دون أن يخبره، ويرصد مكائده بدِقَّة، فالحقيقة الآن أن المؤمن يستدرج المنافق ليقع في الجرم المشهود استدراجًا، والمؤمن هنا غير قابل لأن يُخدع؛ لأنه استصحب الولاية الإلهية التي تحميه من أن يُخدع. ولا يتحقق هذا إلا عندما يتعامل المؤمن مع المنافق مدركًا لنفاقه لا عندما يتعامل معه بسذاجة بالغة ظانًا أنه تغير بسبب كلامه المعسول.. فما أكثر ما رأينا من اغترار بعض المؤمنين بنفاق المنافقين مع أن عمل المنافقين في محاربة بدهيات الدين يكشفهم، ويفضحهم.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٦).

أعظم مظاهر صحبة المؤمن لولاية الله تعالى أن يجعل النور القرآني يحكم تصرفاته مع العالم، ولم يتمكن المنافقون من المؤمنين إلا عندما جعل بعض المؤمنين تقديراتهم (السياسية) المحضة والمجردة من الاهتداء بالوحي هي التي تحكم تفكيرَهم، ثم ازداد بعضهم غرورًا، فصاروا يتهجَّمون على من يجعل (الوعي القرآني) هو الأساس في التعامل مع العالم، وراجع كيف ضاعت اليمن في أيام كتابة هذه البصائر، وأصبحت سلفًا ومثلًا للآخرين.

فالمؤمنون يمكن أن يقعوا في فخِّ الخديعة النفاقية إن تخلوا عن تطبيق (البيان القرآني) الذي وصف الألاعيب النفاقية، وحينها يخسرون ولاية الله تعالى ، فيَكِلُهم إلى تدبيرهم السياسي، فيتمكن منهم المنافقون.

عَنْ مُطَرِّفٍ بن الشخير رحمه الله قَالَ: «وَجَدْتُ هَذَا الْإِنْسَانَ مُلْقًى بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قَلْبِهِ خَيْرًا يَجْبِذْهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَا يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا وَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ وَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ»[(١)]، فإذا وفّق اللهُ تعالى عبدًا توكَّلَ بحفْظِهِ وكِلاءته، وهدايتِهِ وإرشادِهِ، وتوفيقِه، وتسديدِهِ، وإذا أخذلَهُ وَكَّله إلى نفسِهِ أو إلى غيرِه[(٢)].

وربما تبادر إلى ذهنك سؤال: هل القراءات الواردة في قوله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ تزيد الأمر وضوحًا؟ وما المعاني الجليلة التي تحبونا هذه القراءات المتنوعة؟

أجيبك: نعم يزيدك الأمر بصيرة القراءتان الواردتان[(٣)] في قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ فهما توضِّحان مشهدين:

---

(١) الزهد، لأحمد بن حنبل (ص: ١٩٦).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٧١).

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٠٧).

المشهد الأول: توضِّحه قراءة نَافِع وَابْن كَثِيرٍ وَأَبي عَمْرٍو: ﴿وَمَا يُخَـٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بصيغة التفاعل وهذا يعني المشاركة فهُمُ الْخَادِعُونَ الْمَخْدُوعُونَ، فهم يشاركون أنفسهم في الخداع، وسيكتشفون أنهم الطرف الآخر الذي يُخدع. وتدلُّ هذه القراءة على ما يجده المنافقون في أنفسهم من اضطراب، وضيق وعدم استقرار وثبات؛ فهناك عملية مخادعة بينهم وبين أنفسهم، وهذا ما يدل عليه قوله سبحانه ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٤]، وهذا قريب من التجريد الذي ذكره علماء البديع، فهم يخادعون أنفسهم ويغرونها بالأماني، وأنفسهم كذلك تخادعهم(١).

ولم يصب إمام القراء والمفسرين الطبري رحمه الله في جعل هذه القراءة ليست أولى بالصحة حين جعل من مقاييسه في الرد التأويل الشخصي المحتمل، حيث قال: "ومن الدلالة أيضًا على أن قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ أولى بالصحة من قراءة من قرأ: ﴿وَمَا يُخَـٰدِعُونَ﴾ أن الله جل ثناؤه، قد أخبر عنهم أنهم يُخادعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن يَنفي عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه؛ لأن ذلك تضادٌّ في المعنى، وذلك غير جائزٍ من الله جلَّ وعزَّ"(٢)، بل قد يحدث التضاد في المعنى ولا يقتضي ذلك التناقض في الصورة الكلية كما قرَّرتُ في أصول التفسير، وهذا يعني قبول القراءتين في درجة واحدة.

المشهد الثاني: توضِّحه قراءة الباقين: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ فهي تدل على أنه لا يوجد تأثير بعيد المدى لمخادعتهم لله والمؤمنين لأن كل ما ينفقونه ويدبرونه ويضمرونه يوشك أن ينقلب عليهم ولو طال الأجل.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن بالقراءات العشر من خلال: سور الفاتحة والبقرة وآل عمران (ص: ٦٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٧٧).

فالإمهال لهم وصف الله حقيقته، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وسيجدون في الآخرة عاقبة الخداع جزاء وفاقًا، حيث تضيء لهم أنوار لا إله إلا الله في صراط جهنم حتى إذا عبروا انطفأت، فهو قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًاۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

الصفة الرابعة: عدم الشعور، وفقدان الأحاسيس، أي فقدان الإنسانية، والتحول إلى صفة الوحشية الكاملة مع أن ظاهرهم إنساني، ويبصرنا بذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] ففقدوا المشاعر مطلقًا، وخاصة في خداعهم لأنفسهم:

هنا تعلم مقدار الجُرم الذي عند هؤلاء المنافقين؛ إذ فقدوا الشعور وهو أنبل وسائل الإدراك، فلماذا خصَّه الله تعالى في هذا الموضع دون غيره من وسائل الإدراك؟ لماذا لم يقل: ﴿وما يحسون﴾ أو ﴿وما يعلمون﴾؟

الجواب:

أولًا: العلم هو الإدراك للمعلوم مع تسميته أو الحكم عليه، وقد لا يحتاج إلى الإحساس أو الشعور به، ولذا يوصف الله تعالى بالعلم؛ لأن علمه ذاتي.

ومن وسائل الإدراك أيضًا: العقل وهو يرتِّب قضايا لتوليد نتائج غيبية من المعلومات الحاضرة.

ومن وسائل الإدراك أيضًا: الإحساس، والشعور، وهما متقاربان.

فقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي لا يعلمونه علمًا يحرك منهم الحواس، فينتبهون لما يترتب عليه.

وهي أقوى من قولك: "ما يحسون" لأن الإحساس هو العلم بالشيء عن طريق الحواس الظاهرة، وأما الشعور فهو الإحساس بالشيء لا من طريق الحواس، بل من وجه دقيق لطيف باطن، وهي صفة ذاتية تدل على وجود الروح الإنسانية، من قولك: (شَعُرْتُ وشعَرت بِالشَّيْءِ)، إِذَا عَلِمْتُهُ وَفَطِنْتُ لَهُ، فالشعور مشتق من الشَّعْرِ - بِفَتْحِ الشِّينِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا- فَشَعَرْتُ أَصَبْتُ الشَّعْرَ، جمعه أَشْعَارٌ كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: ٨٠] (١)، وتدل هذه الكلمة على العلم الذي يدرك بدقة ولطف؛ لأن الذي يمس شعرك لا تحس به ولا تعلم حركته بيسر بعكس من يمس جلدك، فإن قلت: شعرت كَذَا أَيْ عَلِمْتُ عِلْمًا دقيقًا، وأحسست به إحساسًا يسري في داخلك، ويقولون: "لَيْتَ شِعْرِي" عندما يتحيرون فِي عِلْمِ أَمْرٍ خَفِيٍّ، وَلَوْلَا الْخَفَاءُ لَمَا تَمَنَّى عِلْمَهُ بَلْ لَعَلِمَهُ بِلَا تَمَنٍّ، والشعور علم يوصل إليه من وجه دقيق كدقة الشعر، وقيل للشعير شعيرًا للشظية الدقيقة التي في طرفه خلاف الحنطة، ولا يقال: الله تعالى يشعر لأن الاشياء لا تدق عنه.

والإحساس غالبًا خارجي، والشعور إحساس يسري في الداخل ويستمر، وَسُمِّي الشَّاعِرُ شاعرًا لفطنته ودقّة معرفته، فيَفْطِنُ لِمَا لَا يَفْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ، ويحس ويحركه إحساسه، فَالشِّعْرُ في الأصل اسم للعلم الدّقيق، فشعر يَشْعُرُ شِعْرًا - بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ - وَشُعُورًا كأنه عَلِمَ بأموره الباطنة علمـًا لا تلمسه حواسه لأنها تدرك الأمور الظاهرة،

وبذا يكون معنى: يشعرون أي يحسُّون إحساسًا داخليًا يفطنون من خلاله لدقائق الأمور، فَلَا تَقُولُ: شَعَرْتُ بِحَلَاوَةِ الْعَسَلِ، وَبِصَوْتِ الصَّاعِقَةِ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: أَشْعُرُ بِحَرَارَةٍ مَا فِي بَدَنِي، وقولهم: شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا علمته علمًا مصحوبًا بإحساس خفيف أو ثقيل في الدِّقَّة كإصابة

(١) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٢٦٢).

الشَّعر، وأخذًا من نفاذ الشعر الدقيق، فأحسست به كأنه جزء من جسدي وعَلِمْتَهُ وَفَطِنْتَ لَهُ شعوري بحركة الشعر في رأسي، فهو جنس من العلم لطيف دقيق.

فلما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فقد وصفهم بفقدان الأحاسيس الداخلية الدقيقة العميقة المميزة للنفوس الإنسانية، فَهُم ربَّما يحسون لكنهم يفقدون المشاعر التي تميز الإنسان النبيل عن غيره.

ثانيًا: في مقارنة لافتة للأستاذ الزمخشري رحمه الله بين (لا يشعرون) الذي ختمت به هذه الآية، و(لا يعلمون) الذي ختمت به آية تالية يقول: "فإن قلت فلمَ فُصلت هذه الآية بـ(لا يعلمون)، والتي قبلها بـ(لا يشعرون)، قلت لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحقِّ وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدِّي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس خصوصًا عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائمًا بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذِكْرُ العلم معه أحسنَ طِباقًا له"[١].

ثالثًا: يغوص ابن سِيدَه في دراسة نصية لهذا الموضع غوصًا عميقًا فيقول: "كلُّ مشعور به معلوم، وليس كل معلوم مشعورًا به؛ ولذا لم يَجُزْ في وصف الله تعالى، كما لم يَجُزْ في وصفه دَرَى -من الدِّراية- وكان قولُ الله تعالى في وصف الكفار (ولكن لا يشعرون) أبلغَ في الذمِّ عن الفهم من وصفهم بأنهم لا يعلمون، فإن البهيمة قد تشعر من حيث كانت تُحِسُّ، فكأنهم

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٦٤).

وُصفوا بنهاية الذَّهاب عن الفَهْم"(١)..وهذا منزع لطيف عالجه اثنان من أساطين اللغة والبلاغة وكشفا الستار عن مكنونه، وأوقفانا على أن وصف هذا الفريق بعدم الشعور بالغٌ في الحطِّ منهم درجة المنتهى من الذم والتنكيل.

تعال معي لترى الإعجاز المدهش للنظم القرآني الفريد، حيث إن الله جل مجده قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ولم يقيِّد ذلك بشيء، كما قال في موضع آخر: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل ٢١]، فلماذا؟

الجواب: لأن البصائر القرآنية تفتح ذهنك على أنهم فقدوا الشعور بكلِّ شيء ينبغي أن يشعروا به:

فأولاً: فقدوا الشعور في أنهم يخادعون أنفسهم ويخدعونها، وما يشعرون بذلك، وكذلك ما يشعرون المشاعر الإنسانية الحقيقية.

تصوَّرْ مقدار غياب المشاعر عنهم: إنهم يخدعون أنفسهم ويغشُّونها ويدمِّرونها في غير شعور! "يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، ووَقَوها مغبَّة المصارحة بالكفر بين المؤمنين، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه، والنفاق الذي يظهرونه، وينتهون بها إلى شرِّ مصير!"(٢)، وروى الطبري ﵀ تفسيرًا بديعًا في ذلك عن ابن وهب ﵀، قال: سألت ابن زيد ﵀ عن قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: ما يشعرون أنهم ضَرُّوا أنفسهم، بما أَسَرُّوا من الكفر والنِّفاق. وقرأ قول الله

---

(١) المخصص، لابن سيده (١/ ٢٦٠).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٤٣).

تعالى ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾. قال: هم المنافقون. حتى بلغ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، قد كان الإيمان ينفعهم عندكم(١).

وثانيًا: فقدوا الشعور بأن الله ﷻ سيرد خديعتهم للمؤمنين.. يظنون أنهم سيحقّقون الإنجازات عن طريق الخداع، ولا يعلمون أن ذلك سيرتد عليهم حسراتٍ وآهاتٍ.. إنهم لا يشعرون بمغالبة الله -جل في علاه-.. ألا يعلمون أنهم عندما يخادعون المؤمنين إنما يخادعون أولياء الله، والله يحفظ أولياءه بتمسكهم بما يأمرهم به، ويهدم الله تعالى خداع المنافقين، فينقلب الأمر عليهم؟ وانظر إلى حال قوى النفاق الماكرة ممن سبق ماذا كان حال مكرهم وخداعهم؟! ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

ونقل رشيد رضا ﵀ عن أستاذه محمد عبده ﵀ مثالاً عن فَقْدِ المشاعر في الاجتراء على الذنوب، فقال: "إِذَا رَجَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ، وَأَصْغَى لِمُنَاجَاةِ سِرِّهِ يَجِدُ عِنْدَمَا يَهُمُّ بِعَمَلِ شَيْءٍ أَنَّ فِي قَلْبِهِ طَرِيقَيْنِ، وَفِي نَفْسِهِ خَصْمَيْنِ مُخْتَصِمَيْنِ، أَحَدُهُمَا: يَأْمُرُهُ بِالْعَمَلِ وَسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْأَعْوَجِ، وَآخَرُ: يَنْهَاهُ عَنِ الْعِوَجِ وَيَأْمُرُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْمَنْهَجِ، وَلَا يَتَرَجَّحُ عِنْدَهُ بَاعِثُ الشَّرِّ، وَلَا يُجِيبُ دَاعِيَ السُّوءِ، إِلَّا إِذَا خَدَعَ نَفْسَهُ بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ وَالْمُذَاكَرَةِ الْمَطْلُوبَةِ فِيهَا، وَصَرَفَهَا عَنِ الْحَقِّ وَزَيَّنَ لَهَا الْبَاطِلَ، وَهَذِهِ الشُّئُونُ النَّفْسِيَّةُ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ، تَكُونُ الْمُنَازَعَةُ ثُمَّ الْمُخَادَعَةُ ثُمَّ التَّرْجِيحُ، وَيَمُرُّ ذَلِكَ كُلُّهُ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَرُبَّمَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ بِفِكْرِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: (وَمَا يَشْعُرُونَ) فَإِنَّ الشُّعُورَ هُوَ إِدْرَاكُ مَا خَفِيَ"(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٨)، قال إسلام منصور: سنده صحيح، ورجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن زيد يكتب حديثه. تفسير الطبري (١/ ٢١٦)، طبعة دار الحديث.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٢٧).

عدم الشعور يجعل المذنب يعتاد الذنوب حتى تصبح مزينة في قلبه، ويحتشد لها الإعلام القبيح وتحبب إليها بطانة السوء لتزيد من زخارفها وزينتها فإذا هو يعد من الإنجازات الضخمة قتل الأطفال وتجويع الدول وتدمير المؤسسات الخيرية والتعليمية.

وانظر إليهم يتلذذون بمشاهدة الأبرياء والأطفال والنساء في مسرحيات القتل العالمية، وهم يديرون الحوارات في المفاوضات التي تُسْبِل الشرعية على القَتَلة، وتمنع الضحايا من سبل الدفاع عن أنفسهم.. فكيف تصفهم؟ هم لا يشعرون، فقد فقدوا كلَّ معاني الأحاسيس الإنسانية، فلا يستفيقون بصرخات الأطفال، ولا بأنَّات الثكالى، ولا بآلام المعذبين والجائعين.

عندما نسمع أن الله ﷻ يصف المنافقين بأنهم ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾، فكيف ترى؟ ما الذي نستفيده من معرفتنا بعدم شعورهم؟

الجواب: هذه الصفة تدلُّ على مقدار وحشية قلوبهم، والمؤمن الصادق ينبغي أن يستشعر مقدار خوائهم من الأحاسيس عندما يفكر في التعامل معهم حتى لا تجرفه الأوهام بعيدًا، فيتمكنون من خديعته، وربما رأى بعضهم يبدي تعاطفًا مع الكلاب، ويبكي لأن كَلْبَه لم يأكل وجبته، ولكن هذا المشهد لا ينبغي أن ينسينا أنهم ما يشعرون بأن بعضهم يتسبب بتجويع الملايين ويفتخر بذلك، ويمكن أن تقدر قوة هذا الوصف (وما يشعرون) عندما تذكر أن (مادلين أولبرايت) وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق سألتها الصحفية (ليسلي ستول) في برنامج "ستون دقيقة" عام ١٩٩٦م: هل أن موت نصف مليون طفل عراقي هو ثمن مستحق لاستمرار العقوبات؟ فأجابت (أولبرايت): نعم إنه ثمن مستحق.

الصفة الخامسة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، ومرض القلوب يدلُّ على السواد والنتن، وعلى فساد التفكير، واعتلال العقل، وذهاب الضمير، فالمرض: الخُرُوجُ عن حالة الاعْتِدَالِ وعدم إعمال الوظائف على نحو مستقيم.

وربما تساءلت: لماذا جاءت ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ دون حرف عطف؟

الجواب: لأن هذا اسْتِئْنافٌ بياني يُكْمِل بقية صفاتهم، ولأن هذه الصفة تتضمن جوابًا على سؤال يتعجب فيه السائل، وسبب تعجبه أنه لما سمع أحوال المنافقين السابقة تعجب منهم: فهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] فهم يحاولون أن يخادعوا الله والذين آمنوا، وفي الوقت نفسه فقدوا الشعور الذي ينبههم على جرم أفعالهم وغبائهم؛ لأنهم يخادعون الله، فيتساءل السامع عندها: كيف يمكن لفئة أن تكون كذلك، فجاء الجواب مبينًا صفة عندهم سببت لهم ذلك، فقال الله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

وقد تتساءل أيضًا: لماذا قدم الخبر على المبتدأ فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟

الجواب: أما عند النحويين فإنهم يحدثونك عن أن المبتدأ نكرة، فحقُّه أن يتأخر في هذه الحالة، ولكن تدبرنا ينصب على فَهْمِ العلة البيانية التي تصوِّر لنا معنى محدَّدًا في القرآن، والفائدة هنا في تقديم الخبر وتأخير المبتدأ أن تركِّز اهتمامك على **القلوب التي هي محل التفكير والعاطفة واتخاذ القرار**، ونَوَّن كلمة ﴿مَّرَضٌ﴾؛ ليهوِّل من شأن هذا المرض، فهو المرض الذي ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان أكثر من غيره.

وحتى يبدو لك جمال هذا التركيب ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فكر عندما تسمع كلمة ﴿قُلُوبِهِم﴾.. فكر لو جاء أحد بني الإنسان خبر من طبيب ثقة أنه مصاب بمرض مادي في قلبه.. كيف ترى فزعه، وهلعه؟. كيف سيحشد جهوده العملية والتخطيطية وجميع ما ادخر من مال لأجل أن يعالج هذه العلة.. فما له لا ينتبه إلى العلة الخفية التي قد تصيب قلبه؟

العلة البيانية لتقديم الخبر وتأخير المبتدأ في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أن ينصبَّ الاهتمام على القلوب التي هي محل التفكير والعاطفة واتخاذ القرار.

الجواب: المرض مَا أخرج الْإِنْسَان عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ والاعتدال.. المرض ما منع الجسد من أن يتصرف على النحو الذي خلقه الله عليه.

والمرض نوعان:

الأوَّل: مَرَضٌ جسميٌّ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]. **والثاني**: مرض قلبي: وهو ما يخرج القلب عن العاطفة الصحيحة، والتفكير السليم.. فأيهما الأصل[١]؟

ذهب كثير من أهل العلم إلى أن المرض الجسدي هو الأصل، وقالوا: يقاس المرض القلبي عليه، والصحيح أن المرض القلبي هو الأصل، فهو عبارة عن الرَّذائل الخُلُقية التي تدمِّر فطرة الإنسان كالجُبن، والبخل، والنّفاق، والحسد، والبغي، كما في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ [النور: ٥٠]، وكانت العرب تجعل تغيُّر الأخلاق والطبائع السليمة من الأمراض، فيقول علقمة بن عَبَدَةَ الفَحْل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ مالُه ... فليس له من وُدِّهن نصيبُ[٢]

فهذا المرض هو الأصل لأنه أخرج الإنسان عن مقتضى فطرته التي خلقها الله تعالى بها، فلم يَعُدْ يدرك حياته الحقيقية، ولذلك قد يفسد في الأرض، ولا يشعر بأنه مريض، وقد يدمِّر

(١) ينظر: تفسير الراغب (١/ ٩٨، ٩٩)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٤/ ٨٤).

(٢) ديوان علقمة بن عبدة الفحل، شرحه وعلق عليه سعيد نسيب مكارم، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦، (ص: ٢٣).

الحياة التي يجب أن يملأها بالفضائل متهيأة للحياة الأخرويَّة المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ويشبهه المرض الجسدي المانع للبدن عن التصرف الصحيح في جسده، وقد جعل النبي ﷺ أمراض القلوب هي الأصل في المرض، فعن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَيِّدُكم يا بني سَلِمة؟**» قلنا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبَخِّله، قال: «**وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البخل، بل سَيِّدُكم عمرو بن الجَموح**»(١).

فإن قلت: وصف الله تعالى قلوبهم بالمرض هنا، فهل يؤاخذون على مرض اعتلت به قلوبهم دون قدرة لهم على دفعه، مثل المرض الظاهري الذي يصيب المرء رغمًا عنه؟

الجواب: هذا المرض لم يأت جبرًا عنهم.. لم يكرهوا عليه بل جاء باختيارهم عندما أصروا على أن تخالف أفعالُهم أقوالَهم، وعندما أصروا على اختيار طريق المخادعة، فمن أسباب ازدياد مرضهم نفورهم عن النور القرآني...

لقد حدثنا الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام حيث قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، **فقد اتخذ قراره السليم، فأسلم لرب العالمين، وبهذه الخطوة نمت السلامة في قلبه.. هنا تعلم لماذا وصفه الله ﷻ بسلامة القلب في قوله:** ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]؟ **وكان إبراهيم عليه السلام لاهتمامه بهذه الفكرة يذكر أهمية القلب السليم، فقد حدثنا الله ﷻ عنه في سورة الشعراء أنه قال عن يوم القيامة:** ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٥-٨٩].

(١) الأدب المفرد (٢٩٦)، وصححه الحافظ في إتحاف المهرة (٢٠٦٠٨)، وله شواهد عن عدد من الصحابة، انظر: تغليق التعليق (٣/ ٣٤٦)، وأنيس الساري (٣٦٤٤). وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ١٢٥).

فحتى يجلب المرء السلامة لقلبه ينبغي أن يذعن لخالقه، أما هؤلاء فقد هجروا العمل بما يحيي القلوب من الوحي الرباني، ويصف الله ﷻ ذلك بدقة بالغة فيقول عن السورة عندما ينزلها: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٥]، والسورة لم تفعل ذلك، بل تسببوا في ذلك لأنفسهم لما نفروا وعاندوا وهجروا، ومثل ذلك شكوى نوحٍ عليه السلام حين قال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نُوح: ٥،٦].

ولعلك قد تسأل فهل يصاب الإنسان بمرض القلب بسبب بُعْده عن منهج الله تعالى؟ وهل هناك علاقة تربطهما؟

الجواب: نعم النفور عن التزام النظام الإلهي الذي تحيا به الأرض، ويجري عليه الكون يسبب المرض، والله تعالى يصف واقع هؤلاء النافرين من النذير المشفق المبين، فيقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فَاطِر: ٤٢].

فيدخل في مرض القلب كلُّ الأدواء النَّجِسة مثل الحسد والبغي والكبر والعنصرية والشك، ومن ذلك ما قرره الطبري رحمه الله في قوله: "في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين، والتصديق بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند الله –مَرَضٌ وسُقْم"(١)، ومن مرض القلب الشبهات والشهوات التي تمرضه كالشهوة الجسدية، وشهوة الترؤس، ومن ذلك ما وقع لابن أُبي بن سلول، الذي قال عنه سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ. لَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ–المنطقة– عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُونَهُ بِالْعِصَابَةِ –أي يجعلونه ملكًا عليهم– فَلَمَّا أَبَى اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ، شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ ما رَأَيْتَ(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٩).

(٢) البخاري (٤٥٦٦).

أمراض القلوب أمراض حقيقية تدمِّر الحياة، والمعاصي الصغيرة والكبيرة أمراض تجعل القلب معتلًا مائلًا إلى السواد، ثم تجعله أقسى من الحجارة، فيفارق الفطرة الإنسانية السليمة، ومرض النفاق أقبح الأمراض وأعظمها خطورة، ويفوق في خطورته مرض الكفر إلا أن النفاق يتفاوت كما يتفاوت الكفر، فبعض المنافقين: محاربون للإسلام أعظم من الكافرين المتطرفين، ويسارعون في صفوف أكبر مجرمي العالم لتدمير الكيان الذي بناه رسول العالمين ﷺ، وبعضهم شاكون يظهرون الشك في كلِّ وقتٍ يستطيعونه، وبعضهم شاكون لكنهم لا يبدون شكهم.

ولكن: لماذا التعبير بالقلوب دون العقول؟ وما دلالة اختيار القرآن لهذه الكلمة دون غيرها من الكلمات القريبة لها؟

الجواب: لأنك تجد في قلبك أثرَ فِعْلِك، فإن كان خيرًا شعرت بمنتهى السعادة تغمر قلبك، وإن أقبلت على سوء، فقارفته ظهر ذلك في نبضات قلبك، وشعرت بضيقه في صدرك، وأما العقل فهو يثير عمليات حسابية يخلص منها إلى الفعل أو إلى عدم الفعل أو إلى استنتاج المعلومات. فصار القلب مركزًا لاتخاذ القرار، وهو مركز العواطف التي تترتب على هذا القرار.

ولعلك تسأل: ما معنى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ ؟ ولماذا استحقوا هذه العقوبة؟ ولماذا كانت الزيادة مرضًا من جنس مرضهم؟

الجواب: لأنهم اختاروا أن يُمْرِضوا قلوبهم فعاقبهم الله تعالى بزيادة المرض، فقال: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ وهذا إخبارٌ عنهم.. زادهم الله ﷻ رجسًا إلى رجسهم بأن تركهم والشياطين يزينون لهم كُرْهَ الإسلام، ومحاربة الإيمان كما زاد المؤمنين به إيمانًا إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك، بأن جعل كلَّ آية يقرؤونها، وكلَّ هدى يجدونه معينًا لهم على

الارتقاء الإيماني، وفصَّل الله ﷻ لنا مثالًا لذلك يحدِّث عنه ابن زيد رحمه الله، فيقول: زادهم رِجْسًا، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] قال: شرًّا إلى شرِّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم[١].

وربما تساءلت: كيف تزيد أمراض قلوبهم؟

فالجواب: أنها تزيد عندما لا يجاهدون نوازع السوء، ولا يدرِّبون أنفسهم على خصال الخير.. هنالك تزداد أمراضهم، وتتكاثر أدواؤهم، ولذلك يمكنك أن تقول:

بداية الشر خَطْرة، فقاوم خَطْرة السوء فإنها إن تمكنت صارت همًّا وعزمًا.

وقاوم الهمَّ والعزم فإنهما إن تمكنا صارا فكرة وخِطة.

وقاوم الفكرة والخطة فإنهما إن تمكنا صارا فعلًا.

وتب عن الفعل، وعجل الندم، فإن الفعل إن تكرر صار مرضًا يتكاثر يتأصَّل ويرسخ ويتمكَّن، وعالج المرض فإنه إن تمكن صار عادة وملَكة مستحكمة:

احذرْ فُديتَ طوارقَ الخَطَرَاتِ ... مِنْ قبلِ أنْ تودي إلى العَزَمَاتِ
فالعزمُ يغدو إنْ تمادى فكرةً ... بل خطةً تفضي إلى العَثَراتِ
فإنِ استتمَّتْ فكرةٌ واستُحْكِمَتْ ... صارتْ فِعالًا تُورِثُ النَّكَباتِ
وإذا فعالُ السوءِ منك تمكنتْ ... فقد ابتغيتَ مواردَ الهَلَكاتِ
وَعَرَاكَ سُقمٌ ما له منْ كاشفٍ ... إلا اللطيفُ وغافرُ الزَّلاتِ[٢]

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٢).

(٢) الأبيات لشاعر البصائر د/ سعيد بن دحباج، أكرمه الله.

يقول طبيب القلوب ابن القيم رحمه الله: "قَاعِدَة جليلة: مبدأ كلِّ علم نَظَرِي وَعمل اخْتِيَاري هُوَ الخواطر والأفكار فَإِنَّهَا توجب التصوُّرات، والتصوُّرات تَدْعُو إِلَى الإيرادات، والإيرادات تَقْتَضِي وُقُوع الْفِعْل، وَكَثْرَة تكراره تُعْطِي الْعادة، فصلاح هَذِه الْمَرَاتِب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها"(١)، ويقول أيضًا: "وأما الخطرات فشأنها أصعب، فإنّها مبدأ الخير والشرّ، ومنها تتولّد الإرادات والهمم والعزائم. فمن راعى خطراتِه ملَكَ زمامَ نفسه، وقهر هواه. ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسه له أغلَب، ومن استهان بالخطرات قادته قَسْرًا إلى الهلكات"(٢).

وابن رسلان رحمه الله يصف لك معالجة القلوب ابتداء من الخاطر الذي يخطر ثم يسيطر، فيقول:

وزِنْ بحُكمِ الشرعِ كلَّ خاطرِ ... فإن يكن مأموره فبادر
ولا تخفْ وسوسةَ الشيطانِ ... فإنه أمر من الرحمنِ
فإنْ تخفْ وقوعَهُ منكَ على ... منهيٍّ وصفٍ مثلَ إعجابٍ فلا
وإن يكُ استغفارنا يفتقرُ ... لمثله فإننا نستغفرُ
فاعملْ وداوِ العُجبَ حيث يخطُرُ ... مستغفرًا عساه أن يكفر
وإن يكن ممَّا نهيت عنه ... فهو من الشيطان فاحذرنه
فإن تُمِلْ إليه كنْ مستغفرًا ... من ذنبه عساه أن يُكَفَّرا
فيغفر الحديثَ للنفس وما ... همَّ إذا لم يعمل أو تكلما
فجاهد النفس بأن لا تفعلا ... فإن فعلت تب وأقلعْ عَجِلا

(١) الفوائد، لابن القيم (١/ ١٧٣).

(٢) الداء والدواء، (١/ ٣٥٣).

وحيث لا تقلعُ لاستلذاذِ ... أو كَسلٍ يدعوك باستحواذِ
فاذكر هجومَ هاذم اللذاتِ ... وفجأةَ الزوال والفواتِ(١)

وربما يحدوك التأمل لتسأل: لماذا يزيد مرض القلب عند المنافقين؟

الجواب: يُظهر الطاهر رحمه الله تقعيدًا ذهبيًّا في سبب كون النفاق منشأ الأمراض المتكاثرة، فيقول: "وإنَّما كانَ النِّفاقُ مُوجبًا لِازْدِيادِ ما يُقارِنُهُ مِن سَيِّءِ الأخْلاقِ؛ لِأنَّ النِّفاقَ يَسْتُرُ الأخْلاقَ الذَّمِيمَةَ فَتَكُونُ مَحْجُوبَةً عَنِ النّاصِحِينَ والمُرَبِّينَ والمُرْشِدِينَ، وبِذَلِكَ تَتَأصَّلُ وتَتَوالَدُ إلى غَيْرِ حَدٍّ، فالنِّفاقُ في كَتْمِهِ مَساوِئَ الأخْلاقِ بِمَنزِلَةِ كَتْمِ المَرِيضِ داءَهُ عَنِ الطَّبِيبِ"(٢).

وهذا المرض يزداد استفحالًا، فتنشأ عنه كل مساوئ النفوس، وتصوَّر لو كان الذي حدث له ذلك صاحب سلطان في الأرض يتحكَّم في موارد القوة، والملك، والدولة؟

"فَكُلُّ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَعَ ذَلِكَ يَصْدُرُ فِي عَمَلِهِ عَنْ شَهَوَاتِهِ، وَلَا يَمْنَعُهُ إِيمَانُهُ عَنْ رُكُوبِ خَطِيئَاتِهِ، فَاعْتِقَادُهُ إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ، لَا يَعْلُو عَنْ لَفْظٍ فِي مَقَالٍ، وَدَعْوَى عِنْدَ جِدَالٍ، فَإِذَا رَكَنَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ فَهُوَ خَادِعٌ لِنَفْسِهِ مُخَادِعٌ لِرَبِّهِ، يَظُنُّ أَنَّ عَلَّامَ الْغُيُوبِ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَا فِي الْقُلُوبِ"(٣).

لعلك اشتقت لتعرف كيف يمكنهم معالجة قلوبهم من هذا المرض؟ وهل يمكن علاجهم وقد ازدادوا مرضًا إلى مرضهم؟

---

(١) الزبد في الفقه الشافعي (ص:٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٧٩).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٢٩).

الجواب: الحل لهذا المرض دانٍ قريبٌ في متناول أيديهم: أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه، وقد حصلت التوبة من بعضهم، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ جَاءَهُ حَرْمَلَةُ بن زَيْدٍ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الإِيمَانُ هَهُنَا –وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ– وَالنِّفَاقُ هَهُنَا –وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ– وَلا يَذْكُرُ اللهَ إلا قَلِيلًا –يعني نفسه– فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَرَدَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَسَكَتَ حَرْمَلَةُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِطَرَفِ لِسَانِ حَرْمَلَةَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا صَادِقًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَارْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى الْخَيْرِ**»، فَقَالَ حَرْمَلَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِخْوَانًا مُنَافِقِينَ كُنْتُ فِيهِمْ رَأْسًا أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا، مَنْ جَاءَنَا كَمَا جِئْتَنَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ كَمَا اسْتَغْفَرْنَا لَكَ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى ذَنْبِهِ فَاللهُ أَوْلَى بِهِ، وَلا تَخْرِقْ عَلَى أَحَدٍ سِتْرًا**»(١).

الصفة السادسة: الكذب على العالمين، ويبصرنا به قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، **وهو أقوى أسلحتهم، والتحذير من هذه الصفة حتى لا نركن إلى أي كلمةٍ تخرج من أفواههم الكاذبة؛ وينبغي أن نتعامل معها بحذرٍ شديدٍ خوفًا من أن نقع ضحايا أكاذيبهم:**

تعال ننظر: ما الذي بصرّنا بهذه الصفة من صفاتهم؟ وما الكذب؟

الجواب: الذي بصرنا بهذه الصفة قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال من الكَذِب(٢).

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٤٨٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٤١٠) برقم (١٦١٤٧): "وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ"، وفي الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٥٠): "وإسناده لا بأس به".

(٢) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٠٧).

والكذب حقيقته مخالفة الواقع من جهة ما وضع له الأمر، ولذلك ينسب الكذب إلى الأشخاص والمواد دلالة على عدم تحقُّق ما وضعت لأجله، فيكون في كلِّ شيءٍ بحَسَبِهِ، فيقال: كذبت العينُ: خانها حِسُّها، والسَيْرُ: إذا لم يَجِدَّ فيوصل إلى المكان، وكذَب القومُ السُّرَى –السير بالليل–: أي لم يوفقوا له[1]، فالكَذِبُ من القول أن يخالف المُتكَلَّم المتوقَّع من الكلام.

ولكن الله تعالى لم يبين لنا يكذبون على مَن، فجاءت الآية مطلقة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، فعلى مَن تراهم يكذبون؟

الجواب: يكذبون على المؤمنين، ويكذبون على العالمين، فيدخل فيمن يكذبون عليه أتباعهم، وذلك حتى يضمنوا ولاءهم.. والمفاجأة بعد هذا أنهم يكذبون على أنفسهم.

المنافقون يكذبون.. فاحترس أن تقع أسيرًا لكلامهم المعسول.. ما أكثر ما تسمع منهم الجميل من الكلام، ولكنهم يكذبون كما يتنفسون. يعقدون العهود، ويقيمون المصالحات، ويحلفون الأيمان، ويبرمون المواثيق والاتفاقيات، ثم ما أسرع ما ينقضون كلَّ ذلك. ومن أعجب أفعالهم أنك تجدهم غالبًا يكذبون مع المؤمنين، ويحاولون أن يكونوا صادقين مع غير المؤمنين.

الصفة السابعة: التكذيب للحق المبين، وتدل على هذه الصفة قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

قد تسأل: ما الذي بصّرنا بهذه الصفة؟

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٧٩).

الجواب: بصرنا بذلك قراءة الباقين من القراء العشرة: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾[1]، هنا تستبين لك عظمة اللغة القرآنية المجيدة، فتعدد القراءات تقوم مقام تعدد الآيات.

فما التكذيب؟

التكذيب مشتق من كَذَّبْتُ فُلَانًا إذا نسبته إلى الكذب. فالصفة هنا تدل على أنهم لم يكتفوا بالكذب، بل إذا سمعوا الصدق والحق بادروا بتكذيبه، والردِّ عليه، وهذه القراءة تحبونا مشهدًا مثيرًا ذكره الله ﷻ بوجوه مختلفة في نحو خمسة وخمسين موضعًا في القرآن المجيد مثل قوله تعالى مجده: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

قوى النفاق تُكَذِّب الحقَّ أيًّا كان مصدره، لا يختلفون في ذلك عن الكافرين إلا أنهم يُضلِّلُون المؤمنين بأنهم مؤمنون! وتجد المنافقين يطعنون في الوحي الغيبي في المقام الأول ليتوصلوا منه إلى الطعن في الوحي كله، وخذ هذا المثال في تكذيب الكافرين للنبي الأمين ﷺ، فعن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**»[2].

وقد تتساءل: فما الفرق بين الكذب والتكذيب؟

الجواب: التكذيب للمصلحين، والكذب على العالمين، وإذا كانوا يَكْذبون على البُرَاء فما الذي في كلامهم يمكن أن يُوْثَقُ به؟ وإذا كانوا يُكَذِّبون الحقَّ، فكيف يمكن أن ينصروه أو أن يصلحوا في الأرض؟

---

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٧٩).

(٢) البخاري (٤٧١٠).

والمنافقون يكذبون، ويُكَذبون، وانظر إلى الأبواق الإعلامية المنافقة كيف تسارع إلى نشر الكذب من جهة وإلى تكذيب الصادقين، وتصديق الكاذبين، فيعتمدون شعار: الغاية تبرر الوسيلة، ويرددون: اكذب واكذب حتى يصدِّقك الناس، وحتى تصدق نفسك.

المنافقون من الأدوات المفضَّلة (للدجال الكبير)، فهم الذين يمهِّدون له بصناعة السنوات الخداعات للجماهير، كما أخبر بذلك النبي ﷺ واصفًا فيها المستقبل فقال: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: السفيه يتكلم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**» "أحمد٧٩١٢، وحسنه الأرناؤوط".

ولك أن تتساءل: لماذا قدم الله ﷻ ذكر عقوبة الكذب والتكذيب على وصفهم به، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] فقدَّم العقوبة على الجناية؟

الجواب: لفداحة جُرْم الكذب والتكذيب، وخطورتهما، وكلمة (كانوا) تدل على تأصُّل الكذب لديهم، ورسوخِه عندهم، ولا تدلُّ على انتهائهم عنه.

ولعلك قد تسأل: كيف عبَّر عن تأصُّل الكذب عندهم بالفعل (كان)؟ وماذا يترتب على ذلك؟

الجواب: (كان) تدلُّك على الكينونة، أي الماهية والحقيقة، فكأنَّ الكذب جزء من كينونتهم، وحقيقتهم، وشخصيتهم.

والكذب من كبائر الذنوب؛ لأنه يترتب عليه فساد الثقة في المنهج، وفي الواقع، قال رسول الله ﷺ: «**وإياكم والكذب، فإن الكذبَ يهدي إلى الفُجور، وإن الفُجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّابًا**»(١).

فإن قلت لا نستطيع أن نميز المنافق من غيره؛ لأن النفاق محله القلب، ونحن لا نستطيع الاطلاع عليه، فكيف نعرف المنافق؟

أجيبك بأن الله ﷻ ذكر هنا أوضح صفة تخوف الإنسان من أن يكون منافقًا، وتفضح المنافق المصرَّ عليها: إنها هذه الصفة: الكذب على العالمين، والتكذيب لمن يقول الصدق والنصح والحق المبين.

ولذا رأينا أن النبي ﷺ يحذِّر المؤمن من أن يقع في هذه الصفة؛ أما لماذا يحذِّر المؤمن من أن يقع فيها، فلأنه سيَجُرُّ شبهةَ النفاق إلى نَفْسه. يذكر النبي ﷺ هذه الصفة ثم يفصِّلها في صفتين أخريين، فيقول: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف**»(٢)، وفي رواية: «**وإن صام، وصلى، وزعم أنه مسلم**»(٣)، والإخلاف والخيانة تعود إلى معنى الكذب، وهذه الثلاث كلها صفات عملية محسوسة، وهي من النفاق العملي فما بالها انتشرت بين من ينتمون إلى محمد ﷺ؟

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧)، واللفظ له.

(٢) البخاري (٢٧٤٩) ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٥٩).

مع الطبري حول القراءة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾:

ردَّ الطبري ﵀ هذه القراءة بمقياس غريب هو أن الله ﷻ ذكر أن المنافقين يكذبون في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١-٢]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦]، ثم أخبر أنه لو كانت هذه القراءة صحيحة، لوصفهم الله تعالى في سورة المنافقون بأن يقول: "والله يشهدُ إن المنافقين" لمكذِّبون، ثم قرَّر أن القراءة بهذه الهيئة فيها أوضحُ الدِّلالة على أن الصحيح من القراءة في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، بمعنى الكذِب نظيرَ الذي في سورة المنافقين سواءً(١).

وهو مقياس ضعيف ذكره شيخ القراء والمفسرين، فإن الأصل في القرآن توفير المعاني، وتكثيرها لا تكريرها، على أن هذا المعنى الذي نجده في نحو خمسة وخمسين موضعًا، ولعل الذي حداه إلى هذا الإنكار إصراره على تفسير المرض هنا بالشك، ومرضهم أوسع من الشك.

فإن قلت: فماذا يكون معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟

الجواب: فأما العذاب فهو -كما سبق- حمل الإنسان على أن يعذِبَ، أي: أن تُزال منه عذوبة الحياة، فيجوع ويسهر، ويُضرَب، ويتلوى من الألم الجسدي، ويذوق الأوجاع النفسية المهينة، فتتوجَّع قواه الجسدية، ويتجرَّع الغُصَص النفسية حتى يتمنى الموت ولا يجده.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٦).

ولكن الله -جل ذكره- وصف العذاب هنا بأنه ﴿أَلِيمٌ﴾ ليُصعِّد من الفجيعة والتخويف، فكلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ من الألَمُ، وهو الوجع الشديد، يقال: أَلَمَ يَأْلَمُ أَلَمًا فهو آلِمٌ، ومعناه: ولهم عذاب مؤلم أي موجع إيجاعًا شديدًا، فهو فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، كما يقال: ضَرْبٌ وجيعٌ بمعنى مُوجع، والله بَديع السموات والأرض، بمعنى مُبْدِع، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وأَصْحَابِي هُجُوعُ[(١)]

فَوَضَعَ السَّمِيعَ مَوْضِعَ مُسْمِعٍ.

فلم يكتف بأن يخبرهم بأن لهم عذابًا حتى وصفه بأنه (أليم) أي موجع إيجاعًا شديدًا.

فلعلك تسأل: لماذا هذا التصعيد للفجيعة والتخويف؟

الجواب: هذا التصعيد للفجيعة والتخويف لتحذر التساهل في الكذب والتكذيب.. لئلا تقع في فخِّ الإرجاء وتعتمد على المغفرة الإلهية؛ فإن هناك من اعتمد على المغفرة الإلهية، فكذب وكذَّب وارتكب الموبقات ظنًّا منه أن الله ﷻ لو بعثه، فسيغفر له، فقد جمع الله ﷻ هذا الوعيد الشديد على الكذب والتكذيب، فما الذي يدعو أناسًا إلى التساهل في الكذب، وهو أخو التكذيب، وبعض الناس إلى الآن يكثر من ذكر التبشير في غير موضعه، فيترتب عليه أن يتمادى المجرمون في إجرامهم مُتَّكلين على الوعد بالمغفرة من الله ﷻ غير عابئين بهذا الوعيد الشديد، ومن العبارات المسددة للطاهر بن عاشور رحمه الله قوله: "الَّذِي بَلَغَنا مِنَ الشَّرْعِ هو اعْتِبارُ الوَعْدِ والوَعِيدِ، وإلّا لَكانَ الزَّواجِرُ كَضَرْبٍ في بارِدِ الحَدِيدِ"[(٢)].

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٩)، والبيت ذكره الأصمعي. الأصمعيات (ص: ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٧٤).

الصفة الثامنة: الإفساد في الأرض، ومنع الناس من الحصول على أي خير في الدنيا والآخرة، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

بصيرة: تبصرنا ﴿إذا﴾ بأن الواقع الدائم للمنافقين أن يردوا مستنكفين على النصحاء الذين ينصحونهم بترك الإفساد في الأرض.

فإن قلت: ما الدور التصويري الذي تؤديه ﴿وإذا﴾ في أول الآية؟

الجواب: أما الواو في قوله: ﴿وإذا﴾ فإنها تقوم بدورها التصويري البديع الجميل، فتنبئك بتتابع صفات هؤلاء المنافقين، فالمعنى: ومن الناس من يقول آمنا وما هم بمؤمنين، وإذا قيل لهم لا تفسدوا... [١].

وأما ﴿إذا﴾ فإنها تؤدي دورها التصويري البديع، فهي تخبرك عن حالهم الدائم، وذلك لأنها ظرفٌ للواقع أي الحال، وليست للماضي [٢] ولا هي للمستقبل كما هو الغالب فيها.. لقد أدت دورًا عظيمًا هنا، فهي تخبرك عن حالهم وواقعهم الدائم كلما نصحهم الناصحون، ثم إنهم يبدأون بالتضييق على الناصحين.

بصيرة: تبصرنا كلمة ﴿قيل﴾ بأن الجهات التي تنصحهم متعدِّدة فتشمل الأنبياء والصالحين، وحتى الصادقين من الكافرين، فيجب ردعهم بالكلام من كلِّ الجهات، ولو بتفعيل الأقل سوءًا ضد الأكثر شرًّا.

---

(١) وتعجب من بعض ساداتنا العلماء؛ إذ يمضون بعيدًا في ذكر احتمالات كثيرة تخل أحيانًا بجمال السياق، وهنا –مثلًا– نقل الزمخشري ﷺ أنه "يحتمل أن تعطف بالواو على: (يَقُولُ آمَنَّا) لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحًا، ثم قال: والأوّل أوجه" ألا ترى أنك إن فعلت أفسدت النظم وجماله، فإن النظم القرآني جاء مبينًا صفات المنافقين تتابع فاضحة حالهم، كاشفة أستارهم المزيفة حتى تراهم لا تخطئهم عينك. ينظر: الكشاف (١/ ٦٢).

(٢) وذهب الطاهر ﷺ في التحرير والتنوير (١/ ٢٨٣) إلى أنها للماضي هنا.

ولكن تمهل وتأمل، فقد قال الله ﷻ عن ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، ولم يبين لنا من الذي قال لهم: لا تفسدوا في الأرض.. فلماذا؟

الجواب: أن الله ﷻ يريد أن يبين لنا من خلال هذا الكلام المعجز البليغ أن الذين ينهون هؤلاء المجرمين عن الإفساد في الأرض عددٌ من الفئات، فمنهم القوى المؤمنة الصالحة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، ومنهم: قراباتهم من الذين لا يهابونهم، ولكن ترى في الجملة ضوءًا ينبئك بما هو أوسع من ذلك؛ إذ قد يدخل ضمن من يقول لهم هذا: أصحابُهم من المنافقين الذين لم يبلغ نفاقهم ما بلغه نفاق أصحابهم، ويدخل في القائلين: الكفارُ غير المعاندين أو الأقل شرًّا، فأنت ترى أن بعض الكفار يوجعه تدمير الأرض، فيدافع عنها باسم البيئة الخضراء، وينهى بعض منافقي المسلمين عن الإفساد الذي يصنعونه، وبعض الكفار يدافعون في الجملة عن حقوق الإنسان وهذا هو الواقع الجلي.

بصيرة: فقوله ﴿قيل﴾ لم يحدد من القائل ليشير إلى ضرورة ردعهم بالكلام على الأقل من كلِّ الجهات في العالم، والتعاون على ذلك، ولا يقتصر الأمر على المؤمنين كما يشير إليه الطاهر رحمه الله [(١)]، بل إن البصيرة القرآنية تجعلك تشعر بأن القائل قد يكون مؤمنًا، وقد يكون كافرًا لكنه أهون شرًا من هؤلاء المفسدين.

> **كلمة ﴿قيل﴾ هنا تشعرك بأنه ينبغي تفعيل مبدأ الأقل سوءًاضد الأكثر شرًّا، ولو صدق الصالحون في تفعيل هذه الفكرة القوية لكسبوا كثيرًا من المعارك التي خسروها بسبب التمترس والحدية غير المبررة في المواقف.**

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٤).

فقد وافق النبي ﷺ على تعاون المطعم بن عدي معه في منحه (حق الحماية) في مكة، فقد ذكر ابن حجر رحمه الله أن الفاكهي رحمه الله روى بإسناد حسن مرسل قصة رجوع النبي ﷺ من الطائف، وفيها أن المطعم أمر أربعة من أولاده، فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشًا، فقالوا له: (أنت الرجل الذي لا تُخْفَر ذمتك).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: قال المطعم بن عدي لقريش: إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم فكونوا أكف الناس عنه[1]، وذلك بعد الهجرة، ثم مات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة، وذكر الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رضي الله عنه رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ[2].

بصيرة: يبصِّرنا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأن من أهمِّ صفات المنافقين: العمل على مضادة أمر الله بالإفساد في الأرض، فهم يحرصون على تدميرها، وإخراجها عن الحالة التي ينتفع فيها البشر منها.

فإن قلت: فما معنى الإفساد؟

الجواب: الإفساد مشتق من الْفَسَاد، وهو خروج الشيء عن حالته المستقيمة المعتدلة التي تكون بها في محلها الصحيح عملًا أو انتفاعًا بها، سواء كان هذا الخروج قليلًا أم كثيرًا، فهو انتقاض صورة الشيء، ويتعاظم الفساد والإفساد حتى يصير إلى إبطال الأشياء واضمحلال الحياة، وربما يصل إلى جعل الصالح فاسدًا مفسدًا، **فيخرج الأرض عن الانتفاع بها إلى ألا تكون صالحة للحياة.**

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٢٤).

(٢) المعجم الكبير (١٥٣١)، قال الهيثمي: وفيه يعقوب بن محمد الزهري، وهو ضعيف مدلس، وقد وثق. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٦٥).

لعلك قد تتساءل: لماذا قيد إفسادهم بقوله ﴿في الأرض﴾؟ ولماذا أطلق نوع الإفساد فلم يقل: لا تفسدوا في الأرض بالمعصية مثلًا؟

الجواب: لأنهم لا يفسدون أنفسهم ومن معهم، بل امتد إفسادهم حتى ملؤوا الأرض بجمادها وأحيائها ظلمًا وجورًا، فتأذت من فسادهم الأرض بترابها وأهلها وبرِّها وبحرها، وجوِّها، ولم يُقيَّد نوع الفساد الذي يقومون به ليشمل جميع أنواع الفساد، "فَلِذَلِكَ حُذِفَ مُتَعَلِّقُ ﴿تُفْسِدُوا﴾؛ تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفَادِ مِن وُقُوعِ الفِعْلِ فِي حَيِّزِ النفي...وذكر المحل الذي أفسدوا ما يحتوي عليه -وهو الأرض- لتفظيع فسادهم بأنه مبثوث في هذه الأرض؛ لأن وقوعه في رقعة منها تشويه لمجموعها، والمراد بالأرض هذه الكرة الأرضية بما تحتوي عليه من الأشياء القابلة للإفساد من الناس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وضعها الله تعالى لها"(١).

بعد أن بصرنا عدم تقييد الفساد بنوع معين بشموله جميع الأنواع، فعلك تسأل: ما أنواع الفساد؟ وهلا ذكرت بعض صوره؟

الجواب: أنواع إفسادهم كثيرة فمنها:

النوع الأول: إِفْسَادُهُمْ أَنفُسَهُمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى بناء حياتهم وأمجادهم على تلك المعاصي المدمِّرة.

النوع الثَّانِي: إفسادهم العالم بنشر الشرك والجهل والمرض ويوجبون على العالم أن تسير الحياة وفق رؤيتهم، فعن الرَّبيع ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: لا تعْصُوا في الأرض، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: فكان فسادُهم ذلك معصيةَ الله جل ثناؤه؛ لأن

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٥).

من عَصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته، فقد أفسدَ في الأرض، لأن إصلاحَ الأرض والسماء بالطاعة[(١)].

النوع الثالث: تربية أبنائهم والأجيال الناشئة على هذه الطريقة المفسدة في الحياة، كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

النوع الرابع: إفساد المجتمع والعالم بإنشاء مؤسَّسات للكذب والزور والاعتداء والبهتان، ومؤسَّسات لتحسين صورة جرائم الكفر والدعارة والجريمة المنظَّمة، وإشاعة سفك الدماء والمنافسة على نشرها أمام الرأي العام العالمي، وتضييع ما أمر الله تعالى بحفظه، كما قال جل ثناؤه في كتابه: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومن هذا الإفساد: تقطيع الأرحام، وَلِذَلِكَ قَالَ تعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٢٢].

النوع الخامس: العبث بالموارد والأجهزة والمواد والمعدات، وإثارة الحروب والفتن، وإفساد البيئة، والمنافع الدينية والدنيوية، والإهمال والغش والخيانة، وسرقة الثروات العامَّة والخاصَّة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

النوع السادس: إفسادهم البيئة الأرضية، مثل إزالَة الأَشْياءِ النّافِعَةِ، وإشاعة التلوث في البيئة، وخذ مثال ذلك مما يردِّده الإعلام عن جريمة الاحتباس الحراري التي يسبِّبها أسوأ الفئات استغلالًا ونهبًا لأموال الناس بأنانية مفرطة، ويزداد الإفساد عندما تجد الدول المستكبرة تصرُّ على عدم اتخاذ معالجات حقيقية لمشكلة الاحتباس الحراري، بل حتى المعالجات صارت صورية لا تُجدي نفعًا.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٨).

النوع السابع: تكوين التحالفات المفسدة، ومنع التحالف الإيماني المانع لهذا الإفساد: فيدخل في الإفساد أن يتخذ الناس أولياء وأصدقاء وأحباء من المجرمين، وأن يعادوا الصالحين، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

النوع الثامن: إفْسادُ الأرْضِ بالتمرُّد على النظام الذي يصلح الأرض ويحفظها، ويحافظ على مواردها وأقواتها، ويُنَمِّي إعمارها، ويُصَيِّرُ الأشْياء الصّالِحَة مُضِرَّةً، وهذا التمرُّد المفسد يتحقَّق عندما يترك الناس الشريعة التي أنزلها خالق الأرض لتنظم أمور البشرية والطبيعة، فإذا حاربوا النظام الذي أنزله الله تعالى لحفظ الأرض تسبَّبوا بأكبر الكوارث المدمِّرة لأهل الأرض، كالغِشِّ في الأطْعِمَةِ، وإشاعة الفاسد الخبيث بذاته ليكون طعامًا للناس، وإفْساد الدول بالمساعدة على تولي الفاسدين الذين يدمِّرون حياة الناس.

وقد جمع الطبري رحمه الله هذه المراتب في بيان إفساد قوى النفاق فقَالَ: فَـ"أَهْلُ النِّفَاقِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَعْصِيَتِهِمْ فِيهَا رَبَّهُمْ، وَرُكُوبِهِمْ فِيهَا مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ، وَتَضْيِيعِهِمْ فَرَائِضَهُ، وَشَكِّهِمْ فِي دِينِهِ الَّذِي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلٌ إِلَّا بِالتَّصْدِيقِ بِهِ وَالْإِيقَانِ بِحَقِيقَتِهِ، وَكَذِبِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَاهُمْ غَيْرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ، وَمُظَاهَرَتُهُمْ أَهْلَ التَّكْذِيبِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللهِ، إِذَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. فَذَلِكَ إِفْسَادُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ مُصْلِحُونَ فِيهَا"(١).

والعجيب أنك تراهم يفسدون في الأرض ثم يشمخون برؤوسهم تبجُّحًا وتكبُّرًا، ويملؤون الإعلام بالتبرير فيقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

وقد تتساءل: هل هذا القول: ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ موجَّه لقيادات المنافقين وزعمائهم؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٩).

الجواب: الكلام يوجَّه لكلِّ فرد من قوى النفاق زعيمًا كان أم تابعًا، ولكلٍّ منهم دوره في الإفساد، فهم يتفاوتون في القيام بهذا الدور المدمِّر للأرض وأهلها، فيصح أن يقال لكلِّ واحدٍ.

هل الإفساد الذي قام به المنافقون في العصر النبوي على يد عبد الله بن أُبي هو المقصود هنا فقط أم يمتد إلى ما سيأتي بعد؟

الجواب: إن المفسدين في الأرض كُثُرٌ، فيشمل جميع المنافقين، وإن كان بعضهم يرى أن المراد بهم من جاء بعد الصحابة رضي الله عنهم، وهنا نضع هذه البصيرة:

بصيرة: المستقبل –بعد الصحابة رضي الله عنهم– مليء بالمفسدين الذين يزعمون أنهم مصلحون، فعن سَلْمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، **قال: ما جاء هؤلاء بعدُ**(١).

وسلمان رضي الله عنه يقرِّر ذلك؛ لأنه علم أن الإفساد الذي سيقوم به المفسدون في المستقبل مثل زماننا سيكون أشدَّ وطأة، وأعظم إجرامًا.

الصفة التاسعة: تبديل المعاني وتغيير الحقائق من خلال اللعب بالألفاظ، فهم لا يسمُّون جرائمهم جرائم، ولا يدعون شرهم شرًا، بل يستخدمون المصطلحات التمجيدية لتغطية جرائمهم الجسيمة في حقِّ أهل الأرض، ويبصِّرنا بذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقد تأخذك الدهشة، فتتساءل: من أين أخذوا هذه الطريقة في التلاعب بالألفاظ؟

الجواب: أخذوه من إبليس عندما صوَّر لآدم وزوجه عليه السلام الأمجاد العظيمة والخيرات الكبيرة، والإصلاح الهائل عندما يخالفا أمر ربهما!!! فقال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٧)، وضعفه إسلام منصور؛ لضعف شريك وابنه. تفسير الطبري (١/ ٢٢٢) طبعة دار الحديث.

هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف ٢٠-٢١].. تصوَّرْ أنْ يستطيع إبليس إقناع آدم عليه السلام بأن الله تعالى الذي خلقه وصوَّره وشق سمعه وبصره، وأسجد له ملائكته يمنعه من الخير..

هكذا تظهر صورة المنافقين المفسدين في الأرض لا يسمون إفسادهم إفسادًا بل يقلبون الحقائق، ويغيرون المعاني.

ظهر هذا التلاعب بالحقائق عنما يقولون لمن ينهاهم عن الإفساد: إنما نحن مصلحون، وكذلك يتلاعبون بالحقائق فيما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

يصف القرآن الأكاذيب الكبرى لهم، ويعريهم ويظهر لك واقعهم المجرم.

تجتمع قوى الخير على نهي المنافقين عن الإفساد، ويصرون هم أنهم مصلحون أي ناشرو سلام في الأرض، فلماذا قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾، ولم يقولوا: بل نحن مصلحون؟ كيف صوَّر لنا القرآن نفسياتهم المختلة؟

الجواب: هذا التعبير يبين لك نفسياتهم المختلَّة.. صارت قلوبهم متطبِّعة على الفساد والإفساد، فلا يتسرَّب إليهم الندم مع اتِّساع الإفساد الذي يمارسونه، وانظر كيف تصوِّر لك الآية القرآنية ذلك تصويرًا دقيقًا، فتنقل عنهم أنهم يقولون كلامًا يعكس الانحراف المدمِّر الذي انحطوا إليه، ويعبِّر عن الشذوذ الذي يتفاخرون به، فهم يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾.. هكذا!! يأتون بأداة الحصر ﴿إنما﴾، وهنا تختلف أنظار المفسرين في فهم هذا الحصر الغريب: حصرهم في أنهم مصلحون:

فيرى الزمخشري رحمه الله مسدَّدًا في تصويره البياني أنهم يرون صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد، وبذا يكون القصر حقيقيًّا عنده(١).

وأما الطاهر رحمه الله فيرى أن (إنما) قَصرَت الـمَوْصُوفِ عَلى الصِّفَةِ "رَدًّا عَلى قَوْلِ مَن قالَ لَهم: لا تُفْسِدُوا؛ لِأنَّ القائِلَ أثْبَتَ لَهم وصْفَ الفَسادِ؛ إمَّا بِاعْتِقادِ أنَّهم لَيْسُوا مِنَ الصَّلاحِ في شَيْءٍ، أوْ بِاعْتِقادِ أنَّهم قَدْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحًا وفاسِدًا، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ بِقَصْرِ القَلْبِ(٢)، ولَيْسَ هو قَصْرًا حَقِيقِيًّا؛ لِأنَّ قَصْرَ المَوْصُوفِ عَلى الصِّفَةِ لا يَكُونُ حَقِيقِيًّا، ولِأنَّ حَرْفَ إنَّما يَخْتَصُّ بِقَصْرِ القَلْبِ كَما في دَلائِلِ الإعْجازِ"(٣).

فعلك تسأل هنا عما يظهر لي أو يترجح عندي في هذه المسألة: فما تراني أقول بين هذين المفسرين الكبيرين؟

الجواب: لقد مشى الزمخشري رحمه الله على الصراط السوي هاهنا، وشعر بضياء الكلمات القرآنية مُجريًا إياها على ظاهرها على خلاف منهجه في غيرها، ولقد سلك سبيلًا رشدًا ليته مضى فيه، وهو هنا مؤيد بالأصول، فلماذا يحتاج أن يدعي القلب في كلام قاله هؤلاء المجرمون وظاهره الصحة، وواقعهم يشهد به، ولا يوجد ملجئ حقيقي لادعاء القلب؟

وأنت إن تذوقت التصوير القرآني العظيم، وقارنت ذلك بالجرائم الجسيمة التي اقترفها المنافقون -وما زالوا- ازداد يقينك بالنور القرآني.

---

(١) الكشاف (١/ ٦٢).

(٢) وهو أحد أنواع القصر الادعائي (الإضافي)، ويكون باعتبار حال المخاطَب فإذا كان المخاطَب يعتقد عكس الحكم فتقلب عليه اعتقاده، نحو: ما شاعر إلا شوقي، ردًّا على من زعم أن غيره أشعر منه. علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع (ص: ١٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٥).

تبصِّرك البينة القرآنية أن المنافقين يحاولون أن يظهروا أنفسهم في صورة من لا يخطئ في الأرض حتى لو ارتكبوا الجرائم المتيقنة، فقولهم ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ يصوِّر لك كيف يحصرون أشخاصهم وذواتهم في الصلاح، ولا يحصرون الصلاح في أشخاصهم، وذلك يعني أنهم يصوِّرون للناس أن شخوصهم لا تعرف إلا أن تُصلح، فلا يمكن أن تنطبق على أفعالهم صفة أخرى.

وكأنك بهم يدَّعون أن الناس -مسلمين وغير مسلمين- إن أنكروا عليهم جرائمهم، فذلك لأنهم لم يفهموا الأمر على حقيقته، فالقوى المفسدة تزعم أن كلَّ عملٍ يعملونه -وإن كان ظاهره الفساد والدمار والحرب- فهو صلاح وإعمار ونشر للسلام، لأن شخوصهم وأفعالهم محصورة في الإصلاح، ويخبرنا مجاهد عن مثال لإصرارهم على أنهم كلما عصوا ادعوا أنه لم يعصوا وما ذلك إلا لأنهم لأنهم يرون أن هذه المعصية بعينها تعد صلاحًا لأنها صادرة عنهم!! يقول مجاهد رحمه الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، قال: إذا رَكِبُوا معصيةَ الله فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون[(١)].

فقد سول لهم الشيطان أعمالهم، وزيَّن لهم سوءَ أعمالهم أنفسُهم الأمارة بالسوء، ومستشاروهم من البطانة التالفة، وَتشوَّهَ الحقُّ في أنظارهم، فهم يرون الحق باطلًا، والحسن قبيحًا، فتعليم القرآن عندهم منكر، وتحسين معيشة الشعوب المستضعفة من الجرائم، وإظهار محاسن الإسلام مثل الشورى استهانة بمكانتهم، وأما نشرهم للكفر والفسق، واستيلاؤهم على الموانئ والأراضي، وإقامة مسابقات الدعارة ونشر الخمر والمخدرات

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٩٠)، قال إسلام منصور:" ضعيف: ابن جريج ثقة مدلس، لم يسمع التفسير من مجاهد، والسند إليه ضعيف، فيه الحسين بن داود المصيصي، الذي كان يلقن شيخه الحجاج. تفسير الطبري (١/ ٢٢٤) طبعة دار الحديث.

والرذيلة فيعدونه إصلاحًا.. إنهم يرونه بطولة ونجومية وجزءًا من الثقافة العصرية المستعظمة.

ويبيِّن أبو حيان ﷾ أيضًا الحكمة في جوابهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، ولم يجيبوا بأنهم ليسوا مفسدين، فقال: "لَمْ يُجِيبُوا بِالِامْتِنَاعِ مِنَ الْإِفْسَادِ، بَلْ أَثْبَتُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مَحَلًّا لِلْإِفْسَادِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ النَّهْيُ عَنِ الْإِفْسَادِ نَحْوَهُمْ لِاتِّصَافِهِمْ بِضِدِّهِ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ، كُلُّ ذَلِكَ بُهْتٌ مِنْهُمْ، وَكَذِبٌ صِرْفٌ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْكَذِبِ، وَقَوْلِهِمْ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ"[(١)].

الصفة العاشرة: عدم شعورهم بأنهم أكبر المفسدين:

ويبصِّرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وهذا يعني أنه يجب إيجاد الوسائل المناسبة على جميع الأصعدة لتَعَقُّب المفسدين، والعمل الإعلامي والتبليغي العامّ للردِّ على افتراءاتهم، والتعليق على جرائمهم اللفظية والفعلية، ولا ينبغي مداراتهم حتى لا يستفحل شرهم.

ولعلك ستسأل: كيف ظهرت قوة الردِّ عليهم في هذه الصياغة الحاسمة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؟

وأجيبك بما يسرك: فاملأ عينيك من جمال التصوير في الآية، واشعر بقوة أدواتها.. لقد تآزرت الأدوات اللفظية فيها على إظهار الردِّ القويِّ عليهم:

أولًا: جاءت كلمة ﴿أَلا﴾ لتمنحنا قوة هائلة في الردِّ، فهذه الكلمة ﴿ألا﴾ حرف تنبيه مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي؛ جاءت هنا لينبه الله –جلَّ مجده– العالم إلى خطورة ما سيذكره، وإلى أنه ينبغي أن يذاع ويشاع في الأرض، وليخبر المنافقين عن سوء تفكيرهم،

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ١٠٨).

وليكون تنبيهًا قويًّا يُشعر المُنبِّهين والعالمين بتحقُّق ما ورد بشأنه، وذلك لأن الاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقًا كقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]؟ ولكونها في هذا الموقع من التحقيق، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدَّرة بنحو ما يُتلقى به القَسَم، ويصوِّر أبو حيان ﵀ قوة ﴿ألا﴾ فيقول: "وَاسْتُفْتِحَتِ الْجُمْلَةُ بِأَلَا مُنَبِّهَةً عَلَى مَا يَجِيءُ بَعْدَهَا؛ لِتَكُونَ الْأَسْمَاعُ مُصْغِيَةً لِهَذَا الْإِخْبَارِ الَّذِي جَاءَ فِي حَقِّهِمْ"(١).

ثانيًا: أكدَّ ذلك بـ﴿إنَّ﴾ التي تفيد التوكيد.

ثم ثالثًا: أتى بضمير الفصل (هم)؛ ليزيد في حصر المبتدأ في الخبر، أو حصر الخبر في المبتدأ.

ورابعًا: عرَّف الخبر، فهم ﴿المفسدون﴾، و(ال) التعريفية هنا تفيد أنهم الكاملو الإفساد، وأتى باسم الفاعل؛ ليدلَّ على عَراقتهم في هذا الإفساد، فلم يقل: ألا إنهم يفسدون، بل هم المفسدون، فاسم الفاعل يدلُّ على عَراقتهم ورسوخهم في الإفساد.

فردَّ الله ﷻ بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ ما ادَّعوه من الانتظام في جملة المصلحين حينما ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] أبلغ ردٍّ وأدِّله على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف.، "وان شئت فانظر:

إلى كلمة (ألا) التي للتنبيه كيف تُزيِّف بتنبيهها ترويجَهم الناشئ من دعواهم المترشح من "قالوا"..

وإلى "إنَّ" التي للتحقيق كيف تردُّ دعواهم المعلومية بـ "إنما"، كأن "إنَّ" تقول: حالهم في الحقيقة والباطن فساد، فلا يجديهم الصلاح ظاهرًا.

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ١٠٨).

وإلى الحصر في "هم" كيف يقابل تعريضهم الضِّمنيَّ في "إنما" و"نحن"، وإلى تعريف "المفسدون" - الذي معناه حقيقة المفسدين ترى في ذاتهم فهم هي - كيف يدافع حصرهم المستفاد من "إنما" أيضًا"(١).

هنا ستسأل: نحن نعلم أنه يوجد مفسدون في الأرض غيرهم، فقد قال الله ﷻ عن آخرين: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، فلماذا جاءت هذه الآية تحصر الإفساد فيهم أو تحصرهم في الفساد؟

وأجيبك فأقول: هنا يظهر لك وجاهة ما أميل إليه من أن الله ﷻ حَصَرهم في الإفساد، ولم يحصر الإفساد فيهم، حيث قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فكأنه ﷻ يخبر أن شخوصهم وما يصدر عنها من تفكير وأقوال وأفعال ليست إلا محصورةً في الإفساد، فيكون التقدير: ألا إن شخوصهم لا تريد سوى الإفساد، ولا تعرف غيره حتى لو أرادت الإصلاح، ولذا قال عنهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [المنافقون: ٤]، وعندي هذا أولى من زعم أن الفساد محصور فيهم، فإن الفساد ليس محصورًا في المنافقين على ما هو معلوم؛ وهذا يعني أن هناك مفسدين غيرهم؛ إذ يضاهيهم فيه الكفار المعاندون المتطرفون، ولكن الله ﷻ يبين لنا مقدار بشاعة صنف المنافقين، وفي الواقع الذي تراه أمامك خبر لمن يرغب في الدليل المبين.

وذهب بعض المفسرين(٢) إلى أن الله ﷻ قصر الإفساد عليهم على سبيل الحصر الادعائي؛ لشدة إفسادهم.

وسواء أكانوا محصورين في الإفساد أم كان الإفساد محصورًا فيهم فإن الآية تبصرك بأن هؤلاء يخططِّون لإدارة أسوأ عمليات درجات الإفساد في الأرض.

---

(١) إشارات الإعجاز، للنورسي (ص: ١٠١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١ / ٢٨٦).

ويعلن ابن القيم رحمه الله شعوره بهذا النذير القرآني حول المنافقين، فيقول: "فإن بلية الإسلام بهم (بالمنافقين) شديدة جدًّا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخرجون عداوته في كلِّ قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد. فلِلَّه كم من مَعقِل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من عَلَم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه فى أصول غِراسه ليقلعوها! وكم عَمُّوا عيونَ مواردِه بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شُبَهِهِم سريَّة بعد سريَّة. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون"(١).

ولعلك ستسأل: لماذا رد الله تعالى عليهم في هذه الآية بهذه الصيغة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟

وأجيبك على ذلك فأقول: ردَّ الله تعالى عليهم بهذه الصيغة الحاسمة لتحقيق الأهداف الآتية:

الهدف الأول: للردِّ عليهم بأسلوبٍ أقوى من أسلوبهم عندما حصروا شخصياتهم في الإصلاح؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، ومعنى ذلك أنهم لا يمكن أن يقوموا بغير الإصلاح حتى لو أرادوا الإفساد!

فرد اللهج جل جلاله عليهم بأن حَصَرَ شخوصهم في الإفساد، ثم لم يكتفِ بذلك حتى حصرهم في المفسدين الذين لا تكاد ترى في الأرض مفسدًا غيرهم، فيقول الله –جل مجده-: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾، وذلك للمبالغة في إظهار أن إفسادهم لا يصل إليه غيرهم.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧،٣٤٨).

"فَإِنَّ أَفْعَالَهُمُ الَّتِي يَبْتَهِجُونَ بِهَا وَيَزْعُمُونَهَا مُنْتَهَى الْحِذْقِ وَالْفِطْنَةِ وَخِدْمَةِ الْمصلحَة الْخَالِصَة آئلة إِلَى فَسَادٍ عَامٍّ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَفَائِهِ وَلِلْغِشَاوَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ أَثَرِ النِّفَاقِ وَمُخَالَطَةِ عُظَمَاءِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ حَالَ الْقَرِينِ وَسَخَافَةَ الْمَذْهَبِ تَطْمِسُ عَلَى الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ وَتَخِفُّ بِالْأَحْلَامِ الرَّاجِحَةِ حَتَّى تَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ"[١]. وهذا يوجب على النصحة لله ﷻ ولدينه ولعبادة أن يلزموا ثغر التوعية والتبصير بمكائد هذا الصنف ومفاسده؛ تنبيهًا للغافلين، واستنقاذًا للمغرَّر بهم من التائهين.

الهدف الثاني: ليبين لنا ربُّنا ﷻ أنهم فقدوا الإحساس بأنهم أكبر المفسدين

فالنظم القرآني البليغ يرد على افتراءاتهم، وتلاعبهم بعقول الجماهير وهو يبين صفاتهم في الوقت ذاته، فيقول الله -جل مجده-: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]**، نعم لقد فقدوا الإحساس حتى بجرائمهم الواضحة أمام أعينهم.. وبلغ من تمكُّنهم من الإفساد أنهم يُسَوِّقون في الإعلام أنهم مصلحون على الرغم من كلِّ الدماء التي يسفكونها، والتجويع الذي يمارسونه ضد الشعوب.**

ولذا بدأ الله ﷻ الردَّ عليهم بأداة الاستفتاح والتنبيه ﴿ألا إنَّهم هُمُ﴾: أيْ خاصَّةً ﴿الـمُفْسِدُونَ﴾ فأكَّد الجملة بـ(إن) التوكيدية، وضمير الفصل، والجملة الاسمية، وأتى باسم الفاعل، فيكون المعنى الذي تقدِّمه لنا هذه الأدوات: هم الكامِلُو الإفْسادِ، البالِغُونَ مِنَ العَراقَةِ فِيهِ ما يَجْعَلُ إفْسادَ غَيْرِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إلى إفْسادِهِمْ عَدَمًا لِما في ذَلِكَ مِن خَرابِ ذاتِ البَيْنِ وأخْذِ المُؤْمِنِ مِنَ المَأْمَنِ[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٦).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ١١١).

الهدف الثالث: ليظهر لك وجوب الردِّ عليهم، فلا تترك الساحة الإعلامية لهم يَصُولون ويجولون دون أن يجدوا من يُنكر عليهم بالوسائل الإعلامية المتعدِّدة، وربَّما كان من آثار الردِّ عليهم: فضحهم أمام المُغترِّين بهم، وربَّما زلزل ذلك بعضهم، فراجعوا أنفسهم.. لكنهم إذا لم يجدوا أحدًا يردُّ عليهم يزدادون اطمئنانًا بباطلهم، ويستلذُّون بجرائمهم.. يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.. هنا تعلم لماذا أمر النبي ﷺ أصحابه بالردِّ الإعلامي على افتخار أبي سفيان رضي الله عنه -يوم أحد وكان مازال مشركًا- بباطله فقال: اعْلُ هُبَلْ، اعْلُ هُبَلْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَلاَ تُجِيبُونه؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى، وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ تُجِيبُونه؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[1].

الأسلوب النبوي في التعامل مع المنافقين:

فإن قلت: إذا كان المنافقون قد جمعوا كلَّ هذه الصفات الرديئة، ومنها الإفساد في الأرض، فلماذا لم يحكم النبي ﷺ عليهم بتهمة الخيانة العظمى؟

أقول لك: إنه ليبصِّرنا النبي ﷺ بالسبيل الحقيقي للتصرف مع هذا العدو الخبيث الذي جمع بين الخفاء والظهور بصورة أربكت المسلمين، فهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ولكن حقيقتهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فكيف نتصرف معهم؟

فأما أولًا: فينبغي توجيه الجهود إلى فضح الأفعال، فمن اتصف بأفعال المنافقين، فهو يسير على منوالهم كأن يفسد في الأرض بإشاعة الفاحشة في المجتمعات، وما أكثر من يشيع الفاحشة هذه الأيام!.

---

(١) البخاري (٣٠٣٩).

وإذا كان هذا مَعْلَمًا نبويًّا في التعامل مع هذا الصنف فإنه كذلك مسلك معهود في القرآن الكريم، فكم هي المواضع بل السور التي أكثرت وربما اختصت بتتبُّع خِصال هذا الصنف وكشف أساليبه النفاقية وفضائحه وأفعاله المشينة، قال ابن القيم رحمه الله في المنافقين: "كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم؛ لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطَّل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفَلَوات" [١].

وقد كانت سورة التوبة تسمَّى الفاضحة؛ لما فيها من تَعداد أحوالهم، وكشف خططهم الشريرة، فعن سعيد بن جبير رحمه الله، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة التوبة؟ قال:" ﴿التوبة﴾ هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبْق أحدًا منهم إلا ذكر فيها"[٢].

وأما ثانيًا: فالنبي ﷺ لم يحكم عليهم بعقوبة الخيانة العظمى؛ لئلا يسمح لأحد بأن يؤذي أحدًا أو يقاتله لمجرد الاشتباه بأنه من المنافقين؛ فمن صدرت منه أفعال النفاق يُفضح لكن لا يقتل، وقد يرتكب بعض أفراد المجتمع الخيانة العظمى، من غير أن يشعر أو يقدِّر مقدار جرمه، لا سيما إن كان عرف بالصلاح أو كانت له سابقة صدق في نصرة الإسلام وأهله، فقد قَبِل النبي ﷺ عُذْر حاطب رضي الله عنه وعفى عنه[٣]، لما وقع منه شيء من ذلك. فيجب النظر في كلِّ حالة بعينها، وانتماء من يفعل ذلك للمؤمنين لا يعني عدم كشف فعله الخطير، وتصور لو كان من يفعل ذلك له مسؤولية على رقاب مجتمعه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨).

(٢) البخاري (٤٨٨٢)

(٣) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٢).

وأما ثالثًا: فيجب التصرف معهم بحكمة وحذر لئلا تشيع الدعاية السوداء عن المسلمين، فيكون باب صد عن الإسلام، فقال النبي ﷺ لِعُمَرَ رضي الله عنه: «**لا يَتَحَدَّثُ الناس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١)؛ لأن العالم لا يعرفون أن المحكوم عليه منافق، فسيظنون أن المسلمين يتساهلون في الدماء، كما يحاول الإعلام المخادع هذه الأيام أن يفعل، فقد أخبر النبي ﷺ أن المعتدين إن تقاتلوا مع المسلمين قاتلهم المسلمون حتى يعصموا دماءهم بالصلح، أو بالدخول في الإسلام، فقال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قالوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(٢)، قال ابن كثير رحمه الله: "وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ مَنْ قَالَهَا جَرَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، فَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُهَا وَجَدَ ثَوَابَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدْهَا لَمْ يَنْفَعْهُ فِي الْآخِرَةِ جَرَيَانُ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وكونه كان خَلِيطَ أَهْلِ الْإِيمَانِ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ [الْحَدِيد: ١٤]، فَهُمْ يُخَالِطُونَهُمْ فِي بَعْضِ الْمَحْشَرِ، فَإِذَا حَقَّتِ الْمَحْقُوقِيَّةُ تَمَيَّزُوا مِنْهُمْ وَتَخَلَّفُوا بَعْدَهُمْ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سَبَأ: ٥٤]، وَلَمْ يُمْكِنْهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا مَعَهُمْ"(٣). وحتى لا تتسرب ظنون السَّوء إلى المسلمين أنفسهم ممن تخفى عليهم ديناميكية الحركة النفاقية في المجتمع، وتتزعزع الثقة في القيادة إذا بدر منها القتل بحقِّ المنافقين الذين لا يظهر منهم لذوي العقول الضعيفة ما يستحقُّ القتل، كما أن اتخاذ إجراء كالقتل قد يكون مدعاة لوقوع الفتن بين فئات المجتمع ومكوناته، كما حدث في العهد الأول، فمما جاء في شأن حادثة الإفك أن رسول الله

(١) البخاري (٤٩٠٥)، مسلم (٦٦٧٥).

(٢) البخاري (٧٣٦٨)، مسلم (٣٥)، واللفظ له.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٩، ١٨٠).

ﷺ استعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، وقال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير رضي الله عنه فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحَيَّان الأوس، والخزرج حتى هَمُّوا، أن يَتَواثَبوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل، فخفَّضهم حتى سكتوا[1].

ورابعًا: لم يقتل النبي ﷺ أحدًا من المنافقين مع أنه كان يعلم أسماء بعضهم، وأفشى ﷺ بها لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ لِيُبيِّنَ لِأُمَّتِهِ أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ، فعَنْ حذيفة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**»[2].

ولاحظ: قوله ﷺ: «**في أصحابي**»، ولم يقل: (من أصحابي)، قال النووي رحمه الله: "«**في أصحابي**»: فَمَعْنَاهُ: الَّذِينَ يُنْسَبُونَ إِلَى صُحْبَتِي، كَمَا قال فى الرواية الثانية: «**في أمتي**»"[3]، فقد قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْن سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا

---

(١) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) مسلم (٧١٣٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٢٥).

الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَلاَ نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الخَبِيثَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١).

وقال شهاب الدين فضل الله بن حسن التُورِبِشتي رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ): "صحبة النبي ﷺ المعتدُّ بها هي المقترنة بالإيمان، ولا يصحُّ أن تطلق إلا على من صَدَقَ في إيمانه، وظهر منه أمارته، دون من أغمض عليهم بالنفاق، وإضافتها إليهم لا تجوز إلا على المجاز لتشبُّههم بالصحابة رضي الله عنهم، وتستُّرهم بالكلمة، وإدخالهم أنفسهم في غمارهم؛ ولهذا قال: «**في أصحابي**»، ولم يقل: (من أصحابي)، وذلك مثل قولنا: إبليس كان في الملائكة أي: في زمرتهم ولا يصحُّ أن يقال: كان من الملائكة، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: كان من الجن"(٢).

وعن أبي الطُّفَيْلِ رضي الله عنه، قَالَ: " كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ وَبَيْنَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ، قَالَ: كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ، فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ. وَأَشْهَدُ بِاللهِ، أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَذَرَ ثَلَاثَةً، قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ"(٣). قال النووي رحمه الله: "وَهَذِهِ الْعَقَبَةُ لَيْسَتِ العقبة المشهورة بِمِنًى، الَّتِي كَانَتْ بِهَا بَيْعَةُ الْأَنْصَارِ رضي الله عنهم، وَإِنَّمَا هَذِهِ عَقَبَةٌ عَلَى طَرِيقِ تَبُوكَ، اجْتَمَعَ الْمُنَافِقُونَ فِيهَا لِلْغَدْرِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَعَصَمَهُ اللهُ مِنْهُمْ"(٤).

---

(١) البخاري (٣٥٨)، مسلم (٢٥٨٤)، واللفظ للبخاري.

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي (٤/ ١٢٩٦).

(٣) مسلم (٢٩٩٧).

(٤) شرح مسلم (١٧/ ١٢٦).

قال التُورِبِشتي رحمه الله: "وقد اطلعت على أسمائهم في كتب حفاظ الحديث مروية عن حذيفة رضي الله عنه، غير أني وجدت في بعضها اختلافًا فلم أر أن أخاطر بديني فيما لا ضرورة لي"[(١)]، وقد –والله– وفَّقه الله عز وجل في إيراد هذا الكلام، فأبان عن ورعه وصدقه؛ إذ أحجم عن حصر أسمائهم خوفًا أن يقع في اتهام من هو بريء من النفاق.

هذا من الفقه العتيد الذي يكاد يفقد ولا ينتبه له؛ فإن المتوجَّب في التعامل مع الحركة النفاقية التشهير والتنديد بقبيح فعالهم، وخبيث صنائعهم، دون تعرضٍ للأشخاص بالقتل والتعدي البدني..

الصفة الحادية عشرة: التعالي والتشهير بالقوى الخيِّرة بوصفهم بالألقاب المنفِّرة:

ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ٣]، **فيتطاول المنافقون على الصالحين في المجتمع، ويطاردونهم بحملات التشويه الإعلامية القذرة، فيطعنون في أهليتهم حيث يسمونهم بالسفهاء.**

قد تتساءل: هل تصل النصائح إلى المنافقين؟

والجواب: الآية تصوِّر لنا أن هناك من يكلِّم المنافقين ويخالطهم، فينصحونهم بأمرين عظيمين:

الأول: لا تفسدوا في الأرض، وهذا يعني أن يصارح الناصحون هؤلاء المفسدين بقبح ما هم عليه من التفكير والأفعال المدمرة لأنفسهم وللعالم.

الثاني: آمِنوا كما آمن الناس، فبصَّروهم أن الحياة الحقيقية إنما هي بالاقتداء بالكمَّل من البشر: الأنبياء فالصالحين من أتباعهم، فيؤمن الإنسان مثل إيمانهم، ويكون من أتباعهم.

---

(١) شرح المصابيح (٤/ ١٢٩٧)

المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها:

فإن قلت: إنه يقال للمنافقين أمورٌ كثيرة، فلماذا خصَّ الله ﷻ من بين كلِّ ما يقال لهم هذين الركنين العظيمين بالذكر: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]، ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]؟

أجيبك: إن هذين الركنين جمعا كلَّ ما يحقِّق للإنسان إنسانيته السعيدة؛ إذ لا يُعمَر الكون بالرشد إلا بتحقيق أمرين:

ترك ما لا ينبغي، وهو الذي قال فيه الناصحون: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

وفعل ما ينبغي، وهو الذي قال فيه الناصحون: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

وربما قد تتساءل: لم جاء النهي عن الفساد أولًا، ثم الأمر بالإيمان ثانيًا؟

الجواب: ليناسب التكوين القلبي والعقلي؛ لأن التخلية غالبًا تقدم على التحلية، والتصفية عادة تُقدَّم على التعبئة، والاستعداد في الأصل يقدم على الإمداد، وهو كذلك في مثل هذا السياق.

بصيرة: ينبغي الإكثار من المخالطة المؤثِّرة الحذرة للفاسقين والمنافقين دعوة لهم، ومعرفة بمكائدهم، وحصرًا لفسقهم ومؤامراتهم.

تتعجب من مكرهم وإظهارهم للكفر في الوقت الذي يعلنون الإيمان.. يقولون ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾، ثم لما يقال لهم: ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ يقولون: ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ فلا يتبرؤون من الإيمان، بل يدَّعون أنهم يفهمون الإيمان أكثر من فَهْم الأنبياء عليهم السلام، فيخترعون لأنفسهم الديانة المناسبة لهم، ويبتكرون إيمانًا خاصًّا بهم.

لا ينبغي أن يتردد الناصحون في دعوتهم إلى أن يؤمنوا كما آمن الناس، فيدعونهم إلى أن يتشرَّبوا المعاني الإنسانية الصحيحة بالإيمان كما آمن الناس.

فكلمة ﴿قيل﴾ تظهر لك البناء القرآني للنفس المسلمة، فهي تقتضي ألا يمل الأنبياء وورثتهم من المخالطة الحَذِرة للمنافقين ومن في قلوبهم مرض.. المخالطة التي يعلمون بها خطورة ما يفعلون.. نحتاج إلى أن لا نفتر عن دعوتهم إلى الإيمان الذي تصلح به نفوسهم، وترتقي به عقولهم، ويحكم تصرفاتهم مع البشر.

فكرة المخالطة الهادفة الحذرة حتى تستطيع في أقل الأحوال أن تحاصر النفاق والمنافق، والفسق والفاسق، إن لم تستطع هدايتهما، لأنك إن لم تفعل حاصروك؛ فهذا مقتضى القانون الزمني السنني الذي لا يتغير، قانون المدافعة، وذلك يتطلب أن تخالطهم بوعي وفَهْم وحذر، ولذا ذكر استراتيجية الحذر بتوسُّع شديد في سورة النساء.

وربما سألت: لماذا فيها بالذات؟

وإليك الجواب: لبيان أن أعظم ثغرة يحاولون الولوج إليها لتدمير المجتمع المتماسك ما يأتي من قبل النساء والأسرة، فأراد أن نتنبَّه لخطورة هذا الأمر، فأمرنا في سورة النساء خاصَّة بأخذ الحيطة والحذر.

فإن قلت: بعض الصالحين يقولون: لا أخالطهم؛ لأني –والحمد لله– لا أحتاج إليهم!

فنقول له: ومن قال لك بأن تخالطهم لأنك تحتاج إليهم، بل تخالطهم لأنهم يحتاجون إليك، ولأن في تبليغهم هذين الركنين ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ سعادتك وسعادة البشرية، وفي ذلك حفظ للنعمة التي تعيش أنت فيها..

فما أكثر إعراض الصالحين عن مخالطة مَن يوجد عندهم بعض الفساد، وتكون النتيجة أن يعمَّ الفساد الأرض، فتسقط الدول، وتنهار النُّظُمُ، ويزول الأمن، ويصبح هذا الصالح مطاردًا في الأرض، وكان يمكن أن يخفِّف من ذلك الفساد، أو أن يمنعه بالمخالطة الناصحة الحذرة.

وقد تسأل فتقول: بعض الناس يقولون لك: لا أخالطهم؛ لأن مخالطتهم فتنة، وقد قال النبي ﷺ: «ومن أتى السلطان افتتن»[(١)]؟

وأجيبك بأن: الحديث –إن صح، وفي صحته نظر– يبصرك أن تحذر من الفتنة عندما تخالط الغافلين من أصحاب الدنيا، ولا ينهاك عن مخالطته، وإنما الفتنة واقعة من ذلك على من حضرهم فأقرَّهم على باطلهم أو سكت عن منكرهم أو اغترَّ بدنياهم، أما من حضر فأمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو دلَّ على خير، فهو محمود مأجور، وإن أصابته لذلك فتنة في دنياه من أذى ونحوه فتلك منزلة الأبرار وسبيل الأخيار. أما عزلتهم بالكلية والإعراض عنهم من غير أن يوجد من يقوم بالكفاية في مناصحتهم فليس من الحكمة ولا هو مراد الشرع، قال الطيبي رحمه الله: "ومن دخل علي السلطان وداهنه وقع في الفتنة، وأما من لم يداهن ونصحه وأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر فكان دخوله عليه أفضل"[(٢)]، فمن الذي يدعو هؤلاء إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة إن لم يقبل عليهم الصالحون؟ وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ قَالَ «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، فكيف يسمع الكبراء والأمراء النصيحة إن هجرتهم ولم تأتهم؟ والمحظور أن

(١) مسند أحمد (٣٣٦٢)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا سند ضعيف لجهالة أبي موسى، فإنه لم يرو عنه غير سفيان، ولم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. وصححه الألباني لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٤١).

(٢) شرح المشكاة (٨/ ٢٥٨٠).

تأتيهم لتصدِّقهم بكذبهم، وتعينهم على ظلمهم.. أما أن تأتيهم لتقول لهم بأسلوب مناسب: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ **فذلك هو المطلوب، وإذا كان هذا مما ينبغي أن يفعله الصالحون مع المنافقين، فكيف لا يفعلونه مع الأغنياء، والأمراء، والكبراء، وكثير منهم لا ينتمون للمنافقين؟**(١)

ومن أجل ذلك ألف القاضي الموفق شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله كتابه: "رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين"، حيث قرَّر رحمه الله أهمية اتصال العلماء بالسلاطين لما في ذلك من الفوائد العظيمة التي لا تتحقَّق بدون ذلك الاتصال، كما نبَّه على أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين عن الاتصال بالحكَّام لتعطَّلت الشريعة المطهرة، لعدم وجود من يقوم بها، ولتبدلت بالمملكة الإسلامية المملكة الجاهلية في الأحكام الشرعية، ولخُولفت أحكام الكتاب والسنة جهارًا، ولا سيما من الحاكم وخاصِّته وأتباعه، ولحصل لهم الغرض الموافق لهم، ووجدوا أعظم السبل إلى التخلُّص عن أكثر أحكام الإسلام قائلين جهلنا، لم نجد من يعلِّمنا، لم نلق من يبصِّرنا، فرَّ عنا العارفون بالدين.

وهم في حقيقة الأمر قد وجدوا في انصراف العلماء عنهم فرصة انتهزوها، وشِدَّة أطلقت عن أعناقهم، وعزيمة إسلامية ذهبت عنهم"(٢).

---

(١) قال ابن مفلح بعد أن ذكر مواقف السلف من إتيان الأمراء والسلاطين: " وَالظَّاهِرُ كَرَاهَتُهُ إنْ خِيفَ مِنْهُ الْوُقُوعُ فِي مَحْظُورٍ، وَعَدَمُهَا إنْ أَمِنَ ذَلِكَ، فَإِنْ عَرِيَ عَنْ الْمَفْسَدَةِ، وَاقْتَرَنَتْ بِهِ مَصْلَحَةٌ مِنْ تَخْوِيفِهِ لَهُمْ، وَوَعْظِهِ إيَّاهُمْ، وَقَضَاءِ حَاجَتِهِ، كَانَ مُسْتَحَبًّا، وَعَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ يُنَزَّلُ كَلَامُ السَّلَفِ وَأَفْعَالُهُمْ رضي الله عنهم". الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٧٧).

(٢) محمد بن علي الشوكاني، رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين، تحقيق د. حسن الظاهر، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ص ٧٤، ١٩٩٢م

لقد كان الشوكاني ﵀ منورًا بنور القرآن، فطبق نظريته في الاتصال بالسلاطين، وترتب على ذلك انتشار نور السنة، وخفوت وهج البدعة.

إن قوله سبحانه: ﴿**وإذا قيل** لهم لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ..﴾ **يؤسِّس لمَعْلم دعوي يوجب على الدعاة إلى الله أن يدرسوا فيه إمكانية الانتقال من مربع العلاقة الحدِّية المفرطة بينهم وبين أولي الأمور إلى مربع القرب المنضبط المتقصد النصح، بعد أن أوصلت العلاقة الحدِّية الطرفين إلى طريق مسدود، ونفقٍ مُضَمَّخٍ بالدماء والأشلاء.**

ولعلك تسأل لماذا تكررت ﴿وإذا قيل لهم﴾ مرتين؟ وما السر وراء ذلك؟

أجيبك بأن قوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ تكرَّرت مرتين كما رأيت، والأصل أن المعنى الظاهر مراد، فهناك قوى مُصلِحة تقوم بمداومة الدعوة لهم إلى الإصلاح والإيمان. والقرآن يعكس لك واقع الحياة، ولذا لا أميل إلى ما استحسنه السيد رشيد رضا ﵀ من أَنَّ السُّؤَالَ وَالْجَوَابَ مَفْرُوضٌ وَفَرْضٌ، وَالْمُرَادُ بَيَانُ حَالِهِمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ جَوَانِحُهُمْ بِصِيغَةِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ الَّتِي هِيَ أَقْوَى أَسَالِيبِ الْكَلَامِ تَنْبِيهًا لِلْأَذْهَانِ..(١).

فالشيخ رشيد ﵀ هنا يرى أن طلب الناصحين في قول الله: ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ وما بعده تقريب لواقع الحال لا أن ذلك واقع، ولا أرى هذا، بل النصيحة والسؤال والجواب حقائق واقعية، ولا ينبغي السير وراء مثل هذا التفكير الذي يَسْلُبنا معنى جوهريًّا بديعًا يدفع المصلحين إلى مخالطة هؤلاء حذرين داعين لهم إلى الخير.

(١) تفسير المنار (١/ ١٣٣).

عندما يقول الناصحون للمنافقين: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ يبصرنا الله ﷻ بأن القوى المنافقة تقوم بشنِّ الحملات الدعائية المغرضة الغامزة الهامزة للقوى الصالحة الخيِّرة، فيقولون: ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾، فما معنى هذا الرد؟

الجواب: يبصرنا ردهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ بأنهم يحاولون التشويش على جمال المنهج الإيماني عند المؤمنين، فالاستفهام في قوله: ﴿أنؤمن﴾ للاستعجاب والإنكار والاستكبار، ووصفهم المؤمنين بالسفهاء ليلمزوهم بالألقاب الرديئة المنفرة.

فإن قلت: لماذا اختار الله ﷻ من بين كلام المنافقين أن يرشدنا إلى التركيز على وصفهم للمؤمنين بالسفهاء؟

ويأتيك الجواب: لأنهم يريدون تدمير القُدُوات، وكسر المحبة التي في نفوس الناس للمصلحين، فيبحثون عن أبشع الصفات، ويلقبونهم بها.

وصفة السفيه هنا تساوي تمامًا الصفة الرديئة التي يتناقلها الإعلام عن المؤمنين. كلمة سفيه تجمع الصفات السيئة بدرجاتها المتفاوتة.

فيمكنهم أن يقولوا عن الصالحين: إنهم سفهاء بمعنى: إنهم دراويش لا يفهمون كيف يديرون الأمور.

ويمكن أن يقولوا: إنهم سفهاء بمعنى: إنهم مخرِّبون ومجرمون يُهدرون أموال البلد.

وعندما ترجع إلى معنى (سفيه) في اللغة تجدها محتملة لذلك حسب سياقها، فالسُّفَهَاءُ: جَمْعُ سَفِيهٍ،كما أن العلماء: جمع عليم، والحكماء: جمعُ حكيم، والسَّفَهُ: خِفَّة في العقل وسَخَافَة في التفكير، وضعف في الرأي، واضطراب مدمِّر لإدارة الأمور، وقِلَّة معرفة بمواضع المنافع والمضارِّ، وخِفَّة الإنسان عندما يعبث في الأمور الدنيوية والأخروية، من سفِه يسفَه،

فَالسَّفَهُ: ضِدُّ الْحِلْمِ، يُقَالُ: ثَوْبٌ سَفِيهٌ، أَيْ رَدِيءُ النَّسْجِ، وَيُقَالُ تَسَفَّهَتِ الرِّيحُ، إِذَا مَالَتْ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

مَشَــيْنَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِماحٌ تَسَــفَّهَتْ أَعَـالِيَـهَـا مَـرُّ الـرِّيَاحِ الـنَّـوَاسِــمِ[1]

ومنه قيل زِمام سفيه: كثير الاضطراب[2]. فالسَّفَهُ كثرة الاضطراب، وضياع البُوصْلة الإدارية.

فإن سألت: كيف أظهرت كلمة ﴿السفهاء﴾ أنهم يزدادون تبجحًا..؟

أجيبك: بأن اللام في﴿السُّفَهاءُ﴾ للعهد الذهني، كما تقول لصاحبك: إن زيدًا قد سعى بك، فيقول: أو قد فعل السفيه، ويجوز أن تكون للجنس، وكأنهم جعلوا المصلحين هم الذين ينطبق عليهم وصف السفه ويبلغ منتهاه.. يكشف ذلك عن مدى غرورهم وتبجحهم.

من مظاهر السفه في الواقع المعاصر:

انظر كيف قَلَب المنافقون القضية: اتهموا المؤمنين بالسفه بدلًا من أن يتهموا أنفسهم به حتى ليصدق فيهم (رمتني بدائها وانسلّت):

أليس من السفه الكبير أن يملك الإنسان كلَّ الموارد للربح ثم يخرج خاسرًا؟

أليس من السفه الكبير أن يجمع من ينتسبون إلى المسلمين أسلحة بالمليارات ثم يصبونها حممًا فوق شعوبهم وإخوانهم؟

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٧٩)، والبيت في ديوان ذي الرمة (٢/ ٧٥٤)، وفي أغلب المراجع (النواســم) وليس (الرواســم)، وهي كذلك في ديوانه، إلا أن صدر البيت فيه (رويدًا) وليس (مشين).

(٢) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٢٣٤).

أليس من السفه الكبير أن يتحكم مجموعة أفراد في الأراضي الشاسعة تمتد إلى ملايين الكيلومترات المربعة، وتشتمل على البحار والصحاري والجبال والرمال والأراضي الزراعية والثروات البشرية الهائلة، ثم تخرج محملة بالديون؟

أليس من السفه أن تُسجَن أكبر العقول الذكية في التخصصات المتعدِّدة، ويستثار الشارع اللاهي لينفق المال على مسابقات جَمَال الجِمَال، أو لينفق آلاف الدولارات لحضور حفلة غناء انتهت تَذَاكرها في نصف ساعة؟

شركة أمازون شركة خاصَّة تخرج بأرباح ربعية لعام ٢٠٢٠م قدرها يزيد عن (١٢٠) مليار دولار، وهو مبلغ يفوق ميزانية مجموعة دول غنية، والشركة كانت ثمرة لجهد فرد تمكَّن من أن يصنع استثمارًا اقتصاديًّا لا تصنعه دول، بينما تخرج بلداننا بديون.. فمَن السفهاء؟

رؤى الأحزانِ فِي قِلبي تنَادْتْ ... على الألمِ المسجَّى في ضُلوعِيْ
تُكابدُ دَمْعَتيْ الأحزانَ قَهْرًا ... وَأزْفُرُهَا إلىَ وقتِ الهُجُوعِ
أُكَاتِمُ إخوتي وشقيقَ روحي ... وأَكْتُمُ آهَتِيْ عِنَدَ الجُمُوْعِ
إذا ما طَافَتِ الآلامُ قلبي ... طَفَتْ في العينِ مِنْ آهٍ دُموعِيْ

أليس من السفه أن تنام أمتنا على بحار ومخزون هائل من الثروات، فيسطو على أكثره عُداتها، ويُبذِّر الباقي سفهاؤها، ويشكو أكثر بَنِيها المسغبة، وضيق ذات اليد، حتى لَيَصْدُق فيهم قول الشاعر:

تموتُ الأُسْدُ في الغاباتِ جُوعًا ... ولَحْمُ الضأنِ تأكلُهُ الكِلابُ

وقول الآخر:

أرى حُمُرًا ترعى وتُعْلَفُ ما تهوى ... وأُسْدًا جياعًا تظمأ الدهرَ لا تروى
وأشرافَ قومٍ لا ينالونَ قُوتَهُمُ ... وقومًا لِئامًا تأكلُ المنَّ والسَّلْوى

لقد أَنف العرب في جاهليتهم من هذا السفه، فقَالَ شعية أخو السَّمَوْأَلُ:

إِنَّا إِذَا حَارَتْ دَوَاعِي الْهَوَى ... وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ
وَاعْتَلَجَ الْقَوْمُ بِأَلْبَابِهِمْ ... فِي الْمَنْطِقِ الْفَاصِلِ وَالنَّائِلِ
لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَلَا ... نُلِظُّ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا ... فَنَخْمَلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ[(١)]

فكيف الذين بصَّرهم الله تعالى ببصائر القرآن المجيد؟ أفلا يأنفون من السفه؟

الصفة الثانية عشرة: اصطناع إيمان يخالف إيمان الناس الذين ساروا على الصراط المستقيم:

ويبصرنا بهذه الصفة الآية ذاتها، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]؛ **إذ تبصِّرنا بأنهم عندهم إيمان ولكنه ليس كإيمان من يصفونهم بالسفهاء، واستنكارهم يدلُّ على أنهم يرون إيمان غيرهم جنونًا أو جريمة.**

لاحظ كيف تسفر لك الآية عن صفة أخرى من صفاتهم الرديئة، ولكنك ستسأل: كيف بصرتنا هذه الآية بهذه الصفة؟

وإليك الإجابة عن سؤالك: الهمزة في قولهم ﴿أنؤمن﴾ للإنكار، فهم يستنكرون على من يطلب منهم أن يؤمنوا كما آمن الناس، ويتساءلون مستنكرين: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ فـ﴿ما﴾ في قوله: ﴿كما﴾ مصدرية، وتقدير الكلام: وإذا قيل لهم آمنوا إيمانًا كإيمان الناس، وهنا تردُّ قوى النفاق: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، وتقدير الكلام قالوا: أنؤمن إيمانًا كإيمان السفهاء.

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي (٨/ ٤٤٠)، وفيه (جارت) بدلًا من (حارت)، وفيه أيضًا (الفائل والفاصل) بدلًا من (الْفَاصِلِ وَالنَّائِلِ).

أصناف المنافقين من خلال قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

تبرز الآية في هذا الرد تقسيم المنافقين إلى صنفين:

الصنف الأول: ينكر الإيمان من حيث هو، ولكنه يتظاهر بأنه ينتمي لمجتمع المسلمين، إلا أن كلَّ أفعاله تُظهِره يتبنى الإلحاد، فينكر بالكلية الحقيقة الواضحة في أن العالم يحتاج للإيمان الحقِّ، ولكنه لا يُعلن ذلك صراحة. هذا يعني أن من المنافقين من هو ملحد لا يؤمن بأي شيء، فيكون قولهم: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، صفة لبيان الواقع، ليس له مفهوم مخالفة، فهم ينكرون الإيمان من حيث هو. ويمثِّل هذا الفريق في عصرنا طوائف من العلمانيين و(اللادينيين)، ومن لَفَّ لَفَّهُم من نوابت الإلحاد، في مرحلة صار الإلحاد فيها مطيَّة لكلِّ متفلت متهتك.

الصنف الثاني: ينكر الإيمان الذي اعتنقه النبي ﷺ وأصحابه ﵃ والمؤمنون من قبلهم.. الإيمان "الخالص المستقيم المتجرِّد من الأهواء، إيمان المخلصين الذين دخلوا في السَّلْم كافَّة، وأسلموا وجوههم لله ﷻ، وفتحوا صدورهم لرسول الله ﷺ يوجِّهُهم فيستجيبون بكلِّيتهم مخلصين متجردين.. هؤلاء هم الناس الذين كان المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم هذا الإيمان الخالص الواضح المستقيم"[١].

فشوَّش المنافقون بردِّهم هذا على جمال المنهج الإيماني عند المؤمنين، حيث وصفوهم بالسفهاء، وهم المضطربون في تفكيرهم وعقولهم، فهذا الصنف من المنافقين يزعمون أمام الناس أنهم مؤمنون، ولكنهم مؤمنون وفق أهوائهم، كأنهم يقولون: نحن مؤمنون، ولكننا لا نؤمن كإيمان السفهاء، بل لنا إيماننا الخاصُّ، فهم يُظهرون إيمانًا صنعوه ليوافق أهواءهم الضالة، فيكون قولهم: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ صفة تقييدية، حقيقية لها مفهوم مخالفة.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٤).

ويتصل بهذا ذوو النزعات الفكرية والقراءات الحُداثية للنصوص القرآنية؛ حينما يطِّرِحون في قراءتهم النصَّ القرآني والقواعد المقرَّرة والضوابط المستقرَّة مما سار عليه المسلمون والتزموه وأصلَّوه عبر القرون واصفين كلَّ ذلك بالسطحية والعفوية، مسبغين على صنيعهم ومسلكهم وقراءاتهم المزعومة هالة القداسة والعلمية.

كما يمكننا أن نلحق بهؤلاء قومًا اجترحوا قسمة ثنائية فجعلوا الديانة: شريعة وحقيقة، ثم زعموا أن الشريعة للعوام، والحقيقة للخواص، أي لهم.

والحقُّ أنك تشتمُّ من هذا الفريق نكهة الكبر والتعالي التي لا يستطيعون لها حبسًا، وواضح أنهم كانوا يأنفون من الاستسلام للرسول ﷺ ويرون اتِّباعه خاصًّا بفقراء الناس، غير لائق بالعِلْية ذوي المقام! ومن ثم قالوا قولتهم هذه: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[1]، وهذا يلفتك إلى أن سبب النفاق في الأغلب الغرض والغرور والتكبر كما يفسره قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧][2].

وتفهم من ذلك أنهم يتباهون بإيمان لكنه كإيمان السفهاء كما زعموا، ولكنك ينبغي أن تحدِّد من الناس المذكورون في الآية؟

والجواب عن ذلك: إن كلمة ﴿الناس﴾ هنا أتت في سياق المدح، لا الذم ولا مجرد الوصف، وهذا على طريقة قولنا: فلان إنسان أي هو متصف بأجمل ما في الإنسانية من صفاتٍ ومعانٍ، وكأنه هو الذي يستحق أن يُسَمَّى بالإنسان.

وكذلك عندما يقول الناصحون للمنافقين: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾، فهم يشيرون إلى المؤمنين، فلماذا جعلوا المؤمنين (الناس) دون غيرهم مع ثبوت صفة الإنسانية لمن سواهم؟

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (١/ ٤٤).

(٢) ينظر: إشارات الإعجاز (ص: ١٤٠).

وأجيبك بما تضمنته هذه البصيرة: المؤمنون هم "الكاملون في الإنسانية" حسب تعبير الزمخشري رحمه الله[١] أي الذين تعلمون كمالهم، ومكانتهم، فالمؤمنون "هُمُ النّاسُ في الحَقِيقَةِ؛ لِأنَّهم هُمُ الَّذِينَ أعْطَوُا الإنْسانِيَّةَ حَقَّها؛ لِأنَّ فَضِيلَةَ الإنْسانِ عَلى سائِرِ الحَيَواناتِ بِالعَقْلِ المُرْشِدِ، والفِكْرِ الهادِي" كما يقول الرازي رحمه الله[٢].

وفي مقدمة قادة الإنسانية الحقيقيين يأتي الأنبياء، فهناك من يرفع اسم إِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى، ومحمد عليهم السلام، ويقيمون الاحتفالات للمدائح لكنه لا يتبعهم في الإسلام الذي جاءوا به، بل يعملون على إشاعة الفاحشة، والمنكر، والشرك في العالم.

فقول الناصحين لهم: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ جملة تحمل معنى الإغراء، وتتعدَّد معانيها حسب أزمنتها:

ففي زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقال لهم: كما آمن أغلب أهل المدينة، ودخل معهم في الإيمان بعض أحبار اليهود لما رأوا الحق.

وفي مثل زماننا يقال: لهم حقِّقوا الإيمان الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه إن كنتم تزعمون محبتهم.

وهذه الكلمة ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾: أي الذين يستحقون وصف الإنسانية التي على فطرة الله.. "الَّذِينَ تَعْتَقِدُونَ كَمَالَهُمْ وَتَرَوْنَ تَعْظِيمَهُمْ وَإِجْلَالَهُمْ: كَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى عليهم السلام، وَأَتْبَاعِهِمْ، الَّذِينَ كَانَ الْإِيمَانُ رَاسِخًا فِي جَنَابِهِمْ، وَمُؤَثِّرًا فِي وِجْدَانِهِمْ، وَمُصَرِّفًا لِأَبْدَانِهِمْ"[٣] وهذا يعني أن المؤمنين هم من يستحقُّون الصفات الإنسانية النبيلة الصادقة،

---

(١) الكشاف (١/ ٦٤).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣٠٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٣٤).

وكأنهم هم الذين يعرفون المعاني الإنسانية لا غيرهم، ويكفي لنعلم الصدق الواقعي لهذا المعنى أن نقارن بين فئتين يزعم كل منهما أنه مؤمن:

الفئة الأولى: فئة الصليبيين "خُدَّام الرب"، كما يسمون أنفسهم، فقد نقل عنهم المؤرخ (جيبون) أنهم لما استولوا على بيت المقدس في ١٠٩٩م أرادوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء.. حطموا رؤوس الصبيان على الجدران، وألقوا بالأطفال الرضع من سطوح المنازل، وشَوَوْا الرجال والنساء بالنار، ووصف أحد شهود العيان أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام المبتورة على أنها منظر رائع يستحق المشاهدة، وأرسل أحد قادة الصليبيين هدية إلى الامبراطور البيزنطي عبارة عن شحنة كاملة من الأنوف والأصابع المقطوعة.. هل هؤلاء الذي يسمون أنفسهم مؤمنين يمكن أن يفكِّر المرء بأن عندهم عِرْقًا إنسانيًّا؟[(١)].

تعال إلى الفئة الثانية وهم مؤمنو أمة محمد ﷺ: ترى كيف عاملوا الصليبيين عندما فتحوا بيت المقدس مجدداً؟ كيف صنع صلاح الدين رحمه الله مع أسراهم ونساءهم وأطفالهم؟

لقد ثبت بما لا شك فيه لدى المؤرخين الغربيين قبل المسلمين: أن المسلمين لما دخلوا بيت المقدس مع صلاح الدين،كانوا أنبل فاتح، وأكرم منتصر، وأعدل حاكم[(٢)].

فمن الذين يستحقُّون أن يوصفوا بأنهم الناس؟ ونحن ندعو هؤلاء التائهين الذين تشرَّبوا بالمعاني الوحشية وهم يزعمون أنهم مؤمنون ليؤمنوا كما آمن الناس.. هل رأيت الآن جمال هذا التعبير ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾؟!

(١) ينظر: العلاقات الدولية في الإسلام لكامل سلامة الدقس (ص: ٣٣٣).

(٢) ينظر: من روائع حضارتنا (ص: ١٦٨).

الصفة الثالثة عشرة: يتصفون بالسفه والجهل المركب معًا:

ويبصِّرنا الله ﷻ بهذه الصفة في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، فهذه الجملة تضمَّنت ثلاثة أمور: وصفَهم بالسفه، ووصفَهم بالجهل المركَّب، والردَّ عليهم في وصفهم المصلحين في الأرض بالسفهاء.

يبصرنا هذا الردُّ بضرورة تفعيل الأجهزة الإعلامية في الردِّ على افتراءاتهم، وانظر هنا: فهل ترى الله ﷻ تركهم دون ردٍّ على لَمْزِهم وغَمْزِهم؟ هل ترك الله ﷻ المؤمنين دون دفاع عن عرضهم؟ بل ذبَّ الله ﷻ عن عرض المؤمنين، واتخذ هذا الدفاع صورة هجوم مباشر لا مداراة فيه ولا تلطُّف، فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

إنَّ تَرْكَ الأبواق والقنوات النفاقية تبث سمَّها، وترسل سهام الطعن والتشويه، وتمارس شيطنة الأخيار والمصلحين بدأب لا ينقطع دون رد لشبهاتهم وتفنيد لتشغيباتهم.. إن كل ذلك يعزز من حالة الانحراف الفكري، ويصرف المجتمعات عن تلقي هدايات الكتاب عن النصحة من أهل العلم والديانة.

بصيرة: يبصرنا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وقوله ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] أنه يجب التدرُّب على كيفية الردود القوية في مواضعها.

فهذا هو المنهج القرآني يلوح لأولي الأبصار، وكم تحدث الجناية عند تغليب أحد الجهتين على الأخرى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩].

ولعلك ستسأل: ما وجه قوة هذه العبارة في الرد على المنافقين؟

الجواب: ما عليك إلا أن تنظر لقوة الرد: فكلمة (ألا) جاءت لأداء دور وظيفي كبير في تصوير المعركة الكلامية الإعلامية ضد هؤلاء السفهاء، فهي للتنبيه: تنبئك وتصوِّر لك أن الله تعالى مجده سيخبرك نبأ مهمًّا ينبغي أن تنتبه له.

ثم أكَّد الله ﷻ على أنهم السفهاء بـ(إنَّ) التوكيدية، فلم يقل: ألا هم السفهاء حتى أكَّد ذلك بـ(إنَّ).

ثم جاء ضمير الفصل ﴿هم﴾ فلم يقل الله ﷻ: ألا إنهم السفهاء، بل أضاف ﴿هم﴾.

وكل هذه التأكيدات والتنبيهات ليخبرك ألا تتوانى من أن تكشف حقيقتهم للعالم بتأكيد ذلك بوسائل التوكيد الإعلامية.

وبعد هذه التأكيدات الثلاث جعل الجملة على هيئة الحصر، كأن الحصر يعني: هم السفهاء ولا سفهاء غيرهم، مع أنه يوجد غيرهم من السفهاء، ولكن هذا الحصر الادعائي يخبرنا بأن صفة السفه تجلَّت فيهم كما لم تتجلَّ في غيرهم، فهم المضطربون فكريًّا وقلبيًّا، وكأنه لا يوجد في الأرض مضطرب مثلهم.. هل تريد الدليل على ذلك؟

وإليك بالدليل على صدق ما أخبرتك: فإنهم ينتمون إلى المسلمين، وعندهم ثرواتهم، وقواتهم، ويتحكَّمون في قراراتهم، ويجدون من سائر المسلمين طِيبة وإذعانًا وقبولًا، إلا أنهم يأبون إلا أن يخدموا شياطينهم.. يصرُّون على أن يكونوا خَدَمًا للخارج مع أن المسلمين جعلوهم قادة في الداخل.. يصرُّون على إفساد الأرض التي تنبت لهم ذهبًا وفضة.. يصرُّون على الاستمتاع بتعذيب قومهم من المستضعفين لمجرد أن قومهم يحبُّون القرآن، ويقتدون بسيد بني الإنسان ﷺ.. أليس هذا سفهًا واضطرابًا؟ بل هو كلُّ السفه والاختلال.

وهنا قد يتبادر إليك سؤال مُلِحٌّ، وهو: لماذا وصفهم بعدم العلم بعد ذلك فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾؟

وأسرع إليك بالجواب فأقول: وصفهم بعدم العلم بعد أن وصفهم بالسفه، وهذا يدلُّ على أمرين واضحين:

الأمر الأول: لا يعلمون أنهم السفهاء؛ فيزدادون سفهًا؛ لأن العلم الحقَّ هو الذي يولِّد التفكير الصحيح والعواطف الإنسانية النبيلة، وهذه الصفات لم تتَّسم بها أمة كما اتَّسم بها المؤمنون الصادقون من أمة محمد ﷺ ومن المؤمنين الصادقين قبلهم، وأما العلم الذي يورث الجبروت، ويُذْكي الاستكبار، فهو سفه باعتبار نتيجته، ولذا نفى الله ﷻ عن هؤلاء العلم مع أنهم قد يكونون متفوقين في العلم الدنيوي، كما قال البردوني رحمه الله:

أَدْهَى مِنَ الجَهْـلِ عِلْـمٌ يَطْمَئِـنُّ إِلَـى ... أَنْصَـافِ نَاسٍ طَغَوا بِالعِلْـمِ وَاغْتَصَبُـوا

قَالُوا: هُمُ البَشَرُ الأَرْقَـى وَمَـا أَكَلُـوا ... شَيْئًا.. كَمَا أَكَلُـوا الإِنْسَـانَ أَوْ شَرِبُـوا

الأمر الثاني: كلمة ﴿لا يعلمون﴾ تبصرنا بِشِدَّة تعصُّب المنافقين لباطلهم لدرجة أنهم يعتقدون أن سفههم واضطرابهم العقلي ليس مرضًا، فهم يجهلون أنهم يجهلون، ويعمون تمامًا عن رؤية الحق في غير واقعهم.

هذا الجهل يولِّد التعصُّب الذي يحجب مداركهم عن رؤية نور الحق.

كأن القرآن يبصرك أن تأخذ الحذر الشديد منهم، لأن هذا التعصب قد يجرئهم على ارتكاب الفظائع وهم يحسبون أنهم محقون، كالفظائع التي يريد أن يرتكبها دعاة الأصولية المسيحية الصهيونية الذين يصرُّون على أنه ستقع حرب نووية تبيد الكُرة الأرضية، ويعملون على وقوعها، ولما غزوا العراق زعم (جورج بوش) أنهم يريدون إبادة يأجوج ومأجوج.

يبصِّرنا قول ربنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ بأنهم: لا يعلمون بسفههم، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون.

فهذان الأمران عَيْنُ السَّفه، لأن السفيه –كما يقول الطبري ﵀ –[1] إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويَكْفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها.

وفي هذه الآيات تجد الكثير من الإشارات التربوية الرائدة، واللفتات العَبِقة العظيمة التي تبني النفس المسلمة، وتحصِّن أبناء الصحوة الإسلامية من الاختلال أثناء دعوة الحيارى، أو مدافعة القوى المبطلة في المجتمع.

وربما تساءلت: لماذا وصفهم في عدم إيمانهم بعدم العلم بينما وصفهم في إفسادهم بعدم الشعور؟

والجواب: أن الشعور هو العلم الدقيق الذي يأتي عن طريق الإحساس الباطني بالشيء، فطريقه الحواس الباطنة لا الحواس الظاهرة.

فوصفهم الله ﷻ في إفسادهم في الأرض بعدم الشعور؛ لأن الإفساد واضحٌ بَيِّنٌ لكلِّ مؤمن وغير مؤمن، وهم يقترفونه بل يتمتعون به.. انظر كيف يحاصرون الأطفال، ويحكمون على الملايين بالموت جوعًا أو تحت أسلحتهم الخبيثة، ولا يظهر منهم الندم، ولا يبدو منهم الألم؛ لأن المشاعر الإنسانية السوية سُلِبَت منهم؛ لكثرة إفسادهم وتمتُّعِهم بذلك، فالمفسد لم يفقد العلم، لكنه فقد الشعور.

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٩٥).

"ومتى اختلَّ ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم. والذين لا يخلصون سريرتهم لله ﷻ يتعذَّر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية.... ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾"(١).

بينما وصفهم ربنا في عدم إيمانهم بعدم العلم في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؛ لأن موضوع الإيمان يقوم على العقل والفهم، ويحتاج إلى نظر واستدلال فإذا تأمل الإنسان ونظر توصل إلى العلم، والعلم يهدي إلى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

واستظهر هذا الفرق في التعبيرين الإمام الفراهي رحمه الله، فقال: "الإفساد أقوى جانبه فساد القلب، والسفه أقوى جانبه خفة العقل، فقال في الأولى: ﴿لا يشعرون﴾ وفي الثانية: ﴿لايعلمون﴾، ثم الشعور أدنى العلم، والإصلاح يقتضي زيادة العلم، فعدم الشعور أشنع لمن يدَّعي الإصلاح، وفي تسفيه الناس ادعاء للعلم فردَّ عليهم ما ادعوه"(٢).

وهذا أقوى مما رأيته من القول الذي مال إليه الطبري رحمه الله في إظهار السبب في اختلاف الوصفين(٣)، ووجدت الزمخشري رحمه الله ذكر قريبًا منه(٤).

---

(١) الظلال (١/ ٤٤).

(٢) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٤٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٩٥).

(٤) الكشاف (١/ ٦٤).

بصيرة: يبصِّرك قوله تعالى: ﴿قيل لهم- لقوا الذين آمنوا- قيل لهم﴾ بأن المصلحين يجب أن يخالطوا المنافقين مهما بدا من نفاقهم وإجرامهم، وينبغي حشد جمع الأمة لتوجيه هذه الدعوات الخيرة للمنافقين.

فهم يشعرون بالحرج من أفعالهم الخبيثة ما دام هناك من ينكر عليهم، ولذا يسعون لتصفية كلِّ من ينكر عليهم واقعهم الشنيع، ومن أسرار قوله ﴿قيل﴾ بيان تناصر الجهات المختلفة في الأمة المسلمة في ذمهم والإزراء عليهم، وتسفيه منطقهم المريض، فتتكاثر الأصوات التي تقمع منكرهم، وتُسَفِّهُ باطلهم. وهذا يستدعي بذل الجهود وتكثيفها، وتوظيف جميع أنواع الوسائل المتاحة لصناعة الرأي العام، وسحب البساط من تحت أقدام القنوات والأبواق الإعلامية النفاقية، وكشف زيفها ودجلها.

الصفة الرابعة عشرة: يظهرون بوجهين متناقضين، ويتكلمون بلسانين متعارضين، فيكونون مع المؤمنين بوجه، ويكونون مع أوليائهم الشياطين بوجه آخر مناقض:

ويبصِّرنا بهذه الصفة الذميمة قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقد تسأل: كيف صوَّرت كلمة ﴿وإذا﴾ هذه الصفة الخطيرة: الظهور بوجهين متناقضين، والتكلم بلسانين متعارضين؟

وأجيبك: لاحظ (الواو) في تتابعها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.. هذه الواو تؤدي دورًا خطيرًا مُقَلْقِلًا مُزَلزلًا لغفلتك عن هذا الصنف الخطير الذي يكاد اسمه أن يختفي من واقع المجتمعات.. هذه الواو تعطف هذه الصفة على ما سبقها من

الصفات، فهي تلح عليك لتنتبه لصفاتهم، فقد فضحهم الله ﷻ وكشفهم، فلا يمكنهم الاختباء ولا الاختفاء، إنها تبين لك أعمالهم دون أن تحتاج إلى مزيج لتعرفهم..

(الواو) بتتابعها، وتتابع هذه الصفات بعدها توقظ عقلك إيقاظًا لتدرك مقدار خطرهم.

وكلمة ﴿إذا﴾ ظرفٌ يفيد الواقع والحال، خافضٌ لشرطه، مَنْصُوبٌ بجوابه، يصف لك الواقع المتكرر مهما حاولوا إظهار غير ذلك.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: تشير إلى أن المجتمع بغَلَبة خيرِه، وظهور أنوار الإيمان في نواحيه يحاكِم هذا الصنف ويستنطقه ضرورة، ويضطرُّه بين الفينة وأختها ليؤكِّد أنه مؤمن -وإن رياء وزورًا- إن هذا الدور الذي يمارسه المجتمع المتعافي في محاصرة الحركة النفاقية مهم جدًّا، ومؤشِّر على قوة إيمانية متأصِّلة لدى أفراد المجتمع، وهو ما ينبغي تعزيزه والمحافظة عليه دائمًا.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: تُجرِم قوى النفاق في حقِّ أنفسهم، وفي حقِّ العالم، ويبارزون الله ﷻ بأعظم المعاصي، فينشرون الفاحشة، ويُمَوِّلون المليشيات القاتلة مثلًا، ولكنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا.

فيثير هذا القول نظر المتدبرين: المسلم عادة لا يقول: آمنا كلما لقي صاحبه؛ لأن الأصل فيه أنه مؤمن.. وحتى تتصور خطورة التصوير القرآني الناتج عن قولهم هذا.. تصوَّرْ مسلمًا دخل المسجد، وأول ما دخل، ورأى المصلين في المسجد رفع صوته، وقال: أنا دخلت للصلاة.. ألا يستغرب الناس لهذه العبارة؟

فكذلك عندما يلقي المنافق المؤمنين يقول: آمنا..

وهو بهذا التكرار لهذه الكلمة يثير الريبة حوله..

وأنت إذا تأملت: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ تجد أنه "فعل من أفعالهم، لم ينته إلى أن يصير صفة لهم، وأما المؤمنون الذين صار إيمانهم صفة لهم، فلا يكادون يلقونهم بمقتضاه، لأنهم لا يجدون معهم مدخلًا في قول ولا مؤانسة، لأن اللقاء لابدَّ فيه من إقبال ما من الملتقيين"[(١)]، كما أن "(إذا) فيها إيماءٌ الى الجزم والتعمُّد والقصد، أي عزموا بعمد وقصد ملاقاتهم.. ولفظ (لقوا) إيماء إلى أنهم تعمدوا مصادفتهم في الطرق بين ظهراني الناس"[(٢)]، ولكأن هذا الصنف البائس يتحيَّنُ الفرص بل ويصطنعها ليسعى لتأكيد إيمانه للناس.

ومع ذلك فقد تتساءل: هل تعلم لماذا وصفهم الله ﷻ بذلك؟

الجواب: وصفهم الله ﷻ بذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن أفعالهم تخالف أقوالهم.. فهم مثلًا يحاصرون المسلمين، أو هم يكذبون في حديثهم، أو هم يمنعون إطعام المساكين.. لكنهم يؤكِّدون أمام المؤمنين أنهم مؤمنون.

الأمر الثاني: قالوا وهم يعنون آمنا بقلوبنا، ولم نكتف بذلك بألسنتنا.. أي اطمئنوا لنا حتى لو رأيتم أفعالنا تخالف ذلك، فإنما نصنع هذا لحكمة تخفى عليكم، فلا تشكُّوا في إيماننا..

هذا الوجه الأول الذي يظهرون به.. هذا هو اللسان الأول.. يستعملون ذلك مع المؤمنين..

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ هنا يظهر الوجه الثاني.. ينكشف اللسان الثاني.. عندما يلتقون بالنشطاء الأشرار المحليين والدوليين يقولون لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

---

(١) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي (ص: ١٦١).

(٢) إشارات الإعجاز (ص: ١٠٧).

تفضح البصائر القرآنية هذا التلون، وتكشف هذه الذبذبة، وتخبر العالم بسر هذا الصنف الخبيث المجرم.

فإن سألت: لماذا يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ بالفعل الماضي؟

أجيبك: بأنه للسبب ذاته الذي صوَّره لنا قولهم الذي حكاه الله تعالى عنهم في أول أوصافهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فهم يقصدون حقيقة الماضي، ويوهمون السامع أنهم آمنوا في الماضي وهم مستمرون على ذلك في الحاضر، ولكن السياق يبين أنهم يكذبون في الموقف، وإن صدقوا في حقيقة الفعل الماضي. كما أننا نلمس في التعبير بالفعلية ﴿ءَامَنَّا﴾ إشارة الى أنه لايمكن لهم أن يدَّعوا الثبات والدوام، وإنما غرضهم من هذا التصنع الاشتراك في منافع المؤمنين والاطلاع على أسرارهم بادعاء حدوث الإيمان[(١)].

الصفة الخامسة عشرة: التحالف مع القوى الشيطانية الإنسية والجنية في العالم، والتـآمـر في الظلام:

ونلمس هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فيجتمعون مع الشخصيات الشيطانية النشطة في نشر الشر من زملائهم في الإفساد، ومن قياداتهم في الكيد للإنسانية، وهناك ينشرون كيدهم ويُظهرون ولاءهم، ويقدِّمون تقاريرهم الشفوية والتحريرية حول مدى تلاعبهم بالمؤمنين.

فيوهمون المؤمنين عند اللقاء بهم بأنهم على الإيمان، ثم يسرعون إلى شياطينهم ليقولوا العكس.. فمن شياطينُهم؟

والجواب: شياطينهم صنفان:

(١) إشارات الإعجاز (ص: ١٠٨).

الصنف الأول: قياداتهم المجرمة النشطة من الإنس والجن، قَالَ عنهم قَتَادَةُ رحمه الله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ : "إلى رؤوسهم، وَقَادَتِهِمْ فِي الشِّرْكِ، وَالشَّرِّ"(١).

الصنف الثاني: إخوانهم في النفاق وأعوناهم على الإفساد، وزملاؤهم من الناشطين والناشطات إذا كانوا مفسدين في الأرض.

ويؤكد الطبري رحمه الله أن الشَّيَاطِينُ لا تقتصر على الإنس، بل ينتمون إلى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الْأَنْعَام: ١١٢](٢).

فإن قلت: ما الذي يحدث عندما يخلو هؤلاء المنافقون بشياطينهم؟

ويأتيك الجواب: يلتقي المنافقون بالمؤمنين، فيقولون لهم: آمنا، ثم تمر الأوقات، فيلتقون بعد ذلك بزملائهم من النشطين في نشر الشر، ويجتمعون أيضًا مع قياداتهم التي يعظمونها من شياطين الإنس والجن.

فإذا اجتمعوا بهم، وخلوا إليهم من دون الناس، ودارت بينهم الأحاديث، فأخذوا في ذكر ما فعلوه من الإفساد والخديعة والمكر، ربما وقع من بعض رؤوسهم أو الموغلين في الفساد الغلاة في النفاق الأعظم شرًّا والأكثر فُجْرًا، لَومٌ لآخرين منهم، في خضوعهم للمؤمنين، أو ثنائهم عليهم، أو إظهار المودة لهم، أو فعل بعض الخير لهم أو معهم، وربما قام زملاؤهم من الناشطين المتمردين في نشر الإفساد باتهامهم بأنهم يجاملون المؤمنين، ويقولون لهم آمنا، وكذلك ربما سألتهم قياداتهم عن حقيقة ظهورهم مع المؤمنين في ادِّعاء الإيمان، وبناء المساجد، والظهور في فعاليات المؤمنين.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٧).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١١١).

وهنا يقدِّم المنافقون تقاريرهم التي تثبت ولاءهم الكامل للأهداف الماسونية الخفية، وربما يبتدئون الحديث، وربما تسألهم قياداتهم: لماذا تظهرون مع المؤمنين وكأنكم منهم، فيطمئنونهم، ويقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

ويدخل في جملة شياطينهم القيادات الخفية التي تميل إلى التعتيم على واقعها وحياتها، ويكفيك أن ترى أن رؤوساء أكبر بلد في العالم تبيعهم هذه القيادات الخفية وتشتريهم ليقيموا لها أهواءها، وينفذوا رغباتها، وما ينقله الإعلام من اللمحات التي توضِّح ذلك ليس إلا شيئًا يسيرًا.

وهنا قد تسأل: لماذا سمى الله ﷻ الناشطين والناشطات في الشر شياطين؟

الجواب: لأن كلمة الشياطين مفردها شيطان، والشيطان هو أسوأ الناشطين المتحركين في نشر الشرك والشر، فالشياطين أسوأ المتمردين المحترقين حقدًا على الهدى الإلهي الذي ينظم حياة البشرية ويسعدها، وهذه الكلمة اشتقت من جهتين:

الجهة الأولى من: (شَطَنَ) أي بعد، فيُقَالُ: شَطَنَتِ الدَّارُ تَشْطُنُ شُطُونًا إِذَا غَرَبَتْ، وَيُقَالُ بِئْرٌ شَطُونٌ، أَيْ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ، قَالَ النَّابِغَةُ[1]:

نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوًى شَطُونُ ... فَبَانَتْ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ

وَالشَّطَنُ: الْحَبْلُ الطويل الشديد الفتل يُسْتَقَى به وتشد به الخيل، لِأَنَّهُ بَعِيدٌ مَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ فَرَسًا فَقَالَ: " كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ"، وَيُقَالُ لِلْفَرَسِ إِذَا اسْتَعْصَى عَلَى صَاحِبِهِ: إِنَّهُ لَيَنْزُو بَيْنَ شَطَنَيْنِ: يُضْربُ مثلًا للإنسان الأَشِر القوي، لأن الفرس إذا استعصى على صاحبه شده بحبلين من جانبين.

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه (ص: ١٦٢).

الجهة الثانية: من شَاطَ يَشِيطُ: احترق غضبًا، وحقدًا وعنادًا، فالنون فيه زائدة، فشيطان على وزن فعلان من شاط يشيط هلك(١)، قال الأعشى:

قد نَخْضِبُ العَيرَ مِنْ مكنون فائِلِهِ ... وقد يشيط على أرماحنا البطل(٢)

والشيطان من أسماء الحية، قال الشاعر(٣):

تُلاعِبُ مثنى حضرمي كأنهُ ... تمعُّجُ شيطان بِذي خِروع قفرِ

فالشَّيطان اسم لكلِّ نشط عارم من الجنّ والإنس والحيوانات، وهنا ندرك خاصتين في تسميته شيطانًا:

الخاصية الأولى: أن الشيطان بعيد عن الخير بعيد عن الحق.. بعيد عن صلاح الأرض، فالشَّيْطَانُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِوَزْنِ فَيْعَالٍ، وسمي بذلك؛ لِبُعْدِهِ عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرُّدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالدَّوَابِّ شَيْطَانٌ. قَالَ جَرِيرٌ(٤):

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلِي ... وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانًا

الخاصية الثانية: أنه يغتاظ من الخير ومن أهله.. فلا يكتفي بأن يكون بعيدًا عن الخير..بل يحارب الخير.. فهو ذو شدة على الحق والأرض لحبه لنفسه، ويجعله هذا ممتلئًا شرًا وإجرامًا وعنادًا.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) ينظر: ديوان الأعشى (ص: ٦٣).

(٣) البيت لطَرَفة بن العبد في الحيوان للجاحظ (٤/ ٣٢٤)، وليس في ديوانه.

(٤) البيت لجرير في ديوانه، دار بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، (ص: ٤٩٣).

هنا تدرك سر تسمية زملاء المنافقين وقياداتهم النشطة في الشر باسم الشياطين.. قد اتسموا بالحماس الشديد، والعرامة المتهورة، والشدة الهائلة في التمرد على الهدى الإلهي الذي يصلح الأرض، ويعدل في البشرية.. لقد حملوا لواء محاربة الخير في المشرق والمغرب.. تراهم يحترقون غيظًا وحنقًا وغضبًا وإجرامًا حقدًا على الحق وأهله.

فالشيطنة ينتمي لها: قيادات المنافقين، وزملاؤهم من النشطين في الإجرام ونشر الإفساد في الأرض.

فكلمة ﴿شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ لا تقتصر على رؤسائهم، بل المراد بها المتحمسون المحترقون في الباطل، الذي ينشرون الإفساد في كل مكان، فبعض زعماء الفاسدين يمارس فساده، لكنه لا ينشط لنشر الفساد في الأرض، "ولَا يَنْصُرُ اعْتِقَادَهُ وَإِنْ كَانَ مُعْتَرِفًا بِأَنَّ فِيهِ رَشَادَهُ، وَفِي عِزَّتِهِ عِزَّهُ وَإِسْعَادَهُ، وَكَمْ مِنْ مَرْؤوسٍ شَدِيدِ الْعَزِيمَةِ قَوِيِّ الشَّكِيمَةِ يَكُونُ لَهُ فِي نَصْرِ مِلَّتِهِ، وَالْمُدَافَعَةِ عَنْ أُمَّتِهِ، مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ، وَلَا يَأْتِي عَلَى أَيْدِي الْأُمَرَاءِ.

وَلِلذُّبَابَةِ فِي الْجُرْحِ الْمُمِدِّ يَدٌ   تَنَالُ مَا قَصَّرَتْ عَنْهُ يَدُ الْأَسَدِ"

كما يقول السيد رشيد رضا رحمه الله(١).

القيادات الشيطانية الخفية من الجن والإنس تحاول إدارة العالم، وتدميره وفق نظامها المجرم وسلاحها محاربة القرآن، والتفريق بين الناس، والإصرار على العنصرية:

تكشف لك الآيات اللقاءات الخفية لقوى النفاق مع زملائهم وقياداتهم الشيطانية من الإنس والجن، فقوله: ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾: أي إلى قياداتهم الظاهرة والخفية من متطرفي القوى المعتدية المجرمة داخليًا وخارجيًا.

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٣٧).

هنا تبصرك هذه الآية بالعالَم الخطير: عالَم القوى السرِّية الخفيَّة المليء بالمؤامرات العفنة الدَّنِسة.

تبصِّرك الآية بدِقَّة مذهلة بهذا المعسكر الشيطاني المفسد في الأرض، وتبصرك بالأتباع الذين يظهرون أنفسهم مستقلين أحرارًا، فإذا لقوا الذين آمنوا داهنوهم بكلام منمق، وقالوا: آمنا، وماذا يحدث بعد ذلك؟

ويكشف ابن عباس رضي الله عنهما عن صنف من هذه القيادات الشيطانية، فيقول –فيما يرويه الطبري رحمه الله -: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال: إذا خلوا إلى شياطينهم من يهودَ، الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [(١)].

كما يخبرنا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن هذه القيادات الشيطانية إنسية وجِنِّية تمثِّل رؤوساء هؤلاء في تكفير العالم وتفسيقه وتحويله إلى حالة التمرُّد على ربِّه وعلى الحقِّ الواضح، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مُرَّة الهَمْداني رحمه الله، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: أما ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾، فهم رؤوسهم في الكُفر[(٢)]، وقال مجاهد رحمه الله: ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾: أصحابُهم من المنافقين والمشركين"[(٣)].

الآن عد إلى بصائر الآية: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ ما الصورة التي تقدِّمها لك هذه الواو عن عالم القوى السرية الخفية المفسدة؟

---

(١) تفسير الطبري طبعة دار الحديث (١/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وقال إسلام منصور: ضعيف.

(٢) تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (١/ ٢٢٨)، وقال إسلام منصور: ضعيف من أجل أسباط بن نصر، يكتب حديثه.

(٣) تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (١/ ٢٢٨)، وقال إسلام منصور: حسن.

الجواب: عطفت الواو الجملة على الجملة، وتبصرنا هذه الواو بأن المنافقين يلتقون بالمؤمنين.. يُسمِعونهم الكلام الذي يروق لهم ﴿ءَامَنَّا﴾.. يستغلون طيبتهم، وصدقهم، ينقلب المؤمنون بعد ذلك لتجد فريقًا منهم يدافع عن المنافقين لأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ حتى بعد كلِّ الإفساد الذي يقترفونه في الأرض، والذي قال الله ﷻ عنه قبل قليل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

على الرغم من هذا الكشف لهم إلا أنهم يصرِّون على أن يقولوا: آمنا، فيحتار الناس فيهم: أفعال مفسدة يقترن بها قول جميل!

ثم تأتي الواو في قوله ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ لتبصرك بأن لقاءهم بالقوى الشيطانية الظاهرة والخفية ليس دائمًا، لكنهم ما إن يلتقوا بهم حتى يسارعوا إلى تبرير مواقفهم مع المؤمنين.. إن هؤلاء الأتباع الأذلة يحرصون على أن يؤكدوا لشياطينهم أنهم معهم وأنهم يستهزئون بالمؤمنين.

وهكذا يتوطد التحالف بينهم وبين شياطينهم على إشاعة الفتنة والفساد في الأرض، وتدمير كلِّ شيء صالح جميل، وتشويه الحقِّ وأهله، واللهو بأكل أموال الناس بالباطل، فكلمة ﴿شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ تشير إلى تآمرهم مع رؤوس الفساد والإجرام داخلاً وخارجًا، ولذا أتى بلفظة (شياطين) دون لفظة (فاسقين) مثلاً.

وما إن يلتقوا بشياطينهم حتى يقدِّموا تقاريرهم حول لقاءاتهم بالمؤمنين، ويؤكِّدون ولاءهم لهذه القيادات الشيطانية المفسدة، فيقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ثم يقولون مبيِّنين تفاصيل ظهورهم مع المؤمنين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾: أي لا تظنوا الذي قلناه للمؤمنين كلامًا صادقًا، بل نحن نؤكِّد لكم أننا معكم، إنما نستهزئ بالمؤمنين ونخادعهم بأن نصرف

لهم معسول الكلام الذي يحبونه، ويرغبون في سماعه. ولكن من أين أفدنا هذه اللغة التأكيدية من قبل عامة المنافقين لشياطينهم؟

لقد أفدنا ذلك من استخدام كلمة (إنَّ) التي تدلُّ على التوكيد.. انظر إليهم، وهم يكرِّرونها مرتين في قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا﴾.

ولعلك تسأل: كيف تصف لنا الآية مشاعرهم النفسية المختلة المريضة في لقاءاتهم المغلقة مع قياداتهم الشيطانية؟

أجيبك بما يدهشك ويجعلك تتعجب من دِقَّة وصف الآية لمشاعرهم النفسية، فتأمَّل ذلك لتجد أنهم اعتادوا أن يُظهِروا الحلف والأيمان المؤكدة بأنهم آمنوا عند لقاء المؤمنين كما أخبر الله ﷻ عن فئةٍ منهم قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، لكنهم هنا لم يؤكِّدوا كلامهم عند لقاء المؤمنين، بل قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ مع احتياجهم لتأكيد كلامهم أمام المؤمنين، ويحدث العكس عندما يلتقون بقياداتهم الشيطانية، حيث يؤكِّدون لهم أنهم معهم، فيقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] مع أنهم لا يحتاجون للتأكيد.

ألا تتعجب! لماذا جاء نظم الكلام عَلَى خِلَافِ المتوقع، أو كما يقول علماء البلاغة على خلاف مُقْتَضَى الظَّاهِرِ؟ بدليل أننا رأيناهم يؤكِّدون من قبل للمؤمنين وغيرهم أنهم هم المصلحون عندما قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؟

الجواب: يظهر لي أنهم لم يؤكِّدوا للمؤمنين هنا؛ لأنهم لا يريدون أن يتطرق الشكّ إلى أقوالهم بكثرة حَلِفِهم وتأكيدهم، فهم قد حلفوا لرسول الله ﷺ، أما المؤمنون، فيكفي أن يخبروهم أنهم آمنوا، وكثرة التأكيد تعكس الشكَّ السابق فيهم، أما عندما يتلقون قياداتهم الشيطانية فإنهم لا بد أن يستمروا في التأكيد أن انتماءهم لمجتمع الإسلام ليس إلا استهزاء بالمؤمنين، ويظلون يخافون من أن تشك قيادتهم الشيطانية من أنهم تأثروا بالإسلام؛ لقوته

المدهشة التي يملكها في التأثير، ولذا يؤكدون كلامهم لقيادتهم بالمؤكدات المختلفة مثل: إن والجملة الاسمية.

وفوق ذلك وإضافه لما هنالك يمكن أن نلمح من "لفظ (آمنا) بلا تأكيد مع اقتضاء المقام إياه، وبإيراده جملة فعلية، إشارة الى أن ليس في قلوبهم مُشَوِّقٌ وعشق محرك ليتشددوا ويتجلدوا في كلامهم"[١]، وأنى لهم التجلد والتماسك وكلامهم لايعدو أن يكون مجرد دعوى باللسان لا تسعفها حرارة الإيمان، ووهج الوجدان!.

وهذا التآمر الظلامي ينفخ في نفسيات المنافقين المريضة، فيحسبون اللؤم قوة، والخداع المجرم فنًا ونجاحًا، والمكر السيئ براعة، وحقيقة ذلك الضعف والخسة، والوضاعة.

وقد تتساءل فتقول: ما معنى كلمة ﴿خَلَوۡاْ﴾؟ ولماذا جاءت في هذا الموضع مع أنه كان يمكن القول: وإذا التقوا؟

والجواب: أن الفعل (خلا) كلمة تدل على تَعَرِّي شيْءٍ مِنَ شيْءٍ مع بقائه متماسكًا، فيُقَالُ: الخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناء ومساكن وغيرهما، وهُوَ خِلْوٌ مِنْ كَذَا، إِذَا لم يكن معه، وَخَلَتِ الدَّارُ تَخْلُو: ذهب أهلها وَالْخَلِيُّ: الْخَالِي مِنَ الْغَمِّ، وَامْرَأَةٌ خَلِيَّةٌ: كِنَايَةٌ عَنِ الطَّلَاقِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا طُلِّقَتْ فَقَدْ خَلَتْ عَنْ بَعْلِهَا، وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ: التي مضى أهلها الذين كانوا يعمرونها ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ [البقرة: ١٤١]، ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤][٢].

وقوله: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف: ٩]، أي: يكون فارغًا من أن ينظر إلى غيركم.

---

(١) إشارات الإعجاز (ص: ١٠٧).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٤).

فكلمة ﴿خَلَوْاْ﴾ تدل على وجود الطرفين: المنافقين وقياداتهم الشيطانية مع تعريهم وتحررهم من مراقبة الآخرين، ومن الرقابة الإعلامية، وينبئك الجو العام للآية بلقاءاتهم السرية الخفية.

فإن قلت: كيف يبصرنا الحرف ﴿إِلَىٰ﴾ مع كلمة ﴿خَلَوْاْ﴾ في قوله ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ بخبث تحركاتهم وقوة ولائهم لقياداتهم الشيطانية العلنية والخفية؟

ويأتيك الجواب لتشعر بجمال البيان القرآني الذي ينقل لك واقع تحركات العالم كأنك تراها حتى لو كانت في عالم القوى الخفية السرية، وهنا تصوِّر لك كلمة ﴿إلى﴾ تحركاتهم المجرمة المتآمرة، فيقول الله ﷻ: ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾، فاستعمل الحرف (إلى) دون (الباء) مع فعل (خلا) ليضمِّنه معنى آبَ إلى، واشتاق إلى، وأسرع وسكن إلى..

إنه يخبرك أنهم بعد لقاءاتهم بالمؤمنين، وذكرهم للكلام الذي يرضي العامة يسارعون ليخلوا بقياداتهم.

ويذكر الطبري ؒ المعاني التي قالها أهل العلم في هذا التركيب ﴿خلا إلى﴾، مبتدئًا مناقشته بقوله: فكيف قيل: ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾، ولم يقل خَلَوْا بشياطينهم؟

ثم يرجح أن يكون المعنى: وإذا لَقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا صَرفوا خَلاءهم إلى شياطينهم، ولماذا يرجِّح هذا المعنى؟ لقاعدة عظيمة وضعها، حيث ذكر أن: "لكلِّ حرف من حُرُوف المعاني وجهًا هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها، ولِـ"إلى" في كلِّ موضع دخلت من الكلام حُكْمٌ، وغيرُ جائز سلبُها معانِيَها في أماكنها"(١).

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٩٩).

ولكنك ترى في كلمة ﴿إلى﴾ هنا ما هو أوسع من الانصراف.. (وحروف المعاني)، أو حروف الجر تمنحك معاني قوية جديدة، فكل منها له المعنى الخاصّ به.

إنك ترى في قول الله ﷻ ﴿خَلَوۡاْ إِلَىٰ﴾ المنافقين ينصرفون إلى قياداتهم الشيطانية، ويبادرون إليهم، ويسارعون إليهم مشتاقين..

كما أنَّ ﴿خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ تنادي بضعفهم ومهانتهم؛ فهم لاجئون ضعفاء مرتمون عند أقدام أسيادهم من الشياطين، وتالله ما هذا بالغريب على النفاق وأهله، وهل النفاق إلا الضَّعَة والتسفُّل والتذلُّل، فهل رأيت كشفًا لدخائل بواطنهم، وتوصيفًا دقيقًا لتركيبهم النفسي كهذا الذي تكتنزه لفظة ﴿خلوا﴾؟

تصف لك بدقة اللقاء السري الذي لا يكون فيه معهم من لا يرغبون بحضوره أو سماعه لما يدور بينهم.

و(خلا) يصلح أن تتعدى بالباء في مثل هذا الموضع، ولكننا رأيناها تعدت بـ﴿إلى﴾، وسبب ذلك أن الله ﷻ يبصِّرك بأفكار أخرى يرغب بها المنافقون، وعواطف أخرى تجتمع في نفوسهم:

إنه يخبرك بأنهم يريدون أن يعقدوا لقاءاتهم السرية مع قياداتهم الشيطانية بعيدًا عن الضجيج والأضواء والإعلام والإعلان، وينبئك أنهم يذهبون للقاء قياداتهم الشياطنية بشوق، وسرعة، ومبادرة!

تصوَّرْ ذلك:

إن أَحِبَّاءهم من تلك القيادات الشيطانية ربما لا يشتاقون لهم، لكن كلمة ﴿خَلَوۡاْ إِلَىٰ﴾ تبيِّن لك أن هؤلاء المنافقين العبيد لشياطينهم يشتاقون لهم.

إن قياداتهم ربما لا يبادورن لاقتراح اللقاءات، والتفكير بالأعمال المشتركة، لكن المنافقين يشتاقون لذلك كله، ولذا يهيمون في وصف مبادراتهم التي ينصرون فيها الإفساد.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ تصف لك حركة المنافقين المسارعة المبادرة المخلصة المشتاقة لعقد اللقاء السري مع قيادات الفساد الشيطانية من الجن والإنس.

بصيرة: يصوِّر لنا قول المتآمرين من المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أن عادة المنافقين الاستهزاء بالإيمان، وبالمؤمنين: بأفكارهم.. بحياتهم.. ويستهزئون بسائر المجتمعات الإنسانية.

وهنا يمكن أن تسأل: ماذا تصوِّر لنا مقولتهم لأصحابهم وقياداتهم الشيطانية: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؟ ولماذا لم يحدِّدوا بمن كان استهزاؤهم، فلم يقولوا: إنما نحن نستهزئ بالمؤمنين؟

وإليك الجواب: فكلمة ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تختصر لك تصوير تحركاتهم الغادرة التي تصحبها الحركات الساخرة، فهذه الكلمة ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ مشتقة من هَزَأَ منه، وبه، كمَنَع وسَمِع، هَزءًا هُزْءًا وهُزُؤًا ومَهْزُأَةً: سَخِرَ بحركة سريعة قوية في معناها ومبناها، ومن ذلك قولهم: نَاقَتُهُ تَهْزَأُ بِهِ أَيْ تُسْرِعُ، **فالهُزء كلام ساخر في خفية وسرعة وقدرة على إظهار الاستخفاف بالآخرين،** وقولهم: ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي طالبون للهُزء بالخير والخيِّرين والإيمان والمؤمنين.. **وكيف يستهزئون بالمؤمنين؟**

لم يخبرنا الله ﷻ بأنواع استهزائهم ليفتح لك باب التصوُّر بأنهم يستهزئون بالمؤمنين بالأنواع المختلفة من الاستهزاء، ومنها: أن يقولوا كلامًا ظاهره الموافقة للمؤمنين، وباطنه فعل ما يكرهونه، فيُعَرِّضون المؤمنين لأن يكونوا مهزأة للآخرين فيضحكون منهم[1].

ولعل روعة النظم القرآني تستهويك، فتسأل: كيف تُظهِر الآية قوتها في وصفها لاستهزاء هؤلاء المجرمين عندما يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؟

وإليك الجواب ملخصًا فيما يأتي:

أما أولًا: فتبيِّن لك بصائر الآية أن هذه القوى المنافقة الخبيثة تفتخر باستهزائها بالمؤمنين.

وأما ثانيًا: فقد أطلقت الآية الاستهزاء الصادر منهم، فلم يقل الله ﷻ عنهم: (إنما نحن مستهزئون بالمؤمنين)؛ لأن الآية تبصِّرك أنهم يستهزئون بكلِّ شيء عند الآخرين، فهم يستهزئون بالإيمان.. يستهزئون بالمؤمنين.. يسهزئون بحياة المؤمنين.. يستهزئون بأفكار المؤمنين، بل يستهزئون بالعالمين.

وأما ثالثًا: فترى حصر هؤلاء المنافقين لحياتهم في الاستهزاء، فلم يقولوا لشياطينهم: (إنا معكم، واستهزأنا بالمؤمنين سابقًا) مثلًا، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، فجاءت ﴿إنما﴾ لتدلَّ على الحصر، ثم حصروا ذواتهم في الاستهزاء على سبيل الحصر الادّعائي ليؤكِّدوا لشياطينهم أن كلَّ قول قالوه، وأن كلَّ فعل صدر منهم مع المؤمنين فإنما هو استهزاء ولو كان بناء مسجد أو تصدُّقًا على فقراء؛ لأن ذلك جزءٌ من الاستهزاء..

---

(١) ووجدت فضيلة الدكتور/ محمد حسن جبل ﷫ لم يسر على منهجه في استيفاء هذه المفردة حقها. ينظر: المعجم الاشتقاقي (٤/ ٢٣٠٣).

بصائر القرآن تخبر عما يجري في الخفاء بين المنافقين والقوى الشيطانية:

تصوِّر لك أنوار هذه الآية نوع الحديث الذي يبثه المنافقون للنشطاء الصرحاء في الشرِّ من القيادات وغيرهم.. يخبرونهم كيف يمكنهم أن يخدعوا علماء المسلمين.. كيف يتلاعبون بعامَّة المؤمنين.. كيف يسخرون من المثقفين والإعلاميين، والأطباء والمزارعين والجنود.. تصوِّرهم الآية أمامك وهم يخبرون قياداتهم كيف يفتعلون حوادث تمسُّ الأمن لأجل أن يضحكوا على المسلمين فيسرقون ثرواتهم، ويتلاعبون بأقواتهم، ويقنعونهم ألَّا سبيل أمامهم إلا من خلال الموافقة على المشاريع الشيطانية التي يطلبها الشياطين الدوليون.. تصوِّر الآية كيف يُضحِكُ المنافقون قياداتِهم من خلال إخبارهم عن تلاعبهم بقضايا النساء والأطفال والدول المستضعفة؛ لأجل أن يُشِيعوا الانحلال، والاقتناع بأن أفضل مَنْ يمكن أن يرحمهم ويحنو عليهم: المنافقون، وقياداتهم الشيطانية الدولية.

وقد بدأ المنافقون حربهم هذه على أصحاب النبي ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ سَاخِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ(١).

واستهزاؤهم يزداد أُوَارًا وقوة ضدَّ المؤمنين مع تقادم الزمان.

وأنت ـ أيدك الله ـ لو تأملت لوجدت أنهم خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية "آمنا" وخاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكَّدة بـ"إنّ" ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأنهم في مخاطبتهم إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر، أما الذي خاطبوا به المؤمنين؛ فإنهم قالوه تكلُّفًا وإظهارًا للإيمان خوفًا ومداجاة، ومن المقرَّر أنه يعدل عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لِمَا في الثانية من الدِّلالة على الثبات والاستمرار والمبالغة في تقرير المعنى وتأكيده.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠٠).

ولعله يجذبك جمال التعبير القرآني، وتدهشك روعة البيان الإلهي، فتسأل: ماذا يفيدنا تصوير الآية للقاء المنافقين بالمؤمنين في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟ وما الفرق بين هذا التصوير والتصوير الذي قدَّمته لنا الآية في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]؟

بداية يمكنك أن تلمس من خلال الآية مجدَّدًا أن المؤمنين لم يكونوا في ناحيةٍ معتزلين لا يخالطون هؤلاء المجرمين، بل إنَّ الآياتِ ترشدك إلى أن المؤمنين يخالطونهم ويتحدثون معهم، ولكن ينبغي أن تكون المخالطة حَذِرة، فيقول الله ﷻ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فَهُم يلتقون بهم..

ثم إن إجرام القوى المنافقة لا يبرر مقاطعة المؤمنين لهم، بل يجب أن نقدِّر ما تقتضيه المصلحة العامة فنعمل به، ولكن الشرط واضح في هذه المخالطة، وهو أن تكون التربية القرآنية الإيمانية راسخة، وأن يكون الاعتزاز بالانتماء الإسلامي قائمًا، وأن يكون الحذر من مكرهم حاضرًا.. فمكرهم لا يهدأ ولا يفتر.

وبعد تأكيد ما سبق أخبرك عن الفرق بين قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٤]، وذلك أن الآية الأولى تصوِّر أن الصالحين وغيرهم ربما أتوا المنافقين، وربما جاءهم المنافقون، وربما تقابلوا معهم قَدَرًا فيستغلَّ المؤمنون الفرصة ويحاولون عند ذلك إصلاحهم، أو تغييرهم، أو التخفيف من شرِّهم، وأما الآية الثانية فتصوِّر لنا أن المنافقين هم الذين يبادرون إلى إظهار الموافقة على ما يحب المؤمنون سماعه عند اللقاء بهم، فيقولون: آمنا.

والآن تأمل مُجَدَّدًا: عندما يلتقي المنافقون بالمؤمنين يقولون: ﴿آمنا﴾، ولكن المنافقين عندما يختلون بنشطائهم الشيطانيين يقولون: ﴿إنا معكم﴾، فلماذا لم يقولوا لهم: إنا لم نؤمن، أو إنا كذبنا على المؤمنين في زعم الإيمان؟

الجواب: هذا الوصف القرآني لهم يصوِّر لنا أنهم يخبرونهم أن كلامَهم على الإيمان مع المؤمنين مجرد استهزاء ولعب، وأن المنافقين مع قياداتهم الشيطانية في القول والفعل والاعتقاد وفَهْمِ الحياة والتحالف ضد المؤمنين.

الصفة السادسة عشرة: تزداد قوة المنافقين فيما يحبون، وتظهر انتصاراتهم في معارك الحياة المؤقتة على طول الزمان، وتفتح لهم خيرات الدنيا، ويصرون على استعمالها في الطغيان العامِه:

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

المناسبة والاتصال:

بعد أن بصَّرنا الله ﷻ ببعض ما يقولون في لقاءاتهم الخفية، ومؤامراتهم في الزوايا المظلمة، والاجتماعات المغلقة، وأنهم يستهزئون بالمؤمنين، ويسخرون من دينهم، ومن حياتهم، ومن تفكيرهم.. كأن سائلًا قالَ: فماذا يكون جزاء هؤلاء المجرمين؟ فأجابه الله بِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

ولكن ما معنى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ مع أنه لا يصح لنا أن نصف الله بالاستهزاء -تعالى شأنه- فالاستهزاء مذموم؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة ٦٧]؟ فما معنى أن الله يستهزئ بهم؟

الجواب: أن هذه الآية وردت في سياق الكلام عن الدفاع العظيم الذي ينصر الله ﷻ به عباده الأبرياء حينما تتآمر عليهم القوى المنافقة مع شياطينهم، وهم حين يتآمرون يظهرون استهزاءهم بالأبرياء والضعفاء.. هنا نرى الله يدافع عن الأبرياء، فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾،

وذكر الطبري رحمه الله في معنى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ خمسة أقوال[1]، ودعني أحاول الجمع بين ما يمكن من هذه الأقوال، وأحاول أن أجعلك تستمتع بهذه الجملة العربية المبينة موضعًا بما أحرره مما بدا لي، فهذه البينة القرآنية ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ تنبئنا عن حقائق:

الحقيقة الأولى: يدافع الله عز وجل عن الأبرياء بأن يستهزئ بالأقوياء الجبابرة، فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وذلك بأن يظهر لهم ما يحبون، ويخفي عنهم ما يكرهون، وهذا أسلوب من الاستهزاء في أصله ومبتدئه قد يكون ممدوحًا، وقد يكون مذمومًا:

فيكون ممدوحًا عند الله وعند الخلق إذا كان في جانب الدفاع عن الأبرياء والمظلومين؛ لأن حقيقته الاستهزاء بالظالمين، وكف ظلمهم.

ويكون مذمومًا عند الله وعند الخلق إذا كان قد صدر عن الجبابرة الظالمين المتغطرسين، فيدلُّ على خِسَّةِ صاحبه.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠١)، ونقلها الرازي رحمه الله بطريقته دون أن يعزوها، وحاول ابن كثير رحمه الله نقل الراجح عند الطبري رحمه الله، ويظهر لي أنه لم يحرر قوله جيدًا، وبعض الأقوال الخمسة يمكن أن يدخل في بعض، وبعد أن نقلها الطبري رحمه الله بيَّن الراجح عنده فيما تراه أعلاه، ولكنه كرَّ على القول الخامس ففنده وناقش القائلين به بشِدَّة، وشعر بأنه يترتب عليه أمر أخطر من نفي معاني الآيات، فقال: "وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره: الله يَسْتَهْزِئ بِهِمْ"، إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكرٌ ولا خديعة، فنافُون على الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه، وأوجبه لها. وسواءٌ قال قائل: لم يكن من الله جل ذكره استهزاء، ولا مكر، ولا خديعة، ولا سخريةٌ بمن أخبر أنه يستهزئ ويسخر ويمكر به، أو قال: لم يخسف الله بمن أخبر أنه خَسَف به من الأمم، ولم يُغرق من أخبر أنه أغرقه منهم"، ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكرَ بقوم مضَوْا قبلنا لم نَرَهُم، وأخبر عن آخرين أنه خَسَف بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدَّقْنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نُفَرِّق بين شيء منه. فما بُرهانُك على تفريقك ما فَرَّقت بينه، بزعمك: أنه قد أغرقَ وخَسف بمن أخبر أنه أغرق وخسف به، ولم يمكُرْ بمن أخبر أنه قد مكر به؟

ولقد ناقش الطبري رحمه الله هنا مناقشة حارة جديرة بأن ترجع إليها، وإن كان عندي بعض تدقيق فيما قاله رحمه الله لكنه أصاب؛ إذ جواب من قال بأن المعنى هو الجزاء لا يكون واضحًا في تفصيل جمال استعمال كل كلمة قرآنية على حدة.

وهذه الحقيقة استظهرها ابن جرير الطبري رحمه الله فرأى أن الاستهزاء في كلام العرب: إظهارُ المستهزِئ للمستهزَأ به من القول والفعل ما يُرضيه ظاهرًا، ولكنه سيسوؤه باطنًا في نهاية الأمر، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر. فمعنى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: أي يظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلافَ الذي لهم عنده في الآخرة، كما أظهروا للنبي ﷺ والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم، فيمنحهم الله عز وجل في الدنيا أحكام المسلمين حتى يظنُّوا في الآخرة إذْ حشروا في عِداد من كانوا في عِدادهم في الدنيا، أنَّهم وارِدُون موْرِدَهم، وداخلون مدخلهم، لكن الله جل جلاله يفاجئهم بالتفريق بينهم وبين المسلمين الذين كانوا يتظاهرون أنهم منهم، فيقول لهم الله عز وجل ذلك اليوم: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

يظنون أنهم مع المؤمنين، فإذا بهم يُفاجَؤُون أن الله عز وجل أعد لهم من أليم عقابه ونكال عذابه، ما أعدَّ منه لأعدى أعدائه وشرِّ عباده، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل، ثم اعتضد الطبري رحمه الله في ترجيحه لهذا القول بما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يَسْخَرُ بهم للنِّقمة منهم(١).

الحقيقة الثانية: حقيقة الجزاء النابع من مدح العدوِّ الظالم المتآمر للاستهزاء:

فالمنافقون يمدحون استهزاءهم بالأبرياء والصلحاء، ويعدُّون ذلك مَزِيَّة لهم أنهم يستهزئون.. أَمَا وهم يظنون ذلك، فالله تعالى يجازيهم بظَنِّهم وفعلهم، فيستهزئ بهم.. وكيف يستهزئ بهم هنا؟

بما يحدث من الخسارة في المعركة الأخيرة لهم ضدَّ الإيمان والخير في الأرض؛ إذ تراهم يحشدون كلَّ طاقاتهم ضدَّ الأبرياء والصلحاء، ويجتمعون، فيضحكون على أهل الأرض؛

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠٤).

لأنهم يعتقدون أنهم يلعبون بمن شاؤوا، ولكنهم سيفاجَؤون بأن التدمير سيكون نصيب كل تلك الجهود الجبارة في محو الإيمان من الأرض.

وتسمية هذه النتيجة بالاستهزاء جاءت على **سبيل المُشَاكلة** على نحوٍ ما، كأنه يقول لهم: إن كنتم تعدُّون أن الاستهزاء يدلُّ على قوَّتكم، فالله ﷻ يستهزئ بكم بأن يملي لكم ثم يحبط أعمالكم في الدنيا، ويجازيكم على إجرامكم في الآخرة، فهو صاحب القوَّة العليا، فيكون الاستهزاء هنا تَمْثِيلًا -كما يقرِّر الطاهر بن عاشور رحمه الله (١)- لِمُعامَلَةِ اللهِ إيَّاهم في مُقابَلَةِ اسْتِهْزائِهِمْ بِالمُؤْمِنِينَ، بِما يُشْبِهُ فِعْلَ المُسْتَهْزِئِ بِهِمْ، وذَلِكَ بِالإمْلاءِ لَهم حَتّى يَظُنُّوا أنَّهم سَلِمُوا مِنَ المُؤاخَذَةِ عَلى اسْتِهْزائِهِمْ، فَيَظُنُّوا أنَّ اللهَ ﷻ راضٍ عَنْهم، أوْ أنَّ أصْنامَهم نَفَعُوهم، أو أنه لا يوجد إله يأخذ العدل للمظلومين، فيُفَاجَؤُون بما لم يكونوا له يحتسبون.

هنا نخاطبهم، فنقول لهم: سيأتي وقتٌ تظنون أنكم تمكَّنتم فيه، فمهما ظهر انتصاركم على المؤمنين، فهو مجرد وَهْمٍ أو سراب، فيالَغفلتهم.. إنهم ينسون أن معركتهم مع رب العالمين، "وما أبأس من يستهزىء به جبار السموات والأرض وما أشقاه!! وإن الخيال ليمتد إلى مشهد مفزع رعيب، وإلى مصير تقشعر مِنْ هَوْلِهِ القلوب، وهو يقرأ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.. فيدعهم يخبطون على غير هدى في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخِّ، غافلة عن المَقْبِض المكين.. وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير"(٢).

فالله ﷻ الذي يتولى الدفاع عن القوى المؤمنة الصالحة البريئة.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٤).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٤٥).

وهذا يعني أنه يجب على الأبرياء والضعفاء الصبر والثبات حتى يأتي الله جلَّ مجده بأمره، كما كان الله ﷻ يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وهذا المعنى هو أشهر ما ذهب إليه بعض علمائنا رحمهم الله في معنى الاستهزاء الوارد هنا، فيقرِّر ابن كثير رحمه الله أن الْمَكْر وَالْخِدَاع وَالسُّخْرِيَة عَلَى وَجْهِ اللَّعِب وَالْعَبَثِ مُنْتَفٍ عَنِ اللهِ ﷻ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الِانْتِقَامِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعَدْلِ وَالْمُجَازَاةِ فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ، بل إنك ترى مدح ذلك في واقع البشر(١).

وهذا قريب مما قرَّره علماؤنا رحمهم الله في معاني هذه الكلمات، فقالوا: هذا الأسلوب يعني المجازاة على الفعل بما يشاكله في اللفظ، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢]، وقوله: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة:٧٩]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٧].. جاءت على سبيل المجازاة مشاكلة لما يظنونه قوة عندهم.

ويكمل الطبري رحمه الله الحديث موضِّحًا هذا الرأي، فيقول: "فأخرج خَبَرَه عن جزائه إيَّاهم وعقابه لهم، مُخْرَج خَبَرِه عن فعلهم الذي عليه استحقُّوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان"(٢)، ومن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى:٤٠]، كأن يقتل إنسانٌ إنسانًا عمدًا فيجب الاقتصاص منه، فالأولى من صاحبها القاتل سيئة، والأخرى التي هي الاقتصاص عَدلٌ، لأنها من الله ﷻ جزاء للعاصي على المعصية، فهما -وإن اتفق لفظاهما- مختلفا المعنى. وكذلك قوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠٢).

ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، قال ابن قتيبة ﵀: «فالعدوان الأول: ظلم، والثاني: جزاء، والجزاء لا يكون ظلمًا، وإن كان لفظه كلفظ الأول»(١) بل هو عدل، لأنه عقوبة للظالم على ظلمه.

واستهزاء الله تعالى بهم يعني أنه سيهلكهم ويدمِّرهم، كما قال عَبِيد بن الأبرص(٢):

سَـــائِلْ بِنَـا حُـجْـرَ ابْـنَ أُمِّ قَـطَـامِ   ظَلَّـتْ بِـهِ السُّــمْرُ النَّـوَاهِـلُ تَـلْـعَـبُ

وحُجْرٌ هو ملك كندة أبو امرئ القيس، وكانت قتلته بنو أسد رهط عبيد بن الأبرص، والنواهل جمع ناهل وناهلة: والناهل: العطشان، توصف به الرِّماح، كأنها تعطش إلى الدم، فإذا شرعت في الدم رُويت، فزعموا أن السُّمر -وهي القَنَا- لا لَعِب منها، ولكنها لما قتلتْهم وشرَّدتهم، جَعل ذلك مِنْ فعلها لَعِبًا بمن فعلت ذلك به. قالوا: فكذلك اسْتهزاءُ الله جل ثناؤه بمن اسْتهزأ به من أهل النفاق والكفر به: بأن يملي لهم ثم يهلكهم، ويحبط جهودهم.

وهذا رأي وجيه، ولكنه لا يجيب عن الإشكال؛ فلم يخبرنا: لماذا استخدم البيان القرآني هذه الألفاظ دون أن يقول الله ﷻ مثلًا: الله يجازيهم على استهزائهم؟!

الحقيقة الثالثة: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾: **أي يطلب أن يهزأ بهم الآخرون**، فلم يقل: (يهزأ بهم)، والسين والتاء للطلب، بأن يتركهم على حياة ظاهرها الموافقة لهم، وباطنها الإعداد لما يكرهونه مما يبطل أعمالهم، فيعرضهم لأن يكونوا مهزأة للآخرين بأن يضحكوا منهم؛ إذ ستصير أعمالهم إلى اضمحلال، فلن يعاقبهم الله ﷻ على الفور، بل سيتركهم مع أنه أعدَّ لهم في عالم الغيب ما يكرهونه، فيزدادون غرورًا، ويزدادون عمى، والنتيجة أن يُنزل الله ﷻ الهوان والذل بهم؛ لأنّ المستهزئ يهدف إلى أن يظهر الآخرين بمظهر الهوان والحقارة عليه،

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:١٧١).

(٢) البيت في ديوانه، شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (ص:٣٢).

قال الزمخشري رحمه الله: "وقد كَثُرَ التهكُّم في كلام الله تعالى بالكفرة. والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون"(١).

ولربما كان في ذلك إلفاتٌ للمؤمنين أن يكون بعض من خطابهم الدعوي والإعلامي موجَّهًا متقصِّدًا للحطِّ من القوى النفاقية وشياطينها، بل ربما مسَّتِ الحاجة لتفرُّغ فريق من المؤمنين وانبرائهم للوقيعة والسخرية والاستهزاء إنهاكًا للقوى النفاقية، ولنا في صنيع حسان رضي الله عنه وثلة المنبر الشعري في العهد النبوي أسوة وسبق قدوة.

وهكذا ظهر المعنى بصورة باهرة دون حاجة لتكلف، فقد قص الله علينا أن المؤمنين يسخرون من المجرمين سواء أكانوا منافقين أم كانوا غيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المُطَفِّفِين: ٣٠-٣٤].

ترى المعنى الآن أكثر وضوحًا، ينطلق من أصل الاستعمال العربي يوضِّح لك المسألة دون كبير عناء، ومن الاستهزاء الإلهي بهم: أن يتركهم يحققون الانتصارات الوهمية التي يظنون فيها أنهم غلبوا العالم، ثم يزدادون غيًّا فيظنون أنهم يعجزون الله -تعالى وتقدَّس-، ثم يحطم الله جل جلاله أعمالهم وآمالهم، وقد فصَّل الله جل جلاله ذلك، فقال: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ويظهر أن هذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما والحسن رحمه الله فيما نقله ابن عطية رحمه الله(٢)، ثم وجدت الطاهر بن عاشور رحمه الله يجوِّز هذا المعنى، ويقول: "ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾

(١) الكشاف (١/ ٦٧).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (١/ ٩٧).

حَقِيقَةً يَوْمَ القِيامَةِ بِأنْ يَأْمُرَ بِالِاسْتِهْزاءِ بِهِمْ في المَوْقِفِ وهو نَوْعٌ مِنَ العِقابِ فَيَكُونُ المُضارِعُ في يَسْتَهْزِئُ لِلِاسْتِقْبالِ... ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ مُرادًا بِهِ جَزاءُ اسْتِهْزائِهِمْ مِنَ العَذابِ، أوْ نَحْوِهِ مِنَ الإذْلالِ والتَّحْقِيرِ، والمَعْنى: (يُذِلُّهم) وعَبَّرَ عَنْهُ بِالِاسْتِهْزاءِ مَجازًا ومُشاكَلَةً، أوْ مُرادًا بِهِ مَآلُ الِاسْتِهْزاءِ مِن رُجُوعِ الوَبالِ عَلَيْهِمْ"[(١)].

وفي كل هذه المعاني ترى هذه البينة ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ تنبئك أن الله ﷻ يتولى الدفاع عن المؤمنين، فيبصرك قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنه في صف المؤمنين، فكيف يمكن أن يخدعوا.

ويبصرك قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أنه جل جلاله يعلم المؤمنين الردود القاصمة لأكاذيب أعدائهم، فلن يضروا المسلمين لو أبقوا أجهزة التحذير القرآنية قائمة في حياتهم، ولذا يكره المنافقون انتشار القرآن، ويسعون في تشويه حفظته.

وعندما تسمع هدايات هذه الآية ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ تشعر بكمال الطمأنينة، وجمال اليقين.. تشعر بربك وهو يدافع عنك أمام هؤلاء الجبابرة المتآمرين الظالمين.. ولا يفصلك عن موقف تضحك فيه إلا أن يأتي الله ﷻ بأمره إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، وعن حرام بن ملحان رضي الله عنه قال لقبائل من المشركين: أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغْ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ [فأَمَّنُوهُ]، فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ، وَأَوْمَؤُوا إِلَى رَجُلٍ، فَأَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ حَتَّى أَنْفَذَهُ بِالرُّمحِ، فقال رضي الله عنه لما

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٤).

طعنه الكافرون في ظهره طعنة غادرة قَالَ: بِالدَّمِ هَكَذَا، فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، ثُمَّ] قَالَ: "اللهُ أَكبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"(١).

ستقول: هل من أمثلة تقرب لنا ما قلت في معنى هذه البينة القرآنية: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؟

الجواب: تعال نمض في بيان المعنى الذي قرَّرته، فمن الصور الواقعية لاستهزاء الله ﷻ بمن استهزأ بالمؤمنين:

الصورة الأولى: قصة فرعون؛ إذ إن الله ﷻ أرسل له تسع آيات كبار مع موسى عليه السلام، وفي كلِّ مرَّة يزعم هو وقومه أنهم سيؤمنون إن كشف عنهم العذاب ثم ينكثون، وكانوا كما وصفهم الله ﷻ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف:٤٧]، ولما رأوا البحر انشقَّ مضوا في طغيانهم العَامِهِ، فاقتحموه آمنين، فبطل طغيانهم، فكيف كان عاقبة المنذرين؟ وتصوِّر: المؤمنين مع موسى عليه السلام في الجهة الأخرى قد أضحكهم الله ﷻ على فرعون وجنوده.

الثانية: ومن أشهر الوقائع التي توضِّح لك هذا المعنى ما يحدث في فتنة الدجال، فإن الله ﷻ يملي له، ويمكنه في الأرض تمكينًا، ويرى العالم مقدارَ هذا التمكين، ويرون كيف ينشئ الحضارات العظيمة التي تخضع له، وتأتمر بأمره، ويجدون الموارد قد توفرت بكثرة لمن يواليه ويَتَّبِعُهُ كأن لم تكن قط، ففي مسلم أن النبي ﷺ وصف التمكين الهائل الذي يحظى به الدَّجَّال، فقال: «فَعَاثَ يَمِينًا -أي في الأرض ولا يقف أمامه شيء- وَعَاثَ شِمَالاً -أي في الأرض ولا يقف أمامه شيء- ثم قال ﷺ: **يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**». قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِى الأَرْضِ؟ قَالَ: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِى عَلَى الْقَوْمِ، فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ، فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ،** -ثم يذكر النبي ﷺ الثروات الزراعية والحيوانية الهائلة التي تظهر لمن يتبعه ثم قال-: **ثُمَّ يَأْتِى الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ،**

---

(١) البخاري (٤٠٩١).

فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ»(١).

ولكن النهاية محتمة عندما يرى المسيح بن مريم عليه السلام.

الثالثة: ولعل مما يوضِّح ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خبر يأجوج ومأجوج، قال: «**فيُنَشِّفون المياهَ، ويتحَصَّنُ النّاسُ منهم في حُصونِهم، فيَرمون بسِهامِهم إلى السَّماءِ، فتَرجِعُ وعليها كهَيئةِ الدَّمِ، فيَقولون: قَهَرْنا أهلَ الأرضِ، وعلَوْنا أهلَ السَّماءِ**»، فيستهزئ الله بهم بأن «**يَبعَثُ اللهُ عليهم نَغَفًا -أي دودًا- في أقفائِهم فيَقتُلُهم بها**»(٢).

فربما رجعت أسلحتهم التي رموها إلى السماء بسبب اصطدامها بطير من نوع معيَّن، أو بمخلوقات لا نعلمها، أو لأمر يعلمه الله تعالى، فيتملك هؤلاء الطغيانُ العامه، وحينها يرسل الله عليهم أذل خلقه عندهم.. دود يأكلهم، فلا يستطيعون له دفعًا.

الرابعة: يظهر هذا الاستهزاء من خلال الإمهال والإمداد مع وجود المصائب المؤقتة النازلة في كل عامٍ، وهكذا كانت نكايات الله تعالى فيهم وبلاياه النازلة بهم ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتُّك أستار

---

(١) مسلم (٢٩٣٧).

(٢) أحمد (١٠٦٣٢)، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين، وسعيد بن أبي عروبة، رواية روح عنه قبل اختلاطه، ثم هو متابع"، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٢٧٦)، غير أن ابن كثير ذكر أن إسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة لمخالفته الآية، ورواه كعب رضي الله عنه بنحوه، ولعل أبا هريرة رضي الله عنه تلقاه منه فإنه كثيرًا ما كان يجالسه، فحدَّث به أبو هريرة رضي الله عنه فتوهَّم بعض الرواة أنه مرفوع فرفعه، ثم ذكر ما يؤكِّد ذلك رواية عند أحمد تؤكد ما قاله. تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١٩٨)، وقد رد الشيخ الألباني على ما ذكره ابن كثير فقال:" ولكن الآية لا تدل من قريب ولا من بعيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا، فالآية تتحدث عن الماضي، والحديث عن المستقبل الآتي، فلا تنافي ولا نكارة، بل الحديث يتمشى تمامًا مع القرآن في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣١٤).

وتكشُّف أسرار، ونزول في شأنهم واستشعار حذرًا من أن ينزل فيهم قرآن يكشفهم: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾، ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

فانظر إلى الأزمات الصحية والاقتصادية الطارئة عليهم، وانظر إلى تعرضهم للنكبات المفاجئة، والتمزق الاجتماعي، والكوارث الطبيعية المدمرة، وإن لم تكن عامة.. كل ذلك يستفاد من هذا الوضع المدهش للفعل المضارع ﴿يستهزئ﴾ في هذا المكان.

الخامسة: ومن ذلك ما نقله الطبري رحمه الله **من أن الله** عز وجل **أخبر عنهم** في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣-١٤].

فالآية تبصرك بهذه الحقيقة المرعبة لهذه القوى المحلية والعالمية الساخرة من المؤمنين، ويظهر لك هذا المعنى بقوة تصويرٍ تجعل قلبك يخفق ما ورد في الحديث- أن أمة الإسلام -أبرارها وفجارها- يؤمرون بالسجود يوم القيامة، قال ﷺ: «**فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ**»(١).

وهنا ينير الزمخشري رحمه الله**(٢) عقولنا بلفتةٍ بيانية مدهشة توضِّح طبيعة هذا الردِّ على المكر الخبيث؛ والمؤامرات المتتابعة، ونضع لفهم ذلك سؤالاً: كيف ابتدأ الله** عز وجل **الحديث بقوله:**

---

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣)، واللفظ له.

(٢) الكشاف (١/ ٦٧).

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ولم يعطف على الكلام قبله؟ فلم يقل: والله يستهزئ بهم، ولا: فالله يستهزئ بهم، بل بدأ الكلام دون حرف عطف.

ويجيب عن ذلك الزمخشري رحمه الله بما خلاصته: لَمْ تُعْطَفْ هاتِهِ الجُمْلَةُ عَلى ما قَبْلَها؛ لِأنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا، والاستئناف البياني يعني أن لهذه الجملة علاقةً بما قبلها، ولكن هذه العلاقة لا تتَّضح بحرف العطف وأمثاله من أدوات الربط، وإنما تتَّضح بسؤال يثيره الكلام السابق.

فهذا الاستئناف في غاية الجزالة والفخامة؛ لأنه جَوابٌ لِسُؤالٍ مُقَدَّرٍ، فالمتدبر للآية السابقة وعى أن المنافقين يتآمرون مع شياطينهم مؤامرة هائلة ضد المؤمنين، ويظلون يستهزئون بهم، فيتساءل:

وكيف يكون التعامل مع هذه المؤامرات المتتابعة التي تجري في الظلام؟ ومن يمكنه أن يردَّ على هذا التآمر القوي المستهزئ بالمؤمنين؟

فجاء قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ في غايَةِ الفَخامَةِ والجَزالَةِ، لأنه يوضح أن الله عز وجل يعلم ما يطرأ على ذهنك أيها التالي للقرآن من تساؤلات، ويجيبك على السؤال السابق، فيخبرك بأن الله جل مجده هو الذي يستهزئ بالمستهزئين المتآمرين الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته، وذلك لأنهم يظنون أن استهزاءهم يصدر عن قوة كبيرة لديهم.. لقد نسوا وما زالوا ينسون أن مصدر القوة الأعلى الله جل مجده وتعالى شأنه.

وهنا ينشأ عندك سؤال آخر: فلماذا أسند الله إليه الفعل جل جلاله ولم يسنده للمؤمنين، فلم يقل: المؤمنون يستهزئون بهم؟

الجواب: لأن الله ﷻ يرسل بيانًا لهم وللعالمين بأنه هو الذي يتولى تدبير شؤون المعركة ضدَّ المتآمرين انتقامًا للصالحين، فليطمئن المؤمنون، لكن هذا لا يعني ألا يقوموا بالأسباب اللازمة للإدارة الحذرة لهذه المعركة، وليطمئنوا بعد بذل الأسباب أن الله ﷻ هو الذي ينتصر للمؤمنين كَما قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ولا يُحْوِج الصالحين أن يعارضوهم باستهزاء مثله.

ولعلك ترى سببًا آخر هو أن الله ﷻ لم يسند الاستهزاء للمؤمنين كما لم يرضَ من عباده أن يتكبروا لئلا يظنوا الاستهزاء جائزًا على إطلاقه.

وتبقى درر الآية تنثال عليك: فلماذا قُدِّمَ اسْمُ اللهِ تَعالى عَلى الخَبَرِ الفِعْلِيِّ ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، ولَمْ يَقُلْ يَسْتَهْزِئُ اللهُ بِهِمْ؟

وأجيبك عن ذلك بما قرَّره الطاهر بن عاشور ؒ: من أن تَقْدِيم الـمُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى الخَبَرِ الفِعْلِيِّ هُنا لِإفادَةِ تَقَوِّي الحُكْمِ لا مَحالَةَ، ثُمَّ يُفِيدُ مَعَ ذَلِكَ قَصْرَ المُسْنَدِ عَلى الـمُسْنَدِ إلَيْهِ، فَإنَّهُ لَمّا كانَ تَقْدِيمُ الـمُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى الـمُسْنَدِ الفِعْلِيِّ في سِياقِ الإيجابِ أفاد ذلك تقوية الحكم، ويَأْتِي لِلْقَصْرِ عَلى رَأْيِ الشَّيْخِ عَبْدِ القاهِرِ[(١)] وصاحِبِ الكَشّافِ ؒ كَما صَرَّحَ بِهِ في قَوْلِهِ تَعالى ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المزمل: ٢٠] في سُورَةِ المُزَّمِّلِ[(٢)]، كانَ الجَمْعُ بَيْنَ قَصْدِ التَّقَوِّي وقَصْدِ التَّخْصِيصِ جائِزًا في مَقاصِدِ الكَلامِ البَلِيغِ، وقَدْ جَوَّزَهُ في (الكَشّافِ) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ [الجن: ١٣] في سُورَةِ الجِنِّ[(٣)]؛ لِأنَّ ما يُراعِيهِ البَلِيغُ مِنَ

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) ينظر: الكشاف (٤/ ٦٤٣).

(٣)ينظر: الكشاف (٤/ ٦٢٨).

الخُصُوصِيّاتِ، لا يَتْرُكُ حَمْلَ الكَلامِ البَلِيغِ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِأَبْلَغِ كَلامٍ، ولِذَلِكَ يُقالُ النُّكَتُ لا تَتَزاحَمُ[١].

وفائدة ذلك أن يبين الله ﷻ لك معيته بذكر اسمه أولًا، فتأنس نفسك، ويطمئن قلبك، ويذهب عنك ما تجد من أَلَمِ الغربة، وأدواء الكربة عندما ترى تقلب المستهزئين في البلاد كما قال الزبيري:

يا رافع السبع السموات الطباق العاليهْ ... يا ملجأ العبد المكبل في البلاد القاصيهْ
يا سامع الوَقْعَ الخفيَّ من الدموع الجاريهْ ... يا من يرى الكبد الممزق والجروحْ الداميهْ
يا جابر العظم المَهِيض من العِظام البالي ... ربَّاه إني لم أزل في محنة متواليهْ
إما غريبًا شاردًا أو مُوْثقًا في هاويهْ ... ربَّاه عبدك واقف لك في الليالي الداجيهْ
يدعوك بالنفس المبلبل والدموع الجاريهْ ... أنت الرحيم فليس إلا أنت تكشف ما بِيَهْ
أنت العليم فليس يخفى عنك مني خافيهْ ... ...

وقد تسأل أيضًا: لماذا قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، فجاء بالفعل، ولم يأت بالاسم، فلم يقل: (الله مستهزئ بهم) ليكون مطابقًا لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾؟

الجواب: لأن (يستهزئ) يفيد حدوثَ الاستهزاء وتجدُّدَهُ وقتًا بعد وقت.

فعبر عنهم بالجملة الاسمية: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ **ليكشف حقيقتهم، فاستهزاؤهم** دائم ثابت أفادته الجملة الاسمية فقد أَلِفُوه، واعتادوا عليه، وأصبح جزءًا من حياتهم التي يفتخرون بها.

أما أن الله ﷻ يستهزئ بهم فيرد ذلك على سبيل التجدد لا الديمومة -حسب هذا السياق.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٣).

بصيرة: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ تبصِّرنا بأن الله ﷻ من مدافعته عن المؤمنين واستهزائه بالمستهزئين يَمُدُّ القوى المتآمرة بما يزيدهم قوة وثراء، فيزدادون جُنوحًا في طغيانهم العَامِهِ إلى أن يأتي الوقت الذي يضحك منهم فيه المظلومون.

فإن قلت: لماذا المدد لهم وهم متآمرون مستهزئون؟

ويأتيك الجواب بما يوسع عندك الإدراك ويفتح لك الآفاق: لأن الله ﷻ يبني فيك النظرة المستقبلية.. انتبه! لأنك لو تشبعتَ بهذه النظرة المستقبلية لكان دربُك الدربَ الناجح.. فأنت ترى أن الناجحين هم الذين يتكلمون عما سيحقِّقونه بعد خمس سنوات مثلًا، ويضعون لذلك الخطة الخمسية.. ويتكلمون عما سيحقِّقون بعد عشر سنوات ويضعون لذلك الخطة العشرية.. ويزداد إعجابك عندما ترى لهم هذا التخطيط الدقيق سواء أكانوا أفرادًا أم كانوا جماعات، وسواء أكانوا أصدقاء أم أعداء.. ومن أهمِّ من وضع الخطة المستقبلية ممن حدثنا الله تعالى عنهم: إبليس الذي أعلن خطته المستقبلية لاجتياح البشر.

وهنا تجد الله جلَّ مجده يلفت نظرك إلى المستقبل، فمهما رأيت المتآمرين يزدادون طغيانًا وقوة وثراء فاعلم أن الذي يمدهم بذلك هو المحيط بهم.. إنه الله ﷻ.. هنا تشعر بقوة التعبير، وإحاطة التدبير عندما تسمع الله جلَّ مجده يقول للعالمين عن المتآمرين: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

ولاحظ أن الله ﷻ وصف طغيانهم بأنه عامه من خلال الفعل: يعمهون.. فهم ليسوا طغاة طغيانًا معتادًا.. بل طغيانهم عامه.. هذا يثير فيك أن تتعرف إلى هذه الكلمات الثلاث: يمدهم، طغيانهم، يعمهون.

تعال بنا إلى التعرف إليها لنتذوق المجد الذي تخبئه لنا هذه الكلمات العظيمة.

وهنا قد تتساءل: فما معنى كلمة ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ التي من (مدَّ)؟ كيف ظهر جمال هذه الكلمة القرآنية؟ ما الفرق بينها وبين (أمد)؟ وكيف أظهرت لنا كلٌّ منهما مصادر (الطغيان العَامِه)؟

ويأيتك الجواب بما يدهشك من جمال بلاغة القرآن: فيبين الله نوعًا خاصًا من الاستهزاء بهم في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

فعندما قال الله ﷻ عن القوى المتآمرة المستهزئة: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ربما تساءلت: ما أمثلة هذا الاستهزاء؟

فيأتيك الجواب: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وحتى يتضح لك الأمر:

فإنك إذا رأيت رجلًا قويًّا عظيم الجسد، كثير الأتباع وقام ضعيف لا يؤبه له بالسخرية منه، بل ذكر أمامه أنه يتآمر عليه، ويُعِدُّ العُدَّة ليغلبه، وذلك القوي لا يزيد على الابتسام.. ألا ترى أن هذا يوضِّح لك فارق القوة بين الطرفين، ويجعل ذلك الضعيف في موقف الغباء؟

ولله المثل الأعلى.

وحتى نصل إلى معرفة معنى هذه الجملة المباركة نقف أمام كلماتها الثلاث: يمدهم، طغيانهم، يعمهون.

أما ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ **فمعناها**: يزيدهم قوة وثراء حتى لا تبقى لهم حجةٌ، وبدلًا من أن يشعروا بالنعم التي أمدَّهم الله ﷻ بها اتخذوا هذا الإمداد فرصة للازدياد من أعمالهم الرديئة، ومؤامراتهم الخبيثة، فهذه الكلمة ﴿يَمُدُّ﴾ فِعْلٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الـمَدَدِ وهو الزِّيادَةُ، فيقال: مدَّ الأمير الجيشَ وأمدَّه إذا: زاده وألحق به ما يقوِّيه، ويُكثِّره زيادة مجانسة لما عنده سابقًا من جنود أو سلاح، ومن ذلك قوله تعَالَى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

ويظهر لي أن الفرق بين (مدَّ) و(أمدَّ) هو ما نقله الطبري ؒ عن بعض نحويي الكوفة:

أن (مدَّ) تدلُّ على زيادة للشيء من نفسه، كما تقول:"مدَّ النهرُ: أي زاد ماؤه، ومدَّه نهرٌ آخر غيره"، إذا اتصل به فصار منه، ومُدَّ لَهُ في عُمُرِهِ، ومَدَّ الأرْضَ: أيْ مَطَّطَها وأطالَها.

و(أمدَّ) تدل على كلِّ زيادة أُحدِثتْ في الشيء من غيره، كقولك:"أمدَّ الجرحُ"، أي ظهرت فيه المِدَّة التي هي قروح وصديد، لأن المِدَّة من غير الجرح، وأمددتُ الجيش بمَدَدٍ أي أرسلت له من يعينه ممن ليس منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣](١).

ورأى أبو علي الفارسي ﵀ أن أَمَدَّ المَهْمُوزُ يختصُّ بما يحمد ويستحب نَحْوُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور:٢٢]، ويجئ مددت لغير الخير(٢).

فقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي هم أثرياء.. سيزيدهم ثراء.. هم أقوياء سيزيدهم قوة.. ولكن ذلك كلَّه إلى أجل.

فإن قلت قد أدركنا معنى كلمة ﴿يمدهم﴾ فما الطغيان الوارد في قوله: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؟

أجيبك بأن الطغيان من: "طغى الرجل: طَغْيًا وطُغْيانًا -بالضم، وطَغْوَى- بالفتح، وهو ارتفاع الشيء باستغلاظ على ما حوله حتى يتجاوزهم فيغطيهم، ويبخسهم حقوقهم، ومنه:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) الحجة (٤/ ١٢٢)، وذكر الطاهر بن عاشور ﵀ أن الـمُعَدّى بِاللّامِ خاصٌّ بِالزِّيادَةِ في العُمُرِ والإمْهالِ فِيهِ عِنْدَ الزَّمَخْشَرِيِّ ﵀ وغَيْرِهِ – خِلافًا لِبَعْضِ اللُّغَوِيِّينَ – ولعل هذا فيه ذهول عن قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وأحيانًا تؤثر "الأمثلة على النّاظِرِينَ" كما يقرِّر الطاهر بن عاشور ﵀، فيقررون بها قاعدة لا تكون مطردة، وهي طَرِيقَةٌ لَهم في كَثِيرٍ مِنَ الأفْعالِ الَّتِي يَتَفَرَّعُ مَعْناها الوَضْعِيُّ إلى مَعانٍ جُزْئِيَّةٍ لَهُ أوْ مُقَيَّدَةٍ أوْ مَجازِيَّةٍ، أنْ يَخُصُّوا بَعْضَ لُغاتِهِ أوْ بَعْضَ أحْوالِهِ بِبَعْضِ تِلْكَ المَعانِي؛ جَرْيًا وراءَ التَّنْصِيصِ في الكَلامِ ودَفْعِ اللَّبْسِ بِقَدْرِ الإمْكانِ. انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٩٥).

الطَغْية -بالفتح، وهي المُستَصْعَبُ العالي أعلى الجَبَل، وكلُّ مكان مرتفع يقال له: طَغْوة، ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، فالماء طغى على البشر والشجر والحجر، فبَخَسها حقوقها، فلا بد من سبيل آخر للنجاة، فكانت الجارية التي هي السفينة، وطغَى الماءُ والبحرُ: ارتفعَ وعلا عَلَى كلِّ شيء فأغرقه، واغترقه: (أي استغرقه وغطاه).

والطُّغْيانُ مَصْدَرٌ بِوَزْنِ الغُفْرانِ والشُّكْرانِ، وهو مصدر يدلُّ على المبالغة في معناه، فالطغيان مُبالَغَةٌ في الطَّغْيِ، ويمكنك أن تعرفه بأنه **التجاوز الكبير الهائل في الإجرام والاستكبار والشر حتى يعلو على كل شيء** بما في ذلك الجرائم المعتادة مثل: السرقة والقتل، فالطغيان أعلى منها؛ لأنه يديرها ويوجدها.

بذا صار معنى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ يملؤهم بما يزدادون به طغيانًا من الثروات البشرية والمادية، ويتركهم يزدادون تمكنًا وقوةً مهما جرت عليهم الكوارث الجزئية، فيكون ذلك مددًا لهم في مجاوزة القدر والغلو في الإجرام.

وقد تتساءل: لماذا قال الله ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ولم يقل: ويمدهم في الطغيان؟

والجواب: لأن الله ﷻ أراد أن يبين لنا تميز طغيانهم عن سائر أنواع الطغيان، فهو في غاية الخبث، وأشد درجات الشر، ولأن ربنا سبحانه وتعالى ينبئنا أنه لا يأمر بالفحشاء لكنه يمهل المستكبرين اللؤماء، فيظنون أنه لا توجد قوة توقفهم.. أولا يعلمون أن الله ﷻ يعلم ما يسرون وما يعلنون..

ويوقفنا على هذه الفائدة الضخمة الطاهر بن عاشور رحمه الله فيقول: "وإنَّما أضافَ الطُّغْيانَ لِضَمِيرِ المُنافِقِينَ، ولَمْ يَقُلْ: في الطُّغْيانِ، بِتَعْرِيفِ الجِنْسِ، كَما قالَ في سُورَةِ الأعْرافِ

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]؛ إشارَةً إلى تَفْظِيعِ شَأْنِ هَذا الطُّغْيانِ، وغَرابَتِهِ في بابِهِ، وأنَّهُمُ اخْتَصُّوا بِهِ حَتّى صارَ يُعْرَفُ بِإضافَتِهِ إلَيْهِمْ"(١).

ولكنك ستسأل: بقيت كلمة ﴿يَعْمَهُونَ﴾، ماذا تعني؟

الجواب: ﴿يَعْمَهُونَ﴾: من عَمِه فلان يَعْمه عَمَهانًا وعُمُوهًا، إذا ضل فتحير، فيقال: ذَهَبَتْ إِبِلُهُ الْعَمْهَاء: إِذَا لَمْ يَدْرِ أَيْنَ ذَهَبَتْ، ومنه قول رؤبة بن العجاج يصف مَضلّة من المهامه(٢):

... ... وَمَـخْـفَـقٍ مِـنْ لُـهْـلُـهٍ وَلُـهْـلُـهِ
مِـنْ مَـهْـمَـهٍ يَـجْـتَـبْـنَـهُ فِـي مَـهْـمَـهِ أَعْمَى الهُـدَى بِـالـجـاهـلـين العُمَّـهِ(٣)

و"العُمَّه" جمع عامِهٍ، وهم الذين يضلّون فيه فيتحيرون، فقوله: بالجاهلين العُمَّه: أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق، وسلك أرضًا عَمْهَاء: لا منار بها، ولا علامات تدله على أنه تقدم أو تأخر.

فيكون معنى قوله ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يجهلون جهلًا مركبًا أنهم في ضلالة، وأنهم من الطاغين، وأنهم من المجرمين.. بل تراهم يمضون في إجرامهم في حماس منقطع النظير..

وهنا تشرق لك كلمات القرآن بنور بصائرها، فالعَمَه مثل العمى، إلا أن العمى عامٌّ في البصر والبصيرة.. في الرؤية والرأي، وأما العمه فهو خاصٌّ بعمى القلب، فيكون في الرأي خاصة، ومصيبته الكبرى أن صاحبه واقع في صحراء التحيُّر والتردُّد والاضطراب، لا يعرف القرار الصحيح، ولا يهتدي إلى الصواب ولكنه لا يشعر بأنه كذلك، فيأبى إلا المضي فيما يفكر

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٧).

(٢) ديوان رؤبة (ص: ١٦٦).

(٣) قال شاكر: والمخفق: الأرض الواسعة المستوية التي يخفق فيها السراب، أي يضطرب. ولهله: أرض واسعة يضطرب فيها السـراب، والجمع لهاله. والمهمه: الفلاة المقفرة ليس بها ماء ولا أنيس. وجاب المفازة واجتابها: قطعها سـيرًا. وقوله "في مهمه": أي يقطعنه ويدخلن في مهمه آخر موغلين في الصحراء. تفسير الطبري ت شاكر (١/ ٣١٠).

ويفعل ويقول دون تروٍّ أو سؤال لذوي الحِجا والألباب، فلا يفكر في التراجع عن غَيِّهِ.. ما الحل؟

الحل أن تنبئه بصراحة قوية قويمة أنه على ضلال مبين، وأنك منتبه لضلالته مستعد لمقاومة طغيانه، وإلا فإنه سيزداد في طغيانه.. من أجل ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان المنافقون في المدينة لا يستطيعون المضي في مؤامراتهم خوفًا من كشفهم أمام العالم.

وقد تشتاق لسماع المزيد من البصائر التي ترشد القلب الحائر فتتساءل: لماذا أسند الله ﷻ المد إليه فقال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ؟ لماذا لم يقل مثلًا: ويزدادون من النعم والثروات التي تزيد طغيانهم؟

وأجيبك أيها المثابر: لأن كلَّ النِّعم التي يَرْفُلون فيها إنما أنشأها الله ﷻ لهم كما أنشأ لغيرهم، ولتعلم أن الله ﷻ لم يقطع عنهم هذه النعم بسبب إجرامهم، فقد أمدَّهم بأنعام وبنين.. بقوة جسدية وثروات بشرية ومالية، فإسناد الفعل إليه يشعرك بأنهم تحت إحاطته.. يوشك أن يقطع عنهم ذلك إن شاء عندما يحين الأجل المسمى بينما لو أسند ذلك إليهم لظن السامع أنهم قادرون على كل شيء دون إحاطة الله ﷻ، فقطع الله ﷻ عنك هذا التفكير، بما أشعرك من التدبير.

وعلى الرغم من أن الله ﷻ أمدهم بتلك النعم لكنه لم يَمُدَّهم بتوفيقه ليقلعوا، بل وَكَلَهُم إلى أنفسهم، فاختاروا الطغيان، فإسناد المدِّ إلى الله ﷻ صحيح، وليس فيه نقصٌ أو لومٌ؛ لأن كلَّ مدارك الاختيار والقرار ليتغيروا ما زالت بأيديهم.

الإعجاز البياني يتجلى في ثنايا هذه الآية المباركة:

في هذه الآية المباركة تشهد اجتماع أمرين في وقتٍ واحد ويستبين لك من خلالهما الإعجاز البياني:

الأمر الأول: تسمع الردَّ المباشر الذي يشفي الله ﷻ به صدور مؤمنين إزاء مؤامرات المنافقين، فعندما يكون المؤمنون مع الله تعالى، لا يضرهم تآمر المتآمرين عليهم؛ لأن الله جل جلاله يردُّ على استهزاء المنافقين وقياداتهم الشيطانية، فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ الله ﷻ الذي يحرس المؤمنين من مكرهم وغدرهم ومؤامراتهم:

ربَّاه عجبًا للقلوب كيف أستأنست بسواك.

ربَّاه عجبًا للأرواح كيف استقرّت واطمأنت وهي تعرض عنك وتنساك.

عجبًا للألسن كيف تركت شُكْرَكَ، وشكرتْ من لا يقدر على شيء لولاك.

ربَّاه عجبًا للأقدام كيف سعت إلى غير رضاك.

عجبًا للخلائق كيف تغفل عن هداك وتقواك.

البصائر القرآنية وتحديد مراتب مدد الطغيان العَامِه:

عندما قال الله ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ جعلنا ذلك نتساءل: هل هذا المدد على مرتبة واحدة أم على مراتب متعددة؟

ترسُم لنا البصائر القرآنية مراتب المصادر التي تمد (الطغيان العامه)، وهذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: الترك لأصحاب الطغيان العامه دون عقوبة رادعة كاملة فورية، فيزدادون عتوًّا وغرورًا واستكبارًا، وقد ذكر الله جل ذكره هذه المرتبة، فقال: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، يعني نذرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم، ففرق بين ﴿يمدهم﴾ و﴿يذرهم﴾.

والمرتبة الثانية: أن يَـمدهم الله ﷻ أي يزيدهم من جنس مصادر القوة والثروة التي معهم، كما قال تعالى ذكره هنا: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١)، وهذا هو المدد وليس الإمداد.

المرتبة الثالثة: أن يحدث لهم الإمداد بمصادر قوة وثروة من غير جنس القوى والثروات التي معهم، ومن المدد والإمداد أن يصبح بإمكانهم تكوين الأتباع، فيصرون على اتخاذ أتباع الغي، كما قال جل ذكره: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢](٢)، على قراءة ضم الياء وكسر الميم، فالإمداد هنا جاء بقوى وثروات يزودهم بها إخوان لهم في الغي يصير شغلهم الشاغل أن يزيدوهم انحرافًا بأفكار إبداعية جديدة في الإجرام والإفساد في الأرض، وهم يظنون أن الله ﷻ عندما يمدهم بذلك فقد صاروا محصنين من العقوبة.. يخبرهم الله ﷻ بحقيقة هذا الإمداد لو كانوا يعقلون، فيقول: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

---

(١) وهكذا تراني أخالف الطبري ﵀ عندما جعل المدد والإمداد بمعنى الترك والإمهال، فرأيه لا يمكن أن يبين قوة كل كلمة قرآنية في موضعها، وكذلك ذهب الزمخشري ﵀، وغرَّد بعيدًا عن الطبري ﵀ في التفاصيل، لكنه اتفق معه على ترك الظاهر ها هنا، فقال: "فإن قلت: فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ قلت: استجرّهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام -لأن الأرْوَى تسكن شَغَفَ الجبال، وهي شاء الوحش، والنعام تسكن الفَيَافي، فلا يجتمعان-، ثم قال: "ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدّي سليمًا من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل". الكشاف (١/ ٦٨).

(٢) وهذه الآية في سورة الأعراف تبطل الضابط الذي حُكِي عن يونس الجَرْميّ أنه كان يقول: ما كان من الشر فهو "مدَدْت"، وما كان من الخير فهو "أمْدَدت". ثم قال: وهو كما فسرت لك، إذا أردت أنك تركته فهو "مَدَدت له"، وإذا أردت أنك أعطيته قلت: "أمْددت".

فهذا الذي يقوله ليس مطردًا لأن هذه الآية في سورة الأعراف وردت بالقراءتين: بفتح الياء وضمه.

وقد مال الطبري ﵀[(١)] إلى ترجيح أن يكون المعنى في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتوِّهم وتمرُّدِهم، كما وصف ربُّنا أنه فعل بنظرائهم في قوله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني نذرُهم ونتركهم فيه، ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم.

والذي يظهر لي أن ما قرره الطبري ﵀ معنى أثبته القرآن، ولكن الذي أثبته الله ﷻ ها هنا معنى زائدٌ يتحقق في هؤلاء العابثين بمعاني الإيمان، فقد فرق الله ﷻ بين تركهم وبين مدهم، وإمدادهم، وذكر لنا هنا أنه يمدهم على الحقيقة بخيرات الدنيا، كما قال جل مجده: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥].

فإن قلت: فهلا ضربت مثالًا يوضح ما تقول؟

الجواب: اضرب لنفسك مثالًا بفرعون وقومه: فالله ﷻ يسلط عليه العقوبات ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ فهذه خمس عقوبات جزئية، فهل اعتبروا؟

لا، بل وصف الله ﷻ حالهم فقال: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فأمدهم الله ﷻ في طغيانهم بأن زاد تمكنهم وقوتهم، ولذا أتبعوا بني إسرائيل مشرقين بكل قوة وتمكين، وهناك كانت نهايتهم.

هنا لا بد أن تتساءل مع الزمخشري ﵀: فكيف جاز أن يمدهم الله ﷻ في الطغيان العَامِه، وهذا فعل الشياطين؛ فالله يقول: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي من الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ ؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠٧، ٣٠٨).

ويأتيك **الجواب** في الحال: فالزمخشري رحمه الله(١) يذكر هذا السؤال، وأسلوبه يميل إلى مناقشة قضية جدلية يحجب عنا ذكرها بصائر الآيات، فدعني أجيب بالجمع بين الآيات المتعدِّدة، فالله ﷻ يمدهم بأن يزيدهم من الثروات والتمكن الذي عندهم، وهذا يعني أنه لم يعاقبهم عقوبة مستأصلة بمجرد الذنب: فبقيت أرصدتهم تزداد، وأتباعهم تكثر، وثرواتهم تتنامى، ويمنعهم الله ﷻ ألطافه التي يحبوها المؤمنين، فيتزايد الرين والظلمة على قلوبهم مقابل تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين، وهذا كله من كمال عدل ربنا؛ لأنه يظهر حقيقة الابتلاء والاختبار ومنح المهلة اللازمة في الدنيا عسى أن يعودوا لكنهم لا يتوبون ولا هم يذكرون.. لو عاقبهم فورًا لاحتجوا بأنهم لم يعطوا الفرصة الكافية.. تصوَّر أنهم يحتجون بذلك يوم القيامة، وقد عمَّرهم الله ﷻ أزمانًا يتذكَّر فيها من تذكر وجاءهم النذير.. فكيف لو عاقبهم فورًا في الدنيا؟

فإسناد الضمير إلى الله ﷻ في قوله ﴿ويمدهم﴾ يحبوك فائدة ثالثة: وهي كمال عدل الله تعالى عندما ابتلى أهل الأرض.

وقد تتساءل: هل هذا المد (والإمداد) يعني أن الله ﷻ يجبرهم على الطغيان، ويدفعهم إليه؟

الجواب: لا، بل إن الله ﷻ يحدِّثنا عن حياتهم الدنيا التي ابتلاهم بها، وجعل فيها لهم ولغيرهم ما على الأرض زينة لها ليبلوهم، ويبصرك ذلك بأنهم في كلِّ ذلك مختارون، فالله جل جلاله أضاف الطغيان إليهم، فقال: ﴿فِي طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ أي في طغيانهم هم فليس هناك طغيان أجبروا عليه؛ ويقرِّر الزمخشري رحمه الله هذا، فيقول: "فالطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم، واجترحته أيديهم، وأن الله بريء منه"(٢).

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٦٨).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٦٩).

ويشير رحمه الله إلى أن هذا الإسناد إليهم يختلف عن عدم الإسناد في قوله ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، ولهذا الأسلوب من الفوائد:

١) أن يرد على اعتقاد العابثين القائلين: لو شاء الله ما أشركنا".

٢) وأن يدفع توهم من يظن أن المجرمين مجبرين على إجرامهم؛ لأن الله تعالى أسند المدَّ إلى ذاته، فقد دفع هذا الوهم بأن أسند الطغيان إليهم، ليميط الشُّبَه ويقلعها، ولذا لما أسند المدَّ إلى الشياطين، أطلق الغيَّ ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ﴾.

٣) فقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يبين لك كمال إحاطته وعدله، وقوله: ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ يبين لك اختيارهم، وأنهم غير مجبرين على التزام هذا الطغيان.

فإن سألت: كيف بصرنا الحرف ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بضخامة الضلال الذي يغرقون فيه؟

الجواب: الحرف ﴿فِي﴾ يدلُّ على الظرفية المحيطة: أي أنهم يعمهون وطغيانهم في التمرد على الله عز وجل والفسق والعصيان يحيط بهم قد غمرهم دَنَسُهُ، وعَلَاهم رِجْسُهُ، كلما تحركوا أو تكلموا كانت أفعالهم لا تخرج عن الطغيان العامه، فلا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا؛ فلا يبصرون رُشْدًا ولا يهتدون سبيلًا، ويستنبط ابن عباس وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيقولون عن ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتمادَوْن في كفرهم.

بذا يبصرك قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أن الله عز وجل محيطٌ بهم، لا يغفل عن أعمالهم، ويرى تحركاتهم، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من مؤامراتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد لا يعجِّل عقوبتهم، بل تراه يَمُدُّهم فيعطيهم ويزيدهم من خيراته ورزقه، وفضله في أعمارهم أو في أبدانهم، فيظنون أنهم غير معاقبين على إجرامهم، فيزدادون طغيانًا، ويعمهون أي يزدادون إجرامًا أعمى في تصرفاتهم وقراراتهم، فيستهزئ الله عز وجل بهم حينما يتركهم في

مجاوزتهم وإسرافهم في جرائمهم التي قد غمرتهم يزدادون دنسًا وفسقًا، ويزيد إسرافهم حينما يرون الله ﷻ يسارع لهم في الخيرات والثمار ولا يقصف لهم الأعمار على شِدَّة إجرامهم.

وكأن إمداده لهم بدلاً من عقابهم عقابًا سريعًا بيان لحجمهم الضئيل كما يستخف القوي بعدوه الضعيف الذي يكثر الصراخ في غير طائل.

الصفة السابعة عشرة: بيع أفضل ما يسعد الحياة الإنسانية، وشراء أعظم ما يشقيها:

ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

المناسبة والاتصال:

فإن قلت: لماذا جاءت هذه الآية المباركة بهذه الصياغة؟

الجواب: أن هذه الآية تُظهر لنا صفةً تعليليةً (سببية) مآلية في الوقت ذاته.. وهنا تتساءل بصوتٍ مرتفع: كيف ذلك؟ كيف تكون صفة سببية ومآلية في الوقت ذاته؟

أقول: إنه يبصرنا ببيان ذلك ورود الآية خالية من حرف عطف في أولها؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ فكأن السامع تعجَّب من شِدَّة العقوبة الواردة في الصفة قبلها عندما سمع: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَـٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، فجاءت هذه الآية لِتُفِيدَ السبب الذي لأجله كانت تلك العقوبة، فإذا سأل أحد عن السبب الذي أوجب لهم هذا المصير المخزي ليزدادوا غيًّا وإجرامًا، يبين الله ﷻ له السبب بهذا الأسلوب الاستئنافي استئنافًا بيانيًّا، فيقول: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

وتنبئك الآية أنهم لن يستطيعوا الاحتجاج بأن الله ﷻ يحاربهم.. فهو لم يحاربهم إلا لأنهم اختاروا أن يشتروا الضلالة بالهدى.

ولكنك ربما سألت: ما موقع هذه الصفة من صفات المنافقين السابقة؟

أجيبك: بأن موقع هذه البينة متميز فقد جاءت في نهاية صفات المنافقين لتقابل مَوْقِع جُمْلَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٥] في صفات المتقين، ولتقابل مَوْقع جُمْلَةِ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البَقَرَة: ٧] الْآيَةَ[١] في صفات الكافرين، ولاحظ كلمة ﴿اشتروا﴾ جيدًا.. إنه يبين أن عليهم المسؤولية الكبرى في هذه الحرب التي سُلِطَتْ عليهم من ربِّهم ﷻ عندما قال: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

يجلّي ذلك الفراهي ﵀ في تدبّره، فيقول: "ذكر الله ﷻ المؤمنين العقلاء الصلحاء، ثم الذين كفروا، ثم الذين نافقوا، وقد أوجز في المنكرين، وفصّل في المنافقين؛ لأنهم كانوا يقومون بمخالطة المسلمين ويسمعون القرآن ويحاجون ويخاصمون ويظنون أنهم على دين ونور وكتاب وهدى، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾. واقع كالخاتمة بعد ذكر أوصاف المنافقين مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ بعد ذكر أوصاف المؤمنين"[٢].

كما تلفتنا أن حركتهم النفاقية أتاحت لهم الوقوف على البدائل والخيارات وعقد المقارنة بينها، فهم يلقون المؤمنين، ويَخْتَلون بشياطينهم، ويتكرَّر ذلك منهم، حتى لقد قامت الحجة عليهم بذلك فكان حالهم في آخر المطاف أنهم ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، وفي هذا من تقريرهم، وإقامة الحجة عليهم ما لا مزيد عليه.

وقد تتساءل هنا: على أي معنى جاء اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؟ هل جاء للتحقير أم للتعظيم؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٧).

(٢) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٥٠).

الجواب: اسم الإشارة يأتي للتعظيم كما في قَوْله تَعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] فقد ذكرنا أن اسم الإشارة يدل على بُعْدِ المكانة بدلالة السياق، وقد يأتي للتحقير والتصغير،كما في قوله تعالى مخبراً عن حقد الشانئين المجرمين: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، فترى أن السياق هنا حكم بأنهم يريدون التصغير والتحقير، وكذلك في قَوْل قَيْسِ بْنِ الخَطِيم[(١)]:

مَتّى يَأْتِ هَذا المَوْتُ لا يُلْفِ حاجَةً لِنَفْسِي إلّا قَدْ قَضَيْتُ قَضاءَها

فَإنَّ المَوْتَ بَعِيدٌ عَنْهُ، فَحَقُّهُ أنْ يُشِيرَ إلَيْهِ باِسْمِ البَعِيدِ، وعَدَلَ عَنْهُ إلى إشارَةِ القَرِيبِ؛ لِإظْهارِ اسْتِخْفافِهِ بِهِ[(٢)].

فالسياق يبين لنا المنساق، أي بين لنا المعنى والمدلول.

والآن فلنعد إلى كلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فما شأنها هل تنتمي لأحد الأمرين؟

الجواب: لا، فلم يأت اسم الإشارة هنا للتحقير ولا للتعظيم، بل إن اسْم الإشارَةِ في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ جاء لمحض التعريف القوي، حيث يشير إلى أشخاص الصنف المجرم الذين جمعوا كلَّ الصفات الرديئة السابقة من الرجال أو النساء، فكأن اسم الإشارة يذكِّرُك أن تستحضرهم أمامك، كأنك تراهم يُشار إليهم، فقد كشفت هذه الصفات حقيقتهم حتى كأنك تشاهدهم.

ويحتمل أن يراد باسم الإشارة في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ تحقير شأنهم مهما بلغت قوَّتهم، ومهما تطاول مكرُهم، ولكنك تشعر بأنه ينبئك بأن تَقْدُرَ لهم قَدْرهم،

---

(١) البيت له في ديوانه (ص: ٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٧).

وتحذر من تآمرهم، ومكرهم، وخططهم، وألَّا تستهين بها، ولذا أشار إليهم كأنه أحضرهم أمامك لتراهم.. فاحذر أن تكون في غفلة عنهم.

بذا تعرفنا إلى البصائر التي تثيرها الكلمة الأولى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فتعال بنا إلى الكلمة الثانية: ما معنى ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ ؟ لماذا اختيار هذه الكلمة؟

أجيبك بأن ﴿اشتروا﴾ مِنَ الشَّرْيِ، وفِعْلُهُ شَرى الَّذِي هو بِمَعْنى باعَ أي أعطى، كَما أنَّ اشْتَرى مطاوع لشرى بِمَعْنى ابْتاعَ يعني أخذ، و(شَرَى)، ويَدُلُّ عَلَى معاوضة بين طرفين فِي أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً مع تقابل وتوازن بين الثمن والمُثمَّن، فيقال: شَرَيْتُ الشَّيْءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمُمَاثَلَةِ قَوْلُهُمْ: هَذَا شَرْوَى هَذَا، أَيْ مِثْلُهُ، والشِّرَاءُ والبيع يتلازمان، فَالْمُشْتَرِي دافع الثَّمن، وآخذ المُثَمَّن، والبائع دافع المُثَمَّن، وآخذ الثَّمن[١].

والأصل أن يكون ذلك مُمَاثَلَةً، فالشريان شجر من عِضاه الجبال زعموا أن عُودَه لا يكاد يعوجُّ، حيث يتماثل اتجاه أجزائه (المِعْوَجُّ لكل جزء منه اتجاه)، والشريانات في توزيع الدم على أنحاء البدن.

فقد بصرتنا كلمة ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ بأنه لا بد من المعاوضة العادلة بين الثمن والمُثَمَّن.. فهل حدث ذلك من هؤلاء المنافقين؟ هل كانت المعاوضة في بيعهم وشرائهم عادلة؟

ستعاود القول: كيف تصوِّر هذه الآية المباركة الحقيقة المقززة لقوى النفاق في العالم؟ كيف تصوِّر لنا هذه الكلمة ببلاغة فائقة أوضاعهم المدمَّرة المدمِّرة؟

الجواب: هذه الصفة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ **تبين كيف** تبني البصائرُ القرآنيةُ الوعيَ في العقول المؤمنة، حيث تكشف الحقيقة المقززة لقوى النفاق.. فلما سمع العقلاء

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ربما تساءلوا: ما مبلغ مقدار سفه هؤلاء المنافقين؟ فجاءت الإجابة بأنه بلغ بهم السفه أن يشتروا الضلالة بالهدى.

تصوَّر هذا: بلغ من سفههم أن يبيعوا (الهدى) الذي يتضمَّن الرشد في التفكير، والصلاح والخير في الأقوال والأعمال، ويشتروا مقابله (الضلالة) الذي يتضمَّن (التيه، والهلاك)

وقد قرر علماء العربية أن البيع والشراء معاوضة تقتضي المماثلة لكنها هنا –يا للفضيحة والخزي والسفه– حرصٌ كامل على الحصول على الضلال الذي يعني الهلاك والتيه، وحرص تام على بيع للهدى الذي يعني الرشاد والتوفيق والصلاح والإصلاح.. فهل رأيت أحدًا يقدم ملايين لأجل أن يحصل على شيء فيه موته وهلاكه؟

تصوَّرْ أن يشتري المرء كميات هائلة من السموم بالمليارات التي منحه الله ﷻ القدرة على التحكُّم بها!! رجلاً بسط الله ﷻ له خيرات الدنيا وأقدره عليها ويسَّرها له، فأخذ ذلك المخذول يسعى ويسارع في بذل كل ذلك ليحوز به ما فيه حَتْفه، فهل رأيت قطُّ في الخِذلان والخُسران والسفه مثل هذا؟! هنا ترى أن تُعمِلَ كلمة (اشترى)، فتحملها على ظاهرها، ويمنحك ظاهرها هذا التصوير المقزز لحقيقة قوى النفاق، وبذا تراني أخالف الزمخشري رحمه الله[1] حين زعم أن معنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة، لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بِالجُمَّةِ رَأْسًا أَزْعَرَا ... وبالثَّنَايَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا
وبالطَّوِيلِ العُمْرِ عُمْراً جَيْدَرَا ... كما اشْتَرَى المُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا[2]

(١) الكشاف (١/ ٦٩).

(٢) الكشاف (١/ ٦٩)، و«الجمة»: كثيرة الشعر، والباء للبدل، و«أزعرا» قليل الشعر، والدردر من سقطت أسنانه. والجيدر: القصير، واشترى: استبدل، والمراد أنه أخذ امرأة عجوزاً قبيحة بدل امرأة شابة جميلة.

يُظهر الزمخشري رحمه الله في تفسيره مشعرًا العالَم (بالإكبار) للكلمة القرآنية في موضعها، ولكنه هنا ربما لم تسعفه العبارة، وعزب عنه المخزون الدلالي العظيم في لفظ (اشتروا) هنا، وأحيانًا تؤثر القناعات المسبقة على الشعور بالإكبار المناسب لقوة الكلمة القرآنية ذاتًا وموضعًا.

نقول له –رحمك الله يا إمام–: هذا الذي استشهدت به غير ما نحن فيه.. الذي استشهدت به استبدال ملزم، ليس لصاحبه فيه خِيَرة، فمن تكبر سنُّه يسقط شعره وثناياه (أسنانه) رغمًا عنه غالبًا، أما هؤلاء فقد **اشتروا** الضلالة بالهدى اختيارًا، والشراء كان واقعًا، والبيع ما زال حقيقة، هل تريد أن ترى ذلك في الواقع؟

انظر إليهم: كيف ينفقون أموالهم التي منحهم الله عز وجل إيَّاها، والأموال التي سرقوها من غيرهم.. ينفقونها، ولكن مقابل ماذا؟

مقابل أن يشتروا الضلالة، وفي المقابل كم من آيات الهدى باعوها.. كم باعوا من معالم الهدى ورجاله ونسائه وكتبه وأراضيه.. كم باعوا مما يتعلَّق بالهدى؟

كم باعوا من أراضي الأوقاف، وأموال الخير.. كم باعوا من دماء الأطفال، وأنين النساء.

بذا تعلم أن قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ على حقيقتها وظاهر لفظها، فالشعور بالصورة التي تمنحنا إياها أقوى وأقوم من اللجوء إلى الاستعارة.

انظر إلى قوة التصوير.. انظر إلى الحال المدهش له:

هل مرت عليك مخلوقات مثل هذه المخلوقات؟، إنهم لم يتبعوا الضلالة ويتركوا الهدى بل بلغ بهم الأمر أن يشتروا القذارات (الضلالات) ويعطوا مقابلها الذهب والجوهر (الهدى)، انظر إليهم:

يقدم أحدهم الأثمان الباهظة لقاء فعلٍ محرم.. يبيعون تعليم القرآن مقابل تعليم شرب الخمر ونشر المخدرات.. يُعَيِّنُون الخبراء والمستشارين المحليين والخارجيين والقدرات العسكرية والأمنية ليمدوهم بأفكار إبداعية في الضلالات الفكرية، والعملية كقتل المستضعفين، والعبث بالهُوية، والاستيلاء على أموال الناس بالباطل، واغتصاب البلدان، وتأييد الظالمين.

لفظ ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ والمجد الذي يكتنزه:

الآن لنعد إلى الآية مجددًا حيث يقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] قد تضع سؤالًا كما فعل الطبري ؒ هنا[(١)]، فتقول: وكيف اشترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى؟ هم منافقون لم يتقدَّم نفاقَهم إيمانٌ فيقال فيهم: باعوا هداهم الذي كانوا عليه بضلالتهم حتى أخذوها وتركوا الهدى؟ كيف وما كانوا على هدى أصلًا؟

وألخص لك الجواب، فأقول: حاول المفسِّرون أن يبحثوا عن جوابٍ لهذا السؤال لأنهم يعلمون أن القرآن يثير مكامن التفكير عندهم لأجل أن يتدبَّروا كلام ربنا جل مجده.. دعني أشير إلى بعض أجوبتهم:

الجواب الأول: تأوَّل بعضهم قوله ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ بمعنى "استحبُّوا"، فإنهم لما وَجدوا الله جلَّ ثناؤه قد وصف الكفَّار في موضع آخر، فنسبهم إلى استحبابهم الكفرَ على الهدى قالوا بأن المعنى هنا كذلك، فقد قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والمعنى هنا: أولئك الذين اختارُوا الضلالةَ على الهدى حال كونهم محبين للضلالة، ويوجِّه

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١١).

الطبري قول المفسرين هنا بأن المعنى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ يعني "اختاروا"؛ لأن العرب تقول: اشتريت كذا على كذا يَعْنُون اخترتُه عليه[1].

وتشعر بأن هذا المعنى ليس في محله الصحيح، ففيه انصراف عن الظاهر بغير دليل، وذلك لأن الله تعالى لو أراد أن يكون المعنى: استحبوا أو اختاروا لقال ذلك كما قاله في مواضع أخرى مثل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل:١٠٧]، أَمَا وقد قال: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ فلا بد أن يكون للفظ خصوصية هاهنا. لا جرم! رأينا الطبري ﷀ يرفض هذا الوجه، ويَعُدُّه **تأويلًا غير مختار**؛ لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، فدلَّ بذلك على أن الشراء المراد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هو الشراء الذي يتعارفه الناس، من استبدال شيء مكان شيء، وأخذِ عِوَض على عوض.

واستشعر الطبري ﷀ أن المعنى بحاجة إلى تأمُّلٍ قوي؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين، فدلائل أوّل الآيات في نعوتهم إلى آخرها دالّةٌ على أن القوم لم يكونوا قطُّ استضاؤوا بنور الإيمان، ولا دخلوا في ملّة الإسلام، فمن البداية وهو يقول عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] فأين الإيمان الذي باعوه وهم لم يكونوا مؤمنين؟ وقرَّر الطبري ﷀ قاعدة في الموضع الذي يحتمل وجوهًا من المعاني، فقال: "فإن كان قائل هذه المقالة ظن أنَّ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هو الدليل على أنّ القوم قد كانوا على الإيمان فانتقلوا عنه إلى الكفر، فلذلك قيل لهم "اشتروا" – فإن ذلك تأويل غير مسلَّم له، إذْ كان الاشتراء عند مخالفيه قد يكون أخذَ شيء بتركِ آخرَ غيره، وقد

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٣).

يكون بمعنى الاختيار، وبغير ذلك من المعاني. **والكلمة إذا احتملت وجوهًا، لم يكن لأحدٍ صرفُ معناها إلى بعضٍ وجوهها دون بعضٍ، إلا بحجة يجب التسليم لها"**(١).

الجواب الثاني: وصاحبه هو الزمخشري؛ فإنه قرَّر معنى تابعه عليه الشعراوي رحمهما الله(٢)، قرَّر أنهم جُعِلوا لتمكنهم من الهدى وعرضه عليهم كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به.

الجواب الثالث: رآه الطاهر بن عاشور رحمه الله وهو أن الِاشْتِراء هُنا مَجازٌ مُرْسَلٌ بِعَلاقَةِ اللُّزُومِ، أطْلَقَ الِاشْتِراءَ عَلى لازِمِهِ الثّانِي وهو الحِرْصُ عَلى شَيْءٍ والزُّهْدُ في ضِدِّهِ أيْ حَرَصُوا عَلى الضَّلالَةِ، وزَهِدُوا في الهُدى؛ إذْ لَيْسَ فيما وقَعَ مِنَ المُنافِقِينَ اسْتِبْدالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ إذْ لَمْ يَكُونُوا مِن قَبْلُ مُهْتَدِينَ(٣).

فما الذي تراني أُبصره في المعنى هنا؟

إنه الجمع بين المعاني السابقة مع زيادة بيان.. سنجمع المعنى الذي أشار إليه شيخ المفسرين الطبري رحمه الله إلى المعنى الذي اختاره بليغ المفسرين الزمخشري رحمه الله ثم أزيد المعنى ظهورًا، فالهدى الذي باعوه وكان عندهم ينتمي قسم منه إلى الإيمان الفطري الذي خلق الله كل إنسان عليه، وينتمي قسم منه إلى الهدى الذي جاءهم به النبي ﷺ في الوحي الإلهي، فبمجرد مجيئه يكون جزءًا من حياتهم بغير ثمن أو أجر، لأن الأنبياء منحوا الآخرين العلم بالهدى دون أن يطلبوا مقابله، فصار المدعوون متمكنين من هذا الهدى كما لو أنه ملك لكل واحدٍ منهم، ولكن المنافقين بسوء تدبير وحمق بالغ باعوا ما كان معهم من الهدى

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٥).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٦٩)، تفسير الشعراوي (١/ ١٦٣).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٨).

الفطري، وما صار لهم من الهدى الذي جاء به الوحي الإلهي.. باعوه مقابل أن يشتروا الضلالة، والشراء والبيع هنا يدلان على معنى آخر غير معنى الاستبدال الذي ورد في قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٠٨]، فالاستبدال قد يكون بغير ثمن.. لأنه مجرد استبدال، أما هؤلاء فإنهم لا يأخذون الضلالة مجانًا حيث وجدوها بل يدفعون مقابلها ثمنًا، فاعجب من هذه الصفة المقززة، وروى الطبري رحمه الله في هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي الكفرَ بالإيمان(١)،وهم لم يبيعوا الهدى ويشتروا مقابله الضلالة بمجرد الأخذ والإعطاء، بل دفعوا أثمانًا باهظة لأجل الضلالة.. دفعوا مقابل ذلك حياة من ينتسب إلى الهدى من أهل القرآن، ومن مدارسه، ومن ثروات أمة القرآن.. وانظر في الواقع المعاصر: كيف يقدمون أعظم الأثمان لأهل الكفر والظلم والطغيان لأسيادهم ومخدوميهم من أهل الكفر والطغيان كأصحاب أسطورة هرمجدون مقابل أن يتخلصوا من كل هدى جاءهم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فظهر لكلمة اشتروا معناها التصويري الدقيق الذي يوضح واقع المنافقين.

وربما تقول: أنت تكلمنا عن جماعات ودول.. فهل المنافق في ذات نفسه، وحياته الخاصة يشتري الضلالة بالهدى؟

الجواب: نعم، ألا ترى أن آحاد المنافقين يرضون بالصفقة الخاسرة البائرة فيبيعون طمأنينة الضمير وهدأة العيش والسلام الداخلي الذي يعيشه المؤمن السوي ويستبدلونه بالقلق وتوقع السوء والارتياب من كل شيء ومن كل أحد بعضهم من أجل أن يحيا مع المخدرات يدفع ثمنًا هائلًا ليشتري هذه المخدرات، ومن الأثمان التي يدفعها غير المال أن يقتل نفسه قتلًا بطيئًا مخالفًا في ذلك الهدى الذي جاءه، فقال له: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.. ألا ترى أن

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٢).

بعضهم من أجل الزنا والفاحشة يترك صلاته وصيامه.. كأنه يبيعه مقابل أن يحصل على متعة محرَّمة زائلة.. ألا ترى أنه يعمل جاسوسًا على قومه وأهله، فيكتب عنهم التقارير لأجل ضلالات يعيشها في حياته.. ونحو من الأمثلة التي توضِّح لك دِقَّة كلمة ﴿اشتروا﴾، وأما في هذه الأيام فإنك ترى عجبًا من اشتراء الضلالة بالهدى، فيعمل أحدهم بائعًا لأرض أمته، وهُويتها، وأعراضها وأطفالها في سوق التجارة الدولي، ويخون أمانته، وكلُّ ذلك اشتراء للضلالة بالهدى.

دعنا نزداد بصرًا وتبصرًا في كتاب ربنا: لماذا ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ ؟

الجواب: ينقلك القرآن بإثارة كبيرة إلى سماع نتائج بيعهم وشرائهم ليدلك على أن المسألة تخلَّلها البيع والشراء بصورة حقيقية:

أما النتيجة الأولى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦]، وتعني أنهم طلبوا الربح الذي يحقق المكاسب المتعددة، وربما رأوا ما يدلهم على ذلك، فقد نمت أموالهم وقَوِيَ سلطانهم، وكثر أتباعهم إن كانوا أفرادًا أو جماعات، وازداد نفوذهم في العالم، إلا أن الحقيقة التي ستصدمهم هي هذه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾.

فإن سألت: ما نوع هذه الفاء التي دخلت على قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾؟

أجيبك أن الفاء للتعقيب والتفريع وبيان النتيجة النهائية.. بينت نتائج هذه العمليات التجارية التي يجريها المنافقون سواء أكانوا جماعات منظَّمة أم كانوا أفرادًا، وهذه العمليات تشمل جميع تحركاتهم، فهي مشاريع عمرهم، وهم يَلِجُون في بيعهم للهدى، وشرائهم للضلالة حتى لا يكادون يستطيعون العودة عنها.. تتزين (الفاء) هنا لتبدي لك النتائج المُخيِّبة لتحركات المنافقين النشطة، وتخبرك بأنه: ما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين.

فإن قلت: فما معنى الربح؟ وما الكنز الذي يكتنزه هذا اللفظ القرآني المدهش؟

الجواب: الربح من (رَبِحَ) رِبْحًا وَرَبَحًا كَمَا يُقَالُ مِثْلٌ وَمَثَلٌ: أي اكتسب زيادة على رأس مال، وثمرة على عمل، والرَّبَح في الأصل: الفَصيل أو الفُصْلان الصِغار، فهي زيادة على الأمهات، ويقال أربحَ الناقةَ: حَلَبها غُدْوةً ونصفَ النهار[1]، فاكتسب زيادة على المعتاد منها، لأن الحَلْب يكون في أول النهار وآخره، فالتي في نصف النهار ثالثة، وبذا ظهر لنا لغة أن الرِّبْح يدلُّ على نَجاح التِّجارَةِ حيث يجد نتائج مثمرة تزيد على ما بذله مِنَ الأثْمانِ، وتتحقَّق له زيادة فِعليَّة على رأس المال، وليس زيادة وهميَّة.

وربما ستسأل: قد عرفنا معنى الربح، فما معنى قوله: ﴿تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ ؟

أجيبك: بأن التجارة من تَجَرَ يَتْجُر تَجْرًا، وَاتَّجَرَ، وَالِاسْمُ التِّجَارَةُ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ عَلَى وزْنِ فِعالَةٍ، وهي زِنَةُ الصَّنائِعِ مثل: زِراعة، وفِلاحة، ونِجارة، وخِياطة.

ويقال: هُوَ تَاجِرٌ، وَالْجَمْعُ تَجْرٌ مِثْلُ: صَاحِبٍ وَصَحْبٍ، والتِّجَارَة: التصرُّف في رأس المال طلبًا للربح، فيقال: ناقة تاجرة: كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها[2]، وفرَّق الله تعالى بين التجارة والبيع فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، وذكر أهل العلم في الفرق بينهما ثلاثة أمور:

الأول: التجارة تقتضي النقل للاستثمار داخل المِصر أو خارجه، بينما البيع يتعلق بالصفقات في المحلِّ نفسه مكتبًا كان أو دكانًا، وأشار إلى هذا الفرق نجم الدين النسفي (ت ٥٣٧هـ) صاحب (التيسير في التفسير) فقال في التفريق بين التجارة والبيع: "لا تشغلهم تجارة؛ أي: بالأسفار في الأمصار ولابيع؛ أي: في الأسواق في الحوانيت، وحملناهما على هذين

(١) المعجم الاشتقاقي (٢/ ٧٤٤).

(٢) ينظر: لسان العرب (٤/ ٨٩).

لتكون لزيادة إفادة لا لمجرد إعادة"(١)، وقد سبقه إلى ذلك الفرَّاء حينما قال: "فالتجارة لأهل الجَلْب، والبيع ما باعه الرجل عَلَى يديه"(٢).

الثاني: قرَّر الطاهر ﷺ أن التجارة يقصد بها الربح أما البيع فقد يقصد منه الربح، وقد يقصد منه مطلق جَلْب الثمن(٣)، فالتجارة في هذا المعنى أخصُّ من البيع.

الثالث: أن يكون البيع أخصَّ من التجارة، فاحتمل أبو حيانِ ﷺ أَنَّ التِّجَارَة هِيَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ طَلَبًا لِلرِّبْحِ، والبيعَ جزءٌ منها، وَنَبَّهَ عَلَى هَذَا الْخَاصِّ؛ لِأَنَّهُ فِي الْإِلْهَاءِ أَدْخَلُ مِنْ قِبَلِ أَنِ التَّاجِرَ إِذَا اتَّجَهَتْ لَهُ بَيْعَةٌ رَابِحَةٌ وَهِيَ طِلْبَتُهُ الْكُلِّيَّةُ مِنْ صِنَاعَتِهِ أَلْهَتْهُ مَا لَا يُلْهِيهِ شَيْءٌ يُتَوَقَّعُ فِيهِ الرِّبْحُ؛ لِأَنَّ هذا يقين وذاك مطنون"(٤) وهو ما أشار إليه السيوطي ﷺ بقوله: "والبيع من التجارة، ولكن خصَّه بالذكر تجريدًا، كقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]"(٥).

والتجارة في الأصل تعني:

أن يبذل المرء جهدًا ووقتًا وينفق تفكيرًا، فهذه ثلاثة أركان لا بد منها، وربما يتحرك بجسده، وقد يبذل مالًا فهذان ركنان يحتمل وجودهما، وقد يستغني عنهما، فيوفر المرء هذه الأركان الخمسة (الجهد والوقت والتخطيط والحركة بالجسد وبذل المال) لأجل أن يكسب منافع مالية ووجودية أقوى مما أنفقه من الجهد والوقت والتفكير والحركة والمال، وينبغي أن يصاحب ذلك الحذق والمعرفة بوجوه المكاسب.

---

(١) التيسير في التفسير (١١/ ١٤٧).

(٢) معاني القرآن (٢/ ٢٥٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٤٩).

(٤) البحر المحيط في التفسير (٨/ ٤٩).

(٥) معترك الأقران (٢/ ١٢٩).

فالتجارة حركة في الحياة يقصد منها الحصول على الأرباح، والآن عد بنا إلى قوله جل ذكره: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ لماذا سمى تصرفاتهم تجارة؟

والجواب: لأن حقيقة كل فعل في الدنيا مما يصنعه الناس لا يخرج عن مفهوم التجارة، فالتعبير بالتجارة في مكانه العجيب؛ لأنه يصف حالهم حين يعتقدون أن العالم عبارة عن صفقات تجارية للمواد والأفكار والأجساد يتم اصطياد الأرباح بها، وهم يفاخرون بذلك في تفكيرهم، وقد قيل[(١)]:

خذ حديثًا يزينه الإنصافُ ليس مما يشينه الاعترافُ
كل من في الوجود طالب صيدٍ غير أن الشباك فيها اختلافُ الهُجُوعِ

الآن انظر إلى حال المنافق:

المنافق يبذل جهدًا هائلًا، ويقوم بالتخطيط الكبير، وينفق الوقت من أجل أن يجلب الضلالات ويتخلص من الهدى؛ لأنه يظن الهدى أغلالاً تقيد شهواته المحرمة

فيصنع تمامًا ما يصنعه التاجر الذي يريد الربح.. فهل يربح؟

هؤلاء توقَّعوا أن يحقِّقوا أرباحًا بناء على تصرفاتهم:

بعضهم يبذل جهدًا في إباحة الشهوات المحرمة، وبعضهم احتلَّ البلدان، ودمَّر الأوطان، وقتل النساء والصبيان، وبعضهم تاجر بالمحرمات، وأباح المعاصي، وفاخر بها، وبعضهم تجارته الخمر والميسر والمخدِّرات.. كل ذلك ليسيطر ويكسب الأرباح، فهل يربح؟

هنا يفاجئهم الله جلَّ مجده فيذكر لهم النتيجة المخيبة لآمالهم، ويقول لهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾.

---

(١) البيتان لمحيي الدين بن عبد الظاهر المصري (ت ٦٩٢هـ) ينظر: الوافي بالوفيات (١٧/ ١٥٢).

هذه الكلمات البينات كاشفات لواقعهم، فكأنه يقول لهم: أعلم حالكم أكثر مما تعلمون.. أنتم تريدون الربح في التجارة فيما تتاجرون به، وكل حركاتكم تجارة.. لكن اعلموا أنكم لن تربحوا.

وكيف يمكن أن يربحوا، وهم اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ التي تعني التيه والضياع والهلاك، وباعوا الهُدى الذي يعني الرشاد والتوفيق والصلاح، وهل يمكن أن يربح من يشتري ما يضر، ويبيع ما ينفع؟

فإن قلت: لماذا عبر الله عن تصرفاتهم بالتجارة؟ وخص من ذلك لفظ (اشتروا) دون (باعوا)؟

الجواب: لاحظ أن الله ﷻ عبر عن تصرفاتهم بالتجارة، واختار أن يعبر عن عملهم ذلك بذكر الشراء دون ذكر البيع، فلم يقل: باعوا الهدى بالضلالة، بل اشتروا الضلالة بالهدى كأن ذلك لينبئك بجموح رغبتهم في الضلالة، وعدم معارضتهم للهدى إلا عندما يكون الهدى حائلًا بينهم وبين الضلالة.

لاحظ بدقة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ ؟ فالعادة أن ينسب الرِّبح إلى صاحب التجارة، فيقال: ربح فلان، لكنه هنا نسب الربح إلى التجارة نفسها، ثم نفاه، فقال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ وينبغي أن تتدبر فتسأل: لماذا؟

وأجيبك بما يدهشك: فهذا التركيب العجيب: نفي الربح عن التجارة يحقِّق لنا عدة أهداف:

الهدف الأول: المقصود من نفي الربح عن التجارة نفي الربح عن التاجر في الجملة بطريق اللزوم، أي فما ربحوا في تجارتهم لا فيما اشترَوْا، ولا فيما شرَوْا، وهذا أسلوب عربي

يخاطب العرب به بعضهم بعضًا، فيقول أحدهم لصاحبه: نام ليلُك، وربح بيعُك، والمقصود نمت أنت، وربحت أنت، وقال رؤبة بن العَجَّاج(١):

... ...   حَارِثُ! قَدْ فَرَّجْتَ عَنِّي هَمِّي ضُلوعِي
فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى غَمِّي   ... ...

فوَصف بالنوم الليل، ومعناه أنه هو الذي نام، وكما قال جرير بن الخَطَفَى(٢):

وَأَعْوَرَ مِن نَبْهَانَ أَمَّا نَهَارُهُ   فَأَعْمَى، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

فأضاف العمى والإبصار إلى الليل والنهار، ومرادُه وصفُ النبهانيّ بذلك.

فقد يضيف الشيء إلى ظرفه الزماني أو المكاني أو الحالي، والمراد صاحب الظرف، لكن ذلك ليس كل شيء.. التعبير هنا أقوى وأرقى من الاقتصار على نفي الربح عن التاجر، وقد مضى على هذا التأويل سيد بلغاء المفسرين الزمخشري رحمه الله فجعل هذا التركيب من الإسناد المجازي، وما زال به الأمر حتى أذهب معنى الآية ورفع شأن المجاز بغير تنبه ولا احتراز، فقد حاصرته الآية بحقائقها، فذكر الله عز وجل (اشتروا) و(ربحت) و(تجارتهم)، وهي قرائن تقرب الكلام من الحقيقة، فأبى إلا أن يجعلها من المجاز، ولما رأى كثرتها قال: "هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا"(٣).

---

(١) ديوان رؤبة بن العجاج (ص: ١٤٢).

(٢) ديوان جرير (ص: ٢٠٣).

(٣) ينظر الكشاف (١/ ٩٠)، وأنا لا أميل إلى نفي المجاز في القرآن، ولكنني أراه غلب على أئمتنا، فتوسعوا فيه، حتى كادت تغيب بعض الحقائق باسمه، وذكر ابن عاشور رحمه الله قريبًا من ذلك ولكنه جعل سبيل المجاز مهيعًا آخر، فقال: "أُسْنِدَ الرِّبْحُ إلى التِّجارَةِ حَتّى نُفِيَ عَنْها، لِأنَّ الرِّبْحَ لَمّا كانَ مُسَبَّبًا عَنِ التِّجارَةِ وكانَ الرّابِحُ هو التّاجِرُ صَحَّ إسْنادُهُ لِلتِّجارَةِ لِأنَّها سَبَبُهُ فَهو مَجازٌ عَقْلِيٌّ، وذَلِكَ أنَّهُ لَوْلا الإسْنادُ المَجازِيُّ لَما صَحَّ أنْ يُنْفى عَنِ الشَّيْءِ ما يَعْلَمُ كُلُّ أحَدٍ أنَّهُ لَيْسَ مِن صِفاتِهِ، لِأنَّهُ يَصِيرُ مِن بابِ الإخْبارِ بِالمَعْلُومِ ضَرُورَةً، فَلا تَظُنَّنَّ أنَّ النَّفْيَ في مِثْلِ هَذا حَقِيقَةٌ فَتَتْرُكَهُ، إنَّ انْتِفاءَ الرِّبْحِ عَنِ التِّجارَةِ واقِعٌ ثابِتٌ؛ لِأنَّها لا تُوصَفُ بِالرِّبْحِ وهَكَذا تَقُولُ في نَحْوِ قَوْلِ جَرِيرٍ: ونِمْتُ وما لَيْلُ المَطِيِّ بِنائِمِ.

لعلك تكون معي؛ إذ تراني أخالفه ﷺ وأنا الذي أرى أن الله تعالى بسط له في الإشراق القرآني شيئًا عظيمًا، لكنه لم يسر على المحجة البيضاء هاهنا، فكلمات الله ﷻ هنا تبلغ الذورة العليا في وصف الحياة عندما تحملها على الحقيقة؛ وعد بنا إليها ليظهر لك ذلك، فقول الله ﷻ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ يحبوك بالهدف الثاني من هذا التعبير:

الهدف الثاني: أن يبين لك أن التجارة غير رابحة بغض النظر عن المتعامل فيها.. إنها تجارة فاسدة مفسِدة مفسَدة مهما كانت الأيادي التي تديرها ذكية حاذقة.. لا تربح في ذاتها مهما كان سواء أكانت في أيديهم أم في أيدي غيرهم.

الهدف الثالث: أن البيع قد يكون مرحلة من مراحل هذه التجارة، وقد يرى الإنسان فيه شيئًا من الربح إما المادي وإما ربح النفوذ، ولكن العملية برمتها.. بكاملها لا يمكن أن تربح إما حالًا أو مآلًا.

أما وقد أطربك البيان القرآني وشعرت بأنه كلام العزيز الحميد، فقد بقي أن تتدبر: لماذا نفي الله ﷻ ربح تجارتهم بالحرف ﴿ما﴾ دون الحرف ﴿لن﴾ ؟ ولماذا نفى الربح عنهم فقط دون أن يثبت لهم الخسارة؟

بِخِلافِ قَوْلِكَ ما لَيْلُهُ بِطَوِيلٍ، بَلِ النَّفْيُ هُنا مَجازٌ عَقْلِيٌّ لِأنَّهُ فَرْعٌ عَنِ اعْتِبارِ وصْـفِ التِّجارَةِ بِأنَّها إلى الخُسْـرِ، ووَصْـفُها بِالرِّبْحِ مَجازٌ، وقاعِدَةُ ذَلِكَ أنْ تَنْظُرَ في النَّفْيِ إلى المَنفِيِّ لَوْ كانَ مُثْبَتًا فَإنْ وجَدْتَ إثْباتَهُ مَجازًا عَقْلِيًّا فاجْعَلْ نَفْيَهُ كَذَلِكَ وإلّا فاجْعَلْ نَفْيَهُ حَقِيقَةً لِأنَّهُ لا يُنْفى إلّا ما يَصِحُّ أنْ يُثْبَتَ.

وهَذِهِ هي الطَّرِيقَةُ الَّتِي انْفَصَلَ عَلَيْها المُحَقِّقُ التَّفْتَزانِيُّ في المُطَوَّلِ، وعَدَلَ عَنها في حَواشِي الكَشّـافِ وهي أمْثَلُ مِمّا عَدَلَ إلَيْهِ". التحرير والتنوير (١/ ٣٠٠).

فما الضير لو جعلنا التجارة رابحة أو خاسرة على الحقيقة وإن كان صاحبها هو المتصرف بها المصاب بمصيبتها أو المنعم عليه بربحها، وإصـراري على الحقيقة لما ذكرته لك أعلاه، وبعد: فما أعدو أن أقول رأيًا وددت أني رأيت الشـيخين –ولو منامًا– فأستفتيهما فيه حتى لو اتهماني بالجهل، وركوب لجة لا أحسن إدارة قارب على سطحها فكيف أجادل في الغوص في أعماقها، وليس هذا مني إنكارًا للمجاز بل أنكرت الغلو فيه من غير حاجة.

وأجيبك بما يجعلك تشعر بروعة النظم القرآني: أما لماذا نفي الله ﷻ ربح تجارتهم بحرف النفي ﴿ما﴾ ولم يقل: (فلن تربح)؛ وذلك لأن ﴿ما﴾ تنفي الربح مطلقًا في الماضي والحاضر والمستقبل مهما بدا غير ذلك.

فالرابح من التجَّار هو الذي يستبدِلُ سلعته المملوكة بدلًا أَنْفَسَ منها أو أفضلَ من ثمنها الذي يبتاعها به، فأمَّا الذي يستبدِلُ سلعته ببدلٍ دُونها ودونَ الثمن الذي ابتاعها به، فهو الخاسر في تجارته.

والكافر والمنافق لم تربح تجارتهما؛ لأنهما اختارَا الكفر، ونشر الفسق على الرشاد والهدى، واختارا الخوفَ والرعبَ على الحفظ والأمن، فإن صفقاتهم التي يتعاملون بها في الحياة لا يمكنها أن تربح.

أما لماذا نفى عنهم الربح فقط؟ هل معنى ذلك أنهم لم يخسروا؟

فإن الجواب عن هذا السؤال يبصرنا بهذه البصيرة:

عدم ربح المنافقين في صفقاتهم المجرمة لا يعني حدوث الخسارة العاجلة، بل سيستمتعون بخَلاقهم أي بحظهم من الدنيا، ويأخذون من الحياة بحسب ما كُتِب لهم.

فالآية بهذا اللفظ الظاهر تبصرنا بحقيقة الواقع، وأنهم سيبيعون الهدى في العالم، وسيشترون الضلالة، وسيستمتعون برأس المال حينًا حسب المدد الذي يمدهم الله ﷻ به، لكنهم لن يتمكنوا من جني الأرباح التي يسعون لتحقيقها على المدى البعيد، فالتجارة خاسرة، وإن كان البيع في لحظة من اللحظات قد يبدو رابحًا، مهما رأوا ذلك من خلال منجزاتهم المؤقتة التي حققوها:

فالمنافق الذي يصر على تناول الخمر والدفاع عن سُكْره، ويجعل ذلك في حيز الحلال يستمتع به، وربما يظن أنه ربح لذة لحظته، ويتعجب من الذي لا يفعل فعله، والله جل مجده

يخبرنا أنه سيجد هذه المنفعة المؤقتة: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].. هنا الصورة تحكي عن نفسها: هذا السكير استمتع بلحظته، وظن الربح فيها، لكن تجارته لا يمكنها أن تربح في جسده أو في ماله.

فالمنافق الممالئ لأعداء دينه وأمته ربما تحصل مقابل ذلك من أسياده على ما يظنه ربحًا.. أليس قد مكَّنوه ووقفوا معه ليسيطر على مقدرات شعب بأكمله وليتحكَّم في مصائر أمة بأكملها لينفذ لهم ما يريدونه من مسخ الهوية، ومحاربة الفطرة السوية، والمبادئ العلية؟ حال هذا المنافق أنه كسب الجاه والمال والسلطة والتحكم، لكن مآل كلِّ ذلك إلى الخسران والبوار في الدنيا وفي يوم القرار.

وكذلك حال الذين استولوا بقوتهم على الأموال والأراضي والعقارات، وسيطروا على الشعوب.. يظنون ما هم فيه الربح، ولكنهم لا يربحون على المدى البعيد.

وأما النتيجة الثانية: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

هكذا نكون قد رأينا الآيات البينات في هذه الأربع الكلمات: الفاء، ما، ربحت، تجارتهم، وهنا تتعجب فتتساءل: لماذا كانت النتيجة الثانية بعيدة عن التجارة، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، فالعادة أن يقول المتكلم: فما ربحت تجارتهم، وذهبت بضاعتهم، أو وقلت أرزاقهم، أو وخسرت صفقة أيديهم.. فما علاقة النتيجة الثانية بالنتيجة الأولى؟

وللجواب على هذا السؤال أدعوك أيها القارئ المجد لنتدبر الآية: فالذي يتحكَّم بأفعالهم هو النفاق وهو وعاء عفن يضمُّ أنواعًا من الأمراض سبقت الإشارة إليها في الآيات: مثل: الخداع، ومرض القلب، والكذب، والتكذيب، والإفساد في الأرض، والسخرية من المؤمنين، وبعد ذكر هذه الأمراض العفنة التي تمثل أسوأ ما في الإنسان لم يكتف المنافقون بأن توجد عندهم هذه الأمراض، بل قاموا بشراء هذه الجرائم، واشتروا معها نجاسات أخرى

من الضلالات، ودفعوا الثمن من الهدى؛ ليحققوا ما يظنونه إنجازات في حياتهم، فنفى الله ﷻ عنهم الربح، فقال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، **ولكن السؤال يظل فارضًا نفسه: لماذا جاءت هذه النتيجة الثانية بهذا التعبير: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾؟**

الجواب: لأن التصرف في الحياة إما أن يريد به الإنسان الربح الدنيوي أي تحقيق إنجازات يستمتع بها في حياته تكون في رصيده، فنفى الله ﷻ عنهم ذلك في قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، وإما أن يريد به تحقيق الاهتداء الديني، ونصرة العقيدة التي يقتنع بها، فنفى الله ﷻ عنهم ذلك أيضًا في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾

فالإتيان بجملة ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ في مكانها المهم أيضًا؛ لبيان زعمهم الدائب الدائم أنهم على هدى، وأنهم صانعو السلام في العالم، فبيَّن الله تعالى حقيقة ذلك بعد ظهور اشتراء الضلالة الذى هو أثر عدم الاهتداء، ونتيجته.

فقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أي: ما كانوا رُشداءَ في اختيارهم الضلالةَ على الهدى، واستبدالهم الكفرَ بالإيمان، واشترائهم النفاقَ بالتصديق والإقرار.

وقد أشار رشيد رضا ﷀ إلى قريب من هذا فقال: " ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ في دينهم، لأنهم لم يأخذوه على وجهه، ولم يفهموه حقَّ فهمه، أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة، لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله ﷻ من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التي زجوا أنفسهم فيها، أو ما كانوا مهتدين في طور من الأطوار ولا مسَّ الرشد قلوبهم في وقت من الأوقات لأنهم نشأوا على التقليد الأعمى من أول وهلة، ولم يستعملوا عقولهم قطُّ في فَهْم أسراره واقتباس أنواره"(١).

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٠).

ويضيف الزمخشري رحمه الله سببًا ثانيًا لهذا التعبير، فيرى أنَّ الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معًا، لأن رأس مالِهم كان هو الهدى، فلم يبق لهم؛ إذ باعوه بالضلالة، ولما لم يبق في أيديهم إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الربح، وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية لأن الضال خاسر دامر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله: قد ربح(١).

ويعلل البيضاوي رحمه الله إضاعتهم الطلبتين معًا بأن: «رأس مَالِهم كان الفطرة السليمة، والعقل الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم، واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأس مال يتوسلون به إلى درك الحق، ونيل الكمال، فبقوا خاسرين، آيسين من الربح، فاقدين للأصل»(٢).

ويمكنك أن تضيف سببًا ثالثًا: فقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ يشمل الاهتداء للطرق الذكية في إنشاء التجارة، وفي إدارتها، وهم لم يهتدوا لا لإنشاء التجارة الصحيحة الرابحة، ولا لإدارتها.

وعندما تجمع بين هذه المعاني تجد أن هؤلاء المنافقين: ما ربحت تجارتهم في أمورهم الدنيوية، وما كانوا مهتدين في أمورهم الدينية، ولا مهتدين في إدارة حياتهم التي تمثِّل أعظم ثروة لهم، وفي الوقت ذاته تاجروا برأس مالهم وهو الهدى، فباعوه، وبذا يكونون قد خسروا في الجهات جميعها، ولا يغب عنك أن تجارتهم الخاسرة تدل على استمتاع قائم لكنه محدود، فالله عز وجل من ورائهم محيط.

---

(١) الكشاف (١/ ٧٢).

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٤٩).

وبناء على ذلك يلفت ابن عاشور ﵀ النظر إلى دقة التعبير في هذه النتيجة، فيقول: "ولِهَذا عَبَّرَ بِـ ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ دُونَ ما اهْتَدَوْا؛ لِأنَّ ﴿مَا كَانُواْ﴾ أبْلَغُ في النَّفْيِ لِإشْعارِهِ بِأنَّ انْتِفاءَ الِاهْتِداءِ عَنْهم أمْرٌ مُتَأصِّلٌ سابِقٌ قَدِيمٌ، لِأنَّ كانَ تَدُلُّ عَلى اتِّصافِ اسْمِها بِخَبَرِها مُنْذُ المُضِيِّ فَكانَ نَفْيُ الكَوْنِ في الزَّمَنِ الماضِي أنْسَبَ بِهَذا التَّفْرِيعِ"(١).ويروي الطبري ﵀ عن قتادة ﵀ رؤيته لمعنى قوله جل مجده: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾؛ إذ يرى الأدلة على عدم اهتدائهم واضحة، فيقول:" قد وَالله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفُرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السُّنة إلى البدعة"(٢).

تأمل في واقع الذين يسيطرون على مواقع القرار، ويحتلون قمة النجومية العالمية المفتراة اليوم لتجد أغلبهم يحاول الظهور بتحقيق الأمرين معًا:

الربح في تجارته أي تحقيق الإنجازات فيما يقوم به، والظهور بمظهر المهتدي في اختياراته أي الذي اختار الصواب على الخطأ.. لقد نفى الله تعالى عن المنافقين الأمرين معًا، فلا أرباح يحققونها فتبقى لهم، وما كانوا مهتدين في اختياراتهم.

فهم في الناحية الأولى يرون الحياة تجارة يظنون من خلالها أنهم هم الرابحون.. يظنون عندما يشترون الخمور والمخدرات بأنهم هم الرابحون..

يظنون عندما يشيعون الفاحشة أنهم رابحون.. يظنون عندما يقهرون المؤمنين، ويتآمرون عليهم عبر مؤسساتهم ووكالاتهم أنهم هم الرابحون.. يظنون عندما ينشرون الكفر والفسوق والعصيان عبر إعلامهم، وما يسمونه ثقافة- أنهم هم الرابحون.. يظنون عندما يستعرضون صواريخهم وقنابلهم ومتفجراتهم فوق الأطفال والنساء والمدنيين أنهم هم الرابحون..

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣١٧).

يظنون عندما يغسلون أدمغة الأجيال والشباب، ويستغلون عاطفتهم المتدينة، فيحرضونهم على ارتكاب الأفعال المنكرة لتشويه الدين، واضطهاد المستقيمين.. يظنون أنهم هم الرابحون.. هنا يأتي الرد القوي المزلزل على هذه الظنون الكاذبة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، فلا ربح في التجارة، ولا صواب في القرارات والتصرفات.

وهنالك معنى لطيف آخر ألمح له النورسي رحمه الله حينما قال: " وأيضـًا فيها رمز خفيٌّ إلى ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ في رأس السورة. كأنه يقول: أعطى القرآن الكريم الهداية فما قَبِلَ هؤلاء"(١).

وفي ختام سوق هذه الصفات ينبغي الإلفات إلى أنه يتوجب على كل ناصح لنفسه مشفق عليها أن يتطلب سبيل الاهتداء بها؛ فإنها كما يقول صاحب المنار رحمه الله: "إِذَا كَانَتِ فِي وَصْفِ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ تُوجَدُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ.. فَلْيُحَاسِبْ بِهَا نَفْسَهُ كُلُّ مُسْلِمٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ إِمَامُهُ وَأَنَّ فِيهِ هُدًى لَهُ، فَإِنَّهَا حُجَّةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ بِالْقَوْلِ وَيَعْمَلُونَ بِخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ غَيْرَ سَبِيلِهِ"(٢).

---

(١) إشارات الإعجاز (ص: ١١٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٣٢).

الفصل الثاني

البصائر القرآنية تنير الوعي بإدراك أنواع المنافقين [البقرة: ١٧-٢٠]

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ
لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ
ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠].

المناسبة والاتصال:

عرَّف الله ﷻ البشرية صفات المنافقين زاعمي الإيمان فيما سبق، ودخل فيهم من يزعم الإيمان بالله واليوم الآخر من كلِّ الشرائع ثم لا يطبق مقتضاها، وبعد أن ملأت البصائر القرآنية إدراكك بكيفية مخالطتهم دعوة وتفاعلاً، وأنبأتك عن صفاتهم، وكشف حقائقهم، وخفاياهم، أعقب الله ذلك بضرب مثلين لهم، ليكشف لك البيان القرآني في هذين المثلين أهم أنواع المنافقين، وطبقاتهم حتى لا يتم التعامل معهم وَفْق نمطٍ واحدٍ، وحتى تتعرف إليهم بصورة أكبر، فهم أعظم عدوٍّ للمجتمعات والإنسانية على الإطلاق.

وقد يتبادر إلى ذهنك هذا السؤال: لماذا تغير الأسلوب القرآني في الحديث عنهم هنا، ونقلنا إلى التمثيل لواقعهم؟

وأجيبك عن ذلك بأنك – وفقك الله – حين تتأمل ترى البيان القرآني هنا لم يتخذ طريقًا مباشرًا مثل الطريق السابق في الكلام عنهم، بل سلك أسلوب التمثيل لهم؛ لينوع في الخطاب، ويشوق الناس إلى معرفتهم، ويحرك العقول لتتدبر الكلام الذي يلقى لهم، وليوضح

عقلياتهم ونفسياتهم بصورة محسوسة مجسدة من خلال ربط ذلك بواقع الطبيعة حولنا، فقال الله ﷻ: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٧].

وهنا ضرب الله ﷻ لهم مثلين ليبين أنواعهم، ويوضِّح حقيقتهم زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان.

وتنوعت عبارات أهل العلم في هذا التمثيل حول المنافقين الذين تكلمت عنهم الآيات: هل هم جميع المنافقين أم فئة مخصوصة منهم؟

فذهب الفراهي رحمه الله إمام التفسير في عصره رحمه الله إلى أن المثلين ضُرِبا لمنافقي اليهود، ولواقعهم مع ما أنزل الله ﷻ من الكتاب الذي لا ريب فيه[١].

فما ترى في قول الفراهي رحمه الله أستاذ علم التدبُّر الكلي؟

لم يظهر رحمه الله بشخصيته المستقلة المعتادة، فقول الفراهي رحمه الله هنا لم يكن إلا انعكاسًا لميل بعض المفسرين إلى أن المنافقين المذكورين في هذه الآيات كانوا من اليهود، وهذا قولٌ حجَّر واسعًا، وهو بعيدٌ عن نَظَم الآيات، وعن الواقع التاريخي، فهذه الآيات في أول سورة البقرة تفصيل لحالة المنافقين سواء أكانوا من العرب أم من اليهود أم من غيرهم، وأما تفصيل الحديث عن اليهود فإن المحور الإسرائيلي في السورة سيأتي من الآية (٤٠)، ولا يعني هذا أنه لم يوجد منافقون من اليهود، ولكن وصف النفاق أعم من أن يُقْصَر عليهم، فقد كان منافقو العرب أكثر منهم.

فلعلك تسأل: ما هذان الفريقان اللذان يمثلان المنافقين في العالم للعالم، وهما يحاولان تدمير الإنسانية وحرفها، لتكون مستعبدة عند شياطينهم الذين يمثلون رسل الدجال؟

والجواب عن ذلك تفصيله فيما يأتي:

(١) ينظر: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٥٣).

الفريق الأول: الفريق الصُّلب الخالص في نفاقه، وضرب الله ﷻ لهم المثل الناري [البقرة: ١٧-١٨]

حيث قال الله ﷻ عنهم: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

فإن سألت: لكن ما المعنى الإجمالي الذي يبين هاتين الآيتين؟

والجواب: أن هؤلاء قوم لهم سابق صِلة وعلم بما أنزل الله تعالى على عبده ﷺ؛ فهم قوم عرفوا الكتاب الذي لا ريب فيه إجمالًا، فإمَّا كانوا كفارًا، وزعموا أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، وإمَّا هم قوم ولدوا على الإسلام بحُكْم النسب، ثم لم يلبثوا أن أفادوا من هذا الانتساب: أن يظن الناس فيهم الإيمان، فخالطوهم مخالطة المسلمين، وربما صاروا أصحاب مناصب وقوة ودولة بين المسلمين، ولكنهم رأوا أن أنوار الكتاب تمثل أغلالًا لشهواتهم الجامحة الجارفة، فجعلوا أهمَّ أهدافهم في الحياة تغيير الكتاب، ولما لم يستطيعوا ذلك في ألفاظه جعلوا أهمَّ مهماتهم محادة أعماله، فإن قيل لهم: هذا الذي تفعلونه إفسادٌ ردُّوا بقوة صارخة: إنما نحن مصلحون، وحتى لا يعرف الناس بحقيقتهم جعلوا الهدف الثاني في حياتهم محاربة من ينشر أنوار الكتاب، فاتَّهموه بالسَّفَه، وهذا يعني أن يتهموه بالإرهاب وينسبوا له كلَّ مشكلة في الدنيا، وحتى يتمكَّنوا من تحقيق هذين الهدفين في حياتهم كان لا بد أن يكونوا أشدَّ الناس ولاء لشياطين الإنس والجن، وهكذا استوقد الواحد منهم نارًا في ظلمات الدنيا، فأضاءت ما حوله بنور الإيمان، فأبى إلا محاربة أنوارها، فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون أنفسهم، ولا أخطاءهم، ولا جرائمهم، ومهما كلَّمهم أحد بمقتضيات الكتاب الهادي فَهُمْ صمٌّ عن سماعها، ومهما تكلموا فَهُمْ بُكْمٌ عن أن

يتكلموا بشيء يتعلق بأنوار الكتاب، ومهما نظروا حواليهم فهم يرون كل شيء إلا ما يرشد إليه الكتاب الهادي، فتكون النتيجة أنهم لا يرجعون إلى الكتاب الذي لا ريب فيه.

والفريق الثاني: هو الفريق المتردد المائع المراوغ، وضرب الله لهم المثل المائي [البقرة١٩-٢٠]:

حيث قال الله ﷻ عن هذا الفريق: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

فلعك تسأل: ما المعنى الإجمالي الذي يبين هاتين الآيتين؟

ويأتيك الجواب: بأن هذا الفريق المنافق يختلف عن الأول في أنه ربما رجع إلى القرآن في بعض أوقاته ليفيد منه كما يفيد التائهون في ظلمات الصيب (وهو المطر الكثيف المرتبط بالسحاب المتكاثر)، ورهبة الرعد والبرق، فإذا أضاء البرق مشوا فيه، ولكنهم يظلون كارهين لما فيه من صواعق الرعد، ولمعان البرق الذي يكاد يذهب بأبصارهم، كما يكرهون الصيب الذي يحيي الأرض بعد موتها؛ لأنهم يتوقعون منه أن يبعث نفوس الناس من موت المعصية، فإذا أحياها مثلت (إرهابًا محتمَلًا) مستقبلًا، فيضعون أصابعهم في آذانهم حذر الموت الذي يرون أنه يمكن أن يأتيهم من القرآن، فمن جهة يمشون في ضوء برقه لمحةً من الدهر، ومن جهة ينظرون إليه نظرة العداوة؛ لأنهم يرون فيه تشويشًا لحياتهم، بل يرون فيه خطرًا مستقبليًّا كخطر الصواعق التي تنزل من السماء فجأة دون توقع لمكان ضربها، وهذا الصنف المنافق يصوره المثل المائي متخبطًا، ويقول عنه السيد رشيد رضا رحمه الله: "يَسْمَعُ قَوَارِعَ الْإِنْذَارِ الْإِلَهِيِّ وَيَبْرُقُ فِي عَيْنَيْهِ نُورُ الْهِدَايَةِ، فَإِذَا أَضَاءَ لَهُ ذَلِكَ الْبَرْقُ السَّمَاوِيُّ سَارَ، وَإِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ بِشُبَهِ الضَّلَالَاتِ الْغَرَّارَةِ قَامَ وَتَحَيَّرَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيُعْرِضُ عَنْ سَمَاعِ نُذُرِ الْكِتَابِ

وَدُعَاةِ الْحَقِّ، كَمَنْ يَضَعُ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ إِرْشَادَ الْمُرْشِدِ، وَلَا نُصْحَ النَّاصِحِ، يَخَافُ مِنْ تِلْكَ الْقَوَارِعِ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَمِنْ صَوَاعِقِ النُّذُرِ أَنْ تُهْلِكَهُ"(١).

وهنا ربما تسأل عن الخيط الناظم الذي يجمع بصائر هذه الآيات الأربع؟

فأقول لك: انقسمت بصائر هذه الآيات إلى ثلاثة أجزاء كبرى:

الجزء الأول: البصائر التي تبين قوة أسلوب الأمثال في القرآن المجيد.

الجزء الثاني: المشاهد التي تبصرنا بها الآيات حول الفريق الأول من فريقي المنافقين، وهو الفريق الصُّلب الخالص في نفاقه، وضرب الله ﷻ لهم المثل الناري [البقرة١٧-١٨].

الجزء الثالث: المشاهد التي تبصرنا بها الآيات حول الفريق الثاني من فريقي المنافقين، وهم: الفريق المتردد والمراوغ، وضرب الله لهم المثل المائي [البقرة١٩-٢٠].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٢).

الجزء الأول: البصائر التي تبين قوة أسلوب الأمثال في القرآن المجيد

بصيرة١: الأمثال كاشفة:

تكشف النفسيات، وتصور الحقائق والأقوال، ويبصرنا قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾ بالأسلوب المتميز للقرآن المجيد؛ فالأمثال القرآنية أنموذجٌ للإعجاز التصويري، فهي تصل إلى الذروة في تصوير المعاني في صورة المَشاهِد المجسدة، وتنقل الأحداث المدهشة لتقرب المفاهيم العظيمة في حياة البشرية.

فأول ما تتساءل عنه عندما تتلوا ﴿مثلهم كمثل﴾ أن تسأل: ما معنى كلمة مثل؟

الجواب: كلمة مِثْل ومَثَل ومثيل، كشِبْه وشَبَه وشبيه، وبَدَل وبِدْل وبَدِيل، ولا رابعَ لِهَذِهِ الكَلِماتِ في مَجِيءِ فَعَلٍ وفِعْلٍ وفَعِيلٍ بِمَعْنًى واحِدٍ[(١)].

فالمثل هو المماثل إما بصورة كلية وإما بصورةجزئية على نحوٍ ما، ويطلق الـمَثَل ويراد به جملة معانٍ على عدة جهات:

الجهة الأولى: يطلق على القول السائر الممثل مَضرِبه بمورده.

فما معنى مضربه؟ وما معنى مورده؟

فَمَضْرِبُهُ هو: الحالَةُ المُشَبَّهَةُ أي الحالة الحاضرة؛ سُمِّيَتْ مَضْرِبًا؛ لِأنَّها بِمَنزِلَةِ مَكانِ ضَرْبِ ذَلِكَ القَوْلِ، وأمّا مَوْرِدُهُ فَهو الحالَةُ المُشَبَّهُ بِها أي الحالة السابقة، وهي الَّتِي ورَدَ ذَلِكَ القَوْلُ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠٣)، وما ذكر أن (المِثْل)، و(الـــمَثَل) بمعنى واحد إنما هو باعتبار الأصل، وإلا فإن المحققين من العلماء على أن هناك فرقًا بينهما فذكر ابن العربي أن المثل بالكسر عبارة عن شبه المحسوس وبفتحها عبارة عن شبه المعاني المعقولة فالإنسان مخالف للأسد في صورته مشبه له في جراءته وحدته فيقال للشجاع أسد أي يشبه الأسد في الجرأة.

وفرق الإمام فخر الدين بينهما بأن الـــمِثْل هو الذي يكون مساويًا للشيء في تمام الماهية، والـــمَثَل هو الذي يكون مساويًا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية. انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٩٠، ٤٩١).

فيها، سُمِّيَتْ مَوْرِدًا لِأَنَّها بِمَنزِلَةِ مَكانِ الماءِ الَّذِي يَرِدُهُ المُسْتَقُونَ، فالمثل هنا هو النظير في القول الحكيم الجاري.

كيف يضرب المثل في هذه الحالة؟

الجواب: أن يحصل ظرف أو موقف يُشبِه من بعض الوجوه موقفًا مألوفًا سابقًا، فيستحضر أحدهم ما قيل سابقًا ليخبر أن الموقفين متشابهان.

ويصدق عليه عند البلاغيين: "الاستعارة التمثيلية التصريحية والمَكْنية".

أتريد أمثلة لهذا النوع؟

الجواب: من أمثلة هذا النوع قول الله تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقول العرب: أشأم من البسوس، وقولهم: عند جهينة الخبرُ اليقين، وأصله من أبيات قالها الأخنس الجهني وهو يرى امرأة يقال لها: (صخرة) تبحث عن أخيها، وهو يعرف خبره، ويكتمه لأنه قتله، فقال[(١)]:

تُسـائِلُ عـن حصـينٍ كـلَ رَكْـبٍ ... وعـنـد جُـهَـيْـنـةَ الـخـبَـرُ الـيَـقِـيـنُ
فـمَـنْ يَـكُ سـائلا عنه فعـنـدي ... لسـائِلِـهِ الـحـديـثُ المسـتَـبِـيـنُ

ومن رائق ذلك ما ذكره الطاهر بن عاشور ﵀ في التمثيل لِلْمَكْنِيَّةِ التَّمْثِيلِيَّةِ مِن غَيْرِ بابِ الأمْثالِ أنه حَضَرْ جنازَةً، فَلَمّا دَفَنُوا المَيِّتَ ضَجَّ أُناسٌ بِقَوْلِهِمْ:

(اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلّا عَيْشُ الآخِرَةِ، فاغْفِرْ لِلْأنْصارِ والـمُهاجِرَةِ).

---

(١) ينظر: شرح مقامات الحريري (٢/ ١٣٨، ١٣٩).

فجعلوا حالتهم مماثلة لحالة الَّذِينَ كانُوا يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ مَعَ النَّبِي ﷺ؛ إذْ كانُوا يُكَرِّرُونَ هَذِهِ المَقالَةَ بِجامِعِ رَجاءِ القَبُولِ عِنْدَ اللهِ تَعالى، فَلَمْ يَذْكُرُوا ما يَدُلُّ على الـمُشَبَّهِ بِهِ ولَكِنَّهم طَوَوْهُ ورَمَزُوا إلَيْهِ(١).

الجهة الثانية: يطلق على الأنموذج العجيب الذي يتعلق بشأن محدد في الخير أو الشر:

فصار واقعه يزيد الإنسان علمًا بحقيقة موجودة، وَهُوَ مِنْ مَثُلَ الشَّيْءُ مُثُولًا: إِذَا انْتَصَبَ بَارِزًا فَهُوَ مَاثِلٌ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

الجهة الثالثة: يطلق على الصفة الغريبة الفريدة:

فَمَثَلُ الشَّيْءِ أي صِفَتُهُ الَّتِي تُوَضِّحُهُ وَتَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَوْ مَا يُرَادُ بَيَانُهُ مِنْ نُعُوتِهِ وَأَحْوَالِهِ، ومن ذلك قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي وفيما قصصنا عليك من العجائب: قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ في بيان عجائبها، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل ٦٠] أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة.

وأبلغ أنواع التمثيل: تَمْثِيلُ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ بِالصُّوَرِ الْحِسِّيَّةِ وَعَكْسُهُ(٢)، والتمثيل من أقوى وسائل التعليم والتوضيح، ولذا انتشر التمثيل المؤثر في القرآن الكريم.

بصيرة ٢: الأمثال ارتقاء:

يبصرنا ضرب المثل في قول ربّنا ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾ بأن القرآن المجيد يرتقي بعقول سامعيه، وينوع لهم في أساليبه، ويعلمهم أن يوسعوا أبصارهم لأحوال الحياة، ولذا صوَّر لهم المنافقين بتشبيه تمثيلي.

وهنا ستسأل: ماذا تعني بالتشبيه التمثيلي؟

وللإجابة عن ذلك يجدر بك أيها المفضال أن تعرف أنواع التمثيل، فإنه يأتي على أنواع:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٤٠).

فمنها التَّشْبِيه البَسِيطِ الذي فيه تشبيه ذاتٍ بِذاتٍ، فيكتفون بالكاف أو يبعدونه، فيَقُولُونَ مَثَلُ فُلانٍ كَمَثَلِ الأَسَدِ، أو يقولون فلان أسد.

وأعظم أنواع التمثيل: التمثيلات المركبة، وفيها ترى تشبيه صورة كلية مركبة من عدة أجزاء أو أفراد بصورة كلية مركبة من عدة أجزاء أو أفراد، ويؤكد الزمخشري رحمه الله أن التمثيل التركيبي تشبيه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى عادت شيئًا واحدًا.

فإن قلت: هل نشبه كل فرد في المشبه بما يماثله في المشبه به؟

أقول: لا! بل نشبه الصورة الكلية بالصورة الكلية، ويقرِّر الزمخشري رحمه الله ذلك، فلا يُتكلف تشبيه واحد بواحد فيه، قال: "وهو القول الفَحْل، والمذهب الجَزْل"(١)، بخلاف التشبية البسيط إذ العرب تأخذ فيه أشياء فرادى، معزولًا بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحُجْزة ذاك فتشبهها بنظائرها، تشبيه مفرد بمفرد كقولهم: فلان كالقمر.

فلعلك تسأل: كيف نعرف التشبيه التمثيلي ونميزه عن التشبيه البسيط؟

والجواب: في التشبية التمثيلي يأتون في جانِبِ الـمُشَبَّه والـمُشَبَّه بِهِ مَعًا أَوْ في جانِبِ أَحَدِهِما بِلَفْظِ الـمَثَلِ، ويُدخلون الكافَ ونَحْوَها مِن حُرُوفِ التَّشْبِيهِ عَلى الـمُشَبَّهِ بِهِ مِنهُما كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، فالغرض تشبيه حال الكفار من اليهود في جهل عوامهم، وفي عدم مبالاة علمائهم بما معهم من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله وعدم مبالاته لما يحمل من أسفار الحكمة.

وأحيانًا يكتفون بالكافِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ [الرعد: ١٤].

ومما هو بين في هذا قول لبيد(٢):

---

(١) الكشاف (١/ ٨٠).

(٢) البيت للبيد في ديوانه، دار صادر، بيروت، (ص:٨٨).

وما النَّاسُ إلّا كالدِّيارِ وأَهْلُها بِهَا يَوْمَ حَلُّوها وغَدْوًا بَلَاقِعُ

أى وهي في غد بلاقع، جمع بلقع: أى قفر خالي، والمراد بعد أيام قليلة، فالجامع سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنضرة، فلم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم، بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاء خاوية.

فإذا جاءت كلمة (مثل) والكاف معها دل هذا على التشبيه المركب الذي فيه نشبه حالة بحالة، أما إذا جاءت الكاف فقط فإن ذلك يدل على التشبيه البسيط الذي فيه تشبيه ذَاتٍ بِذَاتٍ أو ذَاتٍ بحالة، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يُونُس: ٢٤][١].

واستحسن ضياء الدين ابن الأثير ﷺ التشبيه التمثيلي، فقال: "وذاك تشبيه صورة بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في بابه"[٢].

وهنا نعرف لماذا أدخل الكاف في قوله: ﴿كمثل﴾، وكان يمكن الاكتفاء بكلمة ﴿مثل﴾ فيقال: مثلهم مثل الذي استوقد؟

ويأتيك الجواب: فقد أدخل الكاف على كلمة ﴿مَثَل﴾ في قوله: ﴿مثلهم كمثل﴾؛ ليبين أن التشبيه تمثيلي على الأسلوب الفخم البليغ، فكأنه يقول: يشبه حالهم حال الصورة الآتية، والتمثيل هنا يقرب صورة المنافقين، ويبين بعض حقائقهم، ويجعلك تدرك واقعهم بصورة أقوى، والمعنى: واقعهم الغريب، وحالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارًا، فمن أراد لفت أنظار من يحدثهم لقوة التصوير الذي سيذكره يذكر الكاف، وكلمة ﴿مثل﴾.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٠٣).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت الحوفي (٢/ ١١٠).

بصيرة٣: تتلخص أهداف ضرب الأمثال في القرآن في أن يكون البلاغ مبينًا، وأن يظهر الشيء المعنوي في صورة الأمر الحسي، وأن نكتشف التفاصيل الدقيقة التي قد لا ندركها دون التشبيه:

ربما تساءلت: ما الهدف من ضرب الأمثال مع أن الكلام المباشر كان كافيًا؟

الجواب: ألخصه لك فيما يأتي:

أما أولًا: فليكون البلاغ مبينًا، وليظهر البرهان مكينًا، ولتقوم الحجة البالغة على البشرية، فالله -جل مجده- ينوع الأساليب، ويضرب الأمثال للناس، لتثبت المفاهيم عندهم، وتتضح المسائل في حياتهم.

وأما ثانيًا: فلأن الأمثال تصوِّر الشيء المعنوي، وتُجَسِّد المعاني المعقولة، وتزيد فَهْمَ المحسوس، وتجعل الخفي من المعاني كالواقع الملموس، فتُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ مَا لَا يُؤَثِّرُهُ وَصْفُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، فالأمثال تبرز خَبِيَّات المعاني، وترفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المُتَخَيَّل في صورة المُحَقَّق، وتصوِّر لك المُتَوَهَّم في معرض المُتيقَّن، وتبيِّن لك الغائب كأنه مُشَاهَد، فللتمثيل بها شأن عظيم في إيصال المعاني إلى الأذهان الجامدة(١).

ولبيان قوة تأثير الأمثال يقول الرازي رحمه الله: "التَّرْغِيب فِي الْإِيمَانِ إذا وقع مُجَرَّدًا عَنْ ضَرْبِ مَثَلٍ لَهُ لَمْ يَتَأَكَّدْ وُقُوعُهُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَتَأَكَّدُ وُقُوعُهُ إِذَا مُثِّلَ بِالنُّورِ، وَإِذَا زُهِّدَ فِي الْكُفْرِ بِمُجَرَّدِ الذِّكْرِ لَمْ يَتَأَكَّدْ قُبْحُهُ فِي الْعُقُولِ كَمَا يَتَأَكَّدُ إِذَا مُثِّلَ له بِالظُّلْمَةِ، وَإِذَا أَخْبَرَ بِضَعْفِ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَضَرَبَ مَثَلَهُ بِنَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَقْرِيرِ صُورَتِهِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِضَعْفِهِ مُجَرَّدًا"(٢).

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٣١٢)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١١٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢/ ٣١٢)، الكشاف (١/ ٧٢).

وأما ثالثًا: فلكشف تفاصيل المعلومات، ودقائق المفاهيم، ويعبِّر البقاعي ﵀ عن ذلك، فيقول: "الأَمْثالُ أَلْصَقَ بِالبالِ، وأَكْشَفَ لِلأَحْوالِ"[(١)].

وفي (التناخ)-كتاب اليهود المقدس- نجد سفرًا مستقلًا باسم (سفر الأمثال)، وفي بدايته إجمال لأهداف الأمثال، ومما يوجد فيه ابتداء من الإصحاح ١ مع ملاحظة أن الترجمة العربية سيئة:

٢ لِمَعْرِفَةِ حِكْمَةٍ وَأَدَبٍ. ٣ لِقُبُولِ تَأْدِيبِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالاسْتِقَامَةِ.

٤ لِتُعْطِيَ الْجُهَّالَ ذَكَاءً، وَالشَّابَّ مَعْرِفَةً وَتَدَبُّرًا. ٥ يَسْمَعُهَا الْحَكِيمُ فَيَزْدَادُ عِلْمًا، وَالْفَهِيمُ يَكْتَسِبُ تَدْبِيرًا.

٦ لِفَهْمِ الْمَثَلِ وَاللُّغْزِ، أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ وَغَوَامِضِهِمْ[(٢)].

وأما رابعًا: ففي الأمثال تبكيتٌ للخصم الشديد الجدال، وقمعٌ لسَورة الجامح الأبيّ المتكبر المتعالي عن قبول الحق، وهذا مما أشار إليه الزمخشري ﵀[(٣)].

ولكنك قد تسأل: هل يوجد في القرآن ما ينبئنا بالهدف العظيم الكلي من ضرب هذه الأمثال؟

والجواب: نعم، فقد أجمل الله الغايات العظيمة من ضرب الأمثال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]، والأمثال هنا يدخل فيها ما نتكلم عنه، كما يدخل فيها غيره.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١١٨).

(٢) سفر الأمثال، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية (ص: ١٣، ١٤).

(٣) الكشاف (١/ ٧٢).

ولكن الله ﷻ يبصرك أن الذي يفيد من هذه الأمثال هم العالمون، فاشحذ بصيرتك لتدرك أسرار الآيات، فقد قال جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قصة توضِّح لك القوة التي يؤتاها من يضرب الأمثال في الانتصار في المعارك الجدلية:

دعني أقص عليك هذه القصة لتتضح لك قوة التمثيل في المناظرة وإقامة الحجة:

أصرَّ زعيم القاديانية ميرزا غلام أحمد القادياني على أنه نبي، وناظر علماء الجامعة الديوبندية، وتلاعب في الكلام بهم ليُعلي باطلَه، فبرز له في الميدان الشيخ ثناء الله الأمرتساري، فاستدلَّ بالحديث الذي روته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، وفيه: وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَهَا قَالُوا: تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠][(١)].

وكان يمكنه الاستدلال بالآية لكن جرى الأمر هكذا

فأجاب غلام أحمد: حديث ترويه امرأة، وشهادة المرأة الواحدة غير مقبولة شرعًا.

وتلاعب بالكلام أمام العوام، قال ثناء الله: "فأجبته هل من الممكن أن أسألك سؤالاً!؟ فقال: اسأل ما شئت، فقلت: أنت لست من أبيك فلان. فغضب وقال: كيف تتهمني في نسبي وتتهم أمي؟! فقال: أنا لا أتهمك: ولكن ائتني بدليل أنك من أبيك الذي تنسب إليه! فقال: أمي تقول ذلك، قال: أمك امرأة واحدة وشهادة المرأة الواحدة لا تقبل شرعًا، ثم قال: أمك صادقة، وأم المؤمنين غير ذلك؟ إما أن تقبل بأن أمَّك ليست صادقة! أو تقبل برواية السيدة عائشة رضي الله عنها التي روت الحديث، وسكت غلام أحمد وعلا التكبير.

(١) الترمذي (٣٢٠٧)، قال الألباني: "ضعيف الإسنا جدًّا". ضعيف سنن الترمذي (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

فهذا التمثيل قرب المسائل، وقطع الأقاويل.

فإن سألت: متى يضرب المثل؟

والجواب: يرى الزمخشري أن المثل يُضرب عند القول الذي فيه غرابة من بعض الوجوه(١)، ويحتاج الناس إلى أن يُقَرَّب لهم بتصويره، وعندها يعجبون له، ويفهمون على نحوٍ ما حال المشبه والمشبه به والمشبه له، وقد يضرب المثال للشيء الواضح ليزداد وضوحًا، واستقرارًا في النفس، وإدراكًا لبعض أسراره وأخباره، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩]: أي صِفتهم وشأنهم المُتَعَجَّب منه، ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مُثْلَةٌ في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن.

لكنك قدتتساءل: لماذا جاء التمثيل للصنف الثالث من الأصناف الثلاثة: (المتقون، الكفار المتطرفون، المنافقون) دون غيرهم؟

أو إن شئت قلت: يكاد هذا الاهتمام بتوضيح هذا الصنف يبلغ حد الإعجاز.. هل تدري لماذا؟

ويأتيك الجواب: لأن هذا الصنف أخطر صنفٍ في التشويش على هدى الكتاب الذي لا ريب فيه، وعداوته للكتاب غامضة خفية، وسببها أغمض، وستقول: كيف ذلك؟

الجواب:

الكافر المتطرف الصريح أعلن ابتداء أنه لن يؤمن بالكتاب الذي لا ريب فيه، فسواء عليه أأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن.

أما المنافق فجعل إعلانه للإيمان منطلقًا للخداع والكذب والتكذيب، فكان يجب عليه أن يكون الكتاب هدى له، وشفاء لأمراضه، إلا أن مرضه نشأ من الشفاء، وضلاله نشأ من منبع

(١) الكشاف (١/ ٧٢).

الاهتداء، فانظر هذه الحالة المرضية الرديئة المستعصية: داؤه تولد مِنَ الدَّوَاءِ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهِ الصِّحَّةُ وَنِعْمَةُ الْعَافِيَةِ، كما قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله(١).

ترى المنافق جعل الكتاب الهادي منطلقه لبث الضلالة في العالم بدلًا من أن يجعله منطلقه لهداية نفسه والعالمين، ولذلك كان خطر هذا الصنف كبيرًا، وَدَاؤهُ غامضًا، وَعِلَاجُهُ مُتعَسِّرًا، ووجب لذلك أن يأخذ حقه من البيان والتوضيح.

ولأن هذا الصنف هو الأردأ الذي أخذ كل هذا الحيز من البيان لا يكاد يوجد له مثيل في الأرض.. تصور ذلك، وتعال نتدبر هذا الأسلوب التمثيلي لأقسام المنافقين:

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤١).

الجزء الثاني

المشاهد التي تبصرنا بها الآيات حول الفريق الأول من فريقي المنافقين، وهو الفريق الصُّلب الخالص في نفاقه، وضرب الله ﷻ لهم المثل الناري [البقرة: ١٧-١٨]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

مشاهد المثل الناري للفريق الأول {الصُّلب الخالص في نفاقه} {البقرة: ١٧-١٨}

1 **المشهد الأول: ظهور قائد المنافقين**
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، فاسم الموصول يدل على أن أحد المنافقين كان نشطًا ذا صفات قيادية.

2 **المشهد الثاني: قائد النفاق يمتلك المهارات القيادية**
الفذة للتأثير على من حوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

3 **المشهد الثالث: الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم**
﴿فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّٰهُ بِنُورِهِمْ﴾

4 **المشهد الرابع: النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لمّا﴾ الخفي**
فيحتمل أن يكون جواب ﴿لما﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ظاهرًا مذكورًا، كما يحتمل أن يكون محذوفًا

5 **المشهد الخامس: ملء الفراغ بالظلمات**
﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

6 **المشهد السادس: مشهد البصر المفقود**
﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾

7 **المشهد السابع: ذهاب النور وحلول الظلمة**
وعدم الإبصار تمتد من الدنيا إلى الآخرة: يبصرنا بذلك: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

8 **المشهد الثامن: الإصرار على الدمار وعدم التراجع عنه**
﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

9 **المشهد التاسع: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾**
نتيجة توضح أن المنافقين لهم أهدافهم في الحياة، تتلخص في نشر ظلمات الكفر والفسق والإفساد في الأرض

مفصل سورة البقرة (1)

تبصرنا الآيات بأن هذا المثل تكون من المشاهد الآتية:

المشهد الأول: ظهور قائد المنافقين:

تبصرنا كلمة ﴿الذي﴾ من قوله تعالى ذكره: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] بأن أحد المنافقين كان نشطًا ذا صفات قيادية، وطلب أن يكون له دور في الأرض، فأوقد نارًا ينشر من خلالها نورًا له يجمع الأتباع من حوله، وبدأ بأقوى المؤثِّرين، فكون معهم قيادة مشتركة هو أعلاهم فيها، ويصحُّ أن يكون التمثيل لمجموعة نشطة قادهم أكثرهم تاثيرًا:

هنا تراني أبرزت المدلول المؤثر لكلمة ﴿ٱلَّذِى﴾، ولاستجلاء هذه الدلالة تعال بنا نعيش مع هذا السؤال التدبري:

كيف قال الله جل مجده: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ و"الهاء والميم" من قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ للجمع من الرجال أو الرجال والنساء، و﴿ٱلَّذِى﴾ دلالة على واحد من الذكور؟ ولماذا لم يقل: مثلهم كمثل الذين استوقدوا نارًا؟

الجواب: هذا السؤال التدبري وضعه الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله ليثير الأذهان، ويحرِّك العقول لتنظر، وتتدبر، وتفكر، وتقدر، وقد أجاب كما أجاب غيره من المفسرين، فدعنا ننظر ما قالوا:

فأما أولاً: فذهب الفرَّاء رحمه الله إلى أن كلمة ﴿ٱلَّذِى﴾ تعود إلى معنى النفاق، فقال: «إنما ضرب المثل للفعل، لا لأعيان القوم، وإنما هو مَثَلٌ للنفاق»(١)، ويكون تقدير الآية: مثل نفاقهم كمثل الذي استوقد نارًا.

وأما ثانيًا: فذهب الطبري رحمه الله إلى أن تشبيه الجمع بالمفرد يجوز عربية عندما يكون المقصود وصف الأفعال والصفات، ومما يدل على صحة هذه القاعدة قول الله جل ثناؤه:

---

(١) معاني القرآن للفراء (١/ ١٥).

﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] يعني كَدَوَرَان عيْنِ الذي يُغشى عليه من الموت، وكقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] بمعنى: إلا كبَعْث نفسٍ واحدة(١).

ومن أبرز الأمثلة التي تظهر لك الجواز العام لتشبيه جمع بمفرد قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، أي لا يكن الواحد منكم مثلها، وكَقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أيْ يُخْرِجُ كُلَّ واحِدٍ مِنكم، وفي شِعر العرب ما يدلُّ على ذلك، فقد قال الأشهب بن رميلة(٢):

وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ   هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وتوسَّع ابن جرير رحمه الله في بيان ذلك كأن يقال: ما أفعالهم إلا كفِعل الكلب، ثم يحذف فيقال: ما أفعالهم إلا كالكلب أو كالكلاب، - وأنت تعني: إلا كفعل الكلب، وإلا كفعل الكلاب، ولم يَجُزْ أن تقول: ما هم إلا نخلة، وأنت تريد تشبيه أجسامهم بالنخل في الطُّول والتمام.

وهذا الذي ذهب إليه الطبري رحمه الله تتابع عليه من بعده في تقرير هذه الآية إلى فارس علم البيان المعاصر فضيلة أ. د. فاضل السامرائي جزاهم الله الجزاء الأوفى.

وبالنظر إلى ما ذكر فإن ما قرّروه – أكرمهم الله – ليس في موضعه، فقد قرَّرت في أول تدبري لهذه الآيات أن المراد التشبيه التمثيلي الذي يُشَبِّه هيئة بهيئة وليس فردًا بفرد أو جماعة بجماعة، والمفسرون قرَّروا أن المَثَلَين جميعًا من التمثيلات المتركبة دون المفرقة لا يتكلَّف

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٨).

(٢) البيت منسوب له. يتظر: الإبانة في اللغة العربية (٢/ ١٨٠)، لسان العرب (٢/ ٣٤٩).

فيها تشبيه الواحد بواحد، فالمنافقون وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد إنما شبهت قِصتهم بقصة المستوقد وما حدث له.

السؤال اللافت هنا بعد تقرير كل ما سبق، والوقوف على آراء محققي أهل الفن: إذا كان المراد تشبيه هيئة بهيئة، فلعلك تسأل: فهل لوجود المفرد في قوله: ﴿ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ دلالة خاصة؟

الجواب: نعم! له دلالته، كأن الآية تخبرك عن حال هؤلاء المنافقين، وكيف صاروا قوة مجتمعة، وتبصرك بذلك بصورة مدهشة:

فبداية هذا التجمع الحزبي الغادر للمنافقين وشياطينهم إنما هو نتيجة نشاط واحد مجرم يمتلك صفات قيادية عالية ليفسد الأرض، ويهلك الحرث والنسل، وقد ألمح الطاهر رحمه الله إلى أن الذي استوقد مفرد مراد به مشبَّه واحد؛ لأن مستوقد النار واحد، ولا معنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار[1]، لكنك ترى أنه لم يشر إلى أن فائدة كونه مفردًا، ولماذا آثر القرآن التعبير عنه بالمفرد؟

ولكنك قد تسأل: كيف تصور لنا كلمة ﴿ٱلَّذِى﴾ نشاط هذا المرء -ومثله المرأة- ممن يتمتع بالصفات القيادية؟

والجواب: تدبَّر معي هذه الآية لترى العجب مِن التصوير التمثيلي لهذه الأحداث المتتابعة:

لقد أخذ هذا القيادي النشط في معسكر النفاق بزمام المبادرة وأطلق الشرارة الأولى ليذكي نار الفتنة ويؤجج لهيبها؛ فيجتمع حوله أشكاله من القوى المنافقة ويمضي بهم في المسيرة

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠٧).

الخذولة نحو غاية مرذولة، والذي صنعه هذا الشقي إنما -كما قلنا- إطلاق الشرارة الأولى لتستحيل نارًا، كما قال القائل:

.... ومعظمُ النارِ منْ مُستصغرِ الشررِ

لقد استوقد هذا المصطلي وهو القيادي النشط في النفاق نارًا طلبًا لمنافعها، ولتجميع الناس حولها.

والنار جعلها الله ﷻ تذكرة ومتاعًا للبشر، كما قال عزام رحمه الله(١) وهو يتصور رجلاً يطلب من ابنته أن توقد النار في الظلمات ليقصدها الناس:

يا لُبَيْنَى أوقدي، طال المدى	أوقدي علَّ على النار هدى
أوقدي يا لُبن قد حار الدليل	أوقدي النار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرها	علَّ هذا الركب يعشو شطرها
شرِّدي هذا الظلام الجاثما	أرشدي هذا الفراش الهائما
حبذا النار بليل توقد	حبذا المؤنس هذا الموقد
حبذا عندك هذا النُّزُل	لو حدانا في سفارٍ منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريق	إنما النيران أعلام الطريق

تأمل الآن: كيف تبدي لنا كلمة ﴿الذي﴾ معنى رائعًا فائقًا؟. تبدي لنا حال هذا النشط في استيقاد النار، وهي حال أي نشط أراد الهداية أو الضلالة فإنه يستوقد النار، ولكن الذي يحدث بعد ذلك هو الذي يحدد أهدافه: هل يريد الصلاح أم الفساد؟

(١) الأبيات للدكتور عبد الوهاب عزام، من قصيدة اللمعات، التي ألحقها بترجمته لديوان رسالة المشرق لإقبال. ينظر: ديوان محمد إقبال – الأعمال الكاملة (١/ ٣٤٦).

وكذلك حال المنافق عندما آمن بالكتاب طلبًا لأنواره الدنيوية والأخروية، فأضاءت أنواره ما حوله، فجاء آخرون طلبًا لتلك المنافع.

هكذا تراني أعملت الدلالة اللفظية لكلمة ﴿الذي﴾، وحاولت أن أبحث عن المعنى الذي يُظهِر لنا أنها مقصودة، فليس الأمر كما ذهب إليه الطبري والزمخشري رحمهما الله ومن معهما من أن جمع الضمير في قوله ﴿مَثَلُهُمْ﴾، وتوحيده في قوله: ﴿الذي﴾، ﴿حوله﴾ للحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى، بل كل لفظ مقصود المعنى في موضعه.

فإن قلت: فهذا الإفراد في قوله: ﴿الذي، حوله﴾ ثم الجمع في قوله ﴿بنورهم، وتركهم﴾ دلنا على أثر نشاط القيادي في الناس، فهل من أمثلة واقعية تؤكد هذا المعنى وتبرزه؟

الجواب: نعم فالانتقال من الإفراد في قوله: ﴿الذي، حوله﴾ إلى الجمع في قوله: ﴿بنورهم، وتركهم﴾ دلنا على أثر نشاط القيادي في محيطه، وأن المبادرة التي تبناها، والشرارة التي أطلقها كان لها أثر ملموس، ونتيجة في الواقع، وما ذلك بغريب في أحوال الناس كما قال الشاعر:

لِكُلِّ سَاقِطَةٍ في الأَرْضِ لَاقِطَةٌ وَكُلُّ كاسدة يَوْمًا لَهَا سُوقُ

أما المثل في المنافقين، فهو واضح: إنه عبد الله بن أبي بن سلول الذي أَثَّرَ على مجتمع المدينة، وكان له أثر كبير على من حوله، ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو حميد الساعدي رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم خرج يومَ أُحُدٍ حتى إذا جاوز ثنيَّةَ الوداعِ إذا هو بكتيبةٍ خشناءَ (أي عظيمة) فقال: من هؤلاءِ؟ فقالوا: عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ بن سَلولٍ في ستمائة من مواليه من اليهودِ من أهلِ

قينُقاعٍ(١)، وهذا ينبئك بقدرته الضخمة على القيادة، فإذا كان هذا أثره على اليهود، فكيف أثره على العرب؟!

وفي البخاري رحمه الله أن ابن أُبَيٍّ ابنِ سَلُولٍ ومَن معهُ مِنَ المُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأوْثانِ قالوا لما نصر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في بدر: هذا أمْرٌ قدْ تَوَجَّهَ –أي أن المستقبل للإسلام– فَبايِعُوا رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم على الإسْلامِ، فأسْلَمُوا(٢)، أي أظهروا الإسلام، فاستوقد ابنُ أبي بذلك نارًا أي أشعل نارًا حوله ليجد النور، وهذه النار التي أراد الإفادة منها دلته على نور الكتاب فأظهر الإسلام، لكن ذهب الله بنوره فبقي في ظلمة النفاق لا يهتدي إلى شي؛ إذ ما أظهر الإسلام إلا لأجل زيادة الإفساد من خلال النفاق.

ونشاط رأس المنافقين في الخداع والفساد في الأرض وتجميع الأتباع يشبه نشاطَ رأس الكافرين إلا أن الفرق ما يتميز به رأس المنافقين من شِدَّة المراوغة، ولنأخذ هذا المثل لرأس الكافرين: أشقى ثمود الذي انبعث فأثر على أمة بأسرها، وكان سبب دمار حضارة ثمود، ووصف الله نشاطه في الفساد والإفساد، فنعته بأنه أشقاها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي وعمار رضي الله عنهما: «**أَلاَ أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ؟**» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أُحَيْمِرُ ثَمُودُ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ، -وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَرْنِهِ- حَتَّى يَبُلَّ مِنْهَا هَذِهِ، وَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ**»(٣).

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٤٨)، وحسنه الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٠١)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥١٤٢)، والحاكم في المستدرك (٢٥٦٤).

(٢) البخاري (٦٢٠٧).

(٣) أحمد (١٨٣٢١)، وقال الأرناؤوط: "حسن لغيره"، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٤٣).

ووصف أشقى ثمود ينبئك بصفاته القيادية، وإن كان أشقى ثمود كافرًا صريحًا، إلا أنني أردت أن أبرز أثر قيادة الفرد على غيره.

لا تبتعد في التصور، وانظر حواليك لترى وجوهًا قيادية في الساحة المسلمة، كان بعضهم من المتدينين، فاستوقدوا نارًا تجعل لهم مكانة يبصرهم من خلالها الناس، فلما رأوا زخرف الدنيا، هجروا أنوار تلك النار، فذهب الله ﷻ بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فهمنا الدلالة العميقة التي بصرتنا بها كلمة ﴿الذي﴾، وبقي أن ندرك معنى ما بعدها، فما معنى: استوقد، نارًا، فلما، أضاءت، ما حوله؟

هنا يأتي المشهد الثاني من التمثيل:

المشهد الثاني: قائد النفاق يمتلك المهارات القيادية الفذة للتأثير على من حوله:

فقوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ يبصِّرنا بأن انتشار النفاق بدأ بمنافق صلب خالص في نفاقه عنده روح المبادرة، وصفات القيادة طلب إيقاد النار وبعث النور حتى يضيء ما حوله ليحقِّق إنجازًا في حياته.

احترس منه لا يغررك ذلك.. لقد أظهر الخير ابتداء، ولم يعلن الإجرام والإفساد، فهو يتسم بطاقة وحيوية وحركة. وهذا ما تبصرنا به هذه الكلمات، ثم ستأتي التتمة لتوضح حقيقة الحال:

ما أجمل هذا التصوير وأدقه في بيان نفسيات المنافقين! لكن احترس! وتأمل كيف استضاء المنافق بنور الكتاب أولاً؟

الجواب: أن الله ﷻ صوَّر المنافقين الذين خَلُصَ نفاقهم، وتتام إجرامهم، فبدأ بذكر قيادتهم، والسر الغريب الذي يكشفه الله ﷻ ليصوِّر لنا كيفية تحوُّلِ هذه القيادة من أنوار الكتاب إلى ظلمات الأهواء، ونصرة الدجال، يظهر لنا في قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ

نَارًا﴾، أي مَثلُ استضاءة المنافقين بنور الكتاب الذي لا ريب فيه كمثَل استضاءة واحد نشط رأى الحيرة في هذه الحياة، ووجد الظلمات الفكرية تحيط به وبالناس، فانطلق يطلب أن يوقد نارًا بصورة مؤكَّدة حثيثة عسى أن تفيده نورًا يضيء له الطريق اللاحب، ويكشف الظلام الحالك، ويبعده عن مظان العثرات والمهالك، ولكنك ترى التعبير القرآني أسقط ذكر الاستضاءة، وأضيف المثَلُ إليهم، والتقدير: كمثل استضاءة الذي استوقد نارًا(١). هكذا قال بعض علمائنا، ولكن الذي يظهر لي أن طلب هذا الشخص للإيقاد ليس خاصًّا بالاستضاءة بل يشمل كل المنافع التي يمكن أن يحصلها من هذا الإيقاد.

نعود للتصوير الذي تقدمه الآية، ونتساءل: ما الصورة التي ظهرت في قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾؟

وأجيبك: بأن هذه الكلمات تصور لنا رجلاً -ومثله أي امرأة تعمل عمله- يقف مع أناس كُثُرٍ في ظلمات الطريق المليء بالتعرجات والحفر والحواف، التي إذا انزلقت رجل إنسانٍ فيها هوى في وادٍ سحيق، فهو حائر لا يدري ما يصنع، وعند ذاك ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ لتضيء ما حوله، فيستدفئ بها، ويبصر بها طريقه، ويميز بها موقع من حوله، وما حوله.

---

(١) قاعدة لغوية: يجوز أن يسقط المضاف ويبقى المضاف إليه، وهذا معتاد في كلام العرب كما قال نابغةُ بني جَعْدَة:

وَبَعْضُ الأَخِلاّءِ عِنْدَ البَلا ... ءِ والرُزْءِ أَروَغُ مِن ثَعلَبِ
وَكَيفَ تُواصِلُ مَن أَصبَحَت ... خِلالَتُهُ كَأَبي مَرحَبِ
رَآكَ بِبَثٍّ فَلَم يَلتَفِت ... إِلَيكَ وَقالَ: كَذاكَ اِدأَبِ

يريد: كخلالة أبي مَرْحب، فأسقط "خلالة"، إذ كان فيما أظهرَ من الكلام، دلالةٌ لسامعيه على ما حذف منه، والخلة والخِلالة: الصداقة المختصة التي ليس في علاقتها خلل، وأبو مرحب: كنية الظل، يريد أنها تزول كما يزول الظل، لا تبقى به مودة. انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

فهمنا أن هذا المستوقد ليس بخامل، ولا قاعد، ولا متكاسل، بل هو متفاعل نشط، ولكنه يوجه طاقته لنصرة الجانب المظلم كما سيظهر لاحقًا.

فإن قلت: ما الوقود في أصل العربية، وكيف ظهر جمال استعمال هذه الكلمة في هذا الموضع؟

الجواب: وقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها، فكلمة (وَقَدَ) تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، فيقال منها: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وُقودًا ووَقْدًا، وَاتَّقَدَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ إِذَا وَقَدَتْ، والوَقُودُ يقال للحطب المجعول للوُقُودِ، ولما حصل من اللهب كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: ٢٤](١).

والنار: جوهر لطيف مضيء حارٌّ محرق، والنور: ضوؤها وضوء كلِّ نير، واشتقاقها من نار ينور، إذا نفر؛ لأنَّ فيها حركة واضطرابًا واشتعالاً، وتطلق على:

١) اللهيب الذي يبدو للحاسّة، قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، وقال: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

٢) الحرارة المجرّدة، ومنها نار جهنّم المذكورة في قوله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: ٧٢](٢).

والاستيقاد، والنار في هذا السياق ينبئانك عن اجتهاد قام به المستوقد ليجد سبيلاً يبدد به الظلمات المحيطة، وليحقق أهم خطوة في إبصار الحقائق حوله.

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٥٢٩).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣١٤).

ولكنك ستقول عرفنا معنى أصل الوقود في اللغة العربية، ويبقى أن نعرف معنى قوله: ﴿استوقد﴾ ؟ وما ملمح الجمال التصويري في هذه الكلمة؟

إليك -أيدك الله- الجواب: فكلمة ﴿استوقد﴾:

إما أن تكون بمعنى طلب إيقاد النار، وهو ما تفيدة سين الطلب، أي طلب ذلك لنفسه أي هدف بِإِضْرَامِهَا وَإِيرَائِهَا أَنْ تَقِدَ، وربما طلب الإعانة على ذلك أصحابه لاحتياجهم جميعًا للاستضاءة بنور تلك النار، والطلب يدل على نفسٍ مملوءة عزيمةً، طالبة لإحداث تغيير، وهذه سمة قيادية.

وإما أن تكون بمعنى أوقد، والسين والتاء لزيادة تأكيد الفعل، فهما يدلان على " البحث القوي، والطلب الجاد"[١]، مثل: استجاب يعني أجاب إجابة مؤكدة، كما قال الشاعر[٢]:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

يعني: فلم يُجبه، وفي السين إشارة الى التكلف والتحري[٣].

ويبرز جمال هذا المعنى في إظهار فعل الاستيقاد ﴿استوقد﴾ بأنه يحب أن يتأكد من القيام بالإيقاد، فإيقاده يصاحبه الاهتمام، والقوة، والعزيمة، والصبر بما يليق أن يقوم به ليحقق أهدافه، وعملية الإيقاد بقَدْحِ الزَّنْدِ أو الإشعال عملية تحتاج إلى اهتمام وصبر.

(١) جماليات المفردة القرآنية (ص: ٢٥٠).

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي. ينظر: جمهرة أشعر العرب (ص: ٥٥٨).

(٣) إشارات الإعجاز (ص: ١٣٠).

الآن وبعد أن رأيت أن كلمة ﴿استوقد﴾ بصرتنا بمعنيين: طلب الإيقاد، والإيقاد المؤكد.. فأي المعنيين نعمله هنا؟

الجواب: منهج هذا التفسير قائم على إعمال المشترك في معنييه أو معانيه، وتوسعة دلالة اللفظ مالم يكن ثمة قرينة تمنع ذلك، وهنا نرى أن هذا المستوقد تحرَّك بعزيمة لطلب إيقاد نار يستضيء بها، وكان طلبه للإيقاد مصحوبًا بالهَمِّ والاهتمام، وبذا صوَّر لنا المعنيان طبيعةَ هذا المستوقِد ومؤهلاته القيادية، وثاقب بصره بالأمور ومعالجتها؛ "لأن قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ يقتضي أن المستوقد ذو بصر، وإلا لما تأتّى منه الاستيقاد"[١].

تعال بنا إلى قوله ﴿أضاءت﴾ فما معنى هذه الكلمة؟ وما وجه الجمال التصويري فيها؟

الجواب: تدهشك روعة البيان القرآني؛ فكلمة ﴿أضاءت﴾ مشتقة من: ضَوَأَ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فأبدلت ألفًا، فيقال: ضاءَ السِّراجُ يَضُوءُ ضَوْءًا وضُوءًا وأَضاءَ يُضِيءُ، وَفِي حَدِيثِ بَدْءِ الوَحْي: «**يَسْمَعُ الصَّوْتَ، ويَرَى الضَّوءَ**»[٢] أَي كَانَ يَسمع صَوْت المَلَك، وَيَرَى نوره في مقدمة بدء الوحي ليَرى آياتِ رَبِّه، وَفِي شِعْرِ الْعَبَّاسِ رضي الله عنه[٣]:

وأَنْتَ، لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَت ... وضاءَت، بِنُورِك الأُفُقُ

ويُقَالُ: ضاءَتْ وأَضاءَت أَي اسْتَنارَتْ، وصارَت مُضِيئةً.

والإضاءة: فرط الإنارة، كما يقرر الزمخشري رحمه الله[٤].

فكلمة ﴿أضاءت﴾ تبصرنا بانتشار النور، وأن هذا النور كان عاليًا واضحًا.

(١) التحرير والتنوير، (١/ ٣١٣).

(٢) مسلم (٢٣٥٣).

(٣) البيت منسوب للعباس رضي الله عنه. ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة، مطبعة العاني، بغداد (١/ ٣٥٩).

(٤) الكشاف (١/ ٧٣).

ومقتضى ذلك قيام الحجة على هذا الصنف المخذول، فقد أضاء لهم كتاب الله ووحيه السبيل، وجلى لهم الدرب، ووطأ لهم السير، ولكنه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

فلعلك اشتقت لتعرف ماذا تعني كلمة ﴿ما﴾ في قول الله جل ذكره: ﴿ما حوله﴾؟ وما وجه الجمال فيها هنا؟

يرى الزمخشري رحمه الله أن ﴿ما﴾ مزيدة، والتقدير: فلما أضاءت النار حوله[١].

وأنت احكم بذوقك: هل يستوي أن تقول: فلما أضاءت ما حوله، وأضاءت حوله؟

لا يستويان، ولذا لا يظهر أن ﴿ما﴾ مزيدة كما قرر الزمخشري رحمه الله، بل الصحيح ما ذكره لاحقًا من أن ﴿ما﴾ موصولة، وربما تساءلت: لماذا جاءت مبهمة بهذه الهيئة؟

الجواب: لتشمل المكان والزمان والحال.. كل ذلك اجتمع في هذا الاسم الموصول ﴿ما﴾، والتقدير: فلما أضاءت النار الذي حوله أي المكان، والزمان، والواقع حوله، وهذا تأكيد ثان لما سبقت الإشارة إليه -آنفًا- من معنى قيام الحجة عليهم، واستبانة المحجة والطريق.

فإن قلت قد عرفنا معنى (ما) فهلا أخبرتنا ماذا تعني كلمة ﴿حوله﴾ في قول الله جل ذكره: ﴿ما حوله﴾ ؟ وما وجه الجمال فيها هنا؟

الجواب: كلمة ﴿حَوْلَهُ﴾ نُصبت على الظرف.

(١) الكشاف (١/ ٧٣).

وهذه الكلمة مشتقة من (حَوَلَ)، وهي تعني تحرك الشيء فِي دَوْرٍ وطواف[(١)]، مع تغيُّر أوضاعه، وانتقاله وعدم استقراره، فيعدل عن اتجاهه الزمني، أو المكاني، أو الشخصي إلى ما يماثله مما هو قريب منه (مع عدم انقطاع).

من أجل ذلك نبه الزمخشري رحمه الله أن الكلمة تعني الدوران والإطافة[(٢)]، ولم يَمِلْ إلى ذلك الطاهر رحمه الله[(٣)]، وهذا الدوران أُخِذ من قولهم: الـمُسْتَحِيلة من العِصىّ: وهي المعوجَّة، وكل ما تحوّل من الاستواء إلى العِوَج فقد حال واستحال، فحَوَلُ العين -محركة: أن يظهر البياضُ في مؤخِرها (الذي يلي الصُدْغ) ويكونَ السوادُ من قِبَل الموق (الذِي يلي الأنف) وقيل بعكس ذلك[(٤)].

والْحَوْلُ: الْعَامُ، وَذَلِكَ لأن الزمان المحدد بمواسمه يَحُولُ، أَيْ يَدُورُ، فلا يستقر على هيئة واحدة حتى يأتي على جميع مواسمه عائدًا إلى الموسم الأول في زمنه، وَحَالَ الشَّخْصُ يَحُولُ، إِذَا تَحَرَّكَ حتى تغير وضعه، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُتَحَوِّلٍ عَنْ حَالَةٍ[(٥)]، وحَوْلُ الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧].

فبصرنا قوله ﴿حوله﴾ أن الضوء يشمل الجوانب التي للمستوقد على هيئة شبه دائرية، وهذا يدل على المكانة المركزية للمستوقد، فهو مركز إضاءتهم، وإذا أراد لهم الخير تبعوه، وإذا أراد لهم السوء لم يخالفوه.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٢١).
(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٧٣).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٠٨).
(٤) ينظر: المعجم الاشتقاقي (١/ ٤٨١).
(٥) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٢١).

وصوَّر لنا قوله تعالى: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ الزمان الذي حول المستوقد، والأرض والبيئة والمكان الذي يحيط به في جهاته المتعددة، وعمَّ ذلك من في الزمان والمكان من الحاضرين الذين يمكن أن يكونوا أتباعًا له بعد ذلك؛ لأنه هو الذي استوقد النار.

ويلفت ابن القيم رحمه الله إلى سرٍّ عظيم عبَّر عنه قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ ، وهو أنه جعل الضوء خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى مَعدِنه وبقيت الظلمة في مَعْدِنها، فرجع كلُّ منهما إلى أصله اللائق به(١).

كلمة ﴿حَوْلَهُۥ﴾ معبرة تخبرك بمدى امتداد النور ليضيء ما حول المستوقد زمانًا ومكانًا وأشخاصًا وأحوالاً، كما أنها تخبرك بأن الضوء عارض، وأنه يوشك أن يذهب فتحل الظلمة كما كانت.

وهنا معنى لطيف بديع تمدنا به ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ وذلك أن نور الوحي وسناه إذا وافق قلبًا حيًّا ونفسًا زكية فإنه يتخللهما ويسري فيهما فيتنور الباطن بهدى الله تعالى وضياء وحيه، ولكن المنافق ليس بهذا المقام.

ستقول: قد علمنا المعاني المفردة للكلمات الخمس الآتية: استوقد، نارًا، أضاءت، ما، حوله، فما الصورة التي يجسِّدها لنا مجموعها في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧]؟

أجيبك بأن هذا التمثيل يجسد لنا صورة إنسان نشط يبحث عن نورٍ يضيء الظلمات النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويحقق له الوجود والقوة، ويجعله قائدًا لمن حوله.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٢١، ٢٢).

وبما أن هذا الإنسان يبحث عن إيقاد نارٍ له ولمن حوله فإنك تتصوره متمتعًا بصفاتٍ قيادية واضحة.. استوقد النار، فطلب إيقاد النار رغبة في منافعها، وأوقدها إيقادًا مؤكدًا.

ووجد النور، فهو نور الكتاب الذي لا ريب فيه، وقد ظهر هذا النور عنده وعند من حوله ظهورًا واضحًا وبسرعةٍ مدهشة، ويدل على ذلك كلمة ﴿أَضَآءَتۡ﴾.

لقد أضاءت النار ما حوله، ورأى ما أمامه وما خلفه، وبدأ بتصور خريطة التحرك في طريقه، وامتد نورها حيث أضاءت فأوضحت لمن يستضيء بها الطرق، وأماكن السير الصحيح، والعمل النجيح، وفهموا واقع الحياة، ورأوا أيضًا أماكن الخطر، ومواضع الهلكة والحُفَر، وجهات السقوط في سقر، وبدأوا يريدون الحركة والتقدم في الحياة من خلال تلك الإضاءة، فانطلقوا من مركز النور الذي أخذوا منه مشاعلهم.

والصورة عظيمة قوية إيجابية حتى الآن.

عمت الإضاءة ذلك كله ثم حدث أمر مفاجئ.. فما ذلك الأمر؟

المشهد الثالث: ﴿فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾ الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم:

فيبصرنا قول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ بأن الذي استوقد كان قياديًّا فريدًا في عقليته، وجمع آخرين حوله، لكنه أسرَّ المعصية كإسرار إبليس ثم أظهرها، فذهب الله (بنورهم) أي بنور الجميع: القيادي والأتباع، ولم يقل بنوره وحده، وذهابه إما ذهاب نور الإيمان والقرآن، وإما ذهاب نور النصر والنجاح الحيوي.. لماذا ذهب الله بنورهم؟ لخلل ظاهر أو مستتر في المستوقد وأتباعه.

تبصرنا الآية بمشهد حدث بعد كل تلك الإضاءة التي نزلت على من حولهم.. فجأة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

وربما سألت: ما الذي أنبأنا أن ذلك حدث فجأة؟ وما سر كلمة ﴿لـمَّا﴾؟

والجواب: أن كلمة ﴿فلـمَّا﴾ هي سرُّ المسألة، ولذا أخرنا الكلام عنها. اقرأ هذه الكلمة في الآية مجدَّدًا: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، فمن معاني هذه الكلمة: ﴿لَمّا﴾: أنها حرف وجودٍ لوُجُود، وَبَعْضهمْ يَقُول: حرف وجوب لوُجُوب[(١)]، فتدلُّ على وقوع شيءٍ عند وقوع غيره، أي وجد هذا لوجود ذاك، ولا يلزم أن يقع الأمران في وقتٍ واحد، فقد أجازوا أَن يُقَال: لما أكرمتني أمس أكرمتك الْيَوْم، وَيكون جوابها فعلاً مَاضِيًا اتِّفَاقًا وَجُمْلَة اسمية مقرونة بإذا الفجائية أحيانًا، فقوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ هنا يتوقع السامع وقوع مفاجأة تقارن الإضاءة في الوجود لا في الزمن بالضرورة، فربما وقعت فورًا، وربما وقعت بعد ذلك.. فيأتي الجواب: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِم﴾.

كلمة ﴿لـمَّا﴾ تدل على وقوع الأمرين ربما بتفاوت في الزمن، والتفاوت في الزمن يصوِّر لك ما يقع من ذَوِي النفاق، فبعضهم يؤمن بالكتاب الذي لا ريب فيه، ويستضيء به، ويسبغ على نفسه وصف الإسلام، ولكنه ليس بمؤمن قطعًا، بل اتخذ ظاهر الإسلام ضوءًا له ليتمكَّن من تحقيق مآربه التي لا تتحقق بوصف الكفر، فهو من البداية يضمر الكفر، ويعمل جاهدًا على إشاعة الكفر والفسق والفساد في العالم، وهناك صنف يستضيء بنور الكتاب على الحقيقة، يصلي ويصوم ويدافع عن الدين، وربما مضى إلى ميادين الجهاد، ثم ينطفئ ذلك النور، فينسلخ منه، ويعود أقبح ما يكون في حربه الضروس ضد الإسلام.

فكلمة ﴿لـمَّا﴾ تبصرنا بكل الفئات المنافقة: فمنهم من أضمر الكفر مع دعوى الإيمان في الوقت ذاته، ومنهم من انقلب على عقبيه بعد أن كان مؤمنًا بزمن يسير أو كبير نسأل الله العافية.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٣٦٩).

وبنظرة إجمالية لمشهد استيقاد النار، وإضاءة المحيط ثم ذهاب النور، وما تلاه من لبث وتخبط في الظلمات نجد صور المشهد تمر متسارعة لا تكاد تنقضي واحدة حتى تتلوها أختها، وذلك ينبي عن سرعة انهدام ما تبنيه عصبة النفاق، فلا يعمر طويلًا.. إنما هو الانهيار العاجل والسقوط القريب، لكأنما نحن بصدد متابعة لقطات بانورامية تُعرض على عجل في مسرح الحياة سرعان ما يخفت بريقها، ويخبو ضوؤها. يقول الشوكاني ﵀: " وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نارَ باطلٍ؛ لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت. ومنه قولهم: «للباطل صَولة ثم يَضْمَحِلُّ»"[(١)].

تعال الآن ننظر ببصائر مفردات هذه الآية البينة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾:

مما يلفت نظرك هنا أنه نسب النور لهم، فقال: ﴿بنورهم﴾، فما فائدة هذه النسبة؟

إن هذه الإضافة أو النسبة تحتمل أن تقدر لها (اللام)، أو أن تقدر لها (في) فقط، ويكون التقدير: ذهب الله بنور لهم أو بنور فيهم، وهذا النور جاءهم من عند الله، لكنهم اجتهدوا لتحصيله كما رأينا، فما معنى النور؟

الجواب: النور مشتق من (نَوَرَ) وهي كلمة تدل عَلَى إشراق وظهور يؤذن بالحياة، كلمة تنبئك عن أجمل الملامح، فـ(النُّور): هو الضَّوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، ومنه كذلك: النَّوْرُ: نَوْرُ الشَّجَرِ وَنُوَّارُهُ، وهو زُهْرُهُ المتفتح، وَأَنَارَتِ الشَّجَرَةُ: أَخْرَجَتِ النَّوْرَ، وتشعر بالحياة تملؤك أنسًا عندما ترى الزهر على هذه الهيئة، وَمنه الْمَنَارَةُ: مَفْعَلَةٌ مِنَ الِاسْتِنَارَةِ، وَالْأَصْلُ مَنْوَرَةٌ، وهي المِئذنة التي يوجد في أعلاها نور يُعْلِم الناس القادمين في البحر بالمكان، وَمِنْهُ مَنَارُ الْأَرْضِ: حُدُودُهَا وَأَعْلَامُهَا، سُمِّيَتْ لِبَيَانِهَا وَظُهُورِهَا، وامْرَأَةٌ نَوَارٌ: أَيْ عَفِيفَةٌ تَنُورُ، أَيْ تَنْفِرُ مِنَ الْقَبِيحِ، وَالْجَمْعُ نُورٌ.

---

(١) فتح القدير، (١/ ٥٥).

ورأى ابن فارس رحمه الله أن (النور) كلمة تدل على إِضَاءَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَقِلَّةِ ثَبَاتٍ[(١)]، ولم أشعر بأن تعريفه مناسب للمعرَّف في هذا الموضع، بل النور: جوهر يملأ ما حوله بحياة من نوعٍ ما، فالنُّورُ وَالنَّارُ سُمِّيَا كذلك للإشراق وظهور الحياة بهما إلا أن كلًّا منهما له دوره، وعند المبالغة يصبح كلُّ منهما مصدرًا للإحراق لمن وقعا عليه، وَتَنَوَّرْتُ النَّارَ: تَبَصَّرْتُهَا. قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ[(٢)]:

تَـنَـوَّرْتُـهَـا مِـنْ أَذْرِعَـاتَ وَأَهْـلُـهَـا ... بِـيَـثْـرِبَ أَدْنَـى دَارِهَـا نَـظَـرٌ عَـالِـي

وقسَّم الراغب رحمه الله النور إلى قسمين:

الأول: النور الدُّنيويّ وهو ضربان: معقول ومحسوس، ومما هو عامّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

فالمعقول تراه بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والمحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النَّيِّرة كالقمرين والنُّجوم والنَّيِّرات[(٣)].

والثاني: النُّور الأخرويُّ مثل قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الحديد: ١٢].

وربما حداك التأمل لتسأل: كيف قال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل (بضوئهم) مع قوله ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾؟

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٦٨).

(٢) البيت منسوب له، وليس من معلقته. ينظر: الإبانة في اللغة العربية (٣/ ١٥٤) ديوان امرئ القيس، (ص: ١٣٦).

(٣) المفردات للراغب (ص: ٥٠٨).

نريد معرفة الفرق بين الضياء والنور هنا وفي قوله تعالى مجده: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فوصف الله تعالى الشمس بالضياء، والقمر بالنور، مع أن نور الشمس أقوى، فهل هذا يعني أن الضياء أقوى من النور.

أقول: لا تعجل حتى تنظر في الآيات الأخرى، فإن الله قال في المقابل واصفًا نفسه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: ٣٥]؛ وقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فوصف نفسه وما يصدر عنه بـ (النور)، فبصرنا ذلك بأن الضياء ليس أقوى من النور، **فماذا سيكون الفرق إذن؟**

وأجيبك: بأنه اختلف أهل العلم في هذا التفريق بين نور كلٍّ من الشمس والقمر على أقوال:

القول الأول: نقل الزبيدي ﵀ أن الضَّوْء هُوَ النُّورُ، وهما مُتَرَادِفَانِ عِنْد أَئمة اللُّغَة، وجزم القَاضِي زكريَّا الأنصاري ﵀ بترادُفِهِما لُغَة بِحَسب الوَضْعِ، وذكر أَن الضوءَ أَبلَغُ بِحَسب الِاسْتِعْمَال.

القول الثاني: قيل: الضوء لِمَا بِالذَّاتِ كَالشَّمْسِ وَالنَّار، والنور لما بالعَرَض والاكتساب من الغَيْر كالقمر، ويُشْكِل عليه أن الله تعالى وصف نفسه بأنه نور السموات والأرض، ونورُه ذاتيٌّ تعالى اسمه[(١)].

القول الثالث: رأى الراغب ﵀ أن تخصيص الشَّمس بالضَّوء، والقمر بالنُّور لأن الضَّوء أخصُّ من النُّور، قال: ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، ولكن الراغب ﵀ لم يبين وجه الخصوصية، ولا جمع بين هذه الآية وبقية الآيات ومنها سورة النور[(٢)].

(١) ينظر: تاج العروس (١/ ٣١٨، ٣١٩).

(٢) المفردات للراغب (ص: ٥٠٨).

ويرى العسكرى رحمه الله في الفرق بينهما أَن الضياء مَا يَتَخَلَّل الْهَوَاء من أجزاء النُّور فيبيضُّ بذلك، وَالشَّاهِد أَنهم يَقُولُونَ: ضِيَاء النَّهَار وَلَا يَقُولُونَ نور النَّهَار إِلَّا أَن يعنوا الشَّمْس، فالنور الْجُمْلَة الَّتِي يتشعب مِنْهَا[١].

ويرى الزمخشري رحمه الله أن ذكر النور أبلغ؛ لأنَّ الضوء فيه دلالة على الزيادة، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا، بينما أخبرنا الله عز وجل أنه أزال النور عنهم رأسًا وطمسَه أصلاً[٢]، ومال إلى هذا الفرق من بعده ابن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل السائر"، وقرَّر أن نفي القليل يوجب نفي الكثير، دون العكس، ولو قال: فنفيُ الأصلِ يوجب نفيَ الفرع لكان أسدَّ[٣].

وكذلك قرَّر هذا القول الزركشي رحمه الله (ت ٧٩٤ هـ) فكأنه نقله عنه[٤].

وجاء ابن أبي الحديد رحمه الله حانقًا مُسَفِّهًا على طريقة غير مرضية في النقد[٥]، فقال عن ابن الأثير رحمه الله غير عالم أن الأصل للزمخشري رحمه الله: «أقول: إن هذا الرجل قد شحن كتابه بأمثال هذه التُّرَّهات، وأطال فيها وأسهب وأعجب بها، وظن أنه أتى بغريب»، وأشار إلى أن كتب اللغة لا يوجد فيها شاهد لما ذكر من الفرق ولا الاصطلاح العرفي مساعد له، ونقل عن ابن السِّكِّيت رحمه الله في كتاب "إصلاح المنطق" ما يدل على ترادف النور والضياء[٦].

---

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٣١١).

(٢) الكشاف (١/ ٧٤).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تحقيق الحوفي (٢/ ١٦٧).

(٤) البرهان (٣/ ٤٠٢).

(٥) الفلك الدائر على المثل السائر (٤/ ٢٣١)، مع التنبيه أنه مطبوع آخر الجزء الرابع من المثل السائر، حتى لا يظن أنه أربعة أجزاء.

(٦) أدب المنطق. طبعة دار إحيار التراث العربي (ص: ٩٨).

فرد عليه الطيبي رحمه الله بأن ابن السِّكِّيت جعلهما شيئًا واحدًا بحسب الوضع لا الاستعمال، والتفريق بينهما بحسب الاستعمال واضح، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وكلُّ ذلك ينبئ عن الاختلاف في الاستعمال[(١)]!

ويظهر لي أن الدِّقة تقتضي ألا نقول مثل ما أشار إليه الزمخشري رحمه الله من أن "الضَّوْء أقوى من النُّور" بل نقول: الضياء مرحلة من مراحل النور، ولذَا شَبَّه اللهُ تعالى هُدَاه بِالنورِ دون الضَّوْءِ لأنه الأصل الذي ينبثق عنه بقية أنواع الإنارة، وهنا أرد قول من فرق بينهما بأن: «الضياء أقوى، ولم يصف الله عز وجل كتابه به؛ لأنه لو وصف به لما ضَلَّ أَحدٌ».. هذا رأي ليس بسديد؛ لأنه وصف التوراة بأنها ضياء فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقد ضلَّ أصحابها فيها.

ويمكن أن نزيد هذا المعنى وضوحًا بأن نقول: الضوءُ فَرْعُ النُّور، فالنور هو الأصل وهو حليم متمكن، وَالضياء فرع وهُوَ الشُّعاع الـمُنتشِر المستطير.

فالضوء فيه الدلالة على النور وزيادة، فهو أخصُّ من النور، وعدمه لا يوجب عدم النور[(٢)]، فلو قال: ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة، وبقاء ما يسمى نورًا، فكلُّ ضوء نور، وليس كلُّ نور ضوءًا، وقد رضي الطِّيبي رحمه الله ذلك، واستدلَّ بقوله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يُونُس: ٥]، ولكن يُشْكِلُ على هذا أن الله؛ إذ قد وصف الكتاب المنزل على موسى عليه السلام بأنه ضياء.

---

(١) ينظر: فتوح الغيب (٢/ ٢٣٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٠٢).

فإن قلت: لقد طال الكلام في التفريق بين الضياء والنور فهلا ذكرت لنا خلاصة ما ظهر من الفرق بين قوله: ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم؟

وأجيبك باختصار: الغرض من قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، إنما هو إزالة النور عنهم أصلاً[١]، ورأى ابن القيم ﵀ مثل هذا، حيث قال: "لو قال: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط، دون الأصل. فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته، وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات، الذين لا نور لهم، وأيضًا فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كلِّه"[٢].

المشهد الرابع: النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لـمَّا﴾ الخفي، فيحتمل أن يكون جواب ﴿لما﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة ١٧] ظاهرًا مذكورًا، كما يحتمل أن يكون محذوفًا:

ما زالت صور التدبر تترى:

ذهب الله بالنور الذي انبعث من النار، وقد تتساءل: أين جواب الشرط لكلمة (لمَّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾؟

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي (٢/ ١٦٧)، وعقب ابن أبي الحديد في الفلك الدائر على المثل السائر (٤/ ٢٣١) ناقدًا ناقمًا، فقال: " وهذه المعاني قد صنفت فيها الكتب الكثيرة، وتكلف الناس من قبله في استنباط أمثال هذه الوجوه الغامضة والمعاني الخفية من القرآن العزيز، وإنه لم أتى بهذه اللفظة دون تلك، ولم قدم هذا وأخر هذا؟ وقد قيل في هذا الفن أقوال طويلة عريضة أكثرها بارد غث، ومنها ما يشهد العقل وقرائن الأحوال أنه مراد".

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية - العلمية (ص: ٢١).

الجواب: تقدَّم لك الآية ببيان خاطف للعين الجواب ظاهرًا وقريبًا من الظاهر، ويسبق الزمخشري رحمه الله لتقرير جواب ذلك من أقرب طريق وأخصره، ولكنني سأخالفه في التفصيل بما عساه أن يكون أقوى:

فأما الجواب الظاهر المتبادر للذهن فهو قوله جل مجده: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، ويقوي هذا المعنى أن القول بالإظهار أولى من الإضمار، كما قرر ذلك أبو حيان حين قال: "الذي يقتضيه ترتيب الكلام وصحته ووضعه مواضعه أن يكون ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ هو الجواب، فإذا جعلت غيره الجواب مع قوة ترتُّب ذهاب الله بنورهم على الإضاءة، كان ذلك من باب اللُّغز، إذ تركت شيئًا يبادر إلى الفهم وأضمرت شيئًا يحتاج في تقديره إلى وحي يسفر عنه، إذ لا يدلُّ على حذفه اللفظ مع وجود تركيب ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾"[١].

وأما القريب من الظاهر، فقد ذكر الزمخشري رحمه الله[٢] أيضًا أنه يجوز أن يكون الجواب محذوفًا، ويفهم من عبارته تقويته لذلك، كما حُذف الجواب في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالِّ عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الإيجاز، **والإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى**، وهنا ستتلهف، وتقول: فما المعنى؟ وما التقدير؟ وما المحذوف؟

أجيبك أن المعنى والتقدير: كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله عمل الشقي قائد المنافقين على محاصرة النور وإيقافه، والتلاعب به، وتابعه على ذلك أتباعه، وهنا يأتيك ما بعد الجواب ليدلَّ على الجواب المحذوف، وهو قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

---

(١) البحر المحيط (١/ ٦٠).

(٢) الكشاف (١/ ٧٣).

وهنا تتساءل: إذا كان الجواب محذوفًا، فماذا يكون موقع هذه الجملة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِم﴾؟

الجواب: تكون هذه الجملة كلامًا مستأنفًا تجيب على من يسأل: هذه النار أضاءت ما حوله، فتلاعب به، وصد عن الاهتداء به؛ فماذا حدث؟ فيقال له: ذهب الله بنورهم[1]، وهنا يأتي سؤال جديد:

---

(١) هل يمكن أن تحتمل الآيات معنى آخر في التمثيل؟

وجدت وجهين آخرين في فهم المثل:

أما الأول: فذهب إليه الزمخشري ﵀ حيث أشار إلى أن إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون على أساس القدرة الإلهية المطلقة، وإلا فإن السبب طبيعي معتاد، فإذا طفئت النار بسبب سماوي ريح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد، وهذا التأويل منه جريًا على إعلاء مذهبه في هذه المسألة، وكم للرغبة في إعلاء المذهب من ظلمات تحجب أنوار الآيات البينات، ومع عتابي له هنا إلا أنه حاول أن يظهر وجهًا آخر كأنه انفرد به، وهو أن يكون المستوقد مستوقد نار لا يرضاها الله.

ثم إما أن تكون نارًا مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، وإما نارًا حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويهتدوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب أمانيهم.

وهذا الوجه تحتمله الآيتان، وشعر الزمخشري بضعف هذا الوجه عندما يجابه بالمدح الذي تشعر به كلمة ﴿أضاءت﴾ فلا تكون لنار فتنة، ولكنه حاول الإجابة عليه، فقال: فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت: هذا على مذهب قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل. ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت.

ومن غريب ذهول الزمخشري أنه كرر في تحليله العذب لمعاني هذه الآيات الأربع أن الناري يظهر فيه الإيمان بالإضاءة، وينقطع انتفاعه بانطفاء النار.. لكنه في هذا الموضع لج في نصرته لمذهبه.

وأما الثاني: فذهب الرازي ﵀ إلى أنه يَجوزُ أَنْ يَكُونَ الـمُسْتَوْقِدُ هَهُنا مُسْتَوْقِدَ نارٍ لا يَرْضاها اللهُ تَعالى، والغَرَضُ تَشْبِيهُ الفِتْنَةِ الَّتِي حاوَلَ المُنافِقُونَ إثارَتَها بِهَذِهِ النّارِ، فَإنَّ الفِتْنَةَ الَّتِي كانُوا يُثِيرُونَها كانَتْ قَلِيلَةَ البَقاءِ، ألا تَرى إلى قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائِدَة: ٦٤]، ويقرب من هذا أن الفراهي -رحمه الله- ذهب إلى أن المثل ورد في اليهود لا في غيرهم، فرأى أن قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الذى استوقَدَ نارًا﴾ "تأويله: أن موسى ﵇ كان كرجل استوقد لرفقته نارًا في الليل، فإنه

بدلاً من أن يرشدهم الله تعالى ويهديهم ذهب الله بنورهم.. لماذا كانت هذه العقوبة لقومٍ بذلوا جهدًا في طلب إيقاد نورٍ يضيء ما حولهم؟ وكيف صوَّرت لنا هذه الكلمة ذهاب الحياة الحقيقية من المنافقين؟

الجواب واضح: فإنهم لما أذهبوا حقيقة الانتفاع بالكتاب المنير الذي لا ريب فيه، وعملوا على منعه من بث أنواره ذهب الله ﷻ بمنافعه منهم، فلم يعودوا يشعرون بها.. ألا ترى كيف تصف لك الآية المشهد بتفصيل مثير: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ التي أضاءت هي أنوار النار التي استوقدها المستوقد، وكذلك فإن أنوار الكتاب تضيء الحياة حوله.. فإن لم يُسمح للنور بأن يسري في الأنحاء وينتشر، فكيف تضيء الحياة؟!

يصوِّر هذا الجواب أن الله الحقَّ المبين عاقبهم على جرائم باطنة مستترة يعلمها منهم، يعاقبهم على فسادٍ اقترفوه، استدعت آثامه أن يذهب الله بنورهم الذي كان يمكن أن ينيروا به طريقهم في الدنيا والآخرة، لدرجة أنه لم يبق معهم من نور لا إله إلا الله شيء.. فهم طلبوا إيقاد النار ليجدوا منافع النار ومنها: النور، وكذلك في واقع هذا الفريق من المنافقين: طلبوا إيقاد نار الحياة في نفوسهم بأنوار الكتاب الذي لا ريب فيه، ولكنهم أصروا على ملء قلوبهم بكراهية كل ما تدل عليه أنوار القرآن من واجبات والتزامات، فخادعوا الذين آمنوا عندما قالوا: آمنا بالله وباليوم الآخر، واغتروا بأفكارهم الخبيثة إلى الدرجة التي ظنوا فيها أنهم

جاء بالنور لقومه وأوضح لهم السبيل، وجاء بتفاصيل الشريعة، فلم يَبق لهم عذر. ولكنهم عصوا الله بعد العلم مرة بعد مرة، وجيلًا بعد جيل فسلبهم الله الهداية، واختلفوا في كتبهم فوقعوا في ظلمات كثيفة".

وهذه المحاولة الفراهية في فهم الآية جعلتني أفكر أنه يحتمل أن يكون المعنى: مثل المنافقين الخلص كمثل داعية مصلح طلب طلبًا مؤكدًا أن يستوقد نارًا لأجل الانتفاع بها نورًا واشتعالاً، فلما أضاءت ما حوله أصرَّ المنافقون على محاربة النور الذي انتشر، فذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. ينظر: الكشاف (١/ ٧٧)، وتفسير الرازي (٢/ ٣١٣)، و تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٥٣).

يستطيعون مخادعة الله.. فهم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر والعدوان.. ألا تراهم يحاربون كل من ينتسب إلى من يدعو إلى أنوار الكتاب؟ والعقوبة هنا شديدة؛ إذ قال الله ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

وقد تتساءل: من المنافقون الذين ذهب الله بنورهم؟

ويأتيك الجواب: قد اختلفت أنظار المتدبرين من أهل العلم في نوع المنافقين الذين ضُرب لهم هذا المثل، فذهب الطبري رحمه الله إلى أَنَّ الْمَضْرُوبَ لَهُمُ الْمَثَلُ هَاهُنَا لَمْ يُؤْمِنُوا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فهذا المثل جاء في سياق البيان لمن قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٨]، استضاؤوا بِمَا أَظْهَرُوهُ مِنْ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ، أَيْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ أَعْقَبَهُمْ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فالطبري رحمه الله يرى أن الظلمات التي ستحِلُّ بهم إنما تحِلُّ بهم يوم القيامة[1].

وخالفه ابن كثير رحمه الله فقال: "وَالصَّوَابُ: أَنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْهُمْ فِي حَالِ نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنَّهُ كَانَ حَصَلَ لَهُمْ إِيمَانٌ قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ سُلبوه وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَحْضِرِ ابْنُ جَرِيرٍ رحمه الله هذه الآية هاهنا، وهي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٣]"[2].

وهنا ستسأل: فأي الشيخين -رحمهما الله- أقوى في القول؟

قبل أن أجيبك دعنا نستضيء بآيات الله، ونستقي من مائها الزُّلال مسترشدين بكلام أئمتنا رحمهم الله لنعرف من هذا الصنف الخبيث الذي استحقَّ أن يذهب الله بنوره؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٦).

هذا المثل صالح للصورتين معًا، فهو صالح للذين ذكرهم الشيخان ابن جرير وابن كثير رحمهما الله، وأول ما ينبغي أن نبصره فيه أن الله عَجَلّ يصف لنا حالهم في الدنيا قبل الآخرة، فالَّذِي أظْهَرُوهُ من الإيمان هو النار التي استوقدوها لتضيء ما حولهم، ثم أطفأوا ذلك بخداعهم وكذبهم وموالاتهم لشياطين الإنس والجن، وحدثنا الله عَجَلّ عن مثال واقعي قوي في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فالنّارُ مَثَلٌ لِقَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وذَهاب النور مَثَلٌ لِقَوْلِهِمْ لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

ولك أن تتأمل واقعك لترى أصنافًا من هؤلاء ممن اتصلوا من نور الوحي بطرف، ثم فرطوا فيه باختيار منهم وحمق لا مزيد عليه، وانظر حواليك: ينشئ قومٌ صندوقًا بعشرات المليارات لدعم المعتدين الذي لعنهم الله عَجَلّ على لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام، وهم على الرغم من ذلك يزعمون أنهم آمنوا، وحسبك أن تشعر بإعجاز الآيات التي تحدِّثك عما تراه قبل أن يقع.

ولكنك ربما تسأل: ما الفرق بين أذهبه، وذهب به؟

الجواب: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أبلغ من (أذهب نورهم). قرر ذلك الزمخشري ومَن بعده كالرازي والبقاعي، والطاهر بن عاشور رحمهم الله[1]، وعارض ذلك ابن أبي الحديد رحمه الله، فسَخِرَ –بجهالة– ممن يقول بالفرق في كتابه "الفلك الدائر"[2] نقمة على خصومه، وما علم أنه بذلك إنما يصغر كلام ربِّه، وتعال بنا نظر الفرق بين أذهبه وذهب به.

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٧٤)، تفسير الرازي (٢/ ٣١٤)، ويكثر الرازي من النقل عن الزمخشري رحمهما الله دون عزو، وينظر: التحرير والتنوير (١/ ٣١٠).

(٢) ينظر: الفلك الدائر، وهو ملحق بالمثل السائر (٤/ ٢٣٤، ٢٣٥).

فمعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهبًا كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] على قراءة أبي جعفر رحمه الله، وكذلك لها معنى آخر: أذهبه أي جعله ذاهبًا بأمره.

ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه، أي ذَهَبا مُتَلازِمَيْنِ فَهو أشَدُّ في تَحْقِيقِ ذَهابِ المُصاحِبِ، وذهب السلطان بماله: أخذه مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥]، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه: ذهبت به الخيلاء.

ويقرِّر الطاهر بن عاشور رحمه الله الفرق بصورة واضحة، فيقول: "وذَهَبَ المُعَدّى بِالباءِ أبْلَغُ مِن أذْهَبَ المُعَدّى بِالهَمْزَةِ، وهاتِهِ المُبالَغَةُ في التَّعْدِيَةِ بِالباءِ نَشَأتْ مِن أصْلِ الوَضْعِ"(١).

فأشعر هذا التعبير ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ مَعَهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ عِنْدَمَا اسْتَوْقَدُوا النَّارَ فَأَضَاءَتْ، ثم أخذ الله تعالى نورهم وأمسكه، لأنه لو أذهب نورهم لربما التمسوا نورًا من غيرهم، لكنه ذهب به أي أَخَذَ نورهم وَأَمْسَكَهُ ﴿وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فَاطِر: ٢]، فلم يعد بإمكانهم أن يجدوا نورًا لذواتهم؛ فالله تعالى منع أشخاصهم من أن يفيدوا نورًا من أنفسهم ومن غيرهم، ويلفت البقاعي رحمه الله النظر إلى معنى آخر، حيث جاء التعبير القرآني بِالذَّهابِ بِهِ دُونَ إذْهابِهِ؛ لِيَدُلَّ نَصًّا عَلى أنَّهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ مَعَهم(٢).

ولكن لماذا قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل ذهب نورُهم؟

يجيب ابن القيم رحمه الله(٣) عن ذلك بما يصلح أن يكمل ما ذكرته لك أعلاه؛ فقد رأى رحمه الله أن ذلك لسر بديع هو لفت النظر إلى انقطاع المعية الخاصة لهؤلاء المنافقين، فالله تعالى يكرم بمعيته الخاصَّة المؤمنين؛ فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين

---

(١) ينظر: االتحرير والتنوير (١/ ٣١٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور (١/ ١١٩).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية - العلمية (ص: ٢١).

اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله تعالى بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم فليس لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا من: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وما أقساه على نفس المرء وآلمه لقلبه أن تفارقه معية الله تعالى وعنايته ولطفه، وقد صدق الشاعر حين قال:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأولُ ما يجني عليه اجتهادُه[1]

وقال آخر:

لعمرك ما يدري امرؤٌ كيفَ يتقي ... إذا هو لَمْ يجعلْ لهُ اللهُ واقيًا[2]

ولعل جذوة التأمل تدعوك لتسأل: لماذا قال جل ذكره: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم ليطابق أول الآية حيث ذكر النار، فقال: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا﴾؟

يجيب عن ذلك ابن القيم فيرى أن النار فيها إشراق وإحراق، فلما قال الله ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يكون الذي ذهب منها الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية[3]، ويظهر لي أن بقاء النارية يشير إلى انتفاعهم الدنيوي بمنافع النار، واستعمالها في نواحي السوء لأنفسهم ولغيرهم، ولو قيل بإثبات المعنيين كان وجيهًا؛ إذ لا تعارض بينهما، فبينما يرتفقون بما أبقي لهم مما استوقدوه من النار، فإنهم مع ذاك يتقلبون على مثل جمر اللظى بما يورثه مرض بواطنهم ونفاقهم من قلق وحيرة واضطراب منغص مكدر.

---

(١) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، نفح الطيب، (٦/ ١٧٧).

(٢) البيت لأفنون التغلبي، ينظر: الصناعتين، لأبي هلال العسكري (ص: ٢١٧).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية - العلمية (ص: ٢٢).

قد تقرر معنا أن قول الله ﷻ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ بصرنا بعقوبة استحقها هذا المستوقد وأصحابه، فهل اقتصر وصفهم على ذهاب النور فقط؟

هنا تندهش لوصف واقع هؤلاء المنافقين: فقد جمع الله ﷻ في وصفهم أربعة أمور:

الأول: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

الثاني: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾.

الثالث: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

الرابع: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ﴾.

والنتيجة: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

فلنستعرض هذه الأوصاف الأربعة والنتيجة في المشاهد القادمة:

المشهد الخامس: ملء الفراغ بالظلمات، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾:

وَالظُّلْمَةُ: النُّقْصَانِ، وهي ليست عدم النور، بل هي عَرَضٌ ينافي النور، فإذا جاء النور أزالها، والله تركهم هنا في ظلمات، وليس في ظلمة واحدةٍ، فهم يتخبطون ويفسدون، ويظنون أنهم يصلحون:

معنى قوله: ﴿وتركهم﴾: بمعنى طرح وخلى، إذا عُلّق بواحد -أي تعدَّى إلى مفعول واحد-، كقولهم: تركه ترك ظبي ظله(١)، فإذا عُلِّق بشيئين كان مضمَّنًا معنى صيَّر، فيجري مجرى أفعال القلوب، كقول عنترة(٢):

---

(١) قَالَ الْأَصْمَعِي: "يضْرب مثلًا للرجل يخرج من مقَام خفض إِلَى شقاء وبؤس"، وَقَالَ غَيره: يضْرب مثلًا للرجل يتهدد صَاحبه بالهجران والقطيعة، وَذَلِكَ أَن الظبي إِذا نفر من شَيْء لم يرجع إِلَيْهِ أبدًا. جمهرة الأمثال (١/ ٢٦٠).

(٢) الكشاف (١/ ٧٤، ٧٥).

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ[١] ....

ويكون معنى ﴿وترَكهم﴾ خلاهم من معونته ونصره وتأييده في ظلمات لا يَنْفُذُ فِيها بَصَرٌ.

ما موقع هذه الجملة ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ ؟ أما كان يغني عنها الجملة التي قبلها ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، فذهاب النور يعني الوقوع في الظلام؟

الجواب: ذهب الطاهر بن عاشور رحمه الله إلى أن قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ تقريرٌ لِمَضْمُونِ قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾؛ لِأنَّ مَن ذَهَبَ نُورُهُ بَقِيَ في ظُلْمَةٍ لا يُبْصِرُ، والقَصْدُ مِنهُ زِيادَةُ إيضاحِ الحالَةِ الَّتِي صارُوا إلَيْها، فَإنَّ لِلدَّلالَةِ الصَّرِيحَةِ مِنَ الِارْتِسامِ في ذِهْنِ السّامِعِ ما لَيْسَ لِلدَّلالَةِ الضِّمْنِيَّةِ، فحقيقة الجملة الجديدة إطناب لزيادة البيان[٢]، والطاهر رحمه الله يعني أن قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ تدلُّ بمفهومها على أنهم في ظلمات، فجاءت جملة ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾؛ لتكون صريحة في هذه الدلالة.

ويظهر لي أن قوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ تفيد معنى أصليًّا، وليس معنى تكميليًّا، فالظلمات ليست ذهاب النور فحسب، فأراد ربنا أن يكشف حقيقة هذا النوع الصُّلب من المنافقين، وأنهم لم يكتفوا بأن يتركوا أنوار القرآن، حتى صاروا في ظلمات ينظرون إلى الحياة من خلالها، ويريدون أن يوقعوا الناس فيها؛ لأنهم يظنون أنها النور الحقيقي.

---

(١) وهذا شطر بيت، وهو في معلقته. ينظر: المعلقات العشر (ص: ١٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣١٠).

فذهاب النور يعني عدم إمكان الرؤية، أما الظلمات في واقعها القائم فمادة مستقلة وطاقة مستقلة، والاكتشافات العلمية تذهب إلى أن المادة المظلمة لها كتلة تفوق كتلة المادة العادية بخمس مرات، وأنها تشكّل مع الطاقة المظلمة ما نسبته ٩٥.١٪ من المحتوى الكلي للكون.

فهؤلاء المنافقون لم يطفأ نورهم فقط، بل المشكلة هنا ما بعد ذهاب النور؛ فلم تقتصر حياتهم على أن الله ذهب بنورهم، بل غشيتهم ظلمات متعددة.

فلعك اشتقت لتسأل: ما معنى كلمة ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾؟

الجواب: الظُّلْمَةُ من الظلم، وعرفه الراغب رحمه الله بأنه وَضْعُ الشّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِه الـمُخْتَصّ بِهِ إمَّا بزِيادةٍ أو بنُقْصَانٍ، وَإِمَّا بعُدُولٍ عَن وَقْتِه ومَكَانِه، ويُقالُ فِي مُجاوَزَة الحَدِّ الَّذِي يَجرِي مَجْرَى نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ، ويُقَالُ فِيمَا يَكْثُر، وفِيمَا يَقِلُّ من التَّجَاوُزِ، وَلِهَذَا يُسْتَعْمَلُ فِي الذَّنْبِ الكَبِيرِ، وَفِي الذَّنْبِ الصَّغِيرِ، لذلِك قِيل لآدَمَ عليه السلام فِي تَعَدِّيه: ظَالِمٌ، وَفِي إِبْلِيسَ: ظَالِمٌ، وَإِن كانَ بَيْنَ الظَّلْمَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ[١].

والظُّلْمَةُ، بالضَّمِّ وبِضَمَّتَيْن، لُغَتَان والجمع ظلمات والظَّلْمَاءُ والظَّلَامُ ذَهَابُ النُّورِ فيما ذكروه، ويرى الزمخشري رحمه الله أن اشتقاق الظلمة من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا: أى ما منعك وشغلك؛ لأنها تسدّ البصر وتمنع الرؤية[٢].

ويظهر لي أن الظلمة ليست عدمَ النور بل عَرَضٌ ينافي النور، فإذا جاء النور أزالها، ثم زادهم الله تعالى فتركهم هنا في ظلمات.

وربما تساءلت: لماذا وحّد النور وجمع الظلمات فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة١٧]؟

---

(١) المفردات للراغب (ص: ٣١٥، ٣١٦).

(٢) الكشاف (١/ ٧٥).

وأجيبك بأن هذه عادة قرآنية: إفراد النور، وجمع الظلمات كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة ٢٥٧]؛ وأما لماذا هذه العادة؟

فقد قرر علماؤنا رحمهم الله أن الحق واحد، وصراط الله المستقيم واحد لا يوصل إليه سواه منذ آدم إلى خاتم النبيين محمد عليهم الصلاة والسلام، وأما الظلمات فهي كثيرة يمكن للإنسان أن يجدها من كلِّ الجهات، فمنها الأهواء ومنها الشهوات، ومنها الشبهات، ومنها البدع، وغير ذلك، ومصادرها متعدِّدة تنبعث من النفوس، ومن شياطين الإنس والجن، ومن زخارف الدنيا، ويصوِّر النبي ﷺ ذلك تصويرًا دقيقًا، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: «**هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ**»، ثُمَّ تلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

ويظهر لي أن الله جل جلاله **جَمَع (ظُلُماتٍ) ليبصرنا** بتنوُّعِ الظلمات التي يعيشون فيها، ويطلعنا على كثرة هذه الظلمات وكثافتها وقوتها، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقَوْلِ النَّبِي ﷺ «**الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ**»[(٢)]، ويقرِّر الطاهر رحمه الله هذا، فيقول: "فَإنَّ الكَثْرَةَ لَمّا كانَتْ في العُرْفِ سَبَبَ القُوَّةِ أطْلَقُوها عَلى مُطْلَقِ القُوَّةِ"[(٣)].

(١) أحمد (١٥٢٧٧)، وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٢) البخاري (٢٤٤٧) واللفظ له، مسلم (٢٥٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣١١).

فالجمع يفيد القوة كما يفيد التنوع، فمثلاً: هناك ظلمة الكُفْرِ، وظلمة الإفساد في الأرض، وظلمة الكَذِبِ، وظلمة الِاسْتِهْزاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ.

وهم في هذه الظلمات لا يبصرون بنورهم؛ لأن الله قد ذهب به، ولا يبصرون بأنوار غيرهم لرفضهم إياها، وصارت الظلمات تحيط بهم من كل جانب.

ربما نتساءل: فماذا يصوره لنا وصفهم بأنهم في ظلمات؟

الجواب: وصفهم بأنهم يعيشون في ظلمات يصور لنا كيف صارت حياتهم مليئة بالظلم والفواحش والمعاصي؛ وكيف صار عندهم شرهًا لإشاعة ذلك في الأرض، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فالإنسان قد يكون عاصيًا، وقد يكون طائعًا، وعندما يشتغل بالمباح دون نية الطاعة فلا يكون طائعًا ولا عاصيًا، وهؤلاء لما تركوا الطاعة لم يكتفوا بذلك بل اتخذوا ظلمات المعصية منهجًا لهم في حياتهم.

المشهد السادس: مشهد البصر المفقود ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾:

هذا هو الوصف الواقعي الثالث لحالهم، فلم يذهب الله بنورهم فقط، ولم يتركهم في ظلمات فقط، بل هم لا يبصرون أيضًا:

وهنا يأتي السؤال: لماذا قال ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ مع أن المعتاد أن الإنسان في الظلمات لا يبصر؟

وللجواب عن ذلك قد يقول قائل: إن ذلك للتأكيد، لكننا نبحث عن المعنى الأصلي قبل التأكيدي؛ فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد، وهنا ترى أن الإنسان إذا غشيته الظلمات فما زال يحتمل أنه يبصر كحال المخلوقات التي تعيش في ظلمات البر والبحر، وهي قادرة على الرؤية والحركة وفق هذه الرؤية، ومثل الخفاش الذي لا يرى في النور بل في الظلام، ولما سمعنا قول الله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ قد يقول قائل: فيحتمل أنهم يبصرون بطريقة ما، فتأتي هذه التكملة لتخبرك أنهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

يأسرك تدبُّر الآية حيث يقول الله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، ولم يخبرنا ربنا: لا يبصرون ماذا؟ أين المفعول؟

وأجيبك بأنه هنا يلوح لك المعنى القرآني وهو يشكل لك الصورة الحقيقية لهؤلاء، فالفعل (يبصر) يتعدى إلى المفعول كما قال الله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٥]، وتقول: يبصرون البيوت، ولكن المفعول هنا -كما يقرِّر الزمخشري ﵀- ساقط من قبيل المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المنوي، كأنَّ الفعل غير متعدٍّ أصلاً، فَنُزِّلَ الفِعْلُ مَنزِلَةَ اللّازِمِ، ولا يُقَدَّرُ لَهُ مَفْعُولٌ كَأنَّهُ قِيلَ: لم يعودوا يستعملون بصرهم، فذهبت القدرة على الرؤية فيها[1]، كَقَوْلِ البُحْتُرِيِّ:

شَـجْوُ حُسّـادِهِ وغَـيْظُ عِـداهُ ... أنْ يَـرى مُـبْصِـرٌ ويَسْـمَـعَ واعِ[2]

فقوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾: أيْ لا إبْصارَ لَهم أصْلاً بِبَصَرٍ ولا بَصِيرَةٍ...

ومعنى آخر نستلهمه من حذف المتعلق، وهو المفعول به هنا في قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾. ذاكم المعنى هو نفي عموم المبصرات، فلا يبصرون شيئًا بإطلاق[3]، وهذا من لازم القول بالمعنى الذي قبله؛ ذلك أن من ذهبت قدرته على الرؤية لم يبصر شيئًا بالكلية.

ستقول: لكننا نرى المنافقين يبصرون بأعينهم، فكيف يصح وصفهم بأنهم لا يبصرون؟

أجيبك: وما فائدة أن يبصروا كلَّ شيء دون أن يبصروا الحقَّ المبين الذي أمامهم؟ فهم في ظلمات من جهة، ولا يبصرون من جهة أخرى. وإنك لتعلم أن الذي يرى الأشياء بحاجة إلى توفُّر أمرين معًا: البصر، والنور المنعكس من الأشياء، وتعتمد قدرة الإنسان على الرّؤية على

---

(١) الكشاف (١/ ٧٥).

(٢) ديوان البحتري (٢/ ١٢٤٤).

(٣) التحرير والتنوير، (١/ ٣١٢).

الضَّوء المنعكس من الأشياء إلى العين، فلا يوجد نور حولهم ليعكس الأشياء التي ينبغي أن يروها، ولا العين ترى أهم ما يجب أن تراه في الدنيا.

وتستحضر هنا وصف الزمخشري ﷺ لهذا التصوير، وتتساءل معه: "فأين الإضاءة في حال المنافق؟ وهل هو أبدًا إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ قلت: المراد بما استضاؤوا به: قليل من الانتفاع بالكلمة المُجْرَاة على ألسنتهم-أي عندما قالوا آمنا- ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله، وظلمة العقاب السرمد"(١).

المشهد السابع: ذهاب النور وحلول الظلمة، وعدم الإبصار تمتد من الدنيا إلى الآخرة:

فيبصرنا الله بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] **بأن ذهاب النور، وغشيان الظلمات، وعدم الإبصار صارت حالات ملازمة في الدنيا والآخرة:**

هذا المثل مدهش؛ إذ يصح أن تتصوره في الدنيا، ويصح أن تتصوره عند الموت، ويصح أن تتصوره في الآخرة، من أين أفدنا أن المعنى يتعدى إلى الآخرة؟

الجواب: لقد رأى ابن عباس ﵄ وغيره من المفسرين أن هذا المثل في وضعه الكلي يشمل الدنيا والآخرة،

وروى الطبري ﵀ ذلك عن ابن عباس ﵄ وعن غيره من المفسرين، فصوروا لنا المثل المضروب في هذه الآية تصويرًا دقيقًا:

فأما في الدنيا: فقد قال ابن عباس: ضرب الله ﷻ للمنافقين مَثلًا، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]:

(١) الكشاف (١/ ٧٥).

أي يُبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خَرجوا به من ظلمة الكفر أطفؤوه بكُفرهم ونفاقِهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق.

وعن ابن عباس، وابن مسعود ﷺ، وناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ أناسًا دخلوا في الإسلام مَقدَم النبي ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجُل كان في ظلمة فأوقد نارًا فأضاءت له ما حوله من قَذًى أو أذًى فأبصره حتى عرف ما يتَّقي، فبينا هو كذلك، إذ طَفِئَت ناره، فأقبل لا يدري ما يتَّقي من أذًى. فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلالَ من الحرام، والخير من الشر، فبينا هو كذلك إذْ كفَر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشرّ. وأما النُّور، فالإيمان بما جاء به محمد ﷺ. وكانت الظلمة نفاقهم.

وأما عند الموت: فعن قتادة ﵀ قال: وإن المنافقَ تكلم بلا إله إلا الله، فأضاءت له في الدنيا... فلما كان عند الموت سُلبها، لأنه لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في علمه.

وأما في الآخرة: فقد قال ابن عباس ﵄: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾: هذا مثل ضربه الله ﷻ للمنافقين أنهم كانوا يعتزُّون بالإسلام... فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العزَّ، كما سلب صاحب النار ضَوءَه. ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ يقول: في عذاب(١).

وهنا تستحضر قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) ينظر هذه الروايات في تفسير الطبري (١/ ٣٢١-٣٢٥).

وإنما تقرَّر حمل الآية على كل هذه المعاني والأحوال اعتمادًا على توسعة دلالتها؛ إذ لا مانع من القول بجميعها ما دام ألا تعارض بينها، ولا يعود بعضها على الآخر بالنقض أو الرفع.

المثل وارد في المنافقين لا في الكفار المجاهرين بكفرهم:

ينبِّه الطبري رحمه الله على الترابط القوي بين الآيات، فيقرِّر أن الله جلّ ثناؤه إنما ضرَب هذا المثل للمنافقين الذين عرض صفتَهم وقص قصصهم، من لدُن ابتدأ بذكرهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] لا المُعْلِنين بالكفر المجاهرين بالشِّرْك، فاستوقدوا النار لتضيء لهم وتنفعهم بإيمانهم بالكتاب الذي لا ريب فيه، وبقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، وقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وقَوْلِهِمْ عِنْدَ لِقاءِ المُؤْمِنِينَ ﴿ءَامَنَّا﴾، وبتظاهرهم بِالإسْلامِ والصَّلاةِ والصَّدَقَةِ مَعَ المُسْلِمِينَ، ولكنهم ينقلبون صمًّا بكمًا عميًا لا يرجعون إلى شيء من ذلك الحق، فتسيطر عليهم ظلماتهم، وحينها يذهب الله بنورهم، ويتركهم في ظلماتهم وفي تلك الظلمات التي جاءتهم بعد أن ذهب عنهم النور.

ولا يكتفي الطبري رحمه الله بذلك، بل يحذِّر من تفكيك هذه الآيات عما قبلها، فيقول: "ولو كان المثل لمن آمنَ إيمانًا صحيحًا، ثم أعلن بالكفر إعلانًا صحيحًا على ما ظنَّ المتأوِّل قولَ الله جل ثناؤه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] أن ضوءَ النار مثلٌ لإيمانهم الذي كان منهم عندَهُ على صحةٍ،

وأن ذهاب نورهم مثلٌ لارتدادهم وإعلانهم الكفر على صحة – لم يكن هناك من القوم خداعٌ ولا استهزاءٌ عند أنفسهم ولا نفاقٌ"[١].

وتجد أن الكلمات القرآنية بصياغتها المحكمة تهديك إلى شمولها لكل المعاني السابقة، وعندها لا تميل إلى ما مال إليه شيخ المفسرين الطبري ﵀ من الاقتصار على جعل المثل مضروبًا لما يحيق بالمنافقين في الآخرة.

ويروى عن ابن عباس وابن مسعود ﵃ أنه راجع إلى الكفار مطلقًا، وهذا ما رجَّحه بعض محققي المتدبرين المعاصرين[٢]، بدعوى أنه أقعد في المعنى وفي النَّظْم؛ أما في المعنى فلأنه لا واسطة بين الهدى والضلالة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]. وإذا كانوا كلهم عن الهدى ناكبين، وفي الضلالة مشتركين، فتخصيص الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعها إلى الجميع صريحًا تخصيص بغير موجب. وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ

---

(١) ولكنني وجدت شيخ المفسرين ﵀ يميل بشدة إلى مناقشة قد لا تكون في محلها مثل التتمة التي ذكرها هنا، فقد أتعب نفسه في مناقشة من ظنه زعم أن الآيات تتكلم عن الكفار الصرحاء.. ولكن من الذي قال ذلك؟ أشار إليه بقوله: وفي وَصْف الله جل ثناؤه إياهم بصفة النفاق، ما ينبئ عن أن القول غيرُ القول الذي زعمه من زَعم: أن القوم كانوا مؤمنين، ثم ارتدوا إلى الكفر فأقاموا عليه، إلا أنْ يكون قائلُ ذلك أراد أنهم انتقلوا من إيمانهم الذي كانوا عليه، إلى الكفر الذي هو نفاق. وذلك قولٌ إن قاله، لم تُدرَك صحته إلا بخبر مستفيض، أو ببعض المعاني الموجبة صحتَه. فأما في ظاهر الكتاب فلا دلالة على صحته، لاحتماله من التأويل ما هو أولى به منه. ينظر: تفسير الطبري (١/ ٣٢٥).

وعندما تراجع عبارات السابقين الذين قالوا ذلك تجد كلامهم محمولاً بصورة معقولة على من أعلن الإسلام ورجع إلى الكفر باطنًا، كما أنك تشهد من المنافقين من أصله الإسلام، وهو يقترف ضد الإسلام أسوأ ما يتصور أن يقوم به المحاربون للإسلام..

(٢) ينظر: النبأ العظيم، (ص: ٢٠٢).

ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، ثم به يتمُّ جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثم تفريقها ثم جمعها.

ولا ريب أن لدى شيخ المفسرين (الطبري) رحمه الله في هذا الموضع الخبر اليقين، والقول المتين؛ فإن مقتضى التناسب أن تحمل الآية على فريق النفاق لا سواهم من الكفار المظاهرين المجاهرين.

المشهد الثامن: الإصرار على الدمار وعدم التراجع عنه:

فيبصرنا قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة ١٨] بأن المنافقين الخُلَّص متشبعون بفساد القلب، وغرور النفس، فهم في نفاقهم (صم) عن سماع الإرشاد، (بكم) عن قول الخير، (عمى) عن رؤية النور، والنتيجة: أنهم ﴿لا يرجعون﴾ إلى الاستقامة على قولهم: ﴿آمنا﴾ عندما نطقوا بكلمة الإيمان، فأضاءت أنوارها ما حولهم، فلا يشعرون بأن نورهم قد ذهب، ويصرون على قيادة البشرية إلى الشقاء:

تفاجئك هذه الآية بوصفها، فقد جاءت كلمات ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ مرفوعة باعتبارها أخبارًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم صم، هم بكم، هم عمي لا يرجعون، أو أولئك صم، أولئك بكم، أولئك عمي، ويبين أبو حيان رحمه الله الدلالة العميقة لهذه الأخبار الثلاثة العميقة وعدم منافاتها للواقع، فيقول: "هِيَ أَخْبَارٌ مُتَبَايِنَةٌ فِي اللَّفْظِ وَالدَّلَالَةِ الْوَضْعِيَّةِ، لَكِنَّهَا فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ واحد، إذ يؤول مَعْنَاهَا كُلِّهَا إِلَى عَدَمِ قَبُولِهِمُ الْحَقَّ وَهُمْ سُمَعَاءُ الْآذَانِ، فُصَّحُ الْأَلْسُنِ، بُصَرَاءُ الْأَعْيُنِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَصِيخُوا إِلَى الْحَقِّ، وَلَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ، وَلَا تَلَمَّحُوا أَنْوَارَ الْهِدَايَةِ"(١).

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ١٣٢).

لماذا قلت لك: تفاجئك هذه الآية؟

لأنك عندما تتابع ترتيب القرآن، ونَظْمه تجد مشهدهم في السابق مثيرًا للرثاء، فقد ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات، لا يبصرون، وإذا كان هذا مشهدَهم، فما لهم لا يبحثون عن سبيل يخرجون فيه من الظلمات إلى النور؟ لماذا لا يبحثون عن طريقة للنجاة مما صاروا إليه؟

لم لا يعالجون وضعهم المؤسف، وحالهم المتعَب؟

والجواب باختصار: الله قد صور لنا السبب في أنهم لا يرجعون بهذه الجمل الثلاث: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

فلعلك إذن تسأل: ما موقع هذه الآية؟

الجواب: هذه الجمل الثلاث المترابطة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ تبين أنهم عندما ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون بقوا مُصرِّين على ما هم فيه.... وهم في كلِّ ذلك لا يشعرون بعظم جرمهم، وفداحة خطئهم، وكبر مصيبتهم.. لا يشعرون أن هناك خللاً مدمرًا يجب أن يصلحوه، والذي أنبأنا أنهم لا يشعرون هذه الجمل الثلاث: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ وهذا يعني أنهم يظنون أنهم على صواب في طريقتهم وأفكارهم، فيزداد واقعهم سوءًا.

إذن هذه الآية تخبرك عن خللٍ أكبر يعيشون فيه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فوصفتهم بهذه الأوصاف الثلاث:

الصفة الأولى: صمٌّ:

صمٌّ: جمع أصم، وهو الذي ذهب سمعه، كأن جزئيات السمع في الأذن اجتمعت، وصارت ممنوعة من القيام بوظيفتها، فالصمم: صلابة من اكتناز الأجزاء[1]، ومنه قيل: حَجَر

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٥٣)

أصم، وصخرة صماء، وقيل لرأس القارورة: الصِّمام، وكذلك صلابتهم في عدم سماع أي خير لا يمكن أن ينقذهم مما هم فيه.

لكننا نراهم يسمعون، فكيف يقال عنهم: صم؟

والجواب: تنطلق صرخات الإنقاذ من حواليهم، وترتفع صيحات المساعدة ممن يعرف الطريق ليرشدهم لكنهم لم يسمعوا شيئًا، وكيف لهم أن يسمعوا، وهم صم يسمعون كل شيء إلا ما ينقذهم من ضلالالتهم.

الصفة الثانية: بُكْم: جمع أبكم، والبَكَم: اعتقال اللسان، فلا يقوم بوظيفة الكلام.

ولكننا نراهم يتكلمون، فكيف قيل عنهم: بكم؟

أجيبك بأن المريض يبحث عن طريقة ليعبِّر عن نفسه، ويخبر بمرضه، ولكنهم لم يطلبوا الإغاثة؛ لأنهم كالبُكْم لا يتكلَّمون، لأنهم لا يشعرون بأنهم على فساد، وهم أيضًا بكم عن قول الحق.

الصفة الثالثة: عمي: العمى انطماس نور العين، فهم يرون ما أمامهم إلا ما يتعلق بأهم أمر في حياتهم، وهو إنقاذهم مما هم فيه، فلا يشاهدون الخير أمامهم[1].

ثم وصفهم الله ﷻ وصفًا جديدًا، فقال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، فما الذي صوَّرته لنا هذه الفاء في هذا الموضع؟ وما معنى أنهم لا يرجعون؟

ويأتيك الجواب: الفاء للتفريع على ماسبق، فتبين نتيجة الصفات الثلاث أي لا يرجعون إلى أي خيرٍ أو مكانٍ يمكن أن يوقدوا فيه النار ليجدوا النور من جديد.

(١) ينظر معاني الصفات الثلاث في تفسير الراغب (١/ ١٠٧).

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى حالهم عندما استوقدوا نورًا، فقد أذهب الله ﷻ نور المعرفة القرآنية منهم، وتركهم في ظلمات الكفر والفساد والعدوان والعصيان لا يبصرون الحقَّ حقًّا، ولا المعروف معروفًا، ولا المنكر منكرًا، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

فبقوا في مكانهم جامدين لا يرجعون إلى نقطة الاستضاءة، وهم لا يرجعون إلا لحيرتهم – كما يقرّر بعض علمائنا- بل لإصرارهم على أن ما يفعلونه هو الذي يجب أن يقوموا به في الحياة؟ فلا "يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها"(١)، كما يقول الزمخشري رحمه الله.

وربما سألت: كيف يصور لنا هذا الترتيب بين هذه الجمل: ﴿صمٌّ﴾ ﴿بكمٌ﴾ ﴿عميٌ﴾ ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ صورتَهم؟

وأجيبك بما يدهشك من دِقَّة النَّظْم القرآني العجيبة، وبما ينبئك عن سقوطهم في هاوية مالها من قرار، وما لهم منها من أوبة أو رجوع: فقد حاول البقاعي رحمه الله أن يجد الحكمة في هذا الترتيب، فأخبر أنه قَدَّمَ السَّمْعَ لِأَنَّهُ العُمْدَةُ في إجابة الداعي، وثَنَّى بِالقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ الأَصَمَّ الإِفْصاحَ عَنِ الـمُرادِ، وخَتَمَ بِالبَصَرِ؛ لِإِمْكانِ الِاهْتِداءِ بِهِ بِالإشارَةِ(٢)، ودعني أُظهر لك هذه الحكمة بصورة أوضح وأكثر إبهارًا:

هؤلاء استوقدوا نارًا ليجدوا ضمن منافعها نورًا، ثم بدأوا يعيشون حياتهم من خلال هذا النور الذي أضاء ما حولهم، ولكنهم لم يحقِّقوا به المقصد المراد منه من تنوير الدرب واستقامة الحياة، بل فرطوا به وأكثر من ذلك تنكروا له، وناصبوا أهله وحملته العداء؛ فذهب الله بنورهم، وتركهم في حالك ظلماتهم،

---

(١) الكشاف (١/ ٧٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ١٢١).

فماذا بعد؟ إنهم لم يفيقوا من سكرتهم، ولم يراجعوا مسيرة حياتهم، بل مضوا غير عابئين بما يحدث لهم، يعيشون يتحركون يأتون ويذهبون ولكن على غير هدى ولا بصيرة، يتسفلون في درك الباطل والنفاق والمنكر، ويتسببون في إضرار أنفسهم وإضرار غيرهم، يسخرون كل إمكاناتهم وأسلحتهم وما أوتوا في الصد والمحاربة للحق وأهله ولا يرعوون، لقد اجتمعت عليهم ثلاثية الصَّدِّ المحكمة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾.

وفي هذه النقطة وعند وصولك لهذا الموضع ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ ودقة تدبرك يظهر لك الترتيب:

فأما قوله ﴿صمٌّ﴾:

فإن الناصحين ينادونهم: انتبهوا.. لكنهم صمٌّ، فكيف يسمعون؟

وأما قوله: ﴿بُكْمٌ﴾:

فإنهم لما وقعوا في إيذاء ما حولهم، وفي إيذاء أنفسهم كأنهم لما وقعوا في الحُفَر كان يمكن أن يتكلموا، ويطلبوا الإغاثة.. النجدة، لكنهم بُكْمٌ، فكيف يمكن أن يتكلموا؟

انظر إليهم: تتعجب منهم لماذا لا يتكلمون ليطلبوا المساعدة لمعرفة الطريق الصحيح في اجتياز هذه الحياة؟ إنهم لن يطلبوا لأنهم كالبُكْم في قضية الإيمان.. فتراهم يتكلمون في كلِّ شيء، ولكنهم في طلب معرفة الحياة الحقيقية بكمٌ لا يتكلمون.

وأما قولهم: ﴿عُميٌ﴾:

فإنهم وهم يسقطون في الحفرة أو يؤذون الآخرين كان يمكنهم أن يشاهدوا بأعينهم ما يحدث لهم، فربما تمسَّكوا بشيء حولهم، لكنهم عُمْي فكيف يمكن أن يروا شيئًا؟

وبهذا يتأكد لنا أن ثلاثية الصدِّ المحكمة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ نتيجة أكثر من كونها مقدمة، وعقوبة أكثر من كونها ذنبًا يستحق العقوبة، ولأن الأمر كذلك فقد قال الله تعالى عن الكفار

في موضع آخر: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وبهذا يظهر لك استواء الفريقين في المآل والخاتمة، نسأل الله حسنها.

وهنا يلفت نظرك ويشد انتباهك تكرر وصف العمى..

وربما قلت: ولماذا تكرر حقًا ذلك؟ ألم يقل الله تعالى من قبل: ﴿لا يبصرون﴾ ؟ وكيف صورت لنا كلمة ﴿عمي﴾ بإبهار شديد ما حدث؟

الجواب: لأن وصف الإبصار في قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ كان قبل السقوط إلى الهاوية، فهم لا يبصرون فسقطوا، ولما سقطوا كان يمكن أن يستدركوا حالهم بسماع الداعي، أو بالصراخ والمناداة، أو برؤية ما حولهم لعلهم يتمسكون بشيء ريثما يأتي من ينقذهم، لكنهم صم بكم عمي، فلا يرون أي شيء يمكن أن ينقذهم من هلاكهم.

هنا تتذوق لذَّة كلام الله ﷻ، وتعلم أن كلَّ كلمة في موضعها.. في محلها لها بهاؤها، وسناؤها.. فقط تدبَّرْ وتبصَّرْ.

ومعنى آخر لافت لنا أن نستلهمه ونحن نتأمل مشهدترديهم وسقوطهم الذي أخبر الله ﷻ عنهم فيه بالجملة الفعلية -أولًا- فقال: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وبين مشهدهم التالي له الذي يصف الله ﷻ فيه حالهم بالجملة الخبرية بأنهم ﴿عُمْىٌ﴾، ولا يخفى ما في الخبرية من إفادة تمكن العَمى ورسوخه عندهم حتى لا مزيح لهم عنه، ولا له عنهم.

ففرق عظيم بين أن تقول: إن ﴿عُمْىٌ﴾، هنا للتأكيد، وبين أن تشعر بأنها تؤدي معنى جديدًا يربطك بالصورة الكلية لحالة هؤلاء الأشقياء، وما حدث لهم.

وأما الرابعة، فهي نتيجة للثلاث، فكان حريًّا بها أن تأتي في الخاتمة.

انظر إليهم: لقد بقي مركز الإضاءة مليئًا بالضياء، فإن كانوا لم يستطيعوا التقدُّم فليرجعوا إليه عسى أن يأخذوا منه ما يضيئون به سبيلهم اللاحب، وطريقهم المخيف.. ولكنهم لم يرجعوا.. كيف لهم أن يرجعوا وهم ﴿صم بكم عُمْي﴾.. فهم لا يرجعون إلى الذي استوقدوه لأنفسهم من أنوار الإيمان بالله واليوم الآخر. لقد اختاروا بمحض إرادتهم الهرولة نحو المجهول والهاوية، والاتجاه الإجباري نحو الهلاك المحتوم، فيا بؤسًا لهم ولمن لحق بركبهم، وتقحم خطأهم وخطاهم!

هكذا شعر الصحابة ﷺ في معنى الآية، فعن ابن عباس وابن مسعود ﷺ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الإسلام، وعن ابن عباس ﷺ: أي: فلا يرجعون إلى الهدَى ولا إلى خير، فلا يصيبون نَجاةً مَا كانوا على مَا هم عليه[1].

والآن آن لنا أن نتذكر ولا نغفل عن أن وصف الآية كان عن المنافقين وليس عن العصاة..

ستقول: فما الفرق بين الصنفين؟

الجواب: العصاة يرتكبون المعصية وهم يعلمون.. مثلاً يأكلون الربا، لكنهم يعدُّون أنفسهم يومًا بالتوبة، وربما حاول بعضهم أن يغطِّي على معصيته بحسنات عسى إذا أتبع السيئة الحسنة محتها.

---

(١) وهنا أجد الطبري ﵀ بعد روايته عن ابن عباس ﷺ ومن معه يظهر مخالفته لهم، فيقول: "هذا تأويلٌ ظاهرُ التلاوة بخلافه. وذَلك أن الله جلّ ثناؤه أخبرَ عن القوم أنهم لا يَرجعون -عن اشترائهم الضلالة بالهدى- إلى ابتغاء الهدى وإبصار الحق، من غير حَصْرٍ منه جلّ ذكره ذلك من حالهم على وقت دون وقت وحال دون حال. وهذا الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس ﷺ، يُنبئ أنّ ذلك من صفتهم محصورٌ على وقت وهو ما كانوا على أمرهم مقيمين، وأنّ لهم السبيلَ إلى الرجوع عنه. وذلك من التأويل دعوى بَاطلة، لا دلالة عليها من ظاهر ولا من خبرٍ تقوم بمثله الحجة فيسلم لها". تفسير الطبري (١/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ولعله بدا للطبري ﵀ معنى دقيق لم أفقهه، ولكن لا يظهر لي أن ابن عباس ﷺ -إن صح ما رواه الطبري ﵀ عنه- عنى إلا ما عناه الطبري ﵀ في الجملة، فلو حمله الطبري على المعنى الذي أراده لم يبعد عن الصواب، وما كان من داعٍ ليظهر أنه في طريق، وابن عباس ﷺ في طريق آخر في فهم الآية.

أما المنافقون: فهم يعصون، ويرون أن معصيتهم هي الحقُّ.. هي الصواب.. فإن أكلوا الربا، وتباهوا بالقمار، وتفاخروا بتجارة البشر، وخدعوا المؤمنين، وكذبوا، وكذَّبوا، وأفسدوا في الأرض، وحاربوا المِلَّة، ووالوا أعداء الله ودينه، ونكلوا بالمصلحين، وجابهوا كل فضيلة.. هم في ذلك كله يرون أنهم على صواب، وأنهم ينبغي أن يمدحوا على هذه الأفعال، بل يستنكرون على من ينكر عليهم، ولا يطيقون سماعه، ولذلك يسعون إلى أن يخرسوا كل صوت يذكرهم بفساد تصوراتهم وأفعالهم.

سقوط لا رجوع عنه ولا منزع:

لكنك ربما تسأل: كيف تظهر لنا هذه النتيجة: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ المصائب التي وقعوا فيها وأوقعوا فيها غيرهم؟

والجواب: أنهم لا يرجعون إلى مركز الإضاءة، ولا يرجعون إلى طلب الغوث، بل يصرُّون على المُضيِّ بعد أن ذهب الله بنورهم، فربما تحركوا فسقطوا في حفرة، أو تردوا في هاوية، وربَّما تحرَّكوا، فأصاب بعضهم بعضًا بآثار النار المرتكزة في المشعل، فآذى بعضهم بعضًا، وربما بلغ الإيذاء حدَّ الإحراق لثيابهم وأجسادهم، وهم في كلِّ ذلك لا يرجعون، لا يبالون أن يحرقوا العالم بإجرامهم لأنهم لا يشعرون بأن خيرًا ذهب عنهم.. وهنا تعلم لماذا قال الله ﷻ لهذا المثل الحي ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، فإن النور هو الذي ذهب، وأما بقايا النار فموجودة لم يستفيدوا منها إلا الإيذاء.

والفعل (يرجع) ربما استعمل لازمًا، فتقول: رجع فلان بعد أن ذهب، وربما عُدِّي بـ(إلى)، أو (عن)، ولما جُرِّدَ هنا من أن يُعَدَّى بأحدهما؛ أمكن احتماله لعِدَّة معانٍ ودلالات:

ومن ذلك أنهم (لا يرجعون) أي: إنهم بمنزلة المُتَحَيِّرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه؟!

ومن ذلك أنهم لا يرجعون عما تقدم ذكره، وهو التمسُّك بالنفاق الذي لأجله صاروا بمنزلة السوء هذه، وتأكَّد أنهم يستمرون على نفاقهم أبدًا[١].

ومن ذلك أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، وإلى النور بعد أن حادوا عنه وتبدلوه.

المثل القرآني يصف حالتهم ويجلِّي أوصافهم:

إنه مثل رحيب مهيب لمن يزعم الإيمان، فاكتسب نورًا بقوله: لا إله إلا الله نفسه، ثم قاد من حوله، وأنارهم بمصدر النور وهو القرآن المجيد، فأضاءت لهم هذه المعرفة القرآنية الظلماتِ الحياتيةَ، وأبصروا بأنوارها طريقهم الكوني: من أين جاؤوا، وإلى أين سيذهبون.. إلا أنهم ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فأصرُّوا على إبقاء مرض قلوبهم قائمًا، واكتفوا بأن تنير المعرفة القرآنية خارجَهم، وأبوا أن تُنيرَ نفوسَهم ودواخلهم، فقادتهم أهواؤهم إلى الانحراف، وأطفأت شهواتُهم العاجلةُ الطاغيةُ أنوارَ المعرفةِ القرآنيةِ الخارجيةِ، فلم يسترشدوا بها، ولم يستنيروا بنورها، ووجدوا في ظلمات الكفر استجابة لأهوائهم المريضة، ونزواتهم المجرمة، فعاقبهم الله تعالى بأن أذهب نور المعرفة القرآنية منهم، وتركهم في ظلمات الكفر والفساد والعدوان والعصيان ولا يعلمون ولا يشعرون.. صاروا عميًا؛ لأنهم لا يبصرون الهدى وحقائق الإيمان.. لا يبصرون المصالح الحقيقية في الحياة، ولا يرون المستقبل القادم إليهم في غدهم القريب، وصاروا صُمًّا؛ لأنهم لا يسمعون الحقائق الخَيِّرةَ النَّيِّرةَ للمعرفة القرآنية، فلا يسمعون إلا دواعي الإجرام والكفر والعدوان، وصاروا بكمًا؛ لأنهم لا يتكلمون بالحقائق الخَيِّرةِ النَّيِّرةِ المنبعثة من المعرفة القرآنية والإيمان الحقِّ، فلا يتكلمون إلا بالإجرام والكفر والعدوان، وصاروا عُميًا لا يرون الحقائق الخَيِّرةَ النَّيِّرةَ المنبعثةَ من البيان القرآني، فلا يرون إلا الإجرام والكفر وحبَّ المراوغة والاحتيال والخداع عبر تدمير حياة الأبرياء،

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، (١/ ٢٣٦).

وسَدُّوا عَلَى أنفسهم جَمِيعَ أَبْوَابِ الْهِدَايَةِ، وَعَدَمُ الإِبْصَارِ بِذَهَابِ النُّورِ غَيْرُ كَافٍ لِتَمْثِيلِ هَذَا الْيَأْسِ وَالْحِرْمَانِ، لِجَوَازِ أَنْ يَلُوحَ بَارِقٌ، أَوْ يَذَرَ شَارِقٌ، أَوْ يَصِيحَ طَارِقٌ، فَتَكُونَ الْهِدَايَةُ، وَتَنْكَشِفَ الْغَوَايَةُ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾(١).

وهنا ربما تسأل: أليس تعطل هذه الحواس الأساسية بالصمم، والبكم، والعمى، يجعل لهم عذراً؟

والجواب: لا، ليسوا معذورين، فقد ذكرنا أن جملة ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ حذف جواب الشرط، وتقديره: حاربوا النور في الصورة القائمة للمشبه به، أو عصوا الله، أو كذبوا، أو عادوا إلى نفاقهم في المشبه، فعاقبهم الله تعالى بأن ذهب بنورهم، وتركهم ليفعلوا ما شاءوا في ظلمات، وهم لا يبصرون، وأبقى لهم حواسّهم لكنهم تعاملوا مع أنوار الوحي وبصائره كأنها غير موجودة: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

عاقبهم الله تعالى بسلب نورهم لمَّا أصرَّوا على النفاق فعطلوا أدوات المعرفة، وهي: السماع، والكلام، والبصر في طلب النور الحقيقي، فلا يستعملون هذه الأدوات إلا في أردأ الأفعال.

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٤)، وهكذا يكون المعنى واضحًا، وقد أعمل المفسرون فيه الترتيب القرآني كما هو. هنا تشعر أن شيخ المفسرين ربما ابتعد عن الصواب حينما جعل هذه الآية من المؤخر الذي حقه التقديم، فقال: "وإذْ كانَ تأويل قول الله جلّ ثناؤه: "ذهبَ الله بنورهم وتَركهم في ظلمات لا يبصرون"، هو ما وصفنا - من أنّ ذلك خبر من الله جل ثناؤه عما هو فاعل بالمنافقين في الآخرة، عند هتك أستارهم، وإظهاره فضائح أسرارهم، وسَلبه ضياءَ أنوارهم، من تركهم في ظُلَم أهوال يوم القيامة يترددون، وفي حَنادسها لا يُبصرون - فبيّنٌ أنّ قوله جل ثناؤه: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ من المؤخّر الذي معناه التقديم، وأنّ معنى الكلام: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، صُمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون، مَثلهم كمثل الذي استوقدَ نارًا فلما أضاءتْ ما حوْله ذهبَ الله بنورهم وترَكهم في ظُلمات لا يبصرون، أو كمثل صَيِّب من السماء". تفسير الطبري (١/ ٣٢٩).

فما الداعي لادعاء التقديم والتأخير لمخالفة النظم القرآني دون حاجة؟

إن قِصَّتهم كما قال الزمخشري رحمه الله: "كانت حواسُّهم سليمةً ولكن لما سدُّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامِعَهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جُعِلوا كأنما ذهبت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك"[١]، كما قال قَعْنَبُ بن ضَمْرَة[٢]:

إن يســمعوا ريبةً طاروا بها فرحًا ... منى ومـا ســمعوا منْ صـــالحٍ دفنوا

صُـــمٌّ إذا ســـمعوا خيرًا ذُكرْتُ بـه ... وإنْ ذُكـرْتُ بســـوءٍ عـنـدهـمْ أذنـوا

جـهْلًا عـلـيَّ وجـبنًا عـنْ عـدوِّهِـمُ ... لبئســـت الخِلَّتـانِ الجـهـلُ والجُبنُ

وفي مثل هذا المعنى قال البوصيري:

مَحَضْتَني النُّصحَ لكن لست أَسْـمَعُهُ ... إنَّ المُحـبَّ عن العُـذَّالِ في صَــمَمِ[٣]:

ولعلك تسأل: لماذا يذكر ربنا عز وجل أنهم بُكْمٌ مع أن الأصم يكون أبكم في العادة؟

الجواب: ذكر المفسرون ومنهم الفراهي رحمه الله أن الله عز وجل أراد أن يبيِّن شِدَّة صممهم، فليس الذي أصابهم مجرد ثقل في السمع، بل صمم تام، ولذا أكد ذلك بقوله: ﴿بُكۡمٌ﴾[٤].

هذا معنى ما ذكره الفراهي رحمه الله، وعندي احتمال آخر أقوى: أن الله -جل مجده- يخبرنا عن القوى المنافقة التي استضاءت بالنور، وهذا يعني أنها كانت تسمع وتتكلم وتبصر، لكنها أبت إلا محاربة ذلك النور، فذهب الله بنورهم، وكذلك من سمع وتكلَّم، ثم ذهبت منه حاسة السمع الصحيحة، فصار أصمَّ.

---

(١) الكشاف (١/ ٧٥، ٧٦).

(٢) ينظر: سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي (١/ ٣٦٢).

(٣) ديوان البوصيري (ص: ١٩١).

(٤) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: سورة البقرة (ص: ١٥٤).

فكذلك من استضاء بنور الله ثم نكص على عقبيه فصار لا يسمع إلا ما يغضب ربه، فصار الصمم مستجدًا وليس أصليًا بدليل أنه قال في البداية: آمنا، وعندها يظن من يتعامل معهم أنهم وإن ذهب سمعهم، فربما بقي صوتهم لكن الله ﷻ يخبرك أن كل الحواس التي يجدر بها أن تكون أدوات للمعرفة الصحيحة ذهبت.

وتعجب من هذا التصوير القرآني لشدة اتباع هؤلاء لأهوائهم الغاوية، وتساقطهم في أمهم الهاوية، فمن أسباب أنهم ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ **أنهم يرون بريق البطولات في اكتساب الشهوات الباطلة، وفعل المحرمات القاتلة.**

وأمر آخر يستوقفنا هنا إنه لم يصرح بالموصوفين بقوله: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ﴾ لا بالاسم الظاهر (المنافقون)، ولم يشر عليهم بضمير يعود عليهم كـ (هم)، وهذا من الإيجاز البديع بالحذف، ومقصوده صيانة اللسان عن ذكر المعني تحقيرًا له، وتصغيرًا لشأنه، وإن كان السياق يدل عليه.

صيحات الإنقاذ من هاوية السقوط تناديهم فهل يستجيبون؟!

هذه الظلمات الرهيبة يمكن أن يسقطوا معها في حفرة سحيقة، أو أن يؤذوا أنفسهم بآراء سخيفة صفيقة، وتراهم يصرُّون على السير في تلك الظلمات، وصيحات الإنقاذ تناديهم، ونور المعرفة القرآنية يلوح من خلفهم، إلا أنهم لا يسمعون تلك النداءات المنقذة، ولا يطلبون هم الإنقاذ لأنفسهم، ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بَعْدُ إلى نور المعرفة القرآنية... يا لبؤسهم وشقائهم، وربما أصروا على أن يقودوا غيرهم في تلك الظلمات الحالكة وهم يحسبون أنهم يعرفون طريقهم، فما تراهم تقدموا وقد ربطوا معهم غيرهم من الشعوب التي انقادت لهم حتى وقعوا معهم في حفر الإجرام، وهاوية الظلم والعدوان.

وترى في هذا التمثيل شِدَّة إفساد هؤلاء المجرمين في حركتهم؛ وذلك من خلال وصف الله تعالى لهم بذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون؛ فإن من كان في نور ثم أظلم عليه يكون أشدَّ تحيرًا وتخبُّطًا ممن كان في ظلمة من أول الأمر، وتخيل إذا كان هؤلاء قيادات للرأي العام فأي هاوية سحيقة يقودونهم إليها.

وقد ذكر الرازي رحمه الله ثمانية وجوه في وجه التمثيل[١]، وأنت ترى أن هذا التشبيه البليغ كما يدلُّ على حقيقة المنافقين في الدنيا، فهو يدلُّ على واقعهم في الآخرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية: هذا مثل ضربه الله عز وجل للمنافقين أنهم كانوا

---

(١) من بديع فعل الزمخشري رحمه الله أنه استعرض عارضته هنا في إظهار منزلة هذا التشبيه البليغ المدهش، فقال: "فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه. والمحققون على تسميته تشبيها بليغًا لا استعارة؛ لأنّ المستعار له مذكور وهم المنافقون. والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلوًا عنه صالحًا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام، كقول زهير:

فَشَدّ فَلَمْ يُفْزِع بُيُوتًا كثِيرَةً ... لدي حيث ألقت رَحْلَها أمُّ قشعمِ

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفِ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحًا. قال أبو تمام:

ويُصْعِدُ حتَّي يَظُنَّ الجَهُولُ ... بأَنَّ لَهُ حاجَةً في السَّمَاء

وبعضهم:

لا تَحْسَبُوا أَنَّ في سِرْبالِهِ رَجُلاً ... غَيْثٌ ولَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِل

وليس لقائل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدإ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه في حكم المنطوق به، نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخاءُ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

ينظر: الكشاف (١/ ٧٧، ٧٨).

يعتزُّون بالإسلام، فيناكحُهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله ﷻ ذلك العزَّ، كما سلب صاحب النار ضوءه. ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ يقول: في عذاب[١].

وربما تساءلت: لماذا قال: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ ولم يقل: ﴿صم وبكم وعمي﴾ بحرف العطف؟

والجواب: لأن الله ﷻ يصوِّر لنا حالهم بصورة تامَّة، فهم جميعًا صُمٌّ، وهم جميعًا بُكْمٌ، وهم جميعًا عُمْيٌ، ولو أتى بحرف العطف لكان المعنى: بعضهم صُمٌّ، وبعضهم بُكْمٌ، وبعضهم عُمْيٌ.

المشهد التاسع: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ نتيجة توضح لنا أن المنافقين لهم أهدافهم في الحياة، وهي تتلخص في نشر ظلمات الكفر والفسق والإفساد في الأرض، ولذلك يصرون على ألا يرجعوا إلى أدنى خير مما أعلنوه عندما قالوا: آمنا، فالمنافقون اعتنقوا النفاق لا ليدفعوا عن أنفسهم القتل، بل لينفِّذوا أقسى المؤامرات وأقصاها وأخبثها مما لا يستطيعه أقوى المتآمرين من الكفار ضد الإسلام والمسلمين:

فهذه الفئة المخذولة المرذولة قد تسفَّلت، وتشبعَّت بالمنكر، ومَرَنَتْ على النفاق والخداع والتضليل، وأَلِفَتْ أساليب الروغان، وعزمت أمرها أن تواصل مشوارها المشؤوم حتى النهاية؛ فليس الرجوع والأوبة في حسبانها، إنها مصمِّمة على مواصلة الدرب والسقوط في الهاوية، والهروب من حال إلى حال أشدَّ قتامة وأَحْلَكَ ظلامًا:

تلحظ أن بعض الآراء التفسيرية تأخذك بعيدًا عن البصائر القرآنية، وإن رجعت إلى الآيات ابتداء من الآية الثامنة ومضيت تقرأ فيها تستلهم منها التعامل مع الواقع، فإنك تجد أنها لا تشير إلى أن المنافقين اعتنقوا النفاق خوفًا من القتل، بل تجد التركيز على كذبهم وخداعهم

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢١).

وإفسادهم وتآمرهم، وهنا لا بأس لو استدركت على بعض علمائنا إفراطهم في التأكيد على أن المنافقين أرادوا فقط حماية أنفسهم من القتل، وهذا صحيح، ولكن من أي جهة؟

فمثلاً: أعلن عبد الله بن أبيٍّ إسلامَه بعد معركة بدر، وليس ذلك ليعصم دمه، فهو ما زال إلى وقته محترمًا في قومه بصورة إجمالية، لكنه علم أنه لن يفسد في الأرض وهو على حالة الشرك، وإفساده سيكون أقسى وأشنع وأكثر تأثيرًا إذا أعلن إسلامه، واستتر بالنفاق. وتقرير المعنى على هذا النحو يوسّع المدارك ويبصرها بأصناف الفئات والقوى النفاقية، فلا يقتصر بتصويرها على حال واحد، أو حصرها بفئة واحدة ألجأها ضعفها وضعتها لسلوك النفاق والتمذهب به وحسب، فليس الأمر كذلك.. إن من عصب النفاق ونوابته ما يكونون في رأس هرم المجتمعات، ومن ذوي التأثير والقرار والتمكن، ولكنهم قَدَّروا -خاب تقديرهم- أن خدمة مشروعهم النفاقي البائس سيكون على صورة أكثر تأثيرًا لو أنهم خادعوا المجتمع، وتَمَظْهَرَوا بالصلاح والإصلاح، وإن كان في بواطنهم، ودوافعهم خلاف ذلك بالكلية.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فالمنافقون بؤرةُ خيانةٍ ووكْرُ مكرٍ:

فالمنافقون في المجتمع المسلم يرتكبون الخيانة العظمى.. بل الخيانات العظمى المتتابعة، فهم يحرصون على نشر الكفر في كلِّ مكان، ويحاربون القرآن، وينشرون الخمر، ويتباهون بنشره، ويشيعون الفاحشة والمنكرات، ويتحالفون مع ألدِّ الأعداء المغتصبين، ويحرصون على إقامة مسابقات تشيع الزنا تحت شعارات مختلفة، ويُضيِّقون على عبادة الله، ويُحبِّبون الشرك، ويفتخرون بنصب الأصنام تحت شعارات التسامح والتعايش، ويأكلون أموال اليتامى والضعفاء والنساء، ويسرقون علنًا أموال المسلمين، وينهبون كنوز الشعوب المستضعفة في البر والبحر..

هذه خيانات وجرائم متتابعة.. ماذا يفعلون؟ إنهم يفعلون ما فعله مسيلمة الكذاب لكنهم سيحمون أنفسهم من مصير مسيلمة؛ لأنهم لن يُظهروا الرِّدَّة بل سيدَّعون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر.. وها هو شاعر البصائر يثير النَّقْع من حولهم بأبيات تزلزل نفاقهم من الأساس، ولكأنها ضربات فاس على هام الرأس حين يقول مشنعًا مقبحًا صنيعهم:

تَرَكُوا بِلَالَ الصِّدْقِ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ ... واسْتَبْدَلُوا التَّكْبِيرَ بالأجْرَاسِ
نَصَبُوا لِبُوذَا والمَسِيحِ مَعَابِدًا ... واسْتَبْدَلُوا الصَّلَوَاتِ بِالْقُدَّاسِ
وَزَكَاتُهُمْ للرَّاقِصَاتِ غَنِيمَةٌ ... جَازَاهُمُ الجَبَّارُ بِالإفْلاسِ
وَصِيَامُهُمْ خَوضٌ بِكُلِّ رَذِيلَةٍ ... وَتَمَامُهُ سُكْرٌ وَرَشْفَةُ كَاسِ
وَبِتَلِّ أَبِيبَ يَطُوفُ وَفْدُ حَجِيجِهِمْ ... يَسْعَى بِهِ الأَنْجَاسُ لِلْأَنْجَاسِ

هذه هي المقدمة الضرورية التي تحبونا بها بصائر هذه الآيات.. هذه المقدمة هي التي يجب أن تسبق كلام بعض علمائنا حتى نجمع بين تقريراتهم والبصائر المباشرة التي تقدِّمها لنا الآيات، وبعد أن ندرك ذلك نفهم لماذا قال الطبري رحمه الله: "وذلك أن المنافق لم يزل مستضيئًا بضوء القول الذي دَافع عنه في حَياته القتلَ والسِّباءَ، مع استبطانه ما كان مستوجبًا به القتلَ وسلبَ المال لو أظهره بلسانه- تُخيِّل إليه بذلك نفْسُه أنه بالله ورسوله والمؤمنين مستهزئ مخادعٌ، حتى سوَّلت له نفسُه - إذْ وَرَد على ربه في الآخرة - أنه ناج منه بمثل الذي نجا به في الدنيا من الكذب والنفاق. أوَ ما تسمع الله جل ثناؤه يقول إذْ نعتهم، ثم أخبر خبرَهم عند ورودهم عليه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨] "(١).

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٦).

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ فمسلسل الخداع المستمر:

يظل المنافقون يخادعون حتى في الآخرة، ويظنون أن نجاتهم من عذاب الله في الآخرة يمكن أن تكون بالكذب والإفك والخداع كما كانوا يفعلون في الدنيا، ولكن الفارق بين حالهم في الدنيا، وحالهم في الآخرة أنهم سيستشعرون الهلاك في الآخرة، فسيسمعون، وسينطقون، وسيبصرون، وعندها يطلبون الرجعة، فلا يمكنون

فكما أنهم أصرُّوا على الصَّمَمِ والبُكْم والعُمى في الدنيا، وأصرُّوا على عدم الرجوع إلى حقيقة الإيمان، فستذهب نداءاتهم في الآخرة عبثًا، ولن يستجاب لهم.

هنالك يقال لهم كما يقول الطبري ﵀: "ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا واصلوْا سَعيرًا. فذلك حينَ ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، كما انطفأت نار المستوقِدِ النارَ بعد إضاءتها له، فبقي في ظلمته حيران تائهًا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]"(١).

ولعلك تسأل: لماذا قال الله في حق المنافقين ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، وقال في حق الكفار ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]؟

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٦، ٣٢٧).

يجيب ابن القيم رحمه الله فيقول: لأن المنافقين فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا، فهم لا يرجعون إليه. وأما الكفار فلم يعقلوا الإسلام، ولا دخلوا فيه، ولا استناروا له، فقال في حقِّهم ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

---

(١) الوابل الطيب (ص: ٥٥).

الجزء الثالث

المشاهد التي تبصِّرنا بها الآيات حول الفريق الثاني من فريقي المنافقين، وهم: الفريق المتردد والمراوغ، وضرب الله تعالى لهم المثل المائي [البقرة: ١٩-٢٠]

الآيات المتعلقة بهم: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

حتى نتذوق هذا المثل، ونتفيأ ظلاله يمكننا أن نستخرج المشاهد الآتية من آيتيه:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

مشاهد المثل المائي للفريق الثاني {المتردد والمراوغ} {البقرة: ١٩-٢٠}

1. **المشهد الأول: مشهد تعدد البدائل النفاقية، وتبادل الأدوار**
   ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾
2. **المشهد الثاني: الاضطراب الدائب، والتردد الشهواني**
   ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾
3. **المشهد الثالث: صيب كثيف من نواحٍ متعدِّدة**
   ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾
4. **المشهد الرابع: الجمال والوبال**
   ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾
5. **المشهد الخامس: صيِّبٌ مهدِّد!**
   ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾
6. **المشهد السادس: إحاطة غير قابلة للاختراق**
   ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾
7. **المشهد السابع: البرق الخاطف**
   ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾
8. **المشهد الثامن: التلاعب المصلحي**
   ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾
9. **المشهد التاسع: القيام في الظلام**
   ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾
10. **المشهد العاشر: النفاق: فن المراوغة الحذرة**
    ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾
11. **المشهد الحادي عشر: مشهد القوة المحيطة القادرة**
    ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾
12. **المشهد الثاني عشر: القوة المطلقة القاهرة**
    ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

مفصل سورة البقرة (1)

المشهد الأول: مشهد تعدد البدائل النفاقية، وتبادل الأدوار: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾:

﴿أو﴾ تُبرز في الساحة نوعًا ثانيًا من المنافقين هو المنافق المتردِّد والمنافق المراوغ سواء أكان قياديًّا أم فردًا عاديًّا:

وقد تتساءل: كيف تظهر كلمة ﴿أو﴾ نوعًا جديدًا من المنافقين يختلف عن النوع الذي شاهدناه في المثل الناري في الآيتين السابقتين؟

والجواب أن هذا من بلاغة القرآن وحسن بيانه، فكلمة ﴿أو﴾ تشعرك بقوتها وعظمتها ما يأتي:

أولاً: كلمة ﴿أو﴾ في قول ربنا ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ للتفصيل التنويعي يفصِّل هذه الفئة الغامضة تفصيلاً مبينًا، ويبين حقائقها في الواقع حتى تستطيع أن تكتشفها مهما راوغت، فقد أضاءت كلمة ﴿أو﴾ الوعي الإنساني بصنفٍ ثانٍ من المنافقين غير الصنف الأول المذكور في المثل الناري:

هذا التفصيل يزيدك بيانًا عن هذه الفئة الخفية الخطيرة، ويكشف حقيقتها كشفًا بعد كشف، ويوضح ما يتعلق بنفسياتها وأفعالها وتصرفاتها إيضاحًا بعد إيضاح.

وهذا التفصيل يبعد هذيان التحليلات والتخرصات والأقاويل، ويشبه تفصيل سورة فاطر لصنفي الصالحين والطالحين في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣].

ستقول: ولماذا لا تقتصر على الإيجاز؟ وهل يوجد داعٍ لهذا التفصيل؟

الجواب: التفصيل مطلوب في وقته، كما أن الإيجاز مستحسن في موضعه، وقد أنشد الجاحظ في بلاغة من يفرق بين مقامي الإيجاز والإطناب:

يُوحُونَ بِالخُطَبِ الطِّوَالِ، وتَارَةً وَحْيَ المُلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَباءِ[(١)]

فمدح الشاعر هؤلاء بأنهم يلقون الخطب التفصيلية في وقتها المناسب، ويوجزون في الوقت المناسب للإيجاز، كما يوجز الملاحظ الذي يخاف الرُّقَباء عليه، وكذلك الأمر في كلمة ﴿أو﴾ فقد فصَّلت لنا صفات عن هؤلاء المنافقين تفصيلاً نحتاج إليه.

ستقول: أليس هذا المثل لزيادة الإيضاح للمثل السابق؟

الجواب: ليس هذا فحسب، بل ذهب ابن كثير ﵀ إلى أن هذا المثل للإخبار عن صنف آخر من المنافقين[(٢)]، ورجَّحه السيد رشيد رضا ﵀[(٣)]، ورأى أن ما ذهب إليه أكثرُ المفسرين من أنهم صنف واحد ليس صحيحًا، ويعضده أن القول بالتأسيس أولى من التوكيد؛ فإن بصائر القرآن المجيد تنير فؤادك بأن المنافقين ليسوا صنفًا واحدًا عندما تراهم أو تخالطهم، فبعضهم: خالص النفاق، وبعضهم متردد بين النفاق والإيمان، وبعضهم مراوغ، وبين هذين النوعين مراتب.

ثانيًا: ﴿أو﴾ تفيدك التَّخْييرَ أَيْ شَبِّهُوهُمْ بأحد المثلين بما يناسبهم، ويكون المعنى: تأكَّد من أن المنافقين ينتمون إلى أحد صنفين:

أي ترى بعض المنافقين فتستطيع أن تصنفهم بيسر، فبعضهم ينتمون إلى فئة النفاق الصلب (العلمي العَقَدي الخالص) وهم أصحاب المثل الناري، وبعضهم ينتمون إلى فئة النفاق المتردد (العملي المَشُوب بشيء من الإيمان)، وهم أصحاب المثل المائي.

وتخيَّر أنت عند التطبيق الواقعي ما يناسب المثلين.

---

(١) الكشاف (١/ ٧٨) البيان والتبيين، للجاحظ (ص: ٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٤٦).

ثالثًا: كلمة ﴿أو﴾ تثمر الإبهام وإثارة الشك عند الناظر:

ويكون المعنى: تنظر أيها الإنسان في حال هؤلاء المنافقين، فتشكُّ فيهم فبعضهم تشبِّهه بالمثل الناري، وبعضهم تشبِّهه بالمثل المائي، وبعضهم تشكُّ إلى أي الجهتين ينتمي، فشمل ضرب الأمثال الحالات المختلفة.

وربما تسأل: هل في القرآن ما يشبه ذلك؟

أجيبك: نعم فالقرآن قد يذكر صنفين يشتركان في شيء، ويختلفان في شيء، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤]، فالآثم غير الكفور، وإن اشتركا في الأصل، فإن المراد تساويهما في عصيانهما، فبينهما اشتراك، ولكن كلاً منهما غير الآخر في إجرامه.

وقد شعر علماؤنا بقوَّة كلمة ﴿أو﴾ في قوله: ﴿أو كصيب﴾ فإن بعض المنافقين تحتار في تصنيفه، وتشكُّ فيه مع يقينك أنه يفعل أفعال النفاق لكنك تتساءل: هل هو منافق صُلب لا يمكن أن يرجع عن نفاقه أم منافق متردِّد مراوغ يمكن التأثير عليه لعله يتوب أو لا بدَّ من الحذر الزائد منه لأنه أكثر روغانًا من المنافق الصلب؟ فهذا من معاني ﴿أو﴾ أي: ترى المنافقين وتشكُّ في إلى أي الفئتين ينتمي، ولذا ذكر العُكبَريُّ[1] أن لـ﴿أو﴾ في قوله: ﴿أو كصيب﴾ أربعة أوجهٍ، منها: أَنَّهَا لِلشَّكِّ، أي يشك النَّاظِرُ فِي حَالِ الْمُنَافِقِينَ، فَلَا يَدْرِي أَيُشَبِّهُهُمْ بِالْمُسْتَوْقِدِ، أَوْ بِأَصْحَابِ الصَّيِّبِ، وهذا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٤٧]، أَيْ يَشُكُّ الرَّائِي لَهُمْ فِي مِقْدَارِ عَدَدِهِمْ.

ستقول: هناك من لم يفهم معنى أن تكون ﴿أو﴾ للشكِّ، فظنَّ أن النسبة إلى الله تعالى، ويَبرزُ الطبري رحمه الله فله إطار متكرر ينتصر فيه لنظم القرآن ويتذوق فيه كلام الله، فيشعرك

---

(١) التبيان في إعراب القرآن (١/ ٣٤)، وانظر: معاني الحروف الثنائية والثلاثية (ص: ٧٩).

بعظمته ومجده، فأظهر عارضته القوية في حوار من ظن أن (أو) للشكِّ من المتكلم، ومن إنصافه أنه يَحكي وجهة نظر المعترض كاملة، فيبين وجهة نظر المعترض:

كان يمكن للتعبير القرآني أن يكون: "وكصيب" بالواو التي تُلحِق المثَلَ الثاني بالمثَل الأول، فما وجه ذكر الآخر بِـ "أو"؟ و"أو" يقولها المتكلِّم على وجه الشَّكِّ، كقول القائل: "لقيني أخوك أو أبوك" وإنما لقيه أحدُهما، ولكنه جهل عَيْنَ الذي لقيه منهما، مع علمه أن أحدهما قد لقيه، وغير جائز في الله جل ثناؤه أن يُضاف إليه الشك في شيء، أو عُزُوب عِلم شيء عنه، فيما أخبَرَ أو تَرَك الخبر عنه.

فكيف نجيب عن ذلك؟

أجاب الطبري رحمه الله إجابة قوية، ودعني أضمِّن جوابه ضمن ما بدا لي:

"أو" تأتي في بعض الكلام للشكِّ من المتكلم مثل قول أصحاب الكهف: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ [الكهف: ١٩] فالمتكلمون شكوا: هل لبثوا يومًا أو لبثوا بعض يوم[(١)]، ومجيئها للشكِّ يكون مني أو منك أو من المخلوقين، لا من الله تعالى مجده.

ولكن الشكَّ ليس كلَّ معانيها، فإنها قد تأتي لمعانٍ متعدِّدة، ذكر ابن هشام رحمه الله في "المغني" أنه انْتَهَت إِلَى اثْنَي عشر معنى[(٢)]، ومن معانيها أنها تدلُّ على ما دلت عليه الواو من الاجتماع في شيء، وزيادة، فتدلُّ على الجمع بين أمرين اجتمعا في الأصل ولكنهما اختلفا في أن كلًّا منهما له معنى آخر أو يتكلم عن نوعٍ مختلف عن الآخر مع اشتراكهما في أصل واحدٍ، كقول مُتَمِّم بْنِ نُوَيْرَة:

فَلَوْ كَانَ الْبُكَاءُ يَرُدُّ شَيْئًا ... بَكَيْتُ عَلَى بُجَيْرٍ أَوْ عِفَاقِ

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٣٦).

(٢) ينظر: مغني اللبيب (ص: ٨٧-٩٥).

عَلَى الْمَرْأَيْنِ إِذْ مَضَيَا جَمِيعًا لِشَأْنِهِمَا، بِحُزْنٍ وَاشْتِيَاقِ[١]

أي هو يبكي عليهما جميعًا، ولكن كلًّا منهما غير الآخر.

وسألني بعض الفضلاء: فإن كان الأمر كذلك فلمَ لم يأت بالواو.. لم اختار (أو) وهي بمعناها؟

فأجبته: لأنه أراد التنويع، ولا يظهر ذلك بيسر في الواو؛ فالواو تدل على ضرورة اجتماع الأمرين، بينما أو تعطيك التخيير، وتخبرك أنك واجد المنافقين على غير ما هيئة وحال، فليسوا على شاكلة واحدة، ولا سالكي خِطة بعينها فذكر لك الصورتين النارية والمائية، وفرق بينهما بـ(أو)، وجعلك تقرر نسبة هذا المنافق في أفكاره وأقواله وأعماله إلى المثل الناري، أو إلى المثل المائي.

هنا ربما تسألني –أيدك الله– فتقول: لم يذهب الزمخشري والرازي إلى هذا التفصيل في أنواع المنافقين، فكيف ارتضيت أنت أن تميل إلى هذا التفصيل؟

أجيبك: ينبغي أن نتدبر القرآن لنشعر بالمجد الذي يكتنزه كلام الرحمن، فقد اختلفت أنظار المفسرين هنا، وتراني أخذت بأجمل ما عندهم، فنصرت رأي الطبري ﵀، ثم حسَّنت فيه بما فهمته من ابن كثير ورشيد رضا ﵏[٢]، ولم أمل لما ذهب إليه الزمخشري وتبعه الرازي ﵏، فقد جعلا المثلين للمنافقين عمومًا، ثم جعلا التمثيل الثاني أبلغ[٣]، وتابعهم على ذلك الطاهر بن عاشور ﵀ وجعل هذا من التَّفنُّن الجميل في الكلام البليغ واستدلَّ له

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٣٦)، والبيتان في ديوانه. ينظر: مالك ومتمم ابنا نويرة، تأليف: ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م، (ص: ١٢٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩)، تفسير المنار (١/ ١٤٦).

(٣) الكشاف (١/ ٧٨)، تفسير الرازي (٢/ ٣١٥).

بالقرآن، وباستقراء بليغ كلام العرب[1]، ولا أرى أبدًا ما ذهب إليه هؤلاء الثلاثة مع أنهم أساتيذ علماء البيان من المفسرين وجهابذته، فمجرد القول بأن المثلين للتَّفنُّن يؤدِّي إلى أمرين أراهما محذورين:

الأول: لا يجعل للمثل الثاني معنى قويًّا مستقلاً، وبذلك لا تكون للكلمات القرآنية في مواضعها معانٍ خاصَّةٌ قويةٌ.

الثاني: يؤدي إلى القول بالتأكيد، والأصل عدمه.

كان ذلك ما منحتنا إياه كلمة ﴿أو﴾ من العطاء والفيض النوراني، فتعال بنا إلى المشهد الثاني:

المشهد الثاني: الاضطراب الدائب، والتردد الشهواني:

ويبصرنا بذلك قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فهذا النوع من المنافقين متردد بين الإيمان والكفران، وبين الإخبات والطغيان، فتراه أحيانًا مبصرًا يطلق التصريحات الصادقة الرائعة، ويقوم بالأفعال الصالحة الطيبة، ثم ما يلبث أن ينتكس، فكأنه ليس ذلك الذي سار في هدىً سائق، ولا الذي صدر عنه نورٌ فائق:

﴿أَوْ﴾: عَطَفَتْ لَفْظَ صَيِّبٍ عَلى ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ بِتَقْدِيرِ (مَثَلِ) بَيْنَ الكافِ وكلمة (صَيِّبٍ)، وتقدير الكلام: مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا، أو كمثل صيِّب، فلماذا أعاد كاف التشبيه مع أنه يغني عنها حرف العطف ﴿أو﴾ بأن يقول: أو صيبٍ من السماء؟

والجواب: يقرِّر الطاهر ﷺ أن الله تعالى أعاد حرف التشبيه إشارَةً إلى اخْتِلافِ الحالَيْنِ المُشَبَّهَيْنِ، وهم في الغالِبِ لا يُكَرِّرُونَهُ في العَطْفِ، فأراد أن يخبرك أن من سيصفهم في مثل الصَّيِّب غير من وصفهم في المثل الناري.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣١٤، ٣١٥).

فانظر جمال التمثيل: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾ [البقرة: ١٩]، فَقَوْلُهُ ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ تَقْدِيرُهُ: أوْ المنافقون مثلهم كَفَرِيقٍ ذِي صَيِّبٍ(١).

ولكنك ربما سألت: ما معنى كلمة ﴿صيب﴾ ؟ وكيف ظهرت قوتها في هذا الموضع؟

الجواب: الصَّيِّب(٢) هو المطر على وزن الفَيْعِل، ومثل الصَّيِّب: الصَّوْبُ، وَهُوَ نُزُولُ الْمَطَرِ، قال الشاعر(٣):

فسقى ديارك غير مفسدها ... صَوْبُ الرّبيعِ ودِيمَةٌ تهمي

ستقول: لماذا لم يقل الله ﷻ: أو كمطر، وكلمة مطر أوضح من كلمة: صيب؟

أجيبك: بأن اختار الله ﷻ هذه الكلمة على كلمة ﴿مطر﴾ مع أنها معروفة؛ لأن كلمة (صَيِّب) تؤدي غرضًا أقوى وأعمق، من قولك: صَاب المطر يَصوب صَوبًا، إذا انحدَر وَنزَل بشِدَّة نحو جهة محدَّدة، كأنه مصوَّبٌ على الناس يصيب ما وُجِّه له، كالسهم إذا أصاب هدفه، كما قال علقمة بن عَبَدَة الفحل:

فَلا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبينَ مُغَمَّرٍ ... سُقِيتِ رَوَايَا الْمُزْنِ حين تَصُوبُ

كَأَنَّهمُ صَابَتْ عَلَيْهِم سَحَابَةٌ ... صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ(٤)

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣١٦).

(٢) وهو في الأصل "صَيْوِب"، ولكن الواو لما سَبقتها ياء ساكنة، صيرتا جميعًا ياءً مشددةً، كما قيل: سيِّد، من ساد يسود، وجيِّد، من جاد يجود، وكذلك تفعل العربَ بالواو إذا كانت متحركة وقبلها ياء ساكنة، تصيِّرهما جميعًا ياءً مشددةً، ويطلق الصَّيِّبُ أيضًا على السَّحَاب الصَّوْبِ أي المطر.

(٣) البيت لطرفة بن العبد بلفظ(بلادك) بدلًا من (ديارك). ينظر: ديوان طرفة بن العبد، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (ص: ٧٩).

(٤) قال شاكر رحمه الله: المغمر والغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور، كأن الجهل غمره وطغا عليه. والشطر الثاني دعاء لها بالخصب والنعمة. والروايا جمع راوية: وهي الدابة التي تحمل مزاد الماء. والمزن: السحاب الأبيض، شبهه بالروايا حاملات الماء، ومن شواهد هذا المعنى قول عبدة أيضًا:

والمُزن: السحاب، ويعني: السحاب حين يصوب المطر منها نحو وجهته في الأرض، وأصل الكلمة قدم من (صَوَبَ)، وتنبئك هذه الكلمة بوصول شَيْءٍ إلى مكانه المناسب الصحيح وَاسْتِقْرَارِهِ قَرَارَهُ، ومِنْ ذَلِكَ أنك تقول: أنا على صوَاب فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارَهُ[١].

فالصيب ينزل إلى مواضعه التي أمر الله بها بقدر ما ينفع، وإلى هذا القدر من المطر أشار بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فكلُّ موضع نزل فيها فذاك صواب، ولذا ترى الصيب يوجِّهه الله تعالى لقوم دون قوم، فقد تكونَ أنت فوق سطح بيت واحد، وترى المطر ينسكب في ناحية دون أخرى من البيت نفسه، وتكون في السيارة فتخرج يدك عن اليمين لتمس المطر، ويخرج صاحبك يده عن اليسار فلا يجد شيئًا، فالمطر يصوب نحو وجهة وجَّهه الله تعالى إليها.

فكلمة ﴿صيب﴾ أقوى من كلمة (غيث أو مطر) هنا؛ لأن المراد أن ترى صورة مطر خاص نزل على قوم مخصوصين، كأنه صوب نحوهم.

وربما سألت: لماذا جاءت كلمة ﴿صيب﴾ نكرةً؟

أجيبك: السياق يدل على أنه أريد نوع من المطر الشديد الهائل المصوَّب نزولًا، كما نكرت النار في التمثيل الأول[٢].

فَلَسْتُ لإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لَمَلأَكٍ   تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

والبيتان لعلقمة بن عبدة في ديوانه، لكن البيت الأول بعد البيت الثاني في الترتيب، فالبيت الأول رقمه (٣٤)، والبيت الثاني رقمه(٤)، (ص:٢١، ٢٩).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣١٧).

(٢) الكشاف (١/ ٨٢).

المشهد الثالث: صيب كثيف من نواحٍ متعدِّدة، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ربما لفت نظرك أن الله ﷻ قيَّد هذا الصيِّب بأنه (من السماء)، فكما عرفنا كلمة (صيِّب) ينبغي أن نعرف معنى كلمة السماء:

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: كلُّ ما علاك فأظلَّك، من السموِّ، وهو الارتفاع والعلو، فتطلق السماء على السقف كما قال جل مجده: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]، وتطلق السماء على الْجَوِّ الْمُرْتَفِعِ فَوْقَنَا الَّذِي نَخَالُهُ قُبَّةً زَرْقَاءَ، وَعَلَى الْهَوَاءِ الْمُرْتَفِعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وَتُطْلَقُ السماء عَلَى السَّحَابِ، وعلى المطر[1]، يقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، وقال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غِضَابا[2]

يعني المطر.

فعلمنا من كلمة السماء أنها تطلق على ما علا، والسحاب يكون مرتفعًا عن الأرض، فصحَّ أن نطلق عليه كلمة السماء.. ولعلك تسأل: لماذا نفسِّر شيئًا واضحًا؟

الجواب: لأن بعض الناس قد يتوهَّم أن الآية تثبت أن المطر نزل من السماء، فيذهب فكره إلى السماء الدنيا التي تبعد عنا خمسمائة عام، ويقول: هذا خطأ؛ لأن المطر إنما ينزل من السحاب، فبيَّنا له أن كلمة السماء تعني ما ارتفع، ومن ذلك السحاب.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣١٨).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٣٨٢)، والقائل هو: معاوية بن مالك. ينظر: الحماسة البصرية (١/ ٧٩).

وهذا يدفعنا إلى: سؤال يطرح نفسه: لماذا أتى بقوله: ﴿من السماء﴾ مع أن (الصيِّب) لا يكون إلا من السماء؟

الجواب: هنا ائذن لي أن أتبع ما رجَّحه بعض محققي التفسير من الجمع بين المعاني القرآنية ما دام لذلك سبيلٌ سائغ، فهذا القيد ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يمكن أن يكون قيدًا إيضاحيًا كاشفًا(١) ويمكن أن يكون قيدًا تأسيسيًا مميِّزًا، وخلاصة المعنى: أن **قَوْلُهُ**: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **قيدٌ يميِّز الصيِّب**، فلا يمكن الاستغناء عن هذا القيد، ويفيدك الزمخشري رحمه الله فائدة عظيمة بهذا القيد(٢)، إذ يرى أن كلمة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تصوِّر لنا أن الصيب ليس قليلاً محدودًا، بل هو صيِّب مخصوص كثيرٌ كثيفٌ قد جاء مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْجَوِّ المحيط مع علوه إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّعْرِيفَ فِي السَّمَاءِ يستغرق جميع جوانب السماء التي يعيش تحتها هذا الفريق الذي يماثل المنافقين في تفكيره وحركته.

---

(١) بما أنه لا يوجد مرجح، فسأعتبره يمثل كِلا الأمرين، ولكنني ذكرت أعلاه المعنى إذا كان هذا القيد تأسيسيًا، وأما إذا كان إيضاحيًا كاشِفًا فيكون المعنى أو كمطر مصوب نحو جهة محددة من الأرض، ونزل هذا الصيب من السماء كما تعلمون وكما ترون، وليس من مكان آخر مثل: الحجارة البركانية التي تقذف عاليًا ولكنها تنشأ من الأرض.

هذا يعني أنه يمكن الاستغناء عنه لكنه جِيءَ بِهِ لِزِيَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورَةِ الصَّيِّبِ فِي هَذَا التَّمْثِيلِ؛ إِذِ الْمَقَامُ مَقَامُ إِطْنَابٍ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

إِذْ قَدْ عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ السَّيْلَ لَا يَحُطُّ جُلْمُودَ صَخْرٍ إِلَّا مِنْ أَعْلَى وَلَكِنَّهُ أَرَادَ التَّصْوِيرَ، ويشبهه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٨]، والطائر فيما يعلمه البشر لا يطير إلا بجناحيه، وَقَوْله: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الْأَنْعَام: ٧١]، فكلمة ﴿في الأرض﴾ قيد لبيان الواقع، فالشياطين التي تغوي ليست إلا في الأرض، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٢] والمطر لا يكون إلا من السماء، وكذلك هنا قيد الصيب بأنه من السماء مع أنه لا يكون إلا منها لزيادة الكشف لواقع الصيب، واستحضار الصورة المهيبة له وهو يتنزل مصبوبًا، أو مصوبًا على الأرض مع اقتران الظلمة بنزوله. ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٣١٧).

(٢) الكشاف (١/ ٨٢).

ويحق لك أن تتدبر وتسأل: وكيف ظهرت لنا هذه الصورة؟ من أين جاء الدليل على أن كلمة ﴿من السماء﴾ تنبئنا بأن هذا الصيب جاء من جميع أقطار الجو؟

أجيبك: بأن كلمة ﴿السماء﴾ معرفة، فنفى أن يتصوَّب من سماء، أي من أُفُقٍ واحد من بين سائر الآفاق، لأنَّ كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله: ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾[1]، ولذا قال الشاعر:

فأَوْهِ لـذكـراهـا إذا مـا ذكـرتـهـا ... ومِـنْ بُـعْـدِ أَرْضٍ بَـيْـنَـنـا وسَـمَـاءِ

ويظهر لي أن استنباط الزمخشري ﵀[2] في مكانه عند النظر إلى السياق العام؛ فإن السياق العامَّ لهذا التمثيل يوحي بكثرة الصيِّب وغزارته حتى صحبته الظلمات والرعد والبرق.

فكثرة الماء النازل أورثت ظلمات في الجو، كما ترى في المطر الكثيف الذي يجعل النهار ليلاً.

المشهد الرابع: الجمال والوبال:

يبصرنا قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بأن الهدى القرآني مثل الصيب وهو الماء المصوب على الأرض ليغيث الأبدان والنفوس، وتصحبه ظلماتٌ كثيفة لغزارته وكثافته وتعدد جهات نزوله، وبدلاً من رؤية الجمال الكلي يرى المرضى الظلمات وبالاً عليهم:

تدارسنا المشاهد التي رأيناها في الكلمات الآتية: ﴿أو﴾، ﴿كصيب﴾، ﴿من السماء﴾، ويفترض أن مشهد الصيِّب يُفرِح ولا يُفزِع، فهو يحيي النفوس، كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ

---

(١) ورأى الطاهر ﵀ أن هذا الاستنباط فيه بعد؛ إذْ لَمْ يُعْهَد دُخُولُ لامِ الِاسْتِغْراقِ إلّا عَلى اسْمٍ كُلِّيٍّ ذِي أفْرادٍ دُونَ اسْمِ كُلٍّ ذِي أجْزاءٍ فَيَحْتاجُ لِتَنْزِيلِ الأجْزاءِ مَنزِلَةَ أفْرادِ الجِنْسِ - ولا يُعْرَفُ لَهُ نَظِيرٌ في الِاسْتِعْمالِ -فالَّذِي يَظْهَرُ لِي- إنْ جَعَلْنا قَوْلَهُ ﴿مِنَ السَّماءِ﴾ قَيْدًا لِلصَّيِّبِ - أنَّ المُرادَ مِنَ السَّماءِ أعْلى الِارْتِفاعِ، والمطر إذا كانَ مِن سَمْتٍ مُقابِلٍ وكانَ عالِيًا كانَ أدْوَمَ، بِخِلافِ الَّذِي يَكُونُ مِن جَوانِبِ الجَوِّ وَيَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الأرْضِ غَيْرَ مُرْتَفِعٍ. التحرير والتنوير (١/ ٣١٨).

(٢) الكشاف (١/ ٨٢).

ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].. ولكننا نشاهد في تصوير الآية شيئًا آخر:

فَالصيب هو المطر المصوَّب على الناس، وفي هذا الصيِّب لغزارته وكثافته واستمراره أربع ظواهر طبيعية مقارِنة:

الأولى: ظلمات: جمع ظُلمة.

الثانية: رعد: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، فيقال: رَعَدَت السَّمَاءُ رَعْدًا، ورُعُودًا، وأصلها من الحركة والاضطراب، وَمِنْهُ الرِّعْدِيدَةُ وَالرِّعْدِيدُ: الْجَبَانُ، وَيقال: أُرْعِدَتْ فَرَائِصُ الرَّجُلِ عِنْدَ الْفَزَعِ، لاضطرابه(١)، فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي ﴿يُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣]، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ(٢).

الثالثة: برق: يُقَالُ: بَرَقَ السَّحَابُ (كنصر) بَرْقًا وَبَرِيقًا إذا لمع، (وكفرِح): تحيَّر حتى لا يَطْرِفَ أيُّ شخصٍ بصرَه، أو دَهِشَ فلم يُبصر، وقَالَ الْخَلِيلُ: الْبَرْقُ وَمِيضُ السَّحَابِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَلَأْلَأُ لَوْنُهُ فَهُوَ بَارِقٌ يَبْرُقُ بَرِيقًا، وَيُقَالُ لِلسُّيُوفِ بَوَارِقُ لأنها تلمع لمعانًا سريعًا، فالبرق هو الضوء الخاطف السريع الذي يُرى في السماء(٣).

والرابعة: صواعق، وسنفصل القول فيها في المشهد الآتي -إن شاء الله-.

فإن قلت: لماذا جمع كلمة (ظلمات) بينما أفرد بعدها الرعد والبرق؟

والجواب: لينقلك مباشرة إلى ظلمات متعدِّدة نتجت من ثلاثة أسباب:

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤١١).

(٢) الموطأ برواية أبي مصعب الزهري (٢٠٩٤)، الأدب المفرد (٧٢٣). قال النووي (خلاصة الأحكام ٢/ ٨٨٨) والحافظ (نتائج الأفكار ٥/ ١٤١): إسناده صحيح. وصححه الألباني. تخريج الكلم الطيب (١٥٧).

(٣) مقاييس اللغة (١/ ٢٢١).

أولها: غزارة الصيِّب واستمراره حتى يسبب تلك الظلمات.

وثانيها: كثافة السُّحُب التي ينزل منها، وغالبًا تكون من النوع الرُّكامي لتزداد الظلمات التي تسببها، وهذه تسبب قتامة ضخمة في الجو.

وَثالثها: ظَلَام اللَّيْلِ.

وجاءت هذه الظواهر ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ مُنكَّرات، لأن المراد أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف.

وهنا ستسأل: لماذا لم يجمع الرعد والبرق كما جمع الظلمات أخذًا بالأبلغ كقول البحتري يخاطب السحاب:

يَا عَارِضًا مُتَلَفِّعًا بِبُرُودِهِ ... يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ ورُعُودِهِ[١]

الجواب واضح، ولم أر الزمخشري ﷺ[٢] أبان عن عارضته في الجواب هنا، فاسمع تأملي لهذه الصورة العظيمة، فكلام الله تعالى أبلغ وأقوى؛ فإن الظلمات دلَّت على كثافة الصيِّب وغزارته، وكلمة ﴿من السماء﴾ دلَّت على عمومه وتعدُّد جِهاته، ولكنك لا ترى أفراد الرعد والبرق بتلك الكثرة فهما في ناحيةٍ منه، وناب محلهما في الإفزاع والكثرة ما هو أقوى منهما: الصواعق، ولذا جمعها، وكذلك عندما تنظر إلى القرآن المجيد ترى غيثه عامرًا، وترى تهديده أو زواجره أو ما لا يرغب المنافقون في سماعه يمثِّل الرعد، ولكن التهديد والوعيد في القرآن لا يكون عامًّا كما أن الرعد والبرق في الآية جاءا مفردين، فكأنهما محدودان، فإن المنافقين يرون ضوءًا في القرآن يستضيئون به كالبرق الذي يكون في جهة وليس عامًّا، ولأن كثرة البروق قد تسبِّب ضوءًا مستمرًا، فتتضح الطريق لهم، والْحَظْ المسألة: فكثرة البروق

(١) ديوان البحتري (ص: ٦٩٣).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٨٣).

والرعود مؤدية إلى خوفٍ ما، لكن إبراق البرق، وإرعاد الرعد مع كثافة الظلمات يعني صيبًّا كثيفًا عظيمًا وإلا لَمَا وجدت الظلمات.

وهكذا القرآن فَصَيِّبُه كصيِّب يحيي الأرض، وما يبصره المنافقون مما يرتاحون له كالبرق يظل محدودًا، وما يرونه يهددهم بصورة مباشرة فيخيفهم كالرعد يظل في زاوية قليلاً ليس كثيرًا.

فتذكر أن المشبَّه هو حال المنافقين ووصلتهم بالوحي، ووقعه عليهم وفيهم، والمشبَّه به هو الصيب الذي يحيي الأرض والنفوس، وتصحبه ظلمات كثيرة، ورعد وبرق محدودان في ناحية، فالمنظر العام يدل على الأنس الذي يجده الإنسان في مثل تلك الصورة، ولكننا سنرى للمنافقين تصرفًا آخر.

وستقول: كيف يكون المطر مكانًا للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب؟

يجيبك الزمخشري رحمه الله[1]: إذا كان الرعد والبرق في أعلى الصيب، وهو مَصَبُّه الذي هو السحاب، فقد التبسا بالصيب، فصحَّ أن نقول: الصيب فيه ظلمات ورعد وبرق لكثرة ما صحبه من الظلمات ولأن البرق والرعد جاءا معه مع أنك ترى أنه يمكن أن تسمع رعدًا وترى برقًا دون صيب.

ألا تراك تقول: فلان في البلد، وما هو منه إلا في حيز يشغله جسده.

تأمَّل في هذا التمثيل كيف ينقل هذه الصورة المثيرة نقلاً حيًّا مباشرًا.

بذا تصحب هذا الصيب المنهمر المستمر ظلماتٌ، وأيضًا يصحبه رعدٌ بما فيه من الصوت المخيف، وبرقٌ بما فيه من الأضواء المنيرة للطريق، وكذلك تصحبه صواعق مرعبة، ويتكامل المشهد مع ما بعده.

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٨٣).

المشهد الخامس: صيِّبٌ مهدِّد!!:

المنافقون يرون في الصيب القرآني تهديدًا كما يرى السائرون في ظلمات الصيب المائي تهديدًا يظهر في الصواعق النازلة، فيحاول المنافقون التحصُّن بما يقدرون عليه من الاحتياطات الأمنية والعسكرية والمخابراتية والإعلامية، وبعلاقاتهم المحلية والخارجية، وبالنشطاء المتعاونين على الإجرام، وقد اعتنقوا عقيدة استحوذت عليهم ملخصها أن أهمَّ التهديدات التي يخافون منها إنما جاءت من القرآن، ويبصرنا الله ﷻ بكلِّ هذا في قوله: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: ١٩]:

تبصرنا هذه الصورة التمثيلية بأنهم شعروا بالرعب من الخير النازل من السماء، واتخذوه بمثابة التهديد لهم، فجعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق بدلاً من أن يستفيدوا من الصيب ما يحيي النفوس والأبدان، وهنا ذكر الله ﷻ الظاهرة الطبيعية الرابعة المصاحبة للصيب، وهي الصواعق، فقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلِّق بـ(يجعلون)، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاه من العَيْمة -بِفَتْحِ العَيْنِ وسُكُونِ الياءِ- أي من أجل شِدَّة شهوته إلى اللبن(١).

ولكنك ربما تساءلت: ما معنى ﴿الصواعق﴾؟

الجواب: الصاعقة: هي الصَّوت الشَّديد من الجوِّ الذي ينزل على هيئة قصفة رعد تنقض معها قطعة من نار سريعة قوية، وتنقدح بصورة شررٍ كهربائي هائل شديد القوة لا تمرُّ بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حِدَّتها سريعة الخمود.

وتحدث الصاعقة بسبب التفريغ الكهربائي في الجو، والناتج عن اكتساب السحاب لشحنة كهربائية زائدة واختلاف بين الشحنات الكهربائية السالبة والموجبة، وشكل الصاعقة شبيه

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٨٥).

بالشرارة الضخمة، ثم يترتَّب عليها عذاب، أو موت، أو نار فقط، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء آثارها، وقال الراغب رحمه الله: "الصَّاعِقَةُ والصّاقعة يتقاربان، وهما الهدَّة الكبيرة، إلّا أن الصَّقعَ يقال في الأجسام الأرضيّة، والصَّعْقَ في الأجسام العُلويَّةِ"(١)، فيقال: صَعِقَتْهُ الصاعقة إذا أهلكته فصَعِقَ: أي مات إما بشِدَّة الصوت أو بالاحتراق، والصُّعَاق: الصَّوْتُ الشَّدِيدُ، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، ويقال: صعق إذا غُشِي عليه، كما في قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وتطلق على العذاب؛ لأنه يترتَّب على الصَّعق كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وأنشد لابن أحمر:

ألم تر أن المجرمين أصابهم ... صواقعُ لا بل هُنَّ فوق الصُّواعق(٢)

وتصوَّرْ شدة خوفهم ورعبهم حيث قال الله ﷻ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾.. تصوَّرِ المشهد، فهم لا يجعلون رؤوس أصابعهم في آذانهم؛ فالله ﷻ لم يقل (أناملهم) بل ذكر الأصابع، فلماذا؟

والجواب: ليبين لك شِدَّة الصاعقة واستمرار صوتها المرعب مدة زائدة على المعتاد حتى كادوا أن يدخلوا أصابعهم بالكلية في آذانهم رعبًا وخوفًا، ويرى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله أنه عبر عَنِ الْأَنَامِلِ بِالْأَصَابِعِ؛ لِلْإِشْعَارِ بِشِدَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِسَدِّ آذَانِهِمْ، وَمُبَالَغَتِهِمْ فِي إِدْخَالِ أَنَامِلِهِمْ فِي صَمَالِيخِهَا، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحَاوِلُ بِمَا دَهَمَهُ مِنَ الْخَوْفِ أَنْ يَغْرِسَ إِصْبَعَهُ كُلَّهَا فِي أُذُنِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِلصَّوْتِ مَنْفَذٌ إِلَى سَمْعِهِ، لِمَا يَحْذَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْمَوْتِ الزُّؤَامِ،

(١) المفردات للراغب (ص: ٢٨١).

(٢) البيت منسوب له في لسان العرب (٨/ ٢٠١)، وليس في ديوانه.

وَمُعَاجَلَةِ الْحِمَامِ، وَهَذَا هُوَ الْجُبْنُ الْخَالِعُ، وَمُنْتَهَى حُدُودِ الْحَمَاقَةِ؛ لِأَنَّ سَدَّ الْآذَانِ لَيْسَ مِنْ أَسْبَابِ الْوِقَايَةِ مِنْ أَخْذِ الصَّاعِقَةِ وَنُزُولِ الْمَوْتِ(١).

فانظر لهذه الصورة المعبِّرة: يجعلون أصابعهم، وليس أناملهم.. وهل يغني عنهم أن يغرسوا أصابعهم في آذانهم لو جاءت الصاعقة؟

ذلك يبصِّرك بأن جميع احتياطهم الأمنية والثقافية والإعلامية، وعلاقاتهم الداخلية والخارجية لن تغني شيئًا عندما يأتي أمر الله ﷻ، كما أتى لفرعون من قبل.

والعادة أن تكون السَّبَّابة هي التي توضع في الأذن لكنه ذكر الأصبع ولم يذكر اسم السَّبَّابة؛ ربَّما لأنها –كما يرى الزمخشري رحمه الله(٢)– فَعَّالة من السَّبِّ، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمُسَبِّحة، والسَّبَّاحة، والمُهَلْلِة، والدَّعاءة، **فإن قلت: فهلا ذكر بعض هذه الكنايات؟**

الجواب: لم يذكرها؛ لأنها ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد، وإنما أحدثوها بعد.

نعود مجدَّدًا إلى تصوُّر المثل المائي: كيف صور لنا مثل الصيِّب واقع المنافقين المراوغين والمترددين؟

أجيبك: بأن هذا التصوير مدهش يصوِّر لك كيف ينظرون إلى آيات الكتاب الذي لا ريب فيه:

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٨).

(٢) الكشاف (١/ ٨٤).

شبَّه الله ﷻ نفوس هذا الصنف المتردد من المنافقين حين يتجاذبها أنوار الإيمان ونوازع الضلالة والطغيان بحال قومٍ صاب عليهم صيِّبٌ غزير من أرجاء مختلفة من السماء، وقد تكاثف الصيِّب فترى فيه ظلماتٍ كثيفة، وبُروقًا منيرة، ورُعودًا مخيفة، وصواعقَ كثيرة.

وبدلاً من أن يستقبله هؤلاء القوم، ليستفيدوا منه بأن يستعملوه في إحياء الموات من الأراضي والنفوس، استقبلوه استقبال الخائفين المرعوبين من ظلماته ورعده وبرقه، فسبب ذلك أمرًا مختلفًا لهم.

وبدلاً من أن يشعروا بأن الآيات صيب نزل عليهم من السماء يحيي حياتهم أحسوا بأنها عبارة عن ظلمات محيطة مخيفة؛ لأنهم لا يقبلونها، وإذا سمعوها تتلى عليهم لتصلح أحوالهم الإنسانية كأنهم رأوا برقًا يخافون أن يخطف أبصارهم، أو سمعوا رعدًا سيدمرهم، أو صاعقة تجلب لهم الموت.

إنهم يخافون من تلاوة صبيٍ في مدرسةٍ قرآنية، ترعبهم صلاة مصلٍ في مسجد، يؤذيهم وجود ذاكرٍ لله ﷻ، أو هيئة إغاثة تنبع من أخلاق القرآن، أو دعوة للعدل والإحسان، أو منارة تدعو لحماية البشرية من الشهوات المحرَّمة، أو صاحب قلم يذود عن الأمة وهُويتها، فكأن كل دعوة للخير يسمعونها صاعقة مرعبة سقطت عليهم.

والصاعقة يجتمع فيها الصوت والضوء على صورةٍ مخيفةٍ مقلقة مزلزلة، فَهُمْ من شِدَّة خوفهم ورعبهم من القرآن يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق.

فهم يعدُّون الصيب بلاء نزل عليهم، فعطل عليهم مسيرة التقدُّم إلى أهدافهم المشبوهة.

ولعلك تسأل: إلى ماذا يشير الرعد في هذا المثل المائي؟

الجواب: يكون الرعد إشارة إلى الأمور التي لا يحبون سماعها في القرآن أو في واقع الحياة؛ لأنهم يظنون أنهم مستهدفون من كلِّ آيةٍ في القرآن الكريم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ

عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٤]، وكما قَالَ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٥٦، ٥٧].

ألا ترى أن أهم ما ندبوا أنفسهم له محاربة القرآن وأهله؟ ألا تراهم يتميزون من الغيظ إن بُنِيَ مسجد جديد؟ ألا تراهم يسلطون فُجَّارهم على مراكز نشر القرآن ودوره هدمًا وتدميرًا وكتمًا للأنفاس، ومحاصرةً في الإعلام، ووصل بهم الأمر إلى التبجُّح في أنهم يُحذِّرون منها قبل أن تفكر شياطينهم في ذلك؟

لقد بلغ الحال بهؤلاء أن يصدق فيهم قول شَقِيِّهم:

وكنتُ فتىً منْ جُندِ إبليسَ فارتقى ... بي الحالُ حتى صارَ إبليسُ منْ جُنْدي

وبدلاً من فرحهم بالصيب الكثير لا يفكِّرون إلا في مسألة واحدةٍ تتعلَّق بهم: أنه مُهَدِّد لحياتهم، ولذا تراهم: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: ١٩].

فالصيِّب الذي يغيث الأرض هو الهدى القرآني، ونصيب المنافقين من هذا الهدى أن يجدوا الظلمات والرعد والبرق المخيف لا أن يشعروا معه بحياة البلاد والعباد والشجر والدواب، مع أن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق لم تقصد لذاتها بل لغيرها، فهي وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيِّب.

فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك من برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العامِّ.

وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، فالمنافق لا يرى في سفر الحج إلى البيت الحرام مثلاً إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات كما يقول ابن القيم رحمه الله[1].

ستسأل هنا: لماذا قدَّم الرعد على البرق على الرغم من أننا نرى البرق أولاً؟

وأجيبك بأن من المعلوم أن الضوء أسرع بكثير من الصوت، والترتيب أن البرق يظهر أولاً ثم يعقبه الرعد، ولكن القرآن لا يجعلك تستسلم للصورة المعتادة؛ لأنه يريد أن يوقظ بصرك وبصيرتك للسبب الذي ذكر لأجله هذه الصورة. إنه تشبيه المنافقين.. فصورة الصيِّب وما يصحبه ليست مقصودة لذاتها، فهو لا يصف لك الظواهر الطبيعية وإنما يشبه حال المنافقين مع القرآن بما تراه في الطبيعة، فتعال لتنظر العلاقة، وسبب تقديم الرعد:

ظهر في الصورة العامة في هذه الآية وما بعدها أن المنافقين يخافون من الرعد والصواعق، ويُفيدون من ضوء البرق ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾ فهذا وصف عام، ثم عاد فقال: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ فأشعر بخوفهم من الصواعق، ثم وصف إفادتهم من البرق، فقال: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ فهنا أفادوا من البرق بينما الصواعق التي يصحبها الصوت المزلزل يخافون منها، والله تعالى مجده يبين لنا أن هذا الصنف من المنافقين يخافون من القرآن بصفة عامة خوفهم من الرعد والصواعق، ولذا قدَّم الرعد، وأخَّر الصواعق، فهي الرابعة في الوصف، وذكر البرق مؤخَّرًا في الترتيب بعد الرعد، ثم ذكر فائدته لهم كما يفيدون من القرآن نادرًا.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٢٤).

ولاحظ ملحوظة دقيقة في الآية: فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، ولكن الصواعق لم تقض عليهم، ولم يذكر الله ﷻ ذلك عنهم، لأن آجالهم لها وقت محدد، فلا يستفزنك استهزاؤهم بالقرآن.

المشهد السادس: إحاطة غير قابلة للاختراق:

الاحتياطات الأمنية والمخابراتية والعسكرية التي يتحصن بها المنافقون لا يمكن أن تحميهم من الإحاطة الإلهية، ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وهنا قد تسأل: لماذا جاءت هذه التكملة للآية؟

الجواب: جاءت هذه التكملة تحذيرًا للمنافقين وهم الصنف الأسوأ من الكافرين، وتهديدًا لجميع الكافرين، وتطمينًا للمؤمنين بأن المنافقين مهما حاولوا إطفاء نور الكتاب الذي لا ريب فيه، ومهما شوهوا الصيب النازل ليحيي الأرض، ومهما خافوا من القرآن، ورأوه مثل الصواعق لكنهم لم يصعقوا، فإن ذلك لا يعني أن الله ﷻ غافل عن إجرامهم ولعبهم بل هو محيط بهم وبسائر الكافرين.

ولربما تسأل: لماذا كانت بهذه الصياغة؟ لماذا لم يقل الله: والله محيط بهم؟

وأجيبك بأن ترتيب الظاهر في الكلام أن يقول: والله محيط بهم، لكن الله تعالى وضع المظهر موضع المضمر؛ إشعارًا لهؤلاء المنافقين، ولمن يسمع من العالمين بأن الله تعالى محيط بهم لكفرهم، وأن الله تعالى محيط بالكافرين من أمثالهم(١).

ولاحظ هذا التذييل البديع: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يقل بالمنافقين أو المخادعين، بل سمَّاهم (الكافرين)؛ حتى يردهم إلى أصلهم، ويسمهم بوصفهم الأصيل، وفي ذلك إلفات إلى ضرورة تسمية الأشياء بأسمائها وبمقتضى حقائقها.

---

(١) ينظر: تفسير المنار (١/ ١٤٩).

تعال بنا نرى العظمة الإلهية المحيطة بالكافرين بنوعيهما: المنافقين، والكفار الصرحاء، فما مظاهرها؟

الجواب: أُلَخِّص لك هذه المظاهر فيما يأتي:

هؤلاء يعيشون في سماء الله، وأرضه، يغرفون من خزائنه، ويأكلون من نعمه، ويشربون من مائه، ويتحركون بودائعه في أجسادهم.. في كلِّ جزء فيها، وكلِّ ذرَّة منها، فهو محيط بهم في كلِّ خلاياهم، وأعصابهم، وحواسهم، وأعضائهم، ونومهم ويقظتهم، وأكلهم وشربهم، وجوعهم، وظمئهم، وحديثهم وسكوتهم، وحياتهم، ومماتهم، فهل يظنون أنهم يمكن أن يفوتوه أو يعجزوه، أو يهربوا منه.. لقد أحاط بهم بقدرته وبعلمه، فقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وأحاط بهم في حركاتهم وسكناتهم وكل شيء يتعلَّق بهم وكلُّ شأنهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البُرُوج: ٢٠]، فهل يحسبون أن تدبيراتهم وتخطيطاتهم وتحصيناتهم تعجزه أو تحميهم؟

المشهد السابع: البرق الخاطف:

يظهر مشهد البرق الخاطف ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾، فالْبَرْقُ هو النور السريع القوي المنبعث في السماء، ويمثل النور القرآني، ولشدة لمعانه وإصلاحه للحياة يكاد يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يريدون أن يصلح الحياة:

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ﴾ لقُوَّةِ لَمعانه وإبهار شُعاعِهِ وشِدَّةِ حَرَكَتِهِ وإسْراعِهِ وقوة أثره أن يخطف البصر، ولذا يهابه من يراه أو يشعر به، ويخاف منه أن يؤذيه، وكذلك شعور المنافقين بالنسبة للكتاب الذي لا ريب فيه؛ إذ يكاد أن يخطف أبصارهم.

فإن قلت: ما معنى الخطف؟ وما معنى ﴿يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾؟

الجواب: هذه الكلمة من خَطِف يخْطَفُ، وَخَطَف يخْطِفُ، والخطف الأخذ بسرعة وحدة واقتدار، والسلب بخفية وقوة، وقال: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أي: يقتلون قتلاً ذريعًا سريعًا، ويسلبون كأنهم لم يكونوا شيئًا، ويسرقون، ويسترقون، ويستعبدون، ويؤكلون أموالاً وأعراضا وأجسادًا[١]،ومنه قيل الْخُطَّافَ: حَدِيدَةٌ حَجْنَاءُ؛ لِأَنَّهُ يُخْتَطَفُ بِهَا الشَّيْءُ، وَالْجَمْعُ خَطَاطِيفُ كالذي يُخرج به الدلو من البئر خُطَّاف، لاختطافه واستلابه ما عَلق به، قال نابغة بني ذُبيان:

فَإِنَّكَ كَالليلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أَيدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ[٢]

وَجَمَلٌ خَيْطَفٌ: سَرِيعُ الْمَرِّ[٣].

فقوله: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يعني يأخذها أخذًا سريعًا دون أن يشعروا بتلك الحركة لشدة لمعانه وسرعته وقوته، فالبرق يكاد أن يصيبهم بالعمى؛ بدلاً من أن ينتفعوا به، فأعينهم لم تعتد أن ترى النور الحقيقي..

---

(١) ينظر: المفردات للراغب (ص: ١٥٠).

(٢) قال شاكر: خطاطيف: جمع خُطَّاف، وحجن: جمع أحجن، وهو المعوج الذي في رأسه عُقَّافَةٌ. وقال"تمد بها" ولم يقل: تمدها، لأنه لم يرد مد الحبال ذوات الخطاطيف، وإنما أراد اليد التي تمتد بها وفيها الخطاطيف، لأن اليد هي الذي تتبع الشيء حيث ذهب، وقوله"إليك" متعلق بقوله"نوازع". ونوازع جمع نازع ونازعة، من قولهم نزع الدلو من البئر ينزعها: جذبها وأخرجها. أي أن هذه الأيدي تجذب ما تشاء إليك، وترده عليك. والبيت متصل بالذي قبله، وبيان لقوله"فإنك كالليل الذي هو مدركى"، أراد تهويل الليل وما يرى فيه، تتبعه حيث ذهب خطاطيف حجن لا مهرب له منها. تفسير الطبري (١/ ٣٥٧)، والبيت في ديوانه. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢ (ص: ٣٨).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٩٦، ١٩٧).

إن حياتها في ظلمات الشهوات المحرمة، والمؤامرات المجرمة، والتجارة المدمِّرة للبشرية، والخطط التي تقتل الأبرياء، وتقيم حفلات التعذيب تحت كل سماء، فإذا ما شهدوا شيئًا من النور القرآني كاد أن يخطف أبصارهم.

المشهد الثامن: التلاعب المصلحي:

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠] فإذا وجدوا فيه ما يحقِّق لهم الشهوة والشهرة قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك:

لعلك تسأل: كيف يصور لنا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ المنافقين وهم يتلاعبون بالكتاب الذي لا ريب فيه حسَب مصلحتهم؟

الجواب: يصوِّر الله ﷻ الاستفادة العارضة لهم من حالة الصَّيِّب، فيقول: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾.

فكلمة ﴿كُلَّمَا﴾: تُفِيدُ عُمُومَ مَدْخُولِها، وما كافَّةٌ لِكُلٍّ عَنِ الإضافَةِ.

و﴿أَضَآءَ﴾: يحتمل أن يكون فعلاً متعديًا، والمفعول محذوف بمعنى: كلما نوَّر لهم ممشى ومسلكًا أخذوه.

ويحتمل أن يكون غير متعدٍ بمعنى: كلما لَمَعَ لهم مَشَوْا في مطرح نوره وملقى ضوئه، فيبادرون إلى الإفادة منه لا يَفْتُرُونَ عَنْهُ في وقْتٍ مِن أوْقاتِ الإضاءَةِ، ويتَّبعون الجهة التي أضاءها لهم البرق.

والمشي: جنس الحركة المخصوصة، فإذا اشتد فهو سعي، وإذا ازداد فهو عَدْوٌ.

صُوَر واقعية تطبيقية لتلاعب المنافقين:

وعلى الرغم من كلِّ جرائمهم ما زالوا يخادعون، فهم يزعمون أنهم مؤمنون.. يبثُّون بعض البرامج الدينية، ويبدؤون احتفالاتهم بالتلاوات القرآنية، وتسمع على ألسنتهم بعض ما يدلُّ

على ذلك، يحاولون أن يزيِّنوا به شَائِه جرائمهم، ويبهرجوا على البسطاء باطلهم، ويروجوا عند الجهلاء الأغرار كاسد بضاعتهم، فذلك مثل البرق الذي يخفِّف من وطأة الظلمة فيمشون في نوره.

يتَّبعونه إن لاح لهم، فهو شيءٌ من الشفاء القرآني يحتاجونه، لكنهم يجعلونه مجرد أمرٍ عارضٍ مؤقت؛ إذ يعودون إلى ظلامهم المذكور في بقية الآيات، ولذا يمكنهم أن يبنوا مسجدًا مثلاً للتباهي والتفاخر، وهنا تعلم القيمة الكبيرة التي أضافتها هذه الجملة على التصوير الكلي، فضوء البرق يخفف لهم الظلمة ويخفِّف الهدى القرآني الظلمة النفسية الحالكة التي تتسم بها نفسياتهم، لكنهم لا يعدون ذلك خيرًا محضًا، فعلى الرغم من أن هذا النور البارق يضيء لهم الطريق ليسيروا فيه، لكنهم فقط يستفيدون منه إضاءة تلك اللحظة لا إضاءة الحياة، وكذلك المنافقون يفيدون من القرآن إضاءة تلك اللحظة في حياتهم، ثم لا يجعلونه مصدر الإضاءة في معظم حياتهم.

المشهد التاسع: القيام في الظلام:

فالمنافقون ينظرون إلى القرآن نظرتهم إلى الظلام المخيف، ويبصرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٠]، فإذا عارض أهواءَهم وشهواتِهم وحقدَهم وحسدَهم أظلم عليهم، فقاموا: أي ثبتوا ولم يسيروا في ضوئه؛ لأنهم لم يعودوا يرونه كالبرق بل يجدون الظلمة في التعامل معه، ويعودون إلى ظلمهم كما يعيش هؤلاء في ظلماتهم:

ربما يدعوك حادي التأمُّل لتسأل: كيف صوَّر لنا المثل قضاء المنافقين معظم حياتهم في الظلم والآثام؟

الجواب: رأينا المنافقين في المشهد السابق يمشون في ضوء القرآن المجيد للمحة من الزمن، كما يمشى التائه في ضوء البرق للمحة من الزمن، ولكن مشيهم على هذه الحالة لا

يمثل إلا زمنًا قليلاً؛ إذ سرعان ما يذهب ضوء ذلك البرق، ويعودون إلى الظلمات التي تحيط بهم، وعندما تقيس الزمن الذي يلمع فيه البرق أثناء انصباب الصيِّب مع الزمن الذي لا يلمع تشعر حينها بصورة الوقت الطويل الذي يكون الظلام فيه مخيمًا على الأرجاء.

اصْطَحِبْ هذه الصورة عندما ترى المنافقين وهم يستضيئون بنور القرآن في حفلة دينية، أو كلمة مجاملة، ثم ما يلبثون أن يذهب عنهم سناه، فيعودون للصدِّ عن سبيل الله، والتآمر على البشرية، فيظلم ذلك النور الذي أضاء لهم، ويصف الله ﷻ هذه الحالة فيقول: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٠].

فإن قلت: ما وجه قوة التصوير في كلمة ﴿أظلم﴾؟

أجيبك بأن ﴿أظلم﴾: يحتمل أن يكون فعلاً غير متعدٍّ وهو الظاهر، وأن يكون متعديًا أي أظلم عليهم الدنيا، كما قال أبو تمام(١):

هُمَا أَظْلَمَا حَالَيَّ ثُمَّتَ أَجْلَيَا ظَلَامَيْهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ

ستقول عرفنا معنى ﴿أظلم﴾ فما معنى ﴿قامُوا﴾ ؟ وما المعنى المدهش الذي تقدِّمه؟

الجواب: معنى ﴿قامُوا﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم، وكلمة (قاموا) مدهشة فيدخل في القائم: المتحيِّر الذي لا يسير في ضوء البرق القرآني، ويدخل فيه الذي يعيش في الظلمات فيأبى السير والحركة في ضوء الشرع القرآني، فيقوم ويتردَّد، فربما تحرَّك إلى جهة نور البرق الذي أضاء له، وربما بقي على خطته الحيوية في التآمر على البشرية، والكيد للإسلام من خلال الألفاظ المخادعة.

(١) ديوان أبي تمام، فسر ألفاظه: محيي الدين الخياط، طبع مرخصًا من نظارة المعارف العمومية الجليلة، (ص: ٢٤).

هكذا المنافقون مع القرآن: في لحظة الإنارة البارقة يتبعون منه ما لا يوصل إلى هدفٍ حقيقي من أهدف القرآن؛ لأنهم لا يرون الدنيا به، بل يرونه جزءًا يسيرون فيه ضمن أهدافهم لا ضمن الأهداف التي حدَّدها ذلك النور؛ إذ يوشك أن ينطفئ، وكما يتوقَّف الذين يسيرون في ضوء البرق بعد أن رجعوا إلى حالة الظلمات كذلك يسير المنافقون في ضوء القرآن قليلاً ثم يتوقَّفون راجعين إلى ظلمات إجرامهم عندما يطبع على قلوبهم، وتذهب لوامع الإنارة اليسيرة التي يرونها أحيانًا، فلا يرون حساب الآخرة، ولا رضا الله، ولا صلاح الحياة التي جاء بها القرآن.

ولعلك تسأل: لماذا قرن الاستعمال القرآني كلمة ﴿كلما﴾ مع الإضاءة، وقرن كلمة ﴿إذا﴾ مع الإظلام؟

الجواب: ﴿كلما﴾ تدلُّ على شِدَّة حرصهم وظهور عزمهم على تنفيذ ما يترتب على ما يضاء لهم فيه، وعدم تفويتهم أدنى وقتٍ ليتحركوا فيه إن وجدوه، وذلك يعكس بدِقَّة قوة نشاط المنافقين في تنفيذ برامجهم.

وكلمة ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ لتحقُّقِ خُفُوتِهِ بَعْدَ خُفُوقِهِ.

فإن رأوا ضوءًا في إقامة مسابقة قرآنية أو بناء مسجد يخلد اسمهم مضوا فيه، لكنهم عندما يظلم عليهم الجو بأن يسمعوا بقية آيات القرآن التي لا يحبون سماعها أظلمت عليهم دنياهم، عندها قاموا، أي وقفوا كأنهم لا يسمعون، وعادوا إلى ظلماتهم يعمهون، فيقفون عندما يسمعون الآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكفُّ عن الإثم والعدوان، وقطيعة الرحم، وترك الشهوات المحرَّمة.. يقفون عندما يسمعون آيات الأخوة الإيمانية والرحمة بالإنسانية.. يقفون عندما يسمعون آيات الكفِّ عن سرقة الثروات، وقتل الأبرياء،

ووقوفهم هنا يدلُّ على عدم استماعهم، وعلى كراهتهم لما يسمعون، فهم لا يمشون في نور ما يسمعون.

هذا الوقوف الوارد في قوله: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ يصوِّر بصورةٍ مدهشة حياة زاعمي الإيمان، فهم لا يقدرون على إزالة الآيات التي لا يرغبون في قراءتها وسماعها، فيقفون، ولكنهم لا يرغبون في الالتزام بها، ولا نشرها، ولا السير بها، ويخالفون مقتضياتها، ويحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

مع الطبري ؒ نستلهم التصوير القرآني لحال المنافقين:

ويشعر الطبري ؒ بهذا التصوير، فيقول: "وجعل البرق لإيمانهم مَثلاً، وإنما أراد بذلك: أنهم كلما أضاء لهم الإيمان"(١)، ثم أخذ الطبري ؒ يصوِّر حال المنافقين في الآية على ما كان معهودًا تفصيلاً في عهد النبي ﷺ، ودعني أستمد من القرآن المجيد آياته التي تخاطب العالم على تباين الزمان والمكان، وأستلهم من الطبري ؒ وغيره من أئمتنا ؒ ما يساعد على فَهْمِ ذلك، فإضاءة القرآن لهم: أن يروْا فيه ما يُعجبهم في توجيهات القرآن عندما يجدون فيها ما يؤيد سياستهم من جهة محددة، فيطالبون العلماء بأن يكونوا معهم، ويتخاطبون مع الطوائف المتدينة المتعددة ليكسبوا ولاءهم، ويفيدون من جانب من الإسلام حيث يظهرون للمسلمين أن أسماءهم إسلامية، وأن القرآن يأمر بطاعتهم وموالاتهم، ويبدون لهم أنه لا يجوز للمسلمين أن يسائلوهم مهما تصرفوا في الأموال، ولعبوا بالسياسات، وهم في ذلك كله يؤمنون بشيء من الكتاب، ويكفرون بمعظمه، فإن ذكر لهم: المبادئ الإسلامية العظمى مثل الأخوة الإيمانية وليس الأخوة مع عباد الأصنام، وتحريم معاملاتهم المالية النجسة.. إذا ذكرت لهم تحريم المخدرات وتحريم قتل الأنفس البريئة.. قاموا، ورأوا القرآن قد أظلم

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٥٨).

عليهم حياتهم، وكذلك إذا لم يَرَوْا في الإسلام ما يعجبهم في دنياهم مثل ابتلاء الله تعالى مؤمني عبادِهِ بالضرَّاء، وتمحيصه إيَّاهم بالشدائد والبلاء، أظهروا نفاقهم، وأبوا أن يمشوا في نور القرآن.

وهذا قريب من قول الله جلّ ثناؤه في صنف شبيه بهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

" إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي **تقف عندما يُخَيِّمُ الظلام**.. إن هذه الحركة في المشهد لترسُم – عن طريق التأثر الإيحائي- **حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون**.. بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين.. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام، **فهو مشهد حسيٌّ يرمز لحالة نفسية، ويُجَسِّمُ صورة شعورية**"(١).

المشهد العاشر: النفاق: فن المراوغة الحذرة:

فالتمثيل المائي يظهر الصنف المنافق المراوغ قلقًا حذرًا يحسب الحسابات المتعدِّدة، ويخاف أن يكتشف الآخرون حقيقته:

وتجد الطبري ﷀ صوَّر تصويرًا دقيقًا المشبه به وهو الصيِّب وما صاحبه مما تبصرنا به الآية، فيقول: "كمثل غَيثٍ سَرى ليلًا في مُزنة ظلماء وليلة مظلمة يحدوها رعدٌ، ويستطير في حافاتها برقٌ شديدٌ لمعانُه، كثير خَطرانه، يكاد سَنا برقه يَذهب بالأبصار ويختطفها من شِدَّة

---

(١) الظلال (١/ ٤٦).

ضيائه ونور شعاعه، وينهبط منها تارات صواعقُ، تكاد تَدَعُ النفوسَ من شدة أهوالها زَوَاهِقَ"(١).

تعال بنا إلى المُشَبَّه وهم المنافقون المترددون، فهم يشعرون أنهم يعيشون مع عالم الصيب-وهو الكتاب الذي لا شك فيه- في خطر كبير، وينظرون إلى الأحداث حولهم بصورة دقيقة، وتحقيق بالغ، ولا يرون في الصيب النافع إلا مصائب تحل بهم، وكوارث تنزل عليهم، وترى الحذر والخوف والقلق واضحًا من الصورة التي يرسُمها لك قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: ١٩]، ولا ينظرون إلى الصيب النافع إنما ينظرون إلى ما يصاحبه مما لا يوافقهم، فيرون في كلِّ ما يتعلَّق بالكتاب الذي ريب فيه الخطر عليهم.. يرون في القرآن خطرًا كأنه الموت، وحتى في الآيات العظيمة التي لا تحاسبهم يرونها مثل البرق الخاطف: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾.

تصوير مدهش لحركة البرق وتفاعلهم معه، ويبين الطبري رحمه الله معنى ﴿يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ فيقول: "يذهب بها ويستلبُها ويلتمعها من شدة ضيائه ونُور شُعاعه"(٢).

هذا المعنى يظهر في تدبُّر ابن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه عنه الطبري رحمه الله، فيقول: "هم من ظُلمات ما هم فيه من الكفر والحذَر من القتل -على الذي هم عليه من الخلاف والتخويف منكم- على مثل ما وصف، من الذي هو في ظلمة الصيب، فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حَذَرَ الموت، يكاد البرق يخطفُ أبصارهم -أي لشِدَّة ضوء الحقِّ- كلما أضاءَ لهم

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٥٧).

مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين"(١).

بصيرة: النور القرآني هو الصيب الذي يحيي الأرض والأرواح، وهو البرق الذي ينير الأرجاء، لكن النفوس المريضة لا تراه صَيِّبًا يُحيي، ولا برقًا يضيء، بل تجعل منه مصدر ظلام يختفي سناه من حياتهم عندما يصرون على أنانيتهم وشهواتهم المنحرفة.

ولعلك تسأل: ما السر في تشبيه النور القرآني بالصَّيِّب؟ وكيف يكون وبالًا على النفوس العصية؟

الجواب: تشبيه النور القرآني بالصَّيِّب منتشر في الإسلام بصورة مبهجة؛ إذ تخضرُّ الأرض بغيث القرآن كما تخضرُّ بغيث السماء، وتحيا الأجساد والنفوس بغيث القرآن كما تحيا بغيث السماء، ولكن هذا الصَّيِّب يكون وبالاً على النفوس العاصية، والقلوب القاسية والنبي ﷺ يصور ذلك تصويرًا دقيقًا فيقول: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(٢).

فإن قلت: لماذا صور الله ﷻ الكتاب الذي لا ريب فيه بهذه الصورة؟

الجواب: هذا التصوير يقرِّب لك كيف يمكن أن يجتمع الخير والشرُّ في جهة واحدة حسب تعامل الإنسان معها.. يصوِّر لك كيف يختلط النَفْع وَالضُرّ في شيء واحد حسب التفاعل

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٤٦).

(٢) البخاري (٧٩).

معه، "وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ التَّمْثِيلِ الْقُرْآنِيِّ" كما يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله، فالقرآن كنزٌ عظيم أنزله الله عز وجل ليغيث البشرية لكن الكنز قد يعده بعض الناس مرضًا أو خطرًا، وقد يستعمله بعض الناس في الشر والإجرام، وترى البلغاء انتفعوا بهذا الاستعمال القرآني لتصوير المسائل، فها هو المتنبي يقول(١):

فَتًى كَالسَّحَابِ الْجُوْنِ يُرْجَى وَيُتَّقَى ... يُرَجَّى الْحَيَا مِنْهُ وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

رواه ابن جِنيٍّ بضم الجيم، والمعنى مرجو مهيب يُرجى نفعه ويُهاب ضَرُّه، كالسحاب يرجى مطرُه وتخشى صواعقُه، وهذا كقول البحتري(٢):

سماحًا وبأسًا كالصواعق والحَيا ... إذا اجتمعا في العارضِ المُتراكِمِ

وَالظُّلُمَاتُ هو ما يعتري المحاربين للقرآن عند سماع ما لا يرضي أهواءهم من تحريف الشهوات المنحرفة، والأموال المغتصبة، كَمَا يحدث لمن يسير في ضوء القمر أو الشمس باطمئنان، فكذلك مَنْ يطبِّق القرآن مِن المجرمين لأنه وافق هواه حتى إذا نهاه عن الربا، أو حال بينه وبين الزنا، أو زجره عن أكل مال الضعفاء واليتامى شعر بأن الظلمات تحيط به، وأن الضوء الذي كان يسير في هديه ذهب عنه.

فإذا سمع من القرآن ما يضاد هواه رأى أنها صواعق توشك أن تحرقه، فقام أي وقف عن السير في نور القرآن، ولم يكتف بذلك حتى يبدأ في محاربة القرآن؛ لأنه يرى فيه تهديدًا لأهوائه المريضة، ولذا ختم الله هذا التصوير البديع بقول: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

(١) ديوان المتنبي (ص: ٧٧).

(٢) ديوان البحتري (٣/ ١٩٧١).

إنه جل في علاه يُجَلِّي لنا حال المترددين من زاعمي الإيمان، وهم من يظهرون الإيمان، لكن دعواهم يصيبها الخلل الجزئي أو الكلي، فيرتدون بقلوبهم بعد أن آمنوا بألسنتهم، وبعضهم يَظَلُّ على إسلامه لكنه لا يحكمه في أهوائه وحياته، وبعضهم ينبهر بمبادئ الإسلام السامية، وحقائقه الرائعة ثم يرجع إلى الكفر ثم يؤمن ثم يرجع عن الإيمان، وربما رأيت الواحد منهم يتحدث عن الإسلام على أجمل نَسَق، وربما رأيته يصلي ثم ما يلبث أن يفعل ما يناقض ذلك من الفحشاء أو الاعتداء، وتحكيم الطواغيت.. فمثلهم كصيب من السماء - وهو سحاب ذو صوب، أي ذو مطر تكاثرت خيراته، وظهرت بركاته، وقد تراكم هذا السحاب حتى أظلمت هيئته، وأظلم داخله، وأظلمت الأرض بسببه، وصارت أصوات الرعد المخيفة تصدر منه، وأضواء البرق الخاطفة تخرج من خلاله ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾، فهم يزعمون الإيمان لكنهم بدلاً من أن يتنعموا بغيثه، ويهنؤوا بحلاوته يصرُّون على المشي في متشابهاته، ويسعون للتلاعب به، ولذلك يمشون خائفين أن يفضحوا، فمنهم من يزعم الإيمان، وهو يقتل النساء والولدان، ويمول حملات الاعتداء على الشعوب المستضعفة البريئة.

المنافقون والقرآن.. تَشَهِّي وتَشَظِّي:

وهذان الصنفان تلوح لهما أنوار المعرفة القرآنية أو الإيمان فيأتون منها ما يوافق أهواءهم وشهواتهم تشهيًا، ويمشون فيما يناقضون به مقتضيات القرآن والإيمان خائفين من أن يُفضحوا أو يُكشفوا، فما أشدَّ تشظِّي نفوسِهم وقلقها واضطرابها! فحالهم كمن يمشى في ظلمات الصَّيِّب جاعلًا أصابعه في آذانه من الصواعق حذر الموت، وكذلك يفعلون مع الإنكار عليهم، فهم ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤]، ويجتمع على بصرهم الإضاءة الخاطفة المخيفة المفاجئة، وعلى أسماعهم صوت الرعد الصاعق، فيزدادون خوفًا،

فـ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾، فهم في مشهد مخيف رهيب، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].. ومن حِكَم تخلل هذا القانون الكلي العظيم ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ألا يذهلنا مَا نَتَصَوَّرُهُ مَنْ حَالِ الْمُشَبَّهِ بِهِ عَنْ حَالِ الْمُشَبَّهِ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ(١).

النفاق واختيار الصفقة الخاسرة:

وانظر إليهم في ذلك المكان يفتحون أبصارهم ليروا طريقهم وما حولهم لكنهم لا يرون شيئًا، حتى إذا ما لمحوا بارقة البرق التي تضيء ما حولها نظروا بصعوبة شديدة لشِدَّة لمعان البرق، وقوة إضاءته، فبدلاً من أن يستفيدوا من إضاءة البرق صار وبالاً عليهم ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾، فهل رأيت صفقة أعظم خسارًا من هذه؟! ولكنهم أحيانًا يستفيدون من هذا اللمعان الشديد، فـ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ فيجدون في الإيمان والقرآن أحيانًا ما يوافق أهواءهم، أو يكون خفيف التكلفة على شهواتهم كالمشاركة في بعض أمور الخير اليسيرة، فيمشون فيه، ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ فلم يتحركوا، وخشوا أن يقعوا في هاوية لشِدَّة الظلام حولهم، فلا يجعلون القرآن منارًا للتشريع في المعاملات الاقتصادية، والأخلاق السياسية، ولا يقيمون مبادئ القرآن التي تقيم العدالة بين الأمم والشعوب.. هنا يظلم عليهم فيقومون أي يقفون فلا يمشون في هدي الإيمان، ولا نور القرآن؛ لغلبة شهواتهم واستكبارهم، فَيَسْمَعُ هؤلاء المنافقون قَوَارِعَ الْإِنْذَارِ الْإِلَهِيِّ وَيَبْرُقُ أمامهم نُورُ الْهِدَايَةِ، ولكنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت، ولفساد نفوسهم إذا رأوا البرق لم يروا فيه الخير بل يكاد يخطف أبصارهم، فإِذَا أَضَاءَ ذَلِكَ الْبَرْقُ بأن أبصروا شيئًا من الخير أعجبهم في الإسلام مما يعجبهم من الأحكام التشريعية الذي يهتدون بها لموافقتها لنزواتهم الوقتية،

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٩).

فتلمع فيسيرون في ضوئه، ولكنهم ما يلبثون إلا يسيرًا حتى يرجعوا إلى طاعة أهوائهم وشهواتهم ونزواتهم، فتظلم نفوسهم بكفرهم وإفسادهم فيتحيرون ولا يعرفون أين الحق ويضعون أصابعهم في آذانهم كراهة لسماع القرآن، لظنهم أنه عدوُّهم، ويظن الناس أنهم رجعوا للإيمان، ولكنهم ما لبثوا حتى جذبتهم الْعَادَاتُ وَالتَّقَالِيدُ وَالشَّهَوَاتُ وَالْخَوْفُ مِنْ ذَمِّ الْجَمَاهِيرِ عِنْدَ الْعَمَلِ الكلي بالقرآن.. إنها الظُّلُمَاتُ الَّتِي تَصُدُّهم عَنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ، وكثير من المفسرين رحمهم الله مال إلى أن الله تعالى عَبَّرَ عَنْ زَوَاجِرِ الْقُرْآنِ بِالصَّوَاعِقِ وَعَنِ انْحِطَاطِ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ عَنْ قَرَارِ نُورِ الْإِيمَانِ فِيهَا بِخَطْفِ الْبَرْقِ لِلْأَبْصَارِ، وَإِلَى نَحْوٍ مِنْ هَذَا يُشِيرُ كَلَامُ ابْنِ عَطِيَّةَ رحمه الله نَقْلاً عَنْ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ -كما يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله[(١)]- والذي يظهر لي أن الصواعق لا تقتصر على الزواجر، بل يمكن أن تشتمل على الأوامر التي يصعب عليهم تطبيقها لِثِقَلِها على أهوائهم وفضحها لمخالفتهم دينهم، وتأمَّل مثلاً في الربا والشورى كيف يستثقلها كثير من الناس اليوم.

المشهد الحادي عشر: مشهد القوة المحيطة القادرة:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ [البقرة: ٢٠] تبصِّرنا بأنه لو شاء الله تعالى لحرمهم الانتفاع بحواسهم التي لم يستخدموها إلا الاستخدام الخاطئ، ولو شاء أن يهلكهم على إفسادهم لفعل.

انظر لقوة التصوير في المثل، فقوة البرق متفاوتة، ويمكن أن يزيدها الله ﷻ حتى تبلغ منتهاها بالنسبة للبشر؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ﴾ [البقرة: ٢٠]، وكذلك قوة الصواعق بلغت منتهاها وتطاول أمدها؛ إذ يقول: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ لولا أن الله ﷻ حماهم من أن تستأصلهم وتدمِّر حواسَّهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣١٩)، وينظر: المحرر الوجيز (١/ ١٠٢).

[البقرة: ٢٠]، ومفعول شاءَ محذوف، لأن الجواب يدلُّ عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في «شاء» و «أراد» فلا يكاد يبرز المفعول فيهما إلا في الشيء المستغرب كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧][1]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال إسحاق بن حسان الخُرَيمي[2]:

ملكتُ دموعَ العينِ حينَ رددتُها ... إلى ناظري والعينُ كالقلبِ تدمَعُ

ولو شئتُ أنْ أبكي دمًا لبكيتُهُ ... عليهِ ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسَعُ

وقول الآخر[3]:

وإنْ شِئْتَ فازْعُمْ أنَّ مَن فَوْقَ ظَهْرِها ... عَبِيدُكَ واسْتَشْهِدْ إلَهَكَ يَشْهَدِ

فَإِنَّ زَعْمَ ذَلِكَ زَعْمٌ غَرِيبٌ.

والمعنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الَّذِي لَهُ المشيئة الكاملة النافذة، والقدرة المطلقة، والعَظَمَةُ الباهِرَةُ ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بأن يزيد في قصيف الرعد فيذهب بسمعهم ولَمْ يُغْنِهِمْ سَدُّ آذانِهِمْ ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ﴾ بأن يزيد في وميض البرق فيذهب بأبصاهم ولَمْ يَمْنَعْهُ غَضُّهم لَها.

فإن قلت: ماذا يكون معنى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ﴾؟

الجواب: بعد أن عُرضت لهم المنافع المنبعثة من الأنوار القرآنية قابلوها بالإنكار الشديد، وتحولت أنوار القرآن في نفوس المنافقين إلى أمرٍ مفزعٍ لهم، ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم في المعرفة الحقيقية، بل استخدموا السمع والأبصار في الخداع والكذب والإفساد حينها يأتي

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ٨٧).

(٢) البيت في ديوانه (ص: ٤٣)، لكني لم أعثر عليه، فوثقته من التذكرة الحمدونية (٤/ ٢٦٠).

(٣) البيت لأبي العلاء المعري. يتظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٢٢).

تهديد الله لهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ أي لو شاء أن ينتزع منهم حواسهم التي يستخدمونها في الإجرام والإفساد لذهب بها كما ذهب بأنوارهم، فهذه صيغة تهديد كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فيظهر أن جملة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ تحمل المعنيين معًا: تدمير البصائر، وإهلاك الحواس.

إمهال لا إهمال:

فهؤلاء الذين استعملوا سمعهم وأبصارهم في الإجرام يستحقون أن تُسلب منهم حواسهم ولكن الله ﷻ لم يشأ ذلك؛ لأن حقيقة الدنيا قائمة على الابتلاء، والاختبار، ولها أجل مسمى يقيم الله ﷻ عليهم الحجة حتى لا يحتجوا بشيء يطعن في العدالة الإلهية القادمة، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.

والعاقل إن سمع التهديد استدرك نفسه، وبحث عما ينقذه، وشعر بالرعب عندما يكون التهديد ممن يعلم قوته، فعندما سمع عتبة بن ربيعة النبي ﷺ يقرأ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] خاف من هذا التهديد، قال عتبة: فأجابني بشيء -والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة- قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١-١٣] فأمسكتُ

بِفِيْهِ وناشدته الرَّحِم أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب(١).

المشهد الثاني عشر: القوة المطلقة القاهرة:

ختم المشاهد بمشهد القوة المطلقة التي تبين سبب المشيئة الكاملة النافذة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] كما أنه يرسل الصواعق أحيانًا فتأخذ بعض خلقه، فلا يغرُّهم بقاؤهم أو تقلبُهم في البلاد مع سفكُهم للدماء وإفسادُهم في الأرض:

لعلك تسأل: كيف جاءت هذه البينة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ٢٠] في المكان المناسب من الآية لتكون تتمتها؟

الجواب: تنفتح جميع أسارير وجهك وأنت تشعر بعظمة هذه الخاتمة؛ إذ تجيب عن جميع أسئلتك وأسئلة غيرك مما أظهرته أو خبأته.

وحتى نعرف جمال موقعها تعال نتعرف إلى بعض الكلمات الجديدة، فقد جاء فيها قول الله: ﴿شيء﴾، وقوله: ﴿قدير﴾، فما معناهما؟

الجواب: الشيء: ما صحَّ أن يُعلم ويخبر عنه، وهو أعمُّ العامِّ كما أن الله ﷻ الأحد، فلفظ الجلالة: ﴿الله﴾ يختصُّ بالمعبود الحقِّ ولا يُطلق على غيره(٢).

والتقدير، أنه يوقع فعله على مقدار قوَّته واستطاعته وما يتميَّز به عن العاجز.

وكلمة (قَدَرَ) تدل عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وَكُنْهِهِ وَنِهَايَتِهِ حسب ما يقتضيه أمره وما تقتضيه الحكمة، فَالْقَدْرُ والتَّقْدِيرُ: تبيين كمِّيَّة الشيء، وإظهار مَبْلَغه قال: ﴿فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٤)، وقال الألباني: "رواه البيهقي وغيره عن الحاكم بسنده عن الأجلح به وفيه كلام". صحيح السيرة النبوية (ص: ١٦١).

(٢) انظر: نظم الدرر (١/ ١٢٥)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ١٧٨).

أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. يُقَالُ: قَدْرُهُ كَذَا: أَيْ مَبْلَغُهُ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ، وَقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وَأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَقَدَّرْتُهُ أُقَدِّرُهُ، ومنه الْقِدْرُ: الإناء الذي يحوي ما يناسب قدره، قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

قدرة الخالق وقدرة المخلوق:

وقُدْرَةُ المخلوق هي هيئة له بها يتمكّن من فعل شيء ما، وإذا وصف الله تعالى بها فهي نفي العجز عنه، ومحال أن يُوصف غير الله ﷻ بالقدرة المطلقة معنى، وإن أُطلق عليه لفظًا، بل حقُّه أن يقال: قَادِرٌ على كذا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيل معنى التَّقييد، ولهذا لا أحد غير الله ﷻ يُوصف بالقدرة من وجه إلَّا ويصحُّ أن يوصف بالعجز من وجه، والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كلِّ وجه. والقَدِيرُ: هو الفاعل لما يشاء على قَدْرِ ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصحُّ أن يُوصف به إلا الله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وفي مقابله قُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلِيقَتِهِ: إِيتَاؤُهُمْ بِالْمَبْلَغِ الَّذِي يَشَاؤُهُ وَيُرِيدُهُ، وَيَقُولُونَ: رَجُلٌ ذُو قُدْرَةٍ، وَذُو مَقْدِرَةٍ، أي: إمكانية وطاقة مالية، أو جسدية، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَبْلُغُ بقدرته الجسدية والمالية مِنَ الْأُمُورِ الْمَبْلَغَ الَّذِي يُوَافِقُ إِرَادَتَهُ(١).

مشاهد القدرة المطلقة تجعل الأبصار شاخصة، والطرف لا يكاد يرتد:

يُوضِّح لك المثلان أن قدرة الله ﷻ تحيط بهم، ولكنك ترى قدرة الله المذهلة في خلق البروق والصواعق والصيب في مكان واحد هو السُّحُب، ولا ترى فيه عندما تقترب منه إلا مجرد هواء، وعندما تخترقه إذا كنت تعيش في المناطق المرتفعة أو اخترقته بطيارتك لا تجده إلا شبيهًا بالضَّباب.. أفلا تعجب من تكَوُّن كلِّ هذه الظواهر مما يشبه الفراغ، ثم إن الله تعالى

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٦٢، ٦٣).

يُسَلِّط الرعد والبرق والصواعق على من يشاء، ويُرسل الصَّيِّب ليغيث الناس أو ليعذبهم كما يشاء، أولا ترى هنا عجائب الرحمة السابغة الشاملة، ومظاهر القوة المعجزة المذهلة؟

يبدو لك هنا جلالَ أول موضع في القرآن لاسم الله ﷻ (القدير)، وكيف ارتبط بالظلمات والرعد والبرق والصواعق، حيث يجمع لك الإجلال والتعظيم والتخويف والرَّدع، ومن المعلوم إذا أراد إنسان أن يبيِّن قُدرته فعل أمرًا مشاهدًا لتتبين منه تلك القدرة، ولله الأمثل الأعلى فالله تعالى أظهر لنا قُدرته الهائلة من خلال هذه المخلوقات التي تصاحب رحمته ويخافها الخلق فكيف بغضبه الصِّرْف؟

واجمع لذلك أن تجد الله ﷻ خلق الأضداد في السِّحاب: فيه يجتمع الصيِّب والنار، والضوء والظلمة.. إن الله ﷷ يريك قدرته التي لا يحيط بها عقل.

ولعلك تسأل: لماذا لم يُذهب الله بسمعهم وأبصارهم على الحقيقة، وهم يجعلون آيات القرآن ظلمات تحيط بهم؟

الجواب: لأن مشيئته قائمة على أن الدنيا دار ابتلاء وتدافع بين البشر لا دار جزاء وعقوبة، كما أن ذلك يبصِّرنا بامتداد فتنة المنافقين، واشتداد إجرامهم في حقِّ العالم؛ ألا ترى أنهم يوشك ألا ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم في الخير؟ إن ذلك يعني أنهم لا يمكن أن يدركوا الحقائق، وأن الله تعالى لو شاء أن يدمِّرَهم فعل، إن الله على كلِّ شيء قدير، لكنه لم يدمِّرْهم لحكمة طبيعة الحياة الدنيوية استدراجًا وإملاء، "أَوْ تَلَوُّمًا لَهُمْ وَإِعْذَارًا؛ لَعَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَثُوبُ إِلَى الْهُدَى، وَقَدْ صِيغَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّوْجِيهِ بِالتَّهْدِيدِ لَهُمْ أَنْ يُذْهِبَ اللهُ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ مِنْ نِفَاقِهِمْ إِنْ لَمْ يَبْتَدِرُوا الْإِقْلَاعَ عَنِ النِّفَاقِ وَذَلِكَ يَكُونُ لَهُ

وَقْعُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا وَقَعَ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ النَّبِيءُ ﷺ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]"(١).

لعل في هذا شيئًا من الجواب عن السؤال الذي يتكرَّر عند تطاول الأزمات، وازدياد الظلم والظلمات: أين الله؟

لذا قرَّر الله تعالى في الآية الأولى من المثل المائي إحاطته بالكافرين ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]، **وفي الثانية قدرته على كلِّ شيء**﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، **والشيء لفظ مُذكَّر، وهو أعمُّ العامِّ**، فنبه بذلك الذين تنتابهم الشكوك والوساوس أن **تقلب الكافرين والمنافقين في البلاد لا يعني قدرتهم على الخروج من ملك الله ﷻ، فهم يحسبون بما يأتونه من نشر الكفر العالمي أنهم قد سبقوا الله ﷻ، ولكنه محيط بهم فمهما عتوا فَهُمْ في مكانٍ محدَّد لا يمكنهم الخروج منه، ولو أراد الله ﷻ إهلاكهم لفعل فهو على كلِّ شيء قدير، لكنَّ السنن الكونية قامت على أن دار الدنيا دار ابتلاء وتداول وتدافع، ودار الآخرة دار جزاء.**

ولذا كان من أهمِّ مقاصد الفاتحة بيان أن الله ملك يوم الدين ومالكه، وأنه أعطى الاختيار في الحياة الدنيا للبشر لمن شاء أن يستقيم ولمن شاء أن يفسد فيها ويسفك الدماء، وهذه مقدمة جواب أمام سؤال الملائكة القادم في الآية (٣٠) من هذه السورة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟

أصناف الناس في القرآن:

وبذا يبصرنا القرآن بتنوع الناس إلى أربعة أصناف:

الْمُؤْمِنُونَ الخُلّص، وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ في الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ.

---

(١)التحرير والتنوير (١/ ٣٢٣)، وقصة عتبة بن ربيعة سبق تخريجها.

وَكُفَّارٌ خُلَّصٌ، وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِالْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا.

وَمُنَافِقُونَ، وَهُمْ قِسْمَانِ: خُلَّصٌ، وَهُمُ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ الْمَثَلُ النَّارِيُّ، وَمُنَافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ، تَارَةً يَظْهَرُ لَهُمْ لُمَعٌ مِنَ الْإِيمَانِ وَتَارَةً يَخْبُو، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَثَلِ الْمَائِيِّ(١).

احترس أيها المؤمن أن تكون فيك شعبة أو شعبٌ من النفاق، وقارن الفرق بيننا وبين الصحابة ﵃:

فقد رأيت أن الله ﷻ ذكر نوعين من النفاق: المثل الناري للنفاق الاعتقادي، والمثل المائي للنفاق العملي، ويلتحق به من يدنو منه بحسبه، فيتناول من أصابته شعبة من النفاق ممن ذكر النبي ﷺ حالهم بقوله: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(٢)، فأضف إلى ذلك ما رأيته من الصفات التي سبقت، وقلّب في حياتك، فربما يذهلك تزكية نفسك عندما تقرأ هذه الآية.. فاسمع وصف ابن أبي مليكة ﵀ لخيار الصحابة ﵃ يقول:" أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ "(٣).

ويتناول المثل المائي من يزعم أنه يُسلم وجهه لله ﷻ ثم يتخذ البشر أربابًا من دون الله، ويتناول من يتعبد تعبد المخبتين ثم يصرُّ على التحاكُم إلى الطواغيت، ويتناول من تغشاه ظلمات البِدَع من كلِّ مكان، ويتخبط فيها تخبط المظلم الهالك الحيران فهو "مِنَ التَّقَالِيدِ وَالْبِدَعِ فِي ظُلُمَاتٍ حَوَالِكَ، وَمِنَ الْخَبْطِ فِيهَا عَلَى حَالٍ لَا تَخْلُو مِنَ الْمَهَالِكِ، وَهُوَ فِي تَخَبُّطِهِ يَسْمَعُ قَوَارِعَ الْإِنْذَارِ الْإِلَهِيِّ، وَيَبْرُقُ فِي عَيْنَيْهِ نُورُ الْهِدَايَةِ، فَإِذَا أَضَاءَ لَهُ ذَلِكَ الْبَرْقُ السَّمَاوِيُّ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٢).

(٢)البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، واللفظ للبخاري.

(٣) البخاري (١ / ١٩)، وقد وصله ابن حجر في تغليق التعليق (٢/ ٥٢،٥٣).

سَارَ، وَإِذَا انْصرَفَ عَنْهُ بِشُبَهِ الضَّلَالَاتِ الْغَرَّارَةِ قَامَ وَتَحَيَّرَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيُعْرِضُ عَنْ سَمَاعِ نُذُرِ الْكِتَابِ وَدُعَاةِ الْحَقِّ كَمَنْ يَضَعُ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ إِرْشَادَ الْمُرْشِدِ، وَلَا نُصْحَ النَّاصِحِ، يَخَافُ مِنْ تِلْكَ الْقَوَارِعِ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَمِنْ صَوَاعِقِ النُّذُرِ أَنْ تُهْلِكَهُ"(١)، وبذا اتسع المعنى القرآني هنا ليشمل كلَّ من طرأت عليه مثل هذه الصفة العجيبة التمثيل: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٠]، فالقرآن بيانه عام.. وبعضنا يجعلها مخصوصة بأقوام بأعينهم مع ظهور الهداية القرآنية لكلِّ مناحي الحياة.. ألا ترى كم بعث ذلك من سلوكيات خاطئة في أنفسنا، وعبث بأرواحنا حتى صرنا نقترف الخطيئة من أفعال المنافقين ثم نبرئ أنفسنا من تبعاتها، مع أنها بريدٌ يجرنا رويدًا رويدًا إلى سلوكياتهم، فيوشك أن تحيط بنا ونحن ما زلنا نزكي أنفسنا.

من سمات الهدي القرآني القويم:

إن "الْقُرْآنَ هَادٍ وَمُرْشِدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مَعَانِيَهُ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ، فَلَا يَعِدُ وَيُوعِدُ وَيَعِظُ وَيُرْشِدُ أَشْخَاصًا مَخْصُوصِينَ، وَإِنَّمَا نِيطَ وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَتَبْشِيرُهُ وَإِنْذَارُهُ بِالْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، فَلَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدٌ بِقَوْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَتَوَهَّمُ أَنَّهَا لَا تَتَنَاوَلُهُ وَإِنْ كَانَتْ مُنْطَبِقَةً عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذِ الْقُرْآنَ إِمَامًا وَهَادِيًا"(٢).

وبإشارة المثل المضروب يتوجب على من يقترف العصيان، ويأتي بعض المحارم أن يأخذ حذره، ويتدارك أمره، فقد جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ،**

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥٠).

وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»(١).

وقد تتساءل: لماذا طال الحديث عن المنافقين؟ لماذا فصَّل الله ﷻ هذه الأحوال المتعددة لهم؟

الجواب: لقد أخذ الكلام عن المنافقين حَيزًا ومساحة، وما زالت البصائر القرآنية تنبئك عن حقائقهم، وطبائعهم، وأنواعهم، وأمثلتهم، وهذه الإطالة توحي بضخامة الدور الذي كان يقوم به في المدينة أسوأ الأمثلة لزاعمي الإيمان وهم المنافقون لإيذاء المجتمع.. تبين هذه الإطالة مدى التعب والقلق والاضطراب الذي تحدثه هذه العناصر الملوثة دائمًا، وكيف تتسبَّب بشقاء العالم، وليس بشقاء المسلمين فحسب، وتبيِّن ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ودَسِّهم اللئيم(٢).

تنبيه على التعجل في إيراد معنى غير مقصود:

عندما تسمع هذه الآية المباركة تخبرك بأن الصَّيِّب نزل ﴿من السماء﴾ فإنك تدرك أنها تعلِّمك بمصدر الصَّيِّب عندما يصير صيِّبًا، وهذا لا يعني أن المصدر الأصلي له كان في السماء أو في الأرض.. هذا واضح دون تردُّد أو زيادة تفكر، واضرب لنفسك مثلاً بأن تقول:

---

(١) أحمد (١١١٤٥)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، ولانقطاعه: فأبو البختري لم يدرك أبا سعيد الخدري ﵁، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين... وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٦٣) وقال: رواه أحمد والطبراني في الصغير، وفي إسناده ليث بن أبي سليم". وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٣): "وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ حَسَنٌ".

(٢) في ظلال القرآن (١ / ٤٥).

نزل رجل من السقف، فهذا لا يعني أن مكان ولادته ومنشئه وحياته كان في السقف.. هنا تدرك أن ذهن الذكي قد يكل أحيانًا، فيتوهم معنى لا تدل عليه الآية، ولا يشعر بخطأ المعنى الذي افترضه مع أن خطأه بَدهيٌّ، وتعال لهذه العجيبة المدهشة، فبينا أنا أحاول تدبر هذه الآيات ليبدو لي كلام رب الأرض والسموات مبينًا؛ إذ بي أرى الزمخشري، ومن بعده الرازي رحمهما الله يتتابعان على نفي معنى لو كانا استقرا قليلاً في التفكير فيه لظهر لهما فساده.. هل تعلم ما ذاك؟

لقد حاولا أن يستدلّا بهذه الآية على نفي تولُّد ماء المطر من الأبخرة الأرضية، فقالا: "مِنَ النّاسِ مَن قالَ: المَطَرُ إنَّما يَحصُلُ مِنَ ارْتِفاعِ أبْخِرَةٍ رَطْبَةٍ مِنَ الأرْضِ إلى الهَواءِ، فَتَنْعَقِدُ هُناكَ مِن شِدَّةِ بَرْدِ الهَواءِ، ثُمَّ تَنْزِلُ مَرَّةً أُخْرى، فَذاكَ هو المَطَرُ"، وبعد أن عرضا هذه أنكراه، فقالا: "ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أبْطَلَ ذَلِكَ المَذْهَبَ هَهُنا بِأنْ بَيَّنَ أنَّ ذَلِكَ الصَّيِّبَ نَزَلَ مِنَ السَّماءِ، كَذا قَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفُرقان: ٤٨]، وقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ [النُّور: ٤٣]"(١).

وأنت ترى بأيسر سبيل أن ما ذهبا إليه ليس بشيء، فالله تعالى يخبرنا بمكان الصَّيِّب حين صار صَيِّبًا، ولم يخبرنا عن أصله كيف تكوّن، ولا من أين جاء، ولا كيف صار صَيِّبًا، وهكذا ينشأ الخلل في الاستنباط، ويفتعل المرء خطأ ومعركة في غير موضعها.

بصيرة: يمكننا أن نَصِف هؤلاء بأنهم زعموا الإيمان دون أن نقتصر على وصفهم بالمنافقين تبعًا للفظ القرآني المنير الذي عرَّفهم من البداية بذلك حيث قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]**، فيدخل فيهم المنافقون وغيرهم.**

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣١٧)، وينظر الكشاف (١/ ٨٢).

فالمتدبِّر للمثل لا يجده خاصًّا بالمنافقين، بل يشمل كلَّ من آتاه الله تعالى نورًا فنبذه وراءه ظهريًا، وانطلق يسير بعيدًا عن أنوار الوحي، ولذا أدخل رشيد رضا رحمه الله فيهم أصنافًا منهم: مَنْ آتَاهُمُ اللهُ دِينًا وَهِدَايَةً عَمِلَ بِهَا سَلَفُهُمْ فَجَنَوْا ثَمَرَهَا، وَصَلَحَ حَالُهُمْ بِهَا فانحرف خَلَفُهُم عَنْ سُنَنِ سَلَفِهِمْ فِي الْأَخْذِ بِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، واستبدلوا شكلياتٍ وطقوسًا وتقاليد قد تنافي أنوار الوحي المجيد، فهو قريبٌ من مَنِ اسْتَوْقَدَ نَارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم(١).

معاذ بن جبل رضي الله عنه يُبرز مثالًا للمنافقين أو لمن يعمل أعمالهم من المُبتَدِعة الذين يُبدِّدون الدين تحت شعارات التجديد:

ومن أبرز أمثلة المنافقين أو من يسير في فلكهم، ويطبِّق صفاتهم دون أن يشعر قوم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ويطعنون في السنة النبوية ثم يستوردون المفاهيم المختلطة الملتبسة بُغية التحشيد الجماهيري، وإرضاء الأهواء الشخصية، أو استرضاء المُمَوِّلين الخارجيين، ويحدثنا عنهم معاذ بن جبل رضي الله عنه حديثًا مدهشًا، فعن أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَائِذِ اللهِ أَخْبَرَهُ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ -وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه - أَخْبَرَهُ قَالَ: كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلاَّ قَالَ: اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ، هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه يَوْمًا: **إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِى وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ،** فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ، فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ. قَالَ: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِى -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّ

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤١).

الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ، وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلاَمِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ، وَلاَ يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا"(١).

أمثلة لمن ذهب الله بنورهم من غير المنافقين:

ربما تتساءل: هذان المثلان ألا ينطبقان في بعض صورهما على غير المنافقين؟ ألا يوجد من أذهب الله نورهم من غير المنافقين؟

الجواب: نعم! فقد ذكر النبي ﷺ من أمثلتهم أقوامًا ليحذر المسلمون أن ينتموا لهم، ومن أشهر من فَقَدَ النور بل حارب أنوار القرآن المجيد: الخوارج، وعلى الرغم من أن الخوارج يختلفون اختلافًا كبيرًا في المنطلقات والأساليب إلا أن الفئتين وبصورة مدهشة تلتقيان على حرب أنوار القرآن الكريم، والقتال المستميت بأساليب متعدِّدة متباينة لأهل القرآن، ولذلك لا عجب أن تشهد تعاونًا غير مباشر ولا ظاهر بين الفريقين، وإليك بعض الأدلة على حرب الخوارج لأنوار القرآن، وهي النقطة التي يلتقون فيها بالمنافقين، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ ردءًا لِلْإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: «**بَلِ الرَّامِي**»(٢)، لأنه أخلَّ بأهمِّ مفاهيم الإسلام، وهو السلام على من عرف ومن لم يعرف.

وعن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ -وَأَهْوَى بِيَدِهِ قِبَلَ الْعِرَاقِ-: «**يَخْرُجُ مِنْهُ قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، وفي

---

(١) أبو داود (٤٦١١)، وقال الأرناؤوط: "أثر إسناده صحيح"، وقال الألباني: "صحيح الإسناد موقوف".

(٢) صحيح ابن حبان (٨٢)، وحسنه الأرناؤوط، والألباني.

حديث أبي سعيد ﵁ [تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ... وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ]، وفي حديث علي ﵁ [سَيَخْرُجُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ]، وفي حديث أنس ﵁ [سَيَكُونُ فِى أُمَّتِى اخْتِلاَفٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ، وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ... هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ... يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَلَيْسُوا مِنْهُ فِى شَىْءٍ](١).

وعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «لَيَظْهَرَنَّ الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبَحْرَ، وَحَتَّى تُخَاضَ الْبِحَارُ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟» ثُمَّ الْتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟»، قَالُوا: لاَ، قَالَ: «أُولَئِكَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، أُولَئِكَ وَقُودُ النَّارِ»(٢).

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﵁ قال: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ﵁، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: اتَّقِ اللهَ، قَالَ: «وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ؟» قَالَ: ثمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ

(١) البخاري (٦٩٣٤)، والزيادة الأولى فيه أيضًا، والزيادة الثانية في صحيح مسلم (١٠٦٤) والزيادة الثالثة في سنن أبي داود (٤٧٦٧) وصحح إسناده الأرناؤوط والألباني، والزيادة الرابعة في سنن الترمذي (٢١٨٨).

(٢) مسند البزار (١٣٢٣)، وحسنه الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢٣٠).

الْوَلِيدِ رضي الله عنه يَا رَسُولَ اللهِ: أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ، قَالَ: «**لاَ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**»، فَقَالَ خَالِدٌ رضي الله عنه : "وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ"، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :«**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**»، قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ:« **إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، وَأَظُنُّهُ قَالَ: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ**»(١).

بحمد الله تم

(١) البخاري (٤٣٥١).

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة ٥

سواطع الأنوار بين يدي (الزهراء الأولى) ١٠

النور الأول: من فضائلها ١٠

الفضيلة الأولى: الرفعة؛ فهي سنام القرآن ١٠

الفضيلة الثانية: العَظمة: ففيها آية الكرسي، وهي أعظم آي القرآن ١٠

الفضيلة الثالثة: آخر آيتين منها من كنز تحت العرش، وتمثلان الكفاية التامة ١١

الفضيلة الرابعة: الحماية: سورة البقرة تمثل الحماية الخاصة الدنيوية ١٣

الفضيلة الخامسة: مرافقة المستقبل وشفاعة عظمى ١٤

الفضيلة السادسة: أساس المعرفة ١٤

الفضيلة السابعة: من مؤهلات القيادة ١٥

الفضيلة الثامنة: المؤنسة لصاحبها ١٦

النور الثاني: (عمود السورة) أي موضوعها الكلي الذي لأجله سُوِّرت هذه السورة"إشراق الحضارة الإسلامية الجديدة على العالم، والإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيلية" ١٧

الأساس الأول: النزول التاريخي، والفجر الجديد ٢٠

أولاً: السراج المنير يبحث عن مكان لينقذ العالم ٢١

١) تجربة الحبشة وعدلها ٢٢

٢) تجرِبة الطائف وآلامها ٢٧

٣) العرض على القبائل في المواسم ٢٩

٤) جاء الأنصار ﷺ أخيرًا: فهم المختارون في الاصطفاء الإلهي ٣٠

ثانيًا: آية العودة إلى معاد تَنْزِل في طريق الهجرة، لتبشِّر بظهور الحضارة ٣٢

ثالثًا: حدث هز العالم وغير التاريخ: نزول سورة البقرة ٣٣

رابعًا: علاقة وطيدة بسورة المطففين ٣٣

خامسًا: وبعد الوصول المبارك إلى المدينة نزلت السورة المبهرة ٣٦
الأساس الثاني: الترتيب المصحفي ٣٩
الأساس الثالث: اسم هذه السورة المباركة (البقرة)، وعلاقته بعمود السورة ٤٢
اسم السورة الثانية من سور القرآن المجيد حسب الترتيب المصحفي ٤٣
الأساس الرابع: المواضيع الكبرى التي تناولتها سورة البقرة ٥٥
الموضوع الأول: الارتقاء بالبشرية من مرتبة العبودية إلى مرتبة (التقوى) ٥٦
الموضوع الثاني: سورة البقرة هي سورة الجامعة الإسلامية ٦٠
الموضوع الثالث: الخلافة الإنسانية في الأرض ٦٢
الموضوع الرابع: وراثة الأمة المسلمة للملة الإبراهيمية ٦٤
الموضوع الخامس: الإحياء الجسدي للموتى، والإحياء النفسي للنفوس المستضعفة ٦٦
الموضوع السادس: مبدأ السمع والطاعة لأعظم الدساتير الإلهية ٦٩
الأساس الخامس: الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة البقرة ٨١
الأساس السادس: مدد السابقين من المفسرين في تعيين عمود السورة ١٣٧
أولًا: الغرناطي رحمه الله: عمود السورة: الصراط المستقيم أخذًا وتركًا ١٣٨
ثانيًا: البقاعي: سورة البقرة تدور حول الكتاب الهادي ١٣٩
ثالثًا: الفراهي رحمه الله :سورة البقرة "إنجاز العهد الإبراهيمي، والأمة الوارثة" ١٤١
رابعًا: محمد رشيد رضا رحمه الله: السورة شطران: شطر لأمة الدعوة، وشطر لأمة الإجابة ١٤٣
خامسًا: سيد قطب رحمه الله: يجمعها محور واحد مزدوج ١٤٣
سادسًا: الطاهر بن عاشور رحمه الله: "الجامعة الإسلامية، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم" ١٤٤
سابعًا: فضلاء معاصرون: خلافة الأرض ١٤٦
ثامنًا: منهج مدرسة البلاغة الساميَّة "نسبة لسام بن نوح عليه السلام في زعمهم" ١٤٧
النور الثالث: أنواع الخطاب والأساليب المتبعة في سورة البقرة ١٦٠
النوع الأول: الأسلوب التربوي الإصلاحي الجذاب ١٦١

النوع الثاني: الخطاب النفسي العاطفي السلس الكاشف ١٦١
النوع الثالث: الخطاب العقلي المنطقي ١٦١
النوع الرابع: الخطاب التزكوي الوعظي التذكيري المشرق المتميز ١٦٢
النوع الخامس: الأسلوب الدستوري القانوني الفائق في المجالات التشريعية التنظيمية ١٦٢
النوع السادس: الأسلوب القصصي الآسر ١٦٢
النوع السابع: أسلوب المحاججة والإقناع ونقض دعاوى المبطلين ١٦٢
النوع الثامن: الأسلوب التشويقي التحفيزي العملي ١٦٢
النور الرابع: المناسبة والاتصال بين سورة البقرة وسورة الفاتحة.. ١٦٣
تفصيل محاور سورة البقرة ١٦٧
المقدمة [البقرة ١-٢٠] ١٦٧
المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم وإدارته [البقرة: ١، ٢] ١٦٧
المناسبة والاتصال ١٦٧
كتاب السعادة والريادة ١٦٩
خصائص القرآن الكريم التي بينتها هاتان الآيتان؛ ليكون الكتاب الذي لا ريب فيه ليدير العالم ١٧٠
الخاصية الأولى: الوضوح والبيان ١٧٠
الحروف المقطعة من مبتكرات القرآن ١٧٦
الخاصية الثانية: التنزيل الرباني والمصدرية الإلهية ١٨٠
الخاصية الثالثة: العَظَمَة: فله الكبرياء والعظمة وبُعْدُ المكان عند الله وعند الناس. ١٨٤
الخاصية الرابعة: الكتابة للتوثيق: فيكتب بمجرد نزوله ١٨٧
الخاصية الخامسة: التحدي والإعجاز ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ ١٩٠
الخاصية السادسة: الهداية ٢٠٣
الخاصية السابعة: الكتاب يعطي قوته للمتقين لا للكافرين ولا للمتلاعبين، ولا للمبعِّضين........ ٢٠٨
المقدمة الثانية: التقسيم العالمي للواقع البشري بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة.................... ٢١٩

المناسبة والاتصال ٢١٩
القسمة الثلاثية لخريطة العلاقات العالمية ٢٢٠
تفصيل التقسيم العالمي حسب المعرفة التي يقدمها نظم الآيات ٢٢٥
الصنف الأول: المتقون، وهم صنف خاص من المؤمنين [الآيات٢-٥] ٢٢٥
الصفة الأولى: تكوين النفس المضيئة الطموحة ٢٢٦
الصفة الثانية من صفات المتقين: أن يكون القرآن هاديًا للإنسان ٢٣٧
ثمار التقوى اليانعة ٢٣٩
الصفة الثالثة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ٢٤١
كمال الإيمان سبيل للأمن الكامل ٢٤٤
الركيزة الأولى: التصديق الْجَازِمُ الْمُقْتَرِنُ بِإِذْعَانِ النَّفْسِ ٢٤٥
الركيزة الثانية: الإقرار باللسان ٢٤٦
الركيزة الثالثة: الخضوع والعمل بالجوارح ٢٤٦
الإيمان بالغيب طوق النجاة من العدمية والتيه ٢٦١
الإيمان بالغيب يوجه البوصلة ويجعل للحياة معنى ٢٦٣
المحدود لا يحيط بالمطلق من عالم الغيب والشهادة ٢٦٤
الغيب يتحول إلى شهادة ٢٦٦
المثال الأول: انتصار الروم في المستقبل القريب من نزول القرآن: ٢٦٦
المثال الثاني: الإخبار الغيبي عن مستقبل أبي لهب وزوجته: ٢٦٨
المثال الثالث: الغيوب الكثيرة المتعلقة بآيات الأنفس والآفاق ٢٦٨
الصفة الرابعة: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذه الصفة تعبر عن أهم الصفات السلوكية ٢٧١
﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكتنز الأسرار ولطيف المعاني ٢٧٣
الصلاة بوابة العروج للاتصال الكبير ٢٨٩
معنى دقيق لطيف رائق للصلاة: ٢٩٢

الصفة الخامسة: الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٢٩٢
مشهد الجلال الثلاثي الاتصال ٢٩٣
فلسفة الكسب والإنفاق في المنظور القرآني.. ٢٩٥
أوعية الإنفاق ومصارفه.. ٢٩٨
أنواع الرزق ٣١١
حوارٌ بين الزمخشري وابن المُنَيِّر رحمهما الله حول تعريف الرزق ٣١٦
الصفة السادسة (الرابعة): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] ٣٢٠
صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السابقة آصرة قوية بين الوحيين السابق والخاتم ٣٢٦
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: عبد الله بن سَلَام شاهد حقٍّ وداعية خير.... ٣٣٣
مشهد حي لإيمان صامد متجدِّد ٣٣٩
الصفة السابعة (الخامسة): ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] ٣٤٠
اليوم الآخر عبر التاريخ ٣٥١
المصريون.. ٣٥١
الهنود ٣٥٢
الفرس ٣٥٢
النصارى ٣٥٣
اليهود -جيران المسلمين في المدينة ذلك الوقت ٣٥٤
إيمان العرب باليوم الآخر مما بقي من آثار الملة الإبراهيمية ٣٥٦
عدم الإيمان الحق باليوم الآخر بوابة للضياع.. ٣٥٩
مكافأتان ضخمتان للمتقين [البقرة: ٥] ٣٦٣
المناسبة والاتصال ٣٦٤
الأتقياء والنداء للاهتداء ٣٧٩
المكافأة الثانية: الفلاح: ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].. ٣٨٠

أنواع الفلاح ٣٨٥
ختام في الكلام عن صنف المتقين في أول سورة البقرة ٣٩١
الصنف الثاني: الكفار المعاندون المتطرِّفون [البقرة: ٦-٧] ٣٩٥
المناسبة والاتصال ٣٩٥
الصفة الأولى: تغطية الحقِّ والحقائق عن أنفسهم وعن غيرهم ٣٩٧
أنواع الكفر ٤٠٤
الصفة الثانية: العناد والتعصب، وعدم المبالاة بسماع ما ينفع ٤٠٩
الصفة الثالثة: صفة إغلاق أدوات المعرفة الأساسية ٤٣٠
المناسبة والاتصال ٤٣٠
الجزاء من جنس العمل قانون قرآني مطرد ٤٣٥
مراحل مسخ القلوب ٤٣٦
المرحلة الأولى: مرحلة الران ٤٣٧
المرحلة الثانية: الإغفال ٤٤٠
المرحلة الثالثة: الطبع ٤٤٣
المرحلة الرابعة: مرحلة الأكنة ٤٤٧
المرحلة الخامسة: مرحلة الوِّقر ٤٤٨
المرحلة السادسة: وهي مرحلة الإقفال ٤٥٢
المرحلة السابعة: الختم ٤٥٢
الصفة الرابعة: وهي صفةٌ أخروية مآليةٌ جسديةٌ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧] ٤٦٦
الصنف الثالث: زاعمو الإيمان من المنافقين وغيرهم [البقرة: ٨-٢٠] ٤٧٣
المناسبة والاتصال ٤٧٣
خريطة الكلام عن المنافقين في هذه الآيات ٤٧٩
الفصل الأول: الكلام عن صفات زاعمي الإيمان (المنافقين) [البقرة: ٨-١٦] ٤٨٠

الصفة الأولى: ترديد زعم الإيمان أمام المجتمع: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ٤٨٠
الصفة الثانية: مخالفة ما في قلوبهم لأقوالهم في زعم الإيمان ٤٩١
الصفة الثالثة: الخداع، وهو الإفساد بصورة خفية ٤٩٧
الصفة الرابعة: عدم الشعور، وفقدان الأحاسيس: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨] ٥٠٨
الصفة الخامسة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ٥١٤
الصفة السادسة: الكذب على العالمين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] ٥٢٢
الصفة السابعة: التكذيب للحق المبين ٥٢٣
مع الطبري حول القراءة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ ٥٢٧
الصفة الثامنة: الإفساد في الأرض، ومنع الناس من الحصول على أي خير في الدنيا والآخرة ٥٢٩
الصفة التاسعة: تبديل المعاني وتغيير الحقائق من خلال اللعب بالألفاظ ٥٣٥
الصفة العاشرة: عدم شعورهم بأنهم أكبر المفسدين ٥٣٩
الصفة الحادية عشرة: التعالي والتشهير بالقوى الخيِّرة بوصفهم بالألقاب المنفِّرة ٥٤٩
من مظاهر السفه في الواقع المعاصر ٥٥٦
الصفة الثانية عشرة: اصطناع إيمان يخالف إيمان الناس الذين ساروا على الصراط المستقيم ٥٥٨
أصناف المنافقين من خلال قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ٥٥٩
الصفة الثالثة عشرة: يتصفون بالسفه والجهل المركب معًا ٥٦٣
الصفة الرابعة عشرة: يظهرون بوجهين متناقضين، ويتكلمون بلسانين متعارضين ٥٦٨
الصفة الخامسة عشرة: التحالف مع القوي الشيطانية الإنسية والجنية في العالم ٥٧١
الصفة السادسة عشرة: تزداد قوة المنافقين فيما يحبون ٥٨٦
الإعجاز البياني يتجلى في ثنايا هذه الآية المباركة ٦٠٦
البصائر القرآنية وتحديد مراتب مدد الطغيان العامه ٦٠٦
الصفة السابعة عشرة: بيع أفضل ما يسعد الحياة الإنسانية، وشراء أعظم ما يشقيها ٦١١

الفصل الثاني: البصائر القرآنية تنير الوعي بإدراك أنواع المنافقين [البقرة: ١٧-٢٠] ٦٣٤
المناسبة والاتصال ٦٣٤
الجزء الأول: البصائر التي تبين قوة أسلوب الأمثال في القرآن المجيد.......................... ٦٣٩
بصيرة١: الأمثال كاشفة.. ٦٣٩
بصيرة٢: الأمثال ارتقاء ٦٤١
بصيرة٣: أهداف ضرب الأمثال في القرآن ٦٤٤
الجزء الثاني: المشاهد التي تبصرنا بها الآيات حول الفريق الأول من فريقي المنافقين، وهو الفريق الصُّلب الخالص في نفاقه، وضرب الله عز وجل لهم المثل الناري [البقرة: ١٧-١٨] ٦٤٩
المشهد الأول: ظهور قائد المنافقين ٦٥٠
المشهد الثالث: ﴿فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم . ٦٦٤
المشهد الرابع: النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لـمَّا﴾ الخفي ٦٧١
المشهد الخامس: ملء الفراغ بالظلمات: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾..................... ٦٧٩
المشهد السادس: مشهد البصر المفقود ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ٦٨٣
المشهد السابع: ذهاب النور وحلول الظلمة، وعدم الإبصار تمتد من الدنيا إلى الآخرة........... ٦٨٥
المثل وارد في المنافقين لا في الكفار المجاهرين بكفرهم ٦٨٧
المشهد الثامن: الإصرار على الدمار وعدم التراجع عنه ٦٨٩
الصفة الأولى: صمٌّ.. ٦٩٠
الصفة الثانية: بُكْم ٦٩١
الصفة الثالثة: عمي ٦٩١
المثل القرآني يصف حالتهم ويجلّي أوصافهم.. ٦٩٧
صيحات الإنقاذ من هاوية السقوط تناديهم فهل يستجيبون؟!................................ ٧٠٠
المشهد التاسع: ﴿فهم لا يرجعون﴾ نتيجة توضح لنا أن المنافقين لهم أهدافهم في الحياة ٧٠٢
﴿فهم لا يرجعون﴾ فالمنافقون بؤرةُ خيانةٍ ووَكْرُ مكرٍ ٧٠٣

﴿فهم لا يرجعون﴾ فمسلسل الخداع المستمر ٧٠٥

الجزء الثالث: المشاهد التي تبصرنا بها الآيات حول الفريق الثاني من فريقي المنافقين، وهم: الفريق المتردد والمراوغ، وضرب الله تعالى لهم المثل المائي [البقرة: ١٩-٢٠] ٧٠٧

المشهد الأول: مشهد تعدد البدائل النفاقية، وتبادل الأدوار: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ ٧٠٩

المشهد الثاني: الاضطراب الدائب، والتردد الشهواني: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ ٧١٤

المشهد الثالث: صيب كثيف من نواحٍ متعدِّدة: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ٧١٧

المشهد الرابع: الجمال والوبال: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ٧١٩

المشهد الخامس: صيِّبٌ مهدِّدا! ! ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ٧٢٣

المشهد السادس: إحاطة غير قابلة للاختراق ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٧٢٩

المشهد السابع: البرق الخاطف: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ٧٣٠

المشهد الثامن: التلاعب المصلحي ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ ٧٣٢

صُوَر واقعية تطبيقية لتلاعب المنافقين ٧٣٢

المشهد التاسع: القيام في الظلام﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ ٧٣٣

مع الطبري رحمه الله نستلهم التصوير القرآني لحال المنافقين ٧٣٦

المشهد العاشر: النفاق: فن المراوغة الحذرة ٧٣٦

المنافقون والقرآن.. تَشَهِّي وتَشَظِّي ٧٤١

النفاق واختيار الصفقة الخاسرة ٧٤٢

المشهد الحادي عشر: مشهد القوة المحيطة القادرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ . ٧٤٣

إمهال لا إهمال ٧٤٥

المشهد الثاني عشر: القوة المطلقة القاهرة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٧٤٦

قدرة الخالق وقدرة المخلوق ٧٤٧

مشاهد القدرة المطلقة تجعل الأبصار شاخصة ٧٤٧

أصناف الناس في القرآن ٧٤٩

احترس أيها المؤمن أن تكون فيك شعبة أو شعبٌ من النفاق، وقارن الفرق بيننا وبين الصحابة ﷺ ٧٥٠
من سمات الهدي القرآني القويم ٧٥١
تنبيه على التعجل في إيراد معنى غير مقصود ٧٥٢
معاذ بن جبل رضي الله عنه يُبرز مثالًا للمنافقين ٧٥٤
أمثلة لمن ذهب الله بنورهم من غير المنافقين ٧٥٥
فهرس المحتويات ٧٥٨

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية

من أهدافنا:

1) تقريبُ البصائرِ القرآنية لتحقيق البلاغ المبين، بأن تكون البصائرُ أعظمَ وسائل التواصل الحضاريِّ الإيجابيِّ مع ثقافات العالم، ولتمثِّل مركزًا معرفيًّا لنشر الإيمان والسلام العادل.

2) تقديمُ تفسيرٍ تجديديٍّ يظهر الحكمة العظيمة في "تسوير السور القرآنية"، حيث نرى محاور كلِّ سورة في صورة خطية متتابعة، ودائرية مترابطة؛ تقنعك بتماسكها، وتتابع أفكارها، وإحكام بنائها.

3) تقريبُ البصائرِ القرآنية ليتذوق العالَمُ -وخاصة الفئات الشبابية- البينةَ القرآنية، التي تمثِّل الحصنَ الثقافيَّ من الأخطار الفكرية والسلوكية مثل: الإلحاد، والفسق، والإجرام، والغلوِّ.

4) تقديمُ الإعجازِ الواقعيِّ للبصائر القرآنية المجيدة لتوجِّهَ الحياة، وتبني المجتمع البشري بهداياتها، وذلك باستنباط الرؤية القرآنية التي تحدِّد للبشرية -أفرادًا وأمة، وشعوبًا وحكومات- الأولياتِ الحيويةَ.. إنها الأوليات نبصربها كيفية التعامل مع الوجود: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

5) توفيرُ الأجوبةِ التفصيلية العملية التي يدمغ الحقُّ فيها الباطلَ، ويجيب عن الشبه التي ينشرها الطاعنون والشانئون للقرآن المجيد من المستشرقين والمستغربين.

من مشاريعنا:

1) إصدار الكتاب (المُفَصَّل) لبصائر المعرفة القرآنية لكلِّ سورة من سور القرآن المجيد.

2) إصدار الكتاب المختصر للكتاب المُفَصَّل، ويسمَّى (الوسيط).

3) إصدار الكتاب الخاصِّ بشرائح العرض ليناسب الدورات العلمية، والبرامج الإعلامية، ويسمَّى (الوجيز).

4) إقامة دوراتٍ علميةٍ وتدريبيةٍ حول موسوعة البصائر في الجامعات، والمؤسسات المختلفة.

5) إنتاج عددٍ من الإصدارات الإعلامية المصاحبة لنشر ثقافة البصائر القرآنية لدى شرائح المجتمع المختلفة.

6) تدشين العمل في الأكاديمية العالمية لبصائر المعرفة القرآنية.

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com

مكتبة الأسرة العربية
نحو أسرة عربية واعية ..
UFUK neşriyat®
BASIN-YAYIN-DAĞITIM

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

ISBN 978-625-8063-32-5
9 786258 063325